رواية

رُزق حبي

الجزء الثاني من "رُزقت الحلال"

سارة محمد سيف

SE

الطاولات عُلِقَ فوقها الكراسي مقلوبة، والأرض شبه نظيفة بعد كنس الأتربة عنها، ينقصها فقط المسح وماء نظيف بمطهرات، لكن الأمر أتى وعلى جميع العمال الانسحاب من القاعة الرئيسية حتى يأتيهم الإذن بالعودة من أجل استكمال العمل.

الصالة ذات الإضاءة الباهتة وقد اغلقت الألوان المختلفة المنبعثة من الكرة الكرستالية المتدلية من منتصف السقف. لا أجساد ترتطم بسبب شدة أو لمجرد رغبة في التلامس بتبجح. الزجاجات والكؤوس المتخبطة في أنخاب عدة بمعنى أو بدون.. اختفت لترقد إما كحطام في حاويات القمامة أو في أحد الأحواض استعدادًا للتنظيف وبدأ دورة جديدة لها هذا المساء.

المكان مكفر ولا حياة فيه، إلا من الأشخاص المعدودين المتحلقين حول إحد الطاولات الجانبية وقد تُرِكَت كراسيها قدر عددهم بالضبط قيد الاستخدام، اجتماع سري وغير مسموح لنفس زائدة غير الحاضرين بمعرفة ما يدور.

-وصلت لإيه فالموقع اللي متابعه؟

هكذا توجه الرأس الأكبر في الجلسة بالحديث إلى من يعمل لديه وتحت أمرته بطريقة توحي بالمعرفة الحقيقية لما يحدث لكن مع إعطاءه فرصة إضافية للتعليق. انتفش ريش شادي من حجم المهمة الموكلة إليه، مع جدارته في تنفيذها.

غمزة وضيعة من عينه الخبيثة سبقت كلامه المطمئن للرئيس: كله ماشي فلّ الفل، ومش بعيد أرجع ببونبوناية زيادة.

حدجه بنظرات ثاقبة لمهلة قبل أن يعلّق: مش عايز مشاكل، أهم حاجه تخلص اللي قولتلك عليه.. بحذافيره!

استدار إلى المجاور لشادي في جلسته، بريق سلساله الذهبي يهز كثيرًا من ذكورته المفترُضة، يصبح هذا البريق أكثر تنفيرًا حينما يلتقي بلمعان خاتمه الذهبي كذلك.

خاطبه محذرًا: لازم بناتك يكونوا جاهزين إنهارده، الشغل كتير عليهم بسبب سفر شادي، ومش حمل مخاطرة بتخريجهم فـ غيابه.. مش ناقصين وجع دماغ.

أومأ موافقًا: بوص، ما تقلقش.. مانو، وبنات مانو قدها وقدود..

كان هناك إثنان آخران من نفس الطينة، تحدث إليهم للتأكد من حسن سير الأوضاع، لا يختلفان كثيرًا عن المهمات الموكلة إلى شادي ومانو، بأفضلية الأول في مهمات أخرى أكثر خطورة وأهمية. يتولى كل واحد شئون عدة نساء، يأويهن في منزل معزول نسبيًا عن الزحام السكأني، يرافقهن إلى الملهى –حيث الإجتماع حاليًا-، يلبي طلباتهن –المتاحة والمقبولة في عُرفِهم-، يتابع حاجتهن الطبية الدورية أو الإضطرارية، يبقي عينيه عليهن، يحضر غيرهن إن احتاج.

أتى الدور على نوح، تطلع أحمد إلى ورقة مبسوطة أمامه داخل ملف ملون قبل أن يوجه إليه حديثه: عندك عجز فـ البنات، أقرب وقت لازم يكون عندك واحدة أو إتنين زيادة.. في موسم داخل ومحتاجين خدمات أكتر.. والبنت اللي ماتت نتيجة النزيف فـ الإجهاض عملت مشكلة بموتها أكبر من حملها نفسه.. هتتصرف؟

اكتفى بلمعة ذئبية من عيونه صاحبت ابتسامة صفراء كالزعفران، مرة كالعلقم. اعتبرها

الرجل الأكبر إشارة كافية لتلبية مؤكدة. اعلن انتهاء الإجتماع بنهوضه ولحق ساعده الأيمن ظله، يختلي الإثنان في غرفة المكتب.

تناول رامز الملف من يد أحمد، دون أمر شفهي اتجه إلى الخزانة المتواجدة في أحد جوانب الغرفة، وضعه حيث مكانه المفترض ثم سحب آخر يمده إلى رئيسه قبل أن يجلس أمامه في متابعة للإجتماع بشكل أكثر خصوصية وسرية.

-الملف اللي بين إيديك فيه تفاصيل اللي وصله شادي، سواء اللي هو وصلهالنا أو اللي عرفناها بطرقنا التانية.. مافيش اختلاف واضح بس...

رفع إليه أحمد نظرات آمرة بالمتابعة وعدم التوقف، استرسل: بيلف على بنت هناك، حاليًا بنحاول نجيب تفاصيل أكتر عنها.

أوقفه بحزم: لو فيه احتمال يكون وراها مشاكل؛ تبعده عنها فورًا، اللي بعته عشانه أهم من أي بنت.. البنات فـ كل حته ومش هتقف عليها.

أيَّده بهزة بسيطة من رأسه: ودا اللي بأحاول أوصله، عمومًا اللي عايزه هيوصل خلال يوم أو يومين وقتها هيكون لنا تصرف تاني.

***

أخفت وجهها خلف ذراعيها تحاول منع العدسات من التقاطها، هتفت بحنق: بس بقى، كفاية تصوير!

حاول إزاحة ذراعها بيده الحرة فيما الأخرى منشغلة بحمل كاميرا حديثة بخاصية إخراج الصور فورًا، هتف بها ضاحكًا: بطلي رخامة عايز أصورك.

صاحت بغضب طفولي: تصور إيه بس، دا أنا شعري منكوش ولبسي ملغبط.

صرح بلهجة ظهر عبرها حبه الشديد: أنتِ بأي شكل بتبقي قمر يا كادي، وبعدين الصور دي هتبقى لينا إحنا وماحدش هيشوفها غيرنا و...

رفعت عينيها متوجسة وأنزلت ذراعهاأحدون وعي، حدقت به فزعة: وإيه؟، سكتْ ليه؟

أبعد خصلة ثائرة عن وجنتها المحمرة موضحًا: وُولادنا.

تنهدت بحزن وأخفضت ناظريها: أيوه، بس إمتى هيجوا بقى؟

أنضم جوارها على الأريكة ثم لف ذراعه حول كتفيها، رفع ذقنها عاليًا بسبابته باسمًا بحنان حزين: لما ربنا يريد.

ترقرقت قطرات الدمع بين جفنيها: بس أنا نفسي أبقى أم أوي.

ابتسم: وأنا نفسي أبقى أب بردو، لكن دا نصيب ورزق.. وإن شاء الله لما يجي الوقت المناسب هناخده

أرخت رأسها على كتفه تلتمس مواطن الأمان بين دقات قلبه المتسارعة لأجلها، زفرت بحرارة: يا رب قريب.

تدارك نفسه متعجلًا قبل أن تحتل الدموع مقلاتيه أيضًا، نهض قائلًا بجدية مزيفة: أنتِ ناوية تخديني فـ دوكه ولا إيه؟، هأصورك يعني هأصورك.

قطبت جبينها: ياسين بس بقى، قولتلك مش عايزة أتصور.. وكمان وأنا معيطة؟، حرام عليك بجد.

قهقه غامزًا إياها: خلاص إيه رأيك نتصور سيلفي؟؟

شاركته الضحك ثم رفعت سبابتها محذرة: بس أوعى تنزلها على الفيس.

دفع رأسها للجهة الأخرى بأطراف أصابعه: أنتِ هبلة يا بت؟.. هو بردو معقول أخلي حد غريب يشوف القمر دا؟، عايزاني أخد عين ولا إيه؟

اعتدلت في جلستها قائلة بسعادة طاووس عَلِمَ جمال ريشاته الملونة: طبعًا، متجوز قمر.. أكيد هتتحسد أومال إيه؟

رفع أحد حاجبيه متعجبًا: ومين قال إن كان قصدي عليكِ أساسًا؟ تعجبت: أومالحقصدك مين يعني؟

عدلَّ وضع ياقته الوهمية: أنا طبعًا.

وضعت يديها على خصرها حانقة: لا يا شيخ؟، خلاصحابقى أتصور لوحدك هِهْ.

أسرع يسترضيها: لا لا، خلاص خلاص أنتِ اللي قمر، حلو كدا؟ أخرجت له لسانها قائلة بشقاوة: أه.

- طب يلا بقى نتصور، دي لو كانت صورة مرسومة كان زمانها خلصت.

اقتربا من بعضهما وقد أخرج الإثنان لسانيهما في إحدى الصور ثم غيرا وضعيتهما إلى عدة أوضاع أخرى، وبدأا يداعبان بعضهما بمرح؛ فتارة يبعثر لها خصلات شعرها أكثر وتارة تقوم هي بعضه، كل ذلك والكاميرا في وضع التصوير المتعدد التلقائي والصور تتناثر فوق أرضية الغرفة مكللة لحظاتهما السعيدة بلمسة جمالية إضافية.

***

فتاة تجاوزت منتصف عقدها الثانيبعام تجلس فوق فراشها أمام حاسوبها المحمول تقرأ إحد المقالات الإقتصادية التي تختص بمجال تخصصها وتدريسها بالجامعة، سمحت للطارق بالدخول وهي ترفع وجهها باسمة وتعدل وضعية نظارتها فوق أنفها الصغير.

-اتفضلي يا ناهد.

دلفت إلى الحجرة سيدة في أوائل الأربعين، يبدو عليها إهتمامها بنفسها، ترتدي بذلة بتنورة واسعة بينما يعلو رأسها حجابًا عقدت نهايته حول رقبتها، مثال لسيدة الأعمال العصرية؛ فرغم تقدم العمر لم تهمل أي شيء يخصها ما عدا إتخاذها زوجًا وإنشاء عائلة خاصة بها.

ابتسمت متسائلة: أنتِ كنتِ عارفه إنها أنا؟

ضحكت الفتاة: طبعًا يا نوني هو أنا مش هأعرف خبطتك بردو؟

أومأت جالسة على حافة الفراش وقد جذبتها أفكارها بعيدًا عن شاطئ الواقع.
تنهدت الفتاة ثم أغلقت شاشة حاسوبها ووضعته جانبًا قبل أن تقترب منها: مالك يا ناهد؟ إيه اللي قلقك أوي كدا؟

زفرت بشدة: أخوكِ.

لوت الفتاة شفتيها: أنتِ لسه فاكره إن كادي مش مناسبة لياسين؟

قطبت غاضبة وقد فقدت السيطرة على أعصابها بمجرد طرق الاسم مسامعها: كادي؟؟ دا حتى اسمها بايخ زيها!، إيه الأسامي المنيلة دي، مالها الأسماء بتاعتنا السهلة يعني؟

قهقهت: هو كان بإيديها يعني يا نوني؟

صفعتها على فخذها مؤنبة: بس يا بنت.. طب احترمي فرق السن على الأقل، إيه نوني دي؟

غمزتها مغازلة: سن إيه بس يا جميل، دا اللي يشوفك يقول أختي الصغيرة مش الكبيرة يا نوني يا جامد.

أنبتها ناهد: اعقلي يا آية، دا منظر معيدة؟!

-هههههه يعني دا منظر واحدة عدت الأربعين؟

تنهدت بقلة حيلة:

-مافيش فايدة فيكِ، المهم أنا مش عارفه أعمل إيه مع أخوكِ، نفسي أعرف إيه اللي عاجبه فيها.. ومتمسك بيها على إيه

تنهدت آية وجاوبتها بهدوء عاقل:

عشان بيحب يا ناهد، عارفه يعني إيه بيحبها؟، يعني مهما غلطت ومهما عملت مش هيشوف فيها العيوب اللي أنتِ شايفاها.. بالأصح هو مش هيهتم إذا كانت موجودة فعلًا ولا لا، وبعدين كلنا فينا عيوب وماحدش كامل إشمعنه هي عايزاها تبقى كاملة؟ أشارت إلى صدرها وُلامتها:

-أنا بردو قولت كدا؟، آية.. أنا بحكم خبرتي في الناس متأكده إنها مش زي ما هي مبينه لحد دلوقتي، أنتِ وياسين مهما كبرتوا مش هتبقوا فـ خبرتي.. أنا مر عليا أشكال وألوان، بس مسيركوا تعرفوا إن معايا حق.

حاولت آية تغيير مسار الحوار حتى لا يتخذ موضعًا متحيزًا، وقد قررت اللجوء إلى المزاح:

-أنتِ خلاص بقيتي حماه يعني.

نهضت ناهد متجهة إلى النافذة تتطلع منها إلى حديقة المنزل، ذلك المنزل الذي ضمها مع أخويها منذ الصغر.

تذكرت خوفها الشديد عليهما، كان ياسين يتفهم ذلك مما يدفعه إلى التصرف برزانة منذ الصغر حتى لا تقلق بشأنه ويكون تركيزها الأكبر على شقيقته الصغرى. ياسين في

التاسعة والعشرين الآن أي أن فارق العمر بينهما ليس كبيرًا كفاية لتصبح والدته، ومع ذلك هي تعتبره طفلها الصغير.

لقد كانت آية في طفولتها منبع قلقها أما الآن انقلب الوضع؛ تعقلت الصغيرة وطاش البالغ.

أفاقت على يد شقيقتها تمسك بكتفها، تجذبها من الغرق في محيط الذكريات: نفسي أعرف إيه اللي خلاكِ تاخدي الفكرة دي عن كادي؟

-أخوكِ على طول كان بيسمع الكلام، أي حاجه بأقوله عليها كان بينفذها إلا معها.. دي أولُ مرة يعارضني فيها، إتجوزها رغم إني حذرته كتير منها.

استدارت إليها آية متعجبة: يعني كل دا عشان أتجوزها وقالك لا؟

علت نبرة ناهد توضح: لا يا ذكية، افهمي، دا كان أهم وأخطر قرار فـ حياته ومع ذلك أتهور وما أخدش وقته فـ التفكير، هو ماسك الشركة من زمان وكلحقراراته هي اللي بتمشي وبيقولي لا طبيعي؛ عشان مصلحة الشركة بس دا بعد ما يقنعني مش غصب عني، لكن هو إتجوزها من غير موافقتي.

-مش يمكن عشان شايف الموضوع دا يخصه هو؟.. يعني مش هيأثر عليكِ أو عليا فـ حاجه؟

ضحكت مستهزئة: أه، بأمرة إني دلوقتي عايشة لوحدي بعيد عنكوا مش كدا؟

-هو حاول معاكِ كتير بس أنتِ اللي نشفتِ دماغك، أنا مش عارفه ليه تسيبي البيت؟، مش بتحبيها خلاص ما تتعامليش معها لكن مش تسيبي البيت اللي كان بيتك قبل ما أنا أو ياسين نتولد حتى.

-ما كنتش قادرة أشوفها قدامي وهي الفايزة بعد ما أخدت ياسين.

-أنتِ أخته يا ناهد مش مراته عشان تاخده منك.

-لما أبقى عايشة فـ حته وهو فـ حته تانية.. من غير ما يسأل عليا وكأني ماكنتش فـ حياته.. يبقى أخدته مني.

-بصراحة مش عارفه أقولك إيه.

ـما تقوليش حاجه، أنتِ بردو مش فهماني بس هتفهميني لما يجي الوقت المناسب

ـطب وهتعملي إيه دلوقتي؟

ضيقت عينيها مستغرقة في التفكير وأجابتها بهدوء مقلق: هألاقي طريقة، مسيري ألاقي

توجست من نبرة أختها التي تسمعها لأول مرة: ما تقلقينيش أكتر يا ناهد

أخفت ناهد تعبيراتها سريعًا ورسمت إبتسامة على وجهها: ما تخافيش، أومال ياسين فين دلوقتي؟

ـمع كادي فـ جناحهم.

ـطيب هأروح أخلي دادة عنبر تناديله عشان عايزاه فـ شغل ضروري.

قبل أن تغلق الباب خلفها استدارت وكأن هناك ما طرأ على رأسها فجأة: صحيح.. لسه مافيش خبر عن حمل الهانم؟

هزت رأسها بحزن: لا مع إنهم هيتجننوا على بيبي بس لسه مافيش حاجه.

ابتسمت ناهد بسخرية: بقالهم أربع سنين ولسه ما بانسش إن في حاجه مش طبيعية؟..

مش بأقولك.. فيها حاجه مش مريحاني

ـحرام عليكِ ما تظلميهاش.

همهمت مغادرة: يا خبر إنهارده بفلوس بكره يبقى ببلاش.

***

مطبخ شديد الإتساع، به كل ما هو حديث، تناوبت ألوانه بين درجات البني والأبيض. تجلس امرأة على مشارف الستين حول المنضدة التي تتوسط الغرفة، تقشر الخضراوات وتعدها للغسل من ثم التقطيع فيما يقف رجل يرتدي ملابس طباخ يقلب المقادير داخل القدر فوق النار.

-عنبر، ناوليني الصينية المدورة.

تركت ما بيدها وذهبت تحضر له ما أراد، وضعته أمامه وعادت لمجلسها تكمل ما كانت تفعله.

تأكد من وضع المقادير الصحيحة بالقدر والتفت إلى ما جلبته صائحًا بحنق: مش دي يا عنبر، أنا عايز التانية.. الغويطة، هأعمل إيه بالمسطحة؟!

أصابها الضيق فهتفت: ما تقول مرة واحدة أنت عاوز إيه.. هو أنا بأشم من على ضهر إيدي؟

كظم غيظه: طب روحي هاتيها.

أشاحت بيدها التي تحمل السكين بلا مبالاة: أهو المطبخ عندك.. جيب اللي أنت عاوزه.

قبل أن يعاود الحديث دخلت ناهد ضاحكة: أنتوا لسه بتتخانقوا زي ما أنتوا؟، ناقر ونقير ما أتغيرتوش.

ألقت ما بيدها واتجهت إلى ناهد فرحة بقدومها: ست ناهد؟، يا مرحب يا مرحب وأنا أقول البيت نور كدا ليه.

ناهد مبتسمة بسعادة: هو أنتِ كنت فاضيه تاخدي بالك من النور اللي نور ولا غيره؟، كفايه عليكِ خناقك مع إسماعيل اللي ما بيخلصش.

-على حطت إيدك يا ست ناهد، هو اللي عايزني أفهم كل حاجه لوحدي.

تدخل إسماعيل بحنق: ما هو أنتِ لو بتركزي كنت عملتِ اللي بأقوله من غير ما تتعبيني وتتعبي نفسك.

عنبر بغضب: يعني هو أنا بالي رايق؟ ما أنا شغاله زي زيك وأنت عايزني أعمل شغلي وأساعدك فـ شغلك، هو أنا بمية إيد ولا بمية مخ.

ناهد موقفة الجدال: خلاص خلاص، أنتوا هتتخنقوا قدامي ولا إيه؟

إسماعيل بخجل: آسف يا ست ناهد

عبرت عنبر عن ندمها: معلش حقك عليا، شوفي أنتِ كل فين وفين لما بتيجي وإحنا بنوجع دماغك إزاي.

-ولا يهمك حصل خير، ناديلي ياسين من أوضته عايزه أكلمه.

أشارت بأصبعها إلى عينيها على التوالي: من عينيا الإتنين، بس مش أعملك فنجان قهوة من البن اللي بتحبيه الأول؟

قبل أن تجيبها اندفعت كادي إلى المطبخ قائلة بتسلط: عنبر، اعمليلي مج نسكافيه بلاك من غير ولا نقطة سكر وهاتيهولي على أوضتي بسرعة.

لاحظت كادي وجود ناهد فالتفتت إليها قائلة بابتسامة مستهينة: ناهد؟، أهلا.. جيتي إمتى؟

عقدت ذراعيها وقالت بتحدي: دا بيتي، يعني أجي وقت ما أنا عايزه وأمشي وقت ما أنا عايزه، مش هأخد إذن من جنابك قبل ما أعمل حاجه منهم

لوت جانب شفتيها مدركة الكره الكامن داخل الآخرى صوبها، ففضلت التجاهل: زي ما تحبي.

ثم استدارت إلى عنبر لتتأكد من أن طلبها سينفذ: ما تنسيش النسكافيه يا عنبر.

ناهد بغضب شبه مكتوم: هي عنبر دي كانت بتلعب معاكِ فـ الشارع عشان تناديها باسمها حاف كدا؟

كادي متعجبة: أومال أناديها إزاي؟

تدخلت عنبر تحاول أن تحدث مشادة بين المرأتين وتكون أحد أطرافهأحدون ذنب: خلاص يا ست ناهد، ما جراش حاجه.

ناهد مستديرة إلى كادي: لا جرا، أولًا أنا ما سمحتلكيش يا هانم تناديني باسمي كدا بدون ألقاب.. وعنبر فـ سن والدتك يعني المفروض تكلميها باحترام.. ولا إيه؟

انضم إليهم ياسين متعجبًا: هو إيه الدوشة اللي فـ المطبخ دي؟

أردف حين لمح شقيقته: ناهد؟.. أهلًا مش تقوليلي إنك جيتي؟

لاحظ الكهرباء التي تسير في الجو خصيصًا الصادرة بين زوجته وشقيقته الكبرى؛ مما دفعه للسؤالحبجدية: في إيه؟

كادي بحزن: ناهد زعلانه إني بأناديها باسمها بدون ألقاب.. مع إني والله مش قصدي حاجه يا ياسين.. أنا بس باعتبرها أختي زي ما هي أختك بالظبط فـ بأناديها زيك، وكمان أنا مش عارفه أقول لعنبر إيه؟، فـ ناديتها باسمها وهي عمرها ما قالتلي إنها بتزعل من دا.

سأل ياسين بصرامة: عايزاها تناديكِ بإيه يا ناهد؟

ناهد بتحدي: مش عايزاها تكلمني أصلًا.

هز كتفيه بعدم اهتمام: اللي يريحك، وأنتِ يأحداده مضايقك إن كادي تناديكِ باسمك؟

تبادلت عنبر النظرات مع ناهد قبل أن تقول بخنوع مخفضة رأسها: لا يا ياسين بيه.

عاد نظره إلى أخته: يبقى الموضوع منتهي.. ولا إيه رأيك يا ناهد؟

كزت ناهد على أسنانها: اللي تشوفه يا ياسين بيه، ما أصل أنا خلاص راحت عليا وما بقاش ليا لازمه.

-ليه بتقولي كدا؟

-لما تمشي مراتك وكلامها عليا يبقى مافيش غير كدا.

زفر بتعب: أنتِ اللي عايزه تعملي مشاكل لمجرد إنك مش بتحبيها، ومش عشان أنتِ ما

بتحبيهاش أنا لازم بردو أحس زيك، أنا اللي عايش معها وأنا اللي أقرر إذا كنت أحبها ولا لا.

نظرت إليه وقد صعقتها كلماته: بقى أنتوا حياتكوا اللي هاديه وأنا اللي بأعكرها؟.. ماشي يا ياسين بيه يا محترم.. بجد تربيتي نفعت معاك أوي.

تدخلت عنبر بتوتر محاولة تخفيف حدة الوضع: هو مش قصده كدا يا ست ناهد.

تناولت حقيبتها: لا قصده يا عنبر، وع العموم الرسالة وصلت، أوعدك من دلوقتي مش هأعكر حياتك أكتر من كدا واعتبرني فـ أجازة مفتوحة ومش عارفة هتخلص إمتى.. سلام.

راقب مغادرتها المسرعة ضاربًا يده بقوة فوق طاولة المطبخ؛ مما أدى إلى تساقط بعض الخضراوات أرضًا وتهشم طبق زجاجي إثر سقوطه.

ضمته كادي من الخلف قائلة بحزن: آسفة يا ياسين؛ ما كانش قصدي كل دا يحصل بسببي، سامحني.

استدار إليها يضمها إلى صدره: لا أنتِ مالكيش ذنب، تهدا الأول وبعدين هأبقى أحل معها الموضوع.

قبلت خده بوداعة ولطف: إن شاء الله هتتحل يا حبيبي.

غادرا المطبخ صاعدين إلى غرفتهما، فاليوم إجازة ياسين الوحيد حيث يقضيه في المنزل برفقة زوجته الحبيبة، يعوض تقصيره تجاهها خلالحباق الأسبوع.

تبادل الزوجان العاملان نظرات الشفقة على سيدتهما ناهد تصحبها نظرات الحقد على تلك الـ"كادي"؛ فلولا مجابهتها الندية لناهد كلما تقابلتا لاستطاعت اكتسابها في صفها بسهولة، لكنها تتلاشى ذلك بحدة غريبة. عادا إلى عملهما.. فما باليد حيلة.

***

قادت سيارتها والغضب لا يترك قلبها بل كلما تناست ما يزعجها يأتي ذلك الشيطان اللعين ينفخ الضغائن في صدرها فيتأجج غضبها أكثر من السابق.

لقد كانت كأمٍ له، أهذه طريقته ليخبرها بأن دورها أنتهى في حياته؟، هل ستفعل بها آية كما فعل عندما تتزوج هي الأخرى؟، أهذا جزاءها لأنها رفضت أن تقيم لها حياة مستقلة بعيدًا عنهما؟، خافت أن تحضر زوجًا قد يسيء إلى أحدهما أو كليهما.. ليجلب ياسين في النهاية بمن تفعل بها ما خشت عليهما منه؟

قررت أن تتجه إلى القرية التي نشأت بها قبل أن ينتقل والدايها إلى العاصمة. كانت حينذاك تبلغ الثالثة عشرة ولم تكن والدتها اكتشفت بعد حملها بولدها الثاني.

منذ انتقلوا إلى القاهرة لم تحضر لذلك المنزل إلا مرات معدودة، حتى أمتنعت تمامًا منذ كان ياسين بالإعدادية.

هناك حيث الخضرة المنتشرة بكل الأرجاء والزهور التي يفوح عبقها في الأجواء؛ عسى الاستجمام يعيد إليها الهدوء الذي أفتقدته خلال السنوات الأخيرة.

***

تجاوز الاستقبال الحافل في ظاهره والمليء بالترقب والتوتر في باطنه، جو لم يجربه قبلًا وتأكد الآن من عدم تقبله له مطلقًا في المستقبل. لكن ليس أمامه بديل؛ فهو مجبر عليه.

صرف عمال المنزل بعدم أنباءهم باستقرارهم في أشغالهم، لا رغبة لديه في استبدإلحاحد منهم إلا من يظهر عدم الولاء أو يقصر في عمله، وكان واضحًا في تهديده الحازم، الخيانة خط أحمر بأشد درجاته الفاقعة والملطخة بالدماء.

في الحقيقة، ليست تلك أول مرة يجمع فيها العاملين كي يبث داخلهم الأمان ناحيته، فعلها مسبقًا مع من هم أكثر من كونهم عمال منزل وأشدهم خطرًا، فريق الإمبراطور للأعمال المخالفة للقوانين على رأسها تهريب الذهب، خصوصًا القديم منه المتواجد في المقابر القديمة الخاصة بالمصريين القدماء والفراعنة.

أغلق باب غرفته خلفه، متجهًا إلى الحمام كي ينتعش؛ فجلسة الطائرة عائدًا من إيطاليا إلى موطنه الأصلي تطلبت الكثير من الإعدادات، غمر نفسه أسفل الماء الملتهب، وقد تصاعدت الأبخرة بشكل مكثف، جلده السميك الأسمر لديه قدرة كبيرة على التحمل.

يعلم أن ما قابله من الموظفين ليس حبًا فيه أو احترامًا له، بل خشية منه ودراسة لقدراته، فإن تراخى ستدق عنقه، وإن صلب عوده وأسر كلمته عُمِلَ له ألف حساب.

الخدم ليس لهم أمان –وإن خدموا والده قبلًا-، فالمصالح تتصالح، والمال يغلب سواه من حقوق الوفاء.

خرج من الحمام يلتف بمنشفة ضخمة، يطالع ما بين عينه اليسرى وحاجبه من جرح قديم إلتئامه لم يخفه عن الأعين، إنه ابن الإمبراطور، هو «عاصم نجيب صيدن»؛ واسم صيدن في العربية.. يعني الإمبراطور لدى الإيطاليين، الذين أطلقوا على والده هذا الاسم مما ساعده في فرض سيطرته وإبراز قوته وإن افتقدت لبعض من قوة اللقب.

ارتدى سروال رياضي وفوقه تي-شيرت داكن. قرر الهبوط إلى غرفة المكتب يبحث بين أغراض والده، علّه يجد ما يفيده في الفترة القادمة، كان الوقت بالكاد يقارب الثامنة مساء مما جعله يتعجب الصمت المحيط، برر ذلك باتساع القصر وحديقته فهو يقع على أكثر من إثنين من الأفدنة.

العتمة داخل غرفة المكتب إلا من بصيص ضوء الإنارة بالخارج يتسلل عبر النوافذ منزوعة الأستار، لم تمنعه من استشعر حركة خفيفة من حوله، تنبهت حواسه بالكاد حين هجم عليه ثلاثة من العمالقة ذوي الأجساد المفتولة، لم يمهلوه فرصة يستدرك وعيه، فترك غريزته تنقذه مع الكثير مما تعلمه من فنون الدفاع عن النفس.

درأهم جميعًا أرضًا ونفض ذراعيه، خرج من عراك دام سبع وأربعون دقيقة بفم نازف وكدمات في أماكن متفرقة من جسده.

نفضحكفيه بعدما استطاع تقييد الثلاثة سوية ثم غادر متمتمًا: الواحد اتوسخ، مضطر استحمى تاني.

عقب إغلاقه الباب خلفه، جسد رجل يجلس فوق أحد المقاعد في زاوية شديدة الإظلام، في المساحة الفاصلة بين رواق مكتبه والسلم الداخلي للقصر، يضع ساقًا فوق ركبة الأخرى مرحبًا بصوت أجش وابتسامة باردة: أهلًا بيك يا ابن الإمبراطوار.. إختبار كان لابد منه، ينتهي بموتك أو حياتك، مافيش نهاية تالته.

***

صرح ضخم يتوسطه مبنى شاهق الإرتفاع وعلى جانبيه مبنيين أقصر بينما الحدائق والزرع الندي يحيط بكل ذلك حتى حدود البوابة الرئيسية، نافورة تقطع الطريق بين البوابة الأمامية والباب المؤدي إلى دواخل المبنى الأطول دافعًا الحافلة الخاصة بالموظفين للإلتفاف حولها كي تصل إلى هدفها.

اسم الشركة يرتفع على قمة المبنى المرتفع، مخطوط بخط ذهبي فوق حجر رخامي بجوار البوابات الرئيسية.

مكاتب جهزت على أحدث طراز، توفر الراحة للعاملين بها حتى ينتجوا أقصى ما لديهم في استرخاء نفسي، لكن التوتر بدى في الحركة الغريبة للموظفين؛ يبدو أن قلق أرباب العملحقد انتقل إليهم وأخل بالنظام المريح المتوفر داخل المكان.

وقفت آية أمام مكتب شقيقها تعاتبه على ما بدر منه خلال آخر زيارة لأختهم الكبرى : يا ربي منك يا ياسين، يعني خلاص كان لازم تقولها الكلمتين دول؟، أدينا مش عارفين راحت فين.

صاح بغضب: يووه يا آية.. بأقولك إيه؟ أنا مش ناقصك دلوقتي.

تراجعت مهدئة ثورته: خلاص خلا، سكت أهو.

عقدت ذراعيها تراقبه بينما يجلس خلف مكتبه متنهدًا بإختناق؛ علّه يستعيد بعضًا من هدوءه: كلمتِ كل صاحباتها؟

-ما شافوهاش من اليوم اللي جاتلنا فيه، يعني من الخميس.

-سألتي الموظفين لتكون جات ومشيت بسرعة.

-سألت وما سبتش حد، بردو ماحدش شافها خالص.

-في سفر تبع الشغل اليومين دول؟

-لا مافيش غير الرحلة بتاعتك كمان أسبوع.

-هي قالتلي هتاخد أجازة مفتوحة يمكن تكون سافرت لوحدها.

-الباسبور لاقيته فـ الشقة لما روحت أدور عليها هناك، هي حتى ما أخدتش حاجه من هدومها.

-يادي النيلة! يعني مافيش فايدة؟، هتكون فين بقالها أسبوع يعني؟

حركت كتفيها بتعب ورمت جسدها في مقعد أمام مكتبه: والله عصرت دماغي ومافيش نتيجة.

أخفى ياسين وجهه بين كفيه داعيًا: يا رب أحفظها يا رب

استمرت تتظاهر بالتماسك حتى لا تُلقي هم حزنها وقلقها أيضًا على كتف شقيقها، لكن رؤيته بهذه الحالة أشعرتها بغصة داخلحقلبها تحثها على البكاء، حتى تفرغ ما بداخلها من ضغط.

دخل شاب في عمر شقيقها، يملك شعرًا بنيًا، يرتدي جينزًا وقميصًا قمحي اللون مما أبرز لون عينيه العسليتين: لسه مافيش خبر؟

لم يجبه ياسين بينما اكتفت آية بإيماءة يائسة من رأسها أجابت تساؤله.

لمح الشاب الدموع المترقرقة بعينيها فأشفق على حالها، هم أن يخفف عنها حينما ارتفع رنين الهاتف الخاص بالمكتب.

أجاب الشاب عندما لم يجد أي استجابة منهما: ألو.. أيوه هنا أي خدمة؟.. مستشفى إيه؟.. طب ممكن العنوان؟.. شكرًا مع السلامة.

رفع ياسين رأسه مستغربًا نبرته المتوترة: في إيه؟

حرك مقلاتيه بين الشقيقين المنكوبين مجيبًا بأسف: ناهد عملت حادثة وهي دلوقتي فـ مستشفى في سوهاج.

***

دفع باب المشفى بقوة متجهًا إلى مكتب الُاستقبال، سأل العاملة بنبرة قلقة لاهثة: ناهد الناصري موجودة هنا؟

-لحظة اتأكد لحضرتك.

ضغطت بضعة أزرار على الحاسوب المثبت أمامها قبل أن تجيبه بنبرتها الرزينة: أيوه، أوضة 332 الدور التالت آخر الطرقه.

بمجرد إنهاءها للجملة انطلق صاعدًا إلى الطابق الثالث على السلالم؛ فلم ينتبه لوجود المصعد أو بالأصح لم يكن يملك ما يكفي من الصبر ليضيعه بالتطلع إليه أو إنتظاره، نهب الدرجات كل ثلاثة في خطوة متعجلًا الوصول.

أوقف الشاب الذي تلقى المكالمة آية عن متابعة طريقها خلف شقيقها: تعالي نطلع إحنا فـ الأسانسير.

سارت معه بصمت كأنها تحت تنويم مغناطيسي، صعدا بالمصعد برفقة بعض الزوار الأخرين وقد كان الجو مشبع بالصمت.

هبطا من المصعد لكنه تفاجئ بتوقفها، فبادرها بالسؤال عن السبب: وقفتي ليه؟

سقطت دمعة لا إرادية على خدها: خايفة.

تنهد: إن شاء الله تلاقيها بخير.

-محمد.. ناهد لو جرالها حاجه أنا مش عارفه هيحصلي إيه.

-يا بنتي وليه التفكير دا؟، إن شاء الله مش هيكون فيها حاجه أطمني.

-دي أختي وأمي وأبويا فـ نفس الوقت، أنا ماشوفتش بابا وماما من لما كان عندي سبع سنين.. من ساعتها هي بالنسبة ليكِل دا.

-عارف صدقيني، وأنتِ كمان عارفه أنا بأعزها وبحبها قد إيه، دي أختي الكبيرة زي ما هي أختك بالظبط، ممكن تهدي بقى وتعالي نشوف أخوكِ دا اللي صوته طلع وهيلم علينا المستشفى؟

قصدوا جهة الصوت، وجدوا ياسين وقد أمسك بتلابيب الطبيب يصرخ في وجهه بعنف، يرجه كزجاجة الزبادي المخفوق قبل الشرب، عيونه تكاد تخرج من محاجرها وأودجه منتفخة، فيما العرق يتفصد من فوديه. تدخل محمد مسرعًا يحاول الفصل بينهما:

-في إيه يا ياسين؟، ما براحه يا عم!

أجابه غاضبًاأحدون أن تترك نظراته البرية ملامح الطبيب، يستشهد بصديقه على جنون الواقف أمامه بإدعاء حمل شهادة من كلية الطب: البيه بيقول إن أختي مش عايزه تشوفني، أنت تصدق الكلام دا بردو؟

تبادل محمد وآية نظرات لا تشك في أن هذا حدث بالفعل؛ فيبدو أنه لم يضع في اعتباره المجادلة الأخيرة وما سبقها.

أومأت آية منسحبة بحرج: طب أنا هادخل أشوفها.

حثها مشجعًا وكله ثقة في افتراء الطبيب وكذبه: أيوه ادخلي؛ عشان الدكتور دا يعرف هو بيقول إيه.

تركتهم آية مسرعة، نظر الطبيب إلى محمد قائلًا باعتذار: صدقني دا اللي حصل.. لما الممرضة قالتلها إن أخوها برا، قالت مش عايزه أشوفه وأنا ما أقدرش أضغط عليها وهي لسه خارجة من حادثة.

ياسين ثائرًا باستنكار لمهاترات الطبيب الشاب: فيه أخت مش بتبقى عايزه تشوف أخوها يعني؟؟.. أستغفر الله العظيم.

محمد مغيرًا الحديث: وهي عامله إيه دلوقتي؟

الطبيب: الحمدلله جات سليمة، شوية رضوض مش أكتر، يومين وتخرج،إحنا هنخليها تحت الملاحظة عشان لو في أعراض جانبية ظهرت.

-يعني مش هنحتاج ننقلها مستشفى تانيه؟

-لا، مالوش لزوم، الحالة مش محتاجه.. عن إذنكم عشان أشوف شغلي.

خرجت آية تتجنب النظر إلى قيعان عيون أخيها، همهمت بصوت خافت آسفة: مش راضية تشوفك يا ياسين.

تراجع مكسورًا، تهدل كتفيه بغتة، لقد أصابه ذلك في مقتل، أي أحد إلا هي، أمه قبل أن تكون أخته ترفض رؤيته؟!، أشفق عليه صديقه فبادره: خلاص أدخليلها أنتِ يا آية وإحنا هننزل نشرب حاجه فـ الكافيتريا ونيجي.

وافقته فجرَّ محمد صديقه من ذراعه إلى الأسفل مبتعدًا به عن غرفة ناهد. جلسا بعدما طلب محمد فنجانين من القهوة.

-هي مجروحة منك، أنت يظهر مش واخد بالك.. بس شغلك وتعاملك مع الناس ورجال الأعمال خلاك ناشف زيادة، وكلامك الجامد اللي بيمشي معاهم مش هيعجب ناهد، وأنت عارف هي حساسة إزاي؛ فما استحملتش منك كلمتين.

تنهد بتعب ماسحًا وجهه ورأسه بيديه: طب وهأعمل إيه دلوقتي؟

-اصبر عليها لما تهدا شويه وتفوق من اللي حصلها وهتلاقيها نسيت كل حاجه، ناهد قلبها طيب وأنت عارف كدا، مش هيهون عليها تفضلوا زعلانين من بعض.

-يا رب يا محمد يا رب.

ابتهل لاهثًا بدعاء عالٍ، يكذب فهمه الداخلي لناهد؛ فحين تقسو لا تفرق بين الأخضر واليابس، العدو والحبيب، تطيح كثور هائج معصوب الأعين. وأكثر نقاطه ضعفًا.. هي.

***

سحبت آية الكرسي إلى جوار الفراش المعدني المكسو بالأبيض، استقرت فوقه وعينيها لا تفارق وجه شقيقتها المستكين بين الوسائد بهدوء يحمل الكثير من الحزن بين طياته.

-مش هتخليه يشوفك بقى يا ناهد؟

أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى ضاغطة جفنيها لينغلقا بشدة: مش عايزه أشوفه.

-دا من إمبارح قاعد على الباب، مش راضي يمشي غير لما تسمحيله يدخلك وتكلميه.

نهرتها ناهد ببعض العصبية: وأنا قولتلك مش عايزه أشوفه، وأول ما أخرج من هنا هأسافر ومش هتعرفوا طريقي.

حزنت آية: ليه كدا بس؟.. إحنا عملنا إيه لكل دا؟

أجابتها ساخرة: ما أنا اللي بأكلكع حياتكوا، عامللكوا زي العقدة فـ المنشار، خلاص بقى.. اسيبكوا تشوفوا حياتكوا وأشوف أنا كمان حياتي.

-يا ناهد أنتِ عارفه إن ياسين ما كانش قصده، هو لما بيتعصب ولا بيضايق مش بيبقى شايف بيكلم مين ولا بيقول إيه.

-دي أول مرة يعملها.. يكلمني أنا كدا؟، ويقول الكلام دا ليا أنا؟؟

-أديكِ قولتيها، أول مرة.. وهتبقى آخر مرة كمان، المسامح كريم يا نوني.. خلي قلبك أبيض.

قالت ناهد بغضب: يووه، آية لو سمحتي.. أخرجي وسبيني لوحدي.

حاولت الاعتراض لكن..: قولتلك سبيني لوحدي.

أطاعتها مغادرة، تركتها تنغمس في أفكارها الخاصة والدموع تتساقط على وجنتيها، لا أحد يشعر بانكسار فؤادها، لا يدركون أن العلاقة بينهما أكبر من العلاقة الطبيعية بين أي أخ وأخته.

فُتح الباب على مصرعيه على حين فجأة؛ فصرخت دون النظر إلى القادم وهي تمسح دموعها: يوووه يا آية.. قولتلك عايزه أبقى لوحدي شويه.. حرام؟

-لا مش حرام.

تفاجأت من ذلك الصوت الرجولي الذي رفضت ليومين سماعه أو حتى رؤية صاحبه، التفتت إليه غاضبة: أنت إيه اللي دخلك؟، أطلع برا مش عايزه أشوفك.

تنهد محبطًا: بس أنا عايز أتكلم معاكِ.

أدارت رأسها بكبرياء: وأنا مش عايزه.

تناول كفها بين يديه: للدرجة دي هونت عليكِ؟، خلاص اتخليتِ عني؟، مش أنا اللي كنت بتقولي عليه ضهرك اللي بيقويكِ.

ابتسمت ساخرة بألم: أنا اللي بعد كل دا هونت!، لا وبقيت حمل عليكوا، وجودي بيلغبطلكوا حياتكوا.. خلاص أنا قررت أبعد عنها عشان تتفك، عايزين إيه مني تاني؟

-أسف، سامحيني.. والله ما كان قصدي أقول كدا، أنا مش عارف قولت كدا إزاي

نظرت إليه بألم: من ساعة ما أتجوزتها وأنت بقيت قاسي عليا لدرجة أنا مش مصدقاها، حسيت إني ما أعرفكش ولا عمري عرفتك.

-أنتِ ليه عايزه تحمليها كل حاجه؟، مش بتحبيها ليه؟، دا حتى آية بتحبها وأي حد بيعرفها بيحبها إلا أنتِ.. أكتر واحدة كان نفسي تحبها، ومع ذلك ماحصلش بالعكس كل مدى بتكرهيها أكتر.

-عشان كلكوا مخدوعين فيها، وهي اللي خدتك مني.

-يا نوني يا حبيبتي، أنتِ على راسي من فوق وعمر ما حد هياخدني منك بس هي مراتي وأنتِ أختي وأمي وشريكتي وكل حاجه، فيه فرق فـ مكانتك ومكانتها بالنسبة لي.

-بص يا ياسين طول ما هي فـ حياتك يبقى أنا ماليش مكان فيها، وأنت حر بقى.

اعتدل واقفًا بعد أن ترك يدها، قال صارمًا: دا آخر كلام عندك؟

ابتسمت بسخرية لا تتناسب مع الألم الذي تشعه عينيها معبرًا عن جرح قلبها: أيوه.. آخر كلام.

اتجه إلى الباب قائلًا بجدية: يبقى أنتِ اللي اختارتي وأنا عملت اللي عليا.

أوقفته قبل أن يغلق الباب خلفه: ياسين.

توقف وقد دب الأمل على أبواب قلبه: أيوه.

قالت بتأنٍ: أنا ممكن أوافق على جوازك منها وأقبلها.. بشرط.

سحب الكرسي أقرب إليها وعاد يجلس جوار سريرها مبتسمًا: أنتِ تؤمري.

ضاقت حدقتيها وقالت بترقب: تتجوز واحدة تانية.

انتفض في مجلسه صارخًا: يعني عايزاني أتجوز على مراتي؟؟؟

أومأت مؤكدة: أيوه.

نهض غير مصدقًا لما سمعته أذناه: لا لا، أنا مش متخيل إن كرهك لكادي يخليكِ تطلبي مني أتجوز عليها، أنتِ عارفه الواحد لما يتجوز على مراته دا بيعمل فيها إيه؟؟، دي ممكن تنهار خصوصًا إن مافيش سبب.

-وهي الخلفه مش سبب كافي؟

-مافيش عيب لا مني ولا منها يبقى ليه بقى؟، كمان ما أنا ممكن أتجوز واحدة تانية وبردو ما أخلفش.. أتجوز عليها التالته هي كمان؟

-بس أنا متأكدة أنك لو أتجوزت تاني هتخلف.

-وإيه اللي أكده؟

-إحساسي.

ضحك عاليًا وعلق بسخرية: يا سلام على الإحساس.

نظرت إليه بحزن والدموع قد عادت إلى عينيها: أنا ما أتجوزتش بعد موت بابا وماما، حتى خطيبي سيبته عشان شكيت بس إنه ممكن يكون طمعان فـ فلوسكوا ويعاملكوا وحش، ودلوقتي حتى لو أتجوزت مش هأبقى أم، بس ما كانش بيهمني عشان اعتبرتكوا ولادي اللي ما خلفتهومش.

توقفت تكبح حشرجة صوتها بطريقة مدروسة: وفـ الأخر أنت هترميني عشان خاطر مراتك.. وآية مسيرها تعمل كدا، أنا خلاص رضيت بالأمر الواقع.. بس لما أشيل ولادك فـ حضني هأحس إن تعب السنين اللي فاتت ما راحش هدر، خصو

صًا لو ولادك من واحدة أنا بحبها وبتحبيني، عمرها ما هتستخسر ولادكوا فيا ولا هتحسني إني حمل تقيل عليكوا زي مأحدي بتعمل.

نظر إليها بتركيز: وأنتِ إيش عرفك إن مراتي التانية هتبقى مختلفة عن كادي يعني؟ وإنك هتحبيها؟

أخبرته بثقة: عشان أنا عارفاها كويس وأخترتها.

فغر فاهه بدهشة وسخرية مريرة: كمان أنتِ اللي مختارهالي؟، ما تيجي تتجوزيها بدالي بالمرة وتوفري عليا كل دا.

نظرت له بحنق: يا ريت، والله ما كنت ضيعتها من إيدي، هي خسارة فيك أساسًا.

تابع مغتاظًا؛ كله عدا المساس بغروره المقنع: طب مأحدام خسارة بلاها أحسن.

-لا، هي خسارة فيك دي حقيقة، بس أنت غالى عندي وعمري ما استخسر فيك حاجه حتى لو ما تستحقهاش.

-أنتِ فاكره جوازي على مراتي دا شيء سهل؟

عقدت حاجبيها معلنة تمسكها بمطلبها، وقالت بحزم: والله اللي عندي قولته، وافقت كان بها، ما وافقتش.. خلاص، بمجرد ما أخرج من المستشفى هألم حاجتي وأسافر برا وأعيش حياتي.. بس لا أنت ولا آية هتعرفوا طريقي، مع إني ما أظنش يفرق معاك كتير لكن دا اللي عندي.

تنهد: وأنتِ فكرك كادي هتقبل بسهولة؟

رفع رأسه معلنًا بقوة لا تقبل النقاش: هي لو رفضت عمري ما هأقبل أتجوز عليها غصب عنها.

لوت شفتيها باشمئزاز: قولها إنك لو ما أتجوزتش عليها إني هأسحب فلوسي من الشركة وبكدا الشركة هتقع وتخسر فلوسك، ساعتها هتوافق ومش بعيد تجهزلك العروسة بإيديها.

نظر إلى ضحكتها الساخرة في ختام حديثها بغضب مستنكرًا، تدني نظرتها لزوجته إلى هذا الحد جعله يدرك شناعة علاقتهما وأنها أسوء مما تصور، وفي ذات الوقت دار عقله يفكر في آخر مقاطع حديثها، شقيقته شديدة الوثوق بتوقعها رد فعل كادي، أيعقل أن يكون كلامها صحيحًا؟، هي لم تخطء ولو لمرة في حكمها على الأخرين لكنه لم يلتفت لرأيها عند زواجه بكادي؛ فهي حبه الذي انتشله من مخالب حياته المليئة بالعمل دون شيء آخر ووضعه في نسخة آدمية من الجنة.

***

انتفضت واقفة تعقد ذراعيها أمام صدرها وهي تتحدث بغضب عاصف: وأنت وافقتها على الكلام دا يا أستاذ ياسين ولا إيه؟

تنهد بتعب: حاولت معاها بس مش راضية تغير رأيها وفـ الأخر سابتني أفكر.

حلت يديها ليتمسكا بخصرها في عصبية بائنة: وهو دا موضوع محتاج تفكير؟.. لا طبعًا، وأنا لا يمكن أقبل أنك تتجوز عليا واحدة تانية، أنا كنت قتلتك وقتلتها.

نهض ثم أمسكها من كتفيها قائلًا: أنا مش عايز أخسر ناهد، أنتِ عارفه هي عملت إيه عشاني وإنها بالنسبة لي إيه، كفايه إنها ما إتجوزتش عشان خاطري أنا وآية.

ضحكت ساخرة: ولا عشان ما لاقتش اللي يسأل فيها؟

نفض يده عنها وقد بدأ الغضب يعرف الطريق إليه من زوجته الفاتنة: ما اسمحلكيش تقولي كدا، وبعدين أنا كنت بأشوفها بعيني وهي بترفض واحد ورا التاني، ناهد حلوة ومهتمة بنفسها يعني مافيهاش عيب.

زفرت بضيق: بردو مش هأسيبك تتجوز واحدة تانية.

قرر اللجوء إلى آخر بطاقة بيده مع ثقته برفضها لكن حتني يخلي ضميره: حتى لو قولتلك إن ناهد هتسحب نصيبها وفلوسها من الشركة وتبيعهم؛ عشان تأس لنفسها حياة بعيد عننا؟، ودا طبعًا هيضر الشركة وممكن يوقعنا فـ أزمة يا عالم هنقوم منها ولا لا.

شهقت بفزع: نعم؟، وهي إزاي تعمل كدا؟، أنت هتسمحلها بدا؟

قالالحبهدوء: حقها وما أقدرش أمنعها.

كزت على ضروسها وغلها يتصاعد من كره ناهد الغير مبرر: بقى كل دا عشان تخليك تتجوز عليا؟

حثها متسائلًا: ها إيه رأيك؟.. أنا خلاص هأقولها أنك مش موافقة وأنا مش موافق وننهي الموضوع واللي هي عايزاه تعمله.

تناول هاتفه وقبل أن يتم إتصاله خطفت الهاتف من بين أصابعه تتمهله: لا أستنى.

نظر لها مصعوقًا: أستنى إيه؟

ثم أضاف متمهلًا وعيونه لمعت بشكل مفزع: أوعي تقولي أنك وافقتِ؟!

تنهدت بحزن وقد غادرت دمعة حزينة عينها اللوزية: أنت مش بس خيرتني بين جوازك عليا وعلاقتك بأختك اللي عارفه كويس أنت بتحبها ومتعلق بيها قد إيه.. لا كمان بتخيرني بين جوازك والشركة اللي أسها باباك واللي من سنين تعبان فيها عشان تخليها أحسن وأحسن.. ما أقدرش أقف فـ طريقك عشان خاطر سعادتي وراحتي..

كفكفت دموعها بأطراف أصابعها المطلية بلون وردي رقيق زاد كفوفها هشاشة: أنت كمان من حقك تبقى أب ويمكن لما تتجوز غيري تعرف تحقق حلمك دا، وصدقني ابنك هأعتبره ابني حتى لو كان من واحدة غيري.. دا كفايه إنه يبقى شايل دمك.

نظر إليها نظرة مملوءة بالحب والحنان ثم جذبها إلى أحضانه مهونًا عنها عذابها: أنا هأتجوزها أه.. بس قلبي وعقلي هيبقوا معاكِ أنتِ.. وممكن بعد فترة أبقى أطلقها ونقول مافيش نصيب وبكدا أكون راضيت ناهد وكمان قفلت عليها أي سكة تانية فـ الموضوع دا.

ارتسمت ابتسامة باهتة على ثغرها الرقيق ونظرت له بحب دافق، اقترب رأسه منها مقررًا الغوص معها في عالمهما الخاص، يهرب من كره أخته المرضي لزوجته، يتناسى الألم القادم لحياته قريبًا.

***

هبطت درجات السلم متجهة إلى غرفة الضيوف ترحب بالضيف الذي قدم إليهم، عيونها ترحب بمرآه قبل وصولها إليه، فيما ينهض متباطئًا بابتسامته الهادئة يشكر كرم ضيافتهاالمعتاد.

قالت مبتسمة: أهلًا يا محمد.

بادلها الابتسامة: عامله إيه؟

أومأت رادًا على سؤاله قبل أن تعيده إليه بالمثل.

-الحمدلله، أومال ياسين فين؟، روحت مكتبه وما لاقتوش.

-ما تعرفش إنه سافر؟

-الله!.. مش كان هيسافر بكره؟

-أه، بس العميل الفرنسي قدم المعاد عشان مراته هتولد بدري عن معادها وهو عايز يقعد مع ابنه وهياخد أجازة.. فبدل ما يلغي المقابلة خالص قدم المقابلة.

-هههههههه والله الفرنسينن دول عليهم حركات.

ابتسمت برقة: أنت كنت عايزه فـ حاجه؟

-كنت عايز اسأله عمل إيه مع ناهد وطلبها الغريب.

أشارت له بالجلوس فوق الأريكة قبل أن تتبعه في مقعد قريب: وافق، وهتروح بكره تطلبها ولما يرجع الأسبوع الجاي يتجوزوا.

مصعوقًا: بالسرعة دي؟؟

لوت شفتيها: وأنا كمان ما كنتش مصدقة بس ناهد عماله تقول كل يوم بنتأخره ممكن تضيع من إيدينا.

-شكلها متعلقة بيها أوي.

-بتحبها جدًا.. ليل ونهار تقول دي بتعمل وبتسوي.

-بس هتروح تطلبها من غير ما تاخد ياسين معاها كدا عادي؟.. أهلها مش هيحسوا إن في حاجه مش مظبوطة؟

-هي قالت عادي، هما كمان مش قليلين فـ البلد يعني وهيقدروا ظروف ياسين.. خصوصًا أنهم عارفينه من زمان وعارفين بابا وماما –الله يرحمهم-.

متعجبًا: هما يعرفوهم بجد؟، يعني أنتِ عارفه العروسة؟

-جيرانا فـ بيت سوهاج، بابا وماما بعد ما جم هنا كانوا بياخدونا نروح هناك أحيانًا، دا غير أنهم كانوا مستقريين هناك أول سنين جوازهم بس بعد موتهم.. أنا وياسين ما روحناش لكن ناهد كانت بتروح كل فترة كدا، والأسبوع اللي اختفت فيه كانت هناك فرجعت قابلتهم وشافت سلمى وحبيتها.

-اسمها سلمى؟

-أه، ناهد عاجبها الاسم بتقولي هي دي الأسماء مش كادي كاتهأحداهيه هههههه.

قهقه غامزًا بتآمر طفولي: تصدقي معاها حق، طب وهو ياسين راجع إمتى؟.. عشان الفرح يكون كمان أسبوع؟

-هيرجع يوم الفرح الصبح.

-لا بتهزري!

-والله جد، بس دا كلام ناهد لما نشوف بقى أهل العروسة هيوافقوا ولا هيقولوا إيه.

-هي حلوة؟

-العروسة؟

-أومال العريس.. أيوه يا ستي العروسة.

-مش عارفه أنا مش فاكراها، وكمان عندي محاضرات وشغل مش هأقدر أروح مع ناهد فـ هتروح لوحدها بالتالي بردو مش هأشوفها، شكلي هأشوفها يوم الفرح أو الحنة يعني.

-وناهد تروح لوحدها ليه؟، أومال أنا فين؟

-هو أنت مش مشغول يعني؟

-حتى لو مشغول، هو أنا عندي أغلى من ياسين عشان أفضاله يوم فرحه.

-اللي يريحك، بس كلم ناهد وأتفق معاها عشان قررت تتحرك الصبح بدري.

تتابع الحديث بينهما في عدة أمور قبل أن يستأذن وينصرف؛ لكي يستطيع اللحاق بناهد والسفر بكامل يقظته صباحًا.

***

فتحت فتاة في الثانية والعشرين من عمرها الباب، ترتدي جلبابًا مزخرفًا وقد التف حجاب أسود شفاف فوق رأسها مخفيًا ضفائر شعرها، تعرفت على ناهد فابتسمت لها مرحبة: يا أهلا يا أهلا.. البيت نور يا ست ناهد.

ناهد بابتسامة: أومال الجماعة فين يا سهام؟

-الحاجة فاطمة فـ المطبخ والرجاله كلهم.. من البيه الكبير للبيه الصغير برا، وسلمى فـ الجنينة بتسقي الزرع.

أطلقت ضحكة حقيقية، لم تعد إلى ثغرها إلا بعد زيارتها لهذا المنزلحقبل الحادث: هي لسه بردو بترخم على عم سليمان وبتاخد شغله؟

-هههههه عادتها ولا هتشتريها.

أتى صوت خلفهما من جهة المطبخ: بترغي مع مين كل دا يا سهام؟

أتجهت إلى ناهد عندما رأتها وضمتها بقوة مرحبة: يا مرحب يا مرحب.. يأحدي النور.. بقى موقفه ناهد على الباب.. كدا بردو يا سهام؟.. يصح يا بنتي؟سهام مدافعة: والله يا حاجة فاطمة لسه باسلم عليها حضرتك جيتي.

شدت ناهد على يد مضيفتها: خلاص بقى يا فاطمة.. وبعدين هو أنا ضيفة يعني عشان تقولوا كدا؟

ربتت فاطمة على ظهرها بقلق: بس أنتِ جايه من سفر وشكلك تعبان.

ابتسمت ناهد للاهتمام الحقيقي الذي تجلى في عيون فاطمة: لا أنا كويسه ما تخافيش عليا.

-إحم إحم.. ممكن أدخل ولا إيه؟

التفتت ناهد وراءها ثم ابتعدت حتى تسمح له بالدخول: أيوه تعالى يا محمد.. فاطمة أعرفك.. محمد محامي الشركة وصاحب ياسين.

رفع سبابته معترضًا: أنتيمه وليس صاحبه، هناك فرق فـ المكانات سيدتي الرئيسة.

ضحكت فاطمة لخفة ظله: تأنس وتنور يا ابني اتفضل.

التفتت موجهة كلامها إلى سهام: نادي سلمى من برا؛ خليها تيجي تسلم وبعدين روحي أعمليلنا حاجه نشربها.

انصرفت تنفذ ما أمرت به بينما صحبتهم فاطمة إلى المضيّفة، تتبادل معهم الحديث إلى حين وصول ابنتها.

-بقى من ساعة ما تسافري يا ناهد مافيش ولا تليفون كدا؟

-معلش يا فاطمة والله، الواحد كان عايز يخلص من المستشفى وقرفها وما كنتش مركزه فـ حاجه.

أتاهم صوت أنثوي يهتف: ليه سلمتك يا نوني، إيه اللي حصلك؟

ضمتها ناهد بشوق: مافيش حادثة صغيرة يا سلمى الحمدلله جات سليمة.

أجلستها سلمى وجلست جوارها تمسك كفيها، قالت بقلق حقيقي: مش كنت تقوليلنا عشان نيجي نزورك.. كدا بردو؟

فاطمة معاتبة: صحيح إخص عليكِ يا ناهد وأنا اللي كنت فاكره إننا خلاص بقينا أهل.

أسرعت ناهد مدافعة: أنتوا أهلي طبعًا وربنا اللي يعلم معزتكوا عندي قد إيه، بس كل حاجه حصلت بسرعة وهما يومين وخرجت وأهو رتبت أموري وجيتلكوا.

أتت سهام بالعصير وقدمته ثم انصرفت عندها تنحنح محمد: نحن هنا.

ضحكت ناهد متذكرة وجوده: والله نسيتك يا محمد، سلمى.. دا محمد محامي الشركة وصاحـ.. قصدي أنتيم ياسين، والده كان محامي الشركة أيام بابا -الله يرحمه- ولما مات محمد مسك مكانه.

مد يده حتى يسلم على سلمى لكنها تناولت قطعت حلوى من العلبة الموضوعة على المنضدة ووضعتها في كفه قائلة بابتسامة مشرقة: تشرفت بمعرفتك يا أستاذ محمد.

ابتسم بتهذيب وقد لمعت عينيه احترامًا لطريقتها الذكية في رفع الحرج عن كليهما بحركة بسيطة: أستاذ إيه بقى، دا أنتِ خلاص هتبقي مرات أخويا مالهاش داعي الألقاب.. اااااه بطني.

لكزته ناهد في معدته بشدة ثم قالت من تحت ضروسها بصوت لا يسمعه غيرهما: تستاهل.

تبادلت سلمى ووالدتها نظرات تعبر عن عدم الفهم، أسرعت ناهد توضح الموقف، فما عاد هناك من مفر سوى إظهار النوايا المؤجلة: أصل أنا المرة دي مش جايه عشان نقعد نتكلم وتغيير جو زي المرة اللي فاتت.. أنا كنت جايه أطلب إيد سلمى لأخويا ياسين.

رأت الصدمة في عيونهم فضحكت لتزيل التوتر: أنا عارفه إن الموضوع مفاجئ، بس أنا كنت ناوية أتكلم فيه لما الحاج عبدالرحيم يجي.. بس نعمل إيه بقى فـ محمد اللي ما تتبلش فـ بوّه فولة ههههه.

فاطمة بتعقل وابتسامة هادئة: يبقى نعمل نفسنا ما سمعناش حاجه لحد ما الحاج يجي، واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

ابتسمت ناهد: بإذن الله.

استأذنت سلمى كي تغير ملابسها المتسخة من العمل في الأرض وسقاية الزرع بينما اتجهت فاطمة إلى المطبخ تتابع عملية إعداد الطعام معطية ضيوفها الإذن في فعل ما يشاءون. قررت ناهد السير في الحديقة ورافقها محمد.

سألها محمد مباشرة بصوت يملؤه الجدية منتهزًا فرصة انفرادهما: أنتِ ليه عايزه ياسين يتجوز سلمى؟ عشان مش بتحبي كادي؟ دا بس السبب؟

تنهدت بقوة ثم أوضحت له وجهة نظرها: كادي مش زي ما ياسين فاكرها، من ساعة ما شوفتها وحاولت تتقرب مني وأنا فهمت أنها بتعمل كدا مش حبًا فيا ولا عشان عايزة فعلا تقرب مني.. لا، كل دا عشان تقرب منه هو وكمان تضمن إني ما

أقفش فـ طريقها، بس حظها إني فهمتها؛ عشان كدا ما حبتهاش ووقفت فـ وشها بس ماحدش فاهم الحقيقة دي.

-لا أنا فاهم، أنا كمان عمري ما قِبلتها وقولت رأيي فيها بصراحة لياسين لما سألني بس لما لاقيتك واقفة ضده بالشكل دا اضطريت اسحب رأيي.. بالذات إني ما شوفتش منها حاجه وحشة بالعكس ياسين مبسوط معاها جدًا.

-سعادته معهأحدي قصيرة خصوصًا مع غياب الأطفال، أربع سنين من غير أطفال هيسكت مش هيتكلم والموضوع مش هيفرق معاه لكن لما يوصل الأربعين ولا الخمسين وقتها هيحس بالفرق، وقتها هيعرف إنه غلط لما أفتكر إن الموضوع مش مهم.

-يعني هتخليه يتجوز سلمى عشان الولاد وبس؟

-لا طبعًا، سلمى دي مافيش منها، أنا ما شوفتش زيها أبدًا، ما يغركش عيشتها فـ الصعيد ولا إكمنها قاعدة فـ البيت تبقى دماغها عن الجواز والأكل والشرب والخلفه وبس.. أنا قعدت معاها أسبوع كامل، كنت بأنام وأصحى معاها ومش معاها لوحدها لا مع عيلتها كلها، قعدتهم مريحة ورجعتني أيام زمان، لما كنت طفلة ومافيش مسئوليات، أيام والدي ووالدتي.

أضافت باسمة وذكريات الأيام التي أمضتها بينهم تراودها: بسطاء لدرجة مدهشة وحنينين وكرماء جدًا، لما سلمى تتربى فـ بيت زي دا تتخيل هي هتبقى عامله إزاي؟ وولادها تربيتهم هتبقى شكلها إيه؟.. أنا بقى عايزه ياسين يعرف إن الشكل مش كل حاجه المهم الجوهر.

-بس كادي بالنسبه له مش شكل بس.. لا، هو حبها فعلًا.

ضحكت مستهزئة: ما تقتنعيش إن لو كادي كانت وحشه كان أتجوزها بردو، أنا فاهمه إنه مش السبب الوحيد ودا اللي عايزاه يعرفه لما يشوف سلمى، سلمى

شكلها زي ما أنت شوفت بس جواها حلو جدًا، جواها الصفات اللي كان نفسي يدور عليها مش الشكل لوحده، كادي دي زي قرطاس ورق.. منفوخه وهلومه من برا بس من جواها فاضي.. تصدقني لو قولتلك إني كنت بأحمد ربنا أنها ماخلفتش من ياسين؟.. ولادها هيبقوا فاضيين من جوا زيها ومش هتخليني أقرب منهم ولا أحاول أخليهم أحسن.

-إممممم، وتفتكري دي أسباب كافيه لسلمى عشان تتجوزه؟

-أنا مش هأقولها الكلام دا بس هي ذكية كفايه أنها تكتشفه لوحدها بعدين.

-يعني هتخليها تتجوزه على عماها؟

-مش على عماها، أنا هأقولها اللي لازم تعرفه، غير كدا يبقى هي وشطارتها.

-هتقوليلها إنه متجوز؟ ولا هي أصلًا عارفه؟

-أكيد، مش هأخبي حاجه كبيرة زي دي، بس عايزاك تساعدني وتقف جنبي يا محمد.

أجابها بجدية تظهر خوفه على صديقه وحبه الشديد له: اللي في إيدي هأعمله مأحدام فـ مصلحة ياسين.

أخفت ابتسامتها الهازئة؛ فلقد لمحت نبرة تحذير بين كلمات محمد، ألتمست له العذر فهو لا يعلم طريقة عمل عقلها ولا يدرك ما أدركته منذ زمن؛ فأكتفت بالصمت.

***

حلَّ الليل واجتمعت عائلة عبدالرحيم السقا في غرفة الصالون بعد تناولهم وجبة عشاء دسمة تعوض ولو القليل من طاقتهم المهدورة بسبب مشاق اليوم.

قدمت سهام الشاي ثم تراجعت عائدة إلى المطبخ تكمل عملها، دار الحوار الرئيسي بين كبير العائلة عبدالرحيم والد سلمى وبين ناهد، لكن في بعض الأحيان يحدث تدخل من بقية الجالسين.. بالطبع في حدود الأدب واحترام الكبير.

سأل بصوته الرخيم: يعني أخوكِ ما شافش سلمى؟.. طب هيتجوزها على أي أساس؟

تدخل محمد معاونًا ناهد في الرد: يا عمي مالوش لزوم إنه يشوفها مادام مش هياخد راحته معاها فـ الكلام.. ما هو عارف نظامكم.. مش هيعرف يتكلم براحته مأحدام مش كاتب عليها.

قإلحاحد الأفراد بغضب مكتوم: دا مش نظامنا يا متر، دأحدينا اللي بيقول كدا ولا إيه؟

تنحنح محمد بحرج: مش قصدي يا أستاذ زين.

ناهد مسرعة: القصد إن فترة الخطوبة مش هيبقى لها لازمه.. بتبقى فترة تمثيل زي ما بيقولوا يعني، لا هو ولا هي بيبانوا على حقيقتهم وكل واحد بيحاول يبين أحسن ما عنده.

قاطعها شقيق سلمى الأصغر فارس: بس إحنا ما بنمثلش، لكن لو أنتوا كدا تبقى حاجه تانية.

ضحكت فاطمة تخفف من توتر الجو: جرا إيه يا جماعة.. ما براحه شوية، كلكوا عايزين تقفلوا الموضوع ولا إيه؟.. إحنا أه بنحب سلمى بس مش هنقف فـ طريق سعادتها وحياتها.. ولا إيه يا حاج؟

تنهد عبدالرحيم بحزن محاولًا رسم الابتسام: شكلك جبتي التايهة يا فاطمة.. إحنا فعلا من حبنا فيها مش عايزين نسيبها وعمرنا ما حطينا فـ بالنا إنها ممكن تتجوز فـ

يوم من الأيام.. على طول شايفنها صغيرة ودلوعتنا وما فكرناش إنها هتكبر بسرعة كدا.

كتمت سلمى دموعها واقتربت من والده تضمه بحب: حبيبي يا بابا، أنت ما تعرفش أنا بحبك قد إيه يعني؟؟

تنهد الأب: سامحينا يا أستاذة ناهد وأنت كمان يا أستاذ محمد.

هز محمد رأسه بتفهم باسمًا: لا ما حصلش حاجه.

تنحنحت ناهد: بس في حاجه...

نظر إليها عبدالرحيم بترقب: خير.

تبادلت النظرات مع محمد قبل أن تبتلع ريقها قائلة: ياسين متجوز.

لم يتفوه أحد من الصدمة سوى زين: نعم؟؟.. يعني أختي سلمى اللي ألف مين يتمناها تتجوز واحد متجوز قبلها.. لا وعلى زمنه كمان؟

محمد: ما هو الدين محلله، مثنى وثلاث ورباع.. يعني حقه الشرعي.

التفت إليه زين بثقة: بس يعدل بينهم.

أضاف عبدالرحيم معقبًا على كلام ابنه بهدوء: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم».

ثم أضاف عندما حل الصمت: وبعدين هو فين؟.. مش المفروض دا جوازه هو؟.. إزاي ما يكونش حاضر؟

توترت ناهد ولكنها أخفت ذلك بمهارة سنوات في تعاملها مع الناس: كان جاي معانا بس جاله شغل مفاجئ بعد ما رتبنا أمورنا.

حدجها عبدالرحيم بنظرة قاتلة مستنكرة: كان ممكن الموضوع يتأجل لحد ما يرجع، ماكانش هيجرا حاجه.

محمد بلباقة: ما هو خاف لسلمى تطير من إيده، هو سمع عنها وعن أخلاقها وكل الناس بتشكر فيها، كفايه أنها بنت حضرتك، فقال خير البر عاجله.

تنهد فرغم تيقنه من صدق كلامه إلا أنه لا يحب سير الأمور في غير نصابها: أنا مش مرتاح للموضوع دا من أوله.. العريس مش موجود وكمان متجوز وعايزين الجواز كمان أسبوع ومافيش خطوبة.. أنا شايف إنها سرعة مالهاش داعي، وأنت لسه قايل كفايه إنها بنتي عشان ما أرمهاش وأجوزها بالطريقة دي.

أسرعت ناهد تردد بحنق، تغييرًا لاتجاه الكرة: بقى جوازها من أخويا تبقى رمايه يا حاج عبدالرحيم؟

اتهمها زين بهدوء: حضرتك عارفه إن مش دا قصده.

أعاد محمد الحوار إلى طريقه مجددًا بسؤاله: طب إيه اللي يريحكوا؟

نهض عبدالرحيم متثاقلًا: لما يجي العريس من السفر بالسلامة وأقعد أتكلم معاه بنفسي، ويبقى الكلام وشي فـ وشه وقتها أبقى أقول رأيي، غير كدا مافيش عندي حاجه تانية تتقال.. عن إذنكوا.

توجه عبدالرحيم إلى غرفة مكتبه، لحقت به زوجته تناقشه فيما يدور داخل تلافيف مخه. نهض فارس وأتجه إلى غرفته مرتاحًا لما قرره والده حتى يستذاكر دروسه.

صعدت سلمى إلى غرفتها فلحقت بها ناهد مقررة التحدث إليها، تستشف رأيها بينما جلس محمد برفقة زين على مضض وهما لا يتقبلان بعضهما، يلقيان على بعضهما نظرات كل حين تحمل عدم الراحة.

***

جلست أمامه تفترس ملامحه افتراسًا بنظراتها، تحاول الوصول إلى ثناياأحدماغه ومعرفة فيما يفكر.

تلاعب أصابعه بأحد الأقلام الملقاة فوق سطح المكتب إشارة لقلقه، وانصراف عينيه عن وجهها تدل على عدم استقراره على شيء محدد يريد أن يشاركها إياه، ظل دقائق في هذا الحال حتى قرر مناقشة زوجته بما يدور في عقله رغم العصف، هي أعلم الناس بمصلحة ابنتها وربما أكثر منه.

لقد وفر عليها مجهود السؤال بحديثه: ما ارتحتش للي حصل دا، اللي المفروض أنه هيتجوز بنتي ماجاش يطلبها بنفسه ولأسباب غير منطقية.. كمان متجوز يعني بنتي هتدخل على ضرة.. السرعة اللي عايزين يمشوا بيها الأمور غير طبيعية.

تنهد بقوة مضيفًا: وأنا بنتي ما تتعايبش عشان أرميها الرمية دي.. حتى لو فيها عيب أنا عمري ما أسمح بالسربعة دي.

تفهمت زوجته المنطق الذي يحدثها به: أنا معاك فـ كل دا، بس يا ريت ما تزعلش من ناهد.. هي بس فاكرة إن من حبنا فيها مش هيفرق معانا كل الحاجات دي.

كز على أسنانه بحنق: أنا أه فتحتلها بيتي واعتبرتها فرد من العيلة.. بس مش للدرجة دي.. كل إلا بنتي وكرامتها اللي من كرامتنا.. وهي باللي عملته دأحداست على الإتنين.

ابتسمت فاطمة مهدئة: هدي نفسك بس أنت، وإن شاء الله كل شيء وله حل.

أعلمها بحزم تعلم عدم تراجعه عنه: الحل الوحيد إنه يجي بنفسه يطلبها مني وأشوفه راجل فعلا ولا زي ما أنا متخيل.. واحد أخته بتتحكم فـ حياته وبتمشيه على مزاجها.

همس بالجملة الأخيرة شاردًا قبل أن يسترسل بصوت أشد وضوحًا: ولو مجاش يبقى نفضها سيرة أحسن.. وأكننا ما سمعناش حاجه.

وقفت من مقعدها ودارت حول المكتب تقف إلى جواره وتربت على كتفه مؤيدة: ما تقلقش.. اللي أنت عايزه هيكون إن شاء الله.

شرد كلاهما في هذه الزيجة التي لم تكن في الحسبان، الحيرة تملأهما من النتيجة النهائية.. أستكون بالموافقة أو بالرفض القاطع؟

***

أزاحت الستائر من أمام زجاج شرفتها تنظر إلى الحديقة الغناء التي تداوم على رعايتها، شردت تفكر في عرض ناهد وما سيحدث لاحقًا.

دون أن تلتفت ترى هوية الذي لحق بها ويقف خلفها، قالت بهدوء مشبع بالجد: بابا قال كلمة وهي اللي هتحصل.

اقتربت منها ناهد تقف أمامها وتحاول إقناعها: يا سلمى يا حبيبتي، ياسين عنده شغل كتير الفترة الجايه؛ مش هيقدر يجي هنا كل شوية عشان تتعرفوا على بعض، وما تنسيش هنا صعيد.. والناس مش هتسكت لو فضل يطلع ويخرج.. ولا إيه؟

نظرت إليها سلمى مبتسمة: بس بابا ما قالش كدا، كل اللي طلبه إنه يتقدم بنفسه؛ عشان يعرف إذا كان واخد الموضوع جد ولا لا.. وكمان أنا مش ممكن أوافق على جوازي من واحد أنا ما شوفتوش ولا اتكلمت معاه، على الأقل مرة واحدة.. وعلى فكرة لو بابا ما كانش عمل كدا أنا اللي كنت هأطلب.

شعرت ناهد بالإحباط؛ فهي تعلم عدم جدوى الحديث مع سلمى أكثر من ذلك، فإذا قالت أنها تريد هذا ولا تريد ذاك فقد أنتهى الأمر، مثل طباع والدها تمامًا، وهو أحد أسباب انجذابها إليها منذ البداية لكن الآن يعرقل سير مخططها.

انسحبت بهدوء من غرفة سلمى، غرفة مزيج من الأخضر والبيج، مليئة باللمسات الأنثوية الجذابة، تملك مكتبة على أحد الجدران تأخذ حائطًا بأكمله، تعج بالكتب والروايات؛ فمنذ كانت صغيرة وهي تحب القراءة والمطالعة، هوسًا ورثته عن والدها الحبيب كذلك.

فتحت باب الشرفة وخرجت إليها فيما عيونها لا تتزحزح عن الحديقة تبدو من هذا الإرتفاع البسيط كالجنة، مدت يدها إلى زهرة تتدلى من أحد فروع شجرة الخزامى الأفريقية الواصل طولها مستوى شرفتها، تنشر رائحة جميلة تبث الطمأنينة داخل الروح وتخترق الغرفة بعبيرها.

ظلت تتلمس أوراق الزهرة الحمراء وهي تشرد في ذلك الياسين، لِمَ تقدم لها وهو لمْ يرها؟، لو عاش حياته هنا أو كان من أبناء الصعيد لتفهمت، لكن شاب يدير كبرى الشركات ويخالط مختلف الطبقات والشخصيات العليا لِمَ يقبل بزيجة على هذه الشاكلة؟

كذلك زواجه معضلة أخرى.. لِمَ يريد الزواج منها إن كان متزوجًا؟.. هل هي سيئة الطباع؟ أم تعامله بما لا يليق؟

تنهدت بقوة محدثة الزهرة فيما تديرها بين أصبعيها: أنا مش مرتاحة.. في حاجه غلط بس مش قادرة أوصلها.. عندي شعور إن ناهد بتخطط لحاجه بس بردو مش قادرة أحدد إيه هي.. هه، ربنا يستر.

قبلت الزهرة بشفتيها الرقيقتين من ثم عادت إلى الداخل مغلقة باب الشرفة يليها الستائر كأنها تدلي الحجاب فوق عقلها وتمنعه من التفكير أكثر من ذلك في مستقبل لا يعلمه إلا الله وحده.

***

خرجت من غرفة سلمى وأغلقت الباب خلفها شادرة، قابلت فاطمة بينما تنزل درجات السلم، أوقفتها متسائلة: لسه عند رأيه؟

أومأت فاطمة بهدوء: أيوه، الأحسن يا ناهد.. لو عايزه الموضوع دا يتم فعلا، تبعتي لياسين يجي يكلم عبدالرحيم بنفسه.

أضافت بنبرة تحذير خفية لكنها لم تفت ناهد: غير كدا الموضوع هيتقفل وأكننا ما سمعناش حاجه.

ثم أردفت بابتسامتها الحنونة: بس دا طبعًا ما يمنعش إننا أهل، ودا بيتك تنورينا فـ أي وقت وللمدة اللي تحبيها.. دا موضوع ودا موضوع تاني خالص.

ابتسمت ناهد بحب واحترام، إنها نعم العائلة التي تبغاها لشقيقها: على العموم أنا هأحاول أوصله وأشوف هيقدر يجي أمتى وأبلغكم.

فاطمة بتفهم: أهلا وسهلا فـ الوقت اللي يريحه ويريحكوا، ما أنتِ عارفه.. باب بيتنا مفتوح فـ أي وقت

-طبعًا، أنتوا الأصول كلها.

-طب يا حبيبتي، عن إذنك أما أطلع أجيب الدوا لعبدالرحيم لاحسن معاده يفوت.

-أكيد اتفضلي.

تابعت فاطمة الصعود وأكملت ناهد النزول، وصلت إلى الصالون حيث وجدت زين يمسك ببعض الملفات يطالعهاأحدون أن يلتفت إلى محمد الذي بان عليه السأم.

اعتدل محمد في جلسته ونظر إليها بجدية حتى يعرف ما جدَّ من أمور، فهمت فضوله؛ فأومأت له؛ كي يلحقها إلى الخارج.

تابعهم زين بنظراته الغاضبة متمنيًا رحيلهم في أقرب فرصة لكن تربيته تمنعه من قول ذلك علنية؛ فأكتفى بإهمال محمد مدعيًا تركيزه في ملفات العمل.

***

بعد صمت دام ما يقرب من الربع ساعة عقب روايتها لما قالته لها سلمى ثم أمها، قالت ناهد بجدية: معاك رقم يوصلنا لياسين فـ فرنسا؟

نظر لها محمد مستغربًا: أنتِ ناوية فعلا تخليه يجي يقابلهم؟

-وأنت شايف حل غيره؟

-بس مش خايفة يقولهم على كل حاجه ويبوظ الدنيا؟

-لا ما أنا أكيد هاتأكد الأول إنه مش هيعمل كدا يا فالح.

-وإزاي دا؟

-هات رقمه بس وأنت تعرف.

بحث في هاتفه حتى توصل إلى الرقم المطلوب ثم سلمها إياه.

ناهد بجدية شديدة لم يرها محمد من قبل: أيوه يا ياسين.. لا مافيش حاجه.. أنا كويسة.. أبوها عايزك تقابله وتتكلم معاه وإلا مش هيوافق على الموضوع.. لازم تيجي وتكلمه بنفسك وإلا..

علت الدهشة ملامح محمد من تهديدها لياسين بهذه الطريقة والنبرة المخيفة، لا يمكن أن تكون الواقفة أمامه هي نفسها ناهد التي عرفها بحنانها على إخواتها وعدم قسوتها عليهم دونًا عن أي مخلوق آخر، لقد أصبح الموضوع بالنسبة لها إما قاتلًا أو مقتولًا.

***

أنهت وضوءها وارتدت عباءة صلاتها ثم وقفت على سجادة الصلاة وبدأت في الصلاة للاستخارة، في ختامها رددت دعاء الاستخارة وقلبها يخشع لما يريده الله.

تنهدت براحة تثق أن ربها سيفعل ما فيه الصالح لها مهما كان، حتى إن رأت فيه شرًا لكنه بالتأكيد يخفي في جعبته من الخير الكثير.

طرقت والدتها الباب، فتحته لها باسمة: أيوه يا ماما.

فاطمة بسعادة: ألبسي بقى، العريس على وصول.

ارتفعت دقات قلبها وظهر التوتر على محياها: أكدتي على بابا إني لازم أكلمه قبل ما أقول رأيي؟

-أيوه، روحي أنتِ أجهزي عقبال ما أبوكِ يتكلم معاه الأول، واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

-يا رب.

-المهم تكوني صليتي استخارة.

-أه الحمدلله، لسه مخلصه أهو.

-طب الحمدلله، هأنزل أنا أشوف سهام وأم سهام فـ المطبخ واتأكد إن كله تمام.

بدلت الملابس التي خصتها للصلاة بفستان طويل عليه سترة بيضاء، عندما أوشكت على الإنتهاء من ربط حجابها جاءتها طرقات على الباب.

-أتفضل

دخلت ناهد باسمة: عامله إيه يا عروسة؟

نظرت أرضًا بخجل: الحمدلله.

ثم أردفت عندما لمحت ما تحمله ناهد في يدها: هو إيه دا؟

اقتربت منها موضحة: دي عباية ودا نقاب.

زادت الدهشة لديها: لمين؟

ناهد بهدوء: ليكِ، هتقابلي ياسين بيهم.

-ليه يعني؟.. ما أنا هاقابله بلبسي العادي دا.

ثم أضافت بشك: وبعدين أنا لبسي مش وحش أوي كدا.. ولا إيه؟

-أنتِ زي القمر ولبسك حلو جدًا، بس أنا عايزاكِ تلبسي دا لما تقابليه إنهارده.

لاحظت التردد على وجه سلمى فاردفت مازحة: من أولها مش هتسمعي كلامي؟.. دا أنا حتى فـ مقام حماتك.

ابتسمت سلمى: لا كلامك على عيني وراسي.. بس مش فاهمه إيه لازمته.

أجابته بجدية: هتعرفي بعدين، بس اعملي اللي بأقولك عليه دلوقتي.

وافقت أخيرًا بعد الكثير من التردد، حذرتها ناهد: أه ورتبي أفكارك وشوفي عايزه تسألي ياسين فـ إيه عشان دي أول وآخر مرة هتتكلموا فيها قبل الجواز.

أغلقت الباب خلفها، لم تنتبه بكامل عقلها للتنبيه الأخير في حديث ناهد فقد وقع نظرها على العباءة والنقاب الأسودين مستغربة هذا الطلب الغريب، لكنها تنهدت منصاعة وقد قررت الطاعة؛ حتى تصل إلى فهم ما تخطط له ناهد.. انصرفت تبدل ملابسها قبل أن تناديها والدتها.

***

استقبله عبدالرحيم وولديه زين وفارس كما وقف محمد جوارهم، نال الكثير من الترحاب على الرغم من عدم معرفتهم به؛ فهو يقابلهم لأول مرة منذ كان طفلًا.

أتت فاطمة بابتسامتها المرحبة المعتادة واصطحبت كادي معها حتى تترك الرجال يتحدثون سويًا.

ابتسم لهم ياسين بتلقائية، استشعر راحة بوجوده بينهم، اجتمع الرجال في المضيفة وبعد تبادل التحيات والسلامات.. دخل ياسين في صلب الموضوع الذي أتى من أجله.

تنحنح قائلًا: أنا جيت يا عمي إنهارده عشان أوضح سوء التفاهم اللي حصل.. أنا بعت ناهد عشان تخطبلي بنت حضرتك؛ لإني باعتبرها فـ مقام والدتي –الله يرحمها- مع إن فرق السن مش كبير لكن الاحترام والحب مالهومش دعوة بالسن

ابتسم عبدالرحيم باحترام: طبعًا يا ابني.. أختك اللي شالتك السنين دي كلها وأكيد دا حقها عليك.

هاجمه فارس عندما لاحظ تراجع والده عن ساحة الرفض: بس الأصول بردو إنك تيجي تطلبها بنفسك.. ولا إيه؟

ابتسم معتذرًا: والله معاكم حق، المشكلة إن عندي شغل ما كنتش عارف هيخلص إمتى.. وخوفت إن بنتكم حد تاني يخطبها وتروح من إيدي، خصوصًا بعد الشعر اللي قالته فيها ناهد.. ياريت تعذروني.

محمد معاونًا صديقه: كمان إحنا عشنا حياتنا فـ القاهرة وبرا مصر وبالنسبة لينا الحاجات دي عادي، يعني بقالنا كتير ما روحناش الصعيد عشان نعرف عاداتكم.

علق فارس ساخرًا: يعني حضرتك عايز تفهمني إنك لو بعت أخت حضرتك الكبيرة ناهد لواحدة من بنات برا هتقبل بكل سهولة جوازه زي دي؟

نظر ياسين إلى صديقه بحنق ثم عاد بنظرات هادئة إلى فارس: ممكن ما تصدقش دا بس هو ساعات بيحصل؛ لإن مايفرقش معاهم الجواز فـ حد ذاته، يعني ممكن تقبل كمجرد تسلية ونوع جديد ولو زهقت تسيبه.

تنهد عبدالرحيم: معاك حق يا ابني.. ربنا يهدينا ويهديهم.

سأل زين كأنه مجرد سؤال عرضي لا يقصد به شيء: بس ما قولتلناش أنت شوفت أختي فين عشان تطلب إيدها وعايز تتجوزها بالسرعة دي؟

فهم ياسين غايته فابتسم بمكر: كفايه إن أختي شافتها وزي ما قولتلك بتقول فيها وفيكوا شعر.

كز فارس على أسنانه وقد ضاق به: يعني لولا إنها عجبت أختك ماكنتش إتجوزتها؟.. وأنت مالكش رأي؟

بدأ ياسين يشعر بالإختناق فقد أدخلته ناهد في دوامة ليس على استعداد للدوران بها والإنصياع لها: ما أنا لو ماكنتش عايز أتجوزها فعلا ماكنتش جيت لحد هنا وسيبت مصالحي وأشغالي.

هتف زين مهاجمًا: بس اللي أعرفه أنك متجوز.. يبقى عايز تتجوز تاني ليه؟

تنهد ياسين، وقبل أن يرد سأله فارس: ومراتك موافقة تتجوز عليها؟

تدخل عبدالرحيم ناهرًا أولاده، لقد تركهم في البداية حتى يدرس ردود أفعال ياسين على مهل، لكنهم تحولوا إلى ذئاب مسعورة تريد نهش لحم الحمل الواهن: ما براحه

يا رجاله، الراجل لسه جاي من سفر وأنتوا شغالين أسئلة وكمان مش مدينه فرصة يجاوب.

أخفضا رأسيهما اعتذارًا لوالدهم الذي تابع موجهًا حديثه إلى ياسين بحنان: إيه رأيك ترتاح الأول ونبقى نتكلم بعدين؟

رفض ياسين بإمتنان: معلش يا عمي، أنا بأحب لما ابدأ حاجه أخلصها فـ ساعتها وبما إننا فتحنا الموضوع فـ هاكمله.. أنا من حقي أتجوز من واحدة لأربعة ودا شرع ربنا.

تقبل عبدالرحيم قراره متفهمًا: ماحدش قال مش حقك يا ابني، بس ليه مادام مراتك زي ما أنا شوفت ـما شاء اللهـ حلوة ومافيهاش عيب.

ياسين بجدية: اعتقد إن الأسباب دي من خصوصياتي.

دخلت فاطمة معلنة وقت الغداء وقد رُصَّ الطعام في إنتظارهم.

عقب عبدالرحيم قبل أن ينهض: مأحدام عايز تتجوز بنتنا فمن حقنا نعرف السبب بس مش من حقنا نحكم عليه.. على العموم بعد الغدا نبقى نكمل كلامنا.

حث ياسين خطاه حتى سار بمحازاة الأب وقال له بصوت لم يسمعه غيرهما، فرغبته في إنهاء الأمر بسرعة تسيطر على عقله؛ لإنه لا يحب المماطلة والانتظار: أنا متجوز بقالي خمس سنين بس ربنا حرمني نعمة الأولاد منها لكن مع غيرها ينفع.. وحضرتك عارف إن الولاد هما اللي بيدوا للحياة طعم.

ربت الأب على كتفه وابتسم بفهم: ماشي يا ابني.. بس زي ما قولتلك بعد الغدا نكمل كلامنا.

التف الرجال حول المائدة المتوسطة للطريق بين باب المنزل والسلالم المؤدية للدور العلوي، المُعدة خصيصًا لأجلهم بينما انعزلت النساء في غرفة أخرى بها أيضًا مائدة طعام رتبت للنساء، تُمَد عند وجود إجتماع رجالي كما يحدث الآن.

***

دخلت كادي وآية مع ناهد ووالدة سلمى إلى الغرفة التي خصصت لجلسة النساء، تفاجأت الأولى من المرأة الملثمة بالسواد فلم يظهر سوى عينيها العسليتين.

بدأت فاطمة تقدم لها من بالغرفة على التوالي، أشارت إلى امرأة تحمل طفلًا في الرابعة، تأملتها فوجدتها عادية أو أقل، بشرتها قمحية وملابسها ليس بها جديد: أسماء مرات ابني الكبير زين.

أومأت لها من بعيد شاكرة انشغال يديها عن السلام، بالإضافة لنجدتها بعدم وجود عادة القبلات الكثيرة على الوجه، تابعت تشير إلى الطفل المتمسك بعنق والدته: دا هشام.. أصغر أحفادي أربع سنين.

ثم استدارت إلى طفلين يقفان إلى جوار المرأة المنتقبة: دول بقى.. يزيد.. 8 سنين والكبير طه.. عشر سنين.

ابتسمت لهم بتكلف: أزيكوا يا ولاد؟

نظر لها أصغرهم بعيون سوداء تأمرها بالصمت فيما الأكبر لم يكلف نفسه عناء إلقاء ولو نظرة عليها، استدركت فاطمة مسرعة تخفي سلوك الأطفال السيء في استقبال الضيوف على غير العادة: ودي بقى بنتي سلمى.. العروسة.

استيقظت حواسها كاملة، تفحصتها بدقة شديدة قبل أن ترسم على ثغرها بسمة مرحبة فرحة، اتجهت تضمها وتقبلها: حبيبتي.. دا أنا هأشيلك جوا عينيا.

تراجعت وبدأت ترفع النقاب حتى ترى ملامحها، صدمت، فتاة بملامح رقيقة، أنف دقيق يفصل بين خدين ورديين، بشرة قمحية، هي ليست عادية ولكنها ليست بهية الطلعة كذلك فلِمَ النقاب؟

أفاقت تقول: زي القمر.. ما شاء الله.

أخفضت سلمى نظرها أرضًا، تتساءل داخلها في سخرية.. إذا كنت أنا كالقمر فماذا تكونين أنتِ؟؟

قدمت ناهد شقيقتها إلى سلمى: دي بقى آية أختنا الصغيرة يا سلمى.. هي أكبر منك بكام سنة بس هتتفاهموا جدًا.

سلمت عليها سلمى فيما آية تحاول أن تعرف ما ميز سلمى أمام أعين شقيقتها؛ لتصر على زواج ياسين منها.

دعتهم فاطمة للجلوس وبدء تناول الطعام. جلست تلوك الطعام في فمها ونظرات الغضب كأسهم نارية تقذفها على المسكينة التي لم تلحظ كراهية كادي الموجهة ناحيتها.

ظنت أن كادي صادقة عندما أخبرتها بأنها من طلبت من ياسين أن يتزوجها وأنها سترحب بها وتحبها كأختٍ لها.

ألقت ناهد نظرة سخرية على التي ستصبح رقمًا في حياة شقيقها الحبيب، تعلم حقيقتها المخفية على عكس الجميع، إنها تُصور نفسها ملاكًا يعشق ياسين حد العبادة بينما هي من أدنس أنواع البشر ولا تعرف للحب معنًا.

كانت سلمى تسرح في أفكارها الخاصة، بعدما سمعت ما يكفي لتدرك ذكاء زوجة خاطبهاُ ركزت تفكيرها على من قد تصير ضرتها، جميلة بعقل نشط دون عبقرية

فذة، أي أكثر ما يبحث عنه الرجل في المرأة.. فلماذا يريد الزواج منها؟، هذا أول سؤال يجب أن تطرحه عليه عندما يجلسان على إنفراد.

سألت فاطمة متعجبة: أنتِ إيه اللي مخليكِ لابسه النقاب يا سلمى؟

تدخلت ناهد لنجدة سلمى موضحة: أنا اللي طلبت منها تلبسه، عايزاها تقابل ياسين بيه.

نظرت فاطمة إلى كادي، لقد كانت ترتدي حجابًا يظهر أقراطها المتدلية من حلمتي أذنيها وتضع أكوامًا من مساحيق التجميل كما أن ملابسها لا تناسب مواصفات الحجاب الواجبة ثم بمجرد دخولها إلى غرفة تجمع النساء فقط نزعت الحجاب والسترة الخفيفة لتجلس على راحتها، سألت: بس ياسين شكله مش متشدد.

ربتت ناهد على يدها: معلش يا فاطمة سبيني أعمل اللي يريحني.

هزت فاطمة كتفها، وألقت نظرة تخبر ابنتها أنها غير مرتاحة للوضع رغم كلماتها اللا مبالية: مادام أقنعتي سلمى خلاص، أنتوا أحرار سوا.

ارتشفت كادي من عصيرها قليلًا متسائلة فيما بينها عما تخطط له ناهد وسبب إصرارها على ارتداء سلمى النقاب؛ فقد ظنت في البداية أن هذا زي سلمى المعتاد وليس نتيجة طلب أخت ياسين.

***

بعد إنتهاء الجميع من تناول طعامهم، أمر عبدالرحيم ولديه أن يأخذا محمدًا في نزهة ويعرفاه على المنطقة بينما يجالس ياسين ويتحدثان سويًا بهدوء. انصاع زين وفارس دون اعتراض رغم رفضهما إقصائهما عن الموضوع.

جلس ياسين برفقة عبدالرحيم في غرفة المكتب، شرعا في تبادل الكلمات بمختلف المواضيع. كان عبدالرحيم يدير دفة الحديث في شتى المجالات حتى يتأكد من ثقافته ووعيه، يخترق عقله، كذلك تحدث معه عن الأعمال وكيفية التعامل مع الموظفين، انتهى نقاشهما بتنهيدة عميقة تخرج من صدر عبدالرحيم مصرحًا: بالرغم إن مش عاجبني بنتي تتجوز واحد متجوز.. ولو الأمر كله يرجعلي أنا ما كنتش هأوافق، مع إني أرتحتلك فعلا وحسيتك زي ولادي تمام.. بس أنا فـ الأخر أب وياريت تقدر مشاعري.. أنا عايز مصلحة بنتي وإنها تعيش حياة هادية نسبيًا من غير مشاكل.. دلوقتي هأخليك تقعد تتكلم معاها والقرار الأخير ليها.. واللي فيه خير يقدمه ربنا.

اتجه ياسين إلى الصالون؛ كي ينتظر تشريف عروسه المصون، ذهب عبدالرحيم ينادي ابنته حتى تحادث المتقدم لاطبتها وتسأله فيما تشاء.

وقف يتطلع عبر الباب الزجاجي إلى الخارج، لقد بدأ الظلام يحل والشمس تحتجب خلف الأفق، تبدو الحديقة ساحرة، لم يشعر بيده فيما تمتد وتفتح الباب خاطيًا إلى الخارج يراقب المنظر الفاتن عن قرب دون عوازل.

***

أوقف زين السيارة بجوار حقل الفاكهة، ترجل الجميع منها ينظرون إلى الأشجار النخيل، كذلك الفاكهة الأرضية، لا تستطيع الأعين إدراك بعد الأرض والتوصل إلى خط إنتهاءها.

تساءل محمد: ملك عيلتكم بردو؟

أجابه زين بجدية فيما ينظر بعيدًا: ملكنا كلنا.

استدار إليه متعجبًا بعدما استشعار مقصد مخالف عن تصوره تجسد في نبرة صوت زين: كلكوا مين؟

رد فارس بملل: قصده يقولك.. ملكنا إحنا والناس اللي بيشتغلوا فيها.

محمد بعدم فهم: يعني دي شرك بينكوا ولا إيه؟

إلتفت إليه زين وبدأ التوضيح: إحنا عمرنا ما عاملنا حد على إنه أقل مننا ولا حد أشتغل عندنا كأنه مش شغال فـ ملكه.. كل واحد على قد ما بيدي لشغله وأرضه إحنا بنردهوله.

محمد: صحيح، أنتوا بتشتغلوا فـ الزراعة بس؟

أجابه فارس بفخر: لا، إحنا بنشتغل في البورصة وعندنا مصانع كمان.

-مصانع إيه؟

-في مصانع مربى من الفواكه دي، وفي مصانع تجفيف وتعبأة وتصدير.

-وكل دا الحاج عبدالرحيم بس اللي بيديره؟

أجابه زين: أنا وبابا بنشتغل من هنا مع عمي فاروق صاحب أبويا ومحمود ابنه.. محمود بيدير الأراضي وأنا بأخد بالي من شغل المكاتب.. مش ميه فالميه يعني، تركيزي الأكبر على المكتب والشغل الورقي بس بردو بأشارك محمود فـ الأرض والعكس بيشاركني فـ المكتب..

عقب فارس: وأنا قريب هأشيل حمل خالد اللي اترمى عليكوا.

-خالد؟؟

-خالد دا أخونا التالت، أصغر مني على طول وبعده سلمى وبعدها فارس.

فارس بزهو: وأنا أول ما أخلص الثانوية هأدرس وأكمل شغل معاهم فـ نفس الوقت.

ابتسم زين بسخرية: لما نشوف الأول هتعمل إيه في الثانوية وهتقدر على المذاكرة لوحدها الأول ولا لا..

جابهه فارسح بتحدي: هتشوف إني قدها وقدود.

نظر زين في ساعته ثم حثهم على الصعود إلى السيارة من جديد: كفايه كدا إنهارده ويلا عشان نشوف وصلوا لإيه.

صعد زين خلف المقود، لحقه الأخرين، أنطلق بسيارته ذات الدفع الرباعي يتعجل الوصول إلى المنزل؛ حتى يعرف هل استطاع ياسين إقناع والده وشقيقته بالقبول به أم لا.

***

دلفت سلمى والخجل يملؤها، لم تشعر بوجود أحد ولم تسمع أنفاس خاص من

المفترض أن يجلس في الغرفة بانتظارها، رفعت نظرها عن خطواتها المتعثرة فوجدت الصالون فارغًا، تعجبت؛ فوالدها أخبرها أنه ينتظرها هنا.

لمحت إهتزاز الستائر من الهواء الهابب عبر الأبواب الفرنسية المفتوحة، عقدت حاجبيها وخرجت عبرهم، وقد د ب الشك في قلبها واستشعرت وجوده بالخارج.

كان يتلمس زهرة ناصعة البياض، ابتسمت رغمًا عنها من أسفل النقاب، لقد كانت أحب الورود إلى قلب والدها؛ فدائمًا يراها تشبهها حتى ترسخ هذا التشابه في رأسها؛ فعشقتها هي الأخرى وخصتها بمكانة دونًا عن غيرها.

استدار عندما شعر بعيون مسلطة فوقه، تراجع خطوة مفزوعًا؛ لم يتوقع أن تكون منتقبة وحتى وإن كانت فعلى الأقل ترفعه في أول مقابلة بينهما التي تعد في منزلة الرؤية الشرعية؛ فهي تعلم أنه لم يرها قبلًا ومن توافق على الزواج من آخر تدرك جيدًا أنها ستكون الثانية بحياته دائمًا لابد أن يكون بها عيبٌ كبير أو دميمة الملامح.

عادت تصوب بصرها أرضًا بخجل، ارتبك ولم يدر ما يجب عليه قوله، لعن شقيقته بينه وبين نفسه، فيبدو أنها أختارت له أقبح نساء الأرض لتعيد تربيته من جديد وتثبت وجهة نظرها في أولوية جمال الروح عن جمال الوجه، أخذ نفسًا عميقًا وأقنع نفسه أن هذه الفتاة ليس لها ذنب، أشار إلى الداخل: تعالي ندخل جوا أحسن.

تقدمته إلى الداخل دون أن تتحدث، لوى شفتيه مغتاظًا ودمدم بصوت لم يسمعه سواه: لتكون خارسة كمان.. بقى دي واقعة توقعيني فيها يا ناهد؟ ماشي ماشي.

جلست على الأريكة وعندما تأخر في بدء الحديث أمسكت أطراف عباءتها وصارت تحرك النسيج بين أصابعها الممتلئة كأنها تخلو من العظام، بشرتها النقية رغم السمرة الخفيفة المكتسبة من حرارة شمس الصيف هدأته قليلًا؛ فيبدو أن بها بعضًا مما لا يعيب.

راقبها فترة قبل أن يسألها: عايزه تسأليني عن حاجه؟

صمتت برهة تجمع أفكارها ثم سألته بهدوء فاجأها قبله: أنت عايز تتجوز على مراتك ليه؟

كظم نفسه وأجابها ببرود: هأقولك نفس الإجابة اللي قولتها لوالدك وإخواتك.. دا شيء يخصني.

ضغطت على أضراسها: إزاي يخصك لوحدك؟.. على الأقل أنا لازم أعرف؛ مش المفروض إنك هتشاركني حياتي وهأشاركك حياتك؟؟

لمحت بريق الإصرار على إلتزام موقفه في عيونه، قررت استدراكه فلزمت الهدوء: بقالكوا قد إيه متجوزين؟

تمتم ينتظر خطوتها القادمة بفروغ الصبر: أربع سنين.

-عندكوا أولاد؟

-لا.

-ليه؟

-ربنا ما أردش.

ضاقت عيونها: عشان كدا عايز تتجوز عليها؛ عشان تخلف.

أثاره نبرة الإقرار في صوتها وليس السؤال، هاج عليها: لا طبعًا، دا شيء بإيد ربنا.

قبضت كفيها بشدة: وأما هو كدا.. إيه السبب التاني؟

بدأت تعدد فوق أصابعها: جميلة.. وهي زي القمر ما شاء الله، نسبها.. شكلها بنت ناس ومن اللي قالته عليها ناهد بردو يثبت كدا، فلوسها.. أنت ميسور الحال ومش محتاج زوجة غنية، دينها.. شكلك مش بتدقق أوي، الخلفة.. أديك بتقول مش السبب.. أومال إيه؟

أخذ عدة شهقات من الهواء المحيط به قبل أن يجيبها عازمًا عن عدم الإفصاح، إن لم يقل الحقيقة فلن يكذب: هأكررها تاني ولأخر مرة.. ما يخصكيش.

وقفت غاضبة: وأنا مش هأوافق غير لما أعرف السبب.

استقام أمامها بثقة وغرور: وأنا مش هأقول.

أصرت في إلحاحها تمنحه فرصة جديدة: يبقى أنا مش موافقة.

ابتسم ببرود: أحسن.

اتسعت حدقتيها من لا مبالاته، إذا كان غير مبالٍ منذ البداية فلما حضر لخطبتها من الأساس؟

ألقت آخر جملة على أذانه منصرفة: يبقى مالوش لزوم نكمل كلامنا.

انصرفت تدبدب السلالم من غيظها وقد رفعت نقابها حتى تستطيع ملئ رئتيها بالهواء الكافي لتهدئة عصبيتها. ابتسم براحة قبل أن يتذكر ناهد وتهديداتها، زفر بحدة قائلًا بغيظ: تعمل اللي تعمله بقى!

***

همت بفتح باب غرفتها عندما أوقفها صوت والدها، التفتت إليه بعد أن أخذت عدة أنفاس حتى لا تجرحه ولو بنظرة دون قصد من فرط غيظها.

ابتسمت له بهدوء مصطنع: خير يا بابا.

أشار برأسه إلى غرفتها حتى تكمل دخولها، فهمت أنه يرغب بحديث منفرد معها، تنهدت ودلفت تتقدمه ثم انتظرته حتى دخل؛ كي تغلق الباب خلفهما.

جلس على مقعد مكتبها وجلست بعيدًا عنه بقليل فوق فراشها، بدأت الحوار حتى تتجنب المقدمات: أنت رأيك إيه يا بابا؟

ضاقت عيونه فوقها: مش مهم رأيي أنأحدلوقتي.. المهم رأيك أنتِ إيه بعد ما قعدتي معاه؟

أعلنت أكثر منها تساءلت: حضرتك مش موافق صح؟

تنهد عندما علم أنها لن تشفي نفسه بجواب مباشر ما لم يرد: أيوه.. مش حابب إنك تدخلي على ضرة.

أيدته: وأنا مش موافقة.

أضافت عندما أحست أنه بانتظار البقية: مش عايز يقولي هيتجوز عليها ليه وأنا مش شايفة فيها عيب.. يمكن نفس السبب فيا ويتجوز عليا أنا كمان؛ ما اللي يعملها مرة يعملها ألف.

سألها حتى يتيقن: يعني مش موافقة؟

تذكرت قلة إهتمامه فأجابته بحزم: مش موافقة.

تنهد بارتياح ونهض يتعكز على عصاه: ربنا يرزقك يا بنتي بالزوج الصالح.

ردت عليه بابتسامة وراقبته حتى غادر، نهضت تطالع شكلها في المرآة.. عيونها عسلية وبشرتها تميل إلى البياض رغم ما لوحته الشمس من الظاهر فيها، نزعت الحجاب بنقابه وتلمست شعرها بعد إطلاقها سراحه، كان منسابًا بنعومة دفاقة بلونه البني الفاتح الذي يلمع كالذهب في ضوء الشمس، سقط نظرها على جسدها، فأختفت ابتسامتها وحل الإحباط مكانها.. لقد تكومت عدة طبقات من الدهن أسفل جلدها، ليست شديدة السمنة ولكنها لا تعتبر رشيقة؛ بالأخص إذا قورنت بجسد كادي.

انتفضت عندما فتح الباب على مصرعيه، نظرت إليها ناهد عبر المرآة مغتاظة والغضب يعصف بملامحها: أنتِ رفضتِ ياسين؟

أجابتها بهدوء ونظراتها محدقة بها من خلال المرآة: أيوه.. مش هأتجوز واحد مش راضي يقول عايز يتجوزني ليه.

صاحت بها: طب كنت أصبري.. مش تدي جواب على طول كدا.

التفتت إليها وقد ضاقت عيونها: أنا مش عارفه بتخططي لإيه بالظبط يا ناهد.. بس أيًا كان.. خرجيني منه.

توترت ملامحها: قصدك إيه؟

وقفت أمامها تمنع نظراتها من الهروب بعيدًا عن مواجهة عينيها: قصدي إنك ضغطتي على ياسين عشان يخطبني ويتجوزني.

دارت بجسدها قليلًا: إيه اللي أنتِ بتقوليه دا؟

أمسكت كتفيها تعيدها لوقفتها الأولى ثم قالت بإصرار واثق: بدليل إنك جيتي تطلبيني فـ عدم وجوده.. والجواز اللي عايزاه يتم بسرعة.. وتكرمك علينا بإنه يجي يوم الفرح بالظبط.. وتنبيهك ليا إني مش هأكلمه غير مرة واحدة بس فاسأله كل اللي أنا عايزاه وأنتهز الفرصة.. وغصبك ليا إني ألبس النقاب عشان ما يشوفنيش واللي مش عارفه سببه لحد دلوقتي.. كل دا مش كفايه يا ناهد؟

توجهت إلى الباب لكن قبل خروجها استدارت إليها مجددًا تشير لها بسبابتها: اللي يريحك يا سلمى.. ما تنسيش إني أديتك الفرصة بس أنتِ اللي رفضتِ.. رفستي حبك برجلكِ.

صعقت سلمى وبان على ملامحها، ابتسمت ناهد بانتصار: ما تقوليش إنك ما حبيتهوش.. بس حاولي تعيشي من غيره بقى.

صفعت الباب خلفها، انهارت أرضًا تبكيه، تبكي قلبها الذي دق حال رؤيته، لقد استخارت وظنت أن الراحة التي غمرتها للقاءها به -وإن كانت قبل الحديث- هي إشارة ربانية كافية تخبرها أنه خير زوج لها، كانت ترغب بإتمام زيجتها به على ما يرام لكن رفضه لتقديم السبب من زواجه بها أشعل داخلها القلق.. أدركت أنه ليس حبًا بها ولا كرهًا للأولى، إذن ستكون وحدها الخاسرة فقررت الإنسحاب منذ البداية.

وقفت خلف الباب في الردهة تبتسم وتتمتم لنفسها بصوت مرتفع: ذكية.. بس حبيتيه عشان كدا فـ اللحظة المناسبة هتستغبي.

كانت كلمة مستعجلة قالتها بغتة، تزرع بها فكرة داخل رأس الصبية حتى وإن لم يكن هناك ما يغزيها أسوة بالمثل القائل «الزن على الأذن أمر من السحر»، لكن لعجبها أن صدى كلماتها أسمع فيها أكثر مما توقعت.. بالنهاية هي الرابحة.

سارت إلى غرفتها ضاحكة وأظافرها المنمقة تنقر بخفة على الحائط: بس هتبقي مرات أخويا بردو يا سلمى؛ لإنك أكتر واحدة تنفعيه.. وفعلا بتحبيه.

دلفت لحجرتها وأغلقت الباب بهدوء خلفها، لا ترى في رفض سلمى ووالدها سوى إطالة لوقت اللعبة وبالنهاية سيحدث ما تريد، لذلك لا تبالي بالأحداث مأحدامت متأكدة من الانتصار.

***

أصر ياسين على أن ينتقل مع إخوته وصديقه وبالتأكيد زوجته إلى منزلهم بالقرية بعدما أبلغهم عبدالرحيم برفضه طلبهم.

حاولت فاطمة أن تثنيهم عن ذلك وتوضح لهم أن علاقتهم لا يجب أن تتضرر بسبب أمر جدَّ مؤخرًا. طمأنتها ناهد بأنه ليس السبب ولكن وجود ياسين ومحمد في المنزل سيضيق عليهم الخناق ويقيد حرية الفتيات بما أنه لا وجود لصلة قرابة أو دم.

انصاعت لهم فاطمة بالنهاية بعد أن عِيلَ قلبها، لكن صممت على أن تذهب إلى المنزل تنظفه مع الفتيات قبل أن يدخلوه؛ فقد ترك لمدة لا يستهان بها ويحتاج عملًا شاقًا، وجناح فردي لا يحلق.

ذهب ياسين ومحمد مع زين إلى الشركة حتى يقطعوا الوقت، منتهزين العطلة من الشركة في إلقاء نظرة على أعمال الآخرين. قضت كادي صباحها في النوم كالمعتاد فيما ذهبت بقية النساء برفقة الخدم إلى المنزل لتنظيفه.

كان البيت مهجورًا لسنوات طوال، ترسخت داخله رائحة العفونة، غطى العنكبوت بخيطانه جميع الزوايا، وتلفت أغلب محتوياته. أسرعن بفتح النوافذ من ثم خرجن يكتشفن الحديقة وما قد يستطعن فعله بها حتى تعود إلى سابق عهدها ريثما يتغير الهواء داخل المنزل.

زفرت آية حزينة عما أصاب الحديقة من إهمال جعلها تبدو كالحدائق التي تظهر في أفلام الرعب والتي تخفي أسفلها العديد من جثث الموتى: دي حالتها فظيعة أوي.

دارت العيون بروية في أرجاء الحديقة، مقاعد متهشمة ألقيت بإهمال فوق بعضها، وأخشاب محطمة تجمعت في أكوام متفرقة، أغصان يابسة وأوراق ذابلة، وورود أسودت من شدة عطشها وسيقان البتلات انهارت من تعبها.

نظرت أسماء -زوجة زين- إلى سلمى ضاحكة: ودي بقى مهمتك يا سلومتي.. الكورة فـ ملعبك.

ربتت سلمى على كتف آية، تصدق على كلمة زوجة أخيها: ما تخافيش أنا هأخليها ترجع زي الأول وأحسن.

نبهتها والدتها: بس لما البيت يخلص الأول، أديني بأنبه عشان ما تتسحبيش وتسيبينا نتعك لوحدنا فيه.

أمسكت وجنتي والدتها باسمة بمرح، مرققة كلماتها في دلال: لا تكلكي يا فاطومي.. كله تمام وتحت السيطرة.

أتى الغفير بما أحضرته والدة سلمى للتنظيف من السيارة ثم انصرف وتركهم يقف أمام بوابة المنزل الأمامية حتى يحرسهم وينتظر إنتهاءهم لكنه في قمة اليقظة لأي هتاف تقديمًا للعون ويد المساعدة في حمل ونقل كل ما ثقل وزنه عليهن.

***

أصبح زين أكثر تقبلًا لهما وتفتحًا معهما بعدما أطمأن إلى إغلاق موضوع زواج شقيقته من ياسين، أطلعهم على طريقة سير العمل دون تفاصيل، فإدارة ياسين لشركة والده وتعامله مع مختلف رجال الأعمال في مختلف المجالات أكسبته خبرة لا يستهان بها، وإن اختلف مجاله عن مجالهم.

عاونه ياسين حتى ينهي مشاغله في وقت أقل على عكس العادة، ارتاح زين بشدة لياسين وأحبه.. فقد اكتشف مهارته وذكاءه الحاد.

أجتمع الرجال في منزل عبدالرحيم لتناول الغداء فيما النساء في غرفة أخرى. جلست سلمى تتبادل المزاح مع آية.. تشاركهما أسماء بينما كادي مغتاظة لتلك العلاقة التي نشأت بين ليلة وضحاها بينهما ولم تنشأ نصفها خلال أربع سنوات معها لكن ما يهمها أن الزيجة لن تتم.

تعلقت آية بسلمى وأصابها الحزن عندما تذكرت أنها ستفارقها إن عاجلًا أم أجلًا، تمنت في إحدى اللحظات أن تتزوج من شقيقها لكنها عادت ونهرت نفسها؛ فكادي لم تجرم لتنال مثل هذه العقوبة.

****

عادت من منزل صديقتها حياه متمهلة، استهجنت صديقتها مجرد فكرة زواجها من شخص متزوج ورفضت تخيلها زوجة ثانية. هي نفسها لم يخطر لها على بال أن تصبح زوجة ثانية أو حتى يتقدم لها رجل سبق له الزواج، جلَّ أحلامها كانت تحتوي فقط من كان قلبه وعقله عذريًا مثلها، بريئًا لم يعرف سواها. لكن بالتفكير في الأمر بعد تعلق قلبها بياسين الذي لم تره سوى مرة، فقد أخذت أحلامها أدراج الريح ولم تعد تتخيل سواه زوجًا.

لقد أمضت ليلتها الماضية تستخير ربها وتدعوه، إن كان في تعلق قلبها بياسين ما فيه الصلاح لها أن يزوجها منه وإن كان فيه شر فلينزعه من عقلها وقلبها.

لم تخبر حياه عن كابوسها الذي أقض مضجعها. رأت نفسها تجلس فوق مقعد وسط الآلاء تمشط شعرها بروية وانسجام، نظرت أسفل قدميها فلمحت بيضة، جذبها بياضها فألتقطتها بين أناملها تتأملها، لم تكن مختلفة عن سواها ولكن دون سبب أحبتها وتعلقت بها، فجأة شعرت بشيء يحاول اجتذاب البيضة من بين أصابعها، نهضت، دارت حول نفسها، لا أحد.

أمسكت البيضة بكلتا يديها وركضت تحول الحفاظ عليها، تحميها، تعثرت وسقطت، نظرت للبيضة بلهفة تتيقن من سلامتها ثم تابعت الركض، وفجأة تحول سواد شعرها بياضًا.

زفرت بحدة، حتى الآن لا تدرك هل له تفسير أم أضغاث أحلام؟، ما معنى هذا المنام؟، وصلت المنزل وفتحت لها أم سهام مبتسمة، حيتها متساءلة: ماما لسه ما جاتش؟

-لسه.. ما أنت عارفه يا بنتي، راحت مع أسماء وولادها عشان تشوف أمها وأكيد الحاجة أم أسماء مش هتسيبهم غير لما يتغدوا معاها.

ابتسمت: معاكِ حق.

- أحضرلك الغدا؟

نظرت حولها: هو مافيش غيري ولا إيه؟

-زين جاتله مأمورية مستعجلة ونزل مصر، وفارس عنده درس ربنا يعينه على الثانوية وهمها.. لكن الحاج فـ مكتبه قالي إنه هيستناكِ عشان تتغدوا سوا.. ها؟ أحط الغدا؟

قبلتها سلمى على وجنتها ثم اتجهت صوب غرفة المكتب: أكيد.. أنا أقدر أزعل الحاج بردو؟!

ابتسمت بطيبة خالصة: ربنا يسعدك ويرزقك الزوج الصالح يا سلمى يا بت فاطمة.. آمين.

انصرفت إلى المطبخ تعد الغداء لأربابها بينما وقفت سلمى تطرق على باب غرفة والدها بمرح قبل أن تفتحه وتدخل ضاحكة: أنت ماتفتكرش سالومه حبيبتك غير لما تكون فاطومـ..

قطعت جملتها صرخة إرتجت معها قواعد المنزل، سقطت بجانب جسد والدها الممدد أرضًا على ركبتيها تبكي وتمسك رأسه بين يديها تحاول إفاقته.

حضرت الخادمة من خلفها الغفير على صوت الصراخ، نظرا إليها فيما تطرق على وجه والدها بكفيها الصغار: بابا.. بابا رد عليا.

صرخت أم سهام بعلو صوتها، تندب ما حدث لسيدها فيما شلَّ الغفير عن الحركة.. عيونهم تتبع دمعات سلمى المتساقطة ومحاولاتها الواهية في إعادة الوعي لوالدها الغائب عن عالمهم.

***

وقفت خارج غرفة الفحص تستند إلى الحائط والدموع تهطل من بين جفنيها دون إرادة منها، أدارت رأسها حيث تجلس والدتها تقرأ في مصحفها وقلبها يتمزق وعيونها تفرز دمعًا رغمًا عنها.

رغم عدم حبها لسلمى إلا أنها أشفقت على حالها، كان مظهرها يدمي القلب فالحزن قد تجلى بجميع صوره فوق وجهها، ناهد استغربت عطف كادي المفاجئ على سلمى لكنها لم تعلق.

مالت آية على سلمى تطمئن عليها، في حين وقف محمد وياسين جانبًا بانتظار الأخبار، جلست أسماء تبكي حموها الذي كان شديد الحنو عليها كوالدها.

خرج الطبيب فاستقام الجمع في إنتظار كلماته التي قد تزرع بهم الفرحة أو تلقيهم في قاع الحزن، ابتسم الطبيب مطمئنًا: ما تخافوش.. أزمة وعدت على خير.. هو بس أهمل نفسه وما أنتظمش في العلاج، هننقله دلوقتي الأوضة وممكن بكره الصبح يرّوح معاكوا.

تنهدات من الراحة اختلطت بشهقات الحمد، دنت ناهد من فاطمة تهنئها بسلامة زوجها، ابتسمت سلمى وضمت آية فرحة.

بعد استقرار عبدالرحيم في غرفته توجه الجميع إليه وجالسوه، توجهت سلمى فورًا إلى جانب والدها فوق الفراش تلومه: بقى كدا تخضني عليك الخضة دي؟،دا كله عشان حضرتك مش بتاخد الدوا فـ وقته!

ابتسم له رغم تعبه: حقك عليا.

سألته زوجته: أنا مش مدياك حباية الدوا بإيدي إمبارح؟

ـ ركنتها عقبال ما أصلي الضهر وبعدها نسيت.

تدخل ياسين منهيًا الجدال: خلاص يا جماعة حصل خير.. المهم إنه قام بالسلامة.

ربتت على كف زوجها باسمة بحمد: الحمدلله.. حمدالله على السلامة يا حاج.

فتح الباب ودخل فارس كالعاصفة الهوجاء، اتجه إلى والده يقبل يده: أنا لسه راجع من الدرس وعم خيري الغفير قالي إنك تعبت وجابوك المستشفى.. سلامتك يا بابا.

داعب خصلات ابنه السوداء المجعدة بكفه الحرة: شوية تعب وراحوا لحالهم.

رفعت سبابتها بوجه والدها منبهة: ومش هيرجعوا تاني -إن شاء الله-؛ عشان هتاخد الدوا فـ وقته وأنا بنفسي هأشرف عليه.

تناولت كفه تقبلها مضيفة: أنا عندي كام عبدالرحيم السقا يعني عشان أفرط فيه بسهولة كدا.

قَبلَّ مقدمة رأسها بحنان أبوي غزير: ربنا يخليكِ ليا وأفرح بيكِ فـ أقرب وقت.

لا تدري لم فعلت ذلك ولكن عيونها توجهت رغمًا عنها إلى الحائط المقابل حيث وقف ياسين بثبات، تقابلت نظراتهما للحظة قبل أن تعود إلى والدها بارتباك تمازحه تخفف عنه تعبه.

حركة عيونها لم تكن بالسرعة الكافية لتسقطها حدة بصر والدها، تابع مداعبتها له وقد لمح بريق الحب المتألم بعيون طفلته الوحيدة، أفجع قلبه أنه لم يجد هذا الحب متبادلًا، ملاكه دق قلبها لأول مرة.. إنما للشخص الخطأ.

لمح انغلاق أجفانها للحظات بقوة عندما انسحبت من الحديث وتركت أطرافه تنتقل بين البقية بسلاسة، قطب جبينه وربت على كفها: روحي يا حبيبتي إرتاحي.. شكلك تعبان.

تدخلت أم سهام: ما شوفتش حالتها لما شافتك على الأرض.. كانت تصعب على الكافر.. لولا سي الأستاذ ياسين.. الله أعلم كنا هنفوق من الصدمة اللي كنا فيها إمتى.

أوضحت زوجته: ياسين أول ما سمع صريخ أم سهام جه جري عشان يطمن.. والحمدلله شالك مع محمد وجابوك المستشفى.

صاح محمد بفرح: الحمدلله حد افتكرني فـ الليلة دي.

ركز نظره على ياسين وحده: ولاد أصول.. مش عارف أشكركوا إزاي.

ابتسم ياسين بهدوء: قوملنا بالسلامة دا كفايه.

أحاط فارس كتفي أخته يساعدها على النهوض: يلا يا سلمى أروحك.. شكلك تعبان.

التفت إلى أم سهام وزوجة شقيقه: تعالوا معانا أنتوا كمان.. مالهاش لزوم الزحمة دي.

نهضت ناهد: وإحنا كمان لازم نمشي.

زجرته والدته: فارس ما يقصدش يا ناهد.. دا كتر خيركوا إنكوا لحقتوه.

طمأنتها: لا فارس معاه حق، هو أه كويس بس لازمه راحة.

همَّ الجميع بالمغادرة، أوقفت فاطمة ابنتها: ما تنسيش الدوا.. وكلي حاجه.

أسرعت أم سهام تريحها من هم الابنة: هأجهزلها الأكل أول ما نوصل إن شاء الله.

أومأت بصمت، انغلق الباب فالتفتت إلى زوجها الذي بادرها باسمًا: كنت متأكد إنك مش هترضي تمشي معاهم فـ ريحت نفسي من كتر الكلام.

طرقت على وجنته بخفة: طول عمرك شاطر يا حبيبي.

قهقه ثم انزلق حتى ينال قسطًا من الراحة، فيما عقله أبى ذلك؛ فقد استمر بعمله حتى خلال النوم، هاجمته الأحلام والكثير من الكوابيس.

***

اندست في مضجعها بعد أن أجبرتها أم سهام على تناول طعام العشاء، فتحت الدرج بجوار سريرها وتناولت حبة دواءها، انزلقت منبسطة بعد أن خففت الإضاءة بما يتناسب مع حالة ألمها.

دون إرادة منها عاد عقلها إلى عدة ساعات ماضية عندما دلف ياسين مفزوعًا إلى غرفة المكتب، هتف بمحمد بعملية شديدة وسرعة بديهة: هات العربية قدام باب البيت.

هرول إلى الجانب الآخر من جسد عبدالرحيم وبدأ يدفعه للوقوف، صاح بالغفير غاضبًا: واقف متنح كدا ليه؟؟.. تعالى ساعدني!

أفاق الغفير من غيبوبته وأسرع يعاون ياسين حتى استقر جسد الرجل الكبير فوق المقعد الخلفي في السيارة.

ركبت سلمى بجوار والدها وأسندت رأسه فوق فخذيها، أسرع محمد بالسيارة إلى أقرب مشفى ثم عاون ياسين والممرضين في نقل الجسد الغير واع إلى السرير المتنقل الخاص بالمستشفى.

زادت دقات قلبها وارتسمت بسمة على ثغرها الوردي، أي شيء بعد الأمان قد تبغيه المرأة في فارسها المغوار، لقد حمل من فوق كاهلها حملًا ثقيلًا، وطمأنها وجوده في الجوار.

أغمضت عينيها على مشهده عندما اقترب منها قبل وصول أمها هامسًا بحنان: ما تخافيش هيبقى كويس إن شاء الله.

تربعت داخلها الثقة بصدقه وفر القلق هاربًا، غرقت في سباتها تحلم بالفارس الذي ظهر فجأة بحياتها، مضيفًا الكثير من لمساته الخاصة في تغيير أحلامها الرومانسية.

***

باليوم التالي لوصول عبدالرحيم إلى منزله قَدِمَ أخوه الأصغر لزيارته مع ولده لكن لم يكن سبب الزيارة مجرد الإطمئنان على صحة الشقيق الذي بالكاد ألقى عليه التحية قبل خروجه من المشفى بدقائق من باب الواجب والحفاظ على مظهره أمام أهل القرية.

جلسوا في المضيفة، وضعت سهام الصينية المحملة بأكواب الشاي وعلبة السكر ثم انصرفت متأففة؛ لا أحد يطيق هذا الرجل فرغم صلة الدم بينه وبين عبدالرحيم إلا أنه الرابط الوحيد الذي يصل الإثنين ببعضهما البعض، شتان بينهما، تشابه الطباع بينهما كالغرب والشرق تمامًا.

ارتشف شقيقه سعدان من الشاي مصدرًا صوتًا شديد الإزعاج، وضع كوبه جانبًا وبدأ الحديث: كان في موضوع عايز أكلمك فيه يا عبدالرحيم ياخويا

ضاقت عيونه بحذر، منذ قدم شقيقه وهو ينتظر هذه اللحظة؛ كي تنتهي التمثيلية البذيئة التي ظن سعدان أنه يؤديها بمهارة أو.. عدمها؛ فلا يظنه يهتم بالجودة: خير يا سعدان.

ربت على فخذ ابنه الجالس إلى جواره: بقى أنت عارف إن مهران ابني خلاص فـ سن الجواز، وهو اللي هيشيل الحمل من بعدي.. وأنا قولت مش هالاقي له أحسن من سلمى بنتك تكون نعمة الزوجة ليه.

كظم ضيقه: بس اللي أعرفه إن ابنك اتكلم على بنت الفرنجني الوسطانية .

فرك في جلسته بضيق ثم ضحك ضحكة سخيفة: لا دا كان زمان، بعدين الواد أولى ببت عمه ولا إيه؟

ألقى الكلمات بوجهه مباشرة دون ملاوعة: زمان دا قبل ما أتعب مش كدا يا.. أخويا.

ساد الصمت لحظات تابع بعدها: جاي عايز تجوز ابنك لبنتي عشان تاخد نصيبها فـ الورث.. أنت ياخويا جاي طمعان فيا أومال الغرب يعملوا إيه؟

تدخلحمهران محاولًا الاعتراض بخجل من صحة ظنونه في أبيه: يا عمي..

انتفض بغضب بعد أن أدرك ظهور حقيقته وقاطع ابنه: وبنتك هتعمل إيه بالفلوس دي كلها؟.. ما هي مسيرها هتروح لجوزها.. يبقى إيه لازمته بقى تروح للغريب وابني موجود؟

وقف وقد تملكه الغضب: مش مكسوف من نفسك وأنت جاي تقول لأخوك الكبير إنك عايز تخلي ابنك يورثه وهو لسه عايش على وش الدنيا.

انتصب أمامه قارعًا طبول الحرب: وهو أنت لسه هتبلط فيها أكتر من كدا؟

بهت عبدالرحيم من حديث شقيقه وكلماته النابية، لم يكن له الكره في يوم ولم يبخل عليه بشيء فلما تلك المعاملة وهذا الحقد.

أمسك مهران بذراع والده: كفايه يا أبويا لحد كدا لو سمحت.

دمدم عبدالرحيم متألمًا: الورث أتوزع بينا بالتساوي.. لا أخدت أزيد منك ولا أقل.. ليه بقى كل دا؟.. مش ذنبي إنك بعترت ورثك على مشاريع خسرانه، عشان تيجي وتطمع فـ مالي

-وأنت هيفرق معاك إيه بعد ما تموت الفلوس ليا ولولادي ولا لغيرنا؟.. ولا ناوي تاخد الفلوس معاك القبر.. هاهاها.

نظر إلى شقيقه كأنه يراه للمرة الأولى، كذب أحاديث الناس عن جشعه وأخلاقه الفاسدة، كان يراه بشرًا.. يخطئ و يحسن، أما من أمامه الآن لا يحمل سوى كل خلقٍ ذميم.

-فيه إني مش هأخلي بنتي تعيش مع واحد طماع زيك.. ولا أسمح إنها ترتبط بيك بصلة أكبر من كونك عمها.. اللي أنا قبلها مجبر عليها.

توجه إلى الباب وفتحه على مصرعيه: تعرف طريق الباب لوحدك ولا أبعت حد من الغفرا وياك؟

نفض طرف جلبابه وسار بإتجاه الباب لكنه توقف أمام عبدالرحيم وعيونه مملوءة بالغيظ والغل: أفتكر إنك اللي بدأت يا عبدالرحيم.

أنصرف يتبع مهران خطاه، لقد رفض منذ البداية المجيء إلى عمه لطلب ابنته، أحبها منذ الصغر وعندما عرض على والده رغبته بالزواج منها رفض بشدة وخطبه لسواها من هي أجمل وأغنى لكن منذ علم بمرض شقيق انقلب حاله وطفا حقده على السطح من جديد.

***

أطفأ حاسوبه المحمول وتناول فنجان القهوة من فوق الطاولة ثم تراجع في جلسته يحيط كتفي زوجته بذراعه الحرة، استجابت لقربه وأراحت رأسها فوق صدره.

انضمت إليهما ناهد وجلست تفتح التلفاز تقلب قنواته، نظر إليها ياسين وسألها: ناويه تفضلي هنا لإمتى؟

قبل أن تجيب دلفت آية من الحديقة وجلست معهم، أجابته ناهد: مش عارفة.. لسه شوية.

-شوية ليه؟.. ما اللي جبتينا عشانه أنتهى.. لزومها إيه القاعدة بقى؟؟

نظرت إليه بطرف عينها وأجابته بنبرة خفية: ومين قال إنه أنتهى؟

انتفض في جلسته مختنقًا بمشروبه: قصدك إيه؟

تدخلت آية تسأله: طب ما تسافر أنت وإحنا هنقعد شوية وبعدين لما نحب هنحصلك.

استدار إليها: وأنتِ كمان عجباكِ القاعدة هنا؟.. وشغلك وكليتك؟

هزت كتفيها بلا مبالاة: مش مهم.. في غيري يحلوا محلي.. عادي.

غمزتها كادي: يظهر صحتها جات على هنا.

هبط محمد الدرج إليهم باسمًا منشرح الصدر: يااه القاعدة هنا حاجه تانية.. تفتح النفس كدا وتدي طاقة للواحد.. كفايه منظر الزرع اللي حوالين البيت.

ابتسمت آية: ولسه.. أبقى شوف المنظر هيبقى إيه لما سلمى تخلص الجنينة.. هتبقى روعة.

عقد ياسين حاجبيه: ومال سلمى بالجنينة بتاعتنا؟

شهقت كادي ساخرة: هو أنت ما تعرفش إنها تطوعت بجلالة قدرها عشان تظبط الجنينة؟

التفت إلى ناهد مستنكرًا: ولازمته إيه تتعبيها؟.. ما كنا أتفقنا مع أي جنايني يجي يعملها.

هزت كتفيها: هي اللي عرضت وأنا ما حبتش أكسفها.

اتسعت ابتسامة آية: هي لما شافتني زعلانه على حالته دي.. عرضت أنها تظبطها.. وهتيجي تكملها كمان شوية -إن شاء الله- بعد ما تتأكد إن باباها خد دواه.

قطع الحوار دقات الباب، نهضت آية تفتح، حيت سلمى ببشر: إزي عمو يا سلمى؟

-الحمدلله، أحسن.

أضافت فيما تفرك يديها سويًا: ممكن بقى تلحقيني بالعدة عشان ابدأ شغل.. لأحسن كيفي اشتغل وأنا سخنة كدا.

ضحكت آية: ماشي هأدخل أجيب مفتاح المخزن اللي برا عشان العدة جواه.

استدارت ثم عادت إليها: صحيح.. ما تدخلي واقفة برا ليه؟

دخلت تقدم خطوة وتعود إثنتين، رحبت بها ناهد بشدة وسألتها عن صحة والدها وحاله، استأذن محمد حتى يلحق بزين في المكتب بعد أن عاد مساء.

أومأت برأسها لياسين وزوجتها وقد أوجعتها رؤيتها بين أحضانه، حثت خطاها للخارج خلف آية تتمنى لو لم تدخل وتراهما معًا أبدًا لكنه شر لابد منه؛ حتى تضع أحلامها خلف ظهرها.

***

أقبل خيري الغفير فتركت ما بيدها واتجهت إليه، تعجبت من مجيئه وتوجست أن يكون والدها ليس على خير ما يرام.

-في حاجه يا عم خيري؟

أوقفته كلماتها عن متابعة سيره جهة الباب الأمامي للمنزل: لا أبدًا، دا الحاج عبدالرحيم بعتني عشان أنادي للأستاذ ياسين.

أتى صوت من خلفها يسأل بهدوء: في حاجه؟

هدل شفته السفلى وهز كتفيه علامة الجهل: والله ما أعرف حاجه، هو قالي أندهلك وبس.

أومأ له ووضع كفيه في جيبي سرواله: طب روح أنت وأنا جاي وراك.

حث الغفير خطاه عائدًا من حيث أتى، التفتت إلى ياسين مستغربة: بابا عايزك ليه؟

أدار رأسه قليلًا لينظر لها ببرود: لما أبقى أكلمه هأبقى أعرف.

أثارت لهجته المتكبرة حفيظتها فلم ترد، استدار عائدًا أدرجه حتى يخبر من في المنزل بخروجه لبعض الوقت لكن بعد عدة خطوات لف رأسه إليها: أنتِ ليه كنت لابسه نقاب فـ أول مقابلة بينا؟

رفعت رقبتها مصدومة فماذا فتح هذا الموضوع؟، هي نفسها لم تكن تعرف الإجابة لكنها رأتها فرصة جيدة تخرج عليه ما حل بها من غيظ نتيجة تكبره قبل لحظات، كذلك عقابًا له على إعادته لتفاصيل المقابلة إلى ذهنها.

ضغطت بأول عقلة في سبابتها على جانب جبهتها بينما تقول بسماجة: كيفي كدا.

حركت كتفيها بكبرياء وعادت إلى عملها بالحديقة حتى تنهيها في أقرب فرصة، خشية أن تراه مع زوجته في أوضاع حميمية مرة أخر فتنجرح أعمق.

ركل إحدى الحصوات مفرغًا غضبه خلال مشيته العصبية، لقد شغل هذا السؤال باله منذ رأها تجلس على ركبتيها بجوار جسد والدها دونه، ظن حينها أن ارتباك الموقف هو ما تسبب في عدم ارتدائها له، أكدت رؤيتها بدونه اليوم أن النقاب كان استخدامًا عابرًا، لكنه كبح السؤال إلى وقته المناسب.

****

استقر بمجلسه أمام والدها في حجرة مكتبه، استبد به الفضول حتى يصل إلى مراد الرجل الأكبر سناً.

بادره عبدالرحيم بالحديث شاردًا: لما الواحد بيقع تبدأ الديابه تخرج تنهش فيه، دا اللي حصل لما وقعت فجأة.. بأحمد ربنا إنه فوقني قبل ما يحصل حاجه أكبر.

سأله بعدم فهم: ممكن توضح أكتر؛ لإني مش فاهم إيه علاقتي بالكلام دا.

ابتسم بألم: إمبارح جه أخويا عشان يطلب إيد سلمى لابنه، طمع.. طمع فورثها مني بعد موتي.. افتكروا لما تعبت ودخلت المستشفى إني هأموت ويورثوني.

-ربنا يديك طولة العمر.. بس بردو مش فاهم أنا دخلي إيه بكل دا؟

-أنت لسه عند طلبك؟

-طلبي؟

-جوازك من سلمى.

توتر وارتبك، تأكد عبدالرحيم من ظنه فتألم لكنه تابع بإصرار على تكملة الطريق الذي بدأه: أنا عارف كويس إنك مش بتحبها.. وأنا ما كانش عندي استعداد أجوز بنتي لواحد ما عندوش استعداد كامل إنه يسلمها قلبه على الأقل.. لكن شوفت فيك رجولة وقدرة على حماية بنتي.

نظر بعيدًا نحو نقطة وهمية فوق الحائط، عيونها الملتمعة بالحب تباغته كل حين، لأجلها يفعل، لأجلها وحدها تنازل وسلّم: عمها هددني قبل ما يمشي بعد ما رفضت طلبه إنه مش هيسبني فـ حالي.. أنا مش خايف على نفسي، أنا خايف ينتقم مني فيها.

أسرع ياسين: بس دا عمها.

نظر إليه ساخرًا: وأخويا.. بس طمع فيا وعايز يورثني بالحيا.

التزم الصمت فلم يجد ما يقوله، تابع الأب يستعيد ذكر ارتعاشها بالأمان بين يديه كما فعلت فور ذكر تصرفه وقت سقوطه: أديك شوفت.. يوم ما وقعت ما كانش في حد مع سلمى.. وأنت اللي ظهرت، ساندتها وقدمت مساعدتك من غير ما تفكر.. كل واحد كان ملهي فـ حياته ونفسه.. أخوتها رجاله ويقدروا يحموا نفسهم لكن هي لوحدها.

وقف بشموخ باسمًا بفخر وقد سقطت عيونه فوق الصورة المعلقة التي تجمعه مع ابنته الوحيدة: ما تفتكرش إنها ضعيفة.. لا، قوية، قوية أوي كمان.. دم السقا بيجري فـ عروقها، بس مهما كانت قوتها مسيرها فـ يوم هتضعف.. خصوصًا لما تعرف إن الدنيا مش كلها حلو زي ما فاكره وإن الشر مالوش عزيز.

عاد إليه بنظره: عايزك تكون جنبها فـ الوقت دا.. متأكد إنك الوحيد اللي هتقدر تديها القوة والحماية اللي محتاجاها.

-بس..

أوقفه عن المتابعة بإشارة من كفه: أنت ليك الحق فـ الرفض أو القبول.. وأنا هأتقبل رأيك أيًا كان بس مش قبل ما تفكر كويس.

ابتسم ابتسامة رجل يعي ما يدور من خلف ظهره: وما تقلقش الكلام دا إتفاق بين رجاله وأختك مش هتعرف بيه.. سواء كان جوابك بالموافقة أو الرفض.

دار عقله في ثمالة، رجل في منزلة والده يطلب منه يد العون ولكن هل يستطيع مساعدته أم سيكتفي بالإنسحاب؟

***

ترجل من سيارته حالما رأى شقيقه يغادر مدرسته، أشار له من بعيد كي يأتيه، اقترب منه فارس قلقًا فليس من عادة أخيه القدوم إليه: أنت إيه اللي جابك؟

ضربه على مؤخرة رأسه: دا بدل شكرًا يا أخويا.. ولا تسلملي يا غالي.

صعد إلى جواره هاتفًا: حيلك حيلك.. هو أنا هأشحت منك ولا إيه؟

تابع مزاحه مع شقيقه وبعد أن رماه بنظرة جانبية: دا اسمه ذوق مش شحاته يا بجم.

الطريق كان ضيقًا بالكاد يسمح لعربة واحدة بالمرور في حرية وراحة، رفع زين رأسه ينظر في مرآة السيارة متعجبًا للأخرى المخصصة للنقل خلفهم، دمدم بصوت هامس: دا غبي ولا إيه؟، الطريق يادوب يعديني أنا هأعديه إزاي؟

ارتفع صوت بوق السيارة الخلفية فيما تحاول المرور عبر الجزء الخالي من جانبه، أشار له بكفه بعدما أنزل زجاج نافذة السيارة، وعيونه تتابع مراقبته في المرآة العاكسة صارخًا: مافيش مكان هتعدي إزاي؟؟

يبدو أنه لم يسمعه أو لم يهتم بما قال فقد أصر على العبور، صف زين سيارته جانبًا مصرًا على الحديث مع السائق الآخر يفهمه ويدعه يمر لينتهي الأمر قبل أن يلقى كلاهما حدفه بالحيود عن الطريق.

هبط من سيارته ولحق به الثلاثة رجال من السيارة الأخرى، عقد حاجبيه متوجسًا واهتزت عويناته الزجاجية فوق أنفه تشاركه اضطرابه، اقترب منه أحدهما ووضع كفه فوق كتفه بينما عينيه تتحرك صعودًا وهبوطًا فوقه،ازداد قلقه من لهجة حديثه: واخد الطريق لوحدك ليه يا برنس؟

نظر إليه ورد ببرود: زي ما أنت شايف الطريق يادوب يساع عربية واحدة.

تحدث الثاني مملسًا على وجنتي زين: ولا إكمنك ابن ذوات يعني هتاخد الطريق لنفسك؟

طرق الثالث على معدن السيارة وهز برأسه: لا شغل نضيف بصراحة.

لم يعجب فارس ما يحدث بالخارج فهبط، توجه إلى شقيقه وهو ينظر إلى البقية: جرا إيه يا زين؟

خشى على شقيقه التهور والإندفاع فحثه على العودة إلى السيارة: مافيش حاجه، اركب أنت العربية.

ابتعد الثالث عن السيارة يلوي شفتيه ساخرًا: إيه؟.. خايف على العيل دا مننا ولا إيه؟

ثار فارس: عيل فـ عينك.. أنا أرجل منك ومن اللي معاك.

أمسك الثاني بتلابيبه رافعًا أحد حاجبيه: ما تتكلم عدل ياض.. ولا أنت فاكر إن فلوسك هتخلينا نسيبك كدا من غير حساب؟؟

حاول زين التقدم من أخيه لكن الأول كان ممسكًا به بقوة يمنعه عن الحركة ودنى منه الثالث حتى لا يتدخل، هتف زين: مالكوش دعوة بيه.. خليكوا معايا أنا.

قهقه الثاني بصوت متحشرج ساخرًا: بصراحة أنتوا الإتنين عايزين ربايه.. وإحنا قررنا ناخد فيكوا ثواب ونربيكوا.

ثم شرع في لكم معدة فارس والبقية تهجموا على الآخر، لم يسكت أيًا من الشقيقين، فبدأا برد الصاع صاعين، لكمة أمامها لكمتين.. والركلة تقابلها ركلات كيفما أتفق حتى طفق الدم يعبر إلى خارج الجسد مثبتًا إعتراضه على ما يحدث.

***

سارت مع آية متمهلة، تنظر حولها بالسوق، تعرّف ضيفتها على كل مكان ومتجر، قبضت يدها على محفظتها متوسطة الحجم وقد تدلت الميدالية المعلقة بسحابها.

لكزت كوع آية الأيمن وأشارت إلى أحد المتاجر التي تبيع ما أرادت شراءه، نظرت كلتاهما إلى اليسار فلم تتبينا القادم على دراجة بخارية مسرعًا.

مر بجانبهما كريح عاتية، تفاجأت آية بصراخ سلمى ووجهها المتوجع، هبطت بنظرها إلى الأسفل قليلًا فوجدت ذراعها يقطر دمًا من بين أصابعها القابضة فوق الجرح.

***

وضعت ناهد طبقًا مملوءً بالعديد من أزواج الحمام التي تم تحميرها فصارت براقة تفتح الشهية على إقتناصها، قالت بعتاب: ما كانش له لزوم تتعبي نفسك يا فاطمة وتعملوا كل الأكل دا.. وبعدين هو إحنا كل يوم هنتقل عليكوا وناكل عندكوا؟

نهرتها فاطمة بعد اعتدالها من ترك طبق الأرز الضخم في منتصف الطاولة: إخص عليكِ، ودا كلام تقوليه بردو؟.. إن ما شالتكوش الأرض نشيلكوا فوق راسنا.. ياريت تخليكوا معانا أحسن.

على الجانب الأيمن من الطاولة التي انتصبت في منتصف الطابق الأرضي حيث كان مفتوحًا يفضي كل جزء إلى الآخر دون جدار عازل سو الغرفة الخارجية «ا لمَضيّفة» التي تخص الزوار الأغراب والجلسات المحتاجة لعزلة، عقب ياسين وقد وصل إلى مسامعه الحديث الدائر بين المرأتين: فعلا إحنا مزودينها عليكوا أوي.

نهره عبدالرحيم الجالس على الأريكة المجاورة له: مالوش عازه الكلام دا.. مش معلقتين الرز اللي بتاكلوهم ولا حتة اللحمة هي اللي هتهد البيت.

ضحك محمد: حتة لحمة؟!، دا أنا لوحدي باكل 3 أربع حتت.

ضربه صديقه على فخذه: طفس.

استندت بجسدها على زوجها بملل متأففة، ترغب بالعودة إلى القاهرة في أقرب فرصة ولكن ناهد تغلق أمامها باب الفيئة، لقد أصابها السأم بشدة، لا تجد ما تفعله سوى العناية بنفسها والجلوس بلا حول.

تناولت فاطمة آخر الأطباق من أسماء ثم التفتت إليهم تدعوهم للإلتفاف حول الطاولة والشروع في تناول ما لذ وطاب.

استقر كلٌ في مجلسه لكن تغضن وجه عبدالرحيم ناظرًا إلى زوجته: أومال فين البقية؟

أجابت ناهد: آية خرجت مع سلمى يشتروا حاجات من السوق.

لوت فاطمة شفتيها: أنا مش عارفة إيه اللي طلعها فـ دماغهم فجأة حكاية نزول السوق دي، خلاص يعني لازم يشتروا الخرز عشان الأكسوارات اللي هيعملوها الساعة دي؟

علقت كادي بسماجة: أصلا الأكسوريز محتاجه ذوق عالي أوي، مش أي حد يعملها إلا لو كانت أي كلام.

عنفها ياسين بنظراته فيما تساءل محمد حتى يصرف الحديث عن كلمات كادي النابية المستهدفة لسلمى الغائبة: فين زين؟

ردت أسماء بينما تحمل أصغر أبناءها تهزه وتحاول إطعامه: قال هيجيب فارس من المدرسة بعد ما يخلص دروسه ويجي.. زمانهم على وصول.

وضع إرتفاع رنين الباب نقطة توقف عندها الحديث، وصل سمعهم شهقة أم سهام وضربها بكفها فوق صدرها، قال زين متوجعًا: طب عدينا الأول يا حاجة وبعدين أشهقي وأندبي براحتك.

دلفا الشقيقان إلى الداخل، تمهلوا أمام المتحلقين حول المائدة بمظهرهم المزري، كانت ثيابهم ممزقة وقد بدأت الكدمات تتلون بدرجات مختلفة كلٌ حسب وقت حدوثها الزمني، تبعثرت خصلات شعرهم البنية الداكنة وقد اختلطت بها ذرات التراب كسائر أنحاء جسدهم.

قفزت والدتهم ملتاعة، تشهق ما حل بأولادها، تركت مكانها بجوار زوجها واقتربت من صغيريها تتأكد من سلامتهما، صاحت بهما: إيه اللي عمل فيكوا كدا؟

سلمت أسماء طفلها الصغير إلى سهام ودنت من زوجها تتلمسه حتى تتيقن سلامته، صاح متوجعًا وهو يدفع يدها بعيدًا عن مواطن الألم: حاسبي، أنا مكسر خلقه.. مش ناقص.

سأله والده بحنق: إيه اللي هببتوه عشان ترجعوا بالشكل دا؟؟

تبادل الشقيقان نظرات الحيرة يخالطها اللوم في عيون زين والحرج في عيون فارس، حثهما الأب على الإدلاء بما حدث بصوته الجهوري الصارم، روى زين ما جرى بعد أن أجلستهما فاطمة تمسح على رأسيهما بحنانها المعتاد.

أتم زين القصة دافعًا الذنب من فوق كاهله إلى أخيه: يعني لولا البيه أتحمق أوي كان زماننا كويسين.. وزي الفل.

دمدم فارس بحنق وهو يكز على أضراسه: بقى الذنب ذنبي دلوقتي مش كدا؟

هز رأسه إيجابًا: ما أنت لو كنت خليتك متزفت فـ العربية كنا خلصنا منهم.

-تصدق أنا غلطان.. كنت خليتهم يلأفوك لبعض وأخليني متفرج.

-يلأفوا مين؟؟.. دول شوية صيع عايزين يتسلوا وأنا مش فاضيلهم فـ عايز أمشي الموضوع وأخلص.. مش أدخل معاهم فـ خناقة.

طرق عبدالرحيم فوق مقبض مقعده الثقيل معلنًا وقف الجدال، نقل بصره بينهما غاضبًا: إيه شغل العيال دا؟.. أنتوا الإتنين غلطانين وأديكوا أخدتوا جزاءكوا.

أضاف متأملًا هيأتهما: أطلعوا غيروا هدومكوا وتعالوا عشان تاكلوا.

عادا للوقوف والتوجه إلى غرفهم بالطابق العلوي، سمرهما دخول أم سهام تتبعها ابنة غفير المنزل وهي تلهث باكية، قطبت فاطمة موجهة حديثها إلى العاملة في منزلها: في إيه يا أم سهام؟

ارتبكت وتأتأت: ندى عايزة تقولكوا على حاجه كدا.

عاتبتها: ودا وقته؟

ثم التفتت إلى الفتاة تشجعها على الكلام: خير يا بنتي.

ترددت ندى قليلًا قبل أن تحسم أمرها وتلقي ما في جعبتها مرة واحدة: كنت فـ السوق باشتري حاجات مع أمي لما.. لما فجأة شوفنا الست سلمى ومعاها الضيفة المصراوية.

انقبض قلب الأم لكنها حاولت تكذيب إحساسها بحدوث مكروه لطفلتها: ها؟

نظرت الفتاة أرضًا وعقدت أصابعها تتم قصتها: هجم واحد حرامي على الست سلمى وسرق محفظتها و..

وقف عبدالرحيم من فوق كرسيه وسألها متوجسًا وقد أصاب وجهه الشحوب: سلمى جرالها إيه؟

ألقت الكلمات دفعة واحدة: الحرامي ضربها بسكينة وهي دلوقتي فـ المستشفى.

كتمت فاطمة الصرخة التي ودت الهروب عبر أحبالها الصوتية بكفها الذي وضع فوق شفتيها حاجبًا إياها، مدت أسماء خطاها إلى حماتها تشد على كتفيها.

صاح ياسين دافعًا مقعده للالف أرضًا: وآية حصلها حاجة؟

فطنت ندى أن هذا هو اسم الضيفة فقالت: اللي شوفته الست سلمى بس اللي اتصابت وأمي قالتلي أجي أبلغكوا.

حلت حالة من الوجوم فوق المكان، تسحبهم أفكارهم في دوامات لا مهرب منها خوفًا وذعرًا أن يكون أصابها ضرر، أطمئن ياسين نسبيًا فمن كلام الفتاة أن آية آمنة ولم يصبها أذى.

***

تدلت ساقيها من فوق سرير الفحص بالمشفى بعد إنتهاء الطبيب من مداوة الجرح أعلى ذراعها، أمسكت بساعدها تنظر إلى موضع الضمادة بحسرة وألم، وقفت آية تتطلع إليها بعيون أحمرت من البكاء خوفًا من إصابتها بما هو أشد.

فتح الباب على حين غرة ودلفت والدة سلمى في البداية تلحقها بقية القبيلة، التفتت سلمى إلى آية وقد جحظت عيونها، تكز على أضراسها فيما نظرة اللوم شعت من بؤبؤتيها.

هزت آية رأسها بعنف وكتفيها دليل عدم معرفتها بمن أفصح عما حدث، لقد اتفقتا على عدم إخبار أحد حتى تعود إلى المنزل؛ كي لا تزيد فزعهم عليها.

جذبتها والدتها بين أحضانها باكية: يا حبيبتي يا بنتي.. إيه اللي جرالك؟

استكانت سلمى بين ذراعيها ضاحكة: يا ماما ما تخافيش أنا زي الفل حتى شوفي.

تراجعت عن أحضانها ووسعت جفنيها إلى أقصى درجة وأخرجت لسانها فيما مدت ذراعيها جانبًا: ميه وتمانين حصان.. ولو تحبي ممكن أقوم أتنطت على السرير بس أنتوا تدفعوا تمنه بقى.

ضربتها والدتها بخفة على مكان الإصابة: اعقلي يا بت.

آنت ممسكة ذراعها، شهقت والدتها بعدما لاحظت الضمادة، اقترب والدها يطمئن على حالها: الحمدلله يا بابا ما تخافش.. جرح بسيط.

سألتها ناهد بعدما أطمئنت على صحتها وكذلك أختها: إيه اللي حصل؟

هزت كتفيها: أبدًا، حرامي ضربني بالمطواه فـ دراعي وسرق المحفظة وجري.

صاح فارس ثائرًا: وماحدش مسكه؟

لمحت وجوده خلف الجمع لأول مرة بحالته المزرية، سألته: أنت وراك معاد فـ السيدة ولا إيه؟

رفع حاجبيه متعجبًا: لا، إشمعنه؟

حركت سبابتها صعودًا وهبوطًا فوقه: عشان دا اليونيفورم بتاع شحاتين السيدة هههههه.

قهقه الجميع لمزاحها وقد تيقنوا من تمام صحتها، حتى ياسين لم يستطع كبح الضحكة الرزينة التي خرجت منه قصرًا، ظهر زين في حالة لا تختلف عن شقيقه عندها شهقت مفزوعة: زين!، إيه اللي حصلك؟

دمدم فارس متذمرًا: نفس اللي حصلي.. ولا أنا ابن الغسالة يعني؟

صفعه والده على قفاه ناهرًا: حسن ملافظك يا بجم.

دلك مكان الضربة مبتئسًا: ما براحه شوية.. الواحد جتته مش خالصه، أديني خرست خالص أهو.

ضم أصبعيه وحركهما فوق شفتيه كأنه يغلق سحابًا، رد زين باسمًا كإجابة لنظرات سلمى القلقة: ما حصلش حاجه.. خناقة شباب عادية، المهم أنتِ بخير.

تحدث عبدالرحيم مع الطبيب يطمئن على صحتها ويأخذ الإذن بعودتها إلى المنزل، وافق الطبيب وغادر أبوها متجهًا إلى حسابات المشفى.

لم يبتعد سوى عدة خطوات عندما توقف مذهولًا من رؤية شقيقه يقف أمامه، توجس قلبه خوفًا على شقيقه فهو يحبه مهما فعل به أو تمنى له الضرر، قبل أن ينبس بحرف ظهرت إبتسامة لا تحمل معنى آخر سوى الشماتة، سأله هازئًا: إزي حال السنيورة سلمى والولدين يا عبدالرحيم؟

ضاقت عيونه بترقب فكيف له بمعرفة ما حدث؟، تقدم منه حتى لم يعد يفصل بينهما غير عدة سنتيمترات، ربت على كتفه: دي بس قرصة ودن يا عبده.. عشان تعرف إني مش بأهزر.

أردف بقسوة وملامح حقودة: بس المرة الجاية مافيهاش هزار.. العلقة بدل ماهي لعب عيال هتبقى علقة موت.. والسكينة هتتزاح شوية وتبقى فـ القلب مش الدراع.

سأله غاضبًا: ليه كل الحقد والكره دا.. أومال لو ما كنتش أنا أخوك ودول ولاد أخوك كنت عملت إيه؟؟!

تلوت شفتيه ببغض: دا لو أبويا –الله يرحمه- شخصيًا جه عليا وخطف رزقي هأخلص عليه.

قطب: رزق إيه؟.. أنا مالي بشغلك ورزقك؟؟

-إيه؟.. نسيت إنك واكل مني السوق؟.. كل ما أقدم على حاجه تدخل فيها وتاخدها مني.. لو مرة ولا إتنين معلش لكن أنت -ما شاء الله- طالع واكل نازل واكل.. مش كفايه طمع ولا إيه؟؟

-أنا مش طمّاع يا سعدان، أنت بتقدم وإحنا بنقدم.. واللي عرضه ونظامه بيعجب الناس هو اللي بيشتغلوا معاه.. عرض وطلب، ما تشيلنيش أنا وولادي الذنب فـ إنك مش عارف تشتغل صح.

أضاف منبهًا: وبعدين خلي بالك السمعة بتأثر وأنت -ما شاء الله- سمعتك سابقاك.

كز على نواجذه مغتاظًا ورفع سبابته مهددًا: أديني أنذرتك.. أبعد ولادك عن سكتي وإلا القرصة هتبقى قطع ودن على طول يا.. ابن أمي وأبويا.

ألقى طرف عباءته فوق أحد كتفيه واستدار عائدًا من حيث أتى متكئًا على عصا تشبه عصا شقيقه ولكن برأس حية، ابتأس عبدالرحيم لا يصدق أن من تربى وكبر معه، شاركه الطعام بذات الصحن والركض بذات البيت، كذلك النوم بنفس الغرفة يرغب في التخلص من أولاده حتى يجعله يحيا مكلومًا، مقصوف القلب.

أفاق على يد قبضت كتفه بقوة، استدار ينظر إلى عيون ياسين، لقد لحق به حتى لا يتركه بمفرده لكنه توقف على أعتاب الحجرة عندما رأى حديثه مع الرجل الآخر، توجس منه ولم يرتح لهيئته فور رؤيته فآثر الإنتظار حتى ذهابه وقد تسربت عبارات حديثهم إلى أذنيه.

أنكر طعن الأخ لشقيقه من سابق خبرته مع أختيه لكنه الآن اكتشف أن الكون لا يدور حوله، فما هو لا يصح في نظره هو أصل الصواب في عين سواه.

أشفق على أب تائه بين المصلحة العامة وشر أخيه مقابل سلامة أولاده وحياتهم، قرر أن يساعده ويخفف الحمل عنه قليلًا، لقد كبر في العمر و علله الجسدية

وصحته الواهنة لن تتحمل المزيد من القلق والخوف، أعلمه بحزم مرفوع الرأس: أنا موافق يا عمي.

***

سمحت للطارق بالولوج دون أن تزيح عينيها من فوق حاسوبها المحمول، كانت تجلس على مكتبها تحدق في شاشة الحاسوب بتركيز شديد فيما تدون بضعة معلومات في مذكرة على يمينه، تأخذ فقط ما تحتاجه، شعرت بأن الصمت طال والداخل لم يعبر عما يريد.

التفتت بضيق لكنها تفاجأت بوالدها جالسًا على مقعد طاولة زينتها، ابتسمت ودارت بجسدها تواجهه: الحاج ذات نفسه عندنا؟.. يادي النور يادي النور.

ضحك ثم ربت على مكان بجواره فوق المقعد العريض: تعالي عايز أتكلم معاكِ فـ حاجه.

أطاعته لكن تململ قلبها في قلق، فور أن استقرت حثته على الحديث: خير يا عبده.

ابتسم وحدق في عيونه ليعلم الإجابة منها قبل لسانها: حبتيه؟

ارتبكت ودارت حدقتيها تائهة: مين.. مين دا؟

-ياسين.

أولته جانب وجهها: وإيه اللي فتح الموضوع دا تاني.. مش كنا خلصنا منه؟

تشبثت أصابعه المجعدة بخشونتها الناجمة عن أيام كد الشباب بذقنها حتى يحدق داخل عيونها دون السماح لها بالفرار: رجع طلب إيدك مني.

لمح البريق الخاطف في عيونها وشبح الإبتسامة التي كتمتها، لم تدر فشل إخفاءها لردات فعلها، وفشل محاولتها رسم عدم المبالاة، زفر: وأما أنتِ بتحبيه وعايزاه أوي كدا.. رفضتيه من الأول ليه؟

ابتسمت وثبتت عيونها في مواجهته: عشان أنت ما كنتش موافق.. سألتك قبل ما أقولك رأيي وحسيت الموضوع مش عاجبك.. مش قابل ياسين ولا فكرة جوازي منه.

قبلت وجنته الخشنة بسبب لحيته النامية: وأنا ما يرضنيش إني أتجوز واحد أنت مش راضي بيه.

مسح على شعرها فخورًا بابنته، تجمعت الدمعات بين جفنيه، إنها تستحق ما يفعله لأجل سعادتها، تذكر أخيه الذي يرغب في حرمانه منها، تردد في أذنيه المثل القائل: (ولدك.. ولدك ليوم زواجه وابنتك.. ابنتك طول حياتها)، كيف لهم يوم ولادتها أن ينوحوا ويبكوا رزقه بالفتاة، لقد صاح بهم يومها وطالب من لا يعجبه الإناث وأن زوجته ولدت أنثى فليرحل، إنها أشدهم حرصًا عليه وحبًا فيه، أكثرهم طاعة لكلمته وتنفيذًا لنصائحه.

-ما رفضتهوش كشخص، رفضت فكرة إنك تتجوزي واحد على مراته.

هزت رأسها: وأنا كنت بأفكر كدا، بس..

أتم جملتها التي أوقفتها خجلة: حبتيه.

أردف عندما أيدته: هتقدري تعيشي مع ضره؟، هتعرفي تأسي معاه حياة وهي طرف فيها؟

صمتت قليلًا قبل أن تجيبه: ياسين طلبني للجواز، معنى كدا إن عنده استعداد يأسس معايا حياة تانية.. يمكن في حاجه رابطة بينه وبينها أو سبب خاص بينهم مش

راضي يسيبها عشانه، يجوز عشان مش بتخلف خايف يسيبها ويجرحها.. كمان ممكن ماحدش يرضى يتجوز واحدة مش بتخلف.

رغم عدم إرتياحه بالكامل لهذه الزيجة لكن فرحة طفلته تكفيه: يعني موافقة.

أخفضت رأسها بحياء ودمدمت: أيوه.

جذب رأسها بكفه الضخم ولثم جبينها بخفة: ربنا يتمملك بخير يا بنتي.

نهض لكنها أسرعت تتشبث بكفه وقالت بجدية: لكن لو حضرتك مش موافق أنا كمان هأرفض.. أكيد أنت هتعرف مصلحتي أكتر مني.. أنا واثقة من دا.

أوقفها أمامه باسمًا، هذه اللحظة أثبتت حسن تربيته لها وأن ما غرسه بداخلها لم ولن يموت بيوم من الأيام، لقد فضلت طاعته حتى وإن أمر بخسارتها لمن دق له قلبها؛ لذلك لن يكون هو الجاني على فؤادها فيؤد حبها في مهده.

-كفايه إنك موافقة عشان أوافق.

ابتسمت قبل أن يضيف وقد تغيرت ملامحه إلى الغموض: بس بشرط.

تأكد من إصغاءها فأكمل: وقت ما تحسي إنك مش قادرة تكملي، خلاص جبتي آخرك، ترجعي هنا. دا بيتك وهيفضل مفتوحلك، سواء كنت حي.. أو ميت.

ألقت نفسها فوق صدره: لا ما تقولش كدا.. ربنا يديك طولة العمر.

شدها إليه فترة ثم ابتعد متجهًا إلى الخارج، جلست على حافة فراشها وقد توجس قلبها، لا تنكر مشاعرها التي ثارت لأول مرة عند رؤيتها ياسين، وفرحتها بإصراره على خطبتها لكن رغم ذلك هناك ما ينبأها أن حياتها معه لن تكون أبدًا باليسيرة.

تنهدت مستلقية على ظهرها وقد ارتسمت بسمة سعادة على ثغرها: ومن إمتى الحياة سهلة يعني؟!

وقفت فجأة تبعثر الوسادات في الهواء وتجذب أطراف الستائر راقصة بسرور، تدندن بأعذب ألحان الحب وتعزف سيمفونية ألفها قلبها.

***

تحدد العرس بعد عشرة أيام، أسرعت تضب جهازها الذي بدأت والدتها تعده منذ مولدها. رافقتها آية في كل خطوة، لم تتركها. في حين سافر محمد وياسين لينهوا بعض الأعمال التي طال تعليقها، رحلت معهم كادي وناهد بحجة تجهيز غرفة العروس والمنزل لاستقبال ساكنته الجديدة.

رن هاتفها فوضعته بين كتفها وأذنها متابعة طي الثياب ووضعهم في الحقيبة: أيوه يا حياه.

-مش لاقيه نفس موديل الجزمة باللون الأبيض.. فيه أسود وبني أجيب أنهي؟

-لا أنا عايزه الأبيض.

-طب أعمل إيه أنا دلوقتي؟؟.. الأبيض خلص ومافيش غير اللونين دول.

-أووف بقى.. هو اللون الأبيض مش هيجي منه تاني؟

-سألته قالي الله أعلم، حتى لو جه مش قبل شهر عشان هو مستوردها مخصوص من برا.

-استغفرك يا رب، طب شوفي محل تاني يمكن تكون عنده.

-يا بت بأقولك مخصوص.. إيه اللي مش مفهوم فـ كلامي.. أكيد مش هتكون فـ محلات تانية.

-طب دوري يمكن تلاقيها.

-أنتِ يا بت عايزة تلففيني وخلاص؟؟.. ما أنا قولتلك اشتريها لما عجبتك إمبارح وأنتِ اللي قولتي لا.. يمكن ألاقي أحلى منها.

-يووه يا حياه، بالله عليكِ شوفيهالي.

-اللهم طولك يا روح.. عارفه لو ما كنتيش عروسة كنت طبقت فـ زمارة رقبتك.

-أمـوووه، حبيبة قلب العروسة يا ناس.

-لا يا شيخة!، طب غوري بقى عشان ورايا لف كتير.. جاتك القرف فـ طعامتك.

أغلقت معها ضاحكة، حياه صديقتها الصدوقة، من تخفف عنها ثقل همومها وتهدئ مخاوفها، تمحو توترها بمزاحاتها المستمرة، تنهدت باسمة: ربنا يخليكِ ليا يا أحلى صديقة بنكهة أخت.

نادتها والدتها فأسرعت إليها، لقد قدمت زهراء ببعض الملابس التي نسجتها خصيصًا لها، إنها في منزلة أختها الكبرى وأم صغيرة لهن.

***

بعد عدة ساعات، فتحت الباب فجأة مما جعل الجميع ينتفض ويستدير إليها بحنق، دفعت حقيبتين لمتجرين مختلفين فوق الفراش ووضعت يديها بخصرها متأففة: أهو.. ولو ما عجبتكيش أخبطي راسك فـ الحيطة دي.

وأشارت إلى أحد أجناب الحائط، نظرت سلمى حيث أشارت ثم عادت إليها متساءلة: وإشمعنه الحيطة دي يعني؟

-هاه، عشان فيها بروز، أنتِ تخبطي راسك فيها فالبرواز يتهز فـ يقع فوق نفوخك وأخلص منك ومن بهدلتك ليا.

قهقه بقية الحضور فيما هتفت بها سلمى حانقة: أه يا واطية، كل دا عشان شوز.

-ما عشان «الشوز» دي لففتيني على رجلي أربع ساعات يا ظالمة

صاحت قافزة: يعني جبتيها؟

أشاحت بيدها جهة السرير: أهي عندك أهي.

أسرعت تفتحها إحد الحقيبتين وأخرجت حذاء بنفس التصميم الذي أعجبها لكنه باللون الأسود، عادت إليها مغتاظة: هو أنا مش قولت أبيض.

-أيون.

-ودي بيضا؟

-لا فرخة هأ هأ هأ.

ضربت الأرض بقدميها: بت أنتِ!، ما تستفزنيش!!

ربتت على كتفها ببراءة: ما تعصبش نفسك يا براعي.

هزت إحدى فردتي الحذاء في الهواء مكررة فيما تضغط على مخارج الحروف بشدة: دي لونها أبيض؟

علقت آية مازحة: اعتبريها بيضا بس عندها حداد هأ هأ هأ.

ضربت حياه كفها بكف الأخرى ضاحكة: حبيبتي يا يويا، بتتعلمي بسرعة يا بت.

غمزتها آية: تربيتك ياسطى.

ألقت على كل واحدة فردة حذاء صارخة: بس، أشوف فيكوا يوم يا بُعَدا.

اقتربت منها زهرة وهي تلوم أختها وآية: معلش يا سلمى، إهدي يا حبيبتي، هما بس بيحبوا يهزروا معاكِ شوية.

تناولت حياه الحقيبة الأخرى من فوق الفراش وقدمتها إلى سلمى: بصي.. أنا عملت حسابي وجيبت واحدة بيضا إحتياطي.

استرخت قليلاً والتقطت منها الحقيبة تفتحها، جحظت عيونها لما رأت، سألتها فاطمة بقلق: في إيه يا سلمى؟

أخرجت بأطراف أصابعها الحذاء، كان حذاء ذا عنق طويل من البلاستيك باللون الأبيض، يشبه ما يرتديه الجزارون ومن يرغب في حماية ساقيه أثناء العمل.

سألتها بهدوء يسبق العاصفة: إيه دا؟

رمشت عيونها بشدة مدعية براءة لا تملكها: شوز.

رجته بقوة: أيوه أعمل بيه إيه الزفت دا؟

زمت شفتيها وأحاطت كتفيها تفهمها بهدوء كأنه طفلة تعاني من الغباء وقصور في الفهم: أنتِ كنت عايزه جزمه بيضا صح؟

هاودتها: صح.

-وأنا ما لاقتش جزمه بيضا صح؟

-يظهر كدا.

أمسكت الطرف الأخر من الحذاء: بس لاقيت دا.. وأبيض.

عادت ترجه وقد بدأت تفقد ما تبقى من صبر: أيوه أعمل أنا إيه بيه دا؟؟

نظرت لها مستهجنة سؤالها: هتخدي الجزمتين دول وتحطيهم فـ الخلاط.. هتطلعلك جزمه حمار وحشي إنما إيه.. موز اللوز.

فرت هاربة إلى الخارج فلم تصبها فردة الحذاء التي اصطدمت في الباب بقوة، بعدما تأكدت أنها تفادت الضربة أطلت برأسها من فتحة صغيرة وقد واربت الباب قليلاً: تؤ تؤ.. كدا هتكسري الباب ولا إكمنك خلاص ماشيه منها هتخربيها؟؟

صفعت الباب بشدة قبل أن تدركها الفردة الشقيقة للتي ألقيت قبل لحظات، عادت تفتح الباب بعد سقوط الحذاء أرضًا: مِش حِيلو علشـــــــانك.

دارت حول نفسها تبحث عما تلقيه فوق رأسها، أوقفتها حياه: تؤ تؤ، هي الجزمه فردتين.

ثم نظرت خلف الباب: والإتنين منورين هنا ورا الباب.. بتدوري على إيه يا بوتي؟

لم تتم جملتها حتى اصطدمت برأسها إحدى الوسائد، حكت رأسها إثر الضربة تلفتت حول نفسها وبدأت تنظر في أرجاء الغرفة، سألتها زهرة: بتدوري على إيه؟

حكت رأسها بغباء: بأدورُ على النجوم.

اندهشت فاطمة: نجوم إيه يا بنتي.. سلامة عقلك دا إحنا العصر.

هزت سبابتها نافية: لا لا، النجوم اللي بتدور فوق الراس دي فـ أفلام الكرتون.. أصلي نفسي أشوفها وتلف حواليا.. إشمعنه هما؟!

انفجروا في موجة من الضحك بينما تقدمت سلمى من صديقتها بلهجة متوعدة: طب إيه رأيك بقى.. أنا ما يرضنيش زعلك أبدًا، عشان كدا هأفضل أضربك على نفوخك لحد ما تشوفيهم.

أفلتت مقبض الباب تركض في أنحاء المنزل وسلمى في إثرها، صرخت لاهثة: خلاص خلاص، مش عايزه أشوفهم، أصلاً تلاقي كان عندهم نباطشيه فـ السما بالليل وإنهارده يا حبة عيني كمان.. مش عايزه أرهقهم.

عضت على شفتيها: ترهقيهم؟؟.. ماشي يا ست حياه.. يا أنا يا أنتِ.

***

مدت قدميها بعرض الأريكة تقلب إحدى مجلات الموضة والأزياء، رأها ياسين فتبسم واقترب منها على مهل مخففًا قوة خطواته حتى لا تصدر أي صوت، أمسك كتفيها فجأة صائحًا: بتعملي إيه؟

انتفضت فزعة والتفتت إليه تضع كفها فوق صدرها تحاول إعادة تنظيم دقاته المرتعبة، عاتبته بحنق غاضب: بقى كدا يا ياسين؟.. كنت هتموتني يا أخي.

جلس إلى جوارها وضمها بقوة إلى صدره، لثم جبينها: بعد الشر عليك.. إن شا الله أنا.

ضربته على صدره: بعد الشر عنك.

أخذهم الحديث في شتى الأمور، يقص كل واحد منهم ما فعله خلال يومه بعيدًا عن الآخر. انضمت إليهم ناهد وألقت جسدها على كرسي جانبي، زفرت حامدة ربها: أخيرًا الأوضة جهزت.. كله تمام.

قالت بسخرية: مبروك.

لم تعرها أي إهتمام ونظرت لأخيها وسألته بجدية: هتسافر إمتى؟

-اليوم اللي قبل الفرح.

أومأت ونهضت من مكانها تتركهم وحدهم، دفعته كادي بعيدًا ونظرت إليه بحزم: ياسين.

تصلب: أيوه.

بسطت كفها على جانب وجهه البعيد عن عيونها تديره إليها: يوم فرحك.. هتنام معايا.

قطب جبينه: قصدك إيه؟

أبعدت يدها: قصدي إنه حضرتك مش هتدخل عليها، وهتبات الليلة دي معايا.

ملس فوق رأسها: إحنا اتفقنا إني هأتجوزها فترة وبعدين هأطلقها.

هزت رأسها مؤيدة: ولحد ما تطلقها مش هتلمسها.

كان قد العزم على ذلك لكن أغاظه لهجتها الأمره، وقف شامخًا: مش أنتِ اللي هتقوليلي أعمل إيه يا كادي.. أنا مش ابنك.. أنا جوزك.

ارتسم الأسى على ملامحها ببراعة وأخفضت نظرها مبتلعة عبراتها: معاك حق، وأنا عمري ما هأكون أم عشان كدا أنا غلطانه إني بأحاول أحافظ عليك.

ضغطت على وتره الحساس، تمالك نفسه وعاد إلى جوارها يضم كتفيها: أنا آسف، مش قصدي كدا.

رفعت له أعين تلمع بالأدمع: أنت عارف مجرد إني أتخيلك معاها فـ أوضة واحدة بيدبحني إزاي؟؟

مسح القطرة التي هربت رغمًا عنها: وأنا عمري ما أتخيل غيرك معايا أو زوجة ليا.

***

وقفت أمام المرآة تتطلع إلى إنعكاس صورتها بعد أن أتمت زينتها، أضفى بريق السعادة في عيونها جمالًا ساحرًا عليها، عوضها عن المكياج ولمسته، وضعت ملمع شفاه باللون الزهري لم يضف كثيرًا إلى لون شفتيها لكنه دعم البريق الآخاذ لمقلاتيها.

لفت طرحتها إلى الخلف لكن طرفها الطويل دار مرتين حول عنقها غير سامح بتعرية رقبتها، كانت الطرحة مرصعة في مقدمتها بألماسات متوسطة متلألأة رصت حتى تبدو كتاج.

فستانها دون أكمام لكن له رقبة عالية، ارتدت فوقه سترة قصيرة بأكمام واسعة ربط طرفيها من أمام الصدر بسلسال فضي بسيط.

استدارت حول نفسها عندما رأت شهقات والدتها محاولة كتم الدموع التي تأبى إلا الهطول عبر المرآة، ضمتها بقوة ففقدت تماسكها: ربنا يباركلك يا بنتي ويسعدك مع جوزك.

حالت حياه بينهما واعترضت بإقتضاب: دي جوازه ولا جنازه.

ضربتها فاطمة على كتفها بخفة: بكره لما تتجوزي وتفارقينا وتفارقي زهرة هتعرفي.

تذكرت رفض والدها لشادي فلوت شفتيها متأففة: لا يظهر إني مطولة على قلبكوا حبه.

ارتفعت طرقات والد سلمى على الباب يطلب الإذن بالدخول برفقته زين شاهدها ومحمد صديق ياسين، لمحت الدفتر بين يدي أخيها الأكبر.

سألها الأب للمرة الأخيرة قبل أن تسقط الفأس في الرأس: موافقة تتجوزي ياسين؟

أومأت فدفع زين إليها القلم محاولًا إخفاء ألمه لرحيلها عنهم خلف ابتسامته: طب إمضي هنا.

أمسكت القلم ووقعت حيث أشار، فور إنتهاءها تعالت الزغاريد من صديقاتها وأمها، ضمتها حياه مباركة وكافحت سلمى تحبس دموعها.

***

تقبلت التهاني من المدعوين، ودعت عائلتها وأقرب صديقاتها فيما تحبس دمعتها رغمًا عنها، فتح لها ياسين الباب المجاور لمقعده وانتظر حتى لمت أطراف فستانها المتسع وحشرتها في الداخل.

تمسك عبدالرحيم بذراع ياسين ونبهه: سلمى تحافظ عليها وتخليها فـ عينك.

أضاف: وأنا أول ما أخلص الموضوع اللي بيني وبين سعدان هأبلغك.

أومأ وطمأن حميه حتى يشعره براحة متأكد أنه لن يذوقها مادام الخطر يحوم حولهم: ما تقلقش يا عمي.

صممت على أن تسافر بثوب عرسها، تريد أن تدخل عش الزوجية به، ركبت ناهد وآية وكادي في سيارة محمد تاركين مساحة للعروسين من الاستقلال وأخذ حرية الحديث بعيدًا عن الآذان المصغية.

ظلت طوال الطريق تفرك كفيها توترًا، تخجل من رفع نظرها إليه أما هو فقد كان واجمًا يحدق في الطريق أمامه كأنه جسد فقد روحه.

التفتت إليه تذكره: قول دعاء السفر.

نظر إليها بزاوية عينه وأومأ دون نطق، لم تعلق على صمته فقد أراحها؛ لإنـها من فرط إنشداد أعصابها تخشي أن تلجم الكلمات في حنجرتها وتأبى الخروج، قررت أن تستغل الوقت في الاستماع إلى القرآن الذي أطلقه فور تحركهم علّه يخفف عنها.

وصلوا سالمين إلى المنزل بعد ساعات طويلة من القيادة واستراحات قصيرة متقطعة، كان الوقت قد قارب الفجر، انتظر محمد حتى ترجلت النساء من سيارته ثم إنطلق مع ناهد إلى شقتها الخاصة يوصلها قبل العودة إلى داره، حاولت معها آية أن تبيت معهم لكنها أبت على وعد بالقدوم في الصباح التالي.

ساعدت آية العروس في الدخول إلى حجرتها بثوبها الذي أصابه التجعد من طول مدة جلوسها في السيارة دون حركة تذكر، أطمأنت عليها وذهبت إلى غرفتها متثئبة تتلمس موضع فراشها.

وقفت في منتصف الحجرة ونظرت حولها، أعجبها تناسق الألون، كانت الجدران مطلية بتفاوت بين الأرجواني والرمادي فيما السرير تداخلت ألوانه بين الكريمي والذهبي المتمثل في الطبقة الجلدية المضافة لظهره (كابتونيه)، تناثرت أوراق الورد على الفراش مما جعلها تبتسم بخجل.

دعست على الأرضية الخشبية مصدرة قرقعة بكعب حذاءها تمتصه السجادة الرمادية المطعمة بالأرجواني القاني ثم يعود للإرتفاع فور تخطيها لها، اقتربت من أحد الأبواب الثلاثة بالغرفة، فتحته ففض إلى شرفة صغيرة، توجهت للثالث المجاور لخزانة الملابس وجدته يفضي إلى دورة المياه وقد اختلطت به أحد درجات من الرمادي مع الأبيض فيما الباب الثالث هو الخاص بالدخول والخروج من الغرفة.

عادت إلى الداخل وجلست على طرف فراشها بإنتظار إنتهاء حديثه مع كادي، عضت شفتها السفلى من إصرار كادي على الحديث إليه الآن قبل ذهابه معها.

مرت نصف ساعة أو أكثر قبل أن يفتح الباب مرة أخر ويدلف ياسين إليها، ابتلعت ريقها بصعوبة، سمعته يقول ببرود: هأبات الليلة دي مع كادي.

دار حول عقبيه، لم تشعر بنفسها وهي تقف وتسأله مصدومة: هو مش إنهارده فرحنا بردو؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال: ما إحنا مش متجوزين زي أي إتنين.

استفهمت بعجب: أومال إزاي؟

التفت إليها وعيونه كأنها قدت من حجارة: أتجوزتك عشان أرضي أختي اللي كانت هتسيب البلد وتبعد عننا، كان قدامي يا أتجوزك يا أخسر أختي اللي ربتني.. وأنا أخترت أهون الشرور.

ضغطت على عظمة القص الخاصة بها، همهمت بجزع: أنا.. أنا شر؟

هز رأسه قليلًا ثم صحح: جوازي منك هو اللي شر.

نظرت إليه مقاومة إصرار قدميها على الإنهيار: وأنا عملتلك إيه؟

-خليتي ناهد تحبك وتشوفك الزوجة المناسبة ليا.

شهقت: هو الحب بقى ذنب؟ ويبقى عقابه بالشكل دا؟؟

أدخل يديه في جيبي سروال بذلته السوداء: أيوه، حب ناهد ليكِ دا أكبر ذنب عملتيه.

تركها ورحل، ذهب يلقي بدنه بين ذراعي زوجته الأولى غير مبال بمن كسرها وترك بقاياها ملقاة على قارعة الطريق.

بكت بحرقة لم تذقها من قبل، وهنت ركبتيها وأنثنت أسفل جسدها غير قادرة على الوقوف لفترة أطول، إذا رأيتها من أعلى تجدها فتاة منكمشة في ألم أحيطت بهالة من القماش الأبيض الخاص بتنورة ثوبها.. ثوب عرسها.

رددت من بين عبراتها: أيوه ذنبي.. ذنبي إني حبيتك.. حبي ليك بقى ذنب.

استندت على الأرضية حتى عادت للوقوف، نظرت إلى الأزهار المتناثرة فوق فراشها، نفضتها بعيدًا في نزق، نزعت الثوب عن جسدها دون تمهل فتشقق في جنباته بين يديها لكنها لم تعره أي إهتمام.

رغبت في الصراخ لكنها كبحت نفسها فلا تريد أن يسمع مدى الألم الذي سببه لها، دخلت تتوضأ مقررة الصلاة والشكوى إلى بارئها قبل أن يرتفع أذان الفجر.

همهمت دون أن ترفع رأسها من السجود: يا رب.. أنا عارفه إن أمر المؤمن كله خير.. إن اللي أنا فيه دا يا ذنب بتكفره عني فـ حياتي.. يا ابتلاء منك بتقيس بيه صبري، فـ الحالتين عيني، من غيرك مش هاقدر أكمل، إلهمني الصبر وحسن التدبر.. يا رب أنت المعز المذل، تعز من تشاء وتذل من تشاء، فأجعلني ممن عززت.

تضجعت في فراشها بعد إتمامها صلاة الفجر، قبضت على رأسها بين كفيها بشدة من الصداع، أخرجت من الحقيبة الأقراص المسكنة تناولت إحداها ثم إنزلقت بين الأغطية البيضاء الحريرية المخصصة لفراش العرائس تستسلم لإرهاقها.

***

تمطأت بكسل ثم دفعت الغطاء عنها، دنت من شرفة الغرفة التي كانت أول ما جذبها لاستكشافه فور ترك التوتر لأعصابها ليلة الدخلة، دفعت الستائر ذات اللون الرمادي

جانبًا ثم أدرات المقبض وخرجت تنظر إلى الخارج بعد أن ارتدت خمار الصلاة فوق منامتها الحريرية ناصعة البياض.

حدقت فيما حولها فلم تجد نوافذ أو شرفات يستطيع أحد رؤيتها عبر وقوفه بها، كانت هناك فيلا في أقصى اليمين لكن من يقف بها -مهما كانت شدة نظره- لن يلتقطها.

لمحت ناهد تجلس بالحديقة تتناول فنجانًا من القهوة بينما تتصفح جريدة الصباح، زفرت بحدة وتذكرت ما حدث، لقد كانت هي السبب إذًا الحساب سيكون معها.

أسرعت للداخل تبدل ملابسها سريعًا، هبطت إلى ناهد ووقفت أمامها فيما إحدى قدميها تطرق الأرض مغتاظة.

رفعت ناهد نظراتها المتخفية خلف عدسات النظارة الخاصة بالقراءة ببطء، ابتسمت: صباحية مباركة يا عروسة.

سخرت: عروسة إيه بقى؟!

طوت الجريدة ووضعتها على الطاولة بجوارها وانتبهت لها نازعة: قصدك إيه؟

غيرت الموضوع لما جاءت من أجله بالأساس: تفهميني دلوقتي إيه قصة إجبارك لياسين إنه يتجوزني.. ومن غير لف ودوران.

أشارت بسبابتها بحركة عنيفة جهة الأرض عندما لاحظت محاولات ناهد للتلاعب وقالت بإصرار وعناد: حالًا.

زفرت وأشارت لها بالجلوس على الكرسي المقابل، قصت عليها منذ بداية ظهور كادي في حياتهم عن طريق شركة والدها التي تعاقدت مع شركتهم في إحدى الصفقات وكيف تعلق ياسين بها إلى آخر الحكاية.

عقبت فور إنتهاءها بشرود: يعني هو بيحبها؟

تراجعت في جلستها ترشف من قهوتها الداكنة: بيقول..

حدقت بها مصعوقة: وأنتِ إزاي جالك قلب تفرقي بين أخوكِ واللي بيحبها.. اللي هي مش أي حد.. دي مراته!

ردت بغموض مقتضب: عشان ما تستاهلوش.

ضربت الطاولة بعنف بينما تقف: بس مش أنتِ اللي تحددي دا!، هو أدرى.. اللي بيشيل قربه مخرومة بتخر فوق نفوخه.

-دا أخويا ومش هأسيبه يغرق.

-تقومي تغرقيني أنا؟!

صمتت، ماذا تقول وهي لديها كل الحق في عصبيتها، أخبرتها عنبر الخادمة أنها رأت سيدها ينام بغرفة زوجته الأولى أثناء صعودها بالهاتف إلى كادي، بالتأكيد جرحت كرامتها من فعلته الشنعاء تلك، لقد ألقت بسلمى إلى التهلكة بيديها فكيف تبرر موقفها؟

أكملت سلمى بحزم: هأطلع دلوقتي وأتفق معاه على الطلاق.. وكل واحد يروح لحاله.. ربنا يخليه لمراته ويخليهاله.

وقفت مسرعة تمنعها من التهور: أستني، سيبك من ياسين وكل الحوارات دي.. فكري فـ نفسك.. أهلك هيقولوا إيه لما ترجعيلهم وأنتِ لسه عروسة فـ صبحيتك ومطلقة كمان؟؟.. اعقلي وحطي عقلك فـ راسك.

التوت شفتيها بسخرية: هأ.. دلوقتي فكرتي فيا وفـ مصلحتي؟

اعتدلت بعنفوان مضيفة: ما تخافيش عليا؛ أنا لا بيهمني كلام الناس ولا العفاريت.. ولو ليا نصيب أتجوز واحد يقدرني أكيد كلام الناس مش هيمنعه.. إلا لو كان ممسحة وودنه للناس.. وقتها هو اللي ما يلزمنيش.

أعلنت بيقين: بس أنتِ بتحبيه.

أكملت حالما رأت إرتباكها الذي يظهر كلما واجهها أحدهم بهذا الحب اللعين: لو بتحبيه أفضلي معاه.. أكسبيه وأكسبي قلبه.. فهميه إن أنتِ اللي كان بيدور عليها مش المايصة التانيه.

انصرفت من أمامها متجاهلة آخر جملة قالتها وقد عقدت عزمها على إخبار ياسين ما قررته، تحله من عهوده وتعيده إلى من أحب، آلمها ما ستفعله لكنه الصواب بعينه.

تتبعت إرشادات آية إلى غرفة.. بل جناح كادي، تعجبت آية من رغبتها في الذهاب إلى غريمتها بأول صباح لها كعروس.

أخذت نفسًا عميقًا تجمع زمام نفسها المشتت، رفعت يدها لتطرق الباب عندما وصلت إلى مسامعها ضحكات كادي الهازئة، تسلل الحديث إلى أذنيها وقد استسلمت لسماعه.

قالت كادي بشماتة: تستاهل، عشان تبقى تفكر تاخد واحد من مراته.

عاتبها: حرام عليكِ يا كادي.. وهي كانت تعرف إني مجبور على جوازي منها؟

-إيه.. ما عندهاش إحساس ولا شعور؟

ثم صاحت به غاضبة: ومالك بتدافع عنها كدا ليه يا ياسين باشا؟؟

نفخ بقوة: أنتِ عايزه تعملي مشكلة على الصبح وخلاص؟.. قولتلك هما كام شهر هأتجوزها فيهم وبعدين أطلقها.

أسرَّ في نفسه بقية الحديث، عندما يتأكد من تمام أمور والدها وعمها وقتها سيعيدها إلى كنف عائلتها.. لن يخبر أيًا من هذا لكادي مهما كانت شدة حبه فيها أو ثقته العمياء بها؛ أمور كتلك رجولية ولا يحب أن يتباهى بشهامته.

علت نبرة كادي محذرة: على العموم لحد ما تطلقها مش هتلمسها، وهتبات معايا أنا.. فاهم؟؟.. ما تفكرش إنك تنفذ كلام أختك وتجيب عيل منها.. على آخر الزمن ابنك يبقى من فلاحة زيها.

قهقهت هازئة: بقى ناهد فاكرة أنك ممكن تبص لواحدة مفشولة زي دي وتفضلها عليا أنا؟؟.. هي مش بتبص فـ المرايه وتشوف شكلها عامل إزاي!؟

سمعت ياسين ينهرها: مالكيش دعوة بشكلها يا كادي.. سيبيها فـ حالها.. فترة وكل واحد يروح لحاله.

قالت بدلال: المهم أنت مالكش دعوة بيها.

سمعت أقدام تقترب من الباب فأسرعت تختبئ، أسندت ظهرها إلى الحائط وكتمت أنفاسها خوفًا من اكتشافهم لها.

بعدما ابتعدت أصوات خطواتهما عادت لتنفسها الطبيعي لكن برفقة دمعات خائنة، ارتجفت شفتيها وحدثت نفسها بصوت مسموع: وأنا اللي كنت جايه أبلغكوا إني منسحبة من حياتكوا.. تتريقوا عليا وتخدعوني وفـ الأخر تضحكوا عليا من ورا ضهري؟؟

نظرت إلى السقف منهارة: عارفه أنك قولت «ولا تصنتوا» بس ما قدرتش أقاوم شيطاني.. واستاهل فعلًا اللي سمعته منهم؛ عشان ما نفذتش أمرك، مش هأكررها تاني.. سامحني يا رب.

تحركت قليلًا ثم عادت إلى حيث كانت واقفة وقد برقت عينيها، دمدمت بوجع والنار تأكل قلبها: بس هأدفعهم التمن غالي أوي.. خصوصًا كادي.. هأوريها المفشولة دي ممكن تعمل إيه وتاخد جوزها إزاي مادام حطته فـ دماغها.

عدلت ملابسها وهبطت السلالم مسرعة، كادت تصطدم بناهد التي خرجت من المطبخ حاملة سلة الخبز؛ كي تضعها فوق طاولة الإفطار بالحديقة.

أمسكت ذراعها وسحبتها بعيدًا عن الأعين، ترقبت ناهد نتيجة تهورها، سألتها: أنتِ ما تعرفيش حاجه عني وعن ياسين.. صح؟

سخرت: قصدك إنه بات إمبارح مع كادي؟

شددت على مخارج الحروف محذرة: ما تعرفيش يا ناهد.. وما حكتيليش أي حاجه بردو .

أضافت وبريق الغضب في بؤبؤتيها يلمحه الأعمى: هنشوف مين اللي هيكسب بقى.

برقت عيني ناهد غبطة: يعني خلاص؟.. قررتي تدخلي المعركة؟

شدت على كتفها مردفة: مش هاسألك إيه اللي حصل.. بس دا عين العقل.

رفعت نظراتها إليها بعد أن كانت شاردة: هتساعديني؟

-أطلبي وأنا أنفذ.

-وقت ما احتاج هأقولك.

أضافت بألم: بس دا ما يمنعش إني لسه موجوعة م اللي عملتيه فيا، مش عارفه هأسامحك ولا مش هأقدر.

تبسمت بوجع: قلبك أبيض وهتسمحيني أنا واثقة من دا.. بس سيبيها لوقتها.

أومأت وتناولت منها سلة الخبز، هتفت بمرح: جيبي الباقي وأنا هأودي دي.

حثت خطاها إلى الخارج ترسم بسمة على ثغرها وبريق عينيها الخادع قد يظنه من يراه أنه من السعادة؛ سعادة العروس صبيحة زواجها.

رأته يقف بعيدًا عن الطاولة التي يتم رصّ الطعام فوقها منشغلًا بمكالمة هاتفية، وضعت السلة وتجنبت النظر إلى كادي؛ حتى لا تخونها أعصابها.

قبل أن تعود في الإتجاه الذي قابلت ناهد فيه توجهت إلى ياسين مبتسمة بمكر، أمسكت فكه بين أصابعها وقبلته على وجنته بعنف: يا حبيبي إقفل الموبايل دلوقتي.. خلينا نفطر سوا بمزاج.

تركته فجأة كما أمسكته ورحلت عنه إلى داخل المنزل، وصلها إرتباكه في الحديث يبرر لمن على الجهة الأخرى من الخط ما حدث، كتمت ضحكتها بصعوبة تتلمس طريقها إلى المطبخ.

قدمتها ناهد إلى عنبر وإسماعيل زوجها، ابتسمت لهما وقابلاها ببسمة خائفة من الأيام القادمة في هذا المنزل، رحبت بها عنبر: نورتي بيتك يا ست سلمى.

قطبت: ست إيه بس يا دادة عنبر، أنتِ تقوليلي سلمى.. سلمى وبس.. مفهوم؟

ارتبكت: بس يا ست..

رفعت حاجبيها: قولنا إيه؟؟

اقتربت منها وضمت كتفي العاملة بذراعها: أنت قد ماما -ربنا يخليهالي- فعيب أوي لما تقوليلي ست دي.

أضافت مازحة: ولا أنتِ شايفني عجوزة بقى؟

لم تستطع المرأة كتم ضحكتها على اللهجة الفضولية للجملة الأخيرة: لا دا أنتِ ست العرايس.

استدارت محافظة على ابتسامتها إلى إسماعيل: معلش بقى يا عم إسماعيل.. هأدّخل فـ شغلك وهتلاقيني فوق راسك؛ أصلي بأحب المطبخ والطبخ موت.

أومأ مخفضًا رأسه قليلًا: دا ينور يا بنتي.

هتفت مشجعة: شاطر يا عم إسماعيل، أوعى أسمع كلمة ست دي منك زي مراتك، أديني نبهتك أهو.

ابتسم لمزحتها فيما تناولت طبق البيض من فوق الطاولة لتخرجه إلى الحديقة، خرجت تاركة ناهد تكمل إعداد ما تبقى من أطباق مع عنبر متسامرة معها.

شهقت بقوة عندما شعرت بذراع صلبة تسحبها إلى غرفة جانبية، اكتشفت من أول نظرة أنها غرفة المكتب الخاصة بياسين، أغلق الباب بهدوء لا يتناسب مع عنف نظراته خشية وصول صوته إلى أحد.

سألها من بين أسنانه: إيه اللي عملتيه دا؟؟

رمشت بعيونها الساذجة لا تدري عما يتحدث: البيض؟.. هأوديه برا عشان نفطر.

شعرت أن أسنانه على وشك التكسر نتيجة ضغطه عليها بقسوة، تكلم محاولًا الحفاظ على ما تبقى له من تعقل هادئ: قصدي اللي عملتيه وأنا بأتكلم فـ التليفون.

رفعت حاجبيها مستغربة: كل دا عشان بوسة؟؟.. دي بوسة!

ضاقت عيونه بغيظ أمام رفرفة رموشها مع كلمتها الأخيرة في براءة مصطنعة: إحنا مش وضحنا كل حاجه إمبارح؟

اقتربت منه تداعب قميصه الزيتوني بيدها الحرة وتقول بغنج: ماهو عشان اللي قولته بأعمل كدا.

قطب: إزاي؟؟

أوضحت له بجدية: أنت أتجوزتني عشان ترضي أختك.. بس يا ترى أختك هتبقى راضية لما تعرف إن علاقتنا مش زي أي زوجين؟

صمتت لمدة مدروسة تتيح له التفكُر في كلامها وكذلك نطقت قبل أن تعطيه وقتًا إضافيًا فيفسد خططها: بوسة على الخد.. كلمة حلوة.. دلع..

وضعت قطعت بيض بين أسنانه اللؤلؤية مردفة بصوت هامس شديد الرقة: أأكلك فـ بؤك.

نظر إليها فتنهدت: حاجات بسيطة بس هتثبتلها إننا مبسوطين وأنت مش خسران حاجه.

شقيقته أصرت على زواجه منها حتى ينجب الطفل الذي تتمناه، لكن إذا علمت بعدم وجود علاقة تجمعه مع سلمى ستغضب وليس من المستبعد أن تقلب الطاولة فوق رأسه وتنفذ تهديداتها بعدم وقعت الفأس في الرأس.

راقبته يمضغ ما وضعته بفمه أثناء شروده، التوت شفتيها قليلًا فرحة بإنتصارها الصغير، ستريه هو وزوجته الأولى كيف يكون مكر النساء، ستعلمهما معنى التلاعب وتعطيهما دروسًا في الخداع، ستثأر لكرامتها الموؤدة على أيديهم، وترفع أنوثتها فوق رقبة الأولى.

***

راقبتها ناهد تحاول كتم ضحكتها، لقد احتلت مقعد على يمين زوجها وذراعها يحيط عنقه، غطست كسرة خبز بالجبن ثم قربتها من فمه ففتحه لا إراديًا وتناولها صامتًا.

أمسكت محرمة من فوق الطاولة ومسحت ما علق حول فمه من فتات: شاطرة يا بطة.

ألقى عليها نظرة مغتاظة لكنها لم تبال وتابعت تصرفاتها عن قصد، متيقنة تماسكه الكامل ما دامت شقيقته تجلس معهم.

رمت كادي بنظرة غير مبالية، تستحق ما تفعله أمامها، أليست هي من هزأت بها؟ فلتتحمل.

بعد فطور دسم انصرف ياسين إلى مكتبه عقب جدال مع ناهد، العريس لا يخرج صبيحة واجه.. هذا المتعارف عليه وتلك هي العادات، لكنه لم يأبه ورحل.

لحقت به كادي مدعية رغبتها في التسوق تطلب منه إيصالها في طريقه، علم بغيتها لكنه لم يعترض، فور إنطلاق سيارته الجاكوار الحديثة بعيدًا إلتفتت سلمى إلى آية وسألتها بجدية: كنت عارفه سبب جواز ياسين مني؟

توترت وعدلت من وضعية النظارات الدائمة فوق أنفها فيما أجابت بصدق: أيوه.

لامتها بألم ظهر في نبرتها المتحشرجة: ليه ما نبهتنيش؟

تدخلت ناهد: ما خلاص يا سلمى.. اللي حصل حصل.. مالوش لازمه العتاب.

لم تعرها إنتباهًا وتابعت تنظر إلى آية: تحبي إن حد يخدعك؟، يلعب بمشاعرك.. يوهمك ويعيشك فـ دنيا الأحلام على إنه اختارك وحبك وعايزك تشاركيه حياته وفـ

الأخر يطلع كل دا كدب؟؟.. وهم خلقتيه في دماغك واللي حواليكِ ساعدوكِ فيه رغم أنهم عارفين إن النهاية محطوطة من البداية؟!

طفرت عيون آية بدموع الندم، لقد اعتبرت سلمى صديقتها رغم ذلك لم تنبهها كي تأخذ حذرها، تركتها تصطدم بأرض الواقع دون أن تضع لها مرتبة تخفف عنها وقع الضربة.

نزعت نظارتها تمسح عينيها قائلة بندم: آسفة، سامحيني.

طمأنتها مستشعرة ندمها وحساسيتها المفرطة، حولت ناهد الموضوع إلى جهة أخرى: ما قولتليش ناوية تعملي إيه؟

لمعت عيونها بقوة: ناوية أطلع عينهم.

أكملت تنظر إلى ناهد محذرة: وأوعى تدافعي عنه!.. أنا هأوريه.

رشفت من كأس العصير وهزت كتفيها: مش أتجوزتيه؟.. خلاص أنتِ حرة معاه.

أشارت إليهما على التوالي: هتساعدوني لما أطلب منكوا.

أومأتا بالموافقة، أنهضتهما ناهد: تعالي يا سلمى أعرفك بالأمن وتتفرجي على البيت عشان تعرفي كل شبر فيه.

قدمتها إلى طاقم الأمن ثم دارت معها في المنزل بأكمله، شرحت لها كل ما يتعلق به، تعجبت عندما رأت كادي تسكن في جناح متكامل ينقصه فقط مطبخ صغير ليصبح شقة منعزلة عن بقية المنزل، فكرت في الاستفسار لكن كرامتها أبت السؤال.

أوضحت ناهد وقد فهمت نظراتها: البيت مافيهوش غير جناح واحد.. دا كان بتاع ماما وبابا -الله يرحمهم- بس لما ياسين أتجوز كادي عملوا عليه تعديلات وخدوه.

الاستهجان والغضب كان يبرز عبر حروفها المنطوقة، لم تعقب سلمى حتى لا تزيد من غضبها، أكملتا الجولة متناسيتين الحديث الفائت.

***

جلست بجانبه تحدجه غاضبة، لقد مرت عشر دقائق في جدال لا ينتهي، لم يجد ياسين منفذًا لحنقه على الجالسة بجواره سوى بالزفير والقبض على مقود السيارة كذلك زيادة السرعة حتى كادت السيارة تطير من فرط ضخ البنزين وتفقد الإطارات احتكاكها بالأرض.

لم يقف أيًا من ردود أفعاله المتذمرة في طريق متابعتها للعراك، صاحت به للمرة الثانية بعد المئة فيما تصفع جانبي رأسها: أنا لحد دلوقتي مش فاهمه إزاي سيبتها تعمل معاك كدا؟؟

قرر أن يعيد إلقاء إجاباته علّها تعي هذه المرة: قولتلك.. لازم ناهد تفهم إن أنا وهي متجوزين طبيعي.. وإلا هتنفذ تهديداتها ومش بعيد تصر أتجوز التالتة.

عقدت ذراعيها فوق صدرها: هأ، يا سلام؟.. وأنت فاكر دي نية الهانم؟

لوى شفتيه: أومال هتكون نيتها إيه يعني؟

كزت على أسنانها اللؤلؤية: تلاقي الهانم بترسم عشان توقعك فـ غرامها.

أصدر قهقهة ساخرة: إيه اللي بتقوليه دا؟.. أنتِ الغيرة جننتك.

نظرت له بجد: طب تقدر تفهمني إيه السبب اللي يخلي واحدة تتعامل مع واحد رفضها يوم فرحها وراح نام مع مراته الأولى تاني يوم الصبح كأن ولا حاجه حصلت؟؟.. دا أنا قولت مش هأشوف وشها على الأقل أسبوع من الكسفة اللي هي فيها.

للمرة الأولى شعر بتأنيب الضمير تجاه سلمى، بالنهاية هي لم تدرِ نيته ولم تقصد التدخل في حياته وإفسادها، لقد كسر فرحتها في ليلة عمرها دون هودة.

عادت تتابع الحديث محذرة: أبعد عنها أحسنلك يا ياسين.. وبلاش الحركات دي.

نظر إليها بجانب عينه محاولًا متابعة القيادة والإنتباه إلى حديثها: حركات إيه؟

-استسلامك لدلعها فيك.

قاطعته قبل أن ينطق: ومافيش داعي تنكر.. أنا ليا عينين بتشوف كويس أوي.

ختم الحوار بضيق: لما تبقي تشوفي حاجه من دي بتحصل وناهد مش موجودة يبقى ليك الكلام ساعتها.

اعتدلت تنظر للأمام: أما نشوف.

***

ظلت تحوم في أرجاء المنزل شاعرة بالملل، لقد اقتنصت والدتها فرصة انشغالها بالاستعداد لعرسها وسفرها وأخذت جميع أجهزتها التكنولوجية الحديثة من الهاتف إلى الحاسوب المحمول وقد أصدرت فرمانًا بعدم تسليمها أيًا من أغراضها إلا بعد مضي شهر عسلها.

تنهدت ساخرة لدى تذكرها الليلة الفائتة، حثت خطاها إلى المطبخ تنظر حولها، رأت عنبر منشغلة في تقطيع قالب من الكعك وإسماعيل يرشف كوبًا من الشاي.

ابتسمت وحيتهم، وقف إسماعيل مسرعًا احترامًا لدخولها، أشارت له للعودة إلى ما كان عليه وجلست على مقعد بجانبه مقابلة لعنبر. نظرت إلى القالب بشهية: الله.. شكله حلو أووي.

ابتسمت عنبر بحنان: تحبي أحطلك؟

هزت رأسها مسرعة كالأطفال: أيوه أيوه.. بس يكون عليها حتت كرز كبيرة.

قهقهوا، دفعت إليها طبقًا مملوء بالكعك، تناولته بشهية فيما تجري معهما حديثًا عامًا فانساب الكلام منهما كما لو كانت معرفة قديمة لهما.

دلفت كادي إلى المطبخ ونظرت إلى سلمى بسخرية، لقد أعادها ياسين إلى المنزل مع أحد سائقي الشركة عندما عبرّت عن عدم رغبتها في التسوق وإنما العودة إلى البيت؛ فقد أدت غرضها الأصلي.

-كل دا كلتيه؟؟.. أبقي حاسبي على نفسك يا حلوة لتبقي زي القنبلة وتنفجري.

أطلقت ضحكة مائعة، أمرت عنبر بإعداد «النسكافيه» الخاص بها مضيفة: وما تحطليش كيك يا عنبر.. أصلي عاملة دايت.. ياسين مش بيحبني أتخن خالص، عايز جسمي زي ما هو.. سامباتيك.

غادرت فيما دفعت سلمى شوكة مملوءة بالكعك إلى فمها تلوكها في حنق، نظرت إليها عنبر بشفقة أثناء إعدادها لما طلبته الأخرى؛ كي لا يصيبها الصراخ اللاذع.

ربت إسماعيل على كتفها: معلش يا بنتي.

ابتسمت له بحزن شاكرة ثم تراجعت بمقعدها مغادرة المطبخ إلى غرفتها، لمحت جسد كادي ممدد على الأريكة بالحديقة عبر الباب الزجاجي، دهشت واقتربت منها متساءلة:

-أنتِ إزاي قاعدة من غير الطرحة كدا؟؟.. مش خايفة لحد من الأمن يشوفك ولا عم إسماعيل؟

دون أن تنظر إليها مكتفية بوضع نظارتها الشمسية أمام عينيها: الأمن بيبقوا على البوابة إيه اللي هيدخلهم الجنينة؟.. وإسماعيل مش بيتحرك من المطبخ غير على الملحق بتاعهم.

نظرت إلى المكان المخصص لجلوس الحرس، لقد كانوا حقًا على خلق، لم يفكر أحدهم بالنظر إلى زوجة رب عملهم ولو من باب الفضول لكن هذا لا يمنع كادي من الإحتشام قليلًا.

علمت أنها مهما أفهمتها لن تقتنع وستهاجمها فحسب، جرت خطاها إلى الداخل عندما أوقفتها كادي تحدثها دون أن ترفع النظارات عن أنفها: ما تحاوليش تكسبي قلب ياسين؛ عشان قلبه دا ملكي أنا.. وأعتقد اللي حصل إمبارح أثبتلك أنا بالنسبة له إيه.. فخلي لعبك دا.. لنفسك.

أزدردت لعابها وحدثتها بجدية: وما أحاولش ليه؟.. هو مش جوزي بردو زي ماهو جوزك؟

قفزت تقف على قدميها أمامها في لحظات، رفعت أحد حاجبيها: لا يا حبيبتي.. مش جوزك زي ماهو جوزي.. أنا أتجوزني بإرادته، بمزاجه، من حبه فيا، إنما أنتِ.. مجبر يا عيني يستحملك فترة وبعدين هترجعي لأهلك.. هناك.. فـ الصعيد.

حركت نظراتها صعودًا وهبوطًا فوقها: وبعدين أنتِ مش شايفه شكلك عامل إزاي؟؟.. تلاقيه مليان ترهلات وحاجه يـاي أووي.

طرقت على جانب ذراعها عدة مرات: روحي ألعبي بعيد يا شاطرة.. وقبل ما تلعبي مع أسيادك أبقي بصي لنفسك فـ المرايه.

انصرفت عنها تعود إلى جلستها المسترخية، تعرض جسدها إلى أشعة الشمس؛ كي تستفيد منها في هذا الوقت من النهار قبل أن تتحول إلى أشعة أخرى ضارة.

أسرعت إلى غرفتها، تسجن دموعها حتى أصبحت وحدها أمام مرآة غرفتها، ألهذه الدرجة أنا دميمة؟؟.. أبشعة أنا أم لست جميلة؟!، نزعت حجابها رويدًا ونظرت إلى ملامحها تتحسها.

-أيوه.. معاها حق، هيحبني على إيه؟.. دي أجمل مني بمراحل

ألصقت القماش حول جسدها لتظهر بروزات جسدها الممتلئ: تخينة كمان، طب إيه يشده ليا؟؟

فتح الباب واندفعت آية إلى الداخل تلوح بالهاتف، أسرعت تكفكف دموعها وترسم شبح ابتسامة على شفتيها، صدمت لتلك الدموع وتعجبت سببها، رددت بصوت هامس: مامتك عايزه تكلمك.

تناولته منها وأجابت بصوت حاولت أن يملؤه المرح: أيوه يا ماما.

-عاملة إيه يا روح ماما.. طمنيني عليكِ.

-الحمدلله كويسة.. أنتوا عاملين إيه؟

-تمام يا بنتي طول ما أنتِ بخير.

-يا رب دايمًا.

-جوزك فين؟.. أنا كنت هأتصل عليه بس خوفت تكونوا نايمين وأقلقكوا.. حمدت ربنا إن معايا نمرة آية.. قولت أكلمها لو صاحية أكلمك مش صاحية اتصل بيكِ بعدين.

-مش كنت أصدرتِ أمر بإخلاء سبيل موبايلي على الأقل.

-لا لا ما تحاوليش، كله هيفضل معايا لحد ما يعدي أسبوع على الأقل، عايزه تفضلي تلعبي فـ الحاجات دي وتنسي جوزك؟

-هههههههه ماهي مسيرها تيجي وأنساه.. خلينا على نور من أولها.

-أبدًا ما تحاوليش.. وأتلمي وخلي بالك من جوزك.

تباعد صوت أمها رويدًا حتى أختفى وحل محله صوت والدها الأجش: سلمى.. إزيك يا بنتي؟

-الحمدلله يا بابا.

-مبسوطة؟

-أيوه يا حبيبي ما تقلقش عليا.

-أومال صوتك ماله كدا أكنك كنت بتعيطي؟

أنقبض قلبها، دائمًا والدها أكثر شعورًا بها وخوفًا عليها عن والدتها، علاقتهما ذات نكهة خاصة. كتمت شهقة عالية أرادت التحرر من حنجرتها، تتلهف إلى خلطات عبدالرحيم السحرية في مداوة وجعها: دا بس عشان وحشتوني.

-متأكدة؟

-طبعًا

بعدم إقتناع وحنانه الأبوي يطغى على نبرته تنهد: سلمى، أيًا كان إحساسك دلوقتي.. ما تنسيش إن بيتك وبيت أبوكِ مفتوحلك على طول.. فـ أي وقت تحسي إنك مش قادرة تكملي ما تترددديش وأرجعي.

الذنب يزجر جانبه، يشعر أنه تسرع في فعلته، يعلم أنه حماية لها وإنصياعًا أمام قلبها الغالي وقد ذاق الحب للمرة الأولى. حاولت والدتها نزع السماعة من يده توبخه لكنها لم تفلح، فاكتفت بإيصال صوتها إلى ابنتها:

-إيه الكلام دا يا عبدالرحيم، دا كلام تقوله بردو.. بتقوي بنتك على خراب بيتها؟؟.. البت مالهاش غير بيت جوزها.. سمعاني يا سلمى؟

-سامعة يا ماما، وأطمنوا أنا مبسوطة معاه أوي،حتى مش عارف يعملي إيه ولا إيه.. دا قام بنفسه حضرلي الفطار وأصر يأكلني بإيده.

اتسعت عيون آية تتابع كذبها على والدها فقط لتشعره بأن قلبها في مأمن من الجراح، أكملت سلمى: سيبك مني المهم أنت بتاخد الدوا فـ معاده زي ما أتفقنا ولا..؟

-هو أنا أقدر؟؟.. أمك بتفضل جنبي لحد ما تتأكد إني شربته.

-بالشفا إن شاء الله.

دار الحديث عدة دقائق؛ بعد إطمئنانها على الجميع أغلقت الخط وأعادت الهاتف إلى آية من جديد، مسحت بقايا الدموع المستقرة فوق وجنتيها.

سألتها آية مشيرة إلى دموعها: بتعيطي ليه؟

-أصلهم وحشونسي

-لحقوا؟.. أنتِ سيبتيهم إمبارح بس

-أهو اللي حصل

-بس أنتِ كنت بتعيطي من قبل ما أدخل.. ممكن أعرف السبب؟

صمتت فترة ثم فاجأت آية بسؤالها: هو أنا وحشة؟

قطبت: إيه اللي خلاكِ تقولي كدا؟

استدارت أمام المرآة تتابع الحديث فيما تنظر إلى إنعكاسها: هو ممكن أخوكِ يحبني؟.. يعني هيحبني على إيه.. مافيش فيا حاجه مميزة عكس كادي.

وقفت آية خلفها باسمة: أنتِ مش وحشة، أنتِ حلوة.. حلوة أوي، روحك جميلة، والدليل إني حبيتك وبقيت قريبة منك لدرجة عمري ما وصلتلها ولا هأوصلها مع كادي، كمان ناهد بتحبك جدًا وعلى العكس مش بتطيق كادي خالص.

تنهدت بحدة: يمكن غيرة إخوات، ماحبتش كادي لأنه حبها والعكس معايا.

تقدمت لتقطع نظرها عن مواصلة تطلعه إلى المرآة، خاطبت بجدية: أنتِ كنت واثقة فـ نفسك جدًا.. إيه اللي حصلك فجأة؟

نظرت أرضًا بخزي من أنوثتها المنقوصة: ياسين سابني إمبارح وراح لكادي.

بهتت آية فلم تكن لتلقي أذنها كيفما كان لتعلم الأخبار، تجمعت الأدمع بأعين سلمى: كسرتني أوي الحركة دي.. طعنتني فـ أنوثتي.

ابتسمت تخفف عنها: أنتِ حلوة يا سلمى.

نظرت إليها بشك فأضافت: صدقيني.

رفعت قميصها قليلًا مظهرة خصرها المشوب ببعض الترهلات وبه طبقة دهون زائدة أسفل الجلد: حتى مع دا؟؟

ملّست على شعرها كالطفلة: أيوه.

نظرة عدم الإقتناع جعلتها تزفر مكملة: ياسين أتعود من صغره يشوف ناهد على طول فـ أشيك لبس ومهتمة بنفسها جدًا وفـ نفس الوقت عمرها ما قصرت معانا، أنا كمان ظروفي خلتني أخلي بالي من نفسي، أو بمعنى أصح هي خلت بالها مني

هههههه.. على طول رايحه هنا وجايه هنا.. خصوصًا خوفي من السواقه وأعصابي اللي مش بتستحمل توترها خلتني أعتمد على رجلي بشكل كبير فكانت رياضة أوتوماتيكية.. عشان كدا هتلاقي اللي بيلفته لأول مرة هو الشكل، على شوية هرمونات رجولية مافيش مفر منها.

أشارت إلى بطن سلمى: أما دا.. فسهل تخلصي منه، شوية ملاحظة لأكلك ورياضة.. هتبقي مانيكان ويمكن أحسن كمان.

زمت شفتيها: يعني دا رأيك؟

عدلت نظارتها فوق أنفها المنمنم: طبعًا، بكره بعد ما أرجع م الكلية هأخدك ونروح الجيم اللي في الشارع اللي ورانا.. ناهد بتروحه على طول بس من ساعة ما سكنت فـ الشقة التانية وبقت تروح لواحد تاني أقربلها.

-صحيح، هي مش ناوية ترجع على هنا؟

-لا زمانها غرقانة فـ الشغل، وبقالها فترة عايشه لوحدها من ساعة جواز ياسين من كادي.

همهمت بلا معنى، قرصتها من أحد خديها: وبعدين مش عايزه عياط أول ما أسيبك شوية، والله لولا عندي أبحاث وشغل ما كنت سيبتك تقعدي لوحدك.

ابتسمت بحنان: ربنا يخليكِ ليا، لا ما تعطليش شغلك، أنا بس لما يعدي أسبوع وماما تبعتلي بقيت حاجاتي هأنشغل بردو ومش هألاقي وقت أفكر فـ حاجه تضايقني.

أومأت آية وهمت بالمغادرة عندما استوقفتها سلمى متساءلة: هو مافيش كتب هنا أتسلى فيها؟؟

-في طبعًا، تحت في أوضة مطالعة، مش ناهد ورتهالك؟؟.. فيها قعدة ونور مناسب للقرايه عشان ما تتعبش العين وجانبين من الأوضة عبارة عن كتب من الأرض للسقف؛ دول كتب من أيام ماما وبابا وجدي لحد ما بقينا نجيب أنا وإخواتي.. خدي اللي يعجبك اقريه.

-ناهد ورتهاني بس خوفت تضايقوا لو جيت عندها.

-أنتِ هبلة يا بنتي؟؟.. دا بقى بيتك زينا.. خدي اللي تحبيه وما تشليش هم.

تركتها عائدة إلى أبحاثها، أعادت ربط الحجاب وثبتته فوق رأسها وأتجهت إلى الغرفة المجاورة للمكتب في الطابق السفلي.

دخلت تجيل نظرها في الأنحاء، رُصت الكتاب فوق أرفف على حائطين متقابلين أما الحائط الثالث الواصل بينهما يتوسطه باب زجاجي أسدل فوقه ستار شفاف أبيض اللون، كانت الجدران مدهونة بلون مريح متلائم مع الأثاث البسيط لدرجة تجعل المرء يشع طاقة إيجابية من بهجة المنظر وإراحته للعين.

جلست على الأريكة التي تمثل قطعة من طقم الأثاث المتوسط للغرفة، كانت باللون الزيتي القاتم بسطت فوقها قطعة طويلة من المفارش زاهية الألوان لتكسر حدة اللون في جمال، صنعتها اليدوية أكسبتها قيمة أعلى، على يسارها ويمينها مقعدان مطابقان للأريكة لكن دون مفرش، احتلت طاولة زجاجية موقعًا صغيرًا بينهم.

كانت هناك زاوية منعزلة نسبيًا وضع بها مقعدان باللون الكريمي أمامهما مقعد أصغر دائري؛ لمن أراد تمديد قدمه وإراحتها فيما انتصبت بين المقعدين أباجورة أرضية طويلة.

فتحت الباب الزجاجي تسمح للنسيم العليل بالدخول إلى الغرفة يجدد هواءها، تمهلت على الأرفف، تمرر إصبعها فوق الكتب كي تنتقي أقربها إلى نفسها.

عادة تحرم منها حين تمارس هوايتها مع الروايات الإلكترونية، تسعون بالمئة من اختياراتها لما تقرأ تكون بناء على تفاعل روحها مع لب الكتاب، كأنما ينفخ المؤلف فيه روحًا منقوصة، تتفاعل مع العالم لكن تعبر عن نفسها باستحياء متخفية وراء كلمات مكتوبة غير منطوقة.

تتلمس، تشم، تعب في صدرها من الرائحة الآخاذة، تقرأ العنوان، تتلمس جلدته، تفر صفحاته بعدما تتفرس في غلافه، تعيده إن لم تسمع نداءه للقراءة قويًا، وتقرأه إن أكمل معادلتها الصعبة.

ابتسمت متذكرة سخرية إخوتها، إنها امرأة تقضي في انتقاء الكتاب أكثر مما تفعل في قراءته، تخالف العامة بتفاصيلها الدقيقة حد الملل.

وجدت كتابًا استهواها موضوعه فجذبته وجلست تطلع عليه، ممارسة عادتها اللا طبيعية، تتلمس، تشم، تعب صدرها... ثم تستقر.

***

دفع الباب دون استئذان وصاح في صديقه حانقًا: إيه يا ابني.. حد يسيب عروسته عشان يجي الشركة بردو؟

دون أن يرفع عيونه من فوق حاسوبه، تجاهله ببرود: أخبار عقود الصفقة الأخيرة إيه؟.. جهزت ولا لسه؟؟

فتح فمه على أشد إتساع فيما يسحب قماش السروال من فوق فخذيه متيحًا لنفسه جلسه أريح: أنا بأكلمك فـ إيه وأنت بتكلمني فـ إيه.

نظر إليه شذرًا وهتف به غاضبًا: عايزني أقولك إيه يعني؟.. ما جنابك عارف اللي فيها وإني مجبور عليها م الأول.. إيه بقى اللي جاي تسأل عنه؟!

أخذ نفسًا عميقًا حتى يستعيد هدوءه: خلينا فـ الشغل أحسن بدل السيرة الهباب دي.

جلس أمامه وسأله محدقًا في معالمه: حصل إيه؟

عاد ياسين ينتقل من تقليب الملفات إلى تدوين ملاحظات ومقارنة بعض الأوراق بما أمامه على شاشة الحاسوب، كان ذلك إشارة كافية لمحمد أن يلتزم الصمت وعدم رغبته في الحديث الخاص .. إما العمل أو لا شيء.

تنهد محمد مستسلمًا وبدأ يجري معه الحوار فيما يحب بينما يتمنى داخليًا أن تستقر حياة صديقه ويستتب أمنه القلبي والعقلي في أقرب فرصة، لكنه يشك في هذا.. فمن أين الراحة لزوج الإثنين؟!.. ويا عيني هو ما زال يعد عكسيًا من الثلاثة للواحد قبل بدء السباق.

***

رفعت مكالمة والديها وحديثها مع آية من معنوياتها، قررت أن تظهر مزاجها المرح وتبدأ بشن الحرب على كادي عوضًا عن كونها تدغدغها ليس أكثر.

ارتدت سروالًا قصيرًا جدًا يعلوه قميص دون أكمام، غير عابئة بأي ترهلات قد تملكها بأي مكان، تناولت طبقًا كبيرًا يفيض منه الفشار وجلست متربعة في منتصف الأريكة تقلب بين القنوات حتى وصلت إلى مسلسل تعشق متابعته.

شعرت بالغيظ عندما رأت كادي ترتدي أجمل أثوابها وتقول لعنبر متجاهلة وجودها: هأخرج أنا وياسين شوية نتعشى برا.. ومش عارفه هنرجع إمتى.

أومأت عنبر: ترجعوا بالسلامة.

سطل من المياه المثلجة قد سكب فوق رأسها ليتركها ترتجف من الحنق والغضب، انتفضت تصعد إلى الأعلى.

أليس من المفترض أن العروس تكون هي، هذا العشاء من حقها؟؟.. جلست تبكي وتؤنب نفسها حتى كلّت منها الدموع.

سمعت أذان المغرب فنهضت تكفكف دموعها وتلقي بأحمالها في السجود الذي طال بها كثيرًا حتى شعرت بعودة الهدوء إلى نفسها.

دب بها حماس مفاجئ وانطلقت تغير من مظهرها، وجدت في تأنقها أمام المرآة منفسًا لضيقها، جدلت شعرها على هيئة ضفنرتين تدلت كل واحدة على أحد كتفيها، قررت أن تعود لمتابعة أحد أفلامها المفضلة على التلفاز وتمضي الوقت بهدوء، حتى الخطوة القادمة.

همت بالنزول إلى المطبخ عندما أدركت ما ترتديه، عادت تضع عباءة وحجابًا فوقها ثم هبطت تعد الكثير من الفشار -إضافة لما تركته مسبقًا- وتحضر ما ستقع يديها فوقه من مسليات؛ كي تستمتع بأمسية أجمل مما يقضيها الزوجان المحبان.

الطابق الثاني من المنزل؛ يحتوي الجناح الوحيد وخمس غرف بملحقاتها فيما يوجد منطقة في المنتصف واسعة تفصل الجناح الأيسر عن بقية الغرف، محققة الاستقلال التام، فُرِشَ بها أريكة وطاولة وعدة كراس مريحة أمامها التلفاز، كان يمين التلفاز درجات السلم مما يجعل الجالس أمامه يلاحظ الصاعد والهابط.

شاشة التلفاز الكبيرة أوحت إليها أن عندها استعداد لابتلاعها، استمتعت بما تشاهده واستغرقها الضحك وجذبتها السعادة الطفولية بعيدًا عن عواصف الضيق ورمال الغضب.

دقت الساعة العاشرة بعد إصدار مكابح سيارة ياسين الجاكوار صوتًا جامحًا يدل على غضبه تلازمًا مع وصوله. انتبهت لكنها لم تهتم.. يكفيها ما تعانيه من ألم، لكن يبدو أنها لم تكن سهرة بالروعة التي أوحت بها كادي.

توقف ياسين بعدما وصل إلى الطابق الثاني، صدمه رؤية سلمى الضاحكة تركز إنتباهها على الشاشة المواجهة لها في ملابسها التي أختزلت على الأقل خمسة أعوام من عمرها.

ترك كادي تسبقه عدة خطوات إلى جناحهما تحاول لملمة غيظها حتى لا تلتقطه غريمتها الأصغر سنًا، استدارت إليه متعجبة عندما رأته يخاطب سلمى هائجًا كأن النساء في حياته لا يملكن سوى إثارة غضبه من عروض أزيائهن المبتذلة: إيه اللي أنتِ عاملاه دا؟

ظنت أنه يخاطب كادي فلم تعره إنتباهًا، زاد غيظه؛ فاقترب يجذبها من فوق الأريكة معتصرًا ذراعها: مش بأكلمك؟؟.. ما بترديش ليه؟

رفعت حاجبيها وسألته بهدوء: في إيه؟

كرر بينما يكز على أضراسه: إيه اللي أنتِ عاملاه دا؟

ببراءة لا تعلم مكمن الخطأ: بأتفرج على تيمون وبومبا

استغفر سرًا وعاد يحقق معها ناظرًا إلى ملابسها: باللبس دا؟

تتبعت نظراته: ماله لبسي؟

فَقَدَ ما تبقى لديه من ضبط النفس: أنتِ ناسيه يا هانم إن في رجالة فـ البيت وما ينفعش تقعدي بالمنظر دا؟؟

جاءت آية مهرولة من غرفتها، تصلح من وضعية منامتها وتعدل نظارتها فوق أنفها، تثاءبت متساءلة: هو في إيه؟

حدقت سلمى بعيونه، غاضبة أكثر من غضبه: على فكرة أنا ما لبستش وقعدت كدا غير لما آية أكدتلي إن مافيش حد بيطلع الدور دا غير عنبر من اللي شغالين هنا..

ومافيش راجل بيقرب من السلم دا غيرك.. يا جوزي.. إيه اللي يمنعني بقى أقعد براحتي مادام ضامنة إنه مافيش حد هيشوفني؟

سحبت ذراعها من قبضته وأشارت إلى حيث توارت كادي خلف الأبواب، تزدرد سوء ليلتها: أبقى خلي المدام تعملك كوباية لمون تهدي بيها أعصابك اللي حرقتها قبل ما تيجي هنا وتطلعه عليا.. تصبح على خير.

أسرعت إلى غرفتها وصفعت الباب بشدة خلفها، نظرت آية إلى شقيقها وأدركت من ملامحه أن أي تعليق عما حدث غير مرحب به إطلاقًا فالتزمت الصمت وعادت من حيث أتت.

***

وقف يتطلع إلى المنطقة المحيطة بالمنزل من فوق السطح، نفخ دخان سيجارته إلى الأعلى شاردًا يتذكر لحظة دخول كادي إلى مكتبه بثوب السهرة خاصتها دون حجاب وقد تركت شعرها متكومًا فوق رأسها؛ لكي يتلائم مع تصميم الفستان.

رفع رأسه إليها ولمع الغضب في عيونه من مظهرها، هتف بها: إيه اللبس دا؟

دنت منه تميل فوقه بجسدها الغض وتهمس بدلال أمام وجهه فيما أصابعها تداعب خصلات شعره المتدلية فوق مؤخرة عنقه: فستان عشان أخد حبيبي ونروح نتعشى برا.

زفر: مش قولت مية مرة لبسك يتظبط عن كدا؟.. وبعدين فين حجابك يا ست هانم؟

تراجعت متأففة: يا ربي منك يا ياسين.. ما تحبكهاش أوي كدا.

رفع أحد حاجبيه وقبض على يده: كادي!

فهمت الإنذار فبدأت تهدئ من روعه: خلاص خلاص، ما تبوظش الليلة عشان حاجه تافهة زي دي.. نبقى نتكلم بعدين فـ الموضوع دا.

شرعت تجذبه لكي ينهض: يلا بقى عشان ما نتأخرش.

أشار إلى مظهرها متفاجئًا: وأنتِ فاكره إني أخرج معاكِ بالشكل دا؟؟.. لا يمكن، كفايه اللي شافوكِ من البيت لحد هنا.

عقدت ذراعيها: أومال هنعمل إيه؟

-هنرّوح.

أضاف مفكرًا وكفه يشير إليها صعودًا وهبوطًا بازدراء: المشكلة هنروح إزاي كدا؟

صرخت به: نرّوح؟؟.. لا مش هينفع نرّوح دلوقتي خالص.

ضاقت عيونه: ليه؟

أجابته على مضض: أنا قولتلهم إنك عازمني على العشا برا.. نبررلهم بإيه رجوعنا بدري؟

ببرود: مش لازم نبرر

أصرت: بس هتشمت فينا وهتفهم من غير كلام.. وطبعًا ما يرضكش إن كوكي حبيبتك شكلها يبوظ قدام دي.

مسح وجهه من التعب الذي استبد بجسده: والعمل إيه دلوقتي؟

عادت تتدلل: هنروح نتعشى سوا برا.

-قولت لا، ما أنتِ لو بتلبسي عدل كان معلش إنما عدم سمعان الكلام هيرجع فوق نفوخك أنتِ.. عشان تحرمي.

-أوووف، وبعدين؟

رفع سماعة مكتبه وضغط عدة أزرار: هنطلب أكل وناكل هنا.

ضربت الأرض بكعبي حذائها: هنا يا ياسين؟

نظر إليها نظرة بركانية: يا هنا يا البيت.. أختاري.

تأففت تلقي جسدها على الأريكة الجلدية: أووف.. طيب.

-عايزه تاكلي إيه؟

-سوشي.

طلب لها ما ترغبه فيما أمر بإحضار وجبة عادية من أجله، جلسا يتناولان الطعام في صمت، ظل ينظر إلى ساعته وكلما هم بالنهوض وحثها على الذهاب تتمسك به لقضاء وقت أطول حتى لا يكشف أمرها حتى بلغ آخره ودار العراك بينهما قبل أن تتبعه على مضض.

لا يدري ما حدث له، فقط كل ما يتذكره أن نيران استعرت بداخله عندما رأها تجلس فرحة مكتفية بمسلسل كرتوني عوضًا عن الإحتراق من تجاهله لها.

طعنت رجولته بل وأدتها، ألهذه الدرجة لا يهمها أمره؟ فلِمَ تزوجته ولِمَ تستمر؟، يجب أن يتناقش معها في هذا الأمر عما قريب لكن ليس وهي ترتدي ملابس بهذا الشكل، كان جسدها ممتلئ أعترف بذلك ولكن مع ما ارتدته أصبح جذابًا ولم يعد زيادة الوزن به عيبًا، ثار عليها رغم إدركه لصحة مبرراتها قبل أن تنطقها.. اختلق

الخلاف لكي يكبح أفكاره عن التفكير بها كامرأة أو بالأصح زوجته، يوجهها إلى شيء ينفث به عما أعتمر بداخله.

سمع أزيز الباب المفضي إلى السطح، سألته عنبر: أستاذ ياسين، تأمر بحاجه قبل ما أنام؟

أكتفى بهز رأسه نافيًا فانطلقت إلى زوجها تصحبه صوب الملحق الخاص بهما بجوار كابينة الأمن، تابع ياسين مشيتهما المتعكزة على عضدي بعضهما من العلو الذي يحتله ثم دعس فوق عقب سيجارته واسترخى فوق الـ«شيزلونج» يحدق بالأنجم عبر السقف الزجاجي.

طور المنزل منذ عدة سنوات وقبل معرفته بكادي، الطابق الثاني خصص لغرف النوم أما الثالث والأخير فتحول جزء منه إلى حمام سباحة يحوي في أحد أركانه غرفة صغيرة لتبديل الملابس وحمام.

يختفي كل ذلك أسفل حقبة زجاجية لا تسمح برؤية ما بالداخل لكنها تأذن لأضواء السماء وأشعة الجوناء بالعبور عبرها فيما يحمي خصوصية السكان من تلصص الجيران، كان يقف وينظر عبر نوافذ أعدت في الجزء السفلي من الزجاج المرتفع على شكل كرة مقعرة.

مارس عادة الطفولة وشرع يحصي عدد النجمات المحيطة بالقمر الوضاء حتى استلمه سلطان السبات إلى عالم الأحلام دون إدراك.

***

هبطت إلى المطبخ تساعد عنبر وإسماعيل في تحضير الفطور، جلست تدفع اللقيمات إلى فمها دفعًا ثم تجبر مريئها على إبتلاعها غصبًا.

أظهر عدم المبالاة وكأن ما حدث بالأمس لم يكن، انصرف إلى عمله فور إنتهائه من الفطور ولحقت به كادي في سيارتها إلى النادي الرياضي؛ كي تمارس رياضة الصباح وتحافظ على رشاقتها إحكامًا في إغاظة المتطفلة على حياتها.

ودعتها آية على وعد بعدم التأخر؛ لكي تصحبها إلى النادي القريب من المنزل وتبدأ دوامها في ممارسة الرياضة بإنتظام حتى تفقد الوزن الزائد وتشد ترهلاتها.

اكتفت بمطالعة بقية الكتاب الذي قرأت به أمس حتى عادت آية، ذهبتا سويًا وتعرفت على صاحبة المكان، حمدت ربها أن من تدير المكان والعاملين به كلهن من النساء وذلك لتوفير الخصوصية والراحة اللازمة للعضوات.

سيدة أكبر منها بعدة سنوات قُدمت إليها على أنها من ستتابع معها التدريب، أتفقت على البدء في اليوم التالي حتى تجهز نفسها وتحضر ملابسها الخاصة، وسيكون دوامها أربعة أيام في الأسبوع فقط مع ضرورة الإلتزام.

سارت مع آية عائدة إلى المنزل؛ فالمسافة لا تستحق سيارة، سألتها: فكرك هيجيب نتيجة؟

-أنتِ عايزه؟

-أكيد.

-يبقى هتنجحي.. المهم تحافظي على الحماس دا على طول، يعني ما يبقاش أول يومين وشكرًا.

-لا، -إن شاء الله- هاستمر.

-إن شاء الله.

أردفت بعد فترة صمت: كنت عايزه اسألك يا سلمى، إيه اللي خلى ياسين يشيط إمبارح؟.. كنت هأدخل وراكِ بس خوفت تتعصبي أكتر.

-أنا أعرف!، هو كان جاي شايط من برا.. بس طلع عليا أنا.

وقصت عليها ما حدث تستفسر منها إن كانت أخطأت في شيء، صدمتها ضحكة آية: هو اللي أنا قولته بيضحك أوي كدا.. ولا أنا قولت نكتة فـ النص من غير ما أخد بالي؟

-مافكرتيش إنه ممكن يكون بيغير؟

صدمت: يغير؟؟

-أيوه، دي تصرفات واحد غيران.

-لا مش ممكن، اللي بيغير يعني بيحب، وهو لسه أول إمبارح قايلي فـ وشي إنه مجبور عليا يبقى إزاي حبني؟

-أومال إيه تفسيرك؟

-هي كل حاجه لازم تتفسر؟.. على العموم ممكن نقول إن العرق الشرقي اللي جواه طلع، خصوصًا إنه كان متعصب وقرر يطلع عليا.

رفعت كتفيها: يمكن.

أصرت: لا أكيد.

فور وصولهم صعدت آية إلى غرفتها تغرق بين أوراق بحثها واتجهت سلمى إلى المطبخ مقررة تحضير غداء اليوم لتقطع مرور الوقت الرتيب.

***

وقفت خلفه تساعده في نزع سترته ثم تضعها فوق علاقة الملابس قبل أن تغلق عليها الخزانة، عادت إليه تتابعه، يرتدي ملابسه المنزلية فيما تكمل حديثها: أنا كدا هأبقى ولا الدبة لو فضلت الغوريلا دي تعمل الأكل.

ضحك مكملًا إغلاق الأزرار: ليه بس؟

-دي واحدة فلاحة، أكيد بتطبخ بسمنة وزبدة والحاجات دي.. وهتجبلنا أمراض الدنيا.

رفع حاجبيه: مش بتبالغي شوية؟

شهقت: بأبالغ؟

وضع يديه فوق كتفيها موضحًا: كل الأكل إنهارده كان مشوي وسوتيه.. وزيت الزتون كان باين فـ بعض الأكلات.. ومرشوش على الوش.. منين جبتِ سمنة وزبدة؟

أدركت ضعف حيلتها فأدارت ظهرها تدعي تمشيط شعرها الأملس: ماليش دعوة، أنا عايزه خدامة.

-خدامة؟؟.. ليه؟

عادت إليه تتغنج: إحنا زدنا في البيت نفر ومش بعيد ناهد ترجع تاني بعد ما حققت مرادها وجوزتك السنيورة.. فالحمل هيزيد على عنبر وإسماعيل وكدا غلط عليهم، ما تنساش إنهم كبروا فـ السن بردو.. كمان أنا طلباتي بتتأخر فـ التنفيذ وأنت عارف مش بأحب اللكاعه.. كدا واحدة تيجي تريحني وتريحهم.. إيه رأيك؟

وازن الأمور بعقله حتى أقتنع فأذن لها بإحضار خادمة، هللت سعيدة وقفزت تقبله، قاطعهما طرق عنبر للباب.

دخلت فور سماعها الإذن: العصير يا ياسين بيه.

وضعت الصينية فوق أقرب طاولة للباب ثم انسحبت تغلقه خلفها بهدوء.

***

تمددت فوق فراشها بكسل والبسمة تصل إلى أذنيها، لم تنزع حذاءها أو تبدل ملابسها،

تذكرت تعبير كادي عندما قالت عنبر لياسين منشرحة الصدر: سلمى بنفسها اللي عملت الأكل كله إنهارده.. نَفسها حلو أوي واثقة أنه هيعجبكوا.

التوت شفتي كادي ساخرة، تناول ياسين الطعام في صمت فإن مدح؛ ستغضب كادي، كذلك لا يريد أن يشعر سلمى بإنتصارها عليه، وإن ذم هاجت وثارت الأخرى عليه.. فأكتفى بإلتزام الصمت.

ابتلعت الطعام مدعية التقزز: ياي.. الملح زيادة أووي.

ذاقت آية من نفس الصنف وعلقت بعدما ابتلعته: لا دا ملحه مظبوط بالملي.

ألقت عليها كادي نظرة استحقار: إيش عرفك أنتِ يا...

قاطعها ياسين محذرًا: كادي!

أنتهى وقت الطعام في صمت، همست كادي بأذنها حين تأكدت من إنفرادها بسلمى: لو فاكرة إنك لما تعملي بالمثل البلدي «أقصر طريق لقلب الراجل معدته» هتكسبيه فأحب أقولك إنك هتفشلي فشل ذريع.

أدعت سلمى الصدمة: تصدقي أول مرة أسمع المثل دا، صح صح ما أنتِ قولتِ إنه مثل بلدي.

أضافت وهي تهم بالمغادرة: والبلدي ما يعرفش غير البلدي.. يا بلدي.

أحمر وجهها من الغضب وهتفت من خلفها: أنا هأخليه يرميكِ في الشارع يا حشرة.. أما نشوف هتقعدي هنا قد إيه.

أحست بأنها وحيدة فوضعت الأطباق من يدها جانبًا ووقفت تهتف بغيظ: حشرة؟.. أنا بردو اللي حشرة؟؟.. مااااشي.. افتكري إنك اللي بدأتي «العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم»!

انتصبت في جلستها على حين غرة وتحدثت مع نفسها بصوت عالٍ: أنا كنت ناوية أعمل فيها لوحدها، بس ما ضمنتش هتيجي فيك ولا فيها.. بس بما إن الحب مشاركة ما حبتش أحرمك إنك تشاركها اللحظة دي.. خصوصًا إنك كمان ضايقتني.

أطلقت سلمى صفيرًا وبسطت أصابعها أمام وجهها تحاول منع ابتسامتها من الظهور وبدأت العد: واحد.. إتنين.. تلات..

تعالت ضحكتها فجأة متخطية مرحلة التبسم، نهضت مسرعة من فوق الفراش إلى خارج الغرفة تقفز في سعادة.

***

وقفت على باب غرفتها تسمع صوت طرق ياسين لبابٍ بشدة، تقسم أنها شعرت باهتزاز وقفتها على إثره، يصيح في زوجته الأولى: يا كادي خلصي بقى مش قادر..

فجأة رأته يفتح باب الجناح ويخرج منه، تلاقت نظراتهما برهة ثم تجاوزها إلى الغرف خلفها، انتقل من باب إلى آخر بلا جدوى، أصبح يحوم حول نفسه كأسد فقد رشده.

تمهل أمامها أخيرًا يطالبها دون أن ينظر إلى عينيها: عديني.

رفعت حاجبيها: ليه؟

حانقًا: عايز أدخل.

-بس دي أوضتي.. هتعمل فيها إيه؟

-هأدخل الحمام وأسيبهالك.

أشارت إلى باب الجناح خلف ظهره: طب ما تروح الحمام بتاعكوا.

أجابها بنفاذ صبر وهو لا يكاد يقف ثابتًا: كادي فيه.. و.. وأنا مش هأقدر أستنى.

زوت شفتيها: وهو لازم حمام أوضتي؟.. كل البيت الطويل العريض دا وما فاضلش غير حمام أوضتي؟؟

لم تتم جملته حتى دفعها جانبًا وأنطلق إلى الحمام، أخرجت سلسلة مفاتيح من جيب تنورتها وبدأت تلقفها في الهواء وتلتقطها وتقول ساخرة: صحيح يا بت يا سوسو.. هيدخل إزاي وأنتِ قفلتِ باب الأوض.. يا حرام.. كوكي فضلّت نفسها عليك يا حبة عيني.

سمعت صوت المياه بالحمام فأسرعت تخفي المفاتيح بجيبها مرة أخرى، حاول العبور من أمامها إلى الخارج فوضعت يدها تمنعه: على فين؟

-خارج.

-هو دخول الحمام زي خروجه؟

-قصدك إيه؟

مدت له كفها: إيدك.

أضافت عندما لم يستوعب: إيدك على أجرة الحمام.. هو في حاجه ببلاش فـ الزمن دا؟ دفع يدها بعيدًا لدرجة أخلّت بتوازنها وكادت تسقط، نظرت إليه متعجبة: بقى كدا؟

رد بكبر: بيتي وعايزاني أدفع فيه؟

دخلت إلى حجرتها وقالت بمكر قبل أن تغلق الباب بالمفتاح: طب خليك فاكر بقى يا سُنسُن.

لم تمر عدة ثوانٍ حتى عاد التوعك يهاجم أحشاءه، أسرع إلى جناحه فوجد حال كادي لا يختلف عنه، تمكث في الحمام ولا تنفك تغادره حتى يداهمها الوجع فتعود.

عاد يقف أمام غرفة سلمى بلا حول، تردد لكن وعكة أخر ذكرّته أن لا وقت للكبرياء، طرق على بابها، أجابته متهملة من خلفه: يا نعم؟

-افتحي الباب.

-خير؟

-عايز أدخل الحمام.

-لا مش هأدخلك.. ولا نسيت لما زقتني.. روح شوف مكان تاني يا شاطر.

كز على أسنانه يتحمل الوجع وكذلك استفزازها: افتحي.

-مقابل؟

-افتحي وبعدين نتفاهم.

-لا يا عم يفتح الله، هتضحك عليا.

-لا مش هأضحك عليكِ.

-طب أوعدني إنك تنفذ شرطي.

كانت تنهي جملتها وهي تدير المفتاح في القفل، أجابها متعجلًا: أوعدك.

نظرت له بعجب: مش لما تعرف إيه هو الأول؟

أسرع راكضًا إلى دورة المياه قائلًا قبل أن يغلق الباب خلفه: يا ستي اللي هتقوليه هأنفذه.

أسندت مرفقها إلى الحائط متكئة عليه وأرخت رأسها فوق قبضتها متنهدة: فعلا الزنقة تعمل أكتر من كدا، هيـــح.

خرج أخيرًا بعد عدة مرات من تقلصات المعدة، استراح من الألم متمنيًا إنتهاءه أخيرًا، وجدها تجلس على الفراش وقدميها تهتز في الهواء دون أن تلامس الأرض، رفعت نظرها إليه: حمدالله على السلامة.. دا أنا كنت بأفكر أخلي عنبر تبعتلك هدوم على الحمام لإقامتك فيه تطول ولا حاجه.

أخفى ضحكته: متشكر.

هم بالمغادرة عندما تذكر وسألها: إيه بقى اللي عايزاني أنفذهولك؟

ترجعت للخلف تستند على كفيها، تتلذذ بعذاب إنتظاره: إمممممم.. مش عارفه، سيبها لظروفها.. لما يجي فـ بالي حاجه هأقولك

.تركها مغتاظًا: طيب

فور إنغلاق الباب خلفه كررت إخراج سلسلة المفاتيح من جيبها وشرعت تلقيها في الهواء: يا سلام عليكِ يا ناهد.. أحسن حاجه عملتيها إنك سيبتي نسخة مفاتيح البيت بتاعتك معايا.. دا الواحد هينبسط إنبساط.. وهيلعب لعب.

انفجرت ضاحكة بسعادة، وراحة لثأر صغير ربحته.

***

مر أسبوع بين شد وجذب، تهدأ وتستكين، ممارسة حياة روتينية من الذهاب إلى النادي صباحًا وإعداد الطعام ظهرًا ثم تمضي ما تبقى لها من اليوم في المطالعة وتجاذب أطراف الحديث مع آية والخادمين.

جاء يوم الجمعة ساحبًا في طرفه مفاجأة، أنتهى الإفطار شاركتهم فيه ناهد وأنطلق كل منهم إلى وجهته كالمعتاد، دق جرس المنزل الداخلي بعدما أُخبِرَ ياسين بوجود ضيف يرغب في الدخول، رحب به ياسين أشد الترحيب.

سمعت صوته فتهللت، تركت آية وناهد تتابعان الحديث ونهبت الدرجات والمسافة الفاصلة بينها وبين الضيف نهبًا، لقد اشتاقت إلى أمانها بجواره وراحتها معه.

ألقت نفسها بين ذراعيها ضاحكة: زين.. زين.. وحشتني أوي شد عليها يلصقها به.

فرحًا لمرأها: وأنتِ أكتر.

وقف ياسين يتابع الموقف صامتًا تاركًا لهما حرية الحديث وإشباع الأشواق، دفعها بعيدًا

ليستطيع رؤية ملامح وجهها، مازحها: دا أنا قولت هأجي ألاقيكِ نستيني وابدأ أعرّف نفسي من جديد.

قطبت: ليه يعني؟

غمزها: المفروض يعني، على حسب ما سمعت يومين في العسل وما تفتكريش غير أبو نسب.

ألقت نظرة جانبية على زوجها وأجابت شقيقها ممازحة: ما أنت كمان كنت فـ شهرعسل وما نستش حد ولا حاجه.

قهقه: تصدقي أنا اللي نسيت يعني إيه عسل أصلا.

حذرتها بشيطنة: خلي بالك.. أنا ممكن أفتن عليك وأقولها.. ها، خذ حذرك.

ضربها على رأسها، مدعيًا نيته في عضّ سبابتها المرفوعة أمام وجهه بتهديد يعلمان جيدًا أنه لا يمت للواقع بصلة: بقى كدا؟.. ماشي ماشي.. بتعملي حلف عليا.

اقتربت ناهد مرحبة به تتبعها آية، بعد السلامات والتحيات استقروا في الصالون يرتشفون الشاي، التفتت إليه سلمى مستغربة: صحيح ما قولتليش إيه اللي جابك؟

وضع كوبه فوق الطاولة: دا بدل ما تقوليلي.. وحشتني ياخويا، فينك ياخويا، يا حبيبي ياخويا.

زوت شفتيها حانقة: ما أنا قولتلك وحشتني.. هنمثل؟!

حك رأسه ببلاهة مصطنعة: تصدقي صح.

تابع بينما يخرج شيئًا من حقيبته: الحق عليا إني جيت بنفسي أسلمك الأمانة.

تناولت منه أغراضها الإلكترونية التي كانت بحوزة أمها وقبلته: يا حبيبي يا زيزو.

ضحك الجميع على قبلاتها العديدة التي ضاق زين من كثرتها أو أدعى ذلك، سألتها آية متعجبة: أنا ما كنتش أعرف إنهم غاليين عليكِ أوي كدا.

أرتفع صوت ضحك زين: دي ما بتسبش الموبايل من إيديها ولو سابته بتمسك فـ اللاب توب.. لما خلاص أمها كانت هتطق.

رمته بنظرة جانبية ورفعت أحد حاجبيها ثم نبهته: أنا ممكن أكمل من غيرهم، عشت أسبوع من غيرهم عادي بقى لو كملت.

أسرع يطلب سماحها: آسف آسف، بجد مش هينفع.. أنتِ ما تعرفيش فضلت أزن على الحاجة فاطمة قد إيه عشان تسلمهوملي.. دا فارس وأسماء أدّخلوا حتى العيال.. ههههه دا الحاج عبدالرحيم ذات نفسه طلب منها فسلمتهم أخيرًا.

تساءل ياسين مقطبًا: وليه كل دا؟

زفر ناظرًا إليه نظرة العارف: الشغل يا سيدي.

نقل نظره بين الأخوين: ومال سلمى بالشغل؟

حدق به زين كأنه يسير عاريًا بالشارع: أنت ما تعرفش إن سلمى شغاله معانا؟

ضاقت عيونه مضيفًا بصوت متوجس: إزاي ما تعرفش مراتك بتشتغل ولا لا؟؟

تدخلت ناهد مسرعة وهي تضحك: أنت عارف السرعة اللي حصلت بيها الأمور، وبعدين ما بقالهومش أسبوع.. فيه عرسان هيتكلموا فـ شهر عسلهم عن الشغل ووجع الدماغ بردو؟

لم يقتنع كليًا ولكنه أكتفى بهذا المبرر مؤقتًا، قرر توضيح الأمر بأكمله: سلمى شغاله فـ البورصة، بتحددلنا.. إمتى نبيع وإمتى نشتري.. إمتى ناخد الأسهم دي وإمتى نسيبها.

أضاف: بس من البيت، مش بتنزل الشركة إلا لو في حاجه لازم تكون موجودة وش لوش، غير كدا بتبقى شغاله من اللاب والموبايل.

علقت ناهد: التكنولوجيا سهلت كل حاجه.

سألته سلمى: يعني جاي عشان الحاجات دي بس؟

-لا يا ستي، بكره الصبح عندي مقابلة بخصوص شركة جديدة حابة تتعامل معانا وتاخد جزء من محصول العنب.

هللت: يعني هتبات هنا؟

-هأروح عند عمتو.. أبات عندها.

-لا لا لا، هتبات معايا هنا.

-يا سلمـ.....

أصر ياسين بكياسة: مايصحش يا زين، هتبات معانا والأوضه هتجهز حالًا.

نظر إلى ناهد، فنهضت: هأروح أخلي عنبر تفتح أوضة.

منعتها سلمى متشبثة بذراع شقيقها: لا لا، أنا عايزاه يبات معايا فـ أوضتي.

نهرها زين متعجبًا: وجوزك يبات فين؟

ارتبكت وقالت متوترة: عادي ما البيت واسع، مش هتيجي من ليلة واحدة يعني.

ربت ياسين على فخذه مبديًا تفهمه: أكيد وحشتها، كلكوا وحشتوها.. وأنت ريحه منهم فـ ماسكة فيك.. بات معاها أنا مش هأضايق.

رمته بنظرة ساخرة متألمة، تحاشى المقابلة عينيها حتى لا تنغرز سكين الذنب بداخله، لم يطمئن زين للعلاقة بين شقيقته وزوجها. منذ البداية وهو يشعر أنها لن تسعد معه، بالأخص حالة زواجه من أخرى تشاركها فيه.

نظر إلى ساعته: يا خبر، دا فاضل نص ساعة على صلاة الجمعة.

أبعد شقيقته ناهضًا: كنت عايز أستحمى وأغير هدومي قبل الصلاة.. في مسجد قريب يا ياسين؟

أومأ ناهضًا كذلك: أيوه، أطلع مع سلمى توريك الأوضة، غير هدومك وأنا كمان هأعمل زيك.. كمان تلت ساعة نتقابل هنا ونروح سوا

صعد مع شقيقته، أخرجت له ملابسه من الحقيبة الخاصة به بينما يستحم، تشممت رائحة بلدها فيها، تخيلت أسماء تضع الملابس بحقيبة السفر سهلة الحمل، والصغيران يتقافزان حولها يبعثران ما رتبته والثالث فوق كتفها يقاوم النعاس، تبسمت لخيالاتها المشتاقة.

لمحته فزادت بسمتها إتساعًا: إزي طه ويزيد وحبيبي هشام؟

قهقه: الحمدلله.. لما أجي من الصلاة هأقولك تفاصيلهم.

أسرعت تسبقه للأسفل: هأستناك تحت ما تتأخرش.

هبط بعد دقائق وقابل ياسين، حثه الأخير على التقدم لكنه تمنع وطلب منه الإنتظار للحظات، تعجب لكنه لم يعلق.

أتت سلمى مسرعة تحمل بيدها زجاجة صغيرة بالكاد يصل طولها لما يقارب العقلتين، اعتذرت لاهثة: معلش اتأخرت.

وقفت أمام شقيقها تضع له من المسك حول رقبته وفوق جلبابه ناصع البياض، تراجعت فور انتهاءها فاستفسر: مش هتحطي لجوزك؟

نظرت لياسين ولم تجد مهرب، اقتربت منه تفعل كما فعلت لأخيها، أول مرة تراه في جلباب أبيض كجلباب زين، ابتسمت بهدوء ودعت لهما بالعودة سالمين وتقبل صلاتهم.

***

جلستهما مليئة بالتوتر، عبدالرحيم يهاجم موقف فاروق المتشدد زيادة عن الحد، بل سلبيته في حل الأزمة مع ابنته، نصحه قبلًا لكنه لم يصغ، والآن يكرر على أذانه المسدودة الحديث من جديد؛ علّه يعتبر ويفيق من سبات عزته الوهمي.

-لازم تفهمها أسبابك يا فاروق، مش دي الطريقة اللي تكسب بيها بنت عنيدة زي حياه.. صدقني لو كلمتها بالهداوة ووضحت أسبابك هتكسبها، وهتسمع كلمتك بدون مشاكل، إنما اللي بتعمله دا ممكن ينفرها منك!

انتفخت أودجه غيظًا من ذكر حديثه معها، وتبجحها أمامه بلقاءاتها السرية مع ذلك الشاب الذي لا يملك هوية تليق بهم، أو سمعة تغفر له تلفه وفساده. صاح بالغضب المعتمر داخل صدره: هي ما ينفعش معاها غير كسر الدماغ.

عارضه عبدالرحيم: العنف والضرب، القسوة والغضب عمرهم ما حلوا حاجه، بالعكس بيكبرها ويديها حجم أضخم م اللي تستحقه.

تأفف: هو كان وصلّنا للنقطة دي غير دلعي ليها.

لامه بهدوء رزين: اللي وصلك للنقطة دي هو مد إيدك عليها، ورفضك لحديث عقلاني واعي بينك وبينها بكل هدوء.

أضاف مذكرًا بعتب: حياه كبرت يا فاروق، ما عادتش طفلة صغيرة بضفاير.

هتف بغيظ ورفض لا رجعة فيه: مافيش كلام بيني وبينها، هتفضل محبوسة كدا لحد ما أقرر حاجه تانية، وهتنفذ الكلام بدون فهم أو حتى نقاش.

همَّ عبدالرحيم بالانصراف خوفًا من بطشه بصديقه العنيد، صاحب الأراء الطائشة، أراء كفيلة بزرع أطنان من الألغام في جسر العلاقة بينه وبين حياه. قال جملة أخيرة

مزيحًا ثقل مسئولية الصداقة الممتدة لعقود طوال عن كاهله: افتكر إن أي تصرف متهور من حياه مش هيكون غير رد فعل غير طبيعي على فعلك العنيف والمحتد ناحيتها.. لا تلومن إلا نفسك وقتها يا فاروق، وخليك فاكر كلامي دا كويس.

انسحب بجلبابه الأبيض، يقاوم شياطينه الدافعة له لرد الصفعات التي نالها خد الصغيرة، في خطوة يائسة توقظ فاروق من تعنته الغير مجدي. كان شابًا مندفعًا، يعشق الحياة ويقبل عليها بصدر مفتوح، وحياه الآن تمتلئ بحماس وعاطفة الشباب، نفسها مشبوبة بحمم الجمال الخالص لحياة لم تر منها ما يعكس نظرتها تلك، وبين عناد الأب وقسوة الأخ لا يستغرب تعطشها لعاطفة تروي ظمأها.. لكن الخوف، كل الخوف، عما ستقابلها به الحياة ردًا على حاجاتها الغير مرتوية.

***

أغمض عيونه يحث حاسة شمه على بذل قصار جهدها جاعلًا عقله يركز فقط على الرائحة، أخذت فتحتي أنفه تتسع من ثم تضيق متلذذة برائحة الطعام الشهي مخلوطة بعبق الزهور.

راقبه ياسين ضاحكًا من تصرفاته، تفاجئ من الزهور المتروكة في أرجاء المنزل، عادة لا يعرفها، بدأت ممارستها منذ الصغر.. كانت سلمى وحياه تحضران الأزهار وتزينان بها المنزل يوم الجمعة، لم تنقطع العادة ولن تنقطع حتى وإن أختلف المنزل.. هكذا كان الإتفاق.

رحبت بهما وجلسوا يتمازحون أثناء تناول الطعام، سألته بحزن: طب الباقيين ماجوش معاك ليه؟

غمزها: أولًا أنتوا تعتبروا فـ شهر العسل لسه، يعني مجيي لوحدي ذات نفسه ما ينفعش.

أضاف: ثانيًا أنتِ عارفه كل واحد حياته مشغوله فـ حاجه.. وبابا ما ينفعش يسافر الفترة دي أول ما يقدر أكيد هيجي.

أكتفت بهذا القدر وعادوا يتناوشون في مواضيع شتى. جلست كادي متململة لا تطيق أي أحد من طرف الزوجة الثانية لزوجها لكنها تضغط على نفسها لأقصى درجة.

***

رافقته بالجلسة في الطابق الثاني أمام التلفاز، معتبرة هذا الجزء غرفة المعيشة الخاصة بها، وقد أخذت في الحسبان تنازلها الشريف عن أحقية المكوث في جناح كالزوجة الأخر.

تابع التلفاز معها ضاحكًا: يعني أسيب العيال فـ البيت بيتفرجوا على دراجون بول أجي ألاقيكِ بتتفرجي على توم وجيري؟!

وضعت ثمرة عنب في فمه تسكته: اتفرج وأنت ساكت.

أنضم إليهم ياسين: بتجبرك أنت كمان على الكرتون؟

قهقه: أنت كمان ما اترحمتش ولا إيه؟

استمعت لاستفزازهم لها لكنها لم تعلق، خشت أن تفقد أعصابها وتبكي، ياسين يدّعي علاقة لا وجود لها بينهما؛ منذ متى وهو يشاركها أي شيء؟!

نامت في حضن شقيقها، لقد فقدت الراحة وطمأنينة النفس مذ أتت إلى هذا البيت، تلمست فيه رائحة أهلها وبلدها حيث كان الهدوء الروحي رفيقها.

***

صباحًا.. فتحت باب الغرفة وأطلت برأسها تحث شقيقها على اللحاق بها إلى الأسفل: يلا يا زيزو، الفطار جاهز.

أومأ يلحق بها بعدما حمل حقيبته، جلس على الطاولة تاركًا يساره فارغًا من أجل شقيقته يقابل مقعده آية ويمينها كادي فيما يترأس ياسين الطاولة.

حضرت تحمل طبقًا من الفطائر تفوح رائحتها الدالة على تو خروجها من الفرن، قدمت قطعتين لشقيقها باسمة: وأدي الفطيرة اللي بتحبها.

أخترق القطعة بشوكته متعجلًا تذوقها: يا سلام يا سلام.. إيه الرضى دا كله.. ياريتك تبعدي عننا كل يوم.

ضربته على كتفه، قالت فيما تضع قطعة في صحن آية كما طلبت: بقى كدا؟.. أنت تعالى وأنا أعملك اللي نفسك فيه.

أنتبه أخيرًا أنها لم تقدم منها شيئًا لزوجها، نظر إليها بترقب: إيه؟.. مش هتدي جوزك؟

نظرت إلى ياسين قائلة ببرود: أصلي عاملاها بالسمنة البلدي وأخاف مايكونش متعود عليها فـ تتعبله معدته ولا حاجه.

رد عليها متحديًا: لا مش بتتعبني.. دوقيني كدا.

وضعت قطعة في صحنه على مضض، تمنت أن يصاب بتلبك معوي حتى يكف عن إثارتها،

نظرت إليه عندما شعرت به يتوقف عن تناول طعامه، سألها باستفزاز باسمًا: مش تأكليني زي كل يوم ولا إيه؟

لم يلتفت أحد إلى كادي التي ألقت شوكتها في الطبق مصدرة قرقعة مرتفعة. بدأت تطعمه وقد اشتعلت وجنتيها بالخجل فيما يغمض عينيه متلذذًا بما يذوقه، ابتسم لها أخيرًا وقال بحنان: تسلم إيدك يا حبيبتي.

رفع يدها إلى فمه يلثمها، تنهد زين براحة وعاد يركز إنتباهه في طعامه أما سلمى فغرقت في عالم بعيد لا تر فيه سوى ياسين وآخر لحظاتها معه.

ودعت شقيقها على باب المنزل، لم تركز في سلامه فقد أخذها عقلها قريبًا ـبل أقرب ما يكون-.. إلى ذراع ياسين المحيطة بكتفها وأنفاسه التي تطرق طبلة أذنها كما تز كم أنفها رائحته النفاذة، استغلت رحيل أخيها فالتفتت تدلف إلى المنزل.

استوقفتها زجاجة تدلت أمام عينيها جعلتهما تتسعان في فزع، انتقلت عيونها من الزجاجة إلى وجه ياسين المقابل لها، أخافتها تعبيراته ونبرته الهازئة: بعد كدا لما تحطي ملح إنجليزي فـ العصير أبقي شيلي العلبة.. مش تسيبيها على ترابيزة المطبخ.

ابتلعت ريقها بصعوبة: مش فاهمة قصدك.

هز رأسه لأعلى: وأنا مش هاوضح لإني متأكد إنك فاهمة، أنا عاملتك كويس لحد أما أخوكِ مشي بس خلاص.. كدا بقيتِ لوحدك وأما نشوف، يا أنا يا أنتِ.

أضاف بينما يعتصر العلبة أمام عينيها حتى كادت تتحطم بالفعل من قوة الضغط مما جعل بدنها يقشعر خوفًا: حسابنا ما خلصش.

انقلبت معالم وجهه كأنما يشكلها بيده كيفما شاء، أحمرّ بياض عينيه وانكمشت عضلات وجهه، ولو كانا بمسلسل كرتوني لتلون وجهه بالأحمر وتصاعد الدخان عبر فتحات أذنيه.

صاح بها مشيرًا إلى أعلى السلم: على أوضتك.

شحب وجهها و شلت قدمها، لم تتحرك فعاد صياحه يعلو متجاهلًا الشفقة التي أصابته على مظهرها المرتعب: قولت.. على أوضتك!

ركضت من أمامه تتعثر في خطواتها، راقبها حتى أختفت عن أنظاره، نزل بصره إلى العلبة يتأملها محدثًا نفسه: شكلها أيام عنب.

****

باشرت العمل من جديد مما خفف عنها وطأة الوحدة، تنغمس فيه خلال الصباح من ثم تتركه لتحضير الغداء ومساعدة عنبر وإسماعيل في المطبخ حتى عودة آية من كليتها. انتظمت في ممارسة الرياضة فشعرت بحيويتها تزداد، لم تشعر حتى الآن بتغير ملحوظ في وزنها ولكن يكفيها الراحة الداخلية والاستقرار الطاغيين على روحها.

عكرت كادي صفو حياتها في كثير من الأحيان، تصفعها مرة فترد عليها بركلة تطرحها أرضًا، قوتها وصمودها منبعثين من شعورها بحب ياسين لزوجته الأولى وتفضيله لها مما مكن قلبها من الصمود أمام الهجمات الكادية.

أنهت عملها مبكرًا هذا اليوم فهبطت إلى المطبخ تستأنس بعنبر وزوجها، جلست على طاولة المطبخ تسند ذقنها بكفها، نظرت عنبر إلى شفتيها المزمومتين فابتسمت بحنان: مالك؟ تحركت عينيها داخل محجريهما وانتقلت إلى الزاوية تحدق بسأم: زهقانه.

ذكرتها بهوايتها المفضلة: طب ما تروحي أوضة المكتبة وأختاريلك كتاب بتحبيه واقري فيه شوية.

هزت كتفيها الفكرة غير محببة لنفسها في هذا الوقت، تنهدت عنبر وعادت لعملها تآسف على حالها، لا تستطيع تقديم المساعدة.

بعد دقائق عبرت كأنها سنوات، نظرت سلمى إلى عنبر تسألها: البنت اللي بتيجي تنضف الفيلا معادها إنهارده؟

تركت عنبر العجين يختمر وجلست أمامها معقودة الحاجبين: أيوه، عايزاها فـ حاجه؟

نهضت من مكانها مسرعة: هي حاجه واحدة؟!.. دول حاجات كتير.

لم تعطها فرصة لتتساءل أكثر وأنطلقت خارجة تتقافز في مشيتها، تبادل إسماعيل وعنبر النظرات باسمين على حالها الذي انقلب خلال برهة كالأطفال.

***

تهادت عبر طرقات المبنى تخرج منه إلى شمس الظهنرة، ضمت المراجع إلى صدرها وعدلت من نظارتها فوق أنفها، كانت المكتبة بغيتها عندما فاجأها شاب لا يصغرها بل من نفس عمرها، سار إلى جوارها يحث خطاه للحاق بها.

سألته بعد إلقاء نظرة عابرة عليه: في حاجه يا أمير؟

تبسم فتلألأت أسنانه البيضاء المتناسقة: أبدًا، حبيت أطمن عليكِ.

قطبت جبينها وتوقفت على حين غرة تنظر إليه بشك، تابع مبررًا: نسيتِ إننا دفعة واحدة ولا إيه؟

عندما لم ترد وأكتفت بالتحديق به، أضاف محني الرأس: ولا عشان أنتِ اتخرجتِ وأتعينتِ فـ الكلية وكمان بقيتِ معيدة عليّا ما يحقليش؟

رفعت أحد حاجبيها مستهجنة هجومه الغير مبرر: دا من أول يوم فـ الكلية وأنت بتتجاهلني..

حتى لما كنا بنتكلف بشغل سوا كنت بتغير الجروب عشان ما تبقاش معايا.. إيه اللي جد يعني؟؟

حدق به متعجبًا، كان يظن أنها لم تنتبه إلى تلك الأفعال الصبيانية الصغيرة، ابتسم: شكلك كنت مركزة معايا بقى.

استقامت تعدل من وضع نظارتها الطبية: غصب عني كان لازم ألاحظ؛ أصلها مش مرة ولا إتننن.. دا سنة أولى كلها.

أومأ معترفًا: معاكِ حق.. أنا آسف.

هزت رأسها تخبره أن الأمر ليس على تلك الدرجة من الأهمية، لما لاحظت أنه لم يعد يملك ما يضيفه تابعت خطاها مبتعدة، ظل يتأملها شاردًا لفترة قبل أن يستدير متجهًا إلى مطعم الكلية يكمل اليوم برفقة أصدقائه.

***

ولجت إلى المكتب دون استئذان، تمهلت في خطواتها حتى وصلت إلى المقعد المجاور له، رفع عينيه يتابعها تجلس حول طاولة الاجتماعات بقربه، أنهى حديثه عبر الهاتف ونظر إليها مستفسرًا في صمت.

ضمت كفيها فوق الطاولة بادئة في الإعلان عما في جوفها: عامل إيه مع سلمى؟

زفر وسألها بملل: بقى هو دا اللي مخليكِ جايه قبل الإجتماع بربع ساعة.

رفعت أحد حاجبيها: مش من حقي أطمن على أخويا ولا إيه؟

زم شفتيه وأخذ يقلب في الملف الذي أمامه؛ محاولة للتهرب منها: الحمدلله.

صمد بصرها قليلًا فوق الملف قبل أن يرتفع إلى وجهه حتى تقرأه بفراستها المحنكة، سألته بشك: بتعامل مراتك كويس؟

رفع حدقتيه مصدومًا: يعني هأمد إيدي عليها مثلًا؟؟

لوت شفتيها متراجعة في جلستها كما في سؤالها: استقريتوا مع بعض؟

أغلق الملف بحزم، استند بمرفقه على ذراع المقعد فيما كفه الآخر يستند فوق الملف الموصد بقوة: أنتِ طلبتِ مني أتجوزها..

رفع يديه في الهواء بلا حول: وأديني أتنيلت.

لمعت عيونه بالصرامة عائدًا لوضعيته السابقة: سيبيني بقى أتعايش مع النيلة اللي أنا فيها دي بمعرفتي.. وياريت ما تحاوليش تعرفي حاجه عن علاقتي بسلمى منها.. وما تدّخليش أحسنلك وأحسنلها.

أصدرت ما يشبه بالضحكة ساخرة، دنت منه قليلًا: لو فاكر إن سلمى ممكن تقولي على حاجه تخص علاقتكوا فأحب أأكدلك إنك ما تعرفش عنها أي حاجه.

صمتت لدقيقة قبل أن تقول بلا مبالاة: أعمل حسابك، لما أرجع من طوكيو.. هأرجع أعيش في الفيلا تاني.

أضافت على مهل متحدية محدقة بعيونه: معاكوا.

ألجمته الصدمة ومنع دخول بقية أعضاء الإجتماع تفوهه برد مناسب. أخفت ناهد الابتسامة عن عيونه، لقد فعلت كما طلبت منها سلمى وستذهب للعيش معهم، شردت تفكر في السبب الذي حفز سلمى على هذا الطلب دون جدوى؛ حتى ياسين لم يطفىء نار فضولها.

***

أغلقت باب المنزل خلفها لكن هالها ما رأته، تسمرت في موضعها تنظر حولها فاغرة فمها، لقد انقلب المنزل رأسًا على عقب، تقدمت منها سلمى ضاحكة: إيه رأيك؟

سقطت عيون آية على سلمى مذهولة: هو دا بيتنا؟

لم تستطع كتم شهقاتها الضاحكة: أومال بيت مين؟.. تعالي أفرجك عملت إيه.

جذبتها من يدها تشرح تفصيليًا ما فعلته، كيف ساعدها أفراد الأمن وكذلك الفتاة التي تأتي لتنظيف المكان وأعادته إلى بريقه كأنه منزل جديد، لم تتزحزح الابتسامة عن شفتي آية سعيدة بالتجديد الذي حدث، حماسة سلمى قد انتقلت إليها فبدأت تدخل معها في حوارات حول أحدث الديكورات ولمسات التجديد التي تبعث الطاقة الإيجابية إلى نفوس القاطنين بالمنزل.

تلمست مفرشًا فوق طاولة الصالون البيضاوية: بس المفرش دا مش بتاعنا.. اشتريتيه إمتى؟

تنحنحت سلمى ووقفت متعجرفة: دا عمايل إيديا.

شهقت آية غير مصدقة: معقول.. إزاي؟

هزت سلمى كتفيها ولملمت أطراف ثوبها قبل أن تجلس فوق أقرب مقعد: من صغري بأحب الأشغال اليدوية؛ كل أما أعرف عن حاجه جديدة أتعلمها من النت.. أو من حد بيعرف يعملها من اللي حوليا.

نظرت إلى المفرش متابعة: دا بقى ماما حبيبتي هي اللي علمتني أعمله.

لمعت عيونها منذرة بالدموع، تحدثت بصوت أجش من العاطفة: ماما بردو كانت بتعرف تعملهم، عملت حاجات كتير منهم بطانية عملتهالي وهي حامل فيا.. ما كانتش تعرف إنها مش هتلحق تغطيني بيها.

اقتربت منها سلمى تلوم نفسها على ذلة لسانها، جلست على ذراع المقعد تربت على كتفها، ألقت عليها آية بسمة حزينة فيما تنزع نظاراتها الطبية بيد والأخرى تمسح ما تساقط من دمعها: أنتِ عرفتِ ماتوا إزاي؟

أكتفت بهز رأسها فتابعت: ماما ماتت وهي بتولدسي.. وبابا مات بعدها، فـ عيد ميلادي الأول.

أطلقت ضحكة جوفاء: تحسي إن أنا اللي نحس.. يوم ميلادي بيموت حد.

عضت شفتيها: ما تقوليش كدا، دا أجل.. ربنا يرحمهم.

آمنت وراءها، جذبتها سلمى من مجلسها قائلة بحماس تحول أن تصعق به قلبها: تعالي بقى أما أوريكِ بقية مواهبي.. عشان تعرفي بس إني فـول أوبشنـز.

سارت معها، تلقي الهموم والأحزان خلف ظهرها، شاركتها الضحكات وتناست معها وجع الفراق، تطلعت إليها بينما تحاول تعليمها كيفية عمل مفرش كما فعلت وكما كانت والدتها من قبل، ابتسمت سعيدة حامدة؛ لأن الله رزقها بزوجة أخ في منزلة أخت. دائمًا منعزلة، لا ترغب في تكوين الصداقات؛ خوفًا من الفقدان، حتى الحب رفسته، أحبت زميلًا لها في الكلية لكن عندما تقدم لخطبتها صعقته بالرفض، تخشى عليه الموت وتخشى على نفسها ألم الوداع.

عوضها ربها الآن بسلمى، ستستغل طوق النجاة الذي بعث إليها، تتشبث به ولن تتركه يفلت مهما حدث، ستحافظ عليها وعلى علاقتها بها، حتى وإن ساءت علاقة سلمى بياسين.

***

استقبلته كادي بشكوى وبلاغ عما حدث في غيابه، لم يفهم في بادئ الأمر ما تتحدث عنه لكنه فهم فيما بعد، حدق حوله متفاجئًا، تغير المنزل حقًا.. لكن للأفضل، لا مجال للإنكار.

تركها تهرول خلفه بينما تقدم من مكتبه، صرخت به بعدما أغلقت باب المكتب خلفها: أنت هتسكتلها؟؟.. مش أنا كذا مرة أقولك عايزه أغير ديكور البيت تقولي لا.. إشمعنه هي؟

حل عقدة رابطة العنق وأغمض عينيه مسترخيًا في مقعده، أجابها ببرود: عشان أنتِ عايزه تغيري الفرش كله.. ودا تبذير ومصاريف مالهاش لزمه، إنما هي كل اللي عملته غيرت مكانه وضافت كام زينة مش أكتر.

انفجرت به: يعني إيه؟؟.. عايزها تمشي كلمتها وأنا لا؟

تأفف وتركها متجهًا إلى الخارج: هأروح أقول لداده عنبر تعملي فنجان قهوة لأحسن مصدع على الأخر.

أضاف محذرًا قبل أن يختفي عبر الرواق: وياريت تبطلي شغل الضراير دا؛ عشان أنا مش فاضي للعب والمشاكل الهبلة.

جلست على أقرب مقعد، تكاد تهرس كفيها من فرط تدليكهما سوية، أحمرت عيونها من الغضب والغيظ، تخشى على نفسها من الهزيمة وعلى ياسين من الإفلات، أخذت عدة أنفاس عميقة تعاونها على تمالك نفسها ثم نهضت ودفعت خصلات شعرها إلى الخلف في ثقة تحاول بثها إلى الداخل عبر الخارج، تهادت في مشيتها فيما ابتسامة باهتة تتسع على شفتيها حتى وصلت إلى عينيها وأصبحت مطابقة للحقيقية.

***

بعد إتمامه صلاة العشاء في المسجد القريب، سار عبدالرحيم جوار ابنه زين فيما أسرع فارس يسبقهم إلى المنزل متعجلًا؛ لا يقدر على محاكة مشية والده البطيئة المعتمدة على العكازات. صمت حل فوق الرؤوس، قطعه عبدالرحيم زافرًا بتساؤلُ: سعدان لسه بيضايقك فـ الشغل؟

حاول زين رسم ابتسامة مطمئنة على وجهه والتفت إلى والده: ما تخافش يا أبويا، مش هيقدر يأذيني بحاجه مادام ربنا مش رايد.

هز رأسه صعودًا وهبوطًا وقد شرد بعيدًا، كان كمن يفكر في أمر، يقرر فعله أم إقصاءه تمامًا عن ذهنه، أخيرًا توصل إلى القرار الملائم وحزم أمره، أشار بعكازه لولده إلى جزع شجرة على جانب الطريق: تعالى نرتاح هنا شوية.

أطاع والده مدركًا أن ما هو آت أشد وطأة، استند بكفيه على عكازه يقص على بكره الأمر كله، بالنهاية هو من سيترأس العائلة بعد أن يأخذ الله أمانته.

تمالك زين أعصابه كما تعود من والده حتى يتعامل مع الأعمال ليكسبهم دون أن يخسر أحدًا، بعدما جمع شتات عقله سأل والده: وحضرتك فاكر إنك بكدا حميت سلمى؟.. مش يمكن اترمت لنار أشد.. دا بفرض طبعًا إن جوازها يقدر يمنع عنها شر عمي.

أضاف جملته الأخيرة بسخرية. تنهد والده بحدة: أنا عارف إنها كدا مش فـ أمان بس..

نظر إلى زين مكملًا بعيون أظلمها شقاء السهر وتعب التفكير: من ناحية خففت عنك حمل زيادة وبقت فـ حمى جوزها.. ومن ناحية تانية أديتها فرصة تعيش مع اللي هواه قلبها.

سأله مخفيا ابتسامته: بقى دمك دم صعيدي ومعترف بالحب.. شكلك نويت تنحرف يا حاج.

لم يستطع عبدالرحيم كتم ضحكته، ضرب زين على كتفه: قصدك إيه يا ولد.. من إمتى وأنا مش معترف بالحب؟.. الحب دا أسمى شعور في الدنيا، بس لما نحب صح والشخص الصح.

استرسل ناظرًا إلى الأعشاب أسفل أقدامهم: سلمى كانت رايداه، بان فـ عينيها وإن كدبته فـ كلامها، ما حبتش أكسر قلبها خصوصًا لما لاقيت بعد إعلاننا الرفض وسفرهم فترة.. النور اللي كان بيلعلع جوا عينيها بهت.. بقى ضعيف كأنه التيار اللي بينوره ضعف.. ولما رجع وشافته لعلع من جديد ويمكن أشد م الأول، أه مش هتموت من غيره، الحب مش بيموت.. ولا الفراق كمان، استخارت وسيبتلها باب الخيار مفتوح وهي اختارت..

عقب زين متذكرًا حالتها عندما رأها في المرة الأخيرة، لم يخف عليه عدم استقرار علاقتها بزوجها: يا رب ما يكونش اختيار غلط تندم عليه.

رفع الأب رأسه محدقًا إلى الأمام ولكن دون أن يراه: أنا متأكد إنها لحد دلوقتي ما استقرتش مع جوزها.. بس فـ أقرب وقت -إن شاء الله- هتستقر.. يوم ما أكلمها واسمع فـ صوتها رنة الفرحة الحقيقية مش اللي بتمثلها وأمها مصدقاها.. وقتها بس هاتأكد إنها خلاص عرفت الطريق اللي هتمشي فيه.

كز زين على نواجذه: طب ما جوزتهاش لغيره ليه؟؟.. دا ألف مين يتمناها.

غمزه: بس هي اختارت دا من الألف يا زين.. أدعيلها بصلاح الحال.

حول دفة الحوار إلى أخيه من جديد: لو سعدان عمل حاجه قولي.. هو ساكت دلوقتي بس مش مطمن.. أكيد بيخطط لحاجه.

نظر إليه باهتمام: قصدك هدوء ما قبل العاصفة؟

أومأ يؤكد ظنه: ربنا يكفينا شره

طمأنه: ما تقلقش.. أي حاجه هيعملها مش هتبقى أكتر من زوبعة فـ فنجان.

قهقه عبدالرحيم ناهضًا وبدأوا في إكمال رحلة العودة إلى المنزل: شكل قعدتك مع أسماء وأمك كلت دماغك.. حفظت الأمثال بتاعتهم كلها ولا إيه..

شاركه الضحك: يابوي.. ما تفكرنيش.. دا عليهم حبة أمثال تفطس م الضحك.

-طب ما تقولنا مثل ولا إتنين الواحد يفك بيهم عن نفسه شوية.

-ما تخلي الحاجة فاطمة تقولك.

-لا لا، دي لو فتحت مش هتقفلها.. الواحد مش ناقص.. هتكر الشريط كله.

-أحمد ربنا، أسماء الشريط بتاعها بيسف.. وممكن تعيد المثل عشرات مرات ورا بعض وما تكونش فاكرة.

ابتلع الظلام أجسادهما المهتزة من الضحك رغم الهموم المثقل بها الكتف، وبدأ ظلهما يتبعهما رويدًا رويدًا، لا ينير الطريق سوى مصباح ينبأ إرتعاش ضوءه باقتراب نهاية صلاحيته.

ظل آخر تخفى خلف شجرة وارفة على أحد أجناب الطريق، أخرج الهاتف من جيب جلبابه الداخلي، دق أزراره دون أن يرفع نظره عن متابعتهما، أختفى طيفهما مع إجابة الطرف الآخر.

***

تحركت جيئة وذهابًا في الغرفة بخطوات يبدو منها شدة ضيقها وغضبها كذلك قلقها: يعني لولا اتصلت بزهرة صدفة عشان أشوف حياه ما سألتش عني الفترة اللي فاتت ليه.. لولا عرفت؟

-يا بنتي أنتِ فـ إيه ولا إيه.. يادوب بتحاولي تستقري وتتأقلمي فـ بيئة جديدة أجي أنا وأقولك صاحبتك هربت من أهلها ومش عارفين طريقها؟

-يا ماما أنتِ عارفه كويس أوي إن أنا وحياه مش أي صحاب.. إحنا أخوات.. هي أختي اللي ما جبتهاش.

-عارفه والله، ويعلم ربنا معزتها فـ قلبي وأنها عندي زيك تمام، وإن كان اللي جرا معاكِ مش معاها كنت هأخبي عليها بردو.. هأقولك بتاع إيه؟.. مافيش فـ إيديك حاجه.

-على الأقل أبقى عارفه.. شقيقة عمري جرا معاها إيه.

أضافت متنهدة: خلاص يا ماما، اللي حصل حصل، مالوش لازمه الجدال.. محمود أو عمو فاروق وصلوا لحاجه؟

سمعت شهقة والدتها المتألمة: يا حسرة، فاروق تعب وراقد فـ السرير ومحمود راسه وألف سيف إنها ماتت ومش عايز يعرفها تاني.

صاحت: إزاي يعني؟!، دي أخته من لحمه.. يرميها كدا لكلاب السكك؟؟

-زين حاول معاه كذا مرة.. بس أنتِ عارفاه دماغه حجر.

-طيب بابا وزين بيدوروا عليها؟

-أيوه طبعًا، حتى كمان بيدوروا على الواد اللي بيقولوا هربت معاه؛ يمكن يدلهم على طريقها، ما تعليش هم أنتِ بس.. هما مش هيسيبوها غير لما يعتروا عليها.

-يا رب يا ماما ترجع بسرعة.

أخفضت فاطمة صوتها بهمهمة لكن سلمى استطاعت سماعها: المهم تكون سليمة وزي ما راحت زي ما تيجي.

استمر الحديث بينهما يمر على كل فرد من أقرب معارفهم وأشدهم سكنًا لقلوبهم، أطمأنت على أخبار الجميع وحادثت شقيقها الأكبر فور عودته توصيه على حياه ووجوب عثوره عليها قبل أن يمسها سوء.

أغلقت الهاتف وأفرجت عن دمعها الحبيس، مدت سجادة صلاتها وهمت بالبدء عندما تراجعت وأسرعت تجدد وضوءها كي يهدأها، أطالت السجود مكثفة الدعاء، ترجو ربها أن يحمي حياه من شر نفسها ومن شرور من حولها.

***

سمحت لدفتي الكتاب بأن يلتقيا عند خط الحياد بالمنتصف، ألقت فوقهما نظاراتها الطبية ثم استندت بكفيها على طرف المكتب تلقي رأسها بإرهاق.

أغمضت عينيها بينما تزفر من شدة التعب، رسالتها تأتي على ما تبقى لها من طاقة يضيع أغلبها خلال القيام بأعمال الكلية بالنهار ومرواغات الطلاب معها.

اعتدلت تفتح حاسوبها المحمول، تتفحص أي جديد يخرجها من الإحصائيات والنظريات والقواعد التي غرقت بها حتى أخمص قدميها، لفت نظرها رسالة أتتها على بريدها الإلكتروني، فتحتها فوجدت مقطعًا صوتيًا، أدارته لتصلها كلمات إحد الأغاني القديمة تتذكر أنها سمعتها قبلًا في الكافيتريا الخاصة بالكلية، أغلقتها دون اهتمام، فهي لم ولن تحب سماع الأغاني طول حياتها، تفحصت حسابها على الفيس بوك حتى غلبها النعاس فتوسدت كفيها وشدت الغطاء فوق جسدها ونامت هانئة.

***

اجتمعوا جميعًا يوم عودة ناهد من رحلتها بالخارج، تحلقوا حول طاولة من الخوص في الحديقة يتناولون الفاكهة؛ تخففًا من حرارة الجو. قصت عليهم الأعاجيب مما رأت وجمال البلاد واختلافها عن مصر، اعتذرت عن عدم قدرتها للانتقال للسكن معهم في الوقت الراهن؛ حيث عليها السفر مرة أخرى خلال يومين إلى بلد آخر، فلا تملك وقتًا للاهتمام بأغراضها المنقولة من منزلها إلى هنا.

كان ياسين يجلس على أريكة صغيرة تلتصق به كادي؛ نكاية بسلمى وأخته الكبرى، فيما استقل البقية كل على مقعد منفصل، مالت سلمى عليه تطعمه ثمرة عنب في فمه، رسالة إلى الأخرى بأنها إذا أرادته لن يمنعها عدم الجلوس إلى جواره.

شهقت كادي حانقة: ياي بتأكليه بإيدك كدا عادي؟.. ما سمعتيش عن حاجه اسمها شوكة؟!.. بلدي.

أخذت جرعة هواء كافية لإجابة حارقة: وهي العنبة كمان بياكلوها بالشوكة.

نظرت إليها من طرف عينها متقززة: أصلا المفروض أحمد ربنا إنك عارفه يعني إيه شوكة.

أمسكت سلمى عنبة صغيرة ودفستها داخل فمها قائلة بترفع: عشان تعرفي إنك جاحدة.

تدخلت آية في صف سلمى: على فكرة شهريار طول عمره كان بياكل العنب من إيد شهرزاد.. دا سلطان.. عارفه يعني إيه سلطان؟

حضرت عنبر تحمل صينية محملة بكؤوس العصير المنعشة، نهضت سلمى مسرعة تتناول منها الصينية باسمة: عنك أنتِ يا دادة.. تسلم إيدك.

ابتسمت لها عنبر منصرفة: بالهنا والشفا يا حبيبتي.

وزعت عليهم الكؤوس، نظر إليها ياسين باسمًا، همس لها بحنان: شكرًا، يظهر دادة عنبر حبيتك ودخلتِ قلبها.

نظرت أرضًا بخجل: يشهد ربنا أنا كمان حبيتها قد إيه

اغتاظت كادي فلم تفكر في عواقب فعلتها، فقط فعلتها، سقط كأس العصير من يدها وانسكب فوق أطراف ثوب سلمى.

شهقت ضحية السائل الملون وترقرقت الدمعات في عيونها، صاحت كادي ترسم ملامح المفاجأة على وجهها وتخفي فمها خلف يديها ذات الأظافر المشذبة والمطلية بلون يتلائم مع ثوبها الأصفر: سوري، ماخدتش بالي.

وضعت الصينية فوق الطاولة المنخفضة ونظرها لا يتزحزح عن بقعة العصير التي أفسدت ثوبها الأبيض المزركش، همهمت بصوت أصابته بحة من يوشك على البكاء: حصل خير الحمدلله.. عن إذنكوا.

حثت خطاها ودخلت المنزل مسرعة، التفت ياسين إلى زوجته غاضبًا: أنتِ مش كبرتي على حركات المراهقيين دي؟

رفعت حاجبيها مصدومة: حركات مراهقيين؟

-لما تكبي العصير عليها، عشان خسرتي قدامها فـ حرب الكلمات اللي أنتِ أصلا فتحتيها يبقى اسمها حركات مراهقيين.

رفعت حاجبيها لا تستوعب أنه يهاجمها من أجل أخرى، أجاب هاتفه مقطبًا: أيوه يا محمد.. لا فـ البيت.. لا لا، خليك؛ أنا اللي هأجيلك.

نهض من محله، ألقى إليها نظرة لم ترها في حياتها من قبل في عينيه جهتها: أنا رايح أغير جو شوية.. ياريت تراجعي نفسك وتصرفاتك اللي بقت بتقلل منك قبل ما تقلل من حد تاني.

تناول مفاتيحه من فوق الطاولة، ضغط على زر التحكم بالسيارة عن بعد، انطلق بجاجواره السريعة بعيدًا مختفيًا خلال ثوان معدودة. نظرت آية بشفقة إلى كادي بينما حدجتها ناهد بنظرة تخبرها أن نهاية زواجها ستكون بسببها قبل أي حاجة لتدخل آخر.

قفزت من مكانها وأسرعت للداخل، لا تطيق نظرات الشماتة أو نظرات الشفقة، طرقت سلالم المنزل بكعوبها العالية صعودًا إلى غرفتها.

خرجت من مخبئها خلف ستارة تسدل فوق الباب الزجاجي الواصل بين المنزل والحديقة، وقفت تعقد ذراعيها أمام صدرها تطالع كادي بينما تتوارى خلف أحد الأبواب بأعين شبه مغلقة.

أخرجت نفسًا حارًا بينما تمسح دمعة علقت بخدها قبل أن تنظر إلى بقايا ماءها على أطراف أصابعها: أه يا اسراء.. كتر خيرك يا حبيبتي.. لولاكِ ما كنتش عرفت بيجيبوا الدموع المزيفة فـ لحظة للعين إزاي.. هيـــــــح، أدينا بنتعلم.

***

جلست سلمى برفقة آية وحدهما يتناولان الإفطار، ضغطت على قلبها النازف تسكت شهقاته المختنقة، لقد أعدت كادي إفطارًا خاصًا لها مع ياسين بجناحهما المنعزل، محاولة منها لمراضاته.

تدفع اللقمة خلف الأخرى دون تذوق، وآية ترمقها بين الحين والآخر ليس بيدها شيء لتخفف عنها، أي كلام قد يطيب وجع أنوثة مذبوحة وحب وأد قبل الميلاد.

لاحظت سلمى نظراتها فأخرجت نفسها سريعًا من دوامتها وبدأت تدير دفة الحديث بينهما، تلقي إليها الكرة التي سرعان ما ترتد إليها فتعيد ركلها مرة أخرى.

بعد هنية سألتها آية مترددة: أنتِ لسه مضايقة م اللي عملته كادي إمبارح؟

تركت طعامها تناظرها بتعجب: أنا ما أضايقتش أصلا.

رفعت حاجبيها: أومال عيطتِ وجريتِ ليه؟ مافيهاش حاجه لو قولتيلي، إحنا مش صحاب ولا إيه؟

ربتت على كفها بحنان، تدعم قولها: وأكتر.. أختي كمان، بس فعلا أنا ما زعلتش.

أكملت بخبث بعدما لمحت دهشتها تزداد: ما أنا أخدت حقي إمبارح.. ياسين مشي وهو زعلان وأداها كلمتين.. هأعوز أكتر من كدا إيه؟

أردفت تعض على شفتيها غيظًا: أي نعم بتصالحه دلوقتي وهو عاجبه بس مش مهم.

ضربها الوعي فجأة، وفهمت تمثيلها البارع في اليوم السابق، هتفت مشدوهة: مش معقول، أنتِ يطلع منك كل دا؟

أجابتها بجدية: هي اللي بدأت، أنا ما عملتش كدا من نفسي.

-وعرفتي تعيطي وأنتِ مش عايزه إزاي؟.. شكلك كان أكنك بتعيطي حقيقي.

-صاحبتي اسراء، كانت معايا فـ إعدادي، كل مشكلة عشان تهرب منها تعيط، تصعب على المدرسة وتفلت من العقاب.. سألتها بتعرف تجيب الدموع لعينها إزاي.. قالتلي بسيطة، افتكر حاجه بتزعلني أوي.. هتجبلي كل الدموع اللي محتاجاها وتفيض.

-أها.

صمتتا وتابعتا تناول الإفطار، لكن بعد قليل سألتها على حين غرة: هو أنا ينفع أجي معاكِ؟

رفعت حاجبيها مذهولة: الكلية؟

هزت رأسها، ابتسمت لها آية: مافيش مانع طبعًا، بس أنا هأخلص على تلاته تقريبًا؛ هتقدري تقعدي كل دا؟.. والجيم؟

-مافيش جيم إنهارده، ماعنديش مشكلة، وع العموم هأخد كتاب معايا عشان لو زهقت مع إني ما أظنش أزهق بس إحتياط..

أضافت شاردة: بجد عايزه أغير جو.. زهقت من القاعدة.. عايزه أشوف مكان جديد.

أيدتها من ثم نهضت كلتهما تستعد للخروج.

***

رفع المأذون المحرمة من فوق الأيدي المتصافحة في قوة، أعلن تمام الزيجة ورسمية عقد القران بين الشابين، نهض الرجل الأشيب الذي كان يقبض على يد العريس ينقد المأذون نصيبه ويوصله إلى أعتاب الباب الخارجي فيما التفت العريس لعروسه ضامًا يدها إلى صدره.

حدقت فيه بعيون تتلألأ من السعادة: ربنا يخليك ليا، وأكون نعم الزوجة وتكونلي نعم الزوج.

قَبَّل أطراف أناملها برقة دون أن يزيح عيونه عن عيونـها. عاد الرجل الأشيب وربت على كتفه ضاحكًا: هي أه بقت مراتك وحلالك، بس راعي إن لسه في بنات هنا ما أتجوزتش.

ثم أشار إلى صدره: ورجل عجوز عازب.

ابتسم له الشاب واقترب يضغط على يده: أنا مش عارف أشكر حضرتك إزاي.

التفت بنظره إليها متابعًا: أنت أدتني روح جديدة وحياة أحلى م اللي فات.

قبض على كتفه يلفت إنتباهه: عزت، أنت شاب كويس، ولولا كدا عمري ما كنت سلمتك بنت من بناتي أبدًا.

أومأ له باسمًا باحترام: وبعون الله أفضل عند حسن ظنك بيا.

أشار إلى عروسه بطرف عينه: تسمحلي أخدها وأطير على عشنا الصغير؟

رفع نظره إليها فوجدتها تتبسم بخفر محدقة بالأرض، أذن لهما: بس أبقى جيبها كل فترة نطمن عليها ونشبع منها.

اتسعت ابتسامته ولمعت عيونه: منى فـ عيني يا بابا يسري، هأجيبها كل فترة.

تعجل عزت عروسه، تركته يكمل حديثه ويصغي إلى وصايا يسري، انصرفت تودع صديقاتها في الميتم، تضمهن فيما تتقبل التهاني وتدعو لهن بالمثل، كانت ترغب في التحليق، عقد قرانها على من دق له قلبها، مثلها كأي فتاة.. تحلم بفارس الأحلام، رغم أن حياة الميتم قضت على أحلامها منذ الصغر، وأدتها في مهدها وقبل أن تدب فيها الروح إلا أن لطف الله بها كان شديد فتزوجت على عكس العديد من زميلاتها، ليس مجرد زيجة.. والحمدلله.

***

أحضرت كوبين من العصير وعدة سندوتشات بأطعمة مختلفة، وضعتهم ثم أتخذت مكانها أمام سلمى، اعتدلت الأخيرة تسحب أول سندوتش قابلها بينما تروي عطشها بالعصير. ضحكت آية على مظهرها الطفولي وطريقة أكلها الشرهة كأنها لم تذق طعامًا منذ شهر.

-يا بنتي براحة الأكل مش هيخلص.

أجابتها وفمها مكتظ بالفتات: أصل أنتِ مش فاهمة.

تابعت بعدما شربت القليل من العصير: لو ما كالتش وعوضت نسبة السكر اللي ضيعتها فـ اللف اللي لففتهوني والحر دا.. هأصدع ويجيلي هبوط وتبقى حالتي حالة.

أومأت بتفهم باسمة: بالهنا والشفا.

بعد نصف ساعة كانت قد أنهت كل السندوتشات بينما اكتفت آية بكوب من العصير، تنهدت سلمى حانقة: يخرب بيت الريجيم، أهو ضاع.

قهقهت آية وغمزتها: يخرب بيت الطفاسة مش الريجيم ياختي.

ابتأست كطفلة تم لومها على تصرف غير لائق أقدمت على فعله: الله.. أموت م الجوع يعني؟.. وبعدين مافيش هنا أكل ريجيم.

وأدت حجتها: كنت أكلتِ سندوتش أو إتنين.. مش خمسة يا مفترية.

قطع وصلة المبررات التي أوشكت على البدء وصول أحد الطلبة لدى آية، كانت سلمى لمحته في المدرج، لفت نظرها قلة إنتباهه وكثرة البنات من حوله.

وقف ينظر إلى آية بعدما أومأ لكلتيهما: إزيك يا آية؟

أجابته ببرود: الحمدلله.

سألها عدة أسئلة تخص الدراسة، أجابته رغم تفاهتها، حتى سلمى لاحظت ذلك وفكرت أنها مجرد حجة؛ كي يتحدث إلى أستاذته ويتبادل معها حوار. أخفت ابتسامتها بأعجوبة فيما تسير جوار آية إنطلاقًا لمكان تحرق فيه سلمى سعراتها الزائدة.

***

وقفت خلف زوجها تساعده في نزع ملابسه، تعلق بعضها فوق علّاقة الملابس وتنقل البعض إلى سلة الغسيل، جلست أمامه بعدما أنعش جسده، راقبته فيما يتناول طعامه.

-يعني لسه ما وصلتوش لمكانها؟

دفس لقمة ممتلئة بين شفتيه: لسه والله يا أسماء، ربنا يستر وتكون لسه عايشه؛ عشان نعتر عليها وإلا..

استلت صدر عباءتها بعيدًا عن صدرها بما يسمحه قماشها ثم تفلت في صدرها: تف من بؤك يا زين.. إن شاء الله تكون بخير.. الله العالم سلمى ممكن يجرالها إيه لو جالها خبر حياه بعد الشر.

-المشكلة إن محمود مش عايز يساعدنا ولا أي حاجه، وأبوها يادوب بيقدر ينطق.. لو جات سيرتها قدامه بيتعب أكتر.

-ربنا يقومه بالسلامة ويهدي محمود لأخته، طب ما عرفتوش حاجه عن شادي؟

نظر إليها متنهدًا وكأن ما هو قادم ليس إلا الشر الخالص: دا طلع داهيه، اللي عرفناه عنه ما يطمنش أبدًا ولو المعلومات دي أخدنا بيها يبقى حياه ضيعت نفسها.. طول عمرها متهورة ومش عارف هتعقل إمتى.

ضربت صدرها بقوة شاهقة: ليه؟.. عرفتوا إيه؟.. قلقتني.

-اللي ما يتسمى طلع بيتاجر فـ الآثار؛ يعني وجوده هنا مش عشان بعثة علمية ولا حاجه.. دا عشان يلاقي كام حتت آثار يبيعهم.

-يا خبر، دا واقعة إيه اللي وقعتها حياه.. البت طيبة ما تستاهلش تقع فـ قرعة الأشكال دي.

ابتسم بسخرية: بس غبية، عصت كلمة أهلها..

لوت شفتيها: هما اتعاملوا معاها بطريقة صعبة أوي.. وأنت عارف طبيعتها إزاي.. فعلها من دماغها والعند عندها تلات تربع أبراج نافوخها.

أيدها: معاكِ إن أهلها تصرفهم كان غلط، بس عمي فاروق الحمل تقيل عليه، ربى ولاده لوحده وكبرهم، منهم بنتين، خايف وخوفه مضاعف؛ لأنه قايم بدور الأب والأم، حتى محمود شال المسئولية والهم من صغره، عايش أكبر من سنه، ضربة الفاس فـ الأرض عايزه خشونة وقسوة وقوة.. لو إيده سابت الفاس يقع على رجله يقطعها، ومش هيعرف يزرع أرض ولا حاجه.

أضاف في النهاية حامدًا الله على ما رزقه من طعام سد جوعه: بس شكله نسي إن اللي يمشي فـ الأرض ومع الفاس.. ما ينفعش فـ بيته ومع أخته.

تنهدت صامتة قبل أن تهتف بعد دقيقة: طب ما تجرب تقوله يمكن قلبه يحن شوية ويخاف على أخته.. دي مهما كان من لحمه ودمه.

-وفكرك ما عملتش كدا؟، عملت.. بس مالاقتش غير عدم الاهتمام ومش بعيد شماته.. قال تستاهل اللي يجرالها مادام عصت الكلام، مش عاجبها الحبس أهي تتعدم حيه.

كتمت صرختها غير مصدقة: ياه، للدرجة دي القسوة متملكة من قلبه؟

-ربنا يهديه ويلين قلبه.. أدعيله، وأدعيلها أكتر.. ما أعتقدش هيفيدها حاجه فـ وقت زي دا غير الدعا.

أومأت موافقة، نهض متجهًا إلى المرحاض يخاطبها: المغرب على وشك.. هأروح أصليه فـ الجامع.

قبلته على كتفه بحب ودعت له من قلبها، تنهدت براحة فيما عينيها تعلقت بظهره حتى غاب خلف الباب، نعم لم تحبه إلا بعدما عاشرته، عرفت طباعه، عيوبه ومميزاته، أخبرها أنه لم يحبها كذلك عندما رأها لأول مرة، لكن كفاه راحته لرؤياها حتى يتقدم إليها، فالراحة والاطمئنان ما هما إلى إشارة لبداية قلب يهيم.

***

ارتمت على أقرب أريكة في غرفة المعيشة، لحقت بها شقيقة زوجها، أغلقت عينيها مسترخية في جلستها فيما تقول: يعني عشان أحرق خمس سندوتشات بس.. يتهد حيلي بالشكل دا؟

ضحكت آية: أومال فاكرة إيه؟.. المفروض تحاسبي فـ كل لقمة.. لو استسلمتي لـ(وفيها إيه؟!) هترجعي تزيدي اللي خسرتيه.. فـ رأيي يبقى حرام عليكِ.. الكام شهر اللي فاتوا خسيتِ بشكل ملفت.. وجسمك ابتد يتظبط.. وزي ما الأخصائية بتاعتك قالت.. فاضلك كام كيلو وتبقي فـ الوزن المثالي.. وتبدأي مهمة الحفاظ على الوزن اللي أصعب من خسارته.

تأففت: يادي الليلة اللي مش معدية، كان مالي ومال دا كله يا ربي.

-أصل اللي زيك أتعود ياكل بالسمنة البلدي والزبدة، الحاجات المسبكة ويضر صحته، فـ صعب على الفلاحة تبقى بنت ذوات.. تاكل مسلوق وتحافظ على جسمها.

انتفضت في جلستها حالما سمعت صوت كادي، أغاظها كلامها وتلميحاته المهينة. دافعت عنها آية التي غضبت من زوجة أخيها الأولى: مافيش داعي للتجريح دا يا كادي.

جلست على مقعد مقابل لهما بلا مبالاة، حركاتها الأنيقة في السير والجلوس، التصرف والحديث، كل ذلك زاد من حنق سلمى، لم تكتفِ الأخرى أو توقفت عند هذا الحد بل تابعت وعينها مملوءة بالسخرية المختلطة بالتحذير: سلمى، يا حبيبتي.. الحركات دي مش هتفيدك.

رفعت إليها عيون مقطبة بحيرة فأكملت توضح: تخسي.. تغيري استايلك.. تعملي حركات عيال.. لو اتنطتي كمان، عمره ما هيبصلك، عارفه ليه؟

عضت على شفتيها لكنها لم تستطع منع همستها: ليه؟

تحركت من مجلسها وجلست فوق ذراع الأريكة التي احتلتها سلمى، بدأت تحرك حجاب غريمتها وتعدله فوق رأسها متابعة بتؤدة قاهرة: عشان يسوو حبيبي أنا، بيحبني أنا، ولولا ناهد وخوفه من خسارتها ماكانش فكر يتجوز عليا.. لا أنتِ... ولا غيرك.

دفعتها ناهضة وقد انقلبت ملامحها تمامًا وظهر بها الغضب: أنتِ قاعدك فـ البيت دا لوقت معين مش أكتر.. فترة وهترجعي لأهلك وياسين يفضل معايا.. ما تحاوليش بقى بالطرق البلدي دي إنك تكسبيه؛ عشان مش هتنولي إلا وجع القلب وبس.

ربتت على وجهها بخفة عائدة لهدوئها كأنها تملك مزيج متناقض من الشخصيات المعقدة: فهمتِ يا قطة؟

انصرفت من أمامهما بخفة، تتمايل كعارضات الأزياء بثوبها القصير وشعرها المسدل؛ تفضل الجلوس على راحتها في المنزل دون أن تهتم للعاملين به.

حل صمتٌ على الغرفة، بكت آية رغمًا عنها لعجزها، صديقتها تُجرح أمامها دون الإقدام على فعل شيء، نظرت إلى سلمى بقلة حيلة. ترقرقت الدموع بين جفنيها رافضة العبور إلى وجنتيها، وقفت مهمهمة بصوت سمعته آية بصعوبة: هأطلع أغير هدومي.

بعد برهة صعدت آية إلى غرفتها هي الأخرى، تلوم ياسين لما فعله بتلك المسكينة، إن لم يكن يرغب في بناء أسرة معها ما كان له أن يتزوجها، فلا يُظلم في هذا الموضوع سواها، ثم عادت تلقي الملامة على شقيقتها الكبرى؛ هي من تسببت بذلك منذ البداية، اختلقت أعذارًا، كرهها لكادي جعلها تلقي بفتاة أحبتها في عرين الأسد دون أن تهتم بما ستلاقيه.

***

سار محمد إلى جواره في طرقات الشركة متجهين إلى المصعد نزولًا إلى طابق تحت الأرض حيث يصف سيارته في جراج الشركة، صعدا وضغط محمد زر الطابق المقصود متابعًا حديثه مع ياسين وقد امتلأت نفسه بالحنق: يا ابني أنت بتظلمها ليه؟.. مش عايز تكون حياة طبيعية معاها.. سيبها.. اعتقها لوجه الله، خليها تلاقي اللي يقدرها ويحبها.

رمقه بطرف عينه وسأله ببرود: أنت عينك منها ولا إيه؟

أخفى ابتسامته ورسم الجدية: وليه لا؟.. أنت يمكن مش عايزاها بس دا مش عيب فيها لا سمح الله وبردو مش معناه إنها مش هتعجب غيرك.

بعدم إهتمام: كلها كام شهر وأطلقها وأبقى حاول يمكن تبقى من نصيبك.

وصل المصعد فهبطا منه ومحمد يفغر فمه من الصدمة: لا لا، أنت حالتك ميؤس منها، وبعدين مادام مش فارقه معاك للدرجة دي.. ما تسيبها من دلوقتي.. تستنى ليه كام شهر؟

وقف أمام سيارته فاتحًا بابها، نظر بعيدًا وقال بغموض: عشان في أسباب تانية.

تمسك بذراعه: أسباب إيه؟

أخرج جرعة من الهواء: دي حكاية يطول شرحها.

لم يمهله وصعد إلى سيارته متأهبًا للإنطلاق بها، قبل أن يبدأ إخراجها كان محمد ركب جواره عاقدًا ذراعيه: مش نازل غير لما أفهم.

كز على نواجذه منطلقًا بالسيارة في صمت، يعرف صديقه حق المعرفة، لن يتركه حتى يعلم ما يخفيه، هذه إحد الصفات التي أثبتت نجاحه كمحام لامع.

****

تحفر الأرضية المغطاة بسجادة وثيرة من كثرة ذهابها وإيابها، يتلوى كفيها سوية في قبضة محكمة من الغضب، عقلها يعمل لرد الإهانة التي تلقتها في صمت، يجب أن تنتقم ممن أراقت ماء وجهها، كيف لتلك أن تهينها وتصمت؟

دلفت عنبر بفنجان شاي أخضر ووضعته فوق أقرب طاولة، كانت قد سمعت الحديث رغمًا عنها، أشفقت على سيدتها الجديدة من الساحرة الشمطاء، لم يكن بيدها سوى صنع ما يهدئ غضبها ويصفي ذهنها.

انصرفت دون أن تتكلم، لمحتها سلمى ولم تتحدث، خافت أن تُخرج كلمة نابية دون شعور، بعدما تأكدت أن الفنجان برد بشكل كاف اقتربت ترشفه مسترخية فوق الفراش، عقلها يعمل دون هودة، لن يتوقف عن عمله حتى يتوصل إلى ما يثأر لكبريائها.

تمهلت ابتسامة ماكرة على شفتيها. هبطت إلى غرفة الخزين والمعدات في قبو المنزل بعدما لمحت كادي تتحدث إلى الهاتف متمشية بدلال في الحديقة.

أشعلت الضوء، تخطو متمهلة فوق الدرجات الخشبية، بحثت حتى عثرت على صندوق المعدات، أخذت منها بغيتها وعادت تصعد إلى الأعلى بهدوء والبسمة لا تفارقها.

***

أوقف السيارة بجوار النيل، فتح النوافذ كي يسمح للهواء العليل بالولوج إلى الداخل، يجدد الهواء وينعش صدره، كذلك يصفي ذهنه، قصَّ على محاميه كل ما رواه عبدالرحيم.. من أذية شقيقه وما حكى حدث أثناء الزيارة الأخيرة وتهديد سعدان بحياة أولاده منهم سلمى.

لخص محمد الوضع في جملة قصيرة: يعني أتجوزتها عشان تحميها من عمها.

-أنا مش ملاك يا محمد، دا السبب اللي خلاني أغير رأيي وأتجوزها.. سرع الأمور مش أكتر، لكن كدا كدا كنت هأتجوزها.. أنت عارف مقام ناهد عندي.

-بس من شخصية الحاج عبدالرحيم اللي شوفتها وحبه لبنته؛ ما أعتقدش إنه يوافق على جوازك منها لسبب زي دا، ما هو أولى بحمايتها.

-ممكن يكون شافها فرصة يبعدها عن عيون عمها، عشان لما يتصرف ما يطولهاش أذى وإخواتها الصبيان يقدروا يحموا نفسهم.

-يجوز، سيبنا من أسباب أبوها دلوقتي.. نركز فـ الأسباب بتاعتك.

-مالها؟

-أنت أتجوزتها عشان ناهد، وهي خلتك تتجوز عشان تخلف.. بأسلوبك دا هتخلف منها إزاي؟

نظر إليه بغضب هاتفًا: ومين قالك على اللي حصل بينا؟

أجابه ساخرًا: قصدك اللي ما حصلش بينكوا.

أضاف بجدية: أنا مش مجرد محامي الشركة يا ياسين، إحنا كبرنا سوا، عارفك وعارف دماغك.. فاهمك يمكن أكتر من نفسك.

أسند جبهته إلى مقود السيارة: مش قادر، مش قادر يا محمد.. عمري ما تخيلت إن واحدة غير كادي تبقى على ذمتي.. ما حستش بالغلطة غير لما عملتها.

نبهه: مافكرتش إن ناهد يمكن يكون معاها حق.. وكادي فعلا مش زي ما أنت فاكر؟

رمقه بغضب متأجج: أنت كمان يا محمد؟!، قولي أنت أو هي شوفتوا منها إيه عشان تفكروا كدا؟؟

تنهد مغمضًا عينيه يحاول إمتصاص غضبه: أنا بأقول يمكن، بأفكر معاك بصوت عالي.

نهره: كله إلا كادي، كله إلا هي.

أشفق عليه فيبدو أن صديقه قد وقع في بئر الحب دون رغبة في النجاة: طب نويت على إيه؟

بسط ظهره محدقًا في الخارج أمامه: بما إني أتجوزتها خلاص هأضطر أكمل لحد ما أضمن إنها فـ أمان وبعدين أرجعها لأهلها وأطلقها.. أنت معاك حق، مالهاش ذنب إنها تعيش مع واحد مش عايزها.

صمتا لفترة، أفاقه محمد على ضرورة العودة إلى منازلهم ليأخذا قسطًا من الراحة، أمامهما يوم طويل مليء بالعمل في الغد.

***

جلست أمام التلفاز في الطابق الثاني، مكانها المفضل تتابع توم وجيري المعروض في التلفاز، تشاهد مكيدة جيري في إفساد الصنبور مما جعل المياه تتدفق في وجه توم عندما أتى وحاول فتحها ليفاجئ باندفاع الماء يقذفه بعيدًا، تعالت ضحكاتها مستمتعة.

سمعت صرخة كادي الغاضبة تأتي من جناحها، نظرت ناحية باب الجناح حيث مصدر الصرخات بلا مبالاة. لمحت ياسين يصعد الدرجات ثلاثة ثلاثة، أسرعت ترسم القلق على وجهها، سألها بخوف: هو في إيه؟

هزت كتفيها علامة جهلها، تركها ليرى ما حل بزوجته الأخرى. ابتسمت منتصرة. نهضت عندما خافت أن تتعالى ضحكاتها ودخلت غرفتها تطلق سراحها قهقهاتها حتى شعرت بالألم في أجنابها، قررت الاستحمام لرفع نسبة سعادتها أكثر.

***

ألقى مفاتيحه فوق الفراش وعقله يحاول تحديد مصدر الصراخ الذي يتعالى، يقسم أن كادي لن تستطيع الحديث دون بحة لأيام تالية نتيجة ما تفعله الآن. توجه إلى الحمام لكنه توقف على الباب متسمرًا؛ الحمام يسبح في المياه، كأن فيضانا قد أصابه، انفصل مقبض الصنبور عن موضعه سامحًا للمياه بالتدفق عبره إلى كل أرجاء الحمام، كادي تجلس مستندة إلى الجدار وقد انكمش جسدها بينما تخفي وجهها خلف كفيها بين بكاء وصراخ.

تمالك عقله وبحث بعينه عما يساعده في وقف التدفق، قبض على إحدى المناشف وكومها فوق مقبض الصنبور، بعد محاولات عدة استطاع أن يكتم المياه داخل المواسير.

استدار يمسح المياه عن وجهه، كانت ماتزال منكمشة باكية، اقترب منها يجلس جوارها يضمها مطمئنًا: خلاص خلاص، حصل خير.

عَلى بكاءها: هي، مافيش غيرها اللي عملت كدا.

سألها مندهشًا: هي مين؟

هتفت بحنق لعدم فهمه: الزفتة اللي أتجوزتها عليا.

-سلمى؟

صاحت بغيظ صارخة: ما تجبش اسمها قدامي، دي متخلفة وحيوانة.

قطب: يمكن ظالماها.

-دي عمرها ما حصلت، أكيد حد لعب فـ السباكة.

-وأنتِ عرفتِ منين إنها تعرف فـالسباكة؟

-مش شرط تعرف سباكة عشان تبوظ، أنت بتعرفها عشان تصلح.

زفر بحدة، إنها مصرة على تحميل الذنب فوق عاتق سلمى، مهما تحدث لن تتزحزح عن رأيها، كما أن شكًا طفيفًا قد حام داخله.

ساعدها على النهوض وتبديل ملابسهما قبل أن يهبط إلى الأسفل ويطلب من عنبر الإتصال بالصيانة بعدما شرح لها ما حصل بإيجاز.

****

جلست على طرف فراشها تفرك جسدها بأحد الكريمات التي أوصتها الأخصائية باستخدامها؛ تساعد الأجزاء المترهلة من جسدها نتيجة إنخفاض وزنها على العودة إلى طبيعتها، كذلك تضفي على بشرتها الحيوية المفقودة وتعوضها.

كانت تدندن بلحن عندما ارتفع هاتفها بالرنين المتصاعد، أجابت بحذر لما رأت أن الرقم غير مقيد لديها، أتاها الصوت على الطرف الأخر ضعيفًا، خافتًا، متألمًا.

هتفت رغمًا عنها تلقي بعلبة الكريم إلى أقصى زوايا الغرفة:

-حياه؟!

***

مطعم باسم شهير ليس محليًا وإنما عالميًا كذلك، طاولة لشخصين كان أحدهما ناهد في بذلتها الرمادية العملية يبرز أسفلها قميص شديد الخضار بحجاب ملائم منمق، ابتسمت بدبلوماسية للعميل أمامها، الذي ارتدى بذلة زيتية، كمصادفة غير مقصودة، لكنها أسعدته.

أمال رأسه يحثها على قبول عرضه: خليكِ مهاودة شوية يا أستاذة ناهد.

تصلبت عيونها بحزم: بزنس إز بزنس، مافيش فـ الشغل مهاودات يا صلاح بيه، تديني ديل مناسب هأوفق عليه.. مش مناسب نفضها سيرة.

هم يعيد محاولة إقناعها عندما سبقه إليها رنين الهاتف، نظرت إليه متأففة، كيف نسيت كتم صوته كما اعتادت في إجتماعات العمل، لمحت اسم شقيقتها الصغرى قبل أن تغلقه نهائيًا. قطبت قلقة، استأذنت بأدب من مضيفها وردت بهدوء لتقابلها عاصفة طائشة من الغضب والألم: أنتِ لازم تشوفيلك حل.. كدا مش هينفع.

طالبتها ناهد ببرود: إهدي عشان أفهم.. وقوليلي اللي حصل بالراحة من غير زعيق.

تمالكت آية نفسها قليلًا ولكن الإصرار لم يترك نبرتها: كادي شغاله إهانة فـ سلمى ليل نهار، بتتلكك عشان تنكد عليها.. وأنا مش بإيدي حاجه، وسلمى أطيب من إنها تقدر تتعامل مع حركات الزفتة التانية المستفزة دي.

ألتوت شفاهها شماتة: دلوقتي بقت زفتة؟، مش كنت بتدافعي عنها قدامي.

زفرت بحنق: نـاهد، مش وقته الكلام دا، لازم تتصرفي، سلمى مش حمل النار اللي رمتيها جواها.. أنتِ عارفه عملتِ إيه؟.. جبتِ واحد مابيعرفش يعوم ورمتيه فـ وسط البحر وسيبتيه.. يا يتعلم لوحده يا يغرق.

-هتتعلم.

صاحت غير قادرة على تصديق قسوة أختها مصدر الحنان في حياتها: يا ناهد حرام عليكِ.. عمرك ما كنت بالقسوة دي، عشان خاطر تنفذي اللي فـ دماغك هتدمري واحدة مالهاش ذنب غير إنها حبتك وطاوعتك؛ لإنها واثقة فيكِ؟؟

أضافت متنهدة: خايفة عقبال ما تتعلم تكون غرقت.

عضت على شفتيها: هأشوف يا آية..

صرّحت: يا تحلي الأزمة اللي خلقتيها بنفسك دي.. يا تنسي إن ليكِ أخت اسمها آية زي بالظبط ما هأنسى أخت اسمها ناهد.

أغلقت الخط دون إنتظار لتعليق شقيقتها، اتسعت حدقات ناهد غير واعية، أيعقل أن طفلتها كبرت وتعلمت التمرد عليها؟.. لكن معها حق، لقد نفذت رغبتها دون التفكير في غيرها وعواقب الأمور. نظرت إلى العميل الذي تعلقت نظراته بواجهها وقد دلت معالمه على استغراقها في التفكير الغير حميد.

أمسكت حقيبتها بكبرياء أنيق: أنا قولتلك الدِيل يا مستر صلاح، فكر ورد عليا، عن إذنك.

تركته محدقًا في خطواتها المبتعدة بإعجاب غير خفي، امرأة حين تقول تنفذ، لا تتراجع ولا تستسلم، وضعت النظارة الشمسية فوق أنفها وأملت رأسها للعامل -الذي فتح لها باب المطعم باحترام- في تحية مترفعة.

تراجع صلاح في جلسته مسترخيًا، أغمض عينيه يستمع للحن الهادئ الذي ينبعث بين ذرات هواء المطعم، يفكر في ناهد وكل المعلومات التفصيلية التي وصلته عنها، لا يستطيع مقاومة ابتسامة الإعجاب التي تكاد تصرخ بها شفاهه.

***

دونت في دفترها الكبير ذو الغلاف الأزرق الغامق بعض الملاحظات بينما تتابع عيونها شاشة حاسوبها المحمول، رن هاتفها فضغطت على زر الرد الخاص بسماعة البلوتوث المعلقة بأذنها، أجابت مقطبة من التركيز على الطرف الآخر بجدية وإيجاز:

-لا.. مش دلوقتي.. لما أقولك اشتري تشتري.. قولت دلوقتي لا!، أنهي كلمة فـ الجملة مش مفهومة؟؟..

تركت الهاتف إلى جوارها فوق الفراش دون أن تنظر إليه متابعة ثبات الشاشة أمامها ثم تغيرها بعد دقائق، قررت تصفح الأخبار الأخيرة الخاصة بإحدى الشركات إنتظارًا لفرصة سانحة.. عقب مرور المزيد من الدقائق أسرعت تدق رقم آخر من اتصل بها وصاحت دون مقدمات: اشتري دلوقتي.. كل الأسهم المعروضة للشركة اللي قولتلك عليها.. دلوقتي.

هدرت بالكلمة الأخيرة مجبرة الطرف الأخر على الطاعة، زفرت ثم عادت إلى شاشتها تنقر فوق لوحة المفاتيح، قبضت على قلمها تحاول تدوين معلومات ما لكن القلم لم يطاوعها، أكتفى بحفر أخاديد فوق الورقة معكرًا ملاستها ليس أكثر، زفرت بحنق ونهضت تهبط إلى الطابق الأرضي.

عنبر تجلس فوق مقعدها تقوم بتقطيع البصل، فيما تمسح الإفرازات الناتجة عن ذلك في أكمام ثوبها القاتم وتحرك رموشها سريعًا تلمسًا لرؤية ضبابية على الأقل لموضع السكين متفادية أصابعها.

صرخ إسماعيل بها منشغلًا بعدة قدور على الموقد: يا وليه ناوليني الصينية من عندك؛ البشاميل هيبوظ.

شهقت حانقة: عشان تفضل تقولي لا مش دي غيريها؟.. لا ياخويا متشكرين.. كمان أنا إيدي مشغولة بالبصل ومش شايفة إيدي ولا السكينة.. يا خوفي أقطع إيدي وأنا مش دريانه.

أومأ دون أي اهتمام: يا رب، عشان تعرفي قيمتها.

أطلقت ضحكة ساخرة: وساعتها مين يناولك وتفضل تمشور فيه.

ضحكت سلمى وهي تمد يدها بالصينية الملائمة إلى إسماعيل، ابتسم لها شاكرًا فغمزته موجهة حديثها إلى عنبر بينما تحاول إخفاء ضحكتها الطفولية:

-اعمليها أنتِ بس وأنا مستعدة أبقى مساعد شيف صغنن وأناوله الحاجه.

ضربت الأرض بقدمها جالسة: بقى كدا؟.. حتى أنتِ يا سلمى.

قبلت جبينها بحب: وأنا مايهونش عليا.

أضافت: ما تعرفيش ألاقي قلم فين فـ البيت دا؟

أومأت مشيرة إلى الباب: هتلاقي أقلام ياما فـ درج مكتب ياسين بيه.

عندما رن الصمت نظرت إليها عنبر بطرف عينها بعدما مسحتها: لولا إن إيدي مشغولة زي ما أنتِ شايفه كنت روحت جبتهولك أنا.

أضافت بنبرة لا تقبل المجادلة: وبعدين أنتِ صاحبة البيت؛ يعني تروحي تجيبيه لنفسك من غير إذن.

تنهدت بيأس: مضطرة هأعمل إيه.. ورايا شغل.

تركتهم وانصرفت تقدم خطوة وتُؤخر ثلاثًا، ألقت نظرة سريعة إلى عقارب الساعة فوجدت موعد عودته لم يحن بعد، حثت الخطى لتسرع في تنفيذ ما أرادته قبل رجوعه.

فتحت الباب على مهل متسللة؛ كأنها تخاف رؤية صاحب المكان ما تفعله، جلست على المقعد خلف المكتب، أمسكت أحد الأقلام من فوقه، مرشوقًا بأناقة كقطعة ديكورية، كما يبدو قلمًا للخط أو الزينة ليس للكتابة والعمل، زفرت وأعادته محله، حدقت في الأربعة أدراج بحيرة: يعني مش أكمل جميلي وافتكر اسألها أنهي درج؟!

تابعت مجيبة سؤالها: وأنا هأعرف منين إن في كل الأدراج دي..

بدأت في فتح الدرج الأول فلا مفر من ذلك، قلّبت به فلم تجد شيئًا، وهكذا حتى انتهت جميع الأدراج دون العثور على قلم واحد حتى وإن كان لا يكتب.

تراجعت في جلستها واسندت ظهرها إلى الخلف، أغمضت عينيها براحة فالمقعد صمم ليجعل من يجلس فوقه يسترخي إلى أبعد حد. فتحت عينها بعد برهة بتكاسل ترفض العودة من العالم الذي حلقت إليه، لمحت درجًا صغيرا في أحد زوايا المكتب، لم تكن قد لاحظته من قبل، سحبته بهدوء فوجدت العديد من الأقلام مختلفة الماركات

وبلدان النشأة، اختارت أحبهم إلى نفسها وسحبت ورقة من ورق الملاحظات الصغير فوق سطح المكتب وجربته؛ لتتأكد من أنه يؤدي وظيفته.

هللت فرحة بأنها عثرت على بغيتها، لكن سعادتها لم تدم، سمعت صوت حركة في الركن الأيمن خلف باب الغرفة، رفعت رأسها إثر الصوت الذي خاطبها ساخرًا: ممكن تشاركيني الحاجه السعيدة اللي مفرحاكِ كدا.

-هه؟

كز على زوايا فمه يمنعها من التمدد معلنة عن ابتسامة قد تصل إلى عينيه: هه.. إيه بس.

تطلع إليها ملاحظًا جلوسها فوق مقعده وراءالمكتب، ضاقت عيونه وهز رأسه ببرود: قاعدة عندك بتعملي إيه؟

-قلم

قطب دون فهم: قلم..؟

قبل أن يكمل كلمته وجدها تنتفض وتدير ظهرها إليه، أخفت وجهها خلف كفيها صارخة: حد يقف كدا؟

نظر إلى ذاته مندهشًا، تذكر أنه خرج توًا من الحمام عقب استحمام سريع جدد نشاطه، عاد برأسه إليها بنفس التعبير على وجهه: مالي؟

أبقت ظهرها جهته لكن حررت أحد كفوفها وحركت سبابتها صعودًا وهبوطًا على جسده في حركة موجعة للكتف والذراع، همست إليه: روح استر نفسك.

لم يتمالك نفسه من الضحك عند كلماتها الأخيرة: استر نفسي؟؟.. هو أنا اتقفشت فـ بيت دعارة ولا إيه.

وسعت بين أصبعيها ورمته بنظرة حانقة: حضرتك بتتريق؟!

عقد ذراعيه: أومال عايزاني أعمل إيه؟

أضاف بعد تفكير متسائلًا: أنت عمرك ما شوفتِ واحد عريان؟، دا أنا حتى محتشم ولابس فوطه من تحت.

عضت شفتها السفلى ونظرت أرضًا بعدما كشفت وجهها: لا.

ـما روحتيش بحر، ما شوفتيش رجاله لابسين مايوه على البلاج؟

هزت كتفيها بحركة بسيطة: لا؛ بابا كان بيبقى عنده شغل ما ينفعش يسيبه وماكانش بنرضى إننا نسافر من غير راجل.

حرك رأسه صعودًا وهبوطًا دليل تقديره للموقف وموافقته لحديثها، لمع في باله أمر فعاد يسألها: قولتِ قلم، قلم إيه؟

حركت أصابعها التي كانت ماتزال تقبض على القلم بشدة: كنت بأدور على دا.

رفعت رأسها بغضب مفاجئ: مش عارفه الأقلام غالية للدرجة دي ولا إيه؟.. حاطتها فـ درج سري!

رفع حاجبيه يشير إلى أنها رفعت رأسها وتنظر إلى جسده شبه عار بلا خجل، أعادت تصويب نظرها إلى السجادة فيما أجاب: مش سري ولا حاجه، الدرج صغير ما يتحطش فيه ورق، والأقلام بتطفح فجأة، فخوفت على الملفات لتبوظ منهم، وحطيتهم بعيد.

أضاف بجدية: مش محتاج درج سري في المكتب مادام عندي خزنة.

رفعت نظرها إلى حيث أشار فلاحظت خزانة حديدية لم ترها حين دخلت، علت الحمرة وجنتيها ولكنها استدركت نفسها: أنت رجعت بدري ليه؟

-عندي مقابلة مهمة بالليل، جيت أخد شاور وأغير هدومي قبل ما أخرج، بعد ما حد كدا مؤذي بوظ سباكة الأوضة فوق..

أومأت في صمت طفلة تخاف إن تحدثت أن تعترف بجرمها؛ فيتحول الشك إلى يقين، فتح

الباب على مصرعيه، مال برأسه جهة الخارج: مش خلصتِ تحقيق وأخدتِ القلم؟.. اتفضلي بقى عشان ألبس هدومي.

غادرت فيما تلعن نفسها داخليًا، كيف لم تنتبه إلى الباب المؤدي إلى الحمام، لقد أرتها ناهد المنزل مسبقًا لكنها لم تشر إلى وجود حمام بحجرة المكتب كذلك هي لم تلحظه. ليس خطأها فباب الحمام يتخفى خلف باب الحجرة الرئيسي في حالة انفتاحه.

***

دارٌ تحتل مساحة لا بأس بها من الأرض، يجلس داخلها، في غرفة المضيفة، سعدان برفقة شاب في منتصف الثلاثينيات يتحدث إليه بينما يحتسيان شايًا أسودًا ثقيلًا كالحبر، أراحا جسديهما مستندين إلى الحائط، كانت تشبه جلسة العرب من الوسائد التي رُصت فوق الأرض مباشرة دون إرتفاع على قواعد خشبية إلى الصينية النحاسية الكبيرة في المنتصف عوضًا عن الطاولة.

سأل سعدان ضيفه مستمتعًا بسحب عدة أنفاس من الأرجيلة: ها.. وصلت لحاجه؟

غمزه الآخر: مالك مستعجل كدا ليه.. اتقل تاخد حاجه نضيفة.

ختم كلامه بضحكة كريهة ملبدة بالبلغم الذي يجسم فوق صدره من سوء ما يتعاطى، مغمغمًا بحرقة: مش هأرتاح ولا يهدالي بال لحد ما أشوف حرقة قلب عبدالرحيم على اللي هيجراله.

تشدق ضاحكًا: شكلك بتحبه أوي.

التفت إليه بجدية: بالك يا خلف لو شافتلي قلبي؛ لتلاقي لبن العصفور على بابك تفطر بيه تاني يوم الصبح.

حك خلف أنفه ممتعضًا: وأنا هأعمل إيه بلبن العصفور يا حاج..

ضربه سعدان بمبسم الأرجيلة: يا غبي فتح مخك.. دا مثل.. مجازًا يعني.

هز رأسه ببلاهة ناهضًا: قولتلي، طب عن إذنك أنا بقى عشان أعرف أتكتكلك.. مادام فيها لبن العصفور هههههه.

حيّاه بكفه دون تكلف نطق السلام متابعًا جذب نفس وراء آخر من أرجيلته الأثيرة. دخل عليه ابنه وجلس جواره لائمًا: مش قولتلك يابويا بلاش الزفت خلف دا.. دا واحد شراني مايجيش منه غير الشر.

نظر إليه بطرف عينه: ما أنا لو كنت مخلف راجل ماكنتش اتحوجت للأشكال دي.

زفر مهران: وليه الغلط بس يابا!

-ما أنت لو تطاوعني زي ماهو بيطاوعني تبقى أجدع راجل فـ الدنيا.

-يعني لازم أطاوعك فـ الشر عشان أبقى راجل فـ نظرك؟

-دا مش شر، دا حق.. والحق لازم يرجع لأصحابه.

مرّوا بعدة جلسات من الجدال حول ما معنى الحق وأي حق يبحث عنه سعدان، لم يسفر الحديث إلا عن عدة سبات من سعدان لابنه، يتهمه بأن حب ابنة عمه جعله يعصى والده ويدافع عن عمه ضده هو، أبيه.

***

عاصفة هوجاء دخلت عليها، رفعت عينيها فيما ظل رأسها مائلًا للأسفل أثناء تفحصها للمستندات، كانت ذات مظهر يشبه الناظرة بسبب تدلي النظارات إلى أطراف أرنبة أنفها، تركت القلم يفلت من بين أصابعها الناعمة، استقامت متسائلة: في إيه يا ياسين؟

وقف أمام مكتبها يضرب فوقه بقوة صائحًا: أنتِ إزاي تعملي حاجه زي دي؟

عقدت ذراعيها بعدما نزعت النظارات: عملت إيه؟

-بقى تعملي إعلان لحفلة بمناسبة جوازي وكمان تعزمي كل الموظفين من غير ما أعرف.. وأنا ماشي اتفاجئ بمباركات وتهاني ومش عارف هو في إيه.. لحد ما حد من العملا يكلمني وأفهم منه إني عامل حفلة لجوازي؛ لإني ما عملتوش هنا وما عزمتش حد، وهو بيعتذر إنه مش جاي لدواعي سفر.. بعد دا كله ومش عارفه عملتِ إيه؟؟

-الناس بتسأل ليه ما شافتش مراتك لحد دلوقتي.. دا غير الناس المقربين، كلام وأسئلة بدون إجابات، كل دا هيخلي إشاعات مالهاش لازمه تطلع، وأنت عارف إشاعة صغيرة ممكن تعمل إيه فـ شكل الشركة وأسهمها كمان.

هدأ قليلًا، جلس على المقعد أمامها محاولًا كظم غيظه: كنتِ على الأقل تقوليلي قبل ما تنشري الخبر، مش أبقى زي الأطرش فـ الزفة.

نـهضت تقف خلفه، مسدت كتفيه مستسلمة: معاك حق فـ دي، سوري.. بس قدامك شهر قبل معاد الحفلة، ظبط أمورك ثم إن ترتيبات الحفلة عليا ما تحملش همها.

أومأ ثم تناول يدها من فوق كتفه وقبلها، شجعته كي ينهض ويذهب إلى مكتبه متابعًا عمله، وافقها وانسحب من الغرفة، عادت تعمل وعقلها يحوم في خطة جديدة.

***

وقفت في شرفتها ترتشف كوب الليمون الساخن باستمتاع، شعرها يتحرك مع نسمة الهواء،

ملّت تقييده ومنع الهواء من تخلل خصلاته، سدت أذنيها عن تنبيهات زوجها بعدم الخروج إلى النافذة طليقة الشعر.

رغم وجودها في الطابق الثاني فقط إلا أن تصميم الطابق الأول بارتفاع سقفه الشديد جعلها تبدو واقفة في الطابق الرابع. الطابقيين العلويين يساويان ارتفاع الطابق الأول وحده إن لم يكن الأول أكثر إرتفاعًا.

رفعت بصرها للطابق العلوي وقررت أن تصعد وتستطلعه عمليًا، لكن يجب عليها في البداية شراء زيّ سباحة، ستطلع آية على رغبتها لكي تساعدها في العثور على مبتغاها.

رنّ هاتفها، أجابت متعجلة: أيوه، خلاص تمام، ساعة بالكتير وتلاقيني عندك.. سلام.. في رعاية الله.

أغلقت الخط تتقافز في سعادة أثناء توجهها إلى الداخل لإبدال ملابسها بأخرى مناسبة للخروج، لم تلحظ النظارة المُعظِمة التي هبطت فور دخولها، أعين كانت

تراقبها من إحدى الشرفات المقابلة. يقف بسروال بالكاد لامس ركبتيه وقميص بنصف أكمام، عيونه العسلية تلمع ببريق عجيب.

***

نظرت في القصاصة بيدها ثم رفعت عينيها، تطابق ما هو مكتوب بالورقة الصغيرة بما كتب على البناية التي توقفت أمامها، لمحت أحدًا يناديها بصوت هامس صادر عن إحدى الشرفات، رفعت نظرها إلى الأعلى فوجدت حياه تلوح لها كي تصعد دون انتظار، هرولت فوق السلالم مسرعة، لا تكاد تلتقط أنفاسها الهاربة، تسابقها روحها في مقابلة رفيقة عمرها.

تسمرت مكانها أعلى الدرج، تحدق بالفتاة التي تحولت، ترتدي ثيابًا فضفاضة وحجابها يزين رأسها، ليست تلك حياه، لقد تبدلت، تعترف أنها نفس الملامح ولكن..

أقبلت عليها حياه ترتمي بين أحضانها، تتلمس فيها حياه أخرى قد تركتها يوم هربت من بيت أهلها وعصت أوامر من أحبوها، بكت أيامًا لن تعود وأشخاصًا لن تراهم.

قبضت عليها سلمى بشدة، تشتاق إليها، شاركتها عدة دمعات مرغمة؛ فالحنين قد حط فوقهما بسحبه الباكية. قاطعهما انفتاح باب المصعد –الذي لم تلحظه سلمى من شدة انذهالها وشوقها-، تنحنح الطبيب القاطن في الشقة المقابلة لشقة حنان، أعتذر وولج إلى بيته. جذبت حياه صديقتها إلى الداخل أغلقت الباب، تكفكف كلتاهما دموع الأخرى.

بعد أن توقف شلال الدموع بمشاعره المختلطة، جلستا متجاورتين تنصت سلمى كعادتها لما تقوله حياه، تسلط تركيزها على أقل كلمة وأصغر حرف، تسمعها بقلبها

قبل أذنيها، تحجرت الدموع بمقلاتيها على ما عانته صديقتها في الأشهر الأربعة الماضية.

لم تتمالك نفسها، انتفضت واقفة وصرخت بوجهها بعدما أتمت حياه رواية قصتها: إيه اللي عملتيه دا؟.. مش هتعقلي وتبطلي أبراج الجنان اللي معششين جوا دماغك وكل شوية واحد يطير بعملة من عمايلك؟!.. هتفوقي إمتى.. عقلك هيفضل صغير وضيق لإمتى؟

همهمت حياه بنظرة غريبة على عيون سلمى الحافظة لكل خلجاتها: فوقت، خلاص فوقت.. ماتجيش عليا أنتِ كمان يا سلمى، أنا محتاجاكِ..

أضافت قبل أن تخفض نظراتها التي تلألأت بدموع الوجع: سلمى.. أنا انكسرت.

وقفت تحدق بها هنية، لكنها لم تطل، أسرعت إليها تجذبها بين أحضانها، تبكيها، تنعى الحال الذي كانته وتتوجع للألم الذي تجرعته. أدركت الآن سبب الإختلاف.. هذه ليس حياه الطفلة ـ التي عرفتهاـ بل امرأة غدر بها الزمن وترك فوقها علامته.

***

وقف يتلفت حوله، يتفرس في الوجوه علّه يجد بغيته، أوقف أحد العاملين بالأرض يسأله بعدما يأس من الوصول بمفرده، أخبره أن من يريده يجلس خلف شجرة الزيتون، يستريح من عمل النهار الشاق، شكره ثم اتجه حيث أشار.

وجده جالسًا في شرود، يقضم الطعام ويرتشف الشاي، تنهد وانضم إليه، التفت محمود إلى زائره المفاجئ، ابتسم مرحبًا بهدوء، لكن لم يتلق سوى نظرة لوم وضيق.

ـمالك؟ وشك مقلوب عليّا ليه؟

-مش عارف السبب يعني؟

رمقه بطرف عينه: وهأعرف منين؟

-مش ناوي بردو تحاول توصل لحياه؟

ألقى اللقيمة فوق أخواتها، نفض يديه وقد غام وجهه وزادت عيونه تفحمًا: قولتلك ماليش حد بالاسم دا.

زفر حانقًا: وهي صلة الدم بالساهل تتنسي بكلمة فـ ساعة غضب؟

نهض مغتاظًا: مين قالك إنها فـ ساعة غضب؟، أغضب ليه من واحدة مش معتبرها أختي أساسًا.

عندما لاحظ خطواته تبدأ في الابتعاد نهض ووقف أمامه يمنعه، ثار سخطه للا مبالاته الزائدة وقد فاقت الحد: يا ابني أنت فوق، أختك الله العالم إيه اللي حاصل معاها دلوقتي.. أنت متخيل حياااه، حياه مع واحد مجرم زي شادي دا ممكن يحصلها إيه؟!

حاول إزاحته عن طريقه: ما تفرقش معايا.

دار زين وصاح بآخر ما يملكه من أسلحة في ظهر رفيق عمره: ما تعاقبهاش بحاجه هي مالهش ذنب فيها يا محمود، ما تاخدهاش بذنب غيرها.

أضاف بعدما لاحظ تشنج ظهر صديقه: ما ترميهاش فـ نار، أنت عارف طعمها كويس، دا المفروض أنت أكتر واحد يفهمها ويخاف عليها يا أخي!

ألقى عليه محمود نظرة نارية، أوشكت على إحراقه حيًا دون تردد ثم تابع سيره عائدًا إلى عمله وصيحات زين الأخيرة اليائسة تلاحقه: يا ريته كويس كنت سيبته

وسيبتها، لكن دا تاجر آثار وبيشتغل في تهريب السلاح كمان.. الله العالم إيه كمان، حياه فـ خطر يا محمود!

تهدلت أكتاف زين، ركل الحصى أثناء سيره مغادرًا، صديقه العنيد، الغبي، لما لا يفهم أن مهما تفعل أخته يجب عليه حمايتها والوقوف خلفها، يصد عنها الضربات ويحميها من الصفعات.. حتى وإن اعترضت وهاجت، هذا دورهم؛ فهم أولياء أمورهم.

نفخ مخرجًا نفسًا مشبعًا بالأحمال، عمه من جهة وحياة شقيقته الصغرى من أخرى، ألا تكفيه أحمال نفسه ليتحمل أعباء غيره يلفظها ويزدريها؟!

-الله يسامحك يا محمود.

***

ترجلت من سيارة الأجرة على بعد مسافة من المنزل، ترغب في السير علَّ ذهنها يصفو وروحها تهدأ، أدخلت كفيها في جيبي تنورتها تسير بتؤدة وعيونها تحصد ذرات التراب.

لا تنفك تذكر حياه باكية، رأتها منكسرة كما لم ترها من قبل، رأسها محنٍ جهة الأرض، عيونها منطفأة ونفسها مذبوحة، لقد لقنتها الحياة درسًا ستدفع ثمنه لما بقي لها من عمر، قرصة أذن شديدة تترك أذنها محمرة مكدومة أبد الدهر.

طفرت مآقيها بالدموع دون شعور، تردد في أذنيها اعتراف حياه بالإنكسار، حتى عندما حاولت إنعاش روح الضحك داخلها وإعادتها إلى الحياة اكتفت بتنهيدة تطلعها أن الضحكة لن تعود وإن عادت ستكون مذبوحة كروحها.

كسرها إنكسارها، لم يكن عليها تركها في ذلك الوقت، لقد هاجمتها مثلهم، عارضت ووقفت في صف والدها، كان يجب عليها أن تدعمها حتى وإن لم تقتنع بموقفها، ماذا جنت الآن سوى أنها أخفت رغبتها بالهرب، كذلك لم تحادثها إلا عندما بدأت الوقوف على قدميها، كأنها تخشى سماع جملة «ألم أخبركِ؟».. لقد رأتها بعدما استعادت القليل من ذاتها فكيف الحال قبل حين؟؟

توقفت فجأة تكفكف دموعها وتنظر حولها، تبًا، لقد تخطت المنزل بلا إدراك، التفتت تعود أدراجها عندما اصطدمت بأكياس تناثرت أرضًا غير مقاومة لشدة الضربة.

انحنت تجمع الأغراض مع من أوقعه حظه العاثر ليسير خلفها، مسحت آثار ما بقي من الدموع بكفها الحرة مرددة الكثير من التأسفات والإعتذارات. وقفت على قدميها أخيرًا تسلم ما جمعته لصاحبه.

قابلت عيونها ابتسامة خافتة، قابلتها هي ببسمة باهتة بالكاد استطاعت بها تحريك شفتيها، تفوه أخيرًا ردًا على اعتذارها: مافيش مشكلة، بس في حاجه أنتِ حطتيها فـ الكيس بالغلط.

نظرت إليه بعدم فهم، تتبعت حركته في العبث داخل الحقيبة التي ردتها إليه، أخرج محرمًا أبيضًا ومده إليها بغمزة عابثة: دا أنا قدمتهولك وأنتِ بتلمي الحاجه، بس أخدتيه وحطتيه فـ الكيس من غير ما تحسي.. والله ما استخدمته قبل كدا ما تخافيش.

صدرت عنها شبه ضحكة خافتة، تقبلت منه المحرمة بهدوء، مسحت دمعة هددت بالنزول ثم تمخضت به، فجأة أدركت ما فعلته وحركت نظراتها بين وجهه المشرق والمحرمة المتسخة، أزال الحرج عنها بلمعان عيونه الضاحكة وكياسته الفائقة: ما تقلقيش، أكيد أما أدتهولك ما توقعتش يفضل نضيف زي ما هو.

التمعت عيونه العسلية، فحتى الآن لم يسمع صوتها سوى عبر الإعتذار، حاول جذبها للحديث لكن دون جدوى، حاول محاولة أخيرة: أنا فاكر إني شوفتك قبل كدا.. أه صح، كنت ماشية مع الآنسة آية، مظبوط؟

أومأت ونجحت خطته: حضرتك تعرف آية؟

تبسم: أكيد، آية وناهد وياسين وكـ.. مدام.. كادي، أنا جارهم في الفيلا اللي قصادهم.

-أهلا وسهلا.

-أهلا بيكِ، أنتِ تقربيلهم إيه بقى؟

ارتبكت، لا تدري ما تقوله، إن كان زوجها لم يصرح بعلاقته بها فكيف تقولها هي، أنهى جدالها الداخلي بإشارة إلى الخلف عبر رأسه: الفيلا فاتت لو ما أخدتيش بالك، شكلك لسه مش متعودة.

هزت رأسها وبدأت في السير عائدة إلى مسارها الصحيح، سار جوارها صامتًا، ينظر إلى جانب وجهها الموازي له، يتأمل تفاصيله ويطبعها داخل عقله، عيونه تبرق ببريق لم تلحظه هي في خضم أفكارها وحزنها الداخلي وعتابها الذاتي.

لم يهتم، بالعكس حمدالله على انشغال بالها حتى يستطيع تخزين ملامحها على مهل، منذ رآها مع آية تسير في الشارع فقد عقله وجن جنونه، أشبع نفسه من رؤيتها صباحًا بالمنظر المُعظِم لكن رؤيتها وجهًا لوجه أكثر متعة، ابتسم داخله، لقد رآها تتجاوز المنزل فلم يحاول تنبيهها وسار خلفها بأكياسه المحمّلة وافتعل اصطدامًا واهيًا ليتحدث إليها، ساعده شرودها في عدم تمييز وجهته الصحيحة.

ودعته على باب المنزل ودلفت مولية ظهرها إليه، عقله يأكله لمعرفة صفتها بهذا المنزل، التفت إلى منزله ودلفه شاردًا.

***

تثاءبت بكسل، مدت ذراعيها أعلى رأسها، شعرُت بالبرد يتسلل إلى جسدها، انقلبت على مهل إلى الجزء الفارغ بجوارها من الفراش، قطبت في تعجب، نهضت عندما سمعت أصوات قادمة من جهة الباب الخاص بالجناح.

أحكمت عقد رباط مأزرها، حاولت ترتيب خصلات شعرها المشعثة وإخفاء ما حل بها نتيجة النوم وتقلب رأسها فوق الوسادة. وجدته ينقد العامل بقشيشًا ثم يناوب عنه دفع الطاولة المتحركة ذات العجلات إلى الداخل، رفع رأسه يتأملها فيما جسده محني ليتابع دفع العربة.

-صباح الخير بالليل.

بسمته جعلت وجهها يزداد توردًا، بادلته إياها ثم اقتربت تجلس جواره فوق الأريكة حيث أشار يدعوها بصمت، رفع الأغطية المعدنية من فوق صحون الطعام، تشمم الرائحة الشهية بتلذذ، اتسعت ابتسامتها لتصرفه الطفولي.

نظر إليها بنصف عين، وتحدث بخبث: وبما إنك بتضحكِ يبقى مالكيش نفس، وفرتي، أنا ميت من الجوع وما أعتقدش بعد ما أخلص هيتبقالك حاجه.

أدعت الغضب: بقى كدا يا زيزو؟.. إخص عليك، هتاكل وتسيبني من غير أكل؟

دنى بقطعة من الخبز قرب شفتيها، همس لها بحنان هائمًا في محراب جمالها المحدود: دا اللي لا يمكن يحصل أبدًا، دا أنا أأكلك وطظ فيا.

مدت يدها تتناول شريحة من الفاكهة المقطعة ودستها بين أسنانه بمرح: ولا طظ فيك ولا حاجه، أديني بأكلك أهو بإيدي.. على الله يطمر.

قهقه، تبادلا المناوشات، تدعي الغيظ حينًا، وأخرى تضحك من قلبها، تتطلع إليه بحب، تحفظ معالمه وتنحتها فوق جدران قلبها، لقد اكتملت سعادتها بوجوده

جوارها، غرد قلبها بنغمات الحب العذبة منذ دلف إلى حياتها بقدمه اليمنى عبر الباب المفتوح على مصرعيه.

اعتذر منسحبًا يرد على هاتفه، استغلت الفرصة وزاد شرودها، تذكرت حين قابلته لأول مرة، كانت عائدة من جامعتها بعد يوم شاق وطويل، صهرتها الحرارة وأجهدها التعب. سيارته معطلة أمام الدار، يحاول إصلاحها بلا جدوى، مقطب الجبين، ثنى أكمام قميصه حتى مرفقيه، العرق يتصبب منه ويغرق وجهه، أشفقت على حاله، يبدو من سيارته أن عمرها الإفتراضي قد إنتهى ومنذ سنوات، يعافر معها بلا طائل، أخرجت زجاجة المياه التي بحوزتها..

دنت منه وقدمتها له بلا كلام.

رفع نظره المنشغل بالبحث بين أسلاك سيارته، ابتسمت بصمت عندما لمحت تردده، التقط من يدها قنينة المياه فانسحبت إلى الميتم، رمت إليه ابتسامة أخرى قبل إغلاق الباب الحديدي خلفها.

ارتسمت على وجهها ابتسامة حالمة، منذ تلك اللحظة حُفِرت ملامحه في ذهنها، ابتسامته الأخيرة التي ودعها بها لا تنمحي من عقلها. بداية من الصباح التالي بدأ ملاحقتها، حتى انتهى الأمر بالزواج قبل عدة أيام. راقبته عائدًا إليها بتعابير مختلفة، سألته متوجسة عن الخطب الذي ألّم به، تنهد معتذرًا: معلش يا حبيبتي، لازم نرجع القاهرة دلوقتي، الصبح في شغل مستعجل ولازم أكون موجود.

ربتت على كتفه متفهمة: بس كدا؟، يا راجل خضتني، قولت في مصيبة ولا حاجه.. مش مشكلة يا حبيبي، اليومين اللي قضيناهم عندي بالدنيا.

قَبلَّ مفاصل أناملها بحنان: تسلميلي يا روح قلبي.

-صحيح، ما قولتليش يا عزت، أنت جبت منين الفلوس اللي خلتنا نقضي شهر العسل هنا؟

دارت بعينيها في المكان، جناح متكامل على أعلى مستوى، منتجع سياحي أسعاره خيالية في أرقى المناطق الساحلية، فغرت فمها دهشة عندما دلفته لأول مرة، لم تصدق أنها قد ترى هذه الأماكن الباهظة والراقية على أرض الواقع فما هو الحال إن قضت بها عدة أيام. سألته فور وصولهم عن مصدر المال الذي سيتكفل بمصاريف هذا المكان، لكنه تهرب منها فلم ترد الضغط عليه.

فاض بها الأمر واستغلت الفرصة كي تكرر سؤالها، لمعت عيونه بطريقة أرهبتها وأجاب: هدية، كادو من زمايلي فـ الشغل، لما عرفوا إني هأتجوز جمعوا من بعض مبلغ وسلموهولي، وبما إننا ماكناش عاملين حسابنا على الفلوس دي قولت أفرحك ونقضي بيهم كام يوم هنا.

ابتسمت، ضمته شاكرة: ربنا يفرح قلبك يا حبيبي.

شعرت بتنهيدة الراحة التي غادرت صدره وهزت خصلات شعرها المحمرة نتيجة الصبغة في ليلة الحناء، أختفت بسمتها ونظرت إلى خصلاته السوداء اللامعة المتساقطة فوق مؤخرة عنقه. إنه عرف متعارف عليه، يجمع الزملاء مبلغًا ما لشراء هدية أو تسليمها للعريس أو العروس، كهدية ومباركة للزواج، لقد تسلمت مبلغًا مشابهًا لكن لا يكفي لوجبة واحدة في مطعم الفندق، فكيف بقضاء عدة أيام؟!، وحاله وحال زملاؤه لا يختلف عنها كثيرًا، فمن أين جلب هذا الفارق الشديد؟، شعرت بإنذار داخلي ينبؤها بكذبه لكن أخرسته؛ الاستمتاع باللحظات الحالية فحسب هو الأهم، ومصاعب الحياة ستلاقيها ولا بد.

***

حدق في وجوه من يشاركوه العشاء المبكر ثم نظر في صحنه شاردًا، قدمت عنبر بطبق العشاء الأخير، حاول إلقاء حديثه بشكل عام دون قصد لشخص بعينه: هو البيت دا مافيهوش نظام؟.. المفروض أوقات الأكل دي أوقات مقدسة ماينفعش حد يغيب عنها.

لوت كادي شفتيها بسخرية: ناس ماعندهاش ذوق ولا احترام.

رفعت عنبر عينيها لتقابل عيني سيدتها الصغرى، تبادلتا نظرة استنكار لحديث كادي، قالت عنبر قبل مغادرتها: سلمى مش فـ البيت، عشان كدا ما نزلتش للعشا، عن إذنكوا.

انسحبت تحاول تمالك أعصابها؛ حتى لا تفتك بمن تنتف فروة سيدتها الغائبة على كل كبيرة وصغيرة. التفت إلى شقيقته مقطب الجبين: يعني إيه لحد دلوقتي برا البيت؟

ـمش عارفة يا ياسين، أكيد عندها ظروف.

طرق على مائدة الطعام بقبضته، صاح غاضبًا: يعني أنا رِجل كنبة فـ البيت دا ولا إيه؟، تخرج وتتأخر من غير ما يكون عندي خبر؟؟

نظرت له آية باستنكار شديد، وأجابته مستهزئة: وأنت من إمتى حسستها إنك مهتم وإنها فارقه معاك، لو الموضوع يهمك أوي بدل ما تزعق كدا كنت روح اتصل شوفها اتأخرت ليه لحد دلوقتي؛ لإن مش عوايدها فعلًا، يمكن حصلها حاجة ـبعد الشرـ.

ألجمته كلمات أخته التي أصابت الهدف باحتراف، صمت وتراجع منكمشًا، فيما ألقت كادي نظراتها النارية المغتاظة على شقيقة زوجها. ارتفع صوت فتح الباب ثم

غلقه، عبرت سلمى ممسكة بحقيبتها الشخصية بإحدى يديها، تسير محنية الأكتاف، مطأطأة الرأس.

خرجت عنبر من المطبخ مسرعة وقد هالها منظر سلمى حينما عبرت البوابة الرئيسية للمنزل، حاولت التحدث إليها أو عرض تقديم الطعام في غرفتها، اكتفت بهزة خفيفة تدل على عدم رغبتها في شيء سوى الإنفراد بنفسها.

تراجعت متقهقرة إلى المطبخ، واستأذنت آية في الإنصراف، صعدت مسرعة خلف زوجة شقيقها لتعرف ما بها، خطوة لم يحاول شقيقها المبادرة بفعلها. تركها ياسين تصعد خلفها، العلاقة بينه وبين المفترض أنها زوجته ليست على وافق كي تخبره بمكنونات صدرها، أو لتبثه همها، أكتفى بالبقاء ضمن صفوف المتفرجين جوار زوجته الأولى.

***

حملت الصينية المحملة بأكواب الشاي وطبق يعج بالكعك والبسكويت منزلي الصنع، وضعته فوق الطاولة بتأني وانضمت إلى جوار أولاد شقيقها توزع على كل فرد نصيبه بالتساوي ودون ظلم لأحدهم، هلل الأطفال وركضوا حول بعضهم يلعبون فيما انشغل عقلها بمقدمة تبدأ بها الحديث مع أخيها الأكبر.

ضاقت عيون محمود متوقعًا سبب ترددها، فكر في قطع الطريق عليها أو النهوض والمغادرة لكنها لم تمهله كثيرًا، سألته بأعين دامعة وقلب موجوع: مش ناوي تعفو عنها بقى؟

ارتشف من كوبه يحاول تمالك نفسه أمام مظهر شقيقته المبتئس، أجاب ببرود: ماعنديش حد أعفو عنه.

-حيـ...

أطلق تجاهها نظرة مستعرة بالنيران: ماعنديش حد معرفة بالاسم دا، نبهت مية مرة على كدا.. صح ولا لا؟

ربتت عائشة بكفها الحاني على كتفه تمتص غضبه: بشويش يا محمود.

عادت زهرة تترجاه: دي أختنا الصغيرة يا محمود، يرضيك بهدلتها وإننا ما نعرفلهاش طريق جُرّة؟

انتفض واقفًا وصاح بغضب: أه يرضيني، ما يرضينيش ليها أما هي رضيته على نفسها؟؟، زهرة!، أقفلي السيرة وما تجبيش اسمها على لسانك ولا عايز اسمع عنها حاجه فـ البيت دا.

اغلق باب المنزل خلفه بشدة كادت معها تكسر زجاج الباب المغبش، اجهشت زهرة في نواح بلا نهاية، جلست عائشة جوارها تواسيها وتحاول التخفيف عنها. زوجها صلب، عنيد، قاس، نسى معان الرحمة منذ زمن، لقد أخافها في بداية زواجهم لكن بعد حين عرفت طباعه ولم تملك سوى تقبلها، رضت به على علله.

كفكفت زهرة دموعها وانسحبت تصعد إلى غرفة والدها؛ فقد حان وقت دوائه، لا ينقصها سوى انتكاسته من جديد، ليس بيدها حيلة، لا تستطيع تقديم يد العون لشقيقتها الصغرى أو شفاء والدها من مرضه.

دخلت غرفة والدها، واتجهت إلى الطاولة المزدحمة بالأدوية، أخذت منها الكمية التي من المفترض تناولها الآن، قدمتها بيد والأخرى تمتد بكأس من الماء، تناولهم بصمت، وقد قل حديثه عما كان قبل مرضه.

نظر لها بشفقة مدركًا سبب لمعة عيونها بالدموع؛ لقد وصله صوت ابنه المرتفع، أدرك قلقها على شقيقتها ولكن هي من ألقت نفسها إلى قاع المستنقع الموحل وعليها تحمل ما سيحل بها.

***

طرقت الباب بخفة، فتحته بعدما لم تجد ردًا نتيجة خوفها؛ فالحالة التي رأتها عليها قبل قليل لا تنبئ بالخير. الغرفة تسبح في الظلام إلا من شعاع ضوء القمر تسلل عبر الأستار الشفافة والشق القائم بينهما.

شهقت بفزع ومدت يدها إلى مفتاح الإنارة، سقط نظرها فوق جسد متهدل إنحنى في أسى، والدموع تتقطر من عينيها فوق الفراش، شهقات خفيضة تخرج على ثوان متباعدة.

هرعت إليها وقد انقبض قلبها، جاورتها وتمسكت بكفيها، بعد هنية ارتفع رأس سلمى بوجهها المصفر المبلل، تنهدت بوجع وشرعت تروي ما يدمي فؤادها:

-كانت محتاجاني وما لاقتنيش جنبها، بوظت صداقتنا لدرجة إنها لما وقعت ما حاولتش تطلب مساعدتي، ما فكرتش تكلمني أو توصلي غير لما قدرت تخرج من اللي هي فيه وتقف على رجلها،

وصلت بصداقتنا لإنها تخاف تحكيلي أو تلجألي عشان ما ألومش أو أعتب عليها!، عمرك شوفتِ صديقة أسوء من كدا؟؟.. صاحبة خلت صاحبتها مش قادرة تعتمد عليها، لدرجة إنها وهي بتغرق بتكتم نفسها عشان ما تناديش على صاحبتها.

نهضت من جانب آية، وتوجهت إلى المرآة، وقفت تنظر إلى ما وراء الصورة المنعكسة، مقطبة والدموع لا تنفك تهطل بغزارة تغرق وجنتيها:

-لا عارفة أكون زوجة ولا قادرة أكون صديقة، طب أنا بأعمل إيه فـ دنيتي للي حواليا، مش قادرة أقدم حاجه لحد، إنسانة فاشلة بكل معنى الكلمة.

نزعت آية نظارتها التي أغشاها ضباب الدموع، مسحت عيونها ودنت من صديقتها الجديدة المنهارة، لم تستطع تقديم أكثر من ضمة، ضمة واحدة حملت كل ما في

جعبتها من مشاركة وإدارك لكل ما يعتمر داخل الأخرى من ألم ووجع، ضمة دامت دقائق مضت كأنها دهور. انطفأت حرارة الوجع، ونفخت بقاياه تنهيدة خرجت من صدر سلمى، توقفت الأمطار على الخدود بعدما أجهضت الأعين ما بحوزتها كاملًا، تسندت إحداهما على الأخرى وجلستا متجاورتين على طرف الفراش. فتحت آية حوارات متنوعة، في كل شيء ولا شيء، تحاول جذبها للحديث والمشاركة فيه، وتارة تدغدغ قلبها علّه يلين ولو بضحكة.

ارتفع رنين الهاتف معلنًا عن وصول رسالة، لاحظت آية عدم رغبة سلمى في التحرك ومعرفة المحتوى أو الراسل، تولت هي المهمة؛ لعلها تكون من أهلها فتبعث في نفسها السرور، فتحتها عندما وجدت رقمًا غير مقيد، ابتسمت ومدت الهاتف إلى سلمى باسمة:

-الرسالة دي عشانك.

لم تفهم سر سعادتها وابتسامتها، تناولت الهاتف بلا شعور، تطلعت إلى شاشته المضيئة تقرأ ما أنارها من حروف مرسومة:

«ما تزعليش مني، بس زي ما حكيتلك، حالتي كانت زي الزفت، لو كنت قولتلك كنت هتتعبي زيي أو أكتر، كدا أحسن، صدقيني مش عدم ثقة فيك أو لإنك صديقة مش كويسة، لكن وقتها أنا ما كنتش محتاجه صديقة.. كنت محتاجه حد ما يعرفنيش، يقويني مش يزعل عليا ويسبني فـ دوامة زعلي على نفسي، وبردو مش لإنك صديقة وحشة مش هتقدر تخرجني من حالتي، بس عشان أنتِ قريبة مني زي نفسي، ولإنك عاطفية زي وأكتر.. أنتِ نفسي وخلاص يا شيخة، زهقتيني.. أيوه كدا اضحكِ، ما تخلينيش أشوف دمعتك تاني.. لا عليا، ولا على أي حد، أمواه مؤقتة لحد ما أشوفك يا عيوطة هانم، أيوه عيوطة وما تبرقليش كدا.. كفايه! الرصيد خلص منك لله، مستنية تحويل بضعف تمن الرسالة اللي هتتبعت على حداشر مرة دي.. في رعاية الله».

أفاقت من انسجامها مع كلمات صديقة عمرها على هتاف آية:

-تصدقي هأغير منها، بقى أنا بقالي ساعة بأحاول أخليكِ تبتسمي وهي بكلمتين فـ رسالة خلت الضحكة من الودن للودن.. بركاتك يا ست حياه.

اتسعت ابتسامة سلمى، ثم سألتها متعجبة: وعرفتِ منين إنها حياه؟

غمزتها: عشان مافيش غير حياه ممكن تعيطي عليها بالشكل دا، أنا مش عارفه إيه اللي حصل معاها ولا عايزه أعرف.. بس أتمنى تخرج منه أقوى من الأول وأحسن.

قبضت على الهاتف بقوة: ودا اللي حصل وهيكمل على كدا إن شاء الله.

نهضت فجأة بعزم جديد: هأدخل استحمى عشان أفوق من اللي أنا فيه دا، حالتي ولا المتشردين.

أومأت: وأنا هأخلي داده عنبر تطلعلك بالعشا؛ ما شوفتيش كانت خايفه وقلقانه عليكِ إزاي.

-ربنا يخليهالي.

-ولينا قاعدة تانية بس مش كئيبة زي دي.

أومأت ثم دلفت إلى الحمام وابتسامتها لا تغادر وجهها، تزيده راحة وضياء، لقد اثبتت لها رسالة حياه أن علاقتهما لم تهتز، تفهمت وجهة نظر حياه، ليست معها بالكامل ولكن تسامحها على هذا التفكير بذلك الوقت، يكفيها أنها أتت على بالها في عز شدتها، وأحد أسباب تراجعها، أن لا تسبب لها أي عذاب نتيجة معرفة مستجدات ما حدث معها.

عقدت العزم على تقديم يد المساعدة ولو بأصغر الأشياء، فقط لتشعر حياه أنها ستكون إلى جوارها مهما حدث، لن تكون كشقيقها الذي تبرأ منها أو أخته التي لا

تستطيع الاعتراض، وقفت تحت رذاذ الماء الخارج عبر المرّش تطفئ ببرودته ما فعله بها البكاء والنحيب.

خرجت بعد دقائق مرتدية مأزرها الأبيض المزركش بورود زهرية وقد التفت منشفة حول خصلاتها تحميها من الهواء والبرد، وقفت في منتصف طريقها إلى خزانة الملابس عندما طالعها جسد ياسين يضع صينية العشاء خاصتها فوق الطاولة القريبة من الباب.

تبادل الإثنان عدة نظرات، نظرتها المليئة بدهشة وجوده في غرفتها والمتشحة بالحياء، ونظرته الجريئة اللامعة بدهشة رونقها وبريقها. ظلا على هذا الحال دقيقتين، هربت بعدهما بنظراتها لتقابل صينية الطعام، أشارت إليها برأسها متسائلة: داده عنبر اللي جابتها؟

لم تدر سبب سؤالها الساذج لكن داخلها أرد سماع الرد.. وبشوق، أجاب بنبرة خبيثة لم تستشعرها عبر هيامها: داده عنبر هي اللي جاهزتها، بس أنا اللي طلعتها لحد هنا.

حدقت فيه ببلاهة: ليه؟

هز كتفيه مدعيًا الغباء: عشان آية قالتلها إنك عايزه تتعشي.

كزت على أسنانها بغيظ: مش قصدي ليه هي جهزتها، أقصد ليه أنت طلعتها!

وضع يديه في جيبي سرواله، هز كتفيه بوجه جامد لا يحمل شيئًا مما تأمله: عادي، كدا كدا كنت طالع، وبعدين عشان ما تفتكريش إني وحش.

رفعت أحد حاجبيها ولوت جانب شفتها الأيسر بسخرية: وبقى لما تطلعلي صينية العشا اللي أنت ما جاهزتهاش بنفسك لحد أوضتي، هأغير فكرتي عنك كـ«وحش»؟

فتح باب الغرفة بينما يعيد هز كتفيه بلا مبالاة مغادرًا: أو ما تغيريش، على راحتك.

بعدما أغلق الباب سحبت المنشفة من فوق رأسها والتي كانت على وشك الإنزلاق، قذفتها على الباب المغلق بلا ذنب منه عما فعله مغلقه، تمتمت من بين أسنانها المحكمة: مستفز.

وقف خلف الباب يشد على أضراسه من استهزائها بما فعله، لقد أقدم على فعلة صغيرة ولكنها لا تتكرر كثيرًا، لو كانت تعرفه بشكل أفضل لكانت قفزت تقبله وتعانقه من فرط سعادتها، فور ذكر عقله لكلمة قبلة وعناق تذكر مظهرها البراق حال خروجها من الحمام، كانت تلمع كصبي صغير تحمم بعد معركة حامية مع أصدقائه في بركة الطين، عندما عادت لم تكن متسخة بالقاذورات ومع ذلك كانت تبدو مظلمة بالكآبة، الحزن يطفئ نور جمالها.

قطب، أي جمال، هي عادية كالعديد من العاملات بشركته، وأقل من زوجتها الأولى، هز رأسه ونظر إلى الباب المنغلق يهم بالسير مبتعدًا، تذكر ردها على كلماته كندٍ أشد ضراوة منه، تمتم بفم مطبق من الغيظ: مستفزة.

بخطوات واثقة ابتعد عن غرفتها في الإتجاه المعاكس، متجهًا إلى حلف العدو، يديه في جيوبه وعينيه تراقب تقدم خطواته بشرود، لقد انقلب عقله خلال فترة صغيرة.. بلا أسباب.

***

سارت بتؤدة، لا تكاد ترفع ناظريها عن موطئ قدميها، عقلها يدور في عدة اتجاهات مشتتة، تارة في سلمى وما يحدث معها، وأخرى في شقيقها الذي تشعر بتمزقه، ثم مع شقيقتها المتحكمة بزيادة، والمعضلة الكبرى دوران ذهنها مع أبحاثها التي لا تستقر على شيء منذ فترة، صاحت متوجعة عندما اصطدمت بجسد ذكوري قوي، نظرت إليه بأعين مشتعلة غضبًا.

مد كفيه مهدئًا وتمتم باعتذار: آسف ما أخدتش بالي.

أجابت بجفاف: أبقى فتح بعد كدا.

أثارت حفيظته بتعنتها فجابهها ببرود: مش لوحدي اللي ما كنتش مركز.

نظرت إليه بضيق ثم انصرفت دون أن تلتفت إليه، حثت خطها للإحتماء بين جدران مكتبها، تدفس رأسها بين دفوف الكتب والمراجع.. قبل أن تدخل إلى مكتبها أمرت الساعي أن يحضر لها فنجانًا من القهوة في فنجانها المخصوص بصحنه المورد، دلفت متنفسة الصعداء، فقد وصلت أخيرًا إلى مأواها الحامي.

***

انضمت إلى ناهد بعدما أخبرتها الخادمة الجديدة التي أوصت عليها كادي بطلب السيدة الكبرى لرؤيتها، دلفت إلى الحجرة فرأتها تجلس بأريحية فوق إحدى الأرائك وفي يدها دفتر صور تقلب صفحاته متأملة محتواها، لمحت بطرف عينها ملفات وأوراق أخرى تُرِكَت فوق المنضدة المقابلة.

تنحنحت حتى تلفت إنتباه ناهد إلى وصولها، أشارت لها كي تجلس جوارها موضحة: الحفلة خلاص قربت، لازم نجهز كل حاجه فـ أسرع وقت.

تأففت: أنتِ لسه مصرة على الحفلة دي يا ناهد؟.. مالوش داعي.

نهرتها ناهد بحدة: يعني إيه مالوش داعي؟.. أنتِ بقالك كام شهر هنا وماحدش يعرف إنك مرات ياسين، تخيلي لو حد من الجيران شافك وسألك أنتِ مين هيبقى شكلك إيه؟؟

شردت ولم تخبرها أن هذا حدث بالفعل، تابعت بهدوء أكثر: الموضوع منتهي، اختاري شكل الدعوات؛ عشان اتصل بيهم يلحقوا يجهزوها.. لسه ورانا حاجات تانية كتير.

-ما نخلي أي شركة تهتم بالحاجات دي وخلاص.

كزت على أسنانها تطلب الصبر: سلمى!، سلمى يا حبيبتي.. أنتِ فاكرة إن كل دا من غير شركة منظمة مهتمة؟!.. أكيد فيه، بس الأساسيات والخطوط العريضة إحنا اللي بنحطها عشان يمشوا عليها بدون مشاكل مفاجأة.

-بابا لما كان بيعمل حفلات شغل بيسيبها لشركة منظمة وخلاص كل حاجه بتمشي تمام.

-أه، عشان والدتك مالهاش فـ الشغل دا، لكن أنتِ لازم يبقى ليكِ وأوي كمان، كادي بتعرف كل صغيرة وكبيرة.. ليها ذوق وبتنظم الحفلات بسهولة، وأنتِ مش أقل منها فـ حاجه، بالعكس دي الحفلة أصلا على شرفك.

-أووف، طيب.

-ممكن بقى تسيبك من أفأفت العيال الصغيرين دي وتركزي معايا؛ لإن في حاجه مهمة جدًا لازم نظبطها بعد ما نخلص.

زفرت سلمى بملل لكنها استمعت بإنصات، ابدت رأيها في كل التفاصيل مما أعجب ناهد بشدة، راق لها ذوق زوجة شقيقها الأصغر، كانت تختار كل ما هو أنيق وبسيط في نفس الوقت، جمال دون تكلف، شيء مثلها وقطعة من شخصيتها.

***

رفعت رأسها من بين الأوراق، طالعها وجه أمير، رفعت أحد حاجبيها من خلف النظارات الطبية كأنه تسأله عما يريد، دلف حاملًا لصينية أول مرة تنتبه إلى

وجودها فوق كفيه، وضعها فوق المكتب وصب القهوة في الفنجان وألقى بالمنشفة البرتقالية التي يستعملها الساعي فوق كتفيه قائلًا بلهجة مازحة: وأحلى قهوة مظبوطة على واحدة ونص لاجل عيون الضاكتورة آية.

كتمت ابتسامتها وسألت بجدية لا تشعر بها في هذه اللحظة: خير يا أمير.

جلس على المقعد المقابل لمكتبها، وضع ساقًا فوق الأخر ى: أبدًا، جاي اعتذر لو ضايقتك من شوية.

أشارت بطرف قلمها وقد أوشك حاجبيها على ملامسة منبت شعرها فيما تقول هازئة: ودا اعتذار؟

تنحنح منزلًا ساقه: سوري، عادة مش عارف أبطلها.

أومأت، قالت بلهجة دبلوماسية: ما حصلش حاجه، تقدر تروح على محاضراتك.

ضحك: محاضرات إيه بقى، الساعة داخله على ستة.

نظرت إلى ساعة معصمها مندهشة، لقد مر الوقت دون أن تدري، لم تشعر حتى بتأخر تلبية الساعي لطلبها، عضت باطن شفتها في عجب؛ النصف ساعة تحولت إلى ساعة ونصف والوقت كعادته لا ينفك يداهمها. أفاقت على عرضه: ممكن أوصلك لو حابه.

-مرسي، عربيتي معايا.

-إمممم، هي عربيتك دي ما بتعطلش أبدًا؟

رفعت أحد حاجبيها من جديد: أفندم؟؟

أطلق ضحكة غبية ونهض يحك فخذيه بكفي يده منسحبًا: أبدًا ولا حاجه، عن إذنك.

فكت قيود ابتسامتها، تستغرب حركاته الجنونية، لقد أعجبت به فيما مضى لذلك أما الآن فلا تدري، يبدو أن مرور الوقت ينسي المرء أي شيء حتى الإعجاب وليس من المستبعد شتلات الحب المهملة.

***

وقفت أمام طاولة الزينة تجفف شعرها بعد الاستحمام، وتضع الكريمات فوق بشرتها تعوضها عما فقدته، أمسكت مشطها تتخلل به خصلاتها المصبوغة حديثًا باللون الأحمر النبيذي.

لمحت طيف خادمتها المخلصة في المرآة، سألتها بعيون متيقظة كالقطط: في إيه يا ريتا؟

-الست ناهد بقالها شوية موجودة وقاعدة مع الست سلمى فـ الريسبشن.

نفخت بحنق: ودي جات إمتى كمان؟

-قبل ما حضرتك توصلي بشوية.

-إمممم، وبيخططوا لإيه العقارب دول؟

-اللي سمعته إنهم بيحضروا لحفلة على شرف الست سلمى.

قهقهت كادي بسخرية، تعلم بأمر الحفلة مسبقًا؛ فقد ذكره ياسين أمامها بطريقة عرضية. أمرت الخادمة بالذهاب وعادت تهتم بنفسها من جديد، ستتركهم يعدون ما يرغبون حتى تتهدم خططهم فوق رأسهم، متيقنة من ردائة ذوق غريمتها، كذلك لن تضع أصبعًا في شيء على شرف تلك السلمى، وضعت العلبة جانبًا ونهضت تتجه إلى الشرفة ببسمة مشرقة.

***

زفرت تنهيدة إرتياح وتراجعت تسند ظهرها وتريح عينيها مما أجبرتها ناهد على فعله، أمور مملة لا تلقي لها بالًا بالعادة، تفاصيل لا تعيرها أي إهتمام، لكن كما قالت ناهد فما هو بلا قيمة بالنسبة لها قد يكون شديد الأهمية لغيرها، فالناس تختلف.

انحنت ناهد واضعة ساقًا فوق الأخرى وقد انطبقتا سوية مع ميل خفيف جهة اليسار، كما تنص قواعد الإتيكيت، أمسكت بملف وفتحته تتأكد من المحتوى، قلبته بيد والأخرى ضربت بها ذراع سلمى؛ كي تجلس باعتدال وتنتبه إلى ما ستقول. تنهدت متعبة، لقد مارست الرياضة في النادي الرياضي بضراوة قضت على طاقتها، كما أن ما تدعوها ناهد إلى فعله يبعث في نفسها السأم، لم تستطع الاعتراض وانتبهت بلا حول.

دون أن تغادر عيونها صفحة الأوراق أطلعتها على المهمة التالية بعملية: دلوقتي جينا للجزء الأهم.. الضيوف.

-مالهم تاني؟.. مش خِلصنا من الدعوات.

-لازم تكوني عارفة ضيوفك مين، علاقتهم ببعض إيه، بيحبوا إيه، بيكرهوا إيه.. إلى آخره.

أضافت عندما رأت حركات سلمى المعترضة: كل دا مش بدون سبب، لازم تعرفي عشان تقدري تحددي دا تكلميه فـ إيه ودا عن إيه.. وإيه اللي بيبقى خط أحمر والمفروض ما نتعداهوش؛ عشان ضيوفنا ما يضايقوش.

انتبهت سلمى للحديث، شرعت توضح لها أهم النقاط عن كل فرد من القائمة المعدة من المدعوين، لقد قللت ناهد قدر المستطاع من عددهم حتى تستطيع الأخرى تدبر أمرها. تعرفت سلمى على عدة شخصيات والتي لم تكن ذات مراكز هينة، نتيجة علاقات سابقة معهم خلال فترة عملها جوار الدراسة وتطبيقًا لِمَ يُعاد على أسماعها

في مقاعد الجامعة وعبر علاقات والدها وأخيها في العمل، مما بعث الراحة والثقة في نجاح الحفلة.

***

أخرجت مفاتيح السيارة من الجيب الخارجي للحقيبة، ضغطت على زر التحكم الإلكتروني لإيقاف الإنذار وفتح الأقفال، صعدت خلف المقود بعدما وضعت أغراضها فوق الأريكة الخلفية، حاولت إدارة السيارة لكنها لم تستجب سوى بحشرجة لا طائل منها.

سقط فوقها ظل، التفتت لتجده أمير، فتحت الزجاج المجاور لتسمعه يسأل: مشكلة؟

-مش راضية تدور.

حثها بينما يهم بفتح الباب الملاصق لها: خليني أجرب كدا.

ترجلت من السيارة وهي ترمقه بشك، تجاهلها وصعد مكانها، حاول مرة تلو الأخرى دون فائدة، هبط وسلمها المفتاح متأسفًا: شكلها هتحتاج ميكانيكي.

-إمممم، خلاص مش مشكلة، هأروح بالتاكسي.

سحبت أغراضها من المقعد الخلفي وسارت مبتعدة بعدما تأكدت من تمام إقفال السيارة، لحق بها ضاربًا الهواء بقبضته مع قفزة منتصرة وحاول رسم اللامبالاة في صوته: طب وعلى إيه التاكسي، تعالي أوصلك أنا.

-لا ميرسي، مش عايزه أعطلك معايا.

-لا ولا عطلة ولا حاجه، بعدين عيب عليا لما أسيب الدكتور بتاعتي تمشي بالليل لوحدها.

نظرت إليه من طرف عينها، أومأت ولحقت به، صعدت إلى جواره في السيارة. أثناء تجاوزه للسيارات الأخرى أشار له عامل الجراج، نهره أمير بنظرة حادة وأرسل نظرة متوجسة إلى آية

يتأكد من عدم انتباهها، زفر براحة عندما وجدها تتطلع إلى الجهة المعاكسة، سار بصمت حتى خرج من بوابة الكلية.

لمحت آية ما فعله كل منهما، لكنها تحيزت الغباء ونظرت بعيدًا حتى لا يدرك أنها كشفت خطته.

أبله!، لقد أدركتها مذ ظهر عند زجاج سيارتها يسألها عن المشكلة التي تواجهها. كتمت بسمتها لاهتمامه بأمرها، فعل كل ذلك لإيصالها ليس أكثر، لم ترد أن تعكر صفو إنتصاره الصغير بإطلاعه على ردائة خطته وقِدمها.

استنشقت دفعة كبيرة من الهواء، وقلبها يزغرد من الفرح، أنوثتها تتمايل في سعادة، لقد أشعرها بشيء لم تذق له طعمًا من قبل، لكنه من ألذ ما أحسته في حياتها.

***

زفر متأففًا، حك وجهه بكفه المشدود من كثرة الضغط، تمر عليه الأيام بضيق وغيظ، يشعر أحيانًا أنه لم يتزوج امرأتنن بل تبنى طفلتنن، إحداهما تغار من الأخر عليه فتحاول لفت الإنتباه لها وحدها.

كادي أصبحت كثيرة التدلل، سهر وخروج برفقته كل يوم تقريبًا، تنتزعه إنتزاعًا من فوق المقعد أو السرير حيث يتلمس بعض الراحة قبل يوم مشحون بالعمل في النهار التالي. فاض صدره وضاقت نفسه بما يحدث، منذ دخلت سلمى حياته انقلبت،

لا يجد الاستقرار المنشود، لم يتزوج سوى ليقلل الخلافات العائلية لكن العكس تمامًا قد حدث، زادت حد أوشك على إيصاله إلى الخبال.

صديقه ومحاميه سافر، استقل بعمله بعيدًا رغم تمسكه بتولي الشئون القانونية للشركة، انشغاله الدائم بتثبيت أقدامه وضبط نظام مكتبه الخاص قضى على فرص تلاقيهم دون ذكر سفراته لارساء سمعته في دولة أخرى أملًا في نقل عمله إليها تاركًا الوطن.

ضرب سطح المكتب بقوة كادت تهشمه، تخلل خصلات شعره بأنامله، نهض يحوم كالليث في قفصه. نهر وصرخ في وجه السكرتيرة الخاصة به، طردها شر طردة حتى طفرت الدموع من مآقيها، لم يبال، يكفيه ما يمر به ليهتم بإحد موظفاته سريعات التأثر بعاطفية مبالغة.

****

تأففت من جلستها المتخشبة فوق كرسيها المبطن، دارت بعينيها في الغرفة، نوافذ مغلقة، مكيف يبث البرودة الملائمة، باب موصد بإحكام، تلال من الكتب والمراجع والأوراق تتكدس أمام ناظريها فوق المكتب والكراسي كذلك تفترش الأرضيات، لا تبدو غرفة أستاذة جامعية ينبغي أن تكون قدوة للطلبة في التنظيم والرزانة.

ضربت كفيها فوق مساند مقعدها، نهضت زافرة، ستأخذ قسطًا من الراحة ثم تعود لترتيب هذه الفوضى العارمة، التقطت حاسوبها المحمول ذي الحجم الصغير، ليس لديها وقت لتضيعه، ستستغل راحتها في تنظيم الملفات المتواجدة على ذاكرة حفظه وتفرزها إلى ذوات أهمية أو بدون.

سارت بتؤدة كعادتها، تتطلع حولها، قررت التوجه والجلوس في الحديقة، بين الزرع والخضرة تحيطها الأزهار والشجيرات المثمرة. وقع نظرها على بقعة نائية نسبيًا، ربعت قدميها وبدأت عملها، استغرقها العمل فلم تشعر بما يدور حولها.

لعقت شفتيها المتشققتين من الجفاف، تشعر بكسل لذيذ يدفعها لنسيان عطشها واستكمال جلستها الهادئة أمام الشاشة، ابتعلت ريقها الجاف ثم لمعت أمامها زجاجة مياه معدنية فاترة، أجرت ريقها بشدة، رفعت نظرها ليواجهها أمير بابتسامته الجذابة، رج الزجاجة أمام ناظريها وشجعها لتتناولها: العطش مش هيخليكِ تعرفي تركزي، هيسببلك إجهاد بدون داعي.

عضت باطن خديها وتقبلت الزجاجة بصمت، روت ظمأها بما يقرب نصف القنينة، تنهدت بسعادة وإرتواء: شكرًا.

أومأ دون إجابة شفهية، أقعى في جلوسه إلى جوارها، يسند ذراعه اليمنى فوق ركبته المثنية، تفحص شاشتها المضيئة معلقًا: أنتِ ما بتتعبيش أبدًا، مش بتاخدي راحة؟

هزت كتفيها بلا مبالاة: ما أنا فـ راحة أهو.

ضحك ملئ شدقيه: وإنك فاتحة ملفات بحثية وحاجات معقدة كدا يبقى اسمه راحة؟

ألقت إليه نظرة مستسخفة الحديث: كل واحد راحته بيلاقيها فـ حاجه غير التاني، وأصلا أنا بأنظم اللاب مش أكتر.

ماطل: بس بردو لازم راحة عشان تقدري تكملي بنفس الطاقة والقوة.

سألته بلا اهتمام: ودا إزاي بقى؟

تجاهل نبرة السخرية كأنه لم يلمحها، نهض يزيل عن ملابسه ما علق بها من أتربة، حثها على أتباعه، نظرت إليه متشككة من رجاحة عقله وفي نفس الوقت تقيم جرأته، حسمت أمرها ونهضت تتبعه، ترغب في معرفة نهاية طريق يكون هو فيه الدليل.

***

فتحت النافذة المجاورة تستقبل نسمات الهواء الباردة نسبيًا فوق بشرة وجهها الساخنة من التوتر، لأول مرة في حياتها تتجرأ على فعل -ولو بسيط- دون دراسة نتائجه، قلبها تتصارع دقاته بشدة، تجربة جديدة تخوضها وتهاب الفشل.

استخرجها من أفكارها الخاصة بصوته الجدي: بتمري بفترة خنقة.

نظرت إليه، حدقت فيه بشدة، لمح الاستغراب في عيونها بطرف عينه قبل أن يعيد تركيزه إلى الطريق أمامه، بدل عصا السرعة بقبضة يده اليمنى ثم أجاب السؤال الحائر بين عقلها ولسانها: ماكنتيش حاسه بنفسك وأنتِ عماله تنفخي كل شوية.

لمست شفاهها الوردية بلا إدراك، ابتسم هازًا كتفيه: كلنا بنمر بفترة زي دي فـ حياتنا من وقت للتاني، الشطارة إنك تخرجي منها قبل ما تقضي على آخر ذرة جواكِ.

-وأنت هتساعدني؟

-طبعًا، أومال بأعمل إيه دلوقتي؟

-إمممم، أنت واخدني على فين؟

-دلوقتي تشوفي.

برقت عيناه بشدة، تعلقت عيونها بجانب وجهه، وجه أبيض نتيجة ندرة تعرض بشرته للشمس، عيون رمادية براقة، تجذب أي أنثى، ملامح أنيقة تتناسق متكاملة مع بعضها بشدة، خلاصة.. أبدع الخالق في رسمه.

أعادت نظرها إلى النافذة، لقد أعجبت به بداية من أول يوم في الكلية، ثقته بذاته، أناقته، حلاوة لسانه.. كل ذلك ترك بها أثرًا، لكن حين لاحظت تهربه من التواجد

معها، نظرة اللا مبالاة التي يرمقها بها، ابتعدت، تناست مشاعر كانت في طريق تحولها إلى حب جارف. تصرفاته مؤخرًا بدأت تخرج ملفه من أرشيف قلبها، تنفض عنه الأتربة، تعيد تقليب أوراقه والتفكير في إعادته فوق رّف «الملفات المستخدمة حاليًا».

***

تأنقت كعادتها في الأونة الأخيرة، تعطرت بعطر رومانسي خفيف لكن برائحة فواحة تجذب الأنوف وتخطف العقول، ضبطت وضعية ثوبها، هذه المرة قررت أن تقضي الليلة في المنزل مع زوجها؛ فلقد لاحظت تأففه من الخروج المتكرر، وتأففت هي من تذمته في ملابسها وإلزامها بالحجاب حتى أثناء السهرات.

أعدت سطح المنزل، بالأصح أمرت بذلك، أوقدت الشموع، نثرت الورود، رُصّ العشاء فوق طاولة دائرية كُسيت بمفرش من الحرير الأبيض، تتوسط الأطباق مزهرية صغيرة، والموسيقى الشاعرية تتسرب من أحد الأركان، سهرة رومانسية إلى أبعد حد.

سمعت صوت إيقاف سيارته الرياضية، أسرعت تثقل أحمر شفاهها الصارخ وتشد الثوب فوق جسدها بقوة أكثر، أمرت خادمتها الوفية أن تحضره إليها، أخفت قلم الحمرة في الحقيبة ثم قذفتها بعيدًا، أختارت أفضل الأماكن ووقفت تنتظره.

تقدم إلى الداخل يكز على أسنانه غيظًا، لم تمهله حتى يستحم أو يبدل ملابسه، لما لا تفهم أن العمل صار فوق عاتقه ثلاثًا، فالشركة تمر بفترة حرجة، وناهد تنشغل عنه بسفراتها المتكررة، تاركة عاتق الإدارة على كتفه وحده، لعن الله المرأة حينما تغار أو تدعي الغباء حتى تصل إلى مصلحتها الشخصية.

ضاقت عيونه، نظر حوله متفاجئًا مما أمامه، شعر بكف رقيق يوضع فوق كتفه، يمسده بخبرة نازعًا التيبس مرسلًا الاسترخاء، تهدلت أكتافه وسار كما قادته

زوجته وجلس حول الطاولة، ظلت واقفة خلفه لدقائق تكمل عملها وتهمس في أذنه برقة.

-آسفة يا حبيبي؛ عشان ضغطت عليك الفترة اللي فاتت، بس أنت عارف أنا بحبك قد إيه.

تناول كفها الأيسر و قَبلَّ مفاصل أناملها متمتمًا بتفهم: ولا يهمك يا كوكي، المهم إنك معايا.

طوقته مهللة بهدوء: ربنا يخليك ليا يا قلبي.

انتقلت تجلس مقابله، تبادله نظرات الحب والإغراء، تطعمه ويطعمها، جو هادئ وراحة لم يشعرها منذ فترة، كان يأكلها بنظراته، تعلم ذلك وتتجاهله بذكاء، فلم ترتدي لونه المفضل سوى لذلك الأثر الذي تلمحه في عيونه كلما ألتقتا بعيونها. تمرست منذ سنوات وخبرت نقاط ضعفه وطرق إرضائه.

حينما لمحت شروده للحظة تعمدت إحداث حركة خفيفة ووضعت ساقًا فوق الأخرى بمهارة، حركة كفيلة بإدارة رأس أعتى الرجال، خصوصًا إذا انحصر الثوب نتيجتها إلى ما فوق الفخذ، برقت عيونه بضراوة فكتمت ابتسامة شقية منتصرة، نهضت قبل أن يفقد تمالكه لذاته، دعته إلى الرقص؛ فلم تقرر هي حتى الآن التوقف عن اللعب.

طوق خصرها وجذبها لتلتصق به بقوة، أراد إخفاءها عن الأعين وإحتواءها خلف ضلوعه، تنشق العبير الفواح من رقبتها وخلف أذنها بانسجام، مستمتعًا بذراعيها الملتفتين حول عنقه، أغمض عينيه يستمتع بكل ثانية تمر على هذا الوضع، يتمنى أن تظل عاقلة بهذه الطريقة على الدوام ليجن عقله قبل الأوان.

قبلة حمراء صبغت بها خده الخشن جعلته يتراجع ويسبح في عيونها الملونة بالأخضر نتيجة العدسات اللاصقة، لقد كانت تلائمها بشدة مع لون شعرها الكاسر لحدة فستانها الأسود بإحمراره، دنى منها على مهل يتجرع من حلاوة جمالها.

***

خرجت من الحمام تستند على حائط غرفتها حتى وصلت إلى الفراش، خلعت نظاراتها الطبية ووضعتها جانبًا، شردت تنظر إلى السقف متدثرة بغطائها الوثير، تتذكر ما حدث خلال اليوم مع أمير كأنها تعيش الموقف من جديد.

أوقف أمير السيارة أمام مدينة الملاهي، التفتت إليه بدهشة لكنه لم يمهلها، ترجل مسرعًا ودار حول مقدمة السيارة حتى يفتح الباب المجاور لها، هبطت تنظر إليه تستفسر إن كان بكامل قواه العقلية، لم تزر هذا المكان ولا لمرة في حياتها، حتى إنها لم تفكر في ذلك بتاتًا.

سار يقطع التذاكر لدخولهما وهي تسير خلفه بلا حول، دخل دخلت خلفه، قطع تذاكر اللعبة واتجه يركبها لم تعترض، توقف على حين غرة ينظر حوله، وجدها تقف ولم تركب جواره، عاد يهبط غير مهتم لتنبيهات العامل بوجوب عودته والجلوس في مكانه لبدء الدورة.

خرج عبر البوابة الصغيرة الفاصلة بين العامة واللعبة بركابها، سألها محافظًا على ابتسامته القاتلة: واقفة كدا ليه؟

لم تنبس سوى: إيه دا؟

قهقه ناظرًا إلى الخلف: دي لعبة، اسمها قطر الموت.

كزت على أسنانها والغضب حول وجهها إلى الأحمر: قصدي أنت جايبني هنا ليه؟؟.. دي أماكن للعيال الصغيرة.

رفع حاجبيه صامتًا لبرهة، دار بنظره في الأرجاء: كل اللي هنا كبار زي ما أنا شايف، جزء الأطفال مش الناحية دي خالص.

ضربت الأرض بقدمها وهي تقبض على كفيها بشدة: دول ناس بتستعيل، تقدر تقولي إيه الفايدة من إني أركب بتاعه زي دي وأفضل أدور وأصرخ وفـ الأخرى أنزل.. أفضل أتنقل من لعبة للتانية زي الأطفال.

عقد ذراعيه أمام صدره: الفايدة إنك هتخرجي الكبت اللي جواكِ وتغيري مودك، مش لازم كل حاجه تعمليها يكون لها فايدة علمية يا دكتور.. يا ريت تنسي شوية إنك أستاذة فـ كلية وعيشي كإنسانة.. ولو ليوم بس.

صاحت في وجهه: أنا إنسانة غصب عنك، ومش الهبل دا هو اللي هيخليني إنسانة يا.. إنسان.

دارت تهم بالمغادرة عندما تذكرت أنها لم تحضر أيًا من متعلقاتها، لقد تركت حقيبتها في المكتب قبل أن تخرج وتجلس في حديقة الكلية، وحضرت بسيارة أمير فلا معها سيارة أو حتى مال تستطيع به استأجر سيارة أجرة.

أدرك حيرتها فتقدم إليها، انتحى بها بعيدًا عن طريق مرور الناس إلى اللعبة، رفع كفيه أمامها متنهدًا باستسلام: طيب خلينا نتفق، نجرب اللعبة دي بس.. جربي مش هتخسري حاجه، تغيير للروتين.. أنا بأحب اللعبة دي جدًا وأنتِ كمان هتحبيها، أوعدك.. لو بعدها حبيتِ نمشي خلاص.

لم يكن بيدها حيلة، فهو وسيلتها للعودة من حيث أتت، أومأت في صمت، وانتظرت إنتهاء الدورة التي بدأت لتصعد في التالية، شعرت بالخوف من صراخ الراكبين الذي كاد يخرق طبلة أذنها، توجست مما هي مقدمة عليه لكن الأمر أنتهى، فلقد تمت الدورة وقادها أمير لتركب، تأكد من إحكام الحزام فوقها قبل أن يصعد إلى المقعد المجاور.

تشبثت قدر المستطاع، تحاول إعادة تنظيم دقاتها بتنفسها العميق وإطلاق الزفير وأخذ الشهيق، عد العامل حتى ثلاثة ثم ضغط زر الإطلاق، سارت القاطرة في

التواءات لا نهاية لها، تسرع تارة وتبطئ أخرى، رؤوسهم لأعلى حينًا ولأسفل أحايين، الخوف كاد يتسبب في توقف قلبها عن النبض، سمعت نصيحة أمير لها رغم شعورها بأن الهواء منع عنها أي منفذ للسمع؛ نتيجة الضغط الخارجي والداخلي الذي توتر، فعلت كما قال مجبرة فور إنطلاق القاطرة في مسارها من جديد، صرخت كما لم تصرخ قبلًا بكل قوتها التي خارت فور هبوطها بمساعدة العامل وأمير، تقيأت بجانب أحد الأعمدة، أسرع يسندها عندما أوشكت على السقوط أرضًا، همست: روحني.

لم تزد حرفًا، وهو لم يناقشها، أجلسها في المقعد الخلفي لتتمدد في وضعية أكثر راحة وأسرع إلى منزلها بعدما همست بالعنوان وبالكاد سمعه، أنزلها أمام الباب الخارجي بعدما وعدها بإرسال أغراضها وسيارتها ليلًا، لم تهتم بشكره على ما فعل؛ في النهاية هو من تسبب به.

ومنذ قليل وصلت السيارة مع فرد من أمن الكلية، شكرته تتسلمها منه بهدوء، حمدت ربها أن أحدًا لم يلحظ حالتها، فياسين لم يكن قد عاد، وكادي لا تهتم سوى بنفسها، كما أن عنبر لا تغادر المطبخ إلا عند الضرورة.

جلست تتساءل، أين اختفت سلمى على غير العادة؟، نظرت في ساعتها لتجدها قاربت على الحادية عشر ليلًا، عادت تستلقي فأحيانًا تنام سلمى بعد العشاء، وقد يكون هذا ما حدث.

***

دفنت وجهها في الوسادة تقبض عليها بشدة حتى أوشكت أن تقطع أنفاسها، شهقاتها المكبوتة كأنين حيوان سقط في فخ الصياد، لعن الله قلبها ورغبتها في مساعدة الغير، فلو كانت لا تهتم ولا تعير غيرها أي اهتمام لما وصلت إلى هذا الحال.

سهى عن بالها أن ريتال هي خادمة كادي، وساعدها الأيمن فلم تدرك أن وراء سقوطها أثناء صعود الدرج خطة شيطانية من غريمتها شاركتها الحية الأخرى في تنفيذها، تطوعت بطيبة خاطر لمساعدة الخادمة، بأن تصعد هي بالمفارش النظيفة إلى المقعد المرصوصة فوق سطح المنزل حين وجدت منها خوفًا ورهبة من سيدتها كادي.. القاسية.

ارتقت إلى الطابق العلوي ليصدمها مشهد كادي بين ذراعي ياسين في مشهد حميمي على وقع موسيقى شديدة الرومانسية محاطين بالورود والشموع العطرة، أسقطت المحارم والمفارش من يدها وركضت إلى غرفتها باكية.

غبية، لم يثر رفض الخادمة مرافقتها إلى حجرتها وإصرارها على الصعود بالأغراض أي ريبة داخلها، ضرتها الحقيرة جعلتها ترى أنها ستظل الفائزة دائمًا بقلب ياسين، شعرت بحبه لها وتلهفه عليها.

شيطانة أوقدت النار بيدها، ولن يطفئها ماء أو تراب، ستتأجج بلا خمود وتشتعل دون وقود، ستظل تسعرها حتى تأكل ما حولها، بفضل كادي تحولت من إنسانة بريئة إلى أخرى داهية، تتعامل كالحرباء وتتلوى بالخبث كأفعى الكبر السامة، رددت داخلها وعيونها تلمع ببريق الانتقام «إذا فلتتحمل.. لسع النيران وسم الغيران».

***

غادرت الغرفة التي خصصت لها، إلى متى ستظل حبيسة زنزانة ضيقة في سجن هائل، تقدمت خطوة وتراجعت عشرات، اليسرى تواصل السير واليمنى تزأر تنشد الرجوع، ابتعلت ريقها بصعوبة، لقد بقت في حبسها أسبوعين، لا ترى سوى الجدران الرمادية والسقف الأبيض، غرفة أثاثها حديث لكن وقعه سيء على نفسها.

وقفت بعدما هبطت الدرجات المعدودة، تطلعت إلى الجالسين كل في عالمه، واحدة تضع طلاء أظافر فوق أصابع قدميها والأخرى تقلب قنوات التلفاز بسأم بالغ فيما

تتلاعب يمناها بخصلات شعرها البني الداكن، أما هو، سبب نكبتها ووجودها ها هنا، يجلس حول طاولة السفرة يخط ما لا تعلمه فوق ورقة أثناء تدخينه لسجائر كريهة الرائحة، لمحتها الفتاة السائمة وابتسمت لها قائلة: وأخيرًا خرجتِ.

التفت لها الزوجان الآخران من العيون، نهض الرجل ببسمة مائلة على جانب شفتيه، اقترب منها ووقف على بعد عدة خطوات عاقدًا ذراعيه: يا مراحب.. كنت متأكد إن مسيرك تخرجي لوحدك.

أشعل صوته فيها النيران، نار تصاعدت حتى لمع حريقها في مقلاتيها، رفعت سبابتها في وجهه متوعدة: دلوقتي حالًا هترجعني المكان اللي أخدتني منه.

زاد التهكم من ملامحه صفاقة، رفع حاجبه: قصدك الميتم ولا.. الغردقة؟

أزدردت ريقها، لما ذكرّها بما تريد أن تنسى، أيام ظنتها أجمل أيام عمرها تقضيها برفقة حبيب فؤادها، ليتها علمت ما ينتظرها لكانت قتلته قبل أن يجرؤ على محادثتها، تماسكت وصلّبت عودها: الميتم.

-مش دا المكان اللي كان نفسك تسيبيه؟.. أديني حققتلك أمنيتك.. زعلانه ليه بقى.

هتفت به: جحيم الملجأ أحسن عندي مليون مرة م النعيم هنا.

لاعب خصلاتها المتناثرة حول رأسها بلا مبالاة، لم يهتم بإنتفاضة جسدها نتيجة قربه، خائفة متوجسة، رد عليها مركزًا نظراته فوق أصابعه اللعوب: مع الأسف، الكلمة الأخيرة مش ليكِ.. الكلمة الأخيرة دلوقتي أنا الوحيد اللي يقولها.. غير كدا اعرفي كويس إن مكانك بقى هنا من دلوقتي لحد ما تروحي على قبرك.. غير المكانين دول مافيش...

أضاف بعد لحظة ترقب وعيونها متسعة مما تسمعه: وهتنفذي اللي بأقولك عليه بالحرف الواحد، وهتنزلي مع البنات من بعد بكره الشغل.. زي ما فهمتك.

صاحت به منفعلة: دا مش شغل، دي وساخه!

صحح بتبلد: هتنزلي من بعد بكره الوساخه.. المسميات مش مهمة، النتيجة هي المفيد.

كزت على أسنانها وقالت: وأنا مش ممكن أخلي واحد غريب يلمسني.

نظر إليها ببراءة: أومال خلتيني أعمل كدا ليه؟

مندهشة من سذاجة سؤاله: أنت جوزي!

رجعت رأسه إلى الخلف من قوة ضحكته، تقطعت أنفاسه، نظرت إلى الفتاتين في تساؤل عما يضحكه، نظرات الدهشة تلمع في عيونهم مثلها لكن اختلطت بتوقع لتفسير بشع من قِبله، اعتدل أخيرًا وتمالك ضحكاته المقرفة، حدثها كطفلة صعبة الفهم: بس أنا مش جوزك.

بعد فترة صمت، لا تدري مدتها، صاحت به: إزاي مش جوزي؟!، والمأذون، والشهود.. وكل دا راح فين.. مش بكلمة منك هتنكر دا.. فيه قسيمة جواز!

-طب براحه براحه يا حلوة ليطقلك عرق ولا حاجه.. جوزك اسمه إيه؟

أجابت زافرة بحدة لتلاعبه بأعصابها: عزت.

-وأنا ما اسميش عزت، يبقى أنا مش جوزك.. شوفتِ سهلة إزاي.

فغرت فمها، تكذب أذنيه، أمسكت بقماش الملابس فوق صدره، هزته بعنف، تطيح به من فرط صراخها وعويلها، تطالبه بقول الحقيقة وعدم الكذب، أشار لها برأسه ناحية الفتاتين دون محاولة الخلاص من قبضتيها: اسأليهم.

نظرت إليهم تنتظر الرد، لمحت في نظرهم التأييد، لا يدعى عزت، أكدت إحداهما بصوت مبحوح بآسى، بعدما وقفت دون أن تبالي بطلاء الظافر الرطب: ما اسموش عزت.

تفككت قبضتيها عنه رويدًا حتى تهدلت جوارها، ابتأس وجهها إلى حد كاد يدمي قلب الفتيات الأغراب عنها، نظراتها تتجه إلى اللا مكان، تائهة في بحور الأكاذيب، من يكون؟، من تزوجت؟، أحلم أم واقع مرير؟، أحقيقة أم هناك كاميرا مخفية عن العيون؟.

عبرت عن أحد الأسئلة بلسانها: أومال أتجوزت مين؟

أشار إلى شيء ما خلفها، دارت برقبتها ليطالعها خاص لا يقل فظاظة عنه، بذيء النظرات، مقرف التعبيرات، أسمر اللون مترهل البطن، سمعت توضيحه بأذن فيما نظرها يسقط أرضًا: دا عزت اللي أنتِ أتجوزتيه على الورق.

عادت إليه بالتواءة في شفتيها: أنا ممكن أرفع عليكوا قضية نصب.

هز كتفيه: أرفعي.. دا لو قدرتِ تخرجي من هنا أصلا..

دنى كأنه يهمس لها بسر لكن الجميع يسمعه: يوم جوازنا.. عزت راح قدم بلاغ إن محفظته اتسرقت باللي فيها، بـ«البطاقة».. وعمل محضر بكدا، يعني ما عليهوش حاجه تقدري تضربيه بيها، أما أنا بقى.. فالبطاقة المزورة، بـخ، حرقتها، ولعت فيها.. أثبتِ إنه أنا.

-بس كلهم شافوك.. بابا يسري، والبنات فـ الملجئ..

-كلام، الحكومة مش بتاخد غير بالورق والحاجات الملموسة..

أسرعت تقول: في قسيمة الجواز اللي مع المأذون، وأكيد معاه صورة للبطاقة.

-تؤ تؤ تؤ تؤ، هو أنا ما قولتلكيش؟.. مش المأذون لما خرج من الميتم بعد كتب الكتاب ورفع الجواب هجموا عليه شوية حرامية فـ مكتبه خدوا الدفتر اللي اتكتب فيه وأي ورق يثبت إن أنا عزت.. البلد بقت وحشه خالص، والحرامية كتروا أوي أوي.

ثلاثة أزواج من عيون الأناث لاحقته بنظرات الغل والكره، تمنين لو أن النظرات تقتل حتى يخر صريعًا نتيجة أذيته لهن، أسطوانة من الشتائم والألقاب البذيئة قذفتها جهته في صمت، لعين، سليل الأبالسة، رضيع الشياطين وابن الشر.

وقع نظرها على سكين صغير يتوسط طبق مليء بثمار الفاكهة فوق الطاولة، لم تشعر بنفسها، فجأة أصبحت السكين بين أصابعها، تنقض فوقه بحقد ورغبة لا تقارن بالانتقام، لقد وأد أحلامها ولم يكفه، أبعدها عن أحبتها ولم يُرضِه، تلاعب بشرفها والسخرية تبرق في مآقيه، ستقتله وتريح العالم من أحد أبناء إبليس.

دافع عن نفسه، حاول إبعاد يديها الممسكة بالآلة الحادة، والآخر.. عزت –الحقيقي- اندفع يحاول جذبها بعيدًا عن سيده ورب عمله الدنيء، قاومت بضراوة، حالتها الداخلية وكرهها للواقف أمامها أعطياها قوة لا تبدو على جسدها الهزيل، لم يقدر عليها الإثنان إلا بعد حين.

قبض عزت على ذراعيها وضمهما خلف ظهرها، كانت تدفع الهواء بقدميها وتطيح برأسها في جنون حتى تحول شعرها أشعثًا، أمره بأخذها إلى حجرتها وإغلاق الباب عليها بالمفاتيح، نظرت إليه نظرة جنون، وأسنانها منطبقة بحدة ساطور، تراجع خائفًا حتى تسبب طرف السجادة بسقوطه أرضًا، لم يهتم.. فقط نظره معلق بوجهها المخبول، وعيونها المهددة بمقابلة قادمة دون عزول.

دفعها عزت إلى داخل الحجرة التي لم تخرج منها لأسابيع، أغلق الباب مسرعًا قبل أن تدرك ما فعل فتعيد الهجوم، ضحكت بصوت عال وقد حققت إنتصارًا ولو صغير،

ستنتهي منه إما عاجلًا أو بعد وقت صغير. لمعان عيونه بالخوف والذعر أثلج دواخلها قليلًا.

جلست أرضًا أمام النافذة، تتحرك السحب بتؤدة والشمس شبه غاربة، ألوان جميلة وخلقة بديعة، لِمَ هي؟، من أذت ليرد لها هكذا؟، حلمت أن تخرج من أسر مكان ظلت فيه منذ كانت في الرابعة عقب وفاة أهلها وعدم وجود أقارب يهتموا بشئونها، تمنت كغيرها من الفتيات أن تحلق إلى البعيد، تزور البلاد وتعاشر الناس، تختلط بالجميع.. تخرج من زنزانة دار الأيتام، والأخرين المعدودين، إن كانت تدري أن هذه هي الحياة بالخارج لما تمنتها ولما فكرت بها ولو من بعيد.

***

عقد الإجتماع، وتحلق المسئولون يتناقشون في مسألة طارئة، الشركة تمر بأزمة شديدة، بورصة الشركة وأسهمها في إنحدار، القسم المالي شبه منهار نتيجة سوء إدارته وفساد من كان رئيسه.

تجادلوا كثيرًا، عرض البعض اقتراحات رُفِضت لعدم ملائمتها الكاملة، والبعض أبدى رأيه فيما عُرِضَ مكتفيًا بالتصويت، أنتهى الإجتماع على البحث عن مدير جديد يلتزم بالجانب المالي من الشركة ويعيد ترميم ما حدث في أقرب فرصة قبل أن تنهار الشركة أكثر وتحل الطامة الكبرى .

***

خرجت آية مع أمير عدة مرات، بدأت تجد الراحة في الجلوس معه والحديث إليه. كثيرًا ما تساءلت عن سبب إلتفاته إليها بعد هذه السنوات، لم تعد تهتم، يكفي أنه يشعرها بأنوثتها ويخرجها من صومعتها الفارغة عليها وحدها.

اختلفا معًا، تحب البساطة ويحب البذخ وهكذا دواليك، أملت أن تختفي الفوارق والحواجز بينهما ليعيشا حياة هادئة نوعًا ما.

منذ عرفته بدأت تهمل أبحاثها، يقضيان اليوم سويًا في مطعم الجامعة، يخرجان بعد ذلك إلى أماكن متنوعة، لكنه تجنب ذكر مدينة الملاهي وما يشابهها، شعرت به يحاول التأقلم على ما تحبه هي، فزاد ذلك من فرحتها بوجوده حولها.

فكرت أن تتحدث إلى شقيقتها الكبرى عنه، عن الشاب الأول بحياتها، لكن ناهد شديدة الانشغال بالشركة وسفراتها المتكررة، كذلك الحفلة شديدة الأهمية التي تعدها، حتى أنها أجلت الإنتقال للمنزل معهم إلى ما بعد الحفلة، التأجيل الذي لا ينتهي.

أما سلمى فلا تعلم، كلما حاولت التحدث إليها تراجعت، ثم قررت عدم الحديث فلا تريد

جرحها بأنها وجدت الحبيب بينما هي تتلوى على نار من سجيل وغيرة، ليس مناسبًا الحديث في هذا الموضوع معها، لن ترش البنزين فوق النار.

***

وقفت أمام المرآة ترتب خصلاتها البنية باحمرار، ابتسامة ساخرة لم تصل إلى شفتيها لكن استشعرتها داخلها، لقد صبغته بناء على إصرار زميلاتها في الدار، نوع من التغيير لفترة، كان اللون يناسبها بشدة خصوصًا مع عيونها العسلية المائلة إلى الخضار في بعض الأحيان.

أفاقت على حركة خلفها، دارت لتجد الفتاة ذات طلاء الأظافر تضع فستانًا فاتنًا فوق السرير، اعتدلت بعد ذلك تبتسم: شوفي أنا جبتلك أحشم فستان عندي.

قطبت: أحشم؟، يعني إيه أحشم؟

-إمممم، شو بيقولوا عليها.. أه، محتشم، أكتر فستان محتشم.

-أنتِ مش مصرية؟

ضحكت: لا يا ستي، أنا سورية، بس القدر رماني هون.. القدر دا عليه حركات هههههه.

انتابها الفضول: وأنتِ إيه اللي وصلك لهنا؟

جلست على طرف الفراش ووضعت ساقًا فوق الأخرى مستندة على راحتيها: باختصار شديد، من كام سنة أمي وأبي ماتوا بحادثة، وأهل أمي ما عجبهمش إني أورث كل دا، قاموا قرروا يقتلوني، اتخبيت عند عمي، بس كان كتير مسكين وضعيف، ما قدر يقف قصادهم، هددوه إنهم يقتلوا ولاده ويقتلوني معهم.. صعب عليا كتير، طلبت منه يبعتني لشي بلد تاني، قام بعتني لهون.. بس صديقه كان واحد كتير خبيث، حاول يتلاعب فيني.. المهم هربت، وفضلت أروح من هنا لهنا.. لحد ما الشرطة عرفت إني ماعنديش إقامة وداخلة تهريب للبلد، كانوا هيرجعوا يرحلوني على سوريا.. فجأة ظهر قدامي نوح، أتجوزني على الورق عشان أقدر أقعد فـ مصر.. وأديني هنا.

-طب ليه ما عملتيش إقامة رسمية؟

-لو عملت أهل أمي هيقدروا يعرفوا مكاني ويبعتوا يقتلوني.

-بس أنتِ ليه ما اتنزلتيش عن حقك مقابل حياتك.

-قولت، ومضيت على ورق كمان.. بس تقولي إيه؟، الخوف نتيجة الظلم كتير بشع.

-ما حاولتيش تخرجي من هنا؟

-هنا زي برا، كله خرا.. اشتغلت كتير وكل مكان لازم يكون في حد وسخ.. نوح زيهم، بس على الأقل أوضح.. خيرني بين الطلاق وإني أكمل معاه والشغل دا.. قبلت، لأنه كله بقى زي بعضه.

-نوح مين؟

دلفت فتاة سوداء الشعر، رفعته لأعلى كذيل الحصان، ترتدي قميصًا مهترئًا وبنطالًا من الجينز الأزرق، تضع يديها في جيوب سروالها الخلفية: نوح هو نفسه عزت زي ما فهمك.

وقفت الفتاة السورية: أحب أعرفك.. دي وصال، كانت فـ المطبخ وقت الخناقة إياها.. الشيف تبعنا، أكلها حلو جدًا، هيعجبك.

-أنتِ اللي نفسك مفتوحة على أي حاجه يا لارا.

قهقهت لارا: وفيها إيه؟.. أحرق دمي عشان إيه؟.. كله محصل بعضه.

أشارت وصال إلى لارا بينما توجه حديثها للأخرى: هتتعودي على ضحكها الدايم وإنشكاحها الأبدي، تقوليش عايشة فـ الجنة.

حطت فتاة ثالثة كفيها فوق أكتاف وصال، شعرها يشبه شعر لارا البني، وعيون مرحة: سيبيها تعيش يا ستي، أهو حد فينا يضحك بدل ما ينقلب قبر.

تقدمت الأخيرة منها: أعرفك بنفسي.. أنا شهد، وأنتِ؟

صافحتها بابتسامة باهتة: خلود.

اقتربت الأخريات منها، هتفت لارا مطلقة صفيرًا عاليًا: واااو، اسمك كتير حلو، زيك.

ابتسمت للغمزة التي انطلقت نحوها في مرح، ضربت لارا رأسها وعادت تتجه إلى السرير تحمل عنه الثوب وتقدمه إلى خلود: أمسكِ، الفستان دا عشان تلبسيه.. هو مفتوح شوية من فوق بس مالاقتش عندي غيره، هو واصل للأرض، لكن المقفولين من فوق كتير قصار.

أمسكت الثوب: مش مهم.

ربتت شهد على كتفها: ممكن تحطي شال إذا حابه، عندي شال لونه هيليق على الفستان أوي.

فكرت وصال أن تخفف عنها ولم تدر أنها زادت الطين بلة: بكره هتتعودي، هو فـ الأول بس، كمان خلعك للحجاب صعب.. هتنسي مع الوقت.

دفعتهم لارا خارجًا، غير مهتمة لتأففاتهم: يلا يلا، خلوها تجهز، مش ناقصين نوح ولسانه الزفر.. هأجبلك يا خلود الجزمة والشنطة لما تخلصي لبس.

قبل أن تغلق الباب خلفها أطلت برأسها عبر شق ضئيل: ما تنسيش تاخدي الحبوب.

هتفت بدهشة: حبوب إيه؟

ـحبوب منع الحمل، هتلاقيهم فـ الدرج جنب السرير.

ـحمل؟؟

رددت بشرود فيما تتحس بطنها المسطحة باليد الفارغة، زفرت لارا وعادت تدخل إلى الحجرة من جديد، أحكمت الباب خلفها واقتربت من خلود تقف خلفها وتشد على كتفها بحنان ومواساة: ما تقلقيش.. أنتِ مش حامل منه.

نظرت إليها عبر المرآة حيث تلاقت نظراتهم، نظرة الحيرة مع نظرة الخبرة، أوضحت بهدوء: كنت بتلاقي الأكل والشرب جاهزين دايمًا، بيكون هو خلاص حط الحباية.

أردفت تفهمها: الحمل هنا جريمة، ماينفعش واحدة تغلط وتعملها؛ لإن مصيرها مش هيبقى خير أبدًا.. فهمتِ؟

همهمت: هيحصلها إيه؟

عادت تنئ عنها وتدنو من الباب: مش مهم دلوقتي، نبقى نرغي بعدين.. اجهزي بسرعة عشان نوح لما بيتعصب مش بيشوف قدامه، هيشوط فينا زي القطيع.

تأملت نفسها في المرآة، خططت أن ترضخ حتى تحقق غرضها في النهاية، إما الهروب أو كحد أدنى قتله والإنتقام لنفسها، تحسست الكدمة البسيطة التي لا تكاد ترى في زاوية شفتها، أخبرتها لارا قبلًا أنه لا يستطيع أذيتها سوى في الأماكن المخفية عن الأعين، فجسدها هو ما يهمه ويهم زبونه ولا يقدر على الاقتراب منه بما يضره.

تحست لارا شفتيها وشفتها بكمدات الثلج حالما رأتها صباحًا، وقالت:

-دي أكبر وأقوى ضربة هتشوفيها فـ وشك، ما ينفعش يضره أكتر من كدا، هو اللي هيخسر قبل أي حد.

تنهدت عندما تذكرت أنه طلقها من هذا الـ عزت رسميًا وأمام القانون، وإن كان شخصًا لا تعرفه حتى وهميًا، لكن في المقابل أشترط عليها القبول بوضعها الحالي والنزول إلى العمل معهم، قبلت؛ فهي تعلم سواء قريبًا أو بعيدًا سيجبرها على ذلك، فإن أتى ولو برضا ظاهري منها أفضل من الشدة.. ستكون لها حريات أكبر.

***

سارت جوار رفيقتها وسط الطرقات، تشاهدان ما هو معروض بحثًا عن ثوب يلائم سلمى، ترتديه في حفلة الغد، دار الحوار بين الصديقتين بكل سلاسة وهدوء، إحداهما تتأكد من استقرار الأخرى في حياتها.

-الحمدلله يا سلمى بجد، ما تعرفيش مرتاحة قد إيه فـ الشغل الجديد، مدام سمية بتعاملني زي بنتها بالظبط، ومي مي بنت عسولة أوي.. هي صعبة شوية بس تستاهل أي تعب عشان ضحكتها الحلوة.

أخفت تذمرها الموشك على الظهور، لا تريد أن تفقد صديقتها مرة أخرى فأكتفت بإطلاق الوصايا على أذانها، تقبلت حياه ذلك بطيبة خاطر، تعلم حب صديقتها الشديد لها، وأنها تعاملها كابنة أكثر من صديقة.

-صحيح، آية ماجاتش معاكِ ليه؟.. والله كنا هنتبسط إحنا التلاتة أوي.

هزت كتفيها تلعق ما سال من قالب المثلجات فوق إبهامها: قولتلها.. بس قالت وراها حاجات مهمة عايزه تخلصها.. ما حبتش أغصب عليها.

قضمت من خاصتها: إممم، ربنا يوفقها.

اتزدردت ما بفمها بسرعة عندما صاحت بها سلمى: بصي بصي، الفستان دا تحفة.

أيدتها حياه: طب تعالي ندخل، يمكن يكون فيه حاجات أحلى جوا.

دلفتا إلى المحل الأنيق، يبدو عليه غلو الأسعار لكن أيًا منهما لم تهتم، الأهم الحصول على ما يناسب الحفل الكبير خصوصًا إذا قدمت العروس الجديدة إلى شركاء وأصدقاء زوجها، تنقلت كل واحدة في جهة مختلفة بعدما قضيتا على المتبقي من المثلجات.

انتهيتا بعد ساعتين، وقع خلالهما الإختيار على عدة فساتين تقلصوا إلى أربعة فقط، لم تستطع سلمى التخلي عن أحدهم، حاولت المقاومة لكن إغراء شرائهم جميعًا كان أقوى من قدراتها، خرجتا وكل واحدة تحمل حقيبتين وقد تكللت المهمة بالنجاح.

***

تلألأت الأضواء الملونة في حبالها الممتدة على سياج الحديقة الأخضر فبدت كزهور في ريعان تفتحها، عج المكان بالموظفين المستأجرين لخدمة الضيوف، يجيئون ويروحون، البعض يصف صحون الطعام فوق الطاولات الممتدة بطول أحد أجناب الحديقة، وآخرين يتأكدون من ترتيب الطاولات الخاصة بالضيوف، والفرقة المسئولة عن عزف موسيقى هادئة تستقر في مكانها أسفل برجولة مزينة بشرائط ملونة وقماش أبيض حريري يتدلى منسدلًا على أجنابها في شكل ستائر معقودة، يتدربون على إحد المقطوعات الموسيقية كتجربة أخيرة.

وقفت ناهد من بعيد تتابع بعيونها الثاقبة، تتيقن بنفسها أن الأمور على خير ما يرام، تراقب الحديقة المزدحمة كخلية نحل في عمل دئوب، حلّت عقدة أصابعها تحاول أخذ أنفاس عميقة تقلل من توتر لن يتراجع إلا عند نهاية الحفل.

لم يصل إلى مسامعها الجدال القائم في الطابق العلوي بين الزوجين، حيث وقف ياسين أمام كادي ووجهه شديد الإحمرار من الإنفعال والحنق بينما تقف زوجته بكل إصرار على عدم الإنصياع مرتدية ثوب بحمالة واحدة يلتصق بجسدها كأنه طبقة جلد أخرى ثم ينزل باتساع مفاجئ بعد الركبة، أسفله قماشة لاصقة أخرى تخفي ما كشف من الأولى من نفس اللون تنتهي حافتها العليا عند عظمة الترقوة تاركة الرقبة بأكملها عارية، وتتناثر خصلات شعرها خارج حجابها المنزاح للخلف بضعة بوصات.

صياحه كاد يطيح بها أرضًا من فرط عنفه: مش قولتلك يا هانم لبس الكباريهات دا ما يتلبسش قدام الناس؟!

انفتح فمها على وسعه: كباريهات؟؟.. أنت بتقولي أنا كباريهات؟؟.. ياسين! حاسب على كلامك معايا، وأعرف كويس أنت بتتكلم مع مين.

كز على أسنانه، أغمض عيونه لحظة يعد حتى العشرة قبل أن يفتحهما. حاول تهدئة عصبيته الموشكة على الإنفراط: روحي غيري يا بنت الناس، خلي الليلة تعدي على خير.

وضعت يديها فوق خصرها متحدية: مش هأغير يا ياسين وريني هتعمل إيه بقى؟!

استفزته لدرجة لا تصدق، دفعته أكثر مما يستطيع التحكم، اندفعت يده تنتش الحمالة الوحيدة من فوق كتفها، برّدت صرختها الحانقة من ناره، طالبها متجهًا إلى الباب: إحمدي ربنا إني ما قطعتهولكيش كله وجبته الأرض.

يعلم أن ما فعله لا يقل ضررًا عما هددها به بالنسبة إليها، سمع هتافها الحانق وصراخها اللاعن خلفه ولم يبال، أغلق الباب خلفه بعدما تركها، فلتفعل ما تفعل.. لكن هذا كفيل بأن يعلمها الدرس بعدما بُحَّ صوته من كثرة تكراره على جهازها السمعي ضعيف الوظيفة أو بطيء الإرسال لعقلها البليد.

اصطدمت عيناه بزوجته الأخرى في أتم استعدادها وقمة جمالها، خلبت لبه بما بدت عليه، ثوب زيتوني يبرز لون عينيها العسلية بشدة، يتهدل كما بدى جزء منه كشال حتى منتصف ذراعيها، طبعت فوق صدره ورود صفراء صغيرة تكسر حدة اللون، حجاب ملتف بإحكام ينهر إحدى الخصلات البنية من الإطلال، تمنى للحظة أن تتعلم منها كادي فن اختيار الملابس فلا تتعب قلبه معها. نظرة اللوم والعتاب صدمته، ماذا فعل حتى يستحقها؟

أدارت له ظهرها وعادت تدلف إلى غرفتها من جديد، رغم أن إتجاه جسدها كان ناحية الدرج استعدادًا للهبوط، هز كتفيه يهم بالنزول.

***

دنت آية من شقيقتها بابتسامة فرحة، وقفت قربها حتى انقطع سيل الضيوف وتوقف الترحيب برهة من الزمن، همست إليها بسعادة لم تخفيها العدسات الشفافة التي ترتديها خلال السهرات عوضًا عن النظارات المعتادة: أخيرًا هترجعي تاني.

أومأت دون أن تنظر جهتها والابتسامة الرسمية تعلو شفتيها تجاه الضيوف: شوفتِ الشنط؟

-أيوه، شوفت عنبر بترص الحاجه فـ الدولاب.

نظرت إليها بطرف عينها: لازم أرجع عشان في حاجه بتحصل، وناس بدأت تتغير ومش بتقول السبب.

ازدردت آية ريقها بصعوبة وشكرت ربها على إقبال ضيف جديد تتلهى معه أختها، ابتعدت بعد إلقاء ابتسامة مرحبة لشخص لا تعرفه بينما تمهل قليلًا يتحدث إلى ناهد مثنيًا على جمالها وأناقتها، تقبلت حديثه بهدوء غير مهتم، ليست بحاجة إلى كلمات تؤكد ما تعرفه مسبقًا من مرآتها.

سألها صلاح متكلفًا الحديث في العمل مادام سيطيل الوقف برفقتها: وأخبر الشغل إيه؟

-الحمدلله، كله تمام.

-حليتوا مشكلة المدير المالي؟

رفعت أحد حاجبيها فأوضح: ما تنسيش إن في شغل بيني وبينكوا، أصغر التفاصيل فـ أخباركوا بتكون عندي، يمكن حتى قبل ما تعرفوا إن في مشكلة.

أشاحت بنظرها عنه وأتخذت من تحية بعض الضيوف مهربًا، استأذنت مبتعدة فيما يتآكل داخلها، ستشدد الرقابة من الغد على الموظفين، ومن ستشك في وفائه سيتم طرده بلا رجعة، هكذا أخبار شديدة الحساسية إذا تسربت قد تودي بالشركة إلى الهاوية، ويخرج نطاق الأزمة من مجرد مشكلة في أحد الأقسام.

***

جلست على حافة الفراش تحدق بثوبها الممزق وتذرف الدموع على ما حدث، لم تفكر أنه سيتجرأ ويفعل هذا معها، لطالما استفزته ولم يصل بينهما الأمر إلى ذاك الحد، لقد أفسد ثوبها ولا تريد ارتداء ما قد يتم تمزيقه مرة أخرى؛ فياسين أصابه الخبل ويفعل ما لا يصدقه عقل.

سمحت للطارق بالولوج ظنًا منها أنه خادمتها الوفية، رفعت رأسها فوجدت سلمى تقف بكامل زينتها وأناقتها بعدم أغلقت الباب، تأججت النيران بداخلها، نهضت على قدميها وصاحت بها: إيه اللي جابك؟؟.. جايه تشمتِ فيا مش كدا؟.. انبسطي أهو مش هأحضر حفلة الترحيب بجانبك.. أحسن والله، خلي الناس يعرفوا الفرق بين اختيار ياسين واختيار أخته المبجلة.

أدعت سلمى أنها لم تسمع شيئًا مما قيل، مدت ذراعها بالقماش المثني فوقه بنظام يحافظ

على انبساط نسيجه،قالت بأقصى درجات الهدوء: اتفضلي.

ضاقت عيونها وقطبت حواجبها ثم سألت بحذر: إيه دا؟

-فستان، ألبسيه بدل اللي اتقطع.

أصدرت صوتًا يدل على سخريتها: ودا بقى لبستيه كام مرة، ولا دلقتِ عليه إيه؟

وضعته فوق الفراش: تقدري تشوفيه وتحكمي بنفسك، أنا مالبستوش ولا مرة، لسه جايباه جديد.

همهمت بعدما تفحصته، فقد كان شديد الجمال وسليم مئة بالمئة: أنتِ بتعملي معايا كدا ليه؟.. دا المفروض تفرحي عشان ماكنتش هأحضر حفلتك.

لوت جانب شفتيها: وأخسر حرقتك من جوا لما تشوفيني وأنا ماسكة فـ دراع جوزك؟.. ولا تحبي أنتِ الناس تقول إن العروسة الجديدة قاسية لدرجة إنها حبست مرات جوزها الأولانية فـ الأوضة ومنعتها تحضر الحفلة زي ما حصل مع سندريلا؟

ضربت كادي الأرض بقدميها غيظًا مما قالته فيما دارت سلمى متجهة إلى الباب وقبل أن تغلقه خلفها: هتلاقي معاه الحجاب المناسب ليه.

ثم أردفت منهية الحديث بشكل قاطع: لو مش حابه تلبسيه، ما تلبسيهوش.. ولو مش حابه تحضري الحفلة، بردو على راحتك.

هدأت كادي ونظرت إلى الثوب بتردد، رفعت عيونها إلى الباب المغلق تستغرب تصرفات ضرتها، لابد أنها مجنونة أو شديدة الذكاء فوق الطبيعي، لكن بكل الأحوال لديها سبب وجيه لفعلتها، هزت كتفيها بلا مبالاة وسحبت الثوب وبدأت تعده للارتداء.

***

اتجهت سلمى إلى شقيقة زوجها التي أشارت إليها حالما رأتها، بدأت تقدمها للضيوف بلقبها وصفتها الجديدة في المجتمع، زوجة ياسين. تقبلت التهاني والمباركات برحابة صدر، ابتسامة على شفتيها لا تفارقها، انسحبت ناهد لترى بقية الضيوف بعدما تأكدت من مهارتها في إدارة دفة الحوار.

وقف ياسين على مسافة ليست ببعيدة، يحدق في زوجته الجديدة بتعبير متفاجئ، سلاستها في التكلم مع أناس لأول مرة تراهم أبهرته، جذبت إليها أذان السامعين وجلَّ انتباههم، أزاح بصره عنها ليصطدم بكادي وقد هبطت بعدما بدلت ثيابها، تشبه الدمية في ثوبها شديد الإتساع من الخصر وحتى الأرض، جزءه العلوي الأبيض بعثرت فوقه فصوص زجاجية، والسفلي اتخذ لونًا مموجًا من البنفسجي القاني، حجاب لُفّ بطريقة عادية شديدة البساطة، بدت أجمل من أي مرة أخرى رأها فيها.

استفاق على نداء ضيفه فعاد إليه بابتسامة معتذرة، لكن أثناء ذلك لمح نظرة سلمى إلى ضرتها، لا تحمل الحقد أو البغض أبدًا، حتى الغيرة منها كأنثى تحاول التفوق على جمالها لم يجد، فقط نظرة رضا وراحة قبل أن تعود لإكمال الحديث الذي بدأته مع زوجة أحد موظفينه المهمين.

تابع الحديث مع إحدى سيدات الأعمال ضمن الدائرة المتحلقة حوله، وداخليًا يفكر في جمال سلمى الداخلي، لقد شنقت كل ما رساه في ذهنه عنها، ليست بهذا السوء الذي اختلقه حولها ليحمي نفسها من هالة سرها...

طلبت المعذرة من من كانت تقف برفقتهم وأسرعت تحث خطاها تجاه القادم الجديد، تعلقت بعنقته وقبلته متمسكة به بشدة، تضحك تغمره بشوقها الشديد، تشممت رائحته المعبأة بنسيم أهلها وعطر والديها، وشجرتها الأفريقية.

جذب ذراعيها من حول رقبته بروية مبعدًا إياها عنه، وقف أمامها ضاحكًا يعيد ضبط خصلاته التي بعثرتها بأناملها المرحبة به كطفل صغير عاد من أول يوم له بالمدرسة، شاركته الضحك معتذرة تساعده في ترتيب نفسه، أقبل ياسين من خلفها يرحب بنسيبه.

عيون كانت تتبعها فيما تتعلق بذراع زين، تجرع صاحب العيون العسلية من كأسه بتمهل ونظراته معلقة بذات الثوب الزيتوني أينما سارت.

أخترق طبلة أذنه صوت رفيع يهمس بحنان: إزيك يا ماجد؟

رفع رأسه بحدة لكنه عاد إلى صومعة الجمود، أجابها مكملًا تناول ما بيده: إزيك أنتِ يا.. مدام.

تقدمت خطوة لتصبح في مواجهته، تنهدت بأسف: مش قادر تسامحني بردو مش كدا؟

نظر إليها أخيرًا: أسامح إيه؟.. الهانم بجلالة قدرها هتأذي واحد زيي فـ إيه؟

حاولت التحكم في نفسها حتى لا يعلو الصوت ويصل إلى الأسماع: أنت عارف قصدي كويس يا ماجد.. ما تعملش نفسك عبيط وتستعبط عليا.

أنزل الكأس من فوق شفتيه وأشار بسبابة يده الممسكة بالعصير: هي دي ضرتك الجديدة؟

نظرت خلفها، أومأت مؤكدة حدسه، تابعاها لفترة تقدم لشقيقها العصير، جعل سؤاله الآتي النيران تتأجج داخلها: مين اللي معاها دا؟

-وأنت مالك مهتم بيها كدا؟

قوس شفتيه هازئًا: مش لازم أعرف مين اللي قدرت تفوز على كادي غندور.

سألته بتشكك: متأكد دا كل اللي يهمك فيها؟

رفع أحد حاجبيه واعتدل بحدة: ولو أكتر من كدا هتعملي إيه؟.. الحبتين دول تعمليهم على جوزك يا مدام مش عليا.

مدت يدها تتشبث بأكمامه متوسلة بعيونها الدامعة، سحب ذراعه مسرعًا ثم تلفت حوله كي يتأكد أن أحدًا لم يلحظ ما حدث، عاد إليها ناهرًا: كادي!، اعقلي أومال.. روحي يلا لجوزك وما تشغليش بالك بحاجه تانية.

تجاوزها إلى المائدة يضع كأسه ويتناول جرعة من الماء عله يبتلع المرارة التي تصاعدت إلى حلقه من جديد. بعدما تمالك زمام ذاته عاد يدور بمآقيه متجاوزًا وجوه المدعوين الكثر بحثًا عن وجه واحد حتى وجده، ظل واقفًا في الظلام يتابعه لعل الفرصة تأتيه.

وقفت سلمى جوار شقيقها تتحدث مع رجال الأعمال، وصل الحوار إلى البورصة وتذبذب أسهم عدة شركات، أدارت الحديث حيث جاء في ملعبها، قهقه أحدهم موجهًا تعليقه لشخص أتى يقف خلفها: معاك دماغ جوهرة، يا بختك يا ياسين.

ابتسم بلا فهم، محركًا نظراته بينها وبين محدثه: على إيه بالظبط؟

بوضح أكثر أجابه: مدام سلمى دماغها فـ البورصة تتاقل دهب، مش صعب أبدًا إنها عملت ثروة خاصة بيها من شغلها في البورصة بس.

تناول آخر طرف الحديث متدخلًا: أنا مش عارف إزاي مش بتستغل قدراتها فـ شركتك.

عاد الأول يتكلم: دا لو حصل.. مش بعيد الشركة تبقى عالمية.

عقبت ناهد بهدوء: شركتنا عالمية أصلا يا مستر صلاح.

اعتذر متراجعًا: مش قصدي يا أستاذة ناهد، كل الموضوع إن بدل ما تبقوا فـ الدور التاني هتطلعوا السطح.

أحمر وجه سلمى من المدح الزائد: شكرًا ليكوا على المجاملات دي.

التفت لها صلاح كأنها أتت من الفضاء: مين دي اللي مجاملات؟.. أنا مش بتاع كلام مالوش معنى ولا بأعرف أجامل.

أشار لمن حولهم مردفًا: حتى اسأليهم.

أيده الجميع مما عزز خجلها وتلون خديها، حدق بها ياسين دون أن يتدخل في الحديث مرة

أخرى، ابتسمت آية لما رأته على وجه سلمى فقررت إنقاذها، تقدمت وسط الحلقة وأشارت إلى شقيقها قائلة: يلا يا ياسين.. افتتح الرقص بقى، كفايه كلام عن الشغل.

أومأ ياسين وهم بالاقتراب من كادي عندما منعته ناهد بأظافرها المنشوبة داخل ذراعه، تطلع إليها مستفسرًا فأجابته من تحت أسنانها وابتسامتها التي لا تنزاح عن وجهها طول السهرة تثبت فوق شفتيها بقوة؛ حتى لا يدرك أحد ما تقوله:

-الحفلة دي على شرف سلمى، روح أرقص معاها هي.

دار ببصره حتى وصل إلى سلمى الواقفة على يساره، سألها أن ترقص معه، حدقت به كأنه مجنون وأتى يطلب منها الطيران، هزت رأسها بشدة: مش بأرقص.

تدخلت ناهد تزجرها: إيه الكلام دا يا سلمى؟؟.. روحي أرقصي مع جوزك.

تمسكت بموقفها بثبات: مش بأرقص يا ناهد.. أنا مش فرجة عشان الناس دي كلها تتفرج عليا وأنا فـ حضن جوزي.

نفثت من فتحتي أنفها مغتاظة: سلمى..

قاطعتها بتشدد: لا يا ناهد.

نظرت إلى ياسين مشيرة جهة زوجته الأولى: أرقص مع كادي لو هي حابه.

تركتهم مبتعدة عدة خطوات تتفادى تأفف ناهد.

توسط ياسين المساحة المخصصة للرقص ممسكًا بخصر كادي وسط الحديقة وحلقة واسعة من الناس تحيط بهم يراقبون الرقصة ويهيمون مع الموسيقى، تعلقت عيونها بهم والهم يملؤها، مال زين بجانب رأسه عليها وعيونه تترقب حركات صهره:

-مش عارف إيه العلاقة الغريبة اللي بينك وبين جوزك دي.

نظرت إليه بدهشة، فأكمل دون أن يحرك رقبته إليها مترصدًا صهره: ما تفتكريش إني عبيط عشان ما أخدش بالي م الصدمة اللي ظهرت على وشه لما عرف إنك شغالة فـ البورصة وعندك ثروة صغيرة منها منفصلة عن العيلة نفسها.

بللت شفتيها وبدأت: زين..

-ششششش، لو هتكدبي أو تداري يبقى ما تتكلميش، بس خلي فـ بالك لو داسلك على طرف هأفعصه يا سلمى.. وقتها مالكيش قعاد فـ البيت دا.. فاهمة؟

تنهدت: ما تقلقش، ماحدش يقدر يدوسلي على طرف.

نظر إليها مستهزئًا كأنه يسألها وإن حدث فماذا ستفعل، أشاحت بنظرها بعيدًا وقررت الخوض في حديث آخر يبعدها عن المستنقعات التي يتصيدها ابن والديها، همست إليه تطلعه: شوفت حياه.

دار إليها بكامل جسده غير مصدق: كلمتيها؟

أكدت ضاغطة على كل كلمة: كلمتني وقابلتها وخرجت معاها كمان.

أمسك بذراعها مشددًا عليه: من إمتى؟

-شهر تقريبًا.

تركها: ولسه فاكره تقوليلي دلوقتي؟

-ماكنتش قادرة اتكلم، حالتها كانت صعبة أو الأصح حالتي بعد ما شوفتها وعرفت اللي حصل هي اللي صعبة.

سألها باهتمام: حصل إيه؟

خافت من المتلصصين فأشارت إليه كي يتبعها إلى مكان منعزل نسبيًا حتى يتحدثوا بأريحية أكثر، تبعها في صمت مدركًا صحة تفكيرها. بعدما وقفا خلف شجرة في طرف الحديقة روت له كل ما سمعته من حياه، وأنتهت بما قررت فعله في حياتها وكيف استقرت أوضاعها.

شهق بعنف: غبي، محمود دا غبي.. والله ما هيرحمه من إيدي حد، لما أشوفه بس.. طب وإيه اللي شغلها فـ بيوت الناس؟، لو محتاجه حاجه قوليلي وأنا مش هاتأخر.

ربتت على ذراعه باسمة: عارفه يا حبيبي، هي عايزه تستقل بنفسها، شايفه إنها غلطت ولازم تتحمل النتيجة.

-عايز أشوفها.

رفضت: أنا قولتلك عشان كنت قلقان زيي بالظبط عليها، مش حابه أدخل فـ حياتها عشان ما ترجعش تهرب وتخبي عليا تاني.. لو سمحت يا زين سيب الموضوع يمشي بظروفه من غير تدخلات.

تنهد وأومأ موافقًا لكنه علق بجدية: بس هتديني عنوان المدرسة والست اللي هي قاعدة عندها والتانية اللي بتهتم ببنتها دي.. لازم اتأكد إنهم مش هيضروها.

اتسعت ابتسامتها وقبلته: ربنا يخليك يا أحن أخ فـ الدنيا، الحمدلله إنك مش زي محمود وإلا كنت دبحتك بسكينة تلمه.

تحسس رقبته مازحًا: أه يا رقبتي.

قهقهت وسمعته يسألها بترقب: وشادي.. ما تعرفلهوش طريق؟

هزت رأسها بأسف: لا، لما خرجت من البيت كانت فـ عربية وهي ما تعرفش المكان، ولما هربت من التاني دا ما فكرتش تبص على حاجه، كان همها كله تبعد على قد ما تقدر

تفهم ما قالته لكنه شعر بالأسف، عقد العزم على الوصول إلى ذلك الحقير مهما كلفه الثمن، لن يهرب بما فعله بحياه وسواها من الفتيات.

ابتعد عن سلمى حتى يجيب على الهاتف، حدقت في السماء تشاهد النجوم المنطفئ نورها إلى جوار ضياء البدر في كبد السماء، استغرقتها الأفكار بعيدًا لم تسمع تكسر الأغصان ووقع الأقدام المقتربة، سمعت حشرجة رجولية: السماء فـ أجمال أوقاتها إنهارده، ليلة الأربعتاشر.

نظرت إليه بحذر، تحاول التأكد من خاصيته، تقدم أكثر إلى دائرة الضوء حتى يسهل عليها المهمة لكن بلا جدوى: أعرف حضرتك؟

أومأ مخفيًا قبضتيه في جيبي بنطاله الحالك: نسيتِ المنديل والأكياس اللي وقعتهالي.

صمتت برهة تتذكر ثم صاحت: هو حضرتك جارنا؟

أكد معلوماتها معرفًا عن نفسه: ماجد بدران، مصور فوتغرافي حاليًا ومصور عارضات أزياء سابقًا.

ابتسمت مقدمة نفسها بالمثل: سلمى السقا، تقدر تقول أعمال حرة ههههه.

أشار بإبهامه إلى الحفلة: مرات ياسين التانية.

انتشلها شقيقها من الموقف الحرج الذي تسببت به لنفسها. وقف زين جوارها يحدق في القادم متحفزًا، قدمت كل منهما إلى الآخر ولسبب غير معروف تصاعد التوتر في الجو، دنت منهم آية تسأل عن عذر سلمى للتغيب، لاحظت ماجد فاقتربت ترحب به: بقالنا فترة ما شوفنكش يعني يا ماجد؟

أومأ باسمًا: كنت مسافر فـ شغل، رجعت من شهرين بس كنت بأحضر حاجات فما ظهرتش كتير.

-مافيش معرض قريب؟.. متشوقة أشوف آخر الصور، خصوصًا بتاعت البحر والرملة، بجد ترد الروح.. لحد دلوقتي الصورة اللي اشترتها منك السنة اللي فاتت فـ أوضتي، بتسحب مني كل الطاقة السلبية من جمالها البسيط.

استدارت إلى سلمى تشركها في الحديث: فاكرة يا سلمى الصورة اللي فوق سريري؟

-فاكراها طبعًا، وعجبتني جدًا.

اتسعت ابتسامة ماجد مع ظهور بريق غريب في عيونه: دا شرف ليا.

-شكلك موهوب ما شاء الله.

اكتفى بانحناءة خفيفة من رأسه، أمسك زين بذراعها وحاول اجتذابها بعيدًا بحجة رغبة والديها في التحدث معها، استغربت سلمى تصرفه فكان من الممكن لهذا الأمر أن ينتظر، استسلمت له واتجهت إلى داخل المنزل بعيدًا عن الصخب تكلم والديها بسعادة، تروي لهم فرحتها بما تفعله يوميا، لم تنتبه لوقوف أخوها جانب زجاج

النافذة يتحدى الآخر بعيونه إن حاول الاقتراب منها. التوت شفتي ماجد بسخرية وانسحب من الحفلة معتذرًا لأصحابها.

***

هبطت متمهلة بكسل، تتمطأ ثانية جسدها إلى الخلف بشدة تحاول كبح تثاؤبها، انضمت إلى الوحيدة التي استيقظت مبكرًا بعد ليلة الأمس الطويلة، وقد أعان الجميع أن اليوم عطلة الأسبوع، فمزيد من النوم يجدد النشاط ويريح من تعب الأمسية الصاخبة، سحبت مقعدًا مقابلًا لها وحيتها منشغلة بصب الشاي في فنجانها.

نظرت من فوق الجريدة إلى زوجة أخيها: بالنسبة للي حصل إمبارح مش هأتكلم فيه، أنتِ بإيدك اللي زقتيهم لحضن بعض.

علقت ساخرة قبل أن تبدأ في قضم فطورها: على أساس إنهم مش فـ أحضان بعض ليل نهار.

تجاهلت الموضوع ودخلت في الأهم: سمعت إمبارح إنك شغاله فـ البورصة.

زمت شفتيها: ما أنتِ كنت عارفه من زمان.

-كنت فاكراها هواية.. مش شطارة.

-هتفرق معاكِ يعني؟

-أيوه، سلمى المدير المالي طلع واحد مرتشي ومستهتر، كان هيوقع الشركة بس الحمدلله إننا قدرنا نثبت عليه بالأدلة الكلام دا وهو دلوقتي برا الشركة، أي نعم ياسين رفض إنه يسجنه عشان الراجل استعطفه، بس المهم موقف الشركة دلوقتي..

أضافت بعدما جذبت انتباه سلمى الكامل: عايزاكِ تيجي تحطي خطة للقسم المالي وتبقي أنتِ المدير المالي للشركة.. لازم نعدي الأزمة دي فـ أقرب فرصة.

ارتشفت من فنجانها: إمممم، وتفتكري ياسين هيوافق؟

التمعت عينيها خبثًا: دا هو بنفسه اللي هيطلب.

فهمت إيحاءها فجارتها: يبقى ولا كأني سمعت حاجه.

ضحكتا سوية حتى انضم إليهم ياسين، جلس في مقعده يسأل عن سبب هذه الضحكات، أخبرته ناهد سببًا تافهًا بلا مبالاة، انسحبت سلمى متحججة بإحضار المزيد من الخبز وتجديد الشاي البارد، شرع يتناول فطوره ويتصفح الجريدة الأخرى، مهدت ناهد الحديث: شوفت سلمى طلعت خريجة اقتصاد وعلوم سياسية.

اكتفى بهزة من رأسه فتابعت: ممكن نستفيد منها فـ الشركة، أنت عارف المدير المالي واللي حصل معاه، وإحنا بندور على بديل، وأكيد مش هيبقى في أحسن من مراتك.. غير كفائتها هي محل ثقة عن أي حد.

وضع جريدته جانبًا: كفاءتها دي مش متأكد منها، أنتِ عارفه نظام المجاملات فـ الوسط بتاعنا بيبقى إزاي.

-ولو، أدينا هنجرب، وأكيد مهما كانت سيئة مش هيبقى زي الزفت اللي مشي.

-خلاص اللي يريحك، سبق وقولتلك أنتِ المسئولة عن الموضوع دا.

عادت تنشغل بالجريدة: تمام، ماتنساش بقى تبقى تكلم سلمى.

هبط فكه السفلي مصدومًا: وأكلمها أنا ليه؟.. مش فكرتك؟.. كلميها أنتِ.

رسمت البراءة والسذاجة في نظراتها بحرفية، رفعت حاجبيها مندهشة: أنت جوزها يا ياسين، نسيت ولا إيه؟؟.. يعني أقربلها مني وأكيد لما تيجي منك أحسن.

مالت على المائدة بعيون كالصقر مردفة بصوت مهدد أكثر منه متساءل: أنت مقسم الأسبوع إزاي بين الإتنين؟.. إمبارح كنت مع كادي، إنهارده هتنام مع سلمى مش كدا؟؟

تنحنح مزدردًا ريقه بصعوبة، قدمت سلمى بضحكتها ومزاحها تخرجه من مأزقه، علقت على آخر جملة سمعتها بعفوية مصطنعة: طبعًا يا نوني، إنهارده بتاعي أنا.

ثم طوقت رقبة ياسين بقوة تضغط عليه تحجب عن رئتيه الهواء: مش كدا يا يويو.

ربت على ذراعها بقسوة وأسنانه تتلألأ في ضحكة سمجة: طبعًا طبعًا.

غمزت سلمى شقيقة زوجها من خلفه عبر الطاولة، رفعت ناهد الجريدة أمام وجهها تخفي ضحكة أوشكت على الفلات من بين شفتيها.

استيقظت كادي من نومها أخيرًا وهبطت تتناول إفطارها، سحبت كرسيًا وجلست عليه شاردة، وجهها منقلب، مزاجها عكر، بلا مكياج على غير العادة. نظر إليها ياسين بحذر، لم تعلق وتقيم الدنيا حتى بنظراتها حين رأت سلمى تطوقه.. فقط لم تهتم.

تراجعت عنه سلمى تجلس مكانها وتتابع تناول طعامها وعيونها تراقب نظراته المعلقة بأخرى، كتمت أنين قلبها بلقيمات دستها بين الشفاه علها تلهي الذات عما تشاهده، للحظة فكرت أنها مهما فعلت لن تحصل منه على شيء سوى اللا مبالاة، لكنها عادت ترفع معنوياتها، فالعمل بالشركة سيكون سبيلًا ممهدًا للبقاء أمام ناظريه أكثر من الأخرى، لن تضيع الفرصة من يدها مطلقًا.

***

اتصل سعدان بقرينه الشيطاني خلف يحثه على التحرك؛ فقد مضت مدة طويلة دون جديد، طلب منه الأخير التريث وأخذ الأمر بروية، ليس المهم كم يستغرق من الوقت بل النتيجة النهائية والقضاء التام على أقرب الأخرين إليه وألد أعدائه.

-على مهلك يا سعدان باشا، أنا مستني الفرصة المناسبة بس.. سيبني أتكتكلك بمزاج.

-ماشي يا سيدي، خلينا وياك لما نشوف آخرتها.

أغلق الخط واستغرقته أحلام اليقظة، يفكر في شقيقه حينما تهشم رأسه القوي مصيبته الجديدة، ويأتي إليه منكسرًا زاحفًا على قدميه، اتسعت ابتسامته وأغمض جفنيه مستمتعًا بما يدور في خلده.

***

لم ينتبه إلى الأقدام المتحفزة التي تقبل عليه، يد قبضت على ساعده، اسقطت فأسه وأدارته حول نفسه، لم يكن قد تمالك دهشته حين أرقدته لكمة عنيفة فوق وجهه أرضًا، دنى مهاجمه وأمسك تلابيب جلبابه بقبضة والأخرى تتوعده.

صاح به زين وأسنانه تطحن بعضها: أنت إيه يا أخي؟!.. ما بتحسش؟.. سيبت أختك لحد ما خليت كلاب السكك تنهش فيها، خلتها عايشة زي اليتامى وأهلها على وش الدنيا.

أوقف رئيس العمال من حاول الاقتراب لفصل الاشتباك، يهشهم بذراعيه إلى بقعة أخرى من الأرض بعيدًا عن الحديث الدائر حتى يستقر الوضع بين الصديقين والشريكين.

حدق محمود في صديقه ببلاهة، جلس مستندًا على الأرض بكفيه يلتقط أنفاسه المتسارعة بما يسمع وبعد الضرب المباغت: قصدك إيه؟

هزه بعنف: قصدي إن أختك شادي بيه علم عليها وهتك عرضك يا باشا.. مبسوط دلوقتي؟

تركه يقف على قدميه وملامح الاشمئزاز تملئ وجهه، نفض يديه بعدما صلب طوله، شرد دقيقة وسمح له زين بذلك لعله يعود إلى رشده، لكن صدمته حين سمع تمتمته الساخطة: أما أشوفها بنت الـ*** دي، والله نهايتها على إيدي.. وسخت اسمنا ومرمطتنا فـ الوحل.

صاح بوجهه يفيقه من غفلته: أنت إيه؟!!، جِبله!، بدل ما تقول هتلاقيه من تحت طقاطيق الأرض وتربيه على عملته عايز تقتلها هي؟؟

اشتد غضب الأخر فجابهه بالمثل: ما هي لو كانت متربية وعندها دم ما كانتش طاوعته ولا هربت من أهلها عشان واحد وسخ زيه.

دفعه من كتفه مهاجمًا: ما أنت لو كنت أخ بجد، كنت قدرت تحتويها وتكلمها بالعقل بدل الشخط والنطر.. والعصبية والحبس كان زمانها قاعدة فـ بيتها معززة مكرمة.. إنما نقول إيه، واحد بغل زيك مش قادر يحتوي عيله صغيرة.

لكمه يخرس كلماته التي تحاول إشعال الضمير الذي داوم على تنويمه في خيمة من العسل البارد: احترم نفسك يا زين، أنت جاي تبهدلني م الصبح وقدام اللي شغالين عندي وساكت عشان ما أكبرش الموضوع.. إنما لو استمريت على كدا مش هيهمني.

مسح الدم المنسال من جانب فمه ساخرًا: وأنت من إمتى بيهمك حد أصلا؟

نفخ بحدة: اللهم طولك يا روح!

-بص يا ابن الحلال، لو هوبت ناحية حياه ولا لمست منها شعرة نهايتك هتكون على إيدي، ومش هيفرق معايا العمر اللي قضيناه سوا.

ضحك مستهزئًا: خليهالك، اشبع بيها.. اعتبرتها ماتت من يوم ما رجلها خطت برا البيت مع الحيوان اللي هربت معاه.

انسحب زين والشفقة تملئ عيونه تجاه صديق أضاع شقيقته بسبب جفاه وشدته الزائدة، أمل عندما أتى أن تزرع كلماته عما مرت به أخته بعض الحنان أو تنبت شتلة من الأخوة داخله لكن بلا جدوى، فقد قرر أن يدعس فوق صلة الدم بينهما دون رجعة.

***

جلست في الصالة تتابع آخر الأخبار عبر الإنترنت، تتصفح المواقع وتتأكد من أخبار الشركات،

ساقتها أناملها إلى كتابة اسم شركة زوجها ترغب في التطلع على الأخبار المشاعة عنها، لن تتأخر في وضع أساسيات خطتها في تنظيم الوضع المالي للشركة وقتما يطلب ياسين منها.

حمدت ربها أن خبر المشكلة داخل الشركة لم يصل إلى السوق، لفتتها المعلومات المكتوبة أسفل صورة وضعت لزوجها يجلس فيها بملامح رزينة ورأس شامخ خلف مكتبه، لقط بصرها جملة عبر فيها عن حبه الشديد لكادي وتعلقه بها، يصف هيام أحدهما بالآخر في كلمات هي منتهى الشاعرية.

أحست بأنفاس تشاركها المكان، رفعت عيونها مقابلة ياسين بذاته يقف أمامها، اعتدلت في جلستها المائلة. تنحنح لا يدري من أين يبدأ: ممكن أتكلم معاكِ شوية؟

أومأت بصمت، جلس في مقعد مجاور يبحث عن كلمات ملائمة للبداية، يحاول تخمين ردها حتى يحفظ ماء وجهه، قال: إيه رأيك تيجي تشتغلي فـ الشركة عندنا؟

رفعت حاجبيها بشدة: وهأشتغل إيه «عندكوا»؟

شددت على الكلمة الأخيرة فأدرك خطأه، صححه دون أن يوحي بارتباكه: مدير مالي.

لمح رغبة أكبر في التوضيح من خلال نظراتها الثاقبة، أردف: المدير المسئول ساب الشركة ومحتاجين مدير مالي يجي مكانه.. موافقة؟

وضعت ساقًا فوق ساق مرفوعة الرأس: إمممم، تقدر تقولي تفاصيل أكتر؟.. زي وضع الشركة إيه؟

كظم غيظه، يتمنى أن يضرب نفسه بأقدم حذاء يملكه لأنه رضخ لشقيقته: الوضع فـ الشركة تمام، بس المدير كان فاسد ومرتشي فعمل مشاكل وبلبلة، عايزين نتجاوز الوضع على قد ما نقدر.. ممكن تبقي تيجي تشوفي بنفسك، لأحسن كلامي مايكونش محل ثقة.

وافقته: هأعمل كدا فعلا.

غادرها بعدما ألقى إليها نظرة تخبرها أنه يمنع كفيه عن إزهاق روحها بضراوة، ابتلعت ريقها بصعوبة خشية انقباضه الشديد الذي ظهر واضًا للعيان، تمددت فوق الأريكة باسترخاء بعد انصرافه، الابتسامة تملأ شفتيها سيظل أمام ناظريها ليل نهار، إن لم تستطع دخول قلبه وجعله يحكمه خلفها وقتها لن تكون بأنثى حقيقية.

***

جلست بين الأغطية تطالع كتابًا قبل النوم، إنارة الغرفة الخافتة بالكاد تنير فوق السطور حتى تستطيع قراءة الحروف المطبوعة فوقها، فتح الباب ودلف ياسين مرتديًا منامته، ألقت عليه نظرة سريعة تتعرف على الدالف رغم الظلمة، عادت بعد ذلك تكمل القراءة.

شعر بالحرج، لم يكن معتادًا على دخول هذه الحجرة في وجودها وقت النوم، لم ينفرد بامرأة سوى كادي، ارتبك ولم يدر ما يفعله، تذكر كادي ولا مبالاتها المفاجئة بمكان نومه أو مع من، حالها انقلب ولا يعرف له سببًا، جلس على المقعد في منتصف الغرفة.

كتمت ضحكتها، مظهره غريب وهو يجلس بالمنتصف معقود الكفين ونظراته تنظر إلى كل مكان دون أن يراه حقًا، أشفقت على حاله، لفتت إنتباهه: مش هتنام؟.. ولا هتروح الشركة بكره مطبق؟

نظر إليها ولم يرد، حاولت استفزازه فربتت على الجانب الآخر من الفراش: ما تخافش كل واحد ليه نصه من السرير.. كل واحد في (هاله).

أدار ظهره متجهًا إلى مكبس الضوء ليغلقه، حاول كتم ابتسامة هددت بالظهور، تسلل إلى الجانب الأخر بكل هدوء، ظهر كل منهما إلى الآخر. لم يأت النوم بسهولة، سهرا قليلًا شاردين في أفكارهما الخاصة وألفتهما التي زادت فجأة بزيادة الأمور المشتركة.

***

وقفت عائشة تتطلع إلى زوجها، يروح ويجيء بلا هدف، كسجين يترقب لحظة تنفيذ قرار الإعدام، وفجأة يقف بلا حول، ينظر إلى شيء غير موجود سوى بخلده، انزوت في أحد أجناب الغرفة تشاهده دون أن تقربه، يكفي ما ألقي عليها من سباب وإهانات عندما حاولت الاستفسار عن سبب تورم وجهه بالأمس.

لقد تزوجته لأنه كما قال أهلها رجل كامل متكامل، سيلبي حاجاتها ويجعل عيشتها هانئة، لكنه لم يكن كما قالوا، أسلوبه الجاف وقسوته في بعض الأحيان تقض راحتها، عوض ذلك بعض الشيء عائلته المرحبة والحنونة، وجدت فيهم تعويضًا عن الحنان المفقود من قبله ومن قبل أهلها حيث كانت إحدى خمسة بنات فلم يكن

الحنان متركزًا عليها. أنجبت منه طفلين توأمين وكذبت خبرة أمها في أن الأولاد يغيرون من والدهم بالكامل، لقد تغير لكن التغيير لا يظهر سوى مع أولاده وحدهم، كثيرًا ما تساءلت عن نصيبها منه متى يجيء؟

لم يلق لوجودها بالًا ولم يهتم، يعلم أنها تتلوى حتى تعرف ما يحدث معه وتخفف عنه حمله، لكن هذا الأمر بالذات لا يستطيع الحديث معها فيه، يدرك صحة اتهامات زين، هاج على حياه حينما أدرك أنها ستكرر ما فعلته أخرى من أجله ذات يوم ليقابلها باللهو لفترة ثم يصدها لتعود إلى حيث الذل والهوان.

حاول منع شقيقته من فعل ما فعلته أخرى قبلها من أجل رجل لا يستحق، حينما طلب شادي يدها من والده، أطلعه الأب على ذلك فأسرع بالسؤال، أدرك من قلة المعلومات المتاحة وتشكك البعض بهويته أنه نسخة أخرى منه كما كان في الماضي، قبل الزواج والاستقرار وإتخاذ قرار التعقل، منعها لكنها غبية وشديدة العناد، يوم أدرك هروبها تيقن أنه لم يعد هناك رجعة.

«خليك فاكر، هيجي اليوم اللي يتعمل فـ أهلك زي ما عملت فيا، هتلاقيهم مكسورين زي ما كسرتني، هيبكوا قد ما بكتني، الدنيا كما تدين تدان يا محمود، كما تدين تدان».

حمد ربه على انسحاب زوجته إلى غرفة الأولاد تسكت بكاءهم وتلبي حاجاتهم فيما الجملة الأخيرة تتردد عبر أذنيه مرارًا وتكرارًا بنفس الصوت الموجوع منذ أربع سنوات، صوت كان ينضح حيوية عندما سمعه لأول مرة، وتركه يأن ألماً.

ما مر لن يعود، كما أبكيت فستبكي، كما ظلمت ستظلم، مثلما خدعت ستخدع، فالأرض ليست مسطحة إنها كروية، يدور ما فعلت حتى يحين عليك الدور، فتصلك بنفس القوة.

قبض على رأسه بين كفيه، يحاول منع الذكريات من التدافع إلى ذهنه فتبدو مصورة أمام عينيه، أطلق صرخة مكتومة من القهر وأسرع يغادر المنزل، وقفت عائشة جانبًا تحمل أحد

طفليها تهدهده حتى يمتنع عن البكاء، راقبت خروج زوجها كالهارب الموشك على الجنون، دعت له بصلاح الأحوال وعادت إلى غرفة الأطفال تطمئن على الأخر متابعة هدهدة المحمول.

***

جلس خلف طاولة مكتبه يتفحص حاسوبه المتنقل، يقرأ الجديد ويدون ملاحظته التي سينقلها لمن يعملون معه أو يسلمها لمساعدته الشخصية كي تنظمها وتعمل على وصول كل معلومة للجهة التي تخصها، رفع نظره عندما شعر بدخول أحدهم.

أطلت من فتحة الباب بوجهها المبتسم، دخلت عندما لمحت الدهشة بعيونه، تأملها بزيها الجديد، زي عملي، تنورة فضفاضة وسترة بنفس اللون الكحلي، وقد كسر اللون الرسمي بقميص وردي وحجاب بنفس اللون.

وضحت محافظة على ابتسامتها: أنا قبلت الشغل فـ الشركة معاكوا.

رفع أحد حاجبيه: مش هتشوفي الوضع الأول؟

هزت كتفيها واقفة أمام مكتبه مباشرة: أنت جوزي وما أقدرش أرفضلك طلب.

غمزته ضاحكة، ابتسم مرغمًا رافعًا ورقة وجدها عند دخوله قبل ساعة واحتار في هوية كاتبها: أنتِ اللي حطتِ الورقة على مكتبي؟

أومأت تأكل شفتيها بخجل: أيوه.

أضافت محذرة: وهتلاقي كل يوم ورقة زيها على مكتبك طول ما أنا هنا.

لم تفهم نظرته، غريبة لكنها أرسلت داخلها رعشة أغرب وفرحة لا تقدر بثمن، استأذنت تعود إلى مكتبها لتبدأ العمل، حدق في الباب بعد إغلاقه مدة ثم رفع الأقصوصة أمام عينيه يقرأ ما كتب عليها.

«اللي بيحب حد.. مايقدرش يبعد عنه، حتى لو كام ساعة فاليوم».

***

بحثت عنه في أماكن جلوسه المعتادة بالكلية دون أثر، سألت عنه بعض رفاقه لا يدرون عنه شيئًا، احتارت في أمرها، أين ذهب وماذا حدث معه؟، فكرت وترددت في الذهاب إلى المكان الأثير لديه، اتخذت قرارها النهائي حين أعلن النهار موعد ذهابه.

شقت الطريق بسيارتها الفضية، تحاول بث الإطمئنان داخلها من ناحية سبب غيابه، تأمل في إيجاده بهذا المكان وإلا لن تستطيع الوصول إليه، هاتف لا يجيب وعقلها زاد انشغاله به، اعتادت على رؤيته حولها بشكل دائم وفجأة يختفي، أثار الربكة في روتين يومها.

أوقفت السيارة أمام المقهى المفضل عنده، لقد أحضرها من قبل إلى هذا المكان، لم ترتح له بل الأصح مقتته، لكنها احتفظت بهذا التعليق لذاتها حتى لا تفسد فرحته، وكما يتنازل عما يحب لأجلها فيجب أن تفعل هي كذلك في المقابل أحيانًا. دلفت تبحث عنه بلهفة، سألت عنه العامل فأخبرها أنه يجلس مع رفاقه منذ الصباح بالشرفة الخارجية والآن يتناولون الغداء.

حثت خطاها ولكن تسمرت، نظرت إلى إنعكاس خيالها في زجاج باب الشرفة المفتوح، عدلت من هندامها ووضعية نظاراتها وأثناء ذلك سمعت صدى اسمها يتردد على لسان أحد المحيطين بأمير، لم تستطع الحراك عندما سمعته يقول بسأم متأففًا: يا عم افتكرلنا حاجه عدلة، الواحد ما صدق يهرب منها يوم.

هتف صديقه مستغربًا: ليه يا برنس، دي حتى مزّة آخر عشر حاجات!

-مزّة إيه؟؟، أنت أعمى يالا، دا كفايه النضارات اللي بتحسسني إني بأكلم آبلة الناظرة.

غمزه: دي جمال كامن، بس اللي يخرجه.

-خليهالك أشبع بيها يا أخويا.

تدخل صديق ثالث في الحوار: وأنت إيه اللي رماك عليها مادام مش طايقها للدرجة دي؟

نفخ بملل: عايز أتخرج، الواحد قرف م الكلية دي، عايز أزيح همها عني.. أمي مش بتحل عن نفوخي بسبب الكام سنة اللي مقضيهم فـ المخروبة.

عاد يستفهم: وهي مالها بردو بالليلة دي؟

-يا غبي أفهم وفتح مخك معايا، هي أكيد مش هتقبل إن حبيب قلبها يبقى ساقط، مش بعيد تسربلي الامتحانات ولا تقولي المفيد بدل...

توقف عن إكمال حديثه عندما رأى عيني رفيقيه متسعتين في فزع، نظر إلى النقطة المرعبة خلفه، تراجع في مقعده لا يصدق أن من أغتابها سمعت غيبتها بأذنيها، أتضح ذلك من الدموع المكبوحة في مقلاتيها، فرت إحدى قطرات الندى عبر جفنين واهنين، عبرت الحدود وشقت طريقها عبر أخاديد بشرتها الملساء، لم تملك ما يمكن أن تقوله في هكذا موقف، استدارت مسرعة إلى سيارتها تعبر بها الطرقات بسرعة شديدة كادت السيارة تطير معها وترتطم بعوائق الطريق.

***

دلفت إلى المكتب بعدما طرقت الباب دون إنتظار الرد، نظر إلى الأكياس بيدها، راقبها تجلس وتفرغ محتوياتها مندهشًا، بعدما فرغت مما تفعله رفعت بصرها إليه أخيرًا، ابتسمت تدعوه إلى الغداء: تعالى يلا نتغدى.

أجابها بجفاء: بس زي ما أنتِ شايفه.. ورايا شغل.

نظرت إلى الأوراق المكدسة حيث أشار بلا مبالاة: الشغل مش هيطير لكن الأكل هيبرد.

تذوقت ملعقة من طبقها بتلذذ: إممم، جميل، بس أكيد أكلي أحلى، من بكره هأعمل غدا وأجيبه معايا.. لازم تتغذى يا حبيبي.

أنضم إليها مستشعرًا الجوع ينهش أمعاءه، جلس قربها يأكل دون النظر إليها، أخفت ابتسامتها خلف قضمة أخرى من الطعام، يقين وعهد أخذته على نفسها، ستجعله يقبلها زوجة له مهما حدث، بل ستصبح جزء لا يتجزء من حياته لا يستطيع العيش بدونه.

***

دلفت سلمى إلى المنزل تمسك رأسها من الألم، لقد عاودها الصداع النصفي مرة أخرى، نتيجة توتر أول يوم في العمل الجديد، استقبلتها عنبر فطلبت منها بلباقة فنجانًا من القهوة تحضره إلى غرفتها؛ عله يساعد في تخفيف الألم، قبل أن تتابع طريقها إلى الأعلى استوقفتها الخادمة بتردد، تريد إطلاعها على شيء لكن ليست متأكدة مما تفعله، حثتها متعبة من الوقوف ورأسها يكاد ينفجر وتوازنها مختل: خير يا داده؟

حسمت أمرها: ست آية رجعت من شوية وهي مش على بعضها، وعيونها مورمة زي ما تكون بقالها ساعات بتعيط، مش عارفه مالها ولما سألت ما ردتش عليا.. طلعت على أوضتها ومن ساعتها ما خرجتش ولا سمعت لها حس.

تنهدت فهي تدري أن بها خطب ما، تغيرت لكنها لم ترغب في التدخل بما لا يعنيها حتى لا تفهم بشكل خاطئ، ربتت على كتف المرأة ببسمة شاحبة: طب اعمليلي القهوة وطلعيهالي.. أفوق من اللي أنا في دا وأكلمها.. ما تقلقيش.

أومأت ثم أسرعت إلى المطبخ تفعل ما أمرت به، صعدت سلمى الدرج تتسند على سوره وتوشك على الإنهيار أرضًا، جرت قدميها واختل توازنها للحظة.. كادت تهبط ما صعدته تدحرجًا لولا جميل ذراع أسرعت تسندها، فتحت عيونها التي اعتصرتها من شدة الحريق المشتعل داخلهما، رأت تقطيبة ياسين المحدق فيها بتركيز لكنه لم يتفوه بكلمة، أسندها بصمت إلى غرفتها وساعدها على التسطح فوقه.

حاولت النهوض بعد دقيقة استرخاء لكنه دفع كتفيها إلى السرير مرة أخرى، سألها عما تحتاجه فأشارت إلى درج الكومود: عايزه الدوا.

أخرجه وأعطاها حبة مع كأس من الماء، ابتلعته شاكرة وفور إتمامها الكلمة دخلت عنبر بفنجان القهوة، طلبت منها بعد ذلك إغلاق عدة مصابيح قبل ذهابها، أطاعت منصرفة.

تجرعت القهوة مرغمة نفسها على إتمامها لتساعد في تخفيف الوجع بأسرع وقت ثم انزلقت بين ثنايات الفراش ناعسة، لم تبال بوجود زوجها، مفكرة أنه سيغادر فور شعوره بأنها غطت في سبات عميق، أغمضت عينيها ملتمسة الراحة.

****

وقفت أمامه بعدما فتح الباب تتأمله بشوق، عيونها تكتسحه تترجى المسامحة مما فعلته به سابقًا بلا عذر بائن، تركها تدخل لما لاحظ إصرارها على حديث يعلم أن لا فائدة منه، فما جرى قد جرى والندم والمبرارات لن ترجع الزمن قيد أنملة إلى الخلف.

جلست تنظر إلى كوب العصير المفضل لديها، ابتسامة باهتة ظهرت على شفتيها نتيجة الذكريات الحلوة التي سردت أمام عينيها، ظل واقفًا ينتظر انصرافها بفارغ الصبر، يجب أن ينتهى هذا الموضوع الآن وإلى الأبد.

بدأ الحديث عندما طال صمتها: إيه اللي جابك يا كادي؟

رفعت إليه نظراتها ساخرة: كويس إنك لسه فاكر اسمي.

-أنتِ عارفه كويس إني فاكره، حتى ناديتك بيه فـ الحفلة.. ولا نسيتِ؟

اعتصرت قبضتيها محاولة أن تستمد الطاقة منهما: كنت عايزه أجيلك من ساعة ما شوفتك فـ الحفلة بس ما قدرتش لحد دلوقتي.

أدار وجهه جانبًا وعلق: حضرتك مدام دلوقتي، وكل خطوة بحساب.. خصوصًا لو الخطوة زيارة خطيبك الأولاني.. فـ بيته.

تعجل مضيفًا: آسف، الخطوبة دي كانت فـ خيالي وبس..

أسرعت تقول: ما تقولش كدا.

تابع كأنها لم تتحدث وقد قست قسماته: والدليل على كدا إني رجعت من السفر عشان ألاقيكِ بتقضي شهر العسل مع واحد تاني.

انتفضت تقف أمامه مترجية بأعين باكية: ماجد.. ماجد لو سمحت اسمعني.

حدجها باحتقار: اسمع إيه يا مدام؟.. حتى لو سمعت هيفيد بإيه؟، ربنا يسعدك مع جوزك ويهنيكِ.

حاولت الحديث والنطق بما في جعبتها لكنه منعها بإشارة من يده، سبقها إلى الباب يفتحه على مصرعيه: الزيارة انتهت.. نورتي البيت يا مدام.

التقطت حقيبتها وهمت بالمغادرة لكنها توقفت قبل خطوة فاصلة، استدارت إليه بأعين متقدة بالمقط والحقد: بتطردني ومش عايز تسمعني عشانها مش كدا؟

قطب مطالبًا بتوضيح عن مقصدها، فسرت: سلمى.

لمحت توترًا فوق ملامحه مما أجج غضبها: عجباك صح؟؟.. بس خلي بالك مش هتبقى ليك.. فاهم؟؟

هتف بها فاغرًا فمه: أنتِ مجنونة.

تقدمت الخطوة الأخيرة إلى الخارج: هتشوف الجنان اللي على أصوله يا ماجد.

أحكم قبضته فوق ذراعها وعينه مسلطة داخل عيونها: كادي.. افهمي، اللي بينا أنتهى يوم ما فضلتِ غيري.. عدى أكتر من خمس سنين، مابقاش في حاجه موجودة عشان تتصلح.

تركها متراجعًا وقد عادت نبرته باردة: دلوقتي أنتِ على زمة راجل، احترميه واحترمي الرابط اللي ما بينكوا.

كتمت الكلمات المدافعة من الخروج وشرح ما تمر به، وما مرت به منذ سنوات، اكتفت بإدارة ظهرها والعودة إلى حيث تقطن في صمت، صعدت مسرعة تحمد الله أن زوجها لم يلحظ غيابها عن المنزل وعدم تواجده في غرفتهما. أتيحت لها الفرصة للتنفيس عن وجعها بالبكاء وسكب الدموع، تعلم أنها المخطئة، إنما ليست

المجرمة الوحيدة في تلك القضية، هي مجرد ضحية مثله، لكن ماجد رفض حتى الاستماع إليها.

***

تمطأت مستيقظة، تحسست رأسها بروية تتأكد أن الصداع قد وجد مخرجًا من متاهة رأسها، جلست تبحث عن ساعة تخبرها كم الوقت، لمحت ظلًا يتحرك في ضوء الغرفة الخافت، ذعرت حتى دلف ياسين إلى دائرة الضوء الشاحب. ظنته ذهب منذ مدة، تجاهلت بقاءه كل هذا في غرفتها وسألته عن الساعة، عندما أجاب اكتشفت أنها نامت ثلاث ساعات متواصلة مما يعني أن صلاة المغرب قد فاتتها، تأففت ولعنت هذا الوجع داخلها، وحاولت النهوض عندما تمهلها زوجها مستفسرًا: ممكن تفهميني إيه اللي حصلك وإيه الحبوب دي؟

-بيجيلي الصداع النصفي ساعات ودي حبوب مسكنة.

-وإيه السبب؟

-مالوش سبب محدد لحد دلوقتي، لكن غالبًا نتيجة ضغط عصبي ونفسي، يمكن عشان أول يوم فـ الشغل وكدا.. أرهقت نفسي زيادة.

-لو الشغل هيتعبك بلاش منه.

-لو أنت مش عايزني معاك فـ الشركة قول، ما تحولش تخليها تطلع من لساني أنا.

أمسكها من ذراعها بقوة: كان ممكن يحصلك كدا وأنتِ فـ الشارع كنت هتعملي إيه؟

سخرت: ما هو لو جوزي عنده دم، كان روحني بنفسه ما سابنيش أرجع البيت فـ تاكس.

نفض عنها يده كالملدوغ، منطقها صائب، يعملان في نفس المكان ويخرجان في ذات الوقت ولم يكلف نفسه عناء إيصالها صباحًا أو إرجاعها مساء، انسحب من الغرفة بصمت بعدما تمتم شيئًا عن سلامتها، نهضت تتوضأ وتصلي ما فاتها قبل أن تذهب إلى شقيقته تطمئن على حالها.

***

أدعت استغراقها في قراءة مقال بمجلة إجتماعية، تجاهلها دالفًا إلى الحمام يزيح عنه أعباء النهار، ذهنها شارد في مكان آخر.

عاد ووجدها على حالها، أدرك عدم رغبتها في الحديث عما يشغل ذهنها مؤخرًا، صعد إلى الطابق العلوي علَّ ضربه للمياه في المسبح تخفف من ضيقه، أصبح قليل الحيلة، معقود اللسان كما لم يكن من قبل منذ دلفت إلى حياته.

***

قابلت ناهد في الرواق أمام غرفة آية، سألتها عما بها، أخبرتها عن انخراطها في بكاء هادئ، دموع تتقطر دون نواح، أعين ناظرة عبر النافذة إلى السماء، كأنها تشكو همها لرب الأنام، حاولت سلمى تخفيف قلق الأخت الكبرى ووعدت أن تهتم بالصغرى، دلفت إليها بعدما يأست في إجابة الدق على الطرقات برفض أو سماح.

جلست أمامها فوق إطار النافذة البارز إلى الداخل، بدأت تتحدث إليها بما جرى معها خلال اليوم والتجديد الذي حدث بيومها، حاولت جرها إلى التكلم بلا جدوى، صمتت تطالع النافذة مثلها تحاول الجزم بما يمكن أن يصل بفتاة ناجحة كآية إلى هذا الحال.

بعد مرور ما يقرب من الساعة، دخل ياسين إلى الغرفة، نظر لسلمى يتبادل معها حديث صامت عبر أعين تتشارك القلق على نفس الشخص، هزت رأسها إشارة إلى فشل محاولاتها في معرفة الخطب معها، اقترب من شقيقته ووقف مطلًا عليها بطوله.

جلس قرفصاء بجانبها يفكر فيما يستطيع فعله من أجل ملاكه، شعر بشوكة تستقر في قلبه عندما أخبرته عنبر دامعة أثناء هبوطه إلى غرفته بعد مدة لا بأس بها قضاها في ضرب سطح الماء عن حال صغيرته الملائكية، اتجه إليها فورًا يرغب في هدم الدنيا بأكملها وكسر عنق من أزعجها.

وقف على حين غرة وأنحنى يحملها بين ذراعيه، نظرت إليه مندهشة، قال بعيون لامعة بالمكر: فاكرة كنت بأعمل إيه لما بتضايقيني؟.. وأنتِ ضايقتيني دلوقتي.

حث خطاه في مغادرة الغرفة، تعلقت برقبته وعيونها على أشد إتساع لا تدري أجن أم فقد عقله، سارت سلمى في أعقابهم؛ لكي تتأكد مما سيفعله، نظرة لأول مرة رأتهاأحداخل عيونه، لم تره يتهور من قبل، وقفت فاغرة فمها بينما توقف على طرف المسبح ناظرًا إلى أخته نظرة خبيثة قبل أن يلقيها فيه ويقفز خلفها بعدما تأكد من عودتها إلى سطحه.

أفاقت آية بهذه الحركة وتفاعلت مع جذبه لها من قدميها، فعلت بالمثل وبدأا يترشقان بالماء، تراجعت سلمى للخلف حتى لا ينالها من الماء جانبًا، حاولت آية إقناعها بالإنضمام إليهما لكنها فضلت الإنسحاب كي يتحدث الشقيقان بأريحية.

جلسا متقابلين على المقاعد طويلة القاعدة، التفت منشفة فوق كتفي كل منهما، بأخرى صغيرة بعثر ياسين خصلاته حتى يجففها، بعدما أنتهى سألها متفرسًا في ملامح وجهها المحدق بالسماء يتأمل النجوم عبر القبة الشفافة: إيه اللي حصل؟

-لما تحس إن حياتك اتقلبت، وإنك اتغيرت عشان حد معين، فجأة الحد دا يسيبك، رميت نفسك فـ البحر عشانه وأنت ما بتعرفش تعوم، هو يخرج ويسيبك غريق.. يعني لا سابك عارف إنك مش بتعرف تعوم فـ مش هتحاول، ولا ساعدك تخرج بعد ما كان سبب نزولك المايه م الأول والسبب فـ أمل وهمي.

حاول لجم نفسه عن هوية ذلك القذر الذي أذاق أخته طعم الألم، قبض يديه وسألها ممثلًا الهدوء: الغلط مش عليه، الغلط على اللي عارف إنه مش بيعرف يعوم ومع ذلك نزل المايه برجليه.

أومأت بشرود: صح، كان لازم يفضل خايف طول عمره، حتى من غير ما يحاول يتأكد إذا كان خوفه دا حقيقي، ولا ملوش أساس م الصحة.

قطعت عليهما سلمى خلوتهما بدخولها حاملة صينية بها عدة سندوتشات تعويضًا عن عشاء لن يستطيع أحد إتمامه وشراب دافيء يعوض المجهود المبذول في الماء، وضعت الصينية فوق الطاولة القصيرة بينهما وانضمت إلى جوار آية تربت على خدها بحنان: الحب مش بحر، الحب هو الموجة اللي بتخبطك وأنتِ فـ وسط البحر، وقتها يا الموجة تخبطك وترميكِ فـ القاع، يا تزوقك وتوصلك لبر النجاة.

أردفت بابتسامة صغيرة: وقوتك بتحكم بردو، يمكن موجة كانت جايه تكسرك واتحديتِ إرادتها بإردتك.. فـ رمتك على الشط، بس بردو مش معناها إنها موجة وحيدة اللي هتضربك فـ حياتك.. يمكن بعد الموجة اللي رامتك فـ القاع، تيجي واحدة تانية ترجع تطلعك على السطح.

غمزتها مكملة: إحنا بنحب مش عشان الحب محتاجنا، لا، عشان إحنا اللي محتاجينه، الحب بيدينا دفعة لقدام، بيعمل زوبعة صغيرة جوانا تقلب كيانا، فـ ما تحسيش إن الحياة فارغة، لأ دي متجددة، مجرد فكرة الحب جواكِ بتغيرك، مش مهم الحب دا اتقابل بحب زيه أو أكتر منه ولا لا.. المهم إنك حبيتِ، مش هأنكر إن تبادل الحب دا بيخليه أحلى بكتير وينقله من مكان لمكان ويزود قوته وحلاوته.. بس على الأقل ما نندمش على إننا حبينا، لإن دي فطرتنا السليمة.

دمعت عيون آية من جديد: أتغيرت عشانه، بس حاسه إني مش قادرة أكمل زي ما أنا ولا هأقدر أرجع زي ما كنت قبل ما أعرفه.

أرجعت سلمى خصلة مبللة من شعر آية خلف أذنها باسمة بحنان: يبقى هو كان مجرد محطة فـ حياتك، ربنا حطه بس كمرحلة انتقالية، وجوده هو اللي خلاكِ تتغيري، ما تقتنعيش إنه خارق لدرجة أجبرك على التغيير غصب عنك.. أنتِ كنت عايزه التغيير دا بس نقدر نقول كان ناقصك الزقة اللي تحوله من التفكير للتنفيذ على أرض الواقع.

تدخل ياسين في الحديث بعدما التزم الجانب المتابع منذ دخول سلمى به، شدد على ركبتي شقيقته: مادام التغيير دا مش للأسوء يبقى ليه رافضاه؟

-أنا مش رافضاه، بس هيفكرني بيه.

أشار إلى قلبها: عشان لسه مش مسامحاه، هنا معبي منه بالأوي، أول يصفى هينساه كحب ويفكر فيه على إنه سبب من الأسباب اللي ربنا وضعها فـ طريقنا.

أكملت عنه سلمى: هتفتكريه طول ما أنتِ بتحولي تغذي كرهه وعدم مسامحته جواكِ، لكن لما تقطعي الغذا بالمسامحة والمغفرة هتلاقيه مات.

تحركت مقلاتيها بين وجهيهما، وجوه مشجعة، دعمتها وقت حاجتها، ألا يكفيها العناية المحاطة بها أثناء أزمتها لتخرج منها؟، أفعال فعلت الأعاجيب لتعيد البسمة إلى وجهها، شفاه مازحتها وداعبتها كما نصحتها، عيون تبرق بالإهتمام والدعم، أيدي تربت على كتفها بحب وتضمها بحنان، تبثها القوة كي تقوم وتنهض من جديد، ابتسمت غير قادرة على التعبير بالكلمات،

طوفان المشاعر العذبة أغرقها واسكت الحروف الواهنة أمام قوتها، أومأت مؤيدة نصائح الزوجين.

أفاقت على تنبيهات شقيقها الجدية: بعد كدا لما تحبي، لازم تقوليلي، ما تعشيش مشاعر قبل ما يكون في رباط رسمي، ومش أي رباط.. الجواز، عشان ما تجهديش مشاعرك مع شخص ممكن ما يستحقهاش.

أخفضت رأسها بخجل واعتذرت من شقيقها، حثتهم سلمى على تناول العشاء الخفيف الذي أحضرته وقامت تهم بالإنصراف، قبل أن تهبط أول درجة من السلم شعرت بيد تمسك معصمها وتديرها حول نفسها، حدقت به متساءلة في صمت، ابتسم: مش عارف أشكرك إزاي على وقفتك جنب آية.

تزمرت معاتبة: آية أختي ويمكن أكتر.. مافيش داعي للشكر.

سخر: فيه غيرك ما عبرهاش بكلمة ولا سأل عن حالها حتى من بعيد.

وضعت يدها فوق كتفه مهونة بعدما فهمت من يقصد: ما تظلمهاش، حالتها مش طبيعية، حاول تعرف مالها.. بقالها يومين مش بتتخانق معايا، وأنا بدأت أتوغوش.

اتسعت ابتسامته أمام جمال بسمتها المازحة: يعني اعترفتِ أهو إن بينكوا خلافات.

هزت كتفيها: يعني عايز تقولي إنك ما كنتش متأكد من دا؟.. عمومًا أي إتنين بيشتركوا فـ راجل واحد بيحصل بينهم كدا وأكتر.

غير الموضوع: هأخدك معايا الشركة بكره.

رفرف قلبها لكنه قص أجنحته بما قاله تاليًا: ناهد هتشك لما كل واحد فينا يروح لوحده على نفس المكان.

أغمضت عينيها برهة قبل أن تجيبه ببؤس: لا معلش؛ بأنزل بدري عشان ألعب رياضة قبل الشغل، تصبح على خير.

أكملت هبوطها متألمة، وجود ناهد هو ما يدفعه إلى مشاركتها في أي شيء، دونها لما نظر بوجهها حتى، زفرت تطلب من ربها الصبر وطول البال على هذا الزوج العنيد ذو القلب اليابس أمامها.

عاد إلى شقيقته يتناول برفقتها عشاءه، باغتته بجملة قضت مضجعه قبل أن تتركه وتهبط إلى غرفتها: وردة الحب اللي أدتهالك سلمى، أقصر طريق عشان تخليها تدبل إنك تهملها.

أردفت بحزن: بس يا رب ما تندمش لما تموت بسببك وترجع تبكي.

التفتت إليه تحدق في وجهه الشارد بجمود، أضافت كتنبيه أخير لشقيقها الحبيب: بلاش تحسسها إنها عبء عليك وهم زيادة أتحط فوقيك.. وبعد كدا تضايق لما ما تسألش فيك.

***

تسللت إلى غرفة أختها الكبرى بعدما بدلت ثيابها وارتدت منامة داكنة، وجدتها تقرأ من المصحف بهدوء، انضمت إليها تحت الغطاء، اندست بين ذراعيها، انزلقت كلتاهما حتى رقدتا براحة، غطتا في سبات بين ذراعي بعضهما إلى طلوع النهار.

اعتصمت آية بالمنزل اليومين التاليين، تنشغل بأي شيء، تعتذر من أساتذتها عن تغيبها

متحججة بمرض ما أقعدها الفراش، كانت فترة هدنة من رؤيته وتفكير عميق بالفترة الماضية والنتائج التي تلت.

اعتاد ياسين على الكلمات الرقيقة المكتوبة فوق ورقة ملونة على مكتبه كل صباح، تحولت البطاقات من مجرد كلام عام إلى إثبات أن قلبها يدق بحبه، شعر بسعادة

ودغدغة في قلبه لكنه تجاهلها بعدما برر ذلك بأنه غروره كرجل فقط هو ما قد تشبع.

ظلت جملة اليوم تتكرر داخل أذنيه بطرب، وأمام عيونه بشجن.

«اخترقتني كالصاعقة فشطرتني نصفين.. نصف يحبك ونصف يتعذب لأجل النصف الذي يحبك».

تؤكد حبها له بالاهتمام الدائم بكل ما يتعلق به، كلماتها الصباحية تبعث داخله حماسة لإتمام اليوم، أحيانًا الورقة تكون مرفقة بسندوتش وفنجان من القهوة متأكد أنها تصنعهما بنفسها، فيتشمم رائحتها بهما، وطعم حلاوتها عبرهم، لا يحدث ذلك إلا عندما يغادر المنزل بلا إفطار، لا يهمه كيف تعرف وهي تسبقه في المغادرة، يكفيه أنه أصبح يتلذذ بهذا الإهتمام حتى تعود الخروج بلا إفطار ليأكل من يدها.

تباغته ظهرًا بغداء ما، يتنوع في كل مرة بما يحبه ويرغبه، تتناوله برفقته وتحدثه في كل شيء ولا شيء، لا يستمع إلى أغلب الحديث في بعض الأحيان، يكتفي بنظرات مختلسة من بين قضمتين أو شرود في بسمتها الدائمة. لا يستطيع إنكار مهارتها في العمل، لقد بدأت الأزمة في الإنحلال والوضع داخل الشركة يستقر.

****

يقولون أن الوقت كفيل بتغيير الإنسان بشكل كامل، أثبتت ذلك خلود، بعدما كانت تمقط المكان الذي وصلت إليه أصبحت تتمتع بلا مبالاة كافية لتقل العيون المترصدة لها. حاولت مرة الفرار لكنها وجدت الحراسة مشددة، استسلمت، تعلم داخلها أنها لم تكن تملك رغبة حقيقية في الهروب، رغم ما فعله بها نوح إلا أن قلبها مازال يخفق بحبه، تتمنى أن تفيق من هذا الكابوس عائدة إلى أيامهما معًا بشهر العسل.

جلست بثوب بالكاد غطى منتصف فخذيها دون أكمام، ينتهي أسفل إبطيها، لونه أحمر ناري ولامع، يتناسب مع خصلاتها المبعثرة بثورة حمراء، مكياج صارخ

أضفى جمالًا صاخبًا لملامحها التقليدية، أمسكت بكأس من الخمر تتجرعه بحدة وعيونها لا تتحرك عن نوح المستسلم لدلال صاحبة أملاك وأموال تتيح لها تملك ما هو أكبر من هذا النادي الليلي عشرات المرات.

بين حين وآخر يلقي فوقها نظرة يخبرها أنه يدرك مراقبتها لأفعاله لكنه لا يهتم، ثم يستدير عائدًا إلى الأخرى، حاولت الانشغال مع الرجل الجالس جوارها، شديد البذخ معها، يلبي طلباتها، يقدم الهدايا والقرابين، ينتظر سيرها فوق الأرض ليقبلها بوله، أحد الرجال المنبوذين من زوجاتهم يبحث عن متعته عند أخرى مقابل مقدارًا من المال.

ضعيفة ولا تريد الاعتراف، اقترفت إثمًا بنفسها وتُحمله فوق أعناق غيرها، نقمت على ربها وضعها وسط القاذورات، كان بيدها تغيير قدرها -إن كان هذا هو- لكنها زهدت في الفرصة المقدمة أمامها على طبق من فضة، نست ربها منذ دخل نوح حياتها، لم تصل ولا مرة منذ عقد قرانها، إيمان ضعيف تساقط أمام قوة الابتلاء.

هكذا تتم التصفية؛ فالمؤمن القوي الصادق هو من سينتصر بالنهاية، ذو العزيمة والإرادة الصلبة، أما الهشاشة فليست بين الشرفاء، مكانها بالأسفل في قيعان وادي الجبناء.

توجهت إلى غرفتها تنزع الثوب عنها متأففة، شاكرة مشاكل العمل التي خلصتها من متيمها الكريم، ارتدت قميص النوم وتدثرت تغط في السبات من شدة الإرهاق والتعب. شعرت بعد فترة بأنفاس تداعب عنقها، عادت إلى رشدها بعد ثوان معدودة، دارت حول نفسها ترغب في صفع ذاك الوغد المتسلل لا تعلم من أين، صدمها وجه نوح، اعتدلت جالسة تستفسر عما يريده، مد يده إلى جسدها يضمها إليه:

-ما تفتكريش إني ماخدتش بالي م الغيرة اللي بتشع من عينيكِ لما كنت واقف مع البنات.

حاولت دفعه عنها مغتاظة، تأججت غيرتها من جديد: طب وعايز مني إيه؟.. روحلهم.

لثم وجنتها بخفة: بس أنا عايزك أنت يا جميل.

سخرت: ودا من إمتى؟

-ما حبتش دماغي تتفتح وأنتِ لسه غضبانه، سيبتك تهدي على مهلك.

-لا يا شيخ، طب يلا حل عني وسيبني أنام.

-كويس إن البغل اللي وراك دا روح بدري، أهو سابلي فرصة أقضي معاكِ شوية وقت بمزاج.

-ومين قالك إني هأسمحلك بكدا؟

ابتسم بغموض: هنشوف.

قاومته في البداية لكنها استسلمت بعد ذلك، نست كل ما فعله بها، وغضت عقلها عن المكان الذي جعلها أحد أفراده، تحويلها من فتاة يحترمها الجميع إلى بائعة هوى، استلمت تحت مسمى حب غير موجود سوى بخيالها، تحاول أن تضحك به على المذلة التي تحياها وتبرر به خنوعها أمام استغلال الآخرين لها.

***

دلفت إلى مطعم الجامعة، تبحث عنه بعينيها في عجل، الأيام الماضية أعادت ترتيب أفكارها وأدركت أن ما حدث في صالحها، غبية، متسرعة، حفظت مشاعرها ستًا وعشرين عامًا لتهدرهم فجأة على شخص لم يقدرها، ببساطة لأنها لم تنتظر رابط إلهي يجمعها به قبل أن تحرر مشاعرها. زفرت، ولم يكن حبًا أيضًا، فقط تغير روتين حياتها، فعلت ما كانت تحلم به ولكن تكبته داخلها، حتى أنها لا تجعله يعبر

حدود عقلها اللا واعي. عدة أيام بعيدة عن الكلية، انخرطت في أعمال عديدة، لم يخطر ببالها إلا حين يحدث ما يذكرها به، اتصالاته المتعددة، اعتذاراته المرسلة في رسالة، بعدما كان يكتب لها شعرًا في الحب والهيام صار يمطرها بوابل من الأعذار والتأسفات الواهية، إن أحبها حقًا ما كان ليوجعها من الأساس. لقد تقرب إليها وخطب ودها لكنها في الحقيقة لم تحرك شعرة داخله.

وجدته يجلس بشكل عكسي فوق أحد المقعد، تحيطه مجموعة من الفتيات الأصغر سنًا والأكثر جمالًا وتدللًا في الكلية، ابتسمت ساخرة بداخلها وتقدمت نحوه بخطوات ثابتة، ألقت أمامه رزمة من الأوراق والدفاتر، تبعته بنظراتها يحاول الوقوف والترقب يغطي ملامحه، شمخت برأسها تكاد لا ترى قدميها من شدة إرتفاع ذقنها:

-حضرتك اتقربت مني عشان أساعدك تتخرج مش كدا؟.. بس اللي ما تعرفوش إني مش غشاشة، ولا بأخلط أمور شخصية بشغلي، عمومًا.. تقديرًا لمجهوداتك الفترة اللي فاتت، وعشان صعبان عليا حالة الفشل اللي وصلتلها لدرجة إنك تستخدم طرق رخيصة زي دي.. جبتلك الورق دا، كنت بأكتبه وألخصه أيام ما كنت طالبة، هو مافيهوش كل التفاصيل وكلام الدكاترة اللي بتديك.. بس فيه اللي ينجحك، وما أعتقدش إنك محتاج أكتر من كدا.

قذفته بنظرة أخيرة، إعلان بتمام طي صفحته من حياتها، راقبها تغادر المكان بنفس عزة النفس والكبرياء كأنه لم يجرحها أو يس ئ إليها. شعرت بالراحة تعتريها، هللت حمدًا لله، الآن تأكدت أنها استعادت حريتها منه. ابتسمت بغبطة كاملة، خطوتها تلك كانت شفقة مما فعل به فشله وقلة حيلته، كذلك أثبتت لنفسها أنه أمير وحلق بعيدًا عن سماء أحلامها التي لن تكتفي برتبة أقل من سلطان.

لم تكترث بإنقضاضه على الأوراق مع رفاقه، يتقاسمون التفرس فيها. لا يهم ما حدث وإن كان سبب لها الألم.

عاد يجلس بعدما انسحب أحدهم كي يقوم بتصوير الأوراق فيكون لكل منهم نسخته، زفر براحة، خشى أن تدعي عليه أمام عميد الكلية فتنهيه تمامًا، الآن أدرك كم أخطأ بحقها ولكن.. فلتعتبرها تجربة مختلفة مرت وأنتهى الأمر.

***

غادر الفندق بعد عقد عمل آخر خسره، أسرع خطاه يهرول خلفه محمد محاميه، الغضب يتآكله، ثلاث صفقات حتى الآن لم يستطع الحصول عليهم، كأن أحدًا يترصد له، يرغب في

إغراقه، الوضع المالي في الشركة بدأ يستقيم ولكن ليس لدرجة خسارة صفقات متتالية، هذا قد يسيء إلى سمعة الشركة في السوق.

صعد إلى سيارته وجاوره محاميه في صمت، والأفكار تدور في رأس الآخر كذلك، قبل العميل الصفقة موافقًا على جل شروطها، وحين صار وقت التوقيع تراجع متعللًا بحجج واهية، لا تدخل العقل وتثير القلق، قطب يفكر في منافسيهم بالأسواق، ليست هناك عداوة حقيقية مع أحد، لِمَ إذن تلك الخسارات المتوالية؟

تفرق عن رئيسه حالما عبرا بوابة الشركة وأفراد الأمن، كلٌ إلى مكتبه. صاح في مساعدته بغضب متهمًا إياها بالاستهتار والتسيب لأنه ضبطها تتحدث مع خاطبها متجاهلة رنين هاتف العمل، استدار يدخل إلى مكتبه عندما لمح سلمى تقف باسمة مع أحد الموظفين، تستلم منه ملف وتتجاذب معه أطراف حديث ما، انفجرت براكين الغضب داخله، لولا حالته السيئة لاستطاع سماع الجدية في كلماتها لكنه سد أذنيه.

حدقت به مرفوعة الحاجب، تتساءل عما به، لم ينطق بشيء أحكم قبضته حول معصمها كأسوارة حديدية صلبة، جرها خلفه كالبعير، اعتذرت للموظف مسرعة وهي تكاد لا ترى موطئ قدميها.

دفعها داخل مكتبها وبدأ في محاضرة طويلة عن كيفية التعامل مع الموظفين والتحدث معهم بما يتناسب مع زوجة صاحب العمل وليس كما كانت تفعل، استمر في حديثه لا ينتبه إلى حركاتها، ألقت الملف بإهمال فوق سطح المكتب وجلست بأريحية فوق الأريكة، وضعت ساقًا فوق ساق ثم اسندت خدها إلى قبضة يدها تتابع حركاته المنفعلة وقذفه الثائر، تحاول أن تسبر أغواره لكي تعلم السبب الحقيقي خلف عصبيته الزائدة.

-المفروض تحطي حدود بينك وبين الـ..

توقف برهة يحاول استجماع شتات تركيزه حتى يكمل جملته. أتمت عنه: الموظفين.

-أيوه، الموظفين، دول رجالة يا مدام و..

توقف، نظر إليها بصمت، تنهدت مرتاحة تحمد الله داخلها، وأخيرًا وقت مستقطع. عندما طال الصمت سألته بهدوء: ارتحت؟

لم يرد، اشتد صاب الصمت بينهما، فرك وجهه وبعثر شعره، أغمض عينيه بشدة يعتصرهما، شعر بركبتيه تتراخى وفقد اتزانه. انضم إليها فوق الأريكة يحاول إيقاظه نفسه من النوبة التي سيطرت عليه دون أن يشعر، وجهه مدفون بين كفيه:

-تعبت، مش فاهم اللي بيحصل حوليا، مش قادر استوعب، هو العيب فيا ولا فـ شغلي ولا فـ الناس اللي باشتغل معاهم ولا الصفقات كلها ولا المجال هو اللي زفت.

-إيه اللي حصل؟

كأنه ينتظر هذا السؤال منذ دهر، شرع يروي لها سبب نكبته، الصفقات التي يفقدها دون أسباب واضحة، لا يعلم العيب من أين، أثناء حديثه مال برأسه فوق كتفها، يتلمس الحنان والراحة بين ذراعيها.

في البداية تفاجأت بفعلته وتصلب جسدها من الصدمة، لكنها لم تستغرق وقتًا في التأقلم فأحاطت كتفه بذراعها والأخر تداعب خصلاته ولحيته النابتة، تبث الطمأنينة في نفسه: مش يمكن دا خير؟.. الله أعلم مصايب إيه ممكن تجيلك من الصفقات دي.. خصوصًا إنك قولت بلسانك إن الصفقة اللي فاتت كانت هتجهد قدرات الشركة جدًا؛ لأنها كميات أكبر من قدراتنا المعتادة.. ربنا شاف إنك فـ الوقت دا مش مستعد فبعده عنك، مادام مش أنت السبب أو عملت حاجه غلط ما تزعلش نفسك.

وافقها متنهدًا، يستمع إلى همساتها الدافئة تطرب أذنيه وتثلج قلبه، أوقفت أطراف أناملها متلكئة فوق لحيته قصيرة الشعر، ثم تحسست شاربه غير المهندم، ابتسمت: دقنك وشنبك عايزين يتساوا.

ابتسم أثناء نعاسه، غير قادر على فتح عيونه من الإجهاد: خلاص اعمليها بدل ما أنتِ قاعدة كدا.

-هات العدة وابدأ فورًا.

فتح إحدى عينيه مجبرًا، يتأكد من صحة سمعه في إلتقاط نبرة الجدية التي عبرت أذنه، لمحت الشك والدهشة في عيونه فاتسعت ابتسامتها تغمزه: على فكرة.. أنا شاطرة أوي وأعجبك، ما تعرفش إني كنت صبي حلاق بس الزمن هو اللي رماني فـ قسم المالية.

قهقه حتى بدت نواجذه، دار إليها محافظًا على بقايا ضحكته: واسترجاع ليالي الملاح هيبقى عليا ولا إيه؟

رفعت رأسها بغرور واهٍ: دا أنا أسطى درجة عاشرة، حتى اسأل الزباين.. زين وبابا وفارس.

-لا أقنعتيني بصراحة.

تشاركا الضحكة لبرهة قبل أن تنكسر قبة السعادة والفرحة المحيطة بهما، اندفعت كادي إلى داخل الغرفة والغضب ينهش دواخلها، لم يعجبها قرب ياسين الشديدة من ضرتها، نظرت إليهم شذرًا ثم علقت ساخرة: يظهر إني قطعت لحظة رومانسية.

نهض يعدل ملابسه التالفة من جلسته المريحة وقد طار النعاس من عيونه: في حاجه يا كادي؟.. بقالك زمان ما عملتهاش وزورتيني فـ الشركة بدري كدا.

بنظرات شائكة: النصيب رماني عشان أشوف بعيني.

بدأ الغيظ يغمره: تشوفي إيه؟.. سلمى مراتي زيك بالظبط يا كادي.

-دلوقتي بقت مراتك زيي بالظبط؟.. الله يرحم أيام ماكنتش طايق تبص فـ خلقتها.

صاح بها: كادي!، إيه الكلام اللي بتقوليه دا؟، حاسبي على كلامك.

أوشكت على معاودة الحديث لكنه قبض على ذراعها بقوة وسحبها خلفه، خشى أن يجرفها الغضب إلى التفوه بأكثر من ذلك، مهما حدث ليس لها الحق بجرح سلمى إلى تلك الدرجة، أخبرها مغلقًا باب المكتب خلفه، تاركًا سلمى تتلوى مما سمعته: حسابنا هيتصفى بينا، لما نشوف آخرة الجنان دا إيه.

ارتمت فوق مقعدها المريح، دارت به نصف استدارة، أراحت رأسها للخلف تطالب الهدوء بالتمكن من أعصابها الثائرة وقلبها النابض، طرقت السكرتيرة الباب ودلفت تنبهها إلى إجتماعها اللحق خلال عشر دقائق، أومأت تشكرها.

قررت الذهاب إلى مسجد الشركة تقضي فرضها قبل أن يدق وقت الإجتماع، أملًا في بعض السكينة والهدوء حتى تستطيع إكمال عملها وإتمام يومها على خير.

***

استيقظت قرابة العصر متأخرة كعادتها نتيجة طول السهر في الليل حتى بوادر ضوء الصباح، خرجت بعدما هذبت شعرها قليلًا تطالب بإفطارها حتى تستمد قوتها.

انضمت إلى الفتيات بينما متخصصة الطبخ تحضر لها ما تسد به نواح جوفها، فيما الأخريات كل واحدة منشغلة بحالها، لارا تسترخي مستمعة إلى الأغاني والموسيقى الهادئة، شهد ترتشف كوبًا ضخما من النسكافيه في محاولة لدفع النعاس بعيدًا.

رمقتها شهد بطرف عينها تلاحظ السعادة التي تنيره، والبسمة المتعلقة بشفتيها على الدوام خلال الأيام الأخيرة، ابتسمت ساخرة ووضعت كوبها: لو فاكرة إنه بيعمل كدا معاكِ أنتِ بس تبقي عبيطة وهبلة.

قطبت ونظرت خلود إلى محدثتها: بتكلميني أنا؟

أومأت شهد وتابعت: إحنا كلنا هنا بتوع هوى.. يعني بيتعمل بينا دماغ وبس، ما تحطيش فـ دماغك إنه بينام معاكِ حبًا فيكِ.. لا إصحي وفوقي.

كزت على أضراسها: قصدك إيه؟

-قصدي وصلك وإنتهى.

نهضت تهتف بها: أنت مضايقة إني مبسوطة شوية فـ بتقولي الكلمتين دول عشان تنكدي عليا مش كدا؟؟

ثارت الأخرى: وأنتِ تبقي مين أصلا عشان أضايق منها؟!، كلنا هنا فـ الهوا سوا يا حبيبتي، ماحدش أحسن من حد.

تدخلت لارا تحاول تهدئة الموقف المتصاعد بينهما، استمر الجدال دون اعتبار لأحد ووجود مستمعين: لا أنتِ غيرانه عشان بيحبني أنا وأنتِ لا.

هزأت منها: بيحبك؟.. طب لما هو بيحبك بيروح ينام مع غيرك ليه فـ الأيام اللي مش بيزورك فيها؟

بهتت خلود وتراجعت صامتة، أردفت الأخرى: فتحي عينك كويس قبل ما تقولي كلام أنتِ مش قده.

تركتهم شهد صاعدة إلى حجرتها، سحبت لارا الأخرى تجلسها على أقرب مقعد، حالة من الذهول تملكتها، تحطمت أمنياتها على أول صخرة مفتتة. ملست على شعرها بحنان تبرر فعلة رفيقتهم: ما تزعليش منها، هي بس مضايقه عليكِ.. شايفاه بيعلب بيكِ وأنتِ فـ السما ومش حاسه، حبت تفوقك بدل ما تقعي على جدور رقبتك.

حدقت بها غير مصدقة: أنتوا كلكوا عارفين إنه بيجيلي؟

هزت رأسها: أيوه، بيجيلنا كلنا يا خلود.. يوم ليكِ والتاني ليها وهكذا.

لاحظت شحوبها الزائد ووجهها المصفر، فأردفت: أفهمي بقى.. إحنا هنا عشان نجيب شغل وما يخسرّش لو عمل بينا مزاج.. لكن فـ الآخر إحنا..

وتركت جملتها معلقة دون تتمة، احضرت وصال صينية الطعام ووضعتها أمام خلود في انتظار إلتهامها لها، رفضت تذوقها وهمت بالنهوض، أمسكتها وصال تعيدها للجلوس بقوة، نبهتها: أوعي تحملي يا خلود، ما تبطليش حبوب منع الحمل، مش هينوبك غير الأذية.

شهقت لارا: هي مش بتاخدها.

أشارت وصال جهتها: شوفتها بترمي الحبة فـ الزبالة إمبارح.

نهرتها لارا بحدة وقسوة: أنتِ مجنونة؟.. أنا مش نبهت عليكِ قبل كدا؟.. عايزه يحصل فيكِ إيه؟

قصت عليها وصال: خلود، قبل كدا في واحدة عملت الغلطة دي وحملت، بطنها اتكوت بالنار عشان تحرم وفضلت عايشه بالعاهة دي لحد ما انتحرت.

عقبت لارا: دا طبعًا بعد ما خلوها تجهض.

أضافت: الطفل دلوقتي بيتاخد يتباع، أو يترمي على باب ملجأ، الله أعلم بقى بيحصله إيه ولا بيخلصوا منه إزاي.. الأمومة مش لينا، فكري كدا لو جالك ولد هتقوليلي أنتِ شغاله إيه؟، ولا أبوه مين؟.. ما تحاوليش، حتى لو قلبك لسه متعلق بيه وما كرهوش.

ابتعدت عنهم تنشد الوحدة، ترغب في إعادة التفكير وترتيب أولوياتها، أدركت فساد خطتها

بإنجاب طفل يكون سبب في رحمتها من هذا المكان، يبدو أنه لم يعد هناك منفذ وقدرها المحتوم هو البقاء داخل زنزانة الدعارة والموت بين أوساخ البغاء.

***

اقتربت من آية ذات المزاج الفرح، سمعت مزاحها مع عنبر، يبدو أنها خرجت من قوقعتها بعد أيام من العزلة، شاركتها المزاح وجلست إلى جوارها تتذوق الحلو المفضلة لديها، نظرت إليها الخادمة بحزن: والله من ساعة ما الشركة خدت وقتك كله والواحد مالوش نفس يدخل المطبخ، فين أيام ما كنت بتونسيني.

غمزتها مداعبة: أونسك بردو ولا أشيل هم مساعدة عمو إسماعيل من على كتفك.

-ودي كمان، فيها إيه يعني؟؟

قهقه الجميع وأتت الخادمة الجديدة تخبر عنبر بوجه جامد أن السيدة كادي تطلب رؤيتها لأمر ضروري، انصرفت خلفها تعلم أنه أمر تافه ولا يقرب للضرورة بشيء لكنها ما تزال سيدة في هذا المنزل وعليها الطاعة، اطمأنت سلمى على شقيقة زوجها وتأكدت أنها في حال أفضل، اعتذرت منها كي تصعد إلى غرفتها تنشد بعضًا من الراحة.

وصلت إلى قمة الدرج ولمحت ياسين يفتح الباب ويدلف حجرتها، تعجبت دالفة خلفه، خرج من الحمام عندما شعر بدخول أحدهم، نظر إليها لائمًا: كل دا؟.. مستنيكِ من بدري.

تأخرت؛ لأنها عرجت على الأخصائية التي تتابع معها النظام الغذائي وبرنامج فقدان الوزن،

حيث أنها لا تتوجد في الصباح الباكر حين تذهب لممارسة التمارين، لم تخبره كل ذلك وسألته مستغربة: مستنيني؟.. ليه؟

تحس ذقنه وشاربه: مش قولتِ إنك مساعدة حلاق درجة عاشرة؟.. قررت أجرب شغلك بقى يا أسطى.

ابتسمت لغمزته، وضعت حقيبة يدها جانبًا ثم شمرت عن ساعديها وتقدمته إلى الحمام: بس كدا؟.. من عونيا.

بدأت تشذب لحيته بمهارة اكتسبتها من إخوتها الرجال ووالدها، قالت بينما تريح الماكينة من العمل وتنظفها من بقايا الشعر قبل أن تتابع: آسفة لو كنت عملتلك مشكلة مع كادي.

ترك بصره مطالعة صورته المنعكسة في مرآة الحمام -ينظر إلى ما أحرزته من تقدم يُشد به- ووقع على رأسها المنكس المستغرق فيما تفعله، قرر تجاهل الأمر: ماحصلش حاجه.

أسرعت: مش قصدي أوقع بينكم والله.

نظر إليها مبتسمًا بغموض: عارف.

أضاف عندما طال صمتها وتدقيقها في تعابير وجهه: مش هتكمل يا أسطى ولا إيه؟

بسمة صغيرة رسمت شفتيها قبل أن تضغط على زر التشغيل وتعاود تكملة ما بدأته، تفكر في ثقته بصفاء نيتها وعدم رغبتها في إحداث خلاف، لأن قبولها بالزواج من خاص متزوج يعد إضرامًا لنيران الحرب والفراق.

انتهت بنتيجة استحسنها كلاهما، اعتذرت عن مساعدته في جمع الأغراض لكي تجيب على هاتفها الصاخب يطالبها بالإسراع في الإجابة، هتفت بفرحة تتحدث إلى والديها من ثم أشقائها وأولاد أخيها الأكبر، أغلقت الخط تريد أن تحلق بين السحب، التفتت لتصطدم بنظرات ياسين المستفسرة وبسمته الضاحكة وحاجبيه المرتفعين.

هللت: بابا وماما هيجوا زيارة بعد بكره.

-ينوروا.

رفع يديه الممتلئة بعدة الحلاقة: أرجعهم مكانهم بقى.

هزت رأسها، تشعر بغبطة ما بعدها غبطة، اليوم شعرت بقرب ياسين منها كما لم يكن من قبل، وخبر قدوم أهلها أثار بها حماسة مضاعفة، فكرت أنه يوم سعدها.

تجاهل ياسين زوجته الحانقة، لقد اشتد التوتر بينهما حتى أوشك على قطع جسور الوصال، ترحل بعقلها واهتمامها بعيدًا وتريد حين تعود أن تجده كما هو، بدأ يفكر

ولأول مرة فيما جذبه حقًا إلى كادي وأعمى بصره عن كل النساء إلا هي للزواج منها.

***

صارت عائشة تقضي جل وقتها مع طفليها الرضيعين، تصب إهتمامها عليهم، البيت أصبح حزين بشكل دائم، هادئ إلا من بكاء الطفلين، كل فرد من الأسرة مستقل بنفسه ينعزل في جانب بعيد عن الآخر، حتى أوقات الطعام رحلت قدسيتها إلى زمن كان، متى ما شعر أحد بالجوع -إن شعر- يكتفي بعدة لقيمات أو يأخذ صحنه عائدًا إلى معزله.

محمود تصرفاته لم تعد تدخل عقلها، بالكاد يجلس في المنزل، إما لمحادثة والده قليلًا بشأن مستجدات العمل أو ملاعبة طفليه قبل النوم، شديد التحفظ حتى معها، يخفي عنها أكثر مما يبدي، يتصرف بأريحية أكبر حين يكون مع طفليه على إنفراد دون أن يفعل ذلك معها أو حتى معهما أمامها.

تجادلت زهرة معه عدة مرات، طبيعتها المسالمة اندثرت من طول مدة الفراق وزيادة الاشتياق، حياه كانت طفلتها قبل أن تكون شقيقتها، تبتهل ليلًا وتنفرد بربها فجرًا، تدعو بقلبٍ دامٍ لحياه بوضع الأخيار في طريقها، ومساعدتها على ما تمر به مهما كان، وتدعو لشقيقها بلين الفؤاد وإحياء الرحمة في قلبه التي لا تعلم متى دفنت. نفسها تتوجع مما آل إليه حال عائلتها الآمنة، لا تهتم بالزواج كما يظن شقيقها، حاولت إفهامه أن عودة حياه إلى كنفهم أكثر أهمية من عقد زواج في ظل الألم، لم يسمعها وهي يأست من إنشاد تفهمه.

***

ضب الأوراق في الملف كما كانت، تأكد من أغراضه حتى لا ينسى شيء قبل مغادرته، وقع بصره إلى ورقة هذا الصباح، تبسم لا شعوريًا، مد يده يلتقط

الأقصوصة الوردية، تشبث نظره بحروفها، قرأها بتمهل للمرة المئة؟.. لا يدري. إحساسها وصله عبر حروف بخط يرقص حبًا.

«لم أعد أرى غير حبك، ولا أسمع غير صوتك، لا تفكر.. هو جنون ولربما أعظم من ذلك بدهور».

فتح جارور مكتبه، أخرج صندوقًا صغيرًا، وضع الأقصوصة جنب رفيقاتها داخله، أغلقه وحفظه في مخبئه السري من جديد، مكان لا يطاله غيره، يحفظ فيه خصوصيته.

غادر ملقيًا تحية مقتضبة على مساعدته، أومأت بحرج وانصرفت تجمع أغراضها، تحمد الرب أن رئيسها لن يتأخر في عمله، فمن مهامها عدم المغادرة حتى يذهب أولًا إلا إن سمح لها بغير ذلك. قبل أن يهبط الدرج حيث يفضله عن المصعد سواء في الهبوط أو الصعود تقريبًا لأنه الرياضة اليومية الوحيدة التي يمارسها عدا شطحات السباحة من حين إلى حين أو الذهاب إلى النادي الرياضي، ذلك أحد أسباب بنية جسده القريبة للنحافة وبدون عضلات شديدة البروز، التفت برأسه جهة مكتب سلمى، لمح ضوء يخرج من تحت الباب الموصد في الرواق شبه المظلم بعد إنصراف غالبية الموظفين.

عاد إلى سكرتيرته يسألها عن سلمى فأبلغته أنها لم ترها تغادر، استغرب واقترب من باب مكتبها، حاول فتحه بلا جدوى، لقد أغلق بالمفتاح وأحكم غلقه جيدًا، ظن أنها رحلت دون أن تنتبه السكرتيرة وقد نسيت الضوء مشتعل، هم بالذهاب عندما سمع آهة ألم وأنين ضعيف، ارتفع قلقه وزاد فزعه، طرق الباب بشدة حتى سمع صوت حركة وصوت ضعيف متألم يستفسر عن هوية الطارق، أجابها متعجلًا:
افتحي يا سلمى، أنا ياسين.

أدارت المفتاح مرتين في موضعه، وقفت أمامه بشعرها المنساب فوق كتفيها بغزارة، دلف فأسرعت تعيد إغلاق الباب كما كان ثم عادت حيث كانت قبل قدومه،

تمددت فوق الأريكة تغمض عينيها مصغية إلى حديثه في ضوء خافت يصدر من مصباح فوق سطح مكتبها، جذب أحد الكراسي ووضعه أقرب إليها يتفحصها متسائلًا بحواجب معقودة: خلعتِ حجابك ليه؟.. وقاعدة هنا لحد دلوقتي ليه؟

أجابته دون أن تخفض ذراعها الملقاة فوق جبهتها بإهمال أو تفتح عيونها: شوية وهأمشي، رّوح أنت وأنا مش هاتأخر إن شاء الله.

-مالك؟

زفرت: عندي صداع نصفي، مش هأقدر أمشي غير لما يهدى شوية، لما أقدر أفتح عيني على الأقل.

-أخدتِ الدوا بتاعك؟

نهضت على مهل واتجهت إلى الحمام الملحق بمكتبها: هأغسل وشي وأجي اخده.

غابت لدقائق ثم عادت تقطرالمياه من وجهها وقد بللت شعرها وطالت المياه أطراف ملابسها العلية، تناولت قرصًا من شريط الدواء المتواجد بحقيبتها الشخصية على الدوام، تجرعته تحت أنظاره ثم عادت تبسط جسدها فوق الأريكة الصغيرة نسبيًا.

-الحجاب بيزود الصداع؟

-بأحاول أخفف الضغط من على راسي، خصوصًا إني بأفضل أشد الطرحة لورا وبعدين أجيبها قدام فـ خصلات الشعر بتتحرك معاه وممكن تتشد وتزود الوجع.

أخرج منديل قماشي من جيب سترته ومال عليها يجفف المياه عن رأسها ووجهها عندما لم يجد منها أية بادرة لفعل ذلك، فتحت جفنيها وحدقت به مندهشة فأجاب السؤال في عيونها: المايه على وشك وشعرك كدا أقل نسمة هوا هتتعبك ومش بعيد تزود الصداع، دا مسكن لحظي مش أكتر.

تنهدت مستسلمة، مرت دقائق في صمت بعدما تراجع يتركها ترتاح، شعر بها تبدأ في تسليم أمرها إلى سلطان النوم، نظر لساعته ثم ساعدها في الجلوس، حدثها محاولًا جذبها من عالم النعاس: سلمى، سلمى ألبسي الطرحة خلينا نرّوح وأبقي نامي هناك براحتك.

همهمت دون وعي، جذب قماش حجابها من فوق ظهر الأريكة، شرع في مهمة تثبيته بلا جدوى، زفر متأففًا بغضب، لا يعلم كيف للنساء القدرة على لف مجرد قطعة قماش قطنية حول رؤوسهن.

استعادت وعيها قليلًا بعدما أصر عليها كثيرًا، ثبتته كيفما أتفق دون النظر إلى مرآة أو ترى كيف صار، المهم أنه أخفى خصلاتها البنية عن الأعين. خلع سترته وأحاط كتفيها الصغيرين المتهدلين في نعاس بها حتى لا تطال هبات الهواء ما هو عالق من نقاط ماء بها وبملابسها. جمع أغراضها في الحقيبة ثم لبسها كما تلبسها فوق كتفه، حملها واقترب من المصعد يناديه بإصرار، لأول مرة يهبط في مصعد منذ سنوات. تتشبث بعنقه، وفي لا وعيها لا تدرك ما يدور حولها، رأسها يتوسد كتفه مرتاح.

لم يعبأ بنظرات حارس المرأب المندهشة، لأول مرة يرى رئيسه في وضع شديد الرومانسية، أجلسها في المقعد المجاور وأحكم وضع حزام الأمان حولها ثم أسرع يصعد خلف المقود وينهب الطريق عائدًا إلى منزله.

***

جسدان في حيز واحد، تجمعهما جدران حجرة واحدة، يتقابل ظهريهما، كلٌ ينؤ بأفكاره وعقله عن الآخر، مسافة باردة فصلت بينهما.

يشكر ربه داخليًا أن زوجته لم تشهد دلوفه إلى المنزل حاملًا سلمى بين ذراعيه من السيارة إلى أن دسها بين أغطية فراشها، راقب تقلبها بين الأغطية تتلمس برودتها

علها تطفئ نار الصداع وحرارة التعب، تركها بعدما تأكد من استغراقها في النوم. دخل جناحه متوجسًا لكن لستر الله كانت نائمة، لبس منامته وانضم إلى جوارها يشرد بعقله، يتأمل مشاعر انتابته عندما رأها تتمد من شدة الإعياء أمامه وهو بلا حول ولا قوة، أحس بقبضة ضارية تعتصر قلبه، تألم لأنينها المسموع عبر الباب، ظل مستيقظًا يحاول تبرير تلك المشاعر الناشئة بين طيات قلبه.

خلفه ترقد كادي بأعين تمتلئ بالغضب، تتذكر حمله للأخرى إلى غرفتها، رأتهما من نافذة حجرتها ولكنها أبت إظهار ذلك أمامه وأدعت النوم، لن تدخل معه في جدال، لقد تناقشت وتشاجرت معه عدة مرات بلا نتيجة، لقد آن أوان الأفعال، ستعلمها درسًا قاسيًا في عدم الاقتراب من ممتلكاتها.

***

وقفت تتأكد من ثبات حجابها فوق رأسها في الرواق أمام الباب، رأت شقيقها الأكبر يهبط السلم فرحًا مصفرًا، تعجبت من مزاجه الرائق على غير العادة، فكرت أن تنتهز الفرصة علَّ قلبه يلين تجاه أخته الصغرى أو حتى الكبرى .

اقتربت منه تبتسم بهدوء، استفسرت عن سر سعادته فأخبرها عن أمر يخص عمله، لم تهتم أو تلحق بالًا لذلك، شرعت تفتح موضوع حياه من جديد: اسال بس عن أخبارها يا محمود، أطمن عليها مش أكتر من كدا.

انقلبت ملامحه وانحسرت فرحته، عاد الغضب إلى وجهه وقدحت عينيه شرارًا، صاح عاصفًا بها حتى كاد يقطلع قدميها من فوق الأرض: قولتلك مليون مرة ماتجبيش سيرة الزفتة دي قدامي.

-بس الزفتة دي تبقى أختك، من لحمك ودمك.

-عايزه تعرفي حصلها إيه؟؟.. متأكدة؟؟.. ماشي، هأقولك يمكن أخلص من زنك وتنسيها خالص وتمحيها من حياتك.. الهانم هربت مع واحد أخد شرفها وكان هيشغلها فـ الدعارة، ارتاحتِ كدا؟

هربت الدماء من وجهها، اختفى بريق الشوق إلى أخبار شقيقتها في عينيها، فرت دمعة رغمًا عنها، قلبها يبكي وجعًا لما تخيلت مرورها بذلك وحدها، وكيف تحملت ذاك الوجع، نظرت إليه بلوم وعتاب: لو كنت احتوتها وعاملتها بحنية شوية، فهمتها سبب رفضكوا لشادي لما اتقدملها بهدوء كان الوضع اختلف وكانت هتبقى معانا ووسطنا دلوقتي.

نفث من فتحتي أنفه المتسعتين نتيجة الغضب العارم: بردو الكل غلطان وهي ملاك مش كدا؟

هزت رأسها: لا مش كدا، غلطانه والغلط راكبها لكن أصل العيب منكوا، دا حتى أنا خرجتوني م الموضوع، اتحايلت عليك وعلى بابا عشان توضحوا سبب رفضكوا بس كل اللي أخدته منكوا «دا لمصلحتها».. فين المشاركة؟؟، إننا نتناقش كعيلة واحدة، إنها تعرف اللي وصلتوله عن اللي كانت متمنية تكمل معاه حياتها وهي اللي تاخد القرار فـ البعد عنه.

فتحت الباب مغادرة إلى السوق، وقد منحته إلتفاتة أخيرة: حاسب نفسك قبل ماتحاسبها على أي حاجه، فـ الأخر هي اللي دفعت التمن لكن أنت..

غمرته بنظرة شاملة وأغلقت الباب خلفها، لم تستطع كبح دموعها أكثر وصارت تشق طريقها عبر خديها بغزارة، ظن أن هذا الخبر سيجعلها تزهد في شقيقتها، لكنه على العكس.. قوى رغبتها في رؤيتها أكثر مما مضى، تعلم أنها في أسوء حالتها، كانت تفتح قلبها للجميع، تحسن الظن بغباء ودون لحظة شك، طفلة تتعامل مع عالمها كما كانت تسمعه في الحكايا، تعتقد أن الشرير يبدو كذلك ولا يمكنه التخفي أسفل عباءة الطيبة وخلف أستار الحنان.

***

فركت وجهها في المرتبة أسفلها، متقلبة في نومها، أزكمت أنفها رائحة جميلة، تحفظها عن ظهر قلب وتعشق استنشاقها، فتحت عينيها رويدًا لتصطدم بنسيج أسود يتنافر مع ملائتها البيضاء، قطبت، إنها سترة ياسين، عادت ذاكرتها للأمس، تذكرت مقتطفات مما حدث، خواطر متباعدة، احتكاك جسدها بصدره ورأسها تتوسد ذراعه.

تركها محاطة بسترة بذلته حتى لا يقلق نومها حين رأى تشبثها بها، ظن أن البرد هو السبب وبحثها عن الدفء، لكن حتى في سباتها كانت تتشبث برائحته ولو عبر نسيج غير حي.

اعتدلت جالسة ودلكت وجهها تدفع النوم، لمحت الوسادة المجاورة باقة من الزهور الحمراء، تعرفت على زهرة التيوليب، اختطفتها ثم ضمتها إلى صدرها، تسحب أنفاسًا عطرة من أوراقها الخلابة.

أفاقت من غيمتها الجامحة، حدقت في الباقة وعدت ورداتها، لمع عقلها بخبث، نظرت إلى ساعتها فوجدتها تعدت موعدها المعتاد، بالتأكيد سبقها الآن إلى العمل، نهضت مسرعة تستعد ليوم جديد مليء بالأحداث.

***

تهادت في مشيها، تتبضع ما ينقص المنزل من خامات، عقلها يشرد إلى شقيقتها ثم يعود إلى أرض الواقع ينبهها إلى البائع المقصود لشراء أحد أنواع الخضراوات، توقفت تختار الصالح وتتجاهل الفاسد ذي العيوب، شعرت بالمرأة المجاورة تحدق في وجهها بشدة، نظرت إليها بحرج لكنها ردت ابتسامتها السعيدة بأخرى تتسم بالحياء.

تناولت الحقيبة البلاستيكية من البائع بعدما نقدته أمواله تبعًا لوزن ما اشترته، كانت تهم بالاستدارة والرحيل عندما وجدت الابتسامة اختفت من وجه المسنة وجسدها بدأ يتحرك يمنة ويسارًا، راقبت أغراضها تتساقط من بين أصابعها وجسدها يوشك على الإرتطام بالأرض، أسرعت تسندها وصرخت تطلب المساعدة، عاونها الآخرون على إجلاس السيدة أسفل شجرة على جانب الطريق فوق صندوق بلاستيكي متين تبرع به أحد الباعة.

أخذت منها زجاجة المياه بعدما راقبتها ترتشف كمية هينة منها، ظلت صامتة حتى تستعيد المرأة وعيها الكامل قبل أن تسألها عن شخص يحضر ليعيدها إلى المنزل آمنة.

-أحسن دلوقتي؟

-أه، الحمدلله.. ربنا يكرمك يا بنتي.

ابتسمت بود، هبَّ إليهم شاب يكبر زهرة بسنتين على الأكثر، هزيل وشديد الطول في آن واحد، لولا الجلباب الصعيدي شديد الإتساع لبدى كأنه عظام مكسوة بالجلد تتحرك بلا لحم، دنى من السيدة وأمسك كفيها يقبلهما متأسفًا، اعتذر فيما يفوق العشر مرات لأنه تركها خمس دقائق يحادث أحد أصدقائه القدامى، صديق لم يره منذ أعوام، قابلت الأم ذلك بطيبة وهونت عليه إنفعاله.

-سامحيني يا أمي، أصلا أنا الغلطان عشان سمعت كلامك وخليتك تنزلي بنفسك تشتري الطلبات، بعد كدا خلي أي حد يشتريها، إن شا الله تكتبيها على ورقة وأجيبهالك بنفسي.. إنما الإجهاد دا ما يصش يتكرر تاني.

لاحظ وجود فتاة تجاور والدته للمرة الأولى، نظر إلى تلك المغموسة في السواد، حتى الحقيبة التي تحملها سوداء، يتوسط حجابها الأسمر وجه مثلثي الشكل، وجنتيه ليست بارزة، ينتهي بذقن صغيرة نسبة إلى الجبهة، لمح تلون خديها

بالإحمرار فبرقت عيونه للحظة، سأل والدته دون أن يحرك عيونه عن الغريبة: مش هتعرفينا يا أمي؟

ابتسمت الأم دون حياء، لاحظت بكل فخر إعجاب ابنها بالفتاة كما أعجبت بها من قبل، نظرت إلى زهرة بحنان: ما قولتليش اسمك يا بنتي.

همهمت ونظرها مصوب أرضًا: زهرة.

لم تدرك ما همس به لكنها لاحظت ضربة أمه الخفية له على مؤخرة رأسه، تأوه باسمًا فيما يربط على موضع الضرب، سمحت لنفسها أن تنظر إلى وجهه وتخطف ملامحه بسرعة، وجهه بيضاوي به لحم وعضلات عن بقية جسده، ذقنه مستديرة وجبهته دائرية عالية.

أفاقت إلى نفسها فنهضت من فوق الأرض تجمع أغراضها معتذرة: اتأخرت، لازم أمشي، أنتِ بقيتِ أحسن مش كدا؟

-أه يا حبيتي، كتر خيرك.

أومأت وهمت بالذهاب عندما أردفت الأم: صحيح ما قولتليش اسم عيلتك ولا أنتِ من بيت مين؟

ابتلعت ريقها بصعوبة لكنها أجابت؛ فلم تتم تربيتها على تجاهل الكبار: فاروق حسين.

حثت خطاها مسرعة، تكاد تنقلب على وجهها من شدة توترها وعدم نظرها إلى موطئ قدميها، لم تشترِ بقية الأغراض، عادت تسمع عتاب عائشة على سهوها دون وعي، لكن لم يستمر طويلًا وعادت تفكر في شقيقتها الغائبة والأخ الكبير صاحب القلب الفولاذي.

***

انتهزت فرصة وجوده في إجتماع بالقاعة الكبرى، تسللت إلى مكتبه ووضعت أقصوصة هذا اليوم فوقها زهرة تيوليب لكن صفراء اللون، ابتسمت بمكر وغادرت.

عاد إلى مكتبه بعد إنتهاء إجتماع طويل متعب، لمح الوردة الصفراء، جلس مكانه ملتقطًا الوردة، ابتسم ثم قرأ ما خُطَّ فوق الأقصوصة التي بلون الوردة ناسيًا تعبه.

«المرة دي مافيش لا شعر ولا خاطرة بس نصيحة.. ياريت تقرا عن معاني الورد وألوانه.. شوفهم بيدلوا على إيه قبل ما تقدمهم؛ عشان ما ترجعش تندم.. أه، وما تنساش العدد كمان.. لو مش فاكر، أنت أدتني سبع وردات حمر».

بهت، أسرع يفتح حاسوبه ويبحث عن مقصدها، قلب الصفحات وتوالت المقالات، لا يصدق ما قرأه، كز على أسنانه بشدة. عندما جافاه النوم، خرج يستنشق الهواء بعيدًا عن المنزل حتى وصل إلى محل زهور، ابتاع منه باقة كلفتة ظريفة نتيجة اهتمامها الدائم به ومراعاة لما تقدمه له، وضعه إلى جانب رأسها قبل أن يتجه إلى عمله.

ضرب رأسه بقبضته، يبدو أنه تهور أكثر من اللازم، لا يرغب في التلاعب بمشاعرها أو إرسال إيحاء لا يقصده، أمرها يهمه فلن يرضى لها بقلب مكسور جريح، فور رؤيته لها من جديد سيضع النقاط فوق الحروف، لم ولن يحب سوى كادي، سيتأكد من إدراكها لهذا، ويوقفها عن وضع الأمال عليه وعلى قلبه.

رفع معصمه أمام ناظريه، لقد مر أكثر من نصف ساعة على وقت الغداء ولم تحضر بعد أو حتى ترسل إليه غدائه، نهض وقرر الذهاب إلى مكتبها لعل أصابها خطب ولم تتحسن من صداع الأمس، أوقف خفقات قلبه التي تعجلت خطاه حين وقف أمامها بينما تغلق الباب وتثبت الحقيبة فوق كتفها.

ابتسمت: الغدا زمانه فـ الطريق، شوية ويوصل.. مش هأقدر أتغد معاك إنهارده.

نسي كل ما قرره، دفع بعيدًا تعهداته لذاته ورغبته في الإبتعاد عنها، وجد الكلمات تفر من شفتيه متسائلة: ليه؟

-نسيت إن بابا وماما هيوصلوا إنهارده؟.. هأروح استقبلهم فـ المحطة.

-هتروحي بتاكسي؟

-لا، هأخد تاكسي للشركة وبعدين أخد عربية زين اللي بيسيبها فـ الجراج وأروح أجيبهم

اندهش: أنتِ بتعرفي تسوقي؟

-على قدي ههههه.

قطب: ما شوفتش عندك عربية يعني.

هزت كتفيها بلا إهتمام: اتعلمت عشان مش بأحب أبقى جاهلة فـ حاجه، كمان عشان لو الظروف اضطرتني أسوق اتصرف، لكن الزحمة وشدة الأعصاب بتاعت السواقة بتزود الصداع وتقلبلي اليوم كله.

-طب استني عشان أخدك على المحطة، مالوش داعي تسوقي أنتِ.

أسرعت توقفه: لا لا، مش هتيجي من مرة، مش مستاهلة والله.. إن شاء الله هأبقى بخير.

-دا مش عشانك على فكرة، دا عشان بابا عبدالرحيم وحشني وحضن ماما فاطمة.

أخفت ابتسامتها وكتمت تعليقها، لقد ناد والديها لأول مرة كأنهما والديه كذلك، ذكرته: طب وغداك؟؟

دفعها حتى تتقدمه: نبقى نروح نتغدى كلنا.

لحقت به سكرتيرته تنبهه إلى وصول وجبته، أشار إليها: كليها أنتِ بالهنا والشفا.

تبادلت نظرة بلهاء مع سلمى، وأكتفت الأولى بهز كتفيها. جلست الموظفة خلف مكتبها تضع أمامها الوجبة تحدق به متوجسة، لم تعد تفهم رئيسها صاحب المزاج المتقلب، برهة يصرخ في وجهها ويصيح، وأخرى يهديها وجبة غذائية تخصه، خاصية مزاجية صعب التعامل معها، كان الله في عون عائلته وبالأخص زوجاته.

***

جلست جواره في سيارة ناهد الجيب، مستعيرًا إياها من شقيقته لتأخذ الجميع في وسعها بأريحية أكثر من جاكواره الحديثة، متناسبة مع من في أعمار أكبر سنًا. تتطلع إلى الطريق وتراقب الناس فوق الأرصفة كما تلمح المعروض على واجهات الدكاكين.

يزدرد ريقه عدة مرات، يريد فتح حوار معها لكن لا يعلم من أين يبدأ، بالأخير قرر أن يسلك أقصر الطرق ويتحدث في الموضوع مباشرة، بادرها: على فكرة.. بحثت عن معاني الورد زي ما قولتيلي.

اعطته كامل اهتمامها مما أربكه: ولاقيت إيه؟

زفر مغمضًا عينيه برهة: ماكنتش عارف المعنى لما جبت الورد.

هزت كتفيها كأن الموضوع ليس من شأنها: عادي، بس أبقى أعرف بعد كدا.

صمت دقائق ثم عاد يقول مبررًا: أول مرة أعرف إن لون الورد له دلالة معينة، لا وكمان عدد، يعني مثلًا عدد الوردات لما يكون سبعة زي ما جبتهولك يبقى معناه تصريح بالحب، واللون الأحمر بيأكد المعنى دا.

أصابت بردها الهدف بدقة: المهم تاخد بالك بعدين؛ لأحسن أفهم كدا.

نفى بتوتر وعصبية: لا لا لا، مش هتتكرر مرة تانية ما تقلقيش.

نظرت إليه بغموض، يبدو كمراهق لأول مرة يسمع عن الحب ويخاف أن يذوقه نتيجة الأقاويل التي وصلت إلى مسامعه عن غدره وألمه، طفل يخشى الحب ويخاف سماع قلبه يدق، التزمت الصمت، وقررت أخذ كلامه كما هو –دون تحليل- حتى لا يتجرع قلبها من كأس العذاب المر.

***

حلقة عائلية تتناول الغداء في أحد زوايا مطعم مأكولات بحرية شهير، تصميم المطعم الداخلي بألوانه المتدرجة في بحور الأزرق رسخت أجوائه البحرية الباعثة على الحميمية والاسترخاء. يتبادلون المزحات وعبارات عن سريان الأحوال، تهدئ قلق الأكبر سنًا وتشعر الأصغر بالاهتمام، انضمت آية وناهد إلى البقية بعيدًا عن أجواء المنزل والزوجة الأخرى بخبثها ومكرها.

تناقش عبدالرحيم مع زوج ابنته وشقيقته في أمور العمل، حضر هذه المرة نيابة عن زين حتى يستغل الفرصة ويشبع شوقه إلى صغيرته، لم يرها منذ تزوجت، اطمأن للفرحة التي تبرق في عيونها، كان متأكدًا أنها ستنجح في كونها زوجة، ستتعامل مع الوضع كيفما كان، سر فخره أنه يرى نفسه عبرها، قدوم ياسين برفقتها لاستقبالهم أثلج شكوكه، الاهتمام يبدو على وجهه وتصرفاته.

توقفت شوكة لم تنتبه لها في حلقها، سعلت بشدة واستدار ياسين يضرب فوق ظهرها بيد والأخرى تسلمها كأسًا من الماء، أربكتها نظرات الاهتمام من جميع الموجودين، وفرحتهم باهتمامه المشع بتلقائية.

-بتضربني عشان الشوكة تطلع، وبتديني مايه عشان ابلعها.. عايزها تطلع ولا تتبلع أرسى على حل.

وبخها بنظراته كأنها طفلة اساءت التصرف، تناولت الكأس من يده وشربته تحمد الله على تحرك الشوكة من مكانها أيًا كانت وجهتها.

عاد الحديث مرة أخرى إلى شتى المواضيع، وجدت آية راحة كبرى في هذا التغيير، دخول سلمى في حياتهم جعلها تذوق طعم العائلة والعزوة الكبيرة، اهتمام الآباء كيف يكون وشعورالمرء حين يتلاقاه كيف يصير.

***

مر اليومان على خير، غادر والديها عائدين إلى منزلهم مرتاحين ومطمئنين البال؛ فقد أثبت ياسين جدارته بابنتهما، واستحقاقه لها كزوجة. أختفت كادي عن العيون، تظهر لفترة تتعامل خلالها مع الجميع بجفاء ثم تختفي إلى حالها، انشغل الجميع بالرابطة الأسرية بينهم ولم يلقوا لها بالًا؛ هذا اختيارها وعليها وحدها احتماله، لن يضر سواها.

اعتزلتهم كادي حتى ينعموا بالسعادة المؤقتة التي تحلق فوقهم، تدبر خطة للتخلص من غريمتها التي اقتحمت حياتها بلا رغبة منها في الاستقبال، أخذت الاهتمام، وجمعت من بحياتها حولها، أنستهم وجود امرأة تدعى كادي في حياة أي منهم، لن تغفر لها ولن ترحمها، ستذيقها العلقم بجرعات زائدة وتدس الزرنيخ في حياتها دفعة واحدة؛ لتقع خارج هذا المنزل بلا رجعة.

دخلت الخادمة الوفية ووقفت بأدب مكتفة الكفين في إنتظار الأمر، طلبت منها بطاقة أنيقة تخط فوقها ما ستمليه عليها، ثم تضعه فوق علبة الشيكولاته التي ستصل من محل معين، بعد انصراف الخادمة وعودتها إلى عملها.. دقت أرقام أحد أشهر

محلات الحلويات الروسية تطلب نوع معين من الشيكولاته، ابتسمت بانتصار كحية تستعد لتناول وجبة دسمة.

***

طرقت الباب على استحياء، ودلفت فور سماعها الإذن، راقبت ناهد تستعد أمام المرآة، تضع اللمسات الأخيرة لإخفاء شعرها الداكن أسفل الحجاب، تتجهز متأنقة لعشاء عمل برفقة أحد عملاء الشركة. تابعتها سلمى في صمت تتلاعب أصابعها ببعضها البعض، استدارت إليها ناهد تحثها على الحديث وعيونها تحاول التوغل داخلها.

تنحنحت سلمى قبل أن تبدأ الكلام: عيد ميلاد ياسين بعد بكره.

أومأت ناهد باسمة: أيوه، هيتم التلاتين.

-هنعمله عيد ميلاد؟

صمتت لفترة، اقتربت منها ناهد وغمزتها: وليه ما تحتفليش بعيد ميلاد جوزك لوحدكوا؟.. دا أول عيد ميلاد ليه معاكِ.

أطرقت رأسها متنهدة بوجع: وهو هيحب يقضي يوم ميلاده معايا؟

ارجعت ناهد خصلة من شعر سلمى المتروك بحرية خلف أذنها: وليه نديله فرصة الإختيار؟ إحنا هنحطه قدام الأمر الواقع بمفاجأة.

-أنتوا مش عايزين تحتفلوا معاه؟

-الساعة 12 بكره ليكِ لوحدك، وبالليل نبقى نحتفل بيه.

-بس كادي..

-سيبك منها وطلعيها من دماغك، هنشوفلها حل بعدين، المهم جهزي نفسك.

انسحبت سلمى إلى غرفتها تضع الخطط وتعد العدة لمنتصف ليل اليوم التالي، يجب أن تحضر ليلة خيالية من أجل زوجها، لن تنسى الأيام الماضية برفقته، سهت عن بداية زواجهما ومعاملته السيئة لها، لم تذكر سوى التصاقه الدائم بها طوال فترة مكوث والديها، وتشاركهما في وجبات الغذاء والحديث الشيق في كافة المجالات.

***

أوصلت زوجها إلى سيارته حتى تضمن عدم ركوب الأخرى معه، اطمأنت إلى ذهابه وحيدًا فتوجهت عائدة إلى غرفتها في إنتظار تمام الخطة كما تبغي، لحقتها الخادمة على الدرج وهي تلهث، مدت يدها بالهاتف الأرضي اللاسلكي: المستشفى اللي فيها والد حضرتك على التليفون، بيقولوا في حاجه مهمة وحضرتك مش بتردي على الموبايل.

التقطته منها بسأم وأشارت لها بالإنصراف، أجابت بتأفف: أيوه خير.

استمعت للنشرة المنقولة عبر الممرضة، وأوامر الطبيب وحالة والدها بدقة مبالغ فيها، استمعت دون إهتمام، تتمنى لو أغلقت الخط ولم تسمع عن ذاك العجوز أي شيء. كانت كعادتها تستمع إلى النهاية ثم تضع الكلام خلفها وتتابع حياتها، لكن نبرة محدثتها في نهاية الحديث لم تطمئنها، لقد شددت على ضرورة زيارته في أقرب فرصة، والأفضل أن يكون اليوم قبل الغد، مضت ساعة تدرس وتفكر قبل أن تقرر الذهاب، فلا تريد من أحدهم الحديث لزوجها بمحض الصدفة المرة المقبلة وستؤكد عليهم عدم محاولة الوصول إليها عبر هاتف المنزل، يكفيهم المحمول.. وإن تأخرت في الرد.

هاتفت زوجها تخبره باضطرارها إلى السفر فورًا والتوجه إلى الإسكندرية، ترغب في زيارة والدها والإطمئنان عليه، لم يصدق أذنيه وسألها يتأكد: هتسافري لباباكِ إنهارده؟

-أيوه يا ياسين، فجأة جه فـ بالي وحسيت إنه وحشني، هأسافر وأرجع بكره إن شاء الله، وممكن بالليل.. حسب الظروف

-إنهارده إنهارده يا كادي؟

زفرت تحاول ضبط أعصابها، أكدت له: أيوه، إنهارده إنهارده، هأقفل بقى عشان ألحق أجهز وأسافر، سلام يا حبيبي.

أغلقت الخط دون أن تعطيه فرصة لرد السلام. جلس يحدق أمامه شاردًا، لأول مرة تنسى كادي عيد ميلاده منذ زواجهما، دائمًا ما كانت تحتفل به معه بل وتذكره إن نسي، خطرت بباله فكرة.

هتف بسعادة: إزاي ما أخدتش بالي، يمكن بتعمل مفاجأة وعملت كدا عشان تغطي عليها.. يا حبيبتي يا كادو.

انخرط في عمله حتى لاحظ مرور ساعة الغداء دون شعور، تعجب اختفاء سلمى حتى هذه الساعة. نهض مقررًا التوجه إلى مكتبها، أوقفته السكرتيرة قبل وصوله إلى باب المكتب المقابل لمكتبه في نهاية الرواق: مدام سلمى خرجت قبل الغدا بشوية، قالت إنها مش راجعة إنهارده تاني.

حدقت بها مندهش: ما قالتش راحت فين؟

هزت الموظفة رأسها في الإتجاهين تنفي معرفتها، شعر بالحنق، أوصلت الأمور بسؤاله موظفة لديه عن مكان زوجته؟؟، كيف لا تخبره سلمى عن رحيلها لبقية اليوم وتخرج دون إذن منه؟!، عاد إلى مكتبه رافضًا عروض سكرتيرته بإحضار

وجبة غداء يفضلها، انكب فوق الأوراق وتحدث بعصبية إلى الجميع حتى انتهى اليوم؛ فقد أغاظها نسيان الكل ليوم مولده.

***

أحكمت قبضتيها على مقود السيارة، تحدق في الطريق بشرود، فروغه النسبي حال دون قيامها بحادثة، عقلها يدور، لم تره منذ أكثر من عامين، إذا اعتبرت مراقبته من خلف أحد الأشجار في حديقة دار المسنين لمدة نصف ساعة أو أقل زيارة.

نبذته من حياتها منذ زمن، لقد أجبرها على كرهه، جعلها تتمنى أن يكون عوضًا عن والدتها في القبر، توقعت أن حياتها ستختلف كثيرًا إن كان الوضع مقلوبًا، والدتها ما كانت ستجبرها على زيجة تمقطها، و تسبب الأذى لمن تعلم أن قلب ابنتها يهواه.

أوقفت السيارة على جانب الطريق جوار كثبان الرمل، سحبت زجاجة من فوق المقعد المجاور وتجرعت كمية كبيرة من المياه، تمنت أن تفي بالغرض وتطفئ نيران عذابها، وبركان الذكريات الثائر داخل ثنايا عقلها. أكملت الطريق تحاول التركيز على كلمات المذيع عبر قناة الراديو، ستنتهي من هذه المهمة الثقيلة على نفسها في أسرع وقت وتطوي تلك الصفحة من جديد.

***

صعدت سلمى إلى غرفتها تضع أغراضها جانبًا قبل أن تهبط إلى المطبخ، كالعادة شهدت جدالًا لا يتوقف بين الزوجين العاملين، مازحتهما وشاركتهما الجدال لبرهة، تقف في صف هذا تارة وتلك تارة أخرى، فيما يديها منشغلتين بإعداد قالب حلو على شرف زوجها.

كانت تضع جل مشاعرها في ما تصنعه يداها، يقولون أن أقرب طريق إلى قلب الرجل هي معدته، حاولت كثيرًا لكنها فشلت، لعل هذه المرة تكون فعالة، ستقضي

معه ذكرى مولده لأول مرة ولن تكون الأخيرة، ستجعلها ذكرى لا ينساها، عاهدت نفسها على ذلك.

راقبتهم الخادمة الجديدة ريتا عن بعد، انتهزت فرصة انشغالهم سويًا، وانسحبت تحاول الوصول لربة عملها تخبرها بما يحدث و يحاك من خلف ظهرها، حاولت مرات ومرات لكن نفس الرد يتكرر.. الهاتف مغلق أو غير متاح، برجاء المحاولة لاحقًا.

***

وقفت على عتبة الباب، تنظر إلى الوجه الهزيل كأن جلده كسى عظامه مباشرة، بشرة ذابلة وشعر أبيض مشعث يتناثر فوق الوسادة البيضاء، يديه ترقدان جواره في سكون، طفرت الدموع من محجريهما ولم تحاول منعهما، فهو لن يستطيع رؤية وجعها على حاله.

عاد الحديث الذي سمعته من الطبيب يطن في أذنيها، يتبعه إدلاءات الممرضة المخصصة لأبيها والمتابعة لطلباته. حالته في تدهور مستمر، العلاج الدوائي بلا تأثير نتيجة تدني الحالة النفسية، يقضي يومه في النوم بكثرة هربًا من واقعه المليء بالوحدة، الساعات التي يخطتفها مستيقظًا يقطعها في شرود إلى اللا مكان، يزهد الحديث ويتناول لقيمات لا تسد رمقه ولا تعطيه القوة الكافية تجاه المرض.

-بيردد اسمك كتير، نفسه تسامحيه، عينه بتنزل دموع بس اللي متأكدة منه.. إن مقابل كل دمعة في نقاط دم بتنزل من قلبه مش نشوفها.

بتلك الكلمات أخرجتها الممرضة من شرودها، لم تلتفت إلى محدثتها واكتفت بالإصغاء وحده، استرسلت الأخرى متيقنة من سماع ابنة مريضها: القلب بيبان قوي، بيستحمل مشقة كبيرة، بيضخ الدم لكل جزء من جسمنا، بيكون سبب حياتهم،

لكن فـ الحقيقة ضعيف وغلبان أوي، بيتوجع من أقل حاجه، بيتضر من الإهمال، الذنب بيشقيه.

كتمت دموعها وابتلعت ريقها بصعوبة قبل أن تردف: مش هأقولك سامحي عشان أبوكِ أو علاقتك بيه كإنسان، كل اللي هاطلبه منك، ترأفي بقلبه.. القلب مالوش ذنب فـ أفعال صاحبه.

دارت وغادرت دون أن تتفوه برد ولو من باب اللباقة، لم تعد تتحمل الضغط الممارس عليها، من جهة الطبيب والممرضة ومن أخر مظهر والدها الواهن وحالته الصحية السيئة، ضميرها لم يعد يتحمل، لا يقبل الحصار في سجن الذنب والمسئولية.

اتجهت إلى شاطئ البحر، ترغب في إلقاء أعبائها مع أمواجه، تناجيه عله يشير عليها بحل يريحها، جلست على الرمال مقابله حتى تكون قريبة إليه لأقصى درجة، كأنها تخشى أن يعرف غيره أسرارها فترغب في الهمس بها إلى أمواجه.

***

استقبلت ريتا الطرد المغلف بطريقة أنيقة، أخرجت ورقة من جيب ثوب عملها دستها أسفل عقدة الهدايا على قمة العلبة ثم صعدت إلى غرفة سلمى، طرقت الباب بهدوء حتى سمعت الإذن.

كانت سلمى منشغلة بترتيب الطاولة في جانب الغرفة، تضع المفرش الأبيض الناعم بعناية، رفضت أي مساعدة، لقد انسحبت من الشركة مبكرًا حتى تتفرغ لإعداد كل شيء بيديها، تريد أن تكون ليلة خاصة بهما حتى في أصغر تفاصيلها.

وقفت منتبهة إلى ريتا التي مدت يدها بالعلبة: الهدية دي جات لحضرتك دلوقتي.

تناولتها باسمة وشكرتها، غادرت ريتا وجلست على طرف الفراش تفتح اللفة ترى محتواها، سعدت جدًا أنها علبة من الشيكولاته، تناولت واحدة وبدأت في حل الورقة الملفوفة حولها لكن رنين هاتفها جعلها تعيدها إلى مكانها، أسرعت تمسك بالهاتف وتركت العلبة على الطاولة المجاورة للباب، هبطت الدرج صوب المطبخ بينما تتحدث إلى حياه وتخبرها ما ستعده علها تقترح شيئًا آخرًا.

***

اتصلت على زوجها تخبره بعدم عودتها اليوم وأنها ستقضي الليل في أحد الفنادق، مشتاقة إلى الجلوس والحديث مع والدها. تعجب فقد قضى يومه على أمل أنها حيلة لكي تعد له مفاجأة، لقد نسيت عيد ميلاده وسهى عن بالها، ترجل من سيارته أمام منزله، يفكر في التراجع والذهاب إلى أي مقهى يمضي فيه بعض الوقت. شعر بالحنق حينما تذكر استعجال ناهد في الخروج لعشاء عمل بعد الدوام، ومحمد يتجاهل الحديث معه تمامًا متحججًا بعوائق العمل الجديد، أما آية فلا يعلم عنها شيء.

دخل مقررًا الاستحمام والخروج من جديد، لن يقضي يوم ميلاده وحيدًا بملل، لا أحد تذكره؟.. لا يهم، يكفي أنه يتذكر.

استقبلته عنبر تخبره أن سلمى طالبت برؤيته فور عودته، تذكر إجازتها الغير متوقعة، قطب جبينه مفكرًا، أأصابها سوء أم عاد الصداع النصفي ومرض الشقيقة إلى رأسها؟، صعد كل درجتين في خطوة متشبثًا بعلاقة مفاتيحه، سيأخذها إلى المشفى إن كانت تعاني من تعب ما، لن يستمع لما تتفوه به عن إعتيادها على هذا الوجع.

فتح الباب لكن الإضاءة أبهرته والصدمة عمت وجهه، إضاءة هادئة وطاولة يتوسطها قالب حلوى من النوع المفضل لديه. بعدما تمالك نفسه وجمع شتات ذاته دار بناظريه بحثًا عنها، وجدها واقفة في الجهة الأخرى بجوار باب الشرفة.

تفحصتها عيونه، وسارت فوقها كجهاز التفتيش اليدوي في الأماكن الهامة والمزدحمة، شعرها متكوم فوق أحد كتفيها في إلتواءات كبيرة أنيقة، ثوب قطيفة أحمر لامع عار الكتفين لكن بأكمام طويلة تغطي معصميها، يلتصق بجسدها الذي بان عليه المجهود الذي مارسته في الأشهر الماضية، يتوقف القماش عند منتصف فخذيها ليترك ساقيها عاريتين وقد اندست أقدامها في حذاء بكعب عالٍ جدًا، تمرنت على السير فيه منذ زمن لكنها لم تكون تهواه؛ فهو يعيق مشيتها ويقلص خطواتها، اقتربت منه باسمة: كل سنة وأنت طيب.

عيونه لم تترك ملامح وجهها، ظن أن أحدًا قد سحب سلمى التي يعرفها وبدلها بحورية من الجنان.. فقط لتعطي يوم مولده حدثًا خاصًا، همهم دون إدراك أن الكلام عبر لسانه: ما أنتِ بتعرفي تلبسي أهو.

تكلفت بسمة صغيرة: أكيد، مافيش ست ما بتعرفش تلبس.. بس مش كل واحدة بتعرف تلبس إيه وإمتى.

جرت بناظريها فوق ثوبها: ودا مناسبته هنا.. دلوقتي، فـ أوضتنا.. بيني وبينك.

هز رأسه ببلاهة. كبحت بسمة أوشكت على الإتساع وسحبته من ذراعه متجهة إلى الطاولة المعدة خصيصًا من أجله، التقطت القداحة وأشعلت الثلاث شمعات، كل واحدة تعبر عن عقد مرّ من عمره، قالت أثناء ذلك: يا رب التورتة تعجبك.

تركها نظره أخيرًا وانتقل إلى الكعكة البنية وقد كتب فوقها بشيكولاته بيضاء كل عام وأنت معي بكل الخير. فجأة لمع بذهنه اعتقاد: أنتِ اللي عملتيها؟

أومأت بخجل: دي أقل حاجه أعملها عشانك.

أسرعت تهنأه وتحثه على إطفاء الشموع لكن ليس قبل تمني أمنية. قطعت الكعكة وسلمته نصيبه، تشاركا سويًا في قطعته؛ لأنها لم ترغب في تناول الكثير. تجاورا فوق الأريكة أمام الطاولة القصيرة وتسامرا لمدة، يضحكان تارة ويتحدثان بجدية تارة أخرى.

تجاوزها نظره إلى الطاولة المجاورة للباب، سألها عن العلبة فأخبرته: دي هدية من ضيف ماقدرش يحضر الحفلة.. بيهنينا على جوازنا.

-عبارة عن إيه؟

نهضت تحضرها وتسلمها إليه: علبة شيكولاته، تدوق؟

تركت الغطاء فوق الطاولة وأمسكت العلبة التي تركتها محاطة بالورق الذي أتت ملفوفة به، التقط واحدة يتناولها ووضعت البقية جوار قالب كعك عيد الميلاد وذهبت تحضر إبريق الماء من جوار الفراش بالجهة الأخرى. عادت تجلس إلى جانبه وضحكت عندما رأت أنه ابتلع ما يقرب من نصف العلبة بهذه السرعة، دس واحدة بين شفتيها بشيطنة صبيبانية وإغاظة لضحكها عليه، مضغتها تكتم الضحك على أفعاله.

***

تأكدت من يقظته، دلفت إليه دون استئذان، لمحته يجلس فوق مقعده وساعديه مرتاحين فوق المسندين الجانبيين، ينظر عبر النافذة إلى الخارج حيث النسيم يعبث بالقماش الخفيف الباهت للستائر، عرفت أنه علم بوجودها لكنه لم يلحق لذلك بالًا.

اقتربت وجلست أمامه ولم تنظر له كذلك، حدقت مثله إلى الخارج، والنجوم القليلة تتناثر فوق سجادة السماء الداكنة والقمر غائب خلف إحدى السحب.

-سامحيني.

صوت مبحوح اعتزل الكلام لأيام فجأة خرج عن صمته، عبر عن صرخة يتردد صداها خلف قفصه الصدري، حررها من الأسر وأرسلها إلى الهدف. لكن هدفه جامد، تعلم الجحود من أب جحد عليه مسبقًا، دارت الآية وانعكست الحكاية، انقلب القاسي رافض الرحمة إلى متوسل الغفران والسماح. انتشت بداخلها كرامتها التي هُدِرت فيما مضى، لكن مقابل ذلك ناحت طفولتها على أب انقلب به الحال إلى ترجي الغفران. انقسمت شقين، الأول ينتشي غرورًا والآخر يطأطئ إنكسارًا.

-على إيه ولا إيه

طغى الإنكسار في ردها، التفت إليها بأعين دامعة، ونظرة تتسول الرحمة، فتح فمه يحاول إقناعها لكنها سبقته في الحديث، أوقفته محل لوحة النشان وأطلقت الخناجر الواحد تلو الأخر، تحاول إصابته لا تفاديه كما في فقرة السيرك.

-على حرماني من الشخص اللي حبيته، ولا تهديدك، ولا جوازة ما وافقتش عليها وبردو رمتني فيها، ولا إنك خلتني مجرد سلعة تديها للي يدفع أكتر؟

دقائق مرت كسنين، نهضت بعدها منصرفة في صمت، بلا وداع كما دخلت بلا سلام. انكمش في مقعده، يتذكر جحوفه وجموده أمام نواحها المشبوب بالعذاب، ركعت أمامه تُقبل قدميه في محاولة يرثى لها من إلتماس المغفرة، دفعها وسحب قدمه وقد صاح فيها بعنفوان: بنت غندور ما تطاطيش أبدًا.. كل مدى بتحسيني إنك مش من دمي.

غرق وجهها الصغير في بحر دموعها، ضمت كفيها سويًا تتابع محاولتها العقيمة في ضحضحة والدها عن موقفه المتصلب: ومستعدة اعمل أكتر من كدا يا بابا، بس سيبه فـ حاله واعتقني م الجوازة دي.

رفع رأسه حتى اختفت عيونه خلف ذقنه، ردد بحزم قاطع: هتتجوزيه يعني هتتجوزيه، وإلا أنتِ عارفه هيحصل فـ حبيب القلب إياه...

أغمض عينيه عند تلك اللحظة، ترددت كلماتها الغاضبة والناقمة بعد المتوسلة في أذنيه، نهضت حينها واقفة وشمخت برأسها تحاول إظهار قوتها رغم إفساد الدموع للمظهر الذي أرادته أن ينطبع في عقله لكنه صار أشد تأثيرًا الآن، رفعت سبابتها: خليك فاكر إني آخر حد ليك فـ الدنيا.. ودلوقتي.. خسرته

جدران الحجرة الشيطانية ظلت تهمس بآخر كلماتها حتى أوشكت على إغراقه من كثرة ترددها، قبض على رأسه بين كفيها يتمنى تحطيمه؛ لعل ذلك يكون ملازه الأخير وخلاصه الوحيد، اعتصر جفنيه يحارب صورتها المتوسلة من أمام ناظريه بلا جدوى. نهض بجسد لم يتغذ بشكل يسمح له بالحركة منفردًا فتكوم أرضًا وقد جذب صراخه جميع القائمين على العمل في الدار.. حتى المرضى، نظروا إليه لبرهة من شدة الصدمة؛ فقد تحول من صامت كانن إلى وحش يئن خلال برهة، بعد حين استيقظوا وانصرفوا يمارسون عملهم في تهدئة المريض قبل أن يضر نفسه أكثر أو يؤذي غيره.

***

تكومت في أحضانه تضحك ملئ شدقها فيما يتابع تناول قطعة جديدة من الشيكولاته قبل أن يخبرها بنكتته القادمة. جذبت نفسها بعيدًا تطالبه بالتوقف، لقد ضحكت ما يكفيها أشهر قادمة، امسكت بكأس الماء ترتشف فتعيد ترطيب حلقها الجاف، نظرت إليه بعدما انتهت فوجدته يحوم فوق ملامحها بتركيز شديد، رفعت أحد حاجبيها وهزت رأسها كأنها تسأله عما به، أجابها بنظرة لامعة بينما جسده يدنو منها: أنتِ حلوة أوي.

شاع الإحمرار عبر وجهها، تأملها برغبة في تذوق هذه الحلاوة، دفع خصلة فرت إلى وجهها واقترب منها يتلمس طريقه إليها، بعد قبلة قصيرة حملها إلى السرير، لا يحرك عيونه عن عيونها، وصفو بريق الأعين متعكر بغمامة اصطناعية.

***

تمطأت بكسل، انبأها الفراغ جوارها أنها صارت وحيدة في الفراش، أرهفت السمع لتتأكد من خلو الحمام كذلك، ارتسمت ابتسامة بلهاء على شفتيها ونهضت بمرح زائد عن المعتاد، تحممت ثم أسرعت تنهب الدرجات في سعادة كطفلة تسابق الفراشات خفة.

نظرت إليها ناهد دون تعليق، حنكتها همست في رأسها بما حدث، ابتسمت منتصرة وانصرفت إلى عملها مرتاحة النفس، مطمئنة البال، لقد تم ما أردته على خير ما يرام.

تناولت سلمى الإفطار مع شقيقة زوجها الصغرى في المطبخ على عجل، تتابعهم نظرات عنبر الحنونة، تشاركهم مزاحهم.. فيما يقدم زوجها الإفطار سعيدًا بمتناولينه، ريتا الخبيثة ترهف السمع؛ لتنقل الأخبار إلى من جلبتها ووضعتها ها هنا بالدار.

حثت آية على الإسراع، يجب إعداد اليوم ليليق بحفلة على شرف زوجها، طاوعتها بفرح وقد انتقل إليها الحماس بالعدوى، جلبوا كل ما يحتاجونه للزينة وأسرعوا يرتبون المنزل لاستقباله أحر استقبال، تشارك الجميع في التحضير حتى رجال الأمن تبادلوا الأدوار في المساعدة دون إهمال عملهم الأساسي.

***

قادت سيارتها عائدة بعدما رأته مرة ثالثة هذا الصباح، حالته ميئوس منها، توسلتها الممرضة المسامحة وإراحة الكهل من ثقل ضميره بالذنوب، لكنها سدت

أذنيها وأعمت عينيها عن مرأه، شدت من قسوتها بتأكيد استحقاقه للعذاب الذي يلقاه الآن، فقد كان سبب مثيله وأكثر لها منذ سنوات وحتى الآن.

شعرت بالذكريات تلاحقها، خافت أن تفقد السيطرة على السيارة فتوقفت عند أقرب

استراحة على الطريق، طلبت قهوة مركزة تساعدها في استعادة التركيز المفقود ووجهت بصرها إلى سطح الطاولة المتشقق، تترك الحرية لعقلها في إطلاق ذكراه الأسيرة.

كم مرة لعنت اليوم الذي زارت فيه مكتب والدها؟، لا تتذكر ولن يحدث فارقًا؛ فحتى الآن تلعن تلك الصدفة. يومها قابلت ياسين للمرة الأولى وقد عطلت والدها عن إجتماع عاجل معه، أبت التأسف كما أمرها والدها، اكتفت بنظرة متكبرة أطلقتها من فوق كتفيها بكبرياء أثناء مغادرتها إلى أحد مراكز التسوق.

منذ ذلك الحين وضعها ياسين في عقله دون أن تدري، فتاة كما ترسخت في ذهنه، جميلة، أنيقة، ذات اسم يليق بمستواه، متأكد من خبرتها الفطرية في الدلال وحسب، سؤاله عنها بين كل حين وآخر لفت نظر الوالد إليه، نقله من خانة شريك إلى صهر، شراكة بالمجان توفر عليه الكثير والكثير، خصوصًا مع وضع شركته المتدهور في الفترة الأخيرة. هي كالحمقاء، سارت المياه أسفلها دون أن تشعر، ترتبت اللقاءات بحنكة والدها وانتهزها الأخر فرصة مواتية، تقرب منها، مارس دهائه لإيقاعها في شباكه، أبت، تمنعت، فزاد إصراره أضعافًا مضاعفة، فهو يهوى القتال والفوز بعد صراع، حياة العمل وثقت تلك الغريزة داخله؛ نيل الصعاب.

اعتقد تمنعها غنج نساء، فقط لتريه أنها ليست كغيرها وصعوبة نيلها، تقدم بعد مدة قصيرة ورحب به أبوها، تجاهل تذمرها، رفضها أن تكون لغير من أحبت، صرحت بعشقها لشخص آخر، تجمد وجهه وتحول إلى رجل ثلجي ينضح برودة. جلس

بعنطزة، طالبها بأن تحضر من تهواه ليطلبها منه إن كان له وجود، عرفت أنه حتى وقف أمامه محبوبها كان يكذبها ويعتقد افتراء إدعاءها.

هاجمه، أخرجه من منزله مطرودًا مسحوبًا بين أيدي الحرس، طعنه في رجولته، وسمه بالجبن والحقارة لأنه فكر في حب من هي أعلى منه منزلة ومقامًا، بكت عليه حتى جفت دموعها، وتشبثت بموقفها، إن لم تكن له لن تكون لسواه.

لم يدم صمودها كثيرًا، فبعد أيام ألقى أمامها الأب الحنون صور حبيبها بعدما ضربه رجاله، غارقًا في دمائه، متوسدًا الأرض الغير ممهدة، وملابسه ممزقة، نزف قلبها حبيبًا أوشك على الموت لأنه أخطأ يومًا وهام بها.

حاولت المسك ببقايا أمل، متأكدة إن عرف ماجد سيلومها لضعفها وقلة صبرها، لكن والدها أدرك ذلك، فعاد يخبرها أنه تم اعتقال ماجد في تهمة ما، اعترف أنه لفقها، وحبيبها بريء لكن كيف تثبت ذلك بالدليل؟، والقانون لا يأخذ إلا بالبراهين الملموسة، توسلته أن يخرجه من حبسه على وعد بإطاعته بعدما زارته وتفحصت عيونها ما حل به من المساجين المحنكين.

ارتشفت قهوتها كريهة المذاق بإكراه، مُرّة كذكرياتها وبشعة كشعورها وقتها. نسج الأب خطته بمهارة فأرسل ماجد إلى الخارج فور خروجه من قسم الشرطة في فرصة لن يستطيع تعويضها. أبعدها عن أي ضغط قد يسبب لها الإنفجار أو العودة إلى العصيان، تم الزفاف وسلّمها لياسين، وتسلم مكانها عقود عمل وأموال تخرجه من ضيقته.

رجع ماجد بعد شهرين يزف إليها أخبار نجاحه في الخارج ويرغب في التقدم لها من جديد، وقتها صدمه الأب بزواجها منذ أيام وذهابها لقضاء شهر عسل سعيد. انكسار جديد غمره، ففر إلى الغربة عائدًا من حيث أتى، يجر أذيال الخيبة؛ فلم يبق له ما يربطه بهذه البلاد. لم تره ولكن الخدم أعلموها بما حدث، حاولت أن تنساه

وتتقبل زوجها وتسعد معه، فقد وقع ما وقع، كما أن ياسين ليس كريهًا مثلما خيل لها.

الأموال وحدها لا تكفي، بل تحتاج إلى عقل متيقظ يديرها بمهارة، ضاع منه المال بعد مدة لم تكمل سوى العام، أعلن إفلاسه وأصابته أزمة قلبية شديدة، رقد بعدها في فراشه بلا حول، رفضت تمريضه أو مجالسته، أرسلته إلى دار للعجزه في الإسكندرية، وعللت ذلك لزوجها بأنه صرح برغبته في العودة إلى مسقط رأسه، وإصراره على ما في رأسه، لكنها لن تقبل تركه دون رعاية فحجزت له بأرقى الدور هناك.

نبهته قبلًا أنها لن تشفق عليه يومًا كما لم يفعل، لقد فقد ابنته منذ دخلت المصالح عقله وفضلها على وحيدته وسعادتها، ابتسمت بشماتة تودعه والنصر يرفرف بين جفونها، لقد انتقمت لنفسها المنكسرة وجبرت صدعًا شرخ روحها.

أمسكت الهاتف بانزعاج، نادمة على فتحه فور دخولها الاستراحة، تعجبت من اسم الخادمة المضيء بشاشة المحمول، أجابتها متأففة ويدها تزهد بقية الفنجان القديم: خير؟

استمعت وانقلب وجهها مع كل كلمة، ألن ترتاح؟، من أين تأتيه كل تلك المصائب؟، كتائب كتائب بلا هدنة أو فترة سلام، أغلقت الهاتف ونهضت غاضبة، ألقت وريقات من المال فوق المنضدة ورحلت تكيل اللعنات وتسب من وضع سلمى بطريقها.

***

ترك الصغيرة في عهدة حياه مدعيًا زيارة صديق ما في المستشفى نتيجة وعكة صحية شديدة، وانصرف إلى عمله الغير مشروع، دخل إلى مكتبه في شقة نائية عن المناطق المزدحمة بالسكان حتى تقل الأعين الراصدة لحركته.

جلس خلف مكتبه ولحقه ساعده الأيمن رامز، شرع يخبر سيده بكل المستجدات، يتلقى الأوامر على وعد بتنفيذها كما يجب؛ أمر بجلب المزيد من الفتيات وآخر يخص شحنة قادمة عبر المطار محملة بالسلاح غير المرخص خدمة لمعارف ودخل إضافي لا بأس به، يتنقل بين التجارات الممنوعة بأريحية شديدة، كأن الرقابة ليست واقعة والبلد سائبة بلا حارس أو حام.

***

هبط من سيارته بعد يوم غير هانئ في العمل، فكر عدة مرات في الحديث إليها حتى أنه توجه صوب مكتبها ليجده خال منها، لم تأت إلى الشركة هذا الصباح.

كذّب نفسه حين استيقظ جوارها، استعاد الذكرى خلال اليوم لكن كيف فقد السيطرة على ذاته حتى وصلا إلى تلك المرحلة؟، لم يتعط في حياته مخدر أو مسكر وكذلك لم يفعل الليلة الماضية، فَلِمَ لمْ يشعر بفعلته؟

هاله الصمت المحيط بالمنزل على غير المعتاد، عادت ذكرى نظرات رجال الأمن على البوابة الرئيسية للبيت تلاحقه، دارت في رأسه الظنون وأكمل طريقه متوجسًا، فتح الباب وتقدم داخلًا عبر الظلام، يتلمس طريقه بصعوبة، فجأة.. فتحت الأنوار و كُسي بالزينة والقصاصات الملونة، ورغوة بيضاء تناثرت كبشائر الثلوج في البلاد الشمالية، وجد العائلة تحيطه مهللة بأغاني عيد الميلاد، تبارك إتمامه العقد الثالث وشروعه في الرابع، تعلقت كادي بعنقه تقبله كل ثانية تقريبًا، تحاول إثبات ملكيتها له فيما سلمى لا تبالي بفعلها، تمركز انتباهها فوق صفحة وجهه المتهرب بنظراته بعيدًا عنها.

شق خطًا عبر الكعكة الضخمة الموصى عليها خصيصًا من أجله، وانصبت فوقه الهدايا من الجميع، ألبسته زوجته الأولى الساعة الفضية التي لمعت ببريق خاطف، لثمت وجنته وهمست قرب أذنيه باعتذر عن تفويتها الليلة الماضية بسبب مرض

والدها المشتد، ووعدته بليلة حافلة تعويضًا عن التي خسروها، اكتفى بابتسامة باهتة أغاظتها لكنها لم تمح البسمة عن ثغرها.

جلس محمد يتبادل حديث عام مع كادي وناهد بينما تساعد الأخت الأخرى عنبر في تقسيم الكعكة لينال الجميع نصيبه، وريتا تسكب المرطبات، اعتذر ياسين متعللًا بإجابة هاتفه الرنان، لحقت به سلمى بعد هنية كي تقدم هديتها الخاصة.

قلبها المشاغب لم يتوقف عن دغدغة قفصها الصدري منذ استيقظت، وعقلها يعيد عليها حديث المساء الفائت، سهرة السمر التي قضتها معه، المتعة التي ذاقتها في تشاركهما تناول الشيكولاته وكعكة عيده.

لمحته يكاد يتخطاها فأسرعت تعترض طريقه، رمقها بنظرة سريعة تسببت في تورد خديها، بسمة خجلة ارتسمت فوق ثغرها الغض، رفعت كفيها بعلبة قطيفة زرقاء مستطيلة، قربتها إليه أكثر مهمهة: كل سنة وأنت طيب، نسيت أديهالك إمبارح.

فتحها كاتمًا تنهيدة ترغب في التحرر، التقط القلم الفضي أداره بين أصابعه الرشيقة ثم أعاده إلى مهده في هدوء، رفع رأسه إليها: وأنتِ طيبة، ماكانش في داعي تتعبي نفسك.

تقلصت عضلات وجهها أمام كلماته الجافة، وضع مسافة طويلة بينهما كأنهما غريبان، لِمَ ابتعد بعدما كان قريبًا لأقصى درجة؟

حاول تجاوزها بعدما كرر شكره، بلا وعي اعترضت طريقه مجددًا بوجه متصلب، رصدته بعيونها لدقيقة ثم سألته بعد فشلها في أسر عيونه: إيه اللي حصل؟

صمت لكنها لم تتركه، رددت سؤالها عدة مرات بصيغ مختلفة، يحيرها تصرفه، معاملته التي انقلبت على حين غرة دون سبب مفهوم، حدث من المفترض كونه سبب تقاربهما أكثر.. فرقهما بشدة.

انفجر يجرحها بسهام اتهاماته وكلماته: إذا كنت فاكرة إن اللي حصل إمبارح ممكن يغير منزلتك عندي أو يقربني منك يبقى بتحلمي!، اللعبة اللي عملتيها إمبارح وخلتيني أفقد السيطرة على نفسي قدامك.. ما تخلش عليا!، سواء المُسكِر اللي حطتيه فـ الكيكة اللي عاملاها حضرتك ولا المايه أو غيره.. فـ دا أبدًا مش هيخليني أقرب منك زي ما أنتِ متخيلة!

أردف بذقن مرفوع: أنا بأحب كادي وبس.. عمري ما هأحب غيرها!، خلي الكلمتين دول حلقة فـ ودنك.. وكفايه كهن ستات.

هامت في عالم آخر، تحاصرها قذائفه الجارحة، تتخبط في ملكوتها، سمحت لقلبها بالنزيف في صمت محتجب عن الأعين بينما أبت لدموعها هوان السيلان أمام محررها القاسي. كزت على أسنانها تمنع صرخة من التعبير عما يشوب داخلها، نشبت أظافرها في ذراعه تستوقفه، التفتت إليه بأعين تكاد تخرج من محاجرها لشدة جحوظها، خرجت الكلمات مدروسة، تعيد نذرًا يسيرا من الكرامة المهدورة: أنا ما ضربتكش على إيدك عشان تتجوزني، بالعكس أنت اللي حفيت ورايا، أما بالنسبة للعبة اللي عملتها.. فأنا مش محتاجه ألعاب عشان تقرب مني؛ لإنك جوزي.

تابعت بعدما ازدردت ريقها وبللت شفتيها: حبك لكادي على عيني وراسي، وأبدًا ما حاولتش أخليك تكرهها ولا فكرت فـ كدا، على العموم ربنا يخليكوا لبعض ويخليلك حبك ليها، أما حبك ليا.. فأنا بقى اللي من دلوقتي مش عايزاه، زهدت فيه، اشبع بيه.

دارت منصرفة لكن قبل أن تغيب من أمام عينيه أضافت جملة أخيرة من فوق أكتافها: وبالنسبة لكيد الستات، فـ أنت لسه ما شوفتش منه حاجه.

هرولت إلى الخارج، تتمشى في الحديقة وتستنشق الهواء العليل، خشت أن تلتقي بأحدهم وهي متجهة إلى غرفتها، لم تكن مستعدة للحديث أو الإنصات إلى أسئلة عن خطبها، ترغب في الوحدة بأسرع وقت. بعد حين تسللت إلى سطح المنزل بعدما

تيقنت خلو الطريق، افترشت الأرض محدقة إلى النجوم، تنظر إلى كل واحدة على إنها حلم مفقود، فقدته عبر سنوات عمرها وآخرها الحصول على زاوية داخل فؤاد المحبوب.

لم تطلب المستحيل، أو أمر غير مشروع، إنه حبيبها وزوجها، قسوته أوجعتها، كانت صادقة في كل كلمة تلتها على مسامعه، زهدت حبه.. لكن فقط للحظة، حين سمعت اتهاماته غير المبررة، ضربت على قلبها عدة مرات بقبضتها؛ تأمره بفتح قضبانه حتى يخرج حبه من دواخلها، سد أذانه كما هي العادة عندما يتعلق الأمر بياسين.

***

سارت تدفن كفيها في جيب تنورتها الفضفاض، تسير بأعين موجهة إلى الأرض كأنها تحصي

الخطى أو تحسب ذرات التراب، يوم جديد مر عليها والآن تتجه إلى منزل حنان لترتاح وتستعد لليوم التالي.

بعد حين شعرت بأعين تترصدها، وشخص يسير خلفها، سلكت طرقًا مختلفة لتتيقن، انتابها الخوف حين تأكدت، هناك من يلحقها حقًا!، توقفت على حين فجأة، استدارت تباغت ملاحقها علها تذبذب نفسه فتستطيع الهرب بعزم ما فيها.

فغرت فمها حين أوشكت على الاصطدام بجسد حمزه، تغضن جبينها وهي تسأله بحنق شديد: أنت ماشي ورايا ليه؟

هز كتفيه معلنًا حسن نواياه: ماحبتش أسيبك تمشي لوحدك والدنيا هتليل، وبما إني عارف رفضك لركوب العربية معايا لوحدنا، قررت أخدها من قاصرها.

زمت شفتيها: وحضرتك شايفني عيله صغيرة مش هتعرف تروح لوحدها؟

-لا كبيرة وقد الجدة كمان، لكن الحرص واجب، مش هاستحمل صداع ميمي لو جرالك حاجه.

-إمممم، ميمي.. هااا.

رفع حاجبيه بترفع: عندك شك إنه حاجه تانية.

قرصت بأضراسها على باطن خدها تكتم سلاطة لسانها عن النيل منه ومن عجرفته، التفتت وسارت تتقدمه خطوة فيما لحقها بصمت كأنه ظلها، يشاركها الطريق فقط.

سألته حينما طال الصمت: هي العربية دي بتاعتك؟ .. متأكد يعني؟

ابتسم بشدة: عشان قديمة وعلى قد حالها؟

أومأت فتابع: من زمان وأنا مقرر إني مش هأعتمد على والدي فـ حاجه، لو عايز تليفون هاشتغل وأجيب حقه، عربية هاشتغل وأدفع تمنه بتعبي، حتى لبسي.. بابا نفسه عودني وشجعني على كدا، رغم إن سمية هانم كانت بتعارضه كتير.. لكن فـ الأخر بأعمل اللي مرتاحله.

غمزها بخفة مردفًا: والعربية اللي مش عجباكِ دي، أول قسط دفعته فيها كان تاني مرتب أقبضه من الشركة.. أخدتها من أبو واحد صاحبي بالقسط.. والراجل كان مهاود معايا ومعرفة.

-ما فكرتش تغيرها؟

-ليه؟، أغلب شغلي محافظات وبأروح مع بقية الفريق فـ عربية الشركة وأغيب بالشهور أحيانًا.. بتقضي غرض لما أكون هنا، مش دايمًا باستعملها حتى.

-أعذر فضولي بس حاستها مش راكبة عليك.

قهقه: مش مهم هي تركب عليا، الأهم إني أركب فيها.

اتسعت بسمتها ثم أسرعت تودعه، ركضت تصعد السلالم، تنهبها بسرعة، دلفت إلى المنزل مهتاجة الصدر ودقات قلبها تتصارع، عقلها يريد إقناعها أن حالة القلب ما هي إلا نتيجة المجهود الجسدي في الصعود، أما قلبها فيأبى الإنصياع لمنطق العقل ويفرض كيمياء من نوع آخر.

***

دلف إلى غرفة سلمى متوجسًا، لا يريد مواجهتها بعد الكلمات النابية التي تبادلاها، أغاظته صلابتها ولكنها أعجبته في نفس الوقت، يجد نفسه حينًا يغتاظ من عنفوانها أمامه بدلًا من تدلهها حبًا فيه.

اطمأن على خلو الغرفة، بحث عن الورقة التي كان يحملها معه حين دخل البارحة، وجدها متنهدًا وتقدم من الباب يرغب في الخروج، لفت نظره الغلاف البراق المكسوة به علبة الشيكولاته التي تناول أكثر من ثلثيها، غريزة حثته على إخراج العلبة من كسوتها والنظر إلى البيانات المكتوبة فوقها.

سب ولعن، العلبة تحتوي على نسبة من الكحول داخلها، بسيطة ولكنها ثقيلة على من لم يعتد على تناول الخمر، كز على أسنانه والتقط البطاقة المرفقة، قرأ اسم أحد الشخصيات التي يعرفها حق المعرفة نتيجة العمل المتبادل، أعاد الأشياء مكانها وترك الغرفة بذهن شارد.

***

استمع الجميع بإنصات لما ترويه حنان مضطرة، لعل شادي له علاقة بطريقة أو بأخرى بقصة اختطافها، حدق بها أحمد يحاول التحكم في نفسه كما اعتاد لسنوات خصوصًا في مهنة تستلزم أقصى درجات الكبح.

عرض التحدث إلى ضابط الشرطة ليتواصل معه ويتلوى على مسامعه المعلومات الجديدة بصفته محام قديم، ابتعد يدق أرقام هاتفه ويأمر رامز بالتصرف وتدبر أمر عودة حياه ومي مي في أسرع وقت: الغبي دا تشوفلك صرفه معاه!، بلغ عنه.. موته، اتصرف!، هيودينا فـ داهيه.. مش عشان واحدة أهد كل اللي بنيته السنين اللي فاتت.. كدا ورقنا هيتكشف

حاول رامز بث الطمأنينة في رئيسه ووعده بتدبر الأمر في أسرع وقت بطريقة متكتمة، عاد إليهم يطمئنهم على عمل الشرطة بوسع ما فيها وأن هذه المعلومات قد تساعد في تسريع إيجادها.

***

انتهز أحد الرجال الأشداء المكلفين بحراسة الفيلا التي تحوي داخلها الفتيات فرصة مغادرة شادي إلى عمل ما، سلم نيفين الهاتف وأخبرها ضرورة الحديث إلى الساعد الأيمن للرئيس، كانت وحدها على تواصل معه بعد شادي، لكن لا أحد يعلم من ضمنهم شادي ذاته.

دقت الرقم الذي تحفظه عن ظهر غيب، استمعت إلى التعليمات، تساءلات عن سر اهتمامهم بحياه إلى هذا الحد، ومعرفتهم لها بالاسم، وضع رامز حدًا لاستفساراتها: أنتِ عليكِ تنفذي وبس، إنما الأهداف وليه ومش ليه.. دا ما يخصكيش فـ حاجه.

أضاف بلهجة تحمل الوعيد: ما تزعلنيش منك يا نيفين..

كزت على أسنانها ورسمت بسمة مزيفة على ثغرها، تأسفت وأعلنت السمع والطاعة. بدأت علاقتها بهم تشتد منذ تعرفت على شخصية رامز ورئيسه أحمد في

إحد الزيارات التفقدية التي تحدث بشكل دوري للإطمئنان على سريان الأمور كما يجب.

فطنتها وذكاءها ساعداها في التعرف على هويتهما، رفعت الراية البيضاء وانحنت أمامهما، تعلن الولاء ووجودها بالخدمة متى احتاجاها. بعد عدة مرات حققت لهم بغيتهم نالت الثقة المنشودة، جعلها ذلك تسعد، فإن كان يجب عليها الحياة في هذا العالم فلن تقبل بالأدنى أبدًا.

بعد تفكير لساعات، وأثناء توجههم في اليوم التالي إلى أحد النوادي الليلية، انتهزت الفرصة وتحدثت إلى الحارس المعين لها في المكان، أخبرته بما تريد فأومأ مطيعًا، هكذا وضع لتنفيذ أوامرها له مهما كانت، أو بدت غريبة.

حكت كفيها في ظفر حينما وصلها تمام المهمة، بقى عليها خطوة واحدة فقط، ابتسمت داخليًا تحسد حياه على حظها، فلولا أنها ستستفيد من تهريبها بعيدًا عن شادي، لما خرجت من بين أنيابه حتى وقت مماتها.

***

مرت عدة أيام على حال غير سار، تذهب إلى الشركة تنهي عملها على أتم وجه ثم تعود إلى المنزل أو تخرج لتتمشى قليلًا، زاد انعزالها عن الجميع وابتعادها عن المحيطين، إلا من أعين عسلية تتابعها من بعيد.. فقط تطمئن على وجودها في أمان دون كسر لهالة المساحة الشخصية المحيطة بها.

وقفت على السطح الذي أدمنت الجلوس فيه، مستمتعة برفقة الليل ومناقشة النجمات، فيما القمر يتابع الحوار في عنفوان مخلوط بوقار، ضحكت على نفسها تتوقع إصابة عقلها بالخبل؛ فقد صار حديثها في الغالب مع الجماد، أو عديمات الأرواح.

مدت ساقيها واسترخت فوق مقعدها، ترتشف كأس الماء على مهل، حتى أنه ليهيء للناظر لها أنها أتت به من نهر بالجنة؛ لشدة تلذذها المستغرقة فيه. شعرت بجسد يشاركها الجلسة لكنها لم تلتفت فضولًا لاكتشاف هويته.

اخترق الصوت صومعتها وأعادها لواقعها الذي تحاول الفكاك من بين براثنه: هتفضلي عازله نفسك كدا لحد إمتى؟.. فاكرة إن بعدك عنه هيفيد بحاجه؟

-مش عارفه بتتكلمي عن إيه؟

قالتها ببلادة مما أثار ناهد بشدة، أنبأتها بهدوء: أنا سمعت الحوار اللي دار بينك وبين ياسين يوم عيد ميلاده.

زفرت تقرص على أعينها بالإنغلاق، اعتدلت في جلستها وشبكت أصابعها ملتفتة إلى محدثتها، استفسرت بلا مبالاة: وبعد ما سمعتِ.. متوقعة أعمل إيه؟

-زي أي واحدة عاقلة عايزه تحافظ على جوزها.

-أديكِ قولتيها «عايزه تحافظ على جوزها».. أنا بقى مش عايزه.

جذبت كفيها من تشابكهما وتشبثت بهما، تحاول التأثير على موقفها السلبي: سلمى، الكلام اللي ياسين قاله ماكانش موجه ليكِ أنتِ.. دا كلام فضل يقوله ويفكر بيه نفسه عشان ما يحبكيش.. خايف الحاجز اللي خالقه بينه وبينك ينكسر، فقرر يبعدك أنتِ عنه بالكلام دا وفـ نفس الوقت يفكر نفسه، هو معتبر أي مشاعر هيحسها ناحيتك خيانة لكادي.

جذبت كفيها بعنف ووقفت تشد مقاومتها التي أوشكت على التهدم أمام مبررات ناهد، تتذكر نظرته إليها كأنه لا يراها، يتجاوزها لرؤية أخرى، لن تتحمل المزيد.

عقدت ذراعيها: آسفة يا ناهد، وصلنا لطريق مسدود خلاص.. دا غير إن عمري ما هأقبل على نفسي إنها تحب واحد جبان، أو حتى شايف فـ حبه ليها خيانة.

أولتها ظهرها مردفة بجدية مفرطة: كلها شوية والأمور تتظبط فـ الشركة، وقتها هأنسحب منها ومن حياته كلها.. قبولي من الأول للوضع دا كان غلط.

***

دلف إلى مكتبه بعدم أمر مساعدته بمنع أي أحد، مهما كان، أن يقطع عليه خلوته، تناول منها كوب قهوته الساخنة وأسرع يغلق الباب خلفه حتى يمنعها من الإعتراض ويسد أذانه عن التأتأة المترددة على شفتيها.

حدق إلى سطح مكتبه برهة، توقفت الرسائل المخطوطة فوق القصاصات الملونة، والغداء أصبح يتناوله وحيدًا أو مع أحد العملاء لمناقشة الأعمال بينهم. انسحبت من حياته بغتة، وتركت خلفها فراغًا كبيرًا، يجعله يلهث بحثًا عن بقايا منه ولو النذر اليسير.

تخلل شعره بأصابعه ثم شده من جذوره كأنه يرغب في اقتلاعه، النار تنهش في رأسه، الأفكار تفتعل حروبًا داخله، نهض يحوم في غرفته كأسد يحنق على رعيته الخونة. تمسك بكوب القهوة دون أن يرشف منه. سألته نفسه عن سبب ضيقه، ألم يكن هو من رغب بذلك منذ البداية؟، لِمَ الآن يزأر بعد تنفيذ بغيته؟..

حاول إقناع ذاته أن ضيقه ليس له علاقة بسلمى، بل هو ضيق من أزمة في العمل ومشاكل في الشركة لا يستطيع إيجاد حلول لها.

عادت نفسه تفتح أبواب المصارحة أمامه؛ لِمَ إذن تفتش عنها فور رجوعك إلى المنزل، تتلمس ظلها أو تحلم بطيفها؟

أغلق الأبواب بشدة ورفع السماعة يطلب من مساعدته البدأ بالعمل من جديد وتسليمه ما يحتاج إلى معاينة، تجرع القهوة مرة واحدة قبل دخول العمل، وقضى بقية يومه ينغمس في أي شيء سوى التفكير فيها ومشاعره وشوقه الغريب عليه.

***

تجاورتا تفكران سوية، لا ترغب في فقدها بالسفر، لكن في نفس الوقت تدرك أن هذا راحة لها وبداية أكثر سِلمًا من أجل ذاتها، شعرت بالأبواب توصد أمامها، الواحد تلو الآخر، تخسر أحبتها بالتدريج، ليس بإزهاق الأرواح ولكن برغبتهم في الإبتعاد.

قرصت على كفيها المتشابكين بشدة، تكبح نفسها من قول ما قد يفهم على أنه أنانية محضة، رفعت رأسها المنكس بالتدريج ونظرت إلى صديقته المنكسة بجوارها، أشفقت على حالها، تعلم أن السفر ليس بإرادتها إنما مقاومة أخيرة للهرب من البئر الذي أُسقِطت فيه. حاولت التفكير بحل آخر، يكون منجاة سوى الغربة والفراق، دعبست في ثنايا عقلها قبل أن تتنهد معلنة الفشل.

-دا آخر قرار؟

بصوت واهن مقهور: مافيش حل غير كدا، أي حد بأدخل حياته بأدمرها وأذيه، فـ الأول بابا اللي مالوش ذنب فـ الدنيا غير إنه رباني أحسن تربية، وأختي اللي العرسان بيهربوا منها دلوقتي بعد ما كانوا بيتمنوا رضاها، ميمي.. الطفلة اللي مالهاش ذنب فـ حاجه، خلتها تعيش أصعب أيام فـ حياتها.. جوا بيت سيء ومع ناس بشعة، غير القلق اللي عيشته لأهلها

صمتت حين أوشكت على وصف نظرات حمزه التي قطعت طيات قلبها، لقد سقطت من نظره حينما علم الحقيقة المجردة عنها وعن حياتها قبله، وما أوصلها إلى بيته وحياته، بكت بحرقة وارتمت بين أحضان صديقتها تتمرغ في حنانها وحبها الذي ستفقده بعد أيام.

***

وقفت تُقلِب محتويات القدر بشرود، تفكر في استكانة ميمي للحظة ثم انفجارها في أخرى، تخشى على حالتها من الإنتكاس، يتقطّع قلبها عند رؤيتها متألمة موجوعة، ترفض الحديث معها، تدينها على اختفاء حياه من محيطها، قبلت الذهاب إلى المدرسة فقط لتهرب من الإضطرار إلى مجالستها، تحولت كغريبة في لحظة.

استشعرت أنفاسًا تحفظها على رقبتها، تلفح بشرتها الساخنة من الحرارة المنبعثة من الموقد، ارتسم شبح ابتسامة على شفتيها، لم تستطع المقاومة حين أحست وجوده حولها باعثًا الأمان إلى نفسها، سلّمت جسدها إلى ذراعيه التي أحاطت خصرها.

-وحشتيني.

همسها معبرًا عن شوقه العارم الذي سكن جنبات فؤاده، اتسعت ابتسامتها بشدة ودارت حول نفسها لكي تلقي رأسها فوق نصف صدره الأيسر؛ تصغي لدقات قلبه العازفة بحبها.

-تعبانه، تعبانه أوي يا أحمد، حاسه إني مستهلكة وما بقاش فيا حيل لأي حاجه.

بالفعل شعرت بارتخاء ذراعيها ودنو عينيها من الإنغلاق، حتى ساقيها بدأتا تخوناها وتخر قواهما معلنة استنزافهما من كثرة التحمل. فجأة شعرت بنفسها محمولة على ذراعيه، فتحت عينيها بغتة تحدق في وجهها مذهولة: بتعمل إيه؟.. نزلني.

هز رأسه متوجهًا بها إلى غرفتهما: تؤ تؤ.

زفرت بحدة تحاول الإفلات بقواها الخائرة، المعرفة بسنه ووزنها زادا من ثقل ضميرها: أحمد بالله عليك.. أنا تقيله مش زي زمان، شوف وزني كام دلوقتي وبطني قدامي قد إيه.

-ما تحاوليش، والله لو أنتِ والفيل نفس الوزن، هأشيلك يعني هأشيلك.

ضربته على كتفه مغتاظة، لكنها استسلمت؛ فبين المطبخ وغرفته ثلاث خطوات عبروهم خلال الحديث: بقى كدا؟، خلاص أنت حر!، بس لو ضهرك وجعك مش هاسأل فيك ولا أعبرك.

لم يعرها إهتمامًا وأرقدها فوق الفراش بهدوء، لكن ما كاد يعتدل في وقفته حتى صرخ متألماً يتمسك بمؤخرة ظهره في ألم، انتفضت من رقادها واقتربت منه بعلامات الفزع والقلق على وجهها، ربتت عليه تحاول إعانته على الجلوس وقد تغضن جبينها خوفًا وأوشكت على البكاء لائمة بعنف: قولتلك ضهرك!، بس من إمتى بتسمع الكلام!

أحاط معصمها بقبضته حينما أوشكت على الذهاب لإحضار مرهمًا يخفف وجعه، نظر إليها بأعين يتلاعب فيها المكر: مش قولتِ لو ضهرك وجعك مش هاسأل فيك ولا أعبرك.

فهمت لعبته، فجلست جواره متنهدة براحة: يعني أنت كويس؟

أدركت فعلته بها فاغتاظت وأولته ظهرها عاقدة ذراعيه، هتفت بغضب: بتلعب بأعصابي يا أحمد؟.. طاااايب

نهض ممسكًا كتفيها يرجعهم على الفراش ثم رفع قدميها من فوق الأرض قبل تغطيتها: حبيتك بس أوريكِ إنك مش قد كلامك.

غمزها مقبلًا جبينها: ارتاحي وهأكمل أنا تجهيز الغدا.. أنتِ برنسيستي إنهارده.

حدقت بالباب الذي أخفى جسده عن أعينها، ابتسمت بسعادة وتوسدت كفيها بهناء، تحمد الله على نعمة زوج مثله، يحبها، ويخاف عليها، لو بيده لكان القمر الآن بين كفيها تاركًا فراغًا بائسًا في السماء لغيابه.

أمسك نهاية فقراته الظهرية عند المنطقة القطنية يدلكها في ألم، سنه ولياقته لم يعودا يسمحان بمثل ذلك التهور، لكنها كانت إحدى وسائله في التخفيف عنها، وبعض الوجع لن يضر.

***

تعض شفتيها ثم تفلتها فتعود لإلتقاطها، ستفقد صديقة طفولتها إلى الأبد إن سافرت، لن تراها، تعلم أن وعود السؤال الدائم وكثرة التواصل مصنوعة من زبدة، حينما تلمسها نيران المسافات ما تفتأ إلا منصهرة.

-هاتي أشيل عنك.

دارت حول نفسها تنظر إلى صاحب الصوت المازح، رفعت كفيها تشير إلى خلوهما من الأحمال، تقدمها في إشارة إلى متابعة السير أثناء الحديث: مش قصدي فـ إيدك.

رفع سبابته وأشار إلى رأسه: الهموم اللي هنا، شكلها تقيله عليكِ لدرجة إنك ماشيه مأتبه.

زفرت بشرود متمنٍ: يا ريت الهموم حاجه ملوسة وقادرة أمسكها.. كنت رميتها فـ أقرب مقلب زبالة.

توجه بأصبعه إلى نهاية الشارع: قصدك زي دا؟

ابتسمت مرغمة: لا واحد بعيد.. بعيد أوي، لأحسن الهموم دي بسبع أرواح.

اكتفى بابتسامة ثم صمتا حتى توقفا أمام بوابة منزلها، ودعته باسمة وشكرته على الابتسامة التي زرعها فوق شفاهها ولو للحظة، طمأنها ألا تقلق نفسها وأنها على الرحب والسعة، وأنه موجود إن احتاجت لمن يسمع شكواها.

تقبلت سلمى عرضه دون تعليق، علم أنها لن تفعل مهما كانت بحاجه؛ لذلك سيكون إلى جوارها دون أن ينتظر طلبها، ستجده الحامي لها، يقف لمن يؤذيها ويصد عنها الضرر، استدار متجهًا إلى منزله، ونظرات كادي الحاقدة تتبعه من شرفة غرفتها.

فكرت كادي أن الأمر متطور أكثر مما تظن، نظرات ماجد التي لاحقت سلمى حتى دخولها أقلقتها، ليست نظرات جار أو حتى صديق، لقد تعدت تلك الحدود بمسافات، قبضت على أصابعها في غل، لن تسمح لماجد أن يحب غيرها، ستظل وحدها المتربعة على عرش قلبه إلى موته.

****

أجلستها ناهد على المقعد يسار ياسين حول طاولة الطعام ثم تركتها لتحتل هي رأس المائدة من الجهة الأخرى فيما تلقي تعليماتها: مافيش حاجه اسمها مش قادرة والكلام دا، الوجبة الوحيدة اللي بنتجمع فيها هي العشا، ومافيش داعي ننقص فيها كمان، كلي وبعدين أعملي ما بدالك.

تنهدت بحدة لكنها أحجمت عن الكلام، سكبت ما ترغب تناوله في صحنها ولم ترفع نظرها إليه بالمرة بينما رمقها بنظراتها بين لحظة وأخرى، تعجب وجهها الجامد المكسو بالجليد، اختفت ابتسامتها وانصهر إشراق وجهها.

في بداية معرفته بها ظنها عديمة الجمال، وزاد هذا من حنقه على شقيقته، لكن بعدما عاشت معه تحت سقف واحد تبدلت نظرته، سار يجد في ألاعيبها الصغيرة متعة وفي تهربها تسلية، وحين بدأت العمل في الشركة إلى جواره، وأغدقت عليه اهتمامًا تعلق به كطفل صغير يتلمس حنان أمه، لا يتخيل يومه يمر دون رؤيتها والشعور باهتمامها.

يدرك الآن أن كلماته كانت جارحة أكثر مما أراد، فبدل أن تدفعها خطوة بعيدًا، أرسلتها إلى ما وراء البحار، فلم يعد يلمح حتى طيفها أو شبح شيء منها، ولولا ضغط ناهد لما كان رأها هذا المساء أيضًا.

اشتد انعقاد حاجبيه حين رأى إغلاقها لعيونها بشدة وقد توقفت يديها عن الإرتفاع بالملعقة إلى فمها، قبل أن يتفوه بحرف سمع شقيقته تسألها: مالك يا سلمى؟

تراجعت عن محاولة إخفاء ألمها وتركت الملعقة نهائيًا، اعترفت: راسي وجعاني.

-الصداع النصفي بردو؟

أومأت بلا حول: شكله كدا.

أشارت عليها ناهد بالراحة ونادت عنبر كي ترافقها وتعتني بها، استأذنت مستندة على عنبر تكاد تسقط من شدة الدوار المتشبث برأسها. تناولت الدواء شاكرة عنبر على مساعدتها، نامت تلعن التفكير الذي أوصلها إلى تلك الحالة المزرية.

***

اتصلت على سلمى تخبرها بعقد قرانها اليوم السابق، توقعت اللوم والتأنيب على تهورها لكن ليس إلى هذا الحد، تعالى صراخها عبر الهاتف فكادت تصم أذانها، تصفها بالحماقة والغباء، متهورة ولن تتعلم، تظن أن كل شيء في الحياة لعبة، والأمور تسير على هوانا، بكت بصمت تسمع كلماتها الجالدة، تقطّع نياط قلبها.

لم تشعر بطول صمت حياه، واستمرت في التقريع، تقريع يطولها قبل صديقتها، تعاتبها على الأحلام الوردية التي تحيا عليها مثلها تمامًا، عقل تغيب وقلب تحكم، أوصلاها للحالة التي تسكنها الآن بلا أمل في الرحيل. صرخت بها، تتمزق من داخلها، لا ترغب لها بألم كالذي تحياه، كررت غلطتها، تزوجت بأنسجة خيالية عن حب ستحصل عليه هبة من الله، هكذا بلا دراسة أو عواقب، لم تفكر في دراسة فكرة

كون الفارس صالح كزوج لا يجرح، صديق لا يمل، أخ يحنو، وأب يحتوي، فقط اكتفت مثلها بالظن أنها خارقة القوى، لتحصد زوج كالحلم بلا روية أو تفكير في هبة سماوية.

أغلقت الهاتف فور إفراغ جعبتها، لم تنتظر التعليق، تعلم أنها بالغت وقرّعتها أكثر مما ينبغي، لكن ألا يكفي إحديهما الألم ومرارة العيش بقرب من تحب دون أن يشعر بها؟، وكل ذلك نتيجة التقصي ببطلات الحكايا والروايات.

****

جلس يقلب القلم بين أصابعه، يوقفه على رأسه تارة ثم يقلبه على سنه أخرى، حركة بطيئة متكررة بملل، ذهنه شارد يفكر فيما عرفه قبل دقائق، عيونه تضيق وحواجبه تقطب.

لقد نسي تمامًا أمر العميل الذي أرسل له الشيكولاته بمناسبة زواجه، تحدث إليه قبل نصف ساعة بعدما حولّت إليه مساعدته المكالمة، شكره عرضيًا على علبة الشيكولاته بذوق وإن سببت له كارثة وقلبت حياته رأسًا على عقب. لكن ما فاجأه تعجب الرجل من الأمر، بل وجهله عما يتحدث، اعتذر بأدب عن عدم مقدرته على الحضور، وأخبره أن الهداية التي حضرها أوشكت على الوصول لكنها لم تصل بعد.

أغلق معه بعد مجاملات صماء، حفظها عن ظهر قلب، لم تستد ع وجود ذهن لترديدها. إن لم يكن هو من بعثها، فمن فعل؟

أتكون الإتهامات التي قذفه بها صحيحة؟، تلاعبت لتصل إليه، وتتمكن منه؟، نسجت شباكها وأحكمت قبضتها حوله واستغلته بتلك الطريقة؟.. نفض عن رأسه هذه الفكرة، سلمى شديدة التعلق بأوامر ربها ورافضة لما ينهاها عنه، فكيف ستستخدم ما حرمه في الوصول إلى مآربها؟

****

زفرت حياه حالما رأتها تطرق باب منزلها الجديد، تقف أمامها بنظرات متأسفة منكسرة، تلتمس منها العفو والعذر لكلامها الجارح، أشاحت بوجهها في محاولة للتماسك وعدم إظهار الغفران لفترة أطول، أسرعت سلمى تطالبها: حياه، أنتِ عارفه إنه مش قصدي صح؟

لم ترد، فأكملت: مش عايزه أخسرك أنتِ كمان.

قطبت والتفتت إليها بسرعة تتفرس ملامحها، عن أي خسارة تتحدث، لاحظت جسمها الواهن وعيونها الذابلة المحاطة بحلقات السهاد، جذبتها إلى الداخل ثم إلى الغرفة بعيدًا عن أذان سمية المنشغلة بالطفلة.

أجلستها بعدما تأكدت من إغلاق الباب، حدقت بوجهها تمنعها من الكذب أو التهرب: إيه اللي حصل؟

هزت سلمى كتفيها بقلة حيلة وتسقطت الدموع رغمًا عنها تفسد قوة حاولت إظهارها: خسرت نفسي.

أجهشت في بكاء مرير، روت على مسامع رفيقتها ما يحمله قلبها من ألم، ذهبت أحلامها أدراج الريح، طارت بعدما فتح ياسين النافذة للهواء حتى يقتلع جذور خيالاتها.

تلمست وجنة صديقتها بحنان: عشان كدا خايفة عليكِ،مش عايزاكِ تتأذي زيي، حب وهمي يسيطر عليكِ،وقدرات خيالية إنك تنالي قلب اللي بتحبيه، حاجات افتكرناها سهلة وهي مستحيلة، بلاش تعلقي نفسك بالحبال الدايبه، وتفكري بقلبك وتنسي عقلك..

زاد تشبثها بكف الأخرى ثم سألتها ساخرة: وأنتِ فكرك بعد اللي حصلي في حاجه ممكنتوجعني أكتر؟.. ما تقلقيش، حمزه اخترته بعقلي وقلبي الإتنين سوا، القلب فقد ثقته من زمان، اتعلم درسه.

-أتمنى، بس وقت ما الحب يخبط باب قلبك، هينسى أي تجربة تانية، وهيفتح الباب ويعيش كأنها الأولى.. ربنا أنعم علينا بنعمة النسيان، زي أي حاجه فـ الدنيا ليها وشين، ساعات لينا وكتير.. علينا.

تشاركتا لحظة صمت قبل أن تنفضه حياه بعيدًا هاتفة بمرح: سيبك من النكد دا بقى، المهم إني رايحه أشوف بابا وزهرة وزين.. كلهم.. كمان كام يوم.. مش قادرة أوصفلك وحشوني قد إيه.

شاركتها شوقها متذكرة عائلتها التي مرت عليها مدة منذ اجتمعت معها: مش محتاجه تقوليلي؛ لإني حاسه زيك بالظبط.

استغرقتهم ذكريات الطفولة، واللحظات التي تقاسماها برفقة بعضهما في حضور الأهل، الدراسة واللعب، اكتساب الخبرات العملية والمهنية، تجارب الطبخ الفاشلة حتى تكللت بالنجاح بعد عناء.. إلى غيرها من الذكريات.

تعالت الضحكات وركلت الأحزان من النافذة، سمعتهم سمية فتركتهم لصفائهم، انصرفت تتيح لهما التمتع بلحظات الفرح وجمال اللحظة فيما تسحب ميمي خلفها وتقنعها بضرورة تقديم المساعدة في إعداد كعكة تحبها.

***

ارتفعت يد في الضوء الخافت فبدت كأنها ملك لشبح ما، انصاع الأخر للأمر واتجه يزيد إضاءة الغرفة بحيث تخفف الضغط على الأعين وتزيد الرؤية تفصيلًا.

عاد رامز للجلوس مكانه فيما نهض الآخر يضع الطعام المخصص لأسماك الزينة في حوضها، يتمتع بنشر الغذاء في أماكن مختلفة بتؤدة بين كل نثرة والأخرى، يتابع الأسماك الصغيرة تركض حتى تنال نصيبها من الطعام، ابتسامة جانبية لوت جانب شفتيه، قال بعد صمت طال: إحنا نبهناه بس عشان يدي الأمان، لكن لازم نخلص منه.

قست قبضته وشردت نظرته. وقف الأخر وابتسم بخفة خبيثة: ما تقلقش، كل شيء هيمشي زي ما تحب.

-لازم يبعد عن طريق حياه تمامًا.

-ما تقلقش، بس أعذر فضولي اللي هيخليني اسألك السؤال دا.. هأتجنن وأعرف أنت قابل ابنك يتجوز واحدة زيها إزاي؟

قهقه بطريقة جنونية أثارت ريبة رامز، استمر في ضحكه لفترة قبل أن يتوقف بغتة قائلًا: أنت عارف زيي بالظبط إن مش دا طريق اختارته بنفسها.

-أيوه بس..

قاطعه متابعًا: هو فعلًا بعد عنها لما عرف قصتها، بس وقتها كان بيتقلب زي السمكة المشوية على نار، مش طبيعي، عايز يتغاضى عن حكايتها وفـ نفس الوقت مش قادر، وسمية عمرها ما هتقبل بحلول وسط فـ الأمور دي.. يا يتجوزها يا يبعد عن طريقها، فـ الأول اختار البعد وقاوم نفسه.. لحد ما عرف إنها هتبعد عن طريقه، هتختفي من حياته تمامًا، حتى الصدفة مش هتجمعهم.. وقتها حسم قراره واتجوزها.

سكب فنجان قهوة من الماكينة الأجنبية، ارتشف عدة رشفات قبل أن يكمل: حمزه مش هيستحمل فكرة إن في غيره شاركه فـ مراته.. فترة وهيتعبوا من بعض.. هيسيبها وهتسيبه ومن أول يومين اثبتولي دا.

رفع رامز حاجبيه بعدم فهم وضلال: مش فاهم حاجه، دماغك مش قادر أوصل للي بتفكر فيه.

نظر إليه من زاوية عينيه عائدًا إلى مقعده الجلدي خلف المكتب: وما تحاولش.. لو قدرت توصل للي فـ دماغي مش هأبقى فـ مكاني دا وأنت فـ مكانك.

أنهى الحديث بجملته الأخيرة وأشار إلى معاونه للانتباه، بدأا يتناقشان في بقية الأعمال ويضعان الخطط ويرسمان طريقهما خلال الفترة التالية.

***

نغصت عليها كادي أيامها، تلقي الكلمات الجارحة كيفما أتفق، تسكب عليها سائلًا أو تلعب في أغراضها بمساعدة خادمتها الوفية ريتا، مما زاد الضغط على أعصابها وأنفاسها، خصوصًا أن أغلب المرات تكون وحدها بلا شهود على كيد ضرتها، وهي ليست من النوع البكاء الشكاء، فتكتم في نفسها حتى فاضت.

أصبحت تلاجئ إلى الخروج، الإنسحاب من محيط المنزل أغلب اليوم، تعود مع حلول الظلام، تنزوي في غرفتها حيث تأتي إليها آية حينًا وناهد مرات أقل، رفضت محاولة آية في الحديث وإفراغ ما تجيش به دواخلها، لقد جلبت هذا الوضع لذاتها وعليها تحمله وحدها.

تترك الشركة في الخامسة، تذهب للتنزه والتعرف على أماكن جديدة، تؤخر غدائها لتتناوله في مطعم جديد فيما تنظر إلى وجوه أغراب، تتابع تعبيرات أوجه الناس، ترى على بعضها سعادة غضة وعلى الأخرى همًا أثقل من همها فتتصبر.

قابلت ماجد في أحد المواقع السياحية يقوم بإلتقاط الصور بجوانب عدة تزيد شكلها سحرًا وإطلالًا، تناولا العصير الطازج المثلج المتناسب مع حرارة الجو المرتفعة، تعرفت إلى الفريق الذي يعمل معه وسعدت بمشاركتها لهم، دعوها للإنضمام إليهم في جوالات قادمة، قبلت وشاركتهم ما تناسب مع برنامجها ووقتها.

شعرت بالحماس معهم، رغم إختلاف وظائفهم إلا أن الثقافة وسعة المعرفة تجمعهم، من أكثر الأحاديث متعة كانت بينهم، يتناقشون في كل شيء، كافة مواضيع الحياة، ما يخص عملهم وما ينأ عنه، الفن، الموسيقى، الرقص، الكتب، حتى السياسة، ما ميزهم في نظرها موضوعية الحوار، دون تعصب أو تزمت لرأي دون سواه.

وقف ماجد بعد إنتهاءه من أخذ اللقطة التي أرادها في زاوية ما، تلفت حوله يمسح جبينه المتعرق بشدة نتيجة المجهود الذي فعله بالإضافة إلى حرارة الجو، لمحها تقف مع زميلته تتعلم كيفية إلتقاط صورة بكفاءة أكثر من مبتدئة، حدق في بسمتها الطفولية فيما توسم ذاتها بالجهل والأخرى تحاول إقناعها بأن لا أحد ولد يعلم كل شيء، انصاعت لها من جديد مع رغبة حقيقية في التعلم وإتقان ما تتلقنه من معلمتها الجديدة.

تحركت مشاعره، تمنى أن يفعل أشياء لن يقدر على فعلها، زفر بحدة يسحب نفسه من قوقعة ذكريات أوشكت على إلتهامه، صاح في الجميع للتجمع فقد حان وقت مشروب يرطب حر النهار.

***

جلست على حافة النافذة الداخلية، يلتقط جسدها أطراف الشمس وبداية توسطها لموقعها، تمسك قميصًا تخيط به زرًا وذهنها يشرد بين حين وآخر، تتابع طيرًا ترك عشه، أو تستمع إلى مواء قطة، ويديها تعملان بآلية اعتادت عليها.

شعرت بترصد أحدهم بها، رفعت رأسها عما بيدها، رأت جسد والدها الذي لم يشف بعد من آثار المرض، همت أن تنهض وتساعده في الجلوس أو حتى توصله إلى المكان الذي يريد، لكنها عادت تتقوقع مكانها مطأطأة الرأس، والنظرة في عيونه ردعتها.

استدار ليغادر لكن بريق الدموع في أعينها أصابه في مقتل، لقد بذل قصار جهده منذ وفاة والدتهم أن يكون بمثابة تعويض عنها مما زاد الأعباء العاطفية والنفسية عليه أضعافًا مضاعفة، كان همه الدائم سعادتهم وراحتهم، لم يضرها يومًا ولم يجرحها بقراره مرة فلما عارضته وعصت أمره.

لم يدرك أن التساؤل أفلت من عقله وعبر شفتيه إلا عندما رفعت رأسها تحدق به، ازدردت ريقها عدة مرات وبدموع منسابة كجداول فوق وجنتيها: عشان غبية.

أشارت إلى رأسها: عشان عندي هنا جزمه قديمة مش مخ.

اقتربت منه متابعة: كان فـ دماغي إزاي ترفضه وليه.. هو اتقدم وأنت رفضت، حتى الأسباب ما قولتهاليش، حسيت إني مسجونة وماليش حق أحلم بالخروج.

سألها بصوت منكسر: حياتك معانا سجن؟

-لما اتحبست فـ أوضتي بقت سجن، لم اتمنع عني الخروج أو السؤال عن السبب بقت سجن، لما بقيت حاسه قضبان الظلم بتحاوطني بقت سجن.

لامها: كنت خايف عليكِ،ما كانش الإنسان اللي يستحقك.

ردت سهم العتاب عليه: وليه ما قولتليش الكلام دا؟، ليه ما فهمتنيش؟

-فكرت إن في بينا ثقة، وهتفهميني من غير ما أشرح.

-لو وثقت أنت فيا كنت قولتلي.

أشاح بكفه ووجهه عنها: ما عادش فايدة من العتاب.

دنت منه رويدًا: يعني سامحتني؟

ألقى عليها نظرة أخيرة ثم انصرف، انثنى عنقها وسقط رأسها بين كتفيها، الدموع أغرقت وجهها ووصلت بقاياها أرضًا، لن يسامحها، لن يغفر لها تهورها، فقدته إلى الأبد..

***

يعلم من تعليقات عنبر القاصدة إرسال رسالة ما إليه أن غيابها زاد، وجهها شحب وانطوت بشدة عن الجميع، تهرب منها وجلس وحيدًا في شرفة غرفته.

صمتها زاد وتهربها منه فاق الحد، بالكاد رآها مرة أو مرتين منذ ذلك الحديث المشؤم، جرحها بقصد ودفعها عنه حتى أوجع قلبها، لكن تلك كانت طريقته الوحيدة في الحفاظ على قلبه من التسليم لها.

أجل، هي زوجته، لكنه لم يتزوجها بإرادة خالصة وحب كامل، بل شهامة منه في إنقاذها من غدر عمها، وتلبية لمطلب أخته الكبرى حتى لا تغادرهم واعترافًا منه بمعروفها، كادي هي حبيبة قلبه فكيف لأخرى أن تأخذ مكانها أو حتى تشاركها فيه؟

كادي؟!، صارت رؤيتها كالغريبة، لا تحرك فيه أنملة، يحاول التغلب على ذلك بالخروج معها من حين إلى حين لكن بلا جدوى، ماذا حدث لتفقد مكانها؟، أيكون الإهمال أم اهتمام سلمى سببًا في هذا التبدل؟

أن يصمت من كان يثرثر معك.. فاعلم أن الحواجز بدأت تُبنى، إنه يدرك صحة هذه الجملة الآن، لقد توقف الحديث بينهم وانقطع كأنه لم يكن، أصبحا كغريبان يعيشان تحت سقف واحد، حتى وجبات الطعام لم تعد تقدر على جمعهما لأكثر من أنصاف الساعة.

***

وأغلب أمانينا حقوق، ذكرت نفسها بسخرية، حقها في حب زوجها، مشاركته يومه، الحديث إليه، الشعور باهتمامه، والجلوس جواره. قليلة أمانيها وصغيرة أحلامها لكن يظل موقعها بين جنبات قلبها وتتخفى خلف طيات عقلها.

سرح نظرها فوق الحاسوب المحمول، لم تعد ترى شاشته، تسرد شريط ذكرياتها منذ رأته

بعدما عاد من غياب حتى اللحظة التي جرحها بكلماته النابية. أأجرمت حين قبلت بالزواج من رجل متزوج؟.. لكن زوجته أبدت الترحيب والموافقة وقتها!

تحولت أفكارها إلى أعاصير تدور بقوة أسفل جمجمتها الكابحة لهروبها، توصلت أخيرًا إلى تساؤل لم تظن يومًا أن ستطرحه، هل الحب ذنب؟

أغلقت جفنيها توقف اندفاع الخواطر، مسدت أصابعها الجبين المتمزق من الألم، نهضت تتناول حبة مسكن لألم الرأس واندست تحت غطاءها منشدة النوم من سلطانه.

***

هبطت درجات السلم بروية، تسترجع مواقف حمزه منها منذ تعارفهما إلى اليوم، فجرًا يوقظها للصلاة ثم يتجول معها في المدينة والحديث بينهما مرح، جعل الدنيا براقة في أعينها، ثم فجأة تحول إلى وحش، يريد تمزيقها إربًا، وعلى حين غرة بلا مقدمات يغازلها ويجادلها بمشاكسة، يخبرها عن عرس سينفذ لهما وشقة يقطنان بها سوية.

كادت تنقلب على السلم لفرط شرودها، احتوتها ذراعي والدها قبل أن تنكف على وجهها، صاح بها غاضبًا: مش تاخدي بالك.

أحنت رأسها بوجع تخفي دموعها عن مرأه: آسفة.

أغمض عينيه بشدة ثم مد يده يرفع وجهها ينظر إليه، كفكف قطرات الندى عن وجنتيها وببسمة حانية: خلاص ما تعيطيش، خضتيني عليكِ لما كنت هتقعي.

هزت رأسها تكتم نهنهات بكائها، اتسعت ابتسامته، من المفترض أن الواقفة أمامه أصبحت زوجة وقريبًا ستصير أمًا ورغم ذلك لا تنفك عن التصرف كطفلة بجدائل وزي مدرسي، ضربت كلمتي «زوجة» و«أم» عقله كالصاعقة، أكبرت طفلته إلى هذا الحد؟

جذبها يضمها إلى صدره، أدرك فجأة السنين التي مرت كالريح، لا يرغب في الموت وصغيرته تظنه غاضبًا منها، كل منا يخطئ، وخطيئتها دفعت ثمنها وقد تستمر في تسديد دينها إلى أجل مسمى. لن يظل في خط العدو ضدها، يكفيها حقد أخيها الزائد، وتصرفاته المشينة معها، لقد فرت مرة من اتحادهما عليها ولن يترك الفرصة لذلك ثانية، يجب أن تشعر بوجود ظهر حام لها أمام زوجها وعائلته حتى لا تنصاع وينكسر عودها أمام أي أحد.

تذكر كلمات عبدالرحيم، وحديثه عن سلمى يوم عرسها، وكيف يجب أن تشعر بوجود بيت والدها مفتوحًا على مصرعيه، فلا تقبل الهوان في بيت زوجها، ولا تطأطئ رأسها لأي كان، درعها موجود وقت الحاجه، بلا تردد تقف خلفه تصد الغارات.

شهقت حياه مندهشة وتوسعت عيونها التي مازالت مبللة بالدموع، راقب حمزه وجهها الموجه ناحيته وأمسك ضحكاته رغمًا عنه، همس لنفسه أنها لو كانت شخصية كرتونية كالتي تداوم ميمي على مشاهدتها لم تكن أمتع مما يراه.

عادت زهرة إلى المطبخ بعدما اطمأنت للأمور بين شقيقتها ووالدهما، ابتسامة على شفتيها والدموع في مقلاتيها، حمدًا لله، سيعود الهدوء أخيرًا والفرحة إلى المنزل.

تشبثت حياه بحضن والدها، تعوض ما فاتها الأشهر الماضية، تتشم رائحته المليئة بمزيج بين الدعم، الحب والحنية.

تعب والدها من كثرة الوقوف فأسندته إلى غرفته وانضمت إليه، لا ترغب في تركه حتى تشبع مما فقدته، ابتسم بطيبة وشوق يضاهي شوقها. قضيا عدة ساعات في الحديث، تروي له تارة ما مرت به الفترة الماضية والأخرين الذين تعرفت عليهم، متجاوزة شادي وكل ما له علاقة به، وتارة يجذب أطراف الحديث عن أشياء عامة أو ذكريات طفولتها الشقية.

استمر حالهما على هذا المنوال حتى نادتهما زهرة لتناول العشاء، ظلت تطعمه بيدها وتدلِه بشقاوة كما كان يفعل في صغرها. عيون محمود الناقمة على ضعف والده أمام الابنة الصغرى والمغفرة بهذه السرعة لم تتركهما، ألقى نظرة كريهة على حياه قبل أن ينهض، لم يشعر به أحد سوى زوجته. عائشة لم تعد معجبة بحال زوجها، انطواءه زاد والبذرة السوداء في قلبه تنمو يومًا بعد يوم.

تناول حمزه وجبته باسمًا، ارتاح من المصالحة بين الأب وابنته، السعادة التي أشرق بها وجهيهما أثبتت أن المعاناة كانت مشتركة ومضنية خلال الفترة الماضية لكليهما.

***

هبط الدرج منشغلًا بتثبيت الساعة الفضية حول معصمه، أناقته كاملة ورائحة عطره النفاذة أوقفتها للحظات، تسمرت عيونها فوقه وأكملت قدميها التقدم بلا وعي، رفع رأسه بعدم انتهى من مهمته، توقف على الدرجة قبل الأخيرة، لمح آخر بارقة حنان في مآقيها التي قست فجأة وتحجرت، التفت خلفه فوجد كادي تتهادى في ثوب سهرتها الذي لائم أوامره أخيرًا، بحجاب رزين.. إلى حد ما.

حالما وصلت إلى جواره تأبطت ذراعه وأجبرته على السير، ألقت نظرة جانبية على سلمى قائلة بتجريح مبطن: تصبحي على خير يا سلمى، كان نفسي تيجي معانا بس الدعوة ما شملتكيش معانا.. يظهر إنهم لسه مش معترفين بيكِ زوجة لياسين..

كزت على أسنانها ورمت زوجها بنظرة كراهية ثم أسرعت إلى غرفتها دون النظر خلفها. زفر ياسين بحدة، زجر كادي وعاتبها لتطاولها على الأخرى: ليه كدا يا كادي؟

-هو أنا قولت حاجه غلط؟.. مش دا اللي حصل.

كظم غيظه وقد توقف عن السير: لا مش دا اللي حصل، الدعوة مكتوب فيها وحرمه، يعني ما اتحددش لا أنتِ ولا هي.

حاولت عدم إظهار حنقها: خلاص ارجع خدها هي مادام محموق أوي عليها.

تركها خلفه وفتح السيارة يصعد وراء مقودها قائلًا بلهجة باردة: لو عارف إنها هتوافق ماكنتش اترددت لحظة.

التصق كعبي حذاءها بالأرض، فغرت فمها لا تصدق أذنيها، فضل سلمى عليها، ألهذه الدرجة وصلت الحال بينهما؟، أفاقت على صياحه فيها كي تسرع في الصعود وإلا سيذهب بمفرده، نبرته المؤكدة وخبرتها به أعلمتها أنه لن يتوانى عن فعل ذلك ولو للحظة.

أغلقت الباب بعنف، الأفكار تدور في رأسها، تحكي المكائد للتخلص من ضرتها، لم يعد الوضع يستوجب الإنتظار، إن لم تتحرك في التو واللحظة ستفقد زوجها إلى الأبد.

قاد ياسين السيارة شاردًا، وجه سلمى فقد الكثير من حيويته، لمحه ذات مرة باسمًا لكن حين التقى نظره بعيونها العسلية المنعكس داخلها بريق الشمس تحولت البسمة إلى جمود، وانسحبت التعبيرات عنه فتركته جافًا كصحراء قاحلة.

***

أهلكت نفسها واستنزفت طاقتها في الأيام التالية على الإنتهاء من دورها في الشركة حتى تستطيع الإنسحاب من المدينة بأكملها، ما عادت تطيق وجع قلبها الملازم لصدرها، الخروج أصبح بلا جدوى، رؤية الناس تذكرها بوحدتها أكثر، انطوت على ذاتها، تعمل نهارًا وترقد وحيدة ليلًا.

رفضت الحديث أو الشكوى، تتحدث إلى حياه من حين إلى آخر مدعية السعادة، كلما أصبح الحديث عنها أسرعت بدهاء قلبه على صديقتها، فإن استطاعت إخفاء ألمها فلا تستطيع الكذب والملاوعة إن توجه سهم السؤال مباشرة إلى قلب الجرح المفتوح.

تمشت في حديقة المنزل تستمتع بهواء الصباح المريح، تلتمس فيه راحة وربتة حانية على قلبها الموجوع ونفسها المنهكة، تنظر بأعين ضارعة إلى أعالي السماء؛ تترجى ربها الصبر وسرعة إندمال إصابتها الغائرة.

رفضت اقتراح عنبر بإعداد أحد أطباق الحلويات المفضلة لها، أرادت التمتع بوحدتها قدر المستطاع، لكن لم يدم فرحها مطولًا؛ فحين إنهالت على رأسها الوساوس والأفكار المسببة للصداع تمنت لو انصاعت لإلحاح آية بالذهاب معها برفقة ناهد إلى النادي.

نقمت على نفسها، فقد زاد إحباطها عندما علمت بخروج ياسين مع كادي للإفطار خارجًا

وقضاء اليوم سوية، بمفردهما. أنبت نفسها بصوت مرتفع، تحثها على فقدان الأمل من حبه، يجب أن تفهم الدرس، الحب ليس من نصيبها، وقلبه ليس ضمن رزقها.

انتفضت على تصفيق حاد أتى من خلفها، التفتت تقابل وجه ماجد الباسم، رفعت حاجبيها مستفسرة عن سبب ذلك، غمزها معلقًا على حديثها مع نفسها بصوت عال ولكن بدهاء ورقة فلا يسبب لها الإحراج: مشهد تأنيب النفس دا ولا أجدع ممثل يقدر يعمله بإتقانك.

ثم أضاف: فرويد نفسه كان هينبهر بيكِ

زفرت تتقبل مزحته ومحاولة ردع الخجل من التطرق إلى نفسها: دي شهادة أعتز بيها

-طالعين جلسة تصوير في القلعة.. تحبي تيجي؟

حدجته بنظرة حائرة مشتتة، طمأنها ببسمته الصافية: ما تستعجليش فـ الرد، كدا كدا هتبقى بكره.. بس أتمنى توافقي، هيطلع معانا مرشد سياحي يشرحلنا تاريخ كل نقطة فيها، هتستمعي جدًا.. وكلام فـ سرك.. احتمال صور من اللي هأخدها تنزل فـ المعرض.

-صحيح.. أنت حددت المعاد ولا لسه؟

أخرج بطاقة من جيب سرواله الخلفي: أيوه، كمان عشر أيام، ودا كارت الدعوة بتاعك.. مع إنك مش محتاجه دعوات..

تقبلت كلماته كمجاملة لطيفة من شخصية لبقة، حاولت التغاضي عن الصدق الذي نضح من صوته، راقبته يغادر بعدما ألقى السلام، رفعت الدعوة وقرأت محتواها ثم قررت.. لن تذهب، تصرفات ماجد وتعامله معها -رغم عدم وجود شوائب بهما-

تسبب لها القلق وتوترها، تشعر أن هناك شيئًا خلف تصرفاته اللبقة ناحيتها، لولا الوحدة التي سكنتها وقلبها الدامي ما كانت اختلطت به وبرفاقه إلى هذا الحد.

***

جلست أمام أستاذها المشرف على رسالة الدكتوراه، تناقشه فيما توقفت عنده قبل فترة في رسالتها وتطلب منه الإرشاد والمعونة حتى تكملها على خير.

استمع لها بهدوء رزين، سمعت ذات مرة أنه كلما زاد وزن البدن زادت طيبة قلب صاحبه، وقد تيقنت من صدق هذه المعلومة من أستاذها، لم تر في طيبته قبلًا، يحنو عليها كأب فقدته، ويوجهها بحنان جم.

رفع العدسة الدائرية المتخفية داخل جيبه الأيسر من سترة بذلته، وضعها أمام عينيه ودقق في أوراق عملها التي بحيازته ثم قال بهدوء: أعتقد إن خبر سفري للجزائر وصلك يا آية.

أومأت: تروح وترجع بالسلامة يا دكتور.

عاد يدس العدسة في مكانها المخصص: كملي أجازتك لحد ما أرجع.. أنتِ وصلتِ لمستوى كويس جدًا، والجزء اللي جاي متعب فلازم تكوني فـ كامل استعدادك.. بالإضافة إلى إني هأجيب معايا مرجع من هناك، زميل عنده نسخة إضافية هيسلمهالي.. أفضل إنك تستخدميه كأحد المراجع فـ رسالتك؛ لإن فيه كمية معلومات قيمة تخص رسالتك.

-ماعنديش مانع يا دكتور.. وبصراحة مش عارفه أشكرك إزاي، بس حضرتك متأكد إنك مش عايزني أعمل حاجه فـ الفترة دي؟

-لا إطلاقًا، روتينك اليومي والكلية كفاية.. بس لازم تكسريهم بتغيير جذري فـ حياتك.

رفع رأسه وحدق في ملامحها كأنه يراها لأول مرة ثم سألها متحيرًا فيبدو أنه اعتصر عقله عن جواب ولكنه فشل: أنتِ عمرك قد إيه؟

صدمها التغير المفاجئ لمحور الحديث لكنها أجابته: ستة وعشرين سنة تقريبًا.

تنقلت مآقيها على كفيها تباعًا: بنتي أصغر منك بسنتين ودلوقتي عندها فريد ونور.

ابتسمت: ربنا يخليهم لها.

-مش بتفكري تتجوزي؟

ثم أكمل دون أن يمهلها: آية، لازم تهتمي بحياتك العاطفية والخاصة قد إهتمامك بحياتك العملية إن ما كانش أكتر، ماحدش هيستناكِ.

***

التقطت الفواكه من طبقها تقطعها مكعبات متوسطة، تتسلى أثناء جلوسها في المطبخ وتتبادل الحديث مع عنبر وزوجها، كل واحد ينشغل ما بين يديه ليتم إنجازه في الوقت المحدد والألسنة تتحاور بانتباه كامل.

انزوت ريتا بعيدًا عنهم، تنأ بنفسها عن الدخول في حديث مع غير سيدتها، تتكبر حتى على زوجة صاحب المنزل الثانية، بعد فشل محاولات سلمى في إشاركها معهم تجاهلها الجميع كأنها لم تكن.

دخلت كادي صائحة في فرح: ريتا.. إيه رأيك فـ الفستان دا؟

نهضت ريتا من فورها تدنو من سيدتها الحبيبة ولسانها يعجز عن التشييد بمدى جمالها، وللحقيقة كانت فاتنة في الثوب الذهبي المختلط بالأحمر القاني، لاحظت سلمى استدارة إسماعيل المفاجئة وتوجيه ظهره إلى كادي.

همهمت عنبر بحنق حاولت كبحه: مش مفتوح شوية الفستان دا يا مدام كادي؟

أنبتها على وقاحتها وتدخلها الغير المسموح به، أسرعت سلمى توضح الأمر فقد يكون ملتبس داخل عقلها المنشغل بجمالها الفتان وحده: عنبر مش قصدها كدا.. أنتِ مش ملاحظة إن عم إسماعيل واقف؟

رمته كادي بنظرة مستصغرة ولا مبالية، أكملت سلمى عندما شعرت بأن قصدها لم يصل بعد: فين حجابك يا كادي؟

أخيرًا استوعبت الأخرى، ارتبكت للحظة لكنها استجمعت شتات نفسها ورفعت ذقنها بتكبر وعنفوان واهٍ: ريتا.. عايزاكِ تطلعيلي الشوز الدهبي والشنطة بتاعتها.. هيليقوا على الفستان أوي.. زي ما يكون ياسو حبيبي عارف اللي عندي وجابلي فستان يليق عليهم.

بهتت سلمى، سهمٌ آخر اخترق نياط قلبها. عضت عنبر على شفاهها وقد أدركت مقصد كادي من كل تلك الضجة، هدفها كسر فؤاد المسكينة الجالسة بكل نقاء وطيبة خاطر، تساعد خدم منزلها بتواضع وتتبادل معهم الكلمات المعسولة والمزحات الطفولية.

لم يكن بيدها شيء فالتزمت الصمت، حققت كادي مآربها فدارت راحلة، تدير ظهرها لموقع الحرب بعد هزيمة غريمتها فور إنطلاق الرصاصة من الخلف مخترقة قلبها المغدور بين أضلاعها.

بعد دقائق.. نهضت تستند على أطراف الطاولة، بلا كلمة، صعدت لغرفتها تستند إلى جدارها، لم تعد أقدامها تقوى على التزحزح بأكثر من ذلك، حتى طاقتها نفذت ولم تقو على البكاء، حدقت في الغرفة المضاءة ببقايا أشعة الشمس العابرة من خلال زجاج باب الشرفة، منهكة تعبة، رويدًا رويدًا انزلقت تتوسد كفيها وتغمض عينيها عن عالم أتعبها ولم تجن منه سوى الألم.

***

تلفت حوله، الصالة رغم إزدحامها والأضواء المشعة بطريقة محددة كما طلب لتضيف التأثير المطلوب على صوره المعلقة فوق الجدران منطفئة خاملة، ابتسم بدبلوماسية إلى أحد الأشخاص المحيين، يرد المباركات بآلية لكن ذهنه شرد عن المكان.

حرك ربطة عنقه بتوتر، يكره القيود لكنه يلتزم بها حين يستوجب الأمر، أناقته ستصبح ناقصة بلا هذا القيد المحيط بعنقه، رغم أنها لا تبرز سوى عن قرب؛ بسبب شدة حلكتها المتطابقة مع درجة القميص وبقية البذلة، كل ما يرتديه أسود حتى ساعته.

دار في المعرض يناقش من يرغب ويتقبل التهاني، يرسل أحد المشترين لإحدى صوره إلى مسئول المبيعات حتى ينهي الإتفاقية والبيع، استرخت أكتافه حين لمح ياسين برفقة عائلته يدلفون من الباب، لكن سرعان ما تيبست من جديد، أهم شخص لم يكن بين الدالفين.

أحكم إغلاق أزرار سترة بذلته وجذب أطرافها السفلى متقدمًا منهم كما تتطلب اللياقة، ابتسم في تحية مؤدبة وتبادل معهم كلمات معتادة عن الصحة والأحوال، وجهت إليه كادي جانب جسدها: يظهر إن المعرض دا هينجح أكتر م اللي فاتوا.

وافقتها آية متلفتة حولها بإعجاب شديد: جدًا، الإقبال خرافي والصور تحفة.

علقت ناهد بدماثة: لو مافيش تطور يبقى دا أكبر فشل فـ حياته، لازم يبص لقدام عشان ينجح، لو استمر بنفس الرتم يبقى فشل بجدارة.

أمال رأسه جانبًا بزاوية صغيرة: نيشان على صدري كلامك دا يا أستاذة ناهد.

أضاف كأنه لم يقصد السؤال وإنما جاء عرضيًا: صحيح.. مش شايف مدام سلمى معاكوا.. لعل المانع خير؟

برقت عيون كادي منذرة بالأهوال حينما طرق سؤاله أذانها، احتقنت شفاه آية بأسف: حاولت معاها كتير بس ما قدرتش.. الصداع تاعبها شوية.

-سلامتها.

أومأ ياسين في تفهم. قبضت كادي يدها على ذراع زوجها وحديثها يتوجه إلى ماجد ساخرة: يظهر إننا مش ماليين عينك يا أستاذ ماجد..

حدق بها ياسين متعجبًا من قلة ذوقها وهجومها على مضيفهم بهذا الشكل، ابتعدت ناهد بنظراتها عن زوجة شقيقها الوقحة، لكن ماجد لم تهتز له شعرة وأجابها بأدب جم: من واجبي كمضيف لحضراتكم اسأل عن كل ضيف.. ودا بيحصل مع أي شخصية.. ما بالك بقى يا مدام كادي بجارة قبل ما تكون ضيفة، وزوجة شخص غالي عليا جدًا.

ابتسم له ياسين متقبلًا المجاملة بكل أدب: طبعًا، بس زي ما آية قالتلك.. الصداع هو السبب، لكن أكيد لو صحتها كويسه كنت هتشوفها معانا.

قست نبرة ماجد رغمًا عنه: ولما تبقى تعبانه مش المفروض تقعد جنبها ولا تسيبها لوحدها؟

أدرك من جمود ملامحهم جميعًا فداحة فعلته فحاول استدراك الأمر بابتسامة مرحبة وفتح ذراعيه يدعوهم إلى الدخول: نورتوني كلكوا.. أتمنى المعرض ينال رضاكم.

استأذن منهم منسحبًا، لقد توقف عقله عن العمل فقال ما قاله ولم يستطع إصلاح تلك الكلمات بطريقة أفضل، تنقل بين الحضور لربع ساعة أخرى قبل أن يفقد الأمل

من دوره في التمثيل غير المجدي، فرحته غير مكتملة دون وجودها.. سيتدبر قدومها فورًا بأي طريقة.

بقراره وعزمه الأخير، انتهز فرصة انشغال الجميع بالدوران خلال المعرض يتفحصون كل صغيرة وكبيرة، غادر إلى غرفة جانبية خصصت للمنظمين وأصحاب المعرض، اتصل بأقرب صديقة لسلمى ضمن فريقه كي تلحق به.

مهما كلفه الأمر، ستشاركه سلمى فرحة نجاحه هذه الليلة، هي صاحبة فضل لا ينسى فيما وصل إليه، كما أنه لا يتخيل تحقيق حلمه الأكبر بلا وجودها ومشاهدة فرحتها له.

***

ضوضاء الأغاني والموسيقى الشعبية يصدح بين جدران المكان، بار مكتظ بالسكارى والنساء شبه عاريات، كل واحدة تحاول تصيّد أحدهم ليمضي معها ما تبقى من الليل ويدفع ثمن سهرتها في المكان.

الضوء خافت إلا على الراقصة فوق المسرح ببذلتها البراقة، تتمايل بغنج على الأنغام المدارة في السماعات، لا يهم إن كانت تتوافق معها أم تخالفها مادام رواد النادي الليلي مستمتعين لا يشتكون، يشربون حد الثمالة ويدفعون لقاء حرية إلقاء نظراتهم الجوعى إلى جسدها.

نهض أحدهم يلقي رزمة من المال فوق الراقصة، يشجعها على المتابعة، ويطالبها بأن تخصص له بعض دلالها، تقبله هي بكل إنتشاء وتنفذ له ما طلب حتى يعود سعيدًا إلى مقعده.

قبضت على كأس الصودا الشبيه بالشمبانيا، تدعي شربه فيما أعينها تجوب المكان، أطمأنت على وجود رفيقاتها في السكن على مقربة منها فهدأت قليلًا، لكن

الإنفعال شاع في ملامحها حين رأته يجالس إحد العجائز مدعيات الصبا، لولا علمها أنه يتودد لتلك الشمطاء فاقدة الأسنان من أجل حفنة من الأموال أو لواسطة ما؛ لجذبتها تمسح بها أرضية المحل.

نفخت قليلًا ثم عادت تدير بصرها في جولة بالمكان من جديد، وجدت شابًا مراهقًا يجلس وحيدًا وينظر حوله في هيبة وترقب شديدين، يتصرف كطفل هرب من أسفل جناح والدته للتو؛ كي يستكشف عوالم جديدة وآفاق أوسع.

وجدت فيه بغيتها، تجرعت ما بقي في كأسها مرة واحدة وعدلت من وضعية ثوبها القصير المتناسب مع نمط المكان واقتربت منه بخطى متبخترة بدلال.

جلست في المقعد المقابل له خلف الطاولة الدائرية بلا استئذان، إنه صغير غض، لن يخجلها وسيتصرف بأدب جم، ابتسمت بخفة تسأله: أول مرة تيجي هنا؟

ارتبك، لم يكن معتادًا على التعامل مع النساء بتلك القوة والصراحة، رغم أن ذلك سبب وجوده هنا.. وهي أدركت ذلك، أجابها متلجلجًا: أيوه.

قهقهت: مالك اتوترت كدا ليه؟.. ما تخافش مش هأعضك ولا أفتن عليك لماما.

احتقن وجهه بالدماء والذي بان بشدة في بشرته القشدية، أحكم القبض على أصابعه باختناق ظهر من نفور عروقه: أنا مش عيل صغير.

فهمت أن شعوره بالضآلة هو سبب قدومه إلى هذا المكان، أشفقت على حاله، لم يتعد السادسة عشر، وأوجعها التفكير في والدته وحالها حين تعلم بإختفائه أو مكان تواجده عوضًا عن مراجعة دروسه.

انقبض قلبها، لكمة سددت إليه، ماذا ستكون ردة فعلها إن علمت بوجود طفلها بمكان كهذا؟!، تحسست بطنها المسطح، في تضرع داخلي إلى جنينها، لا يجب عليه فعل هذه الشناعة، تنهدت عدة مرات قبل أن تبادر في تنفيذ قرارها، ستجعل هذا

المراهق يعود إلى سقف بيته ويهنئ في فراشه المغطى باللصاقات الكارتونية مهما كلفها الأمر.

***

انتظرت صديقتها وماجد المشتركة حتى ترجلت من السيارة على مهل، بالسرعة التي يسمح بها توترها وموديل الفستان، اخبرتها أن تسبقها إلى الداخل فعليها أن تصف السيارة في المرأب ودخولها سيكون من باب جانبي خاص بالعاملين أقرب من هذا، أومأت دون أن تستوعب تفاصيل ما قيل لها.

أمام الدرجات الفاصلة بينها وبين المعرض، وقفت تتشبث بحقيبتها المطرزة بالخرز اللامع وبريقه الذهبي يجذب العيون، يتفق هذا البريق مع الأخرى المشع من تطريزات القطعة العلوية من ثوبها، كأنهما فُصلا سوية، وقد أبرزت الخلفية العاجية هذا البريق ودعمت رقته عليها، فيما يتناقض معهما الجزء السفلي المكون من تنورة شديدة الإتساع، غامقة اللون، درجته تقترب من الكحلية لكن بلمعة أنيقة.

أخذت عدة شهقات من الهواء، تجلي رئتيها مما اعتمر بهما من ضيق، أعادت ضبط الشال الخفيف المتكوم في باطن مرفقيها، حررت إحدى يديها من الحقيبة وتمسكت أصابعها بقماش التنورة ترفعه كي تستطيع صعود الدرجات المعدودة.

تهادت، لا تستعجل الوصول بل العكس.. تتمنى أن تكون خطواتها للخلف لا للأمام، وقفت أعلى الدرج تربت ما جعدته كفوفها في التنورة ثم تقدمت خمس خطوات، حسبتهم في ذهنها عل ذلك يشتت تركيزها عن القلق المتربص في دواخلها، توقفت بغتة، لقد انسحبت شجاعتها فجأة، لكن الأوان قد فات على أي تراجع.. فقد انفتح الباب على إتساعه بآلية، مبرمجًا على ذلك في حال اقترب أحدهم بمسافة معينة.

وقفت مشدوهة، كل من كان بقرب الباب نظر إليه بفضول عابر بلا إهتمام قبل أن يتحول إلى ذهول شديد، اربكتها النظرات المحدقة، شعرت أن ملابسها غير ملائمة لكن سهيلة -من أحضرتها إلى هنا- أصرت على مناسبة الثوب للمكان، كما أنه شابه في نوعيته أزياء البعض بل إنه أكثر حشمة.

لم تفكر أن سر ثبات نظراتهم عليها هو مظهرها الملكي، فقد كانت بثوبها ذي الحاشية الكثيفة أشبه بأميرة تدلف إلى حفلة راقصة بالقلعة الملكية، شديدة الفتنة، باهرة الأعين. كانت الموسيقى والألحان الراقية التي تصدح من مكبرات الصوت في أماكن متفرقة من سقف القاعة تشبه المعزوفة المرافقة لدخول ملكة متوجة.

اقترب منها ماجد بعدما استجمع شتات ذاته، لم يجد نفسه سوى منحنيًا بكامل جسده وساعده الأيمن يلامس معدته، وقدمه اليمنى تقف أمام اليسر فيما طأطأ رأسه مرددًا تحية هامسة: مولاتي.

تعالت الهمهمات من حولها، لم تستطع تبين ما كان يدور، عاد ماجد يعتدل في وقفته وفتح ذراعه يدعوها كي تتقدمه، أطاعته وعينيها لا تترك وجهه، كأنها تتأكد من قواه العقلية.. أهي في محلها أم طارت مع أسراب الطيور المهاجرة؟

همس بصوت لا يسمعه غيرها: أطمني، دخولك كان أشبه بدخول سندريلا لحفلة الأمير.

-لو كان اللي حاساه دلوقتي هو نفس شعور سندريلا وقتها.. فـ خلاص بطلت أحسدها.

كتم ضحكة أوشكت على الفرار واكتفى بابتسامة واسعة أنارت وجهه المزين بلحية مشذبة، شاركته سلمى بابتسامة بسيطة فيما هدأ توترها إلى حد ما.

***

أغلق الخط بعد جدال لدقائق طوال، عاد إلى قاعة المعرض ليجد كادي على غير طبيعتها، منفعلة بشدة وتكز على أعصابها بشدة، استدار إلى شقيقته يستفسر منها عما جر علّها تعرف سر هذا الإنقلاب المباغت. مال رأسها يسارًا، تتبع الاتجاه، سقط فكه السفلي، سلمى تتقدم ماجد وتخبره برأيها في صوره المعلقة، تتحدث وهو يرهف السمع كأنه يخاف هروب إحد الكلمات من أذنيه فيفقدها كعزيز غالٍ.

فهم الآن سبب انفعال كادي، سلمى شديدة البهاء، أناقتها ورقتها زادتها جمالًا، فكادي حسناء الملامح، بديعة الخِلقة لكنها تتكلف في زينتها وملبسها، على الجانب المناقض لها تكون سلمى، قسماتها الأقرب للعادية والتي قد ترتفع إلى مرتبة متوسطة الجمال، تزيدها بساطتها حسنًا.

تأجج بداخله غضب، أثاره متابعة ماجد لها كظل آخر لا يطيق فراقها، اقترب منهما وتشبثت براثنه بذراعها المكسو بقماش خفيف لكنه غير شفاف، ابتسم ابتسامة صفراء وجهها إلى ماجد يستأذنه الإنفراد بزوجته، انسحب المضيف بذوق شديد واتجه إلى مجموعة من المدعوين كان قد وعدهم بالموافاة فور تفرغه.

جذبها خلفه بضعة خطوات حتى انزوى بها في مكان بعيد نسبيًا عن الأسماع لكن يسهل رؤيتهما للحضور، نزل ببصره يحدق في وجهها منفعلًا: إيه اللي جابك هنا؟، جيتِ مع مين؟

أحنقتها كلماته وأثارت غيظها، حاولت الحديث أكثر من مرة لكن الكلام رفض الخروج، كلما آن أوان خروجه تشبث بجوانب شفتيها يعارض ويزمجر، فما كان منها سوى الاستسلام، ألقت نظرة مشمئزة وأدارت ظهرها إليه، تبتعد بخطوات واسعة وقد قبضت على قماش تنورتها تفرغ بها هول ما يعتمر بقلبها من غيظ.

وقف يتابعها، مصدومًا من تصرفها، تأتي دون أن تخبره، ترفض الحديث أو التبرير، تتركه كأنه خرقة بالية خلف ظهرها وتتابع إلى حيث لا يعلم، تغيرت، بل تحولت إلى سلمى أخرى لم يعد يعرفها، تزهده ولا تطيق حتى الحديث إليه.

تسمرت أمام أبعد لوحة عن ياسين، وقفت تحدق بها دون أن تراها، لحظات مرت تجمع خلالها شتات نفسها، شهقت وزفرت كثيرًا حتى بردت دماؤها. تبدلت النظرة السارحة إلى أخرى تدرك ما ترمقه، صورة لأحد الشلالات، ينحدر من صخور ملطخة بالأخضر والريم الأبيض يترك أثره فوقها، أشجار تتدلى فوقه كجواري تتوسل رضا السلطان.

وقف إلى جوارها وعيونه معلقة بالصورة، سألته دون إلتفات: أنت اللي بعت سهيلة تجيبني.

لم يملك سوى الابتسام فقد كان تقريرًا لا سؤالًا، أردفت: ماكنتش عايزه أجي.

-بس جيتِ.

-سهيلة ضغطت عليا.

-مش مهم الأسباب.. المهم النتيجة، إنك جيتِ.

نظرت إليه أخيرًا، ظلت جامدة لدقيقة ثم اتسعت ابتسامتها في نفس الوقت مع ابتسامته: بس مش حاس إن الفستان دا مش لايق مع المكان ولا المناسبة؟

تلفت حوله كأنه يرى الحاضرين لأول مرة ثم عاد إليها وهز كتفيه بلا مبالاة: دا يفرق معاكِ؟

-شكلي بايخ أوي.

صمت هنية قبل أن يتمتم: وأنا ما يهونش عليا.

رفع صوته لكي تسمعه قائلًا: ثواني وهأرجعلك.

أختفى من أمامها كالجان، خلال طرفة عين لم تعد تجد له أثرًا، عادت تتأمل الصورة التي استهوتها وانجذبت إليها.

***

أمر ماجد رئيس طاقم العمالة بتنفيذ أوامره كما ألقاها، أطاعه وانصرف يشرف على التنفيذ، أزاح العمال اللوحات الثلاث من منتصف القاعة بحواملهم، كانت كل صورة في إطار يزيدها بهاء، انحلت أضلاع المثلث المكونة من الثلاث صور لترتكن على جانب ما فارغ بين بقية الصور المعلقة على الجدران.

تابع الجميع الحركة الغير متوقعة في فضول، منتظرين معرفة سبب تلك الفعلة، وفي غمرة إندهاش الجميع، تغير إيقاع الموسيقى لأخرى تناسب الرقص، دنى ماجد من عضوي فريقه المتزوجان حديثًا ودعاهما لإفتتاح الرقصة؛ فهو لا يملك شريكة لذلك.

سرعان ما لحق بهما عدد من الأزواج، منسجمين فرحين بهذا الحدث الغير متوقع، اعتاد ماجد على مفاجأة ما يقدمها لضيوفه يوم افتتاح معرضه، ولم يكن هذا المعرض باستثناء لكن لم يكن هذا مخططه، لقد أمر بذلك للحفاظ على ماء وجه سلمى وثقتها بنفسها، فهي لا تحتاج هزة أخرى وإلا سقطت متهشمة.

اقترب إلى جوارها وأولى ظهره لصورته الأثيرة لدى سلمى، أخفى ظهر يده بكفه الأخرى وقد وقف منتصب القامة، سألها ونظره لا يحيد عن التحديق في الأمام مباشرة: دلوقتي بقى الفستان مناسب صح؟

فغرت فاهها، لا تصدق أنه فعل ذلك من أجل خاطرها وحدها، لقد حرك اللوحات التي ظل أيام يتجادل في شأن أماكن وضعها، انفعال سهيلة وهي تشكوه إليها وبكاءها في أحيان أخرى أكبر دليل على تشدده فيما يتعلق بفنه.

ابتسمت رغمًا عنها، لم تتوقع يومًا أن يفعل أحدهم شيئًا من أجلها، أن يدعس على ما يحب ويفضل لأجل راحتها. هربت منها الكلمات فاكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها إلى جانب بسمتها الرقيقة المعبأة بالعرفان.

عادت تستغرق في صورتها الأثيرة من جديد، شاركها ذلك لدقائق قبل أن يستسفر عن سر إعجابها بهذه الصورة أكثر من غيرها، رغم أنها ليست أجملهم على الإطلاق.

-لمستني.

صمت يتمعن في الصورة ويحاول إيجاد ذاك الشيء الذي لمسها، احتار وعاد يسألها أن توضح مقصدها. وقفت تستجمع شتات أفكارها المتسربة مع المياه الساقطة من الشلال بالصورة، أشارت بعد هنية إلى إحدى الأشجار الضخمة المائلة فوق الماء تتجرع منه ما يقيم صلبها ويشد جزعها: حساها شبهي أوي، قربت عشان أرتوي.. اتنيت عشان شوفت إن فيه نجاتي بس بعدين...

حركت إصبعها إلى شجرة أخرى مبتعدة قليلًا عن التيار، تقف شامخة، عالية وأوراقها وارفة، تبدو أشد صلابة وأكثر قوة عن شقيقتها المائلة: بعدين فهمت إن المايه إذا حابه توصلي وتجيلي هتيجي، وإني مش محتاجة أكسر ضهري عشان أخد نصيبي منها.

شعر بالحيرة من كلماتها وإيحاءاتها الغامضة، نظر إلى وجهها ليجد عيونها في مكان آخر بعيدًا عن اللوحة وعنه، تتبع نظراتها ورأى كادي تتعلق في ذراع ياسين، تحاول إقناعه بالتقدم إلى منطقة الرقص ومشاركتها رقصة شاعرية لفترة وجيزة.

انسحب من جوارها بهدوء عندما لمح اقتراب آية منهما، تركها لينهي مهمة في ذهنه، قبلتها آية غامزة: إيه الحلا دا كله؟

عاتبتها منصرفة ببصرها عن زوجها: لسه فاكراني؟

تأتأت: المفروض أنا اللي اسأل السؤال دا يا برينسيسة.

أشاحت بكفها بعدم اهتمام وسخرية: مش ناقصة ظرفك أنتِ التانية.

لم تبال آية باعتراضاتها وأكملت تناوشها: بس حلوة داخلة الأميرات دي.. بس أنتِ أنهي واحدة فيهم بقى؟

اقترب ماجد برفقة أحد الشخصيات التي تبدو عليها الأهمية والقوة، عرفها وآية على رجل ذو سطوة ومكانة لا يستهان بها، همس لهما بين شخصية وأخرى بأن تلك العلاقات ستعود عليهما بالنفع يومًا ما: وقتها ما تنسونيش بقى.

اكتفت سلمى بابتسامة صغيرة بينما طمأنته آية بالكلمات، انضمت إليهما ناهد بعدما أنتهت من حوار يخص العمل مع أحد العملاء الحاضرين.

وقف ياسين يراقب دوران سلمى في القاعة وتقديم ماجد لها، اغتاظ من فكرة أنه يتصرف معها كزوجته أو مضيفة ترافقه هذه الليلة، قبض على كوب العصير بقسوة كادت تهشمه، تعلقت كادي في ذراعه بملل، لقد صد توسلاتها للرقص بكل إصرار، لا يحب العروض العلنية إلا اضطرارًا خصوصًا إن كانت بين الأغراب، تحب شهامته وغيرته على ماله، يذكرّها بآخر وقع قلبها صريع هواه.

أقفلت الحديث مع إحدى رفيقاتها في النادي الرياضي بسرعة، وقد أشعل نيرانها سير سلمى بجوار ماجد بكل ثقة وعدم مبالاة، كذلك استحواذها على نظرات وإهتمام ياسين، لقد سرقت كليهما منها، فبينما يحتقرها ماجد نالت هي إعجابه.

نظرت إلى ياسين بنظرات ماكرة شبه منتصرة، لكن قلب ياسين ما زال أسيرًا لديها، وهذه ورقتها الرابحة ويجب ألا تخسرها: شايف سندريلا جمعت الرجاله حواليها إزاي.. حتى ماجد اللي معروف عنه عدم احتكاكه بالستات إلا في حدود ضيقة جدًا قدرت تسيطر عليه.

صمتت لتترك كلماتها تعطي التأثير المرغوب، افرغت الكأس في جوفها ووضعته فوق الصينية التي يمر بها النادل.

غضب ياسين تأجج أكثر بما تلمح به كادي، يحاول تمالك أعصابه قدر الإمكان، عيونه مسلطة على سلمى، تتصرف بشكل طبيعي، دون مبالغة أو رياء، تتحدث بابتسامة دبلوماسية بالكاد تسمى بسمة، نظرها يتنقل بين محدثيها توليهم اهتمامها، شقيقتيه تقفان إلى جوارها تتدخلان في الحوار كلما لزم الأمر.

تحركت سلمى بتوتر فدعست على طرف حواشي ثوبها، كادت تنقلب على وجهها لولا إمساك ماجد بكفها، لاحظ بأعينه -التي قوي شدة بصرها أضعافًا بغتة من خلف نظارته البصرية- يد ماجد تضغط على أصابعها.

تابعت كادي مثله ما حدث وقررت انتهاز الفرصة، سحبت الكوب من بين أصابعه وارتشفت بعضه فيما تنعق قائلة: وااو.. شكلها ضمنت زوج جديد بعد ما تسيبها يا ياسو، مش بعيد تبقى جارتنا وساكنة قصادنا.

بانت مفاصله من فرط انشداد أعصابه وانقباض كفوفه، تركها خلفه وتقدم إلى حيث وقفت زوجته تعتذر بلباقة عما حدث رغمًا عنها، تورد خديها حياء كان شفيعًا بما يكفي، وعاد الحديث إلى مساره الأصلي.

التفت الجميع إلى ياسين حين طل عليهم بهيئته الغاضبة، كل شبر به ينضح بما يجيش داخله من غيظ وغضب، إحمرار وجهه ينبئ بإنفجار وشيك.. إزدردت سلمى

ريقها بصعوبة رغمًا عنها، بلا سبب شعرت أن كل هذا الغضب موجه لها وحدها دونًا عن الجميع.

الصمت خيم لفترة أطول من المفترض، تصرفت ناهد بدبلوماسية شديدة وعادت تدير دفة الحوار، وسألت الجميع عن أفضل صورة أعجبتهم، تحدث الجميع بأريحية وتابع ياسين في صمت يحاول كبح جماح غضبه الوشيك، أتى الدور على سلمى فأشارت إلى الأسيرة لديها، شهقت آية بحزن: يا خسارة.. دي اتباعت.

لاح الحزن على قسمات سلمى لكنها اكتفت بقول: ربنا يهني صاحبها بيها.

تطلع إليها ماجد بأعين لامعة، تشتاق الحديث لكنها لا تقدر، شك ياسين من تشابك كفي ماجد خلف ظهره بتلك القوة أنه يمنع نفسه من مد ذراعيها لضم سلمى إليه، عند هذه الخاطرة انفلت زمام غضبه وجذب معصم سلمى غصبًا يسحبها خلفه متجهًا صوب باب الخروج.

سارت خلفه تتعثر بخطوات حذائها عالي الكعبين وثوبها الطويل، حاولت أن تجعله يتمهل لكنه لم يستمع، كادت تنكفئ على وجهها لولا سرعة تصرفه وإمساكه بكلا ذراعيها حتى تستعيد توازنها ثم عاد للهرولة بسرعة كما لو أن شيئًا لم يكن.

لحقت به شقيقتيه حينما أصرت آية على الذهاب خلفهما وإلا قد يتسبب ياسين في أذية سلمى دون دراية، عارضتها ناهد لكنها انصاعت في النهاية؛ لإنها لأول مرة ترى ياسين في تلك الهيئة وفاقدًا لأعصابه بشكل كبير.

صعدت للمقعد المجاور للسائق ولملمت طرف ثوبها بسرعة قبل أن يغلق الباب عليه، انضم إلى مقعده خلف المقود ودار بالسيارة خارج المرآب المخصص لضيوف المعرض.

وقفت ناهد وآية في إنتظار وصول سيارة الأجرة التي أمرت الأخت الكبرى أحد العاملين بإحضارها، ظلت آية تلهث بالدعاء على أن تمر تلك الليلة على خير دون أن يصيب أحدهما مكروه.

ركبتا في السيارة فور وقوفها أمامهما، وقبل أن تنطلق من جديد صاحت كادي بهما حتى ينتظراها، لم تجد ناهد فكاكًا من إنتظارها فأمرت السائق بالتمهل، نزلت عن الدرج رويدًا وانضمت كراكب ثالث بالخلف.

***

لوى ذراعها إلى الخلف ثم ضربها على قمة رأسها بعنف، صرخ بها وأنبها على فعلتها، حاولت الدفاع عن موقفها عدة مرات، بكت وتأوهات لكنه لم يمتنع عن تقريعها.

بالنهاية دفعها إلى السرير وغادر الغرفة ملقيًا تنبيهاته، أومأت والدموع تغرق وجهها، تعلم أنها اخطأت في مساعدة ذاك المراهق في الخروج وإقناعه بعدم العودة مجددًا. انكمشت في فراشها، ما زال الوقت مبكرًا على عودة الفتيات، لقد سحبها وحدها وعاد بها حتى يقوم بتصفية الحساب في الخفاء دون أن يلفت أنظار رواد الملهى.

تحست بطنها المسطحة باسمة، على الأقل ارتاحت من عبء العمل هذه الليلة، وأنقذت فتى قد يكون ابنها في نفس موقفه يومًا ما، تمددت مندسة أسفل الغطاء القطني تتحدث إلى جنينها وتتخيل مواقفهما معًا واللحظات التي سيتشاركاها في المستقبل القريب.

***

ارتفعت مستويات حنقها من تجاهله للحديث الذي توجهه إليه، قاد بسرعة عالية أدارت رأسها بشدة لكنه لم يهتم، استرجعت في الطريق كيف عاملها وسحبها

كالبهيمة، وكيف يتجاهلها حاليًا، وما قاله في بداية السهرة، ولا تدري من أين ظهرت كل تعاملاته السيئة معها، فوازى غضبها غضبه حدة وقوة.

فور توقف السيارة ترجلت تدلف إلى المنزل مسرعة، تهدف إلى الإختلاء بنفسها حتى تسيطر على غضبها المستعر، لكنه لم يمهلها.. صف السيارة كيفما اتفق ولحق بها ينهب المسافة الفاصلة بينهما نهبًا.

لحق ذراعها على درجات السلم الأولى، أدارها حتى تواجهه بقوة وصاح في وجهها معاتبًا ثائرًا: أنتِ إزاي تسمحي لنفسك باللي عملتيه دا؟؟.. نسيتِ إنك مراتي؟؟.. وإزاي أصلًا تسمحيله يمسك إيدك؟

جذبت ذراعها منه وألقت شالها بإهمال فوق ساعد يمناها، كأنه ضغط على زر التشغيل فأخرجت ما يجيش فيها من وجع دفعة واحدة تبصقه في وجهه: إيه اللي عملته يستلزم كل دا؟، متضايق إني حضرت المعرض؟.. وما أحضروش ليه؟.. صاحب المعرض شخصيًا وجهلي دعوة، وماعنديش سبب يمنعني من الحضور.

نفخ بعنف: ما آية سألتك وأنتِ ما رضتيش!.. ولا هو حلو من ناس وناس لا.

-بذمتك مش مكسوف من نفسك وأنت بتقول آية سألتك؟.. بدل ما حضرتك تسألني بنفسك بعتلي أختك، دا لو اهتميت وفكرت فيا من أساسه.

كز على أسنانه: دي تفاصيل مالهاش لازمه والموضوع مش محتاج كل دا.

رفعت أحد حاجبيها بسخرية: أيوه فعلًا، إنك تهتم بمراتك وتحترمها دي تفاصيل تافهة على جنابك.

أضافت بتحدي: وكمان ماجد لما مسك إيدي تفاصيل تافهة من وجهة نظري.

قبض على أعلى ذراعيها في غضب يعنفها: إن واحد غريب يمسك إيدك تفاصيل تافهة؟

حاولت إزاحة يديه عنها: اتكعبلت وهو سندسي، مسكة الإيد ما كملتش ثواني، وكانت مجرد مساعدة مش غزل زي ما جنابك مفكر.

استرسلت: ما هو لو كان اللي اسمه جوزي جنبي كان هو اللي سندني مش واحد غريب، دا الغريب وراني اهتمام ما شوفتوش منك.

ضاقت حدقتيه وسألها مترقبًا: قصدك إيه؟

استقامت في وقفتها ورفعت ذقنها متحدية: قصدي إنك تشوف تصرفاتك الأول قبل ما تحاسبني على تصرفاتي.. لما تبقى تعاملني كزوجة ليك هأبقى اتعامل معاك بنفس الطريقة.. لكن قبل كدا ما تحلمش حتى بدا.

حاولت متابعة الصعود لكنه منعها، صاح بها غاضبًا غير مبال بوصول شقيقتيه وزوجته الأولى ومتابعتهم ما يحدث: اللي أقوله يتنفذ غصب عنك، مقابلة ماجد تاني مافيش، وخروج بدون علمي بردو مافيش.

أضاف متنمرًا: أنتِ كل حاجه متاحة ليكِ وتحت أمرك.. عايزه أكتر من كدا إيه؟

كانت تنظر بعيدًا تحاول تمالك نفسها وغربلة الكلمات قبل النطق حتى لا تقول ما تندم عليه لاحقًا لكن كلماته الأخيرة أثارتها فتوجهت إليه بنظرات قاتلة كحد السكين: وتقصد إيه بكل حاجه متاحة ليكِ وتحت أمرك؟.. الخدم؟، طب ما كانوا عندي وأنا فـ بيت أبويا، الفلوس ولا تقصد الأكل والشرب؟؟.. كل دا كنت عارفاه عند بابا، يبقى إيه الفرق بين هنا وبين هناك؟

أردفت بتأوه مصطنع: صحيح، المفروض إني بالاسم دلوقتي متجوزة.

بردت ملامحها فجأة وتجمدت: بس إيه اللي يثبت دا؟.. زوج مش بأشوفه؟، مش باتكلم معاه؟، بينام معايا فـ الأوضة عشان أخته ما تشكش فـ طبيعة العلاقة بينا، ولا إنه ما يعرفش بأحب إيه وبأكره إيه.. واحد جرحني فـ ليلة فرحي بإني خارج اهتمامته وإن جوازه مني صفقة وحاجه هيكسب من وراها وجود أخته فـ حياته وما يضرش لو جه طفل على البيعة..

زادت قوة نبرتها حدة وغضبًا: واحد من ساعة ما جيت البيت دا كل يوم يخرج مع مراته الأولى، يجبلها هدايا، يمشي ماسك إيدها قدام كل الناس، حاولت اتقرب منه، أدخل قلبه، دوست على كرامتي وقولت هو أهم، وريته حبي.. بس كل اللي قابلته إيه؟.. مهتم بالأولى وراحتها ومديها كل الحب اللي جواه، مستعد يدوس عليا عشان خاطرها.. بقى هو دا جوزي اللي بتكلمني عنه؟

توقفت أخيرًا تلتقط أنفاسها، حدق في وجهها مصدومًا لا يملك ما يقال. راقبته يائسة؛ تعلم أن الأمر ميئوس منه، لن يفهمها أو يشعر بما تضمره داخلها من وجع محجوب عن الأعين المجردة المنعزلة عن القلب.

همت باستكمال الصعود من جديد حين استوقفها بعد سلمتين: كل دا كنت شايلاه جواكِ؟.. ليه ما قولتيش من زمان؟

استدارت إليه على مهل، شفقة استغربها برقت في أعماق مآقيها: عشان أنت إنسان واعي والمفروض عارف عواقب أي حاجه بتعملها ونتيجتها، عارف إن اللي بتعمله ظلم ليا وظلم لنفسك.. هتتحاسب عليه قدام ربنا، وقتها ربنا هيردلي حقي ويجبر بخاطري اللي كسرته.

ـظلمتك؟

ـربنا صحيح سمحلك تتجوز من واحدة لحد أربعة بس فـ نفس الوقت نبه واشترط

حاجه، (وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ).

عقبت: وأنا إيه دلوقتي غير معلّقة؟

أكملت صعودها حتى وصلت إلى قمة الدرج، التفتت إليه مستندة على الحاجز الجانبي للسلم، أضافت بملامح حزينة متألمة: تعرف إيه اللي واجعني أوي من جوا أكتر من كل اللي فات دا؟

رفع إليها رأسه مستفهمًا وقد حزا حزوه الآخرين، أجابت سؤالها: إنك تيجي يوم القيامة ونصك مايل أو ساقط.. والمعروف إن الحالة اللي بتكون مبعوث عليها يوم القيامة بتفضل فيك إلى ما لا نهاية.

شحب وجهه وهربت الدماء من عروقه، تعبيرات وجهها، خوفها عليه، تألمها لأجله، كل ذلك ترك به أثرًا لن ينمحي. بعدما غابت عن أنظاره، استدار متجهًا إلى غرفة مكتبه، لا يريد سماع أي تعقيب عن الحوار الذي سمعه كل من بالمنزل حتى الخدم، أغلق على نفسه الباب جيدًا وجلس فوق مقعده الجلدي يستغرق في مراجعة النفس التي لا مفر منها.

***

أبدلت الثوب الذي كرهته من فرط الذكريات السيئة التي علقت بذهنها أثناء ارتدائه، تربعت فوق الأرض وظهرها مستند إلى السرير، هطلت دموعها رغمًا عنها، لا تقدر على كبحها، فقدت السيطرة على كل شيء تملكه.

زاد ضيقها فوقفت تدور في الغرفة كالليث في الأسر، من فرط الإجهاد الذهني والتفكير القاتل توسعت الشرايين المغذية لعقلها بسبب قلة نسبة الدماء الواصلة إليه مما سلمها إلى الصداع على طبق من ألماس.

حاولت التماسك والتغاضي، يجب أن تنسى ألمها هذا لفترة حتى تستقر على خطوتها التالية، وقفت للحظة أمام المرآة تطالع وجهها المصفر ثم أسرعت مستديرة عنها، لا ترغب في المواجهة لكن يجب عليها فعلها، لم يعد لها مكان في هذا المنزل، الحُجة التي تشبثت بها لم تعد تجلب على رأسها سوى وجع إضافي هي في غنى عنه، الشركة لن تنهار بدونها، لقد أتمت مهمتها في وضع الخطة والتنفيذ مسئوليتهم وحدهم.

كلما استقر فكرها على الرحيل زادت عصبيتها وأشتد صداعها، وقفت بغتة تعتصر عينيها، وظلت تردد بلا صوت عبر شفاه جامدة «لا أريد الإبتعاد عنه، لا أريد».

***

وقف ماجد في شرفة منزله، نفسها التي شاهد عبرها سلمى لأول مرة دون أن تعلم، مستقيم الظهر واضعًا كفيه في ثنايا جيوب سروال بذلته، بعدما فتح أزرار السترة الأنيقة، عيونه تلمع ببريق شديد الجدية، قلما يظهره أمام الناس وكثيرًا ما يدعه يتمكن حينما يكون منفردًا.

وقف يتابع منزل جيرانه بترقب، قلبه ينبؤه أن هناك حدثًا محوريًا هذه الليلة أكثر مما مضى بكثير، هو الآن واقف في إنتظاره.

دق الهاتف الجوال، أجاب يتأكد أن أوامره قد نفذت، ازدرد ريقه، وقف يشرد في الأفق المعتم أمامه سوى من تلألئ النجمات الصغيرة على صفحة السماء، كفئران تمرح بانتهازية خلال غياب القط، نجوم صغيرة ضعيفة الإضاءة ما مدى لفتها للأنظار أمام القمر الوضاء؟، كبير الحجم وشديد الإنارة ببياضه المخالف لألوانها المتباينة.

***

اندمج في تصفح الإنترنت، يبحث عن صحة أقوال سلمى، كلماتها ما تزال تطرق أذنيه بشدة، أيقظت ضميره وحركت غريزته، يرغب في معرفة الصواب والخطأ، وبعد بحث وجد غايته، الحديث المنقول عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- مبينًا صدق قولها، قرأه بالتوضيح المضاف إليه بأحد المواقع الدينية الموثوقة.

انتقل بعد ذلك يبحث عن الآية ويقرأ تفسيرات كبار الشيوخ والأئمة، كأن قبضة تعتصر فؤاده، سلمى لم تخدعه، ولم تهول الأمر، إن ما قرأه أشد إثارة للفزع مما توقع، أطفأ الشاشة وتراجع في جلسته، كلماتها تعاد على مسامعه مضاف إليها المزيد مما توصل إليه.

لقد أخطأ في حقها أيم الخطأ، ظلمها بلا ذنب، ما كان عليه الزواج منها ما دام يعلم أنه لن يقدر على بناء أسرة معها، ظلمها وظلم نفسه كما أشارت، علّقها، فلم تبق في منزل والديها هانئة البال ولا تزوجت بشخص يقدرها، مستعد لتأسيس حياة برفقتها.

احتار، فكر، يجب أن يصل إلى حل يصلح به خطأه، لم يكن هدفه الوحيد إبقاء أخته الكبر بالزواج كما أرادت وحسب بل حماية سلمى من عمها، لكن هل هذا العذر يشفع له ما فعله بها للآن؟، ألم يكن وجعها من عمها أهون مما ذاقته على يدي قراره؟

انتفض إثر صرخة رجت المكان من حوله، أسرع إلى حيث مصدر الصوت، صعد درجتين وثلاث دفعة واحدة، صراخ آية زرع الرعب في قلبه.

وقف أمام باب غرفة سلمى ووجد آية جالسة جوار جسدها الممدد أرضًا، تبكي وتنوح فيما تحاول إفاقتها بلا جدوى، وناهد تحاول الإتصال بالإسعاف حتى تسرع في المجيء.

دلف وركع جوار أخته يسألها عما حدث، أجابته من بين تشنجات بكائها: ما أعرفش، ما أعرفش.. أنا جيت أطمن عليها، فضلت أخبط ما ردتش، قولت أدخل يمكن تكون محتاجاني جنبها أو عايزه حد تحكي معاه.. فتحت الباب لاقيتها زي ما أنت شايف كدا.

قبل أن يعالج عقله المعلومات التي قالتها سمع شهقة عنبر من خلفه مشيرة إلى نقطة ما عند جسد سلمى، تتبع إتجاه إشارتها ووجد بقعة من الدماء تحتها تتسع في بطء، فزعه فاق الحدود، أمر آية أن تذهب وتحضر عباءة يلبسها إياها حتى يأخذها فورًا إلى المشفى، بينما صاح في عنبر أن تأمر أحد رجال الأمن بتجهيز السيارة وإحضارها أمام باب المنزل مباشرة.

-ما كنا استنينا الإسعاف، أتصلت بيهم.

لم ينظر ناحية ناهد منشغلًا بمعاونة آية في إلباس سلمى، لكنه أجابها على عجل أثناء نهوضه بالجسد الواهن بين ذراعيه: دول يومهم بسنة.

هبط على عجل، يحاول الإسراع وفي ذات الوقت الحذر حتى لا يصاب مكروه آخر، نبضات قلبه تعالت، يشعر أنه خان الأمانة، أمانة والدها حينما وثق به وسلمه صغيرته، وأمانة سلمى نفسها لما تركت أمرها بين يديه وقتما قبلته زوجًا لها.

تابعتهم كادي من نافذة غرفتها تجاورها ريتا -خادمتها الوفية-، ابتسامة تشفي تظهر على وجهها، لقد أنتهت الليلة أفضل مما تمنت.

***

وقف بفك ساقط، عدم التصديق يملأ عيونه، دغدغة خفيفة تداعب قلبه بريشة خبر تسلل خلف ضلوعه، سأل الطبيبة عدة مرات يتلمس تأكيدها المتيقن لما أنبأتهم به.

ابتسمت بتفهم تؤكد جودة سمعه: مدام سلمى حامل.. وفي الشهر التاني كمان.

صرخت آية في فرح جم، وسألتها ناهد بغبطة واضحة عن أحوال سلمى وسلامة جنينها،

فأجابت قلقهم بهدوء مطمئن عندما لاحظت حالة الاستنفار التي غمرت الجميع: ما تقلقوش عليها.. النزيف ماكانش قوي والحمدلله لحقناه قبل ما يسبب أي ضرر، سواء ليها أو للجنين.

أضافت بعدم تركتهم دقيقة يستوعبون ما قالته: بس لازم تخلوا بالكم من أكلها؛ عشان واضح عليها الضعف العام وقلة التغذية الصحية ودا هيتعبها ويضر الجنين، وفيه كام دوا بيتاخدوا طبيعي في بداية أي حمل كاحتياط ومعاونة لجسم الأم على احتياجات النمو الطبيعي للجنين.

-حضرتك اكتبي اللي لازم تاخده والغذاء السليم ليها وهنخليها تمشي عليه أكيد.

أشارت الطبيبة بالموافقة لناهد قائلة: تمام، حضرتك هتيجي معايا على مكتبي أكتبلك كل المهم واللي لازم تمشي عليه.. تقدروا تاخدوا المدام معاكوا؛ مافيش داعي لتواجدها هنا.

ابتعدت الطبيبة تجاورها ناهد متناقشتين في حالة سلمى والمفيد لها بالإضافة إلى الممنوع عنها، جذبت آية ذراع ياسين تخرجه من شروده بعدما راقبت خروج الممرضة من الغرفة التي تحتلها سلمى.

طاوعها مغيب العقل والقلب، قلبه يختبر نوعًا جديدًا من العاطفة، غير ما يكنه لشقيقاته وكادي وحتى سلمى أو الأغراب، شعور يدرك في مكان ما داخله أنه سيقوى ويصبح أشد ضراوة مما هو عليه الآن؛ حاليًا هو إحساس تجاه كائن صغير ما زال في مرحلة التكوين، لا يعرف شكله، لا يشم رائحته، ولم يسمع صوته.. كيف سيكون شعوره إذن حينما يحمله بين ذراعيه ويقبله فوق جبينه المتغضن.

حدق في سلمى وراقب تقبلها التهاني من آية، نظرتها المتغيرة بلمعة فرحة إضافية لم يرها منذ مدة، زفر بضيق، لما تكون نظرة البرود من نصيبه وحده، وقد أنسته نظرتها إليه كل ما ذاقه من مشاعر لذيذة قبل لحظات.

***

تقدمت إلى داخل المنزل بأقدام مرتعشة وجسد متثاقل، تحتاج إلى النوم بشدة، والصداع يطرق رأسها بعنف، وليس هناك سبيلًا لعلاجه سوى النوم؛ فقد منعت عنها الطبيبة تناول دوائها المخفف لوجع الرأس؛ لإنه قد يضر الطفل.

استأذن ياسين من أخته الصغرى أن تبتعد، أمسك بذراع سلمى عوضًا عنها وكفه الأخر يحيط خصرها ويقدم لها الدعم، استسلمت ليديه ولم تعلق رغم رغبتها في دفعه وزهدها في معونته، لكن اشتياقها للفراش دفعها إلى رفع الراية البيضاء.

انسحبت ناهد برفقة شقيقتها الصغرى إلى غرفهن، ابتسامة فخورة احتلت وجهها، صدق شقيقها الآن أنه كان بحاجة لطفل من دمه وأنه لم يكن زاهدًا في الأبوة كما حاول خداع نفسه قبل خداعها، الآن سيستيقظ من وهم كادي ويدرك واقعه المكون من سلمى وطفلهما القادم في القريب –بأمر الله-.

استكانت فوق الفراش تراقب حركة ياسين حولها، يضع الغطاء فوقها بعناية ثم يرفع قدمها فوق وسادة صغيرة خالقًا حيزًا من الراحة حولها بعد تخفيفه للضوء.

نفخ بحدة بعدما جلس على مقعد جذبه قريبًا من السرير، عقد ذراعيه وجابه نظراتها المتشككة التي تكاد تقطر ثلجًا: ينفع بقى تقوليلي إيه سر النظرة اللي فـ عينيك دي ناحيتي؟

-أصلي ما بأحبش النفاق.

-نفاق؟!

-والإنسان اللي بوشين.

-وشين؟!

استفزها برود فعله على اتهاماتها المباشرة، كظمت غيظها: ممكن اسألك سؤال بس تجاوب عليه بصراحة؟.. أنت مبسوط فعلًا إني حامل بابنك؟

بدون تفكير ارتسمت بسمة سعادة على شفتيه مؤكدًا: دا أجمل إحساس حسيته فـ حياتي.

لم تعد تطيق صبرًا، نفضت قدميها عن الفراش ووقفت غاضبة يكاد الدخان يتصاعد من أذنيها: عشان تعرف إنك منافق وبوشين.. منين تقولي إنك مش راضي عن اللي حصل بينا ومنين فرحان دلوقتي إني حامل؟.. نسيت دلوقتي حبك لكادي؟.. وإنك مش عايز ولاد غير منها؟

هجومها عليه أربكه، رد مبررًا: والطفل ذنبه إيه فـ حاجه حصلت فـ عدم وعيي، وإيه علاقة حبي لكادي بحبي للبيبي؟.. دا حب من نوع تاني خالص.

وضعت كفيها في وسطها: يا سلام؟!!، تحب طفل جايلك من واحدة مش بتحبها ولا بتطيقها؟.. تيجي إزاي دي؟!

زفر محاولًا تمالك أعصابه حتى لا تنفلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، أنتِ عايزه تلبسيني تهمة بأي شكل؟.. عمري ما قولت إني مش طايقك، إذا كان دا اللي وصلك فهو مش ذنبك، لكن فـ نفس الوقت مش بأحبك الحب اللي بيبقى بين الزوجين أو على الأقل اللي بيني وبين كادي.

تهدلت أكتافها وتراجعت، جلست بهدوء فوق الفراش، لاحظ هو إنحناءة أكتافها؛ فأدرك فداحة قوله، ضرب مقدمة جبينه وحاول لملمة شظايا فعلته، جاورها يخفف حدة ما قاله بلا إدراك: سلمى، أنتِ دلوقتي بقيت أم ابني، أكيد هيبقالك مكانة خاصة

فـ قلبي، وماحدش هيقدر ينافسك فيها.. أنا عارف إن إنسانة جميلة وطيبة زيك تستاهل شخص أحسن، وما أنكرش إني فكرت أطلقك وأسيبك تشوفي نصيبك مع واحد تاني يقدرك وتكوني الوحيدة فـ قلبه.. بس بعد ما عرفت بحملك، آسف مش هأقدر أعمل كدا؛ عشان مصلحة ابني.

لم تجبه، ولا استدارة صغيرة عبرت بها عن تفهمها كلماته أو حتى إصغاءها لها، ربت على كفها القابض على ركبتيها ثم قبل جبينها متمنيًا أحلام سعيدة تزورها ثم نهض منصرفًا.

أطلقت لدموعها العنان فور خروجه، ماذا فعلت له حتى يؤذيها بكلماته إلى تلك الدرجة؟؟، خطأها الوحيد هو تمنيها قلبًا ليس لها، غبية، ظنت نفسها بقوة النساء المتواجدات بالروايات والقصص، ظنت عالمها كما العوالم الوهمية المحيطة بهن، لم تذق غير الوجع منذ أتت إلى هذا المنزل، زوج بائس بلا أدنى رغبة إنجاح زواجه منها.

ابنه!.. بدأ يرعاني لأجله، قرر التمسك بي بعدما ركلني خارج حياته لمصلحته، لا يفكر في مشاعري، على استعداد أن يتخلص مني لكن لن يتنازل عن الطفل، رخيصة أنا لديه، وابنه لا يقدر بثمن، المحمول أهم من الحامل، كالسيف المهم أكثر من الجندي، أي منطق هذا؟؟، فما نفع السيف بلا حامله و مُجيد استخدامه؟!

***

دلف إلى غرفته والكلمات التي قالها تدور من جديد في عقله، يبحث عن كلمة أخطأ بها من جديد، فيبدو أنه لا يجيد سوى جرحها وإصابة أنوثتها في مقتل.

أغلق الباب عقب دخوله، فهبت كادي تتعلق بعنقه تسأله بقلق مصطنع عما حل بسلمى فجعلهم يركضون بها إلى المشفى، تبرأت من المعرفة كحية تغير جلدها حتى

لا تعرف ضحيتها أنها الفاعلة، ربت عليها وصدّق جهلها، لم يكن بذهن صاف ليدقق المسعى، جلس وهي إلى جانبه يقص عليها ما حدث إجمالًا لا تفاصيلًا.

شهقت بفزع وانتفضت في وقفتها، فما قاله أخيرًا لم تخبرها به ريتا قبلًا: إزاي يعني؟

نظر إليها مستغربًا انتفاضتها: إزاي إيه؟

-إزاي خليتها حامل؟.. يعني أنت ما قربتش عليها مش كدا؟

-دي مراتي يا كادي.

دفعته في مجلسه بقوة من كتفيه وصاحت هائجة: مش أنت وعدتني إنك مش هتقرب منها؟؟ وقولتلي إن الجوازه دي عشان أختك وبس؟؟.. إيه اللي جد؟!

نظر إليه بقوة وفمه محكم: قولتلك دي مراتي يا كادي، ما أعتقدش الموضوع محتاج توضيح أكتر من كدا.

شردت بعيدًا عنه تفكر، لقد قال أنها في الشهر الثاني أي أن ما حدث..: دا حصل وأنا فـ إسكندرية مش كدا؟؟ أصل دا الوقت الوحيد اللي سبتك فيه لوحدك.

وقف قبالتها منفعلًا: إيه لوحدك دي؟؟.. هو أنا عيل صغير خايفه لحد يضحك عليه بمصاصة؟!

لوت شفتيها ساخرة: ومش هو دا اللي حصل؟

-لاااااا، دا أنتِ الكلام معاكِ مش نافع.

اتجه صوب الباب تاركًا إياها تنعق خلفه، تركها مغتاظًا فذهنه لم يعد قادرًا على البحث عن كلمات مهدئة لمن حوله، وهو منشغل في معمعته الخاصة. لمح باب غرفة سلمى وهو على قمة الدرج في طريقه إلى الأسفل، فكر في الإطمئنان عليها،

دلف بهدوء ليجدها غارقة في نوم عميق يملأ جفنيها، جلس جوارها يحدق في معدتها الشبه مسطحة ولم يظهر على شكلها الحمل بعد، حاول تخيل كيف سيكون بعد عدة أشهر، ستبدو على وشك الإنفجار.

ابتسم وتوسد كفيه ونظره عالق بمعدتها، يفكر في طفل لم يكن على البال سينير منزله بعد عدة أشهر، يملأ حياته الفارغة، وقلبه القلق، سينام بين ذراعيه في صغره، يتعكز عليه حين يكبر، وتطرد ضحكاته الصغيرة سكون المنزل، وشقاوته تعبئ الهواء مرحًا.

استغرقته الأفكار وصولًا إلى تفاصيل شكله وشخصيته كيف ستكون، له ضحكة أمه، عيونه وشعرها، شرها اللذيذ وشقاوتها الحلوة، عقله العملي ومشيته الواثقة.

ذهب في سبات عميق بلا قاع، رأسه عنده قدميها وعيونه أغلقت على مشهد بطنها الهابط والمتصاعد أسفل الغطاء مع تنفسها المنتظم، يستسلم لعالم الأحلام.

***

فتحت عينيها رويدًا، تحاول لملمة أفكارها، صعقها ما حدث في الليلة الفائتة، وضعت كفيها على بطنها بأعين منفرجة على إتساعها، لقد أخبرتها الطبيبة أمس أنها تحمل طفلًا بين أحشائها، ينمو ليصبح طفلًا ينام في حضنها بعد عدة أشهر، استوعبت هذه الحقيقة أخيرًا، حتى الأمس ظنته حلمًا، محض خيال.

مرّ شهران على بذره في رحمها، لم تدرك خلالهما وجوده، حياة أخرى تبدأ داخلها دون أن تشعر، أي أم تلك التي لا تدرك وجود طفل يرقد جوار قلبها، يحيا عليها ويتنفس من نفسها، أهذه بدايتها معها؟، أحزينة هي طفلتها لأنها لم تدرك وجودها.. مهلًا، من أين عرفت جنسه؟.. أهي فتاة حقًا؟، لعل ذلك صحيحا فتكفر به عن عدم شعورها بنموها داخل رحمها.

-بتفكري فـ إيه على الصبح كدا؟

هبت جالسة، حدقت فيه بعين طفلة صدمها صوت الوحش الذي قرأت أمها قصته عليها في الأمس لتتفاجئ به يشاركها الفراش صباحًا، ضحك على مظهرها: كأنك شوفتِ عفريت لا سمح الله؟

-أنت بتعمل إيه هنا؟

استند على مرفقه: صباح النور.

-بتعمل إيه هنا؟

تنهد: جيت أطمن عليكِ إمبارح، لاقيتك نايمة ونعست جنبك.

عقدت ذراعيها أمام صدرها: بنتك كويسه، تقدر تتفضل من غير مطرود.

قطب: بنتي؟.. أنتِ حاسه إنها هتكون بنت؟

هزت رأسها إيجابًا فابتسم: وأنا كمان، حتى لما حلمت بيها شوفتها بنت.

طالعته بلهفة: حلمت بيها؟

أومأ: كانت بتجري فـ جنينة مليانه ورد، شعرها زيك، عاملاه ضفيرة طويلة وصلت لأخر ضهرها وكانت بتطير حوليها منين ما تروح.

تلمس جدائلها الحرة يستعيد ذكرى حلم الأمس، يتخيل تشارك زوجته وابنته بنفس الخصلات البنية بلمعتها الذهبية في ضوء الشمس، سألها متذكرًا: ما قولتليش.. كنت بتفكري فـ إيه أول ما صحيتِ؟

سقط رأسها بين كتفيها خجلًا وحزنًا معًا: مر عليا شهرين من غير ما أحس بيها، ولا أعرف إني حامل، أنا أم مش كويسه، ما حستش ببنتي أول ما اتكونت جوايا، وأكيد دلوقتي هي زعلانه مني وليها عذرها.

غير محل جلوسه ليصبح كتفه في كتفها، أرجع شعرها إلى خلف عنقها، ابتسم مواسيًا وكفه تربت على بطنها: أكيد هي مش زعلانه، عشان إحنا هنهتم بيها لدرجة تنسيها جهلنا وجودها الشهرين اللي فاتوا.. وهي عشان طيوبة زي مامتها هتسامحنا.

نظرت إليه بأمل، تترجاه التأكيد: بجد؟

أومأ بثقة: طبعًا، وهنبدأ بفطار صحي كاااامل، يقويها كدا ويخليها تطلع مكلبظة ومقلوظة.

ضحكت ملء شدقيها: بس أنا مش عايزاها تطلع مكلبظة، عايزاها تطلع سمباتيك.

-جيبيها بس الأول بصحة كويسه، وبعدين أبقى أسرب لها شيكولاته من وراكِ وتكلبظ بردو.

-يا سلاااااااام؟!، بقى هتجيب الشيكولاته ليها لوحدها؟

-طب أنا راضي ذمتك، في حلاوة تاكل شيكولاته يا حلاوة؟

تعلقت عيونها بعيونه المازحة، تغيرت نظرته فجأة بفعل بريق مر بها، وقف على قدميه يستعجلها النهوض: يلا، ادخلي اغسلي سنانك وغيري هدومك.. وتعالي نفطر تحت فـ الجنينة.

وقفت بتمهل: ماشي.

قبل أن تختفي في الحمام ناداها، التفتت إليه مستفهمة دون أن تسأله، غمزها مغادرًا: ما تتأخريش يا حلاوة.

ابتسمت رغمًا عنها، ودلفت إلى الحمام تغسل أسنانها محدثة ابنتها عن والدها المجنون، الذي تغير معها منذ عرف بوجودها بين ثنايا رحمها، بفم يعج بمعجون الأسنان.

***

جلس يتلهى بطعامه، يحاول سد أذنيه عن الحديث الدائر، تتبادل شقيقته الكلمات مع زين ووالدهم بسعادة غامرة، يتناقشون في الإعدادات الخاصة بعرس حياه من قبل أن يتحدد موعده، ظل يعبث بالأرز الأبيض، يدفعه يمنة ثم يعيده يسارًا، ظل الجميع متشاغلًا عنه؛ فلم يشعر بعيون زوجته تتابعه وتنأ عن التدخل في الحديث حتى حين يوجه إليها. نهض منسحبًا بعدما أدعى الشبع، تعقبته زوجته، والجميع لا يعبأ بما يدور، فقد عادت الفرحة إلى المنزل وليسوا على استعداد لتركها تفلت من بين أيديهم.

وقفت عائشة على باب الغرفة تراقب حركة زوجها البندولية، يخرج شيئًا ثم يعيده بعدها يخرج آخر ويلقيه بعيدًا بعد برهة تأمل، رفع رأسه أخيرًا ولاحظها، قطب بقوة: واقفة عندك كدا ليه؟.. وإيه النظرة دي؟

دلفت وأوصدت الباب خلفها، استمرت تحدجه بذات النظرة فيما يقف بنفاذ صبر منتظر الإنفجار في أية لحظة لأقل سبب. قالت في النهاية بصوت هادئ مترقب: أنت مش راضي تسامح حياه ليه؟.. إيه سر قسوتك عليها؟، وليه مش عايز حد يسامحها؟، إيه السبب القوي للحقد اللي شايله جواك ناحية أختك!

توتر، دارت عيونه بلا هدف، أنتهى بالصياح في وجهها مع آخر جملة قالتها: أنتِ أتجننتِ؟، إيه أحقد على أختي دي؟

-ما هو أنا مش لاقيه تفسير تاني للي بتعمله معاها غير كدا، لو عندك تفسير أحسن قولي.

هز رأسه متأففًا وهمَّ بالخروج: مالكيش دعوة باللي بيني وبين أختي، ما تتحشريش.

أمسكت بساعده تمنعه من المغادرة دون إنتهاء الحديث، نظرت في عيونه بقوة وقالت بإصرار متيقنة من كل كلمة تنطقها: من ساعة ما المأذون كتب كتابنا ما بقاش في بيني وبينك حاجه اسمها حاجتي وحاجتك، أختي وأختك.. إحنا بقينا كيان واحد وعيله واحدة، التفرقة دي مش موجودة.. إلا لو أنت عايز توجدها..

كز على أسنانه مغتاظًا: لا بقى، دا أنتِ بتقولي شكل للبيع!

نفض يدها بعيدًا منصرفًا: وأنا بقى ماليش نفس للخناق دلوقتي.

رحل وتركها، وقفت بهدوء تحدق في الباب من حيث خرج، حسبت في عقلها المدة الزمنية التي تفصله عن الوصول إلى الباب الرئيسي للمنزل ثم توجهت إلى النافذة تحدق في ظهره ومشيته الغاضبة، يضرب الأرض بقدميه أكثر منه يسير فوقها، جبينه متغضن وتنفسه متسارع يواكب انتفاضة رئتيه أسفل صدره.

يحيرها أمره، لقد تزوجها بدون حب –تدرك ذلك- لكن التفاهم كان بينهما، لو لم يكن يشعر به لما أتم الزيجة، خصوصًا أنه رفض قبلها الكثيرات، وأنهى الأمر مع عدة فتيات قبل أن يبدأ، معنى ذلك أنه أختارها، هي دون نساء الدنيا –أو على الأقل بنات مدينتهم-، فجأة أقام الحواجز، وأسدل أبواب السدود بينهما مانعًا أي قناة تربط بين شاطئيهما.

ضاقت عيونها؛ نتيجة خاطرة مفاجئة، أيمكن أن يكون سره، ما يخفيه قد يمس علاقتهما؟، يؤثر عليه عندها أو يدمر شيئًا بينهما؟

تعالى صوت بكاء أحد طفليها، فنفضت أمورها وأمور زوجها بعيدًا وهرعت تؤدي دورها كأم لطفلين صغيرين، رسمت بسمة على شفتيها حينما دلفت إلى باب غرفتيهما، الإثنان جالسان يضرب أحدهما أخيه بإحدى اللعب فيما المضروب يبكي والضارب يراقبه في صمت.

لحقت بها زهرة متسائلة عما يحدث، جلست عائشة جوارهما أرضًا وسحبت من يد الضارب سلاحه، أنبته في حزم عما فعله، رفعت الباكي تربت على ظهره مهدئة، قالت زهرة بإعتذار: كانوا بيلعبوا وسيبتهم عشان أجيبلهم الفطار، ما أعرفش إمتى لحقوا يتخانقوا.

طمأنتها بينما تسلمها الطفل بعدما هدأ: ما حصلش حاجه، دول ولاد، معلش يا زهرة خديه أكليه برا.

أطاعته وأخذت طبق فطوره من الصينية التي أحضرتها، داعبته قليلًا كما اعتادت حتى تمتص ضيقه.

رفعت الآخر عن الأرض ووضعته في مقعده، جلست أمامه تبدأ في إطعامه بوجه جامد يبدو عليه الضيق الشديد، رفض الطفل تناول أيًا من طعامه، سأل أمه بوجه حزين: ماما.. زعلانه؟

أومأت: أيوه، عشان ضربت أخوك، يصح كدا؟

-بس هو اللي كان عايز..

-مهما كان اللي عمله أخوك ما ينفعش تضربه يا مصطفى.

أخرجت حلو من جيب عباءتها وأرته إياها: شوف هو شالك إيه إمبارح معايا؟ ما رضيش ياكلها كلها لوحده، خد واحدة وشالك التانية معايا.

سقط رأسه بين كتفيه شاعرًا بالذنب، أدركت إحساسه بالوضاعة أمام إيثار أخيه، رفعت ذقنه وقبلت جبينه: ما تزعلش منه ولا تزعله منك، أنتم إخوات.. والمفروض تبقوا دايمًا سوا.

-بس هو زعلان دلوقتي.

-لا، الأخوات مش بيزعلوا من بعض، شوف..

أخرجت لوحين من الشيكولاته المفضلة لدى أبنائها، سلمتهما إلى مصطفى وغمزته بابتسامة متسامحة: أنت عارف هتعمل إيه كويس مش كدا؟

تطلع في وجهها باسمًا، يدرك أن دوره حان الآن، والكرة صارت في ملعبه، أكمل تناول فطوره ثم أسرع مع والدته إلى حيث يتواجد محمد مع عمته زهرة. حالما رآه ركض ناحيته وقبل رأسه متمتمًا بإعتذار صغير، سلّم أحد القالبين إلى شقيقه فاتسعت ابتسامته التي ظهرت حالما رأى أخيه مقبلًا عليه ببراءة الأطفال.

جلست جوار شقيقة زوجها، تلتقط البازلاء وتخرج الحبوب من داخل غلافها الأخضر وعيونها تتعلق بصغيريها، يلعبان سوية، ويضحكان معًا.

***

خرجت من الحمام، منشرحة الصدر، مبتسمة الثغر، أسرعت تجيب الهاتف قبل إنقطاع رنينه، ردت على صديقتها المقربة، تستمع إلى لومها وعتابها: حرام عليكِ يا شيخة، ذنبي فـ رقبتك، كام يوم لحد دلوقتي مروا وما تعبرنيش بكلمة يا مفترية، دا أنا كلت راس حمزه بسببك.. عماله أقوله مش بتكلمني، مش بترد، مش عارفه أخبارها، أوصلها إزاي، مافيش عفش هيترتب فـ بيتنا غير لما تكون هي معايا.. مش بعيد يكون بيدعي عليكِ دلوقتي، أعمل فيكِ إيه.. قوليلي!

-أنا حامل.

قالتها ضاحكة ثم أبعدت الهاتف عن أذنيها حينما أوشكت على الإصابة بالصمم نتيجة صرخة صديقتها عبر الأثير، أعادت المحمول إلى أذنيها تنصت إلى أسئلة حياه المتلاحقة بلا هدنة تلتقط فيها نفسها، أجابتها بهدوء وطولة بال؛ لمعرفتها بحب صديقتها الحقيقي.

***

شعرت بالحنق يغمرها، تجاهل حديثها، قضى الليل في غرفة عدوتها، أتاها منذ قليل من أجل تبديل ملابسه والاستحمام ليس أكثر.

مهما سألته لا يجيب، تركها وهبط إلى الطابق السفلي مغردًا بصفير مرح، يعبر عن مزاجه الرائق الذي لم تنجح في تعكيره، سمعته يطلب من العاملين بالمنزل تحضير الإفطار في الحديقة، يشمل أطعمة بأعلى قيمة غذائية لأجل سلامتها وجنينها.

توجهت بغيظها والغضب محمولًا فوق كتفيها مجردًا إلى غرفة سلمى، أتهنأ الأخرى وتموت هي غيظًا؟.. أيصبح غيرها سعيدًا وهي تتلظى فوق نيران الحنق؟

فتحت الباب بغتة ودلفت إلى الغرفة، بالكاد أغلقت الخط مع حياه، البسمة ما تزال عالقة على شفتيها مما زاد إنفعال كادي أكثر، حدقت فيها سلمى بأعين متسائلة.

وقفت تتخصر أحد جانبيها، تحاول تمالك أعصابها لتصيب سهام كلماتها مقصدها، رسمت السخرية على ملامحها والاستهانة في عيونها: فكرك بكدا هتربطي ياسو جنبك؟.. احلمي يا حبيبتي، ما هي الأحلام ببلاش.. بس أحب أفكرك إنك ما جيتيش البيت دا غير عشان تجيبله العيل وأخته تطلع فكرة السفر من دماغها، وما تستبعديش إنه يرجعك بيت أهلك أول ما تولدي وياخد ابنه منك ويديهولي عشان أربيه.. فـ الأول والآخر هو كان ميت على بيبي مني.. مش من غيري.

همّت بالمغادرة ملقية قذيفتها الأخيرة: حبيت أفتحلك عيونك بس، أصل إحنا ستات زي بعض وأنا ما يخلصنيش تتغشي فـ نفسك أكتر من كدا.

قتلت فرحة غريمتها ورحلت، أدمعت عيون كانت قبل رؤيتها تلمع بالسعادة، قاومت محاولات دموعها في الفكاك من بين أجفانها، أخذت عدة شهقات من الهواء المحلق حولها تستحضر الهدوء والصبر؛ فيبدو أن الطريق أمامها ما زال طويلًا شديد الوعورة.

***

لوى ذراعها خلف ظهرها وبيده الأخرى جمع شعرها يجذبه في قسوة متعمدة، تصرخ وتتوسل بلا جدوى، دموعها لم تحرك قلبه قيد أنملة، عيونه تطلق شررًا وأسنانه تصدر صوتًا تقشعر له الأبدان من فرط الإحتكاك بين الفك العلوي والسفلي، حاولت تخفيف قبضته على خصلاتها بلا نتيجة فعادت تترجاه والبقية خلف الباب الموصد يستمعون في صمت عبر خشب الباب الناقل للأصوات المتأوهة والتوسلات المتلاحقة.

رجها بقوة: هينزل.. أنتِ فاهمة؟!

بللت شفتيها علها بذلك تيسر الطريق للكلمات حتى تخرج: بس دا ابننا.

هاج في وجهها يطوحها أرضًا: ابننا ولا ابن كلب حتى، هينزل يعني هينزل يا خلود.. نبهتك قبل كدا ما تفكريش حتى فـ أي كلمة فيها ألف أو ميم، بس ما سمعتيش الكلام، شوفتِ غباءك وصلك لفين؟؟.. هتكوني سبب موت ابنك.

ارتفع صوت نحيبها فيما وقف يتابعها وقد بدأ الهدوء يتسلل إليه، ركع على أحد ركبتيه جوارها، رفع ذقنها حتى تنظر في قيعان عيونه: المرة دي هأكتفي بالإجهاض بس، لكن لو فكرتي، بس مجرد تفكير تكرريها..

قست لهجته بوحشية: هتتمني تحصلي ابنك وبردو مش هتطوليه.

دفعها لتصطدم جبهتها بطرف الفراش المدبب، غادرها بلا مبالاة لكي يعد الأمور اللازمة لعملية إجهاضها لجنين ترغبه هي ويمقطه هو.

أسرعت إليها الفتيات بالمواساة وبث الصبر داخلها، لامتها لارا على تهورها رغم نصائحها الدائمة لها بعدم فعل ما لا تحمد عقباه. وجلست شهد تطهر جرح جبينها فيما انطلقت وصال تعد وجبة مخصوصة على شرف سلامتها رغم الخسائر الناتجة، لكنها أهون الشرور.

***

راقبت عنبر سيدتها كادي تغادر غرفة سلمى بملامح متلذذة تسطع شرًا، قلبت شفتيها متوقعة سر فرحتها رغم وجوب حزنها، على الأقل ليس بدرجة الإنشكاح تلك، تعوذت في سرها وهرولت إلى غرفة سلمى تطرق بابها.

دلفت بعدما أذنت لها بصوت واهن بالكاد سمعته، أشفقت على مظهرها المبتئس، أخبرتها بتمام وضع الإفطار في الحديقة وأن ياسين بانتظارها، اعترضت في البداية وعبرت عن شبعها وزهدها في الطعام.

لامتها عنبر بحنان أمومي: طب وذنب ابنك إيه تحرميه من غذاه؟

-بنتي؟

ابتسمت عنبر متسائلة: هي بنت؟

رفعت سلمى ناظريها محدقة في وجه العاملة ثم هزت كتفيها تعبيرًا عن جهلها: مش عارفة، بس حاسه بكدا.

-طيب يرضيكِ الأميرة الصغيرة تطلع معضمة ومن أقل نفخة هوا تقع؟

ضحكت سلمى رغمًا عنها ونهضت ترافق عنبر: لا طبعًا ما يرضنيش.

وأثناء نزولهما الدرج أطلعتها عنبر عما فعله ياسين من أجل تحضير الإفطار بنفسه، فقد حاول عدة مرات وفشل ولم يستسلم إلا حين شعر بأزوف الوقت وفكر في اشتداد الجوع عليها.

استشعرت سلمى الراحة في كلمات عنبر المواسية نوعًا ما، فاسترخت قليلًا ودفعت الأفكار السلبية المليئة بالسوء مؤقتًا، لكنها كانت تداهمها من حين إلى آخر فتسببت في شبه إنعزالها عن الحديث الدائر على طاولة الفطور.

***

استقبلت صديقتها وزوجها حمزه، أتت تهنئها وجهًا لوجه وتطمئن على صحتها، فرغم السعادة العامرة في قلب كلتيهما إلا أن حياه لم تنس تنحي سلمى وإختباءها خلف جدار عازل بينها وبين الناس.

ذهبت عنبر تطلع ياسين المنشغل في مكتبه عن وجود ضيوف فور سؤال حمزه عنه، رغبة في تقديم التهاني إليه كذلك. انضمت حياه إلى جوار سلمى تغرقها في أسئلة لا أول لها ولا آخر، تشبع قلقها على الأم المجاورة لها قبل الإنتقال إلى سلمى الزوجة والصديقة المنزوية.

حضر ياسين بابتسامة مشعة، يعتذر عن تأخره في الترحيب بهم؛ فقد انقلبت الأمور في الشركة نتيجة تغيبه الغير مخطط والغير معتاد، طمأنه حمزه هازًا رأسه بتفهم، جلس أربعتهم يتسامرون حينًا، اعتاد فيه الرجلين على بعضهما بشكل ما، وقد دفعتهما حياه لذلك، فكيف تكون الزوجتين على وفاق كامل وأزوجهن بلا بذور صداقة؟

انسحبت سلمى مسحوبة خلف حياه، ترغب في الإختلاء بها حتى تفهم ما جرى في الأيام السابقة، أجلستها في غرفة المطالعة بعدما أرشدتها الأخرى إليها وجلست قبالتها، حدجتها لدقيقة كاملة بلا كلام ثم انطلقت تستجوبها.

-إزاي دا حصل؟

سألتها بعدم فهم: هو إيه دا؟

بانفعال خفيف وفضول غامر استعجلتها: الحمل!.. أنتِ مش قولتِ مش بيجي جنبك.

زفرت سلمى شاردة: حصلت مرة.

رفعت حياه أحد حاجبيها في عجب، دنت تتشبث في كفها محاولة سبر أغوار نفسها، صمتت قبل أن تقول في إدراك: وأنتِ زعلانه إنها ما اتكررتش؟

اشتعلت رغمًا عنها، داهمتها كلماته الجارحة من جديد، ظنه فيها كمتسولة تتوسل حبه وحنانه، أبدًا ما فعلتها، كل ما أرادته لفت إنتباهه لوجودها، إشعاره بما تكنه بين ثنايات قلبها، لم تطالبه بأكثر أو أقل من تفهمه لمشاعرها، أن يريحها من عذابها، إما القرب الماحي للعذاب السابق أو الإقصاء التام عن حياته وانفصال طرق المسير.

عبرت بذلك كله دون إدراك بين ذراعي صديقتها، بثتها شكواها الحبيسة، أخبرتها بما مرت به أثناء انشغالها في إعداد عش الزوجية وترتيب أمور العرس وما إلى ذلك. بكت سلمى كل الشكوك داخلها والألم الذي ذاقته، وبكت حياه صديقتها التي لم تفطن إلى حدوث شيء معها إلا مؤخرًا، بكت صداقة قصرت في حقها، وأخت دعمتها أكثر من أي شخص آخر.

حاولت إخراجهما سوية من معمعة البكاء والتفكير غير المجدي والبدء في البحث عن حلول عملية تخرج سلمى من أزمتها وإجهادها النفسي: يعني حاسه إن اهتمامه بيكِ عشان البيبي بس؟

-أكيد، ما أنا كنت قدامه من قبل الحمل.. إشمعنه دلوقتي بقى؟؟

-إمممم، يمكن.. بس ما تستبعديش بردو إن الأبوة خلته يحدد مشاعره ناحيتك، من اللي حكيتيه باين جدًا إنه متردد، ومش معترف حتى بينه وبين نفسه بإنه ممكن يحبك، وأغلب كلامه ليكِ وعتابه متوجه له قبل منك..

-أه، بأمرة أنه عايز ياخد بنتي مني ويرميها فـ حضن مراته التانية.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنتِ تصدقيها ليه أصلًا! جنابك عارفه كويس إنها مش بتطيقك يبقى أكيد هتبقى عايزه تعكنن عليكِ.. خصوصًا لما عملتِ اللي هي ما قدرتش تعمله؛ هتجيبي لياسين الولد.

-مش عارفه، أنا دماغي لفت.

-عمومًا حاولي ما تبعديش ياسين عنك، وفـ نفس الوقت ما تبنيش أحلام فـ الهوا عشان أنتِ اللي هتتكسري، والله أعلم هتطلعي سليمة ولا..

-هاحاول، هو متعلق بالبيبي جدًا ومش عايزه أبوظ فرحته وأنكد عليه وأزيد ضيقتِ.

غمزتها: أيوه بقى، ومن الحب ما قتل.

رفعت سلمى رأسها بعنفوان وكبرياء يأبى الذل: أنا عمر ما يقتلني الحب..

ابتسمت حياه مرغمة ثم عادوا يتناقشون في موقف ياسين من سلمى، علقت حياه بدهاء: يظهر إن الأستاذ ياسين مش بيجي غير بالعين الحمرا، خلاص.. أديكِ عرفتِ

ديته، أمشي على الوضع بتاع التقل والرخامة والتجاهل.. لكن ما تأفوريش، لاحظتِ هو بيبقى على نار إزاي لما بتركنيه بالذات بعد ما داق القرب منك، دلوقتي خلي القرب له علاقة بالبيبي وبس، لكن لما يبقى فيه احتكاك بينك وبينه تجاهليه.. هو ما يجيش إلا بكدا.

-أنتِ بتجيبي الكلام دا منين؟

قهقهت: من كتر الروايات وقصص الحب اللي الواحد قرأها أخد خبرة، مش زي جنابك، اقرأ وأركن، لازم استفاااد.

انفجرتا ضاحكتين حتى قاطعتهما ريتا تخبرهما بانتظار الزوجين لقدومهما في الحديقة، نهضتا بعدما أكدتا على بعضهما دوام السؤال واعتذرت سلمى عن تقصيرها في المساعدة ولكنها لن تتركها وستبدأ في تقديم يد العون منذ الآن قدر المستطاع.

جلسوا أربعتهم يحتسون الشاي المنكه بالليمون، ينتقل دفة الحديث بين الصديقتين في سلاسة وتناوش حياه زوجها أحيانًا مثيرة غيظه فتضحك ويهدأ مكتشفًا مزاحها المستتر خلف الجدية الواهية، ترد سلمى على حديث حمزه بتحفظ كما تفعل الأخرى مع ياسين.

أقبلت عليهم كادي هابطة من برجها العاجي إثر استماعها لصوت ضحكاتهم، سحبت كرسيًا وانضمت لجلستهم التي تصرخ بعدم حاجتها للمزيد من الأفراد، لكن لا حياة لمن تنادي، طالبت كادي زوجها بتعريفها على الضيوف، ففعل مرغمًا.

حاولوا التأقلم مع وجود خامس بينهم وعادوا يتحدثون عن تجهيزات الشقة وترتيبات العرس التي تكفل بأغلبها والد حياه تعبيرًا عن فرحته بزواجها القريب.

استفسر ياسين: والشقة ناقصها كتير؟

-لا لا، هي كانت جاهزة أصلًا بس حياه حبت تغير شوية ألوان، وبتتشطب خلاص.

-لو احتجت أي حاجه قولي وأنا مش هاتأخر.

قاطعت كادي زوج حياه قبل نطقه باستهزاء: يااه على الصداقة اللي ما بقالهاش ساعتين زمن.. بجد هتخلوني أعيط.

اغتاظ حمزه من كلماتها الساخرة، خصوصًا وأنها المرة الأولى التي تلتقيهم فيها مما يعني أنها تقصدّت وضعهم في خانة الحرج، التفت برأسه إلى ياسين فوجده يجلس محتقن الوجه شاعرًا بالضيق مما قالته زوجته، وعلى الرغم من ذلك فهو لم يقل شيئًا أكتفى بالقبض على يدها في قسوة لتصمت. حث حمزه زوجته على النهوض رغم تفهمه لموقف مضيفهم لكنه لن يقبل الجلوس منتظرًا إهانة جديدة من الزوجة المدللة، ليس خوفًا على نفسه إنما على مشاعر حياه؛ فهي لن تتحمل مخالب كادي المسننة.

ودعتهم سلمى والضيق من معاملة زوجة زوجها المجحفة في حق ضيوفها يستثيرها، وقفت أمامها فور انصرافهم بحنق: أنتِ إزاي تكلمي ضيوفي بالطريقة دي؟

-هاهاها، لا وبقالك ضيوف يزوروكِ.

-ياريت يبقى عندك احترام للناس شوية، مش ذنبهم إنك ما بتحبينيش.

أوقفها عن الرد اقتراب أحد رجال الأمن مع آخر يحمل طردًا في لفافة متوسطة الحجم، استفسر ياسين عن المحتوى فأجابه الغريب: دا جاي لمدام سلمى.. هي موجودة تستلمه بنفسها؟

تقدمت منه سلمى توقع في مكان حدده لها، أوشكت على حمله لكن ياسين نهرها؛ فلا يجب عليها حمل ما هو ثقيل أو يشي شكله بذلك، وضعه أعلى الطاولة بعدما

أفرغتها ريتا من الفناجين الخالية، حلّت سلمى الربطة الفرنسية المنصفة للشريط ثم مزقت الورق المغلف للبرواز، شهقت رغمًا عنها عندما طالعتها الصورة التي أعجبت بها في الأمس القريب وقد أعلن مسئول صالة العرض عن بيعها.

تذكر ياسين ذلك أيضًا وراقبها تلتقط كارتًا داخل مظروف وردي دُسَّ في أحد زوايا البرواز المستطيل، لكن حين رأى ابتسامتها خطف الكارت من أصابعها وطالعه في ثورة كامنة.

«بعدما لمحتها عيناكِ.. أبت أن تكون لسواكِ»

ماجد الحريري

رفع نظره إليها محاولًا تمالك أعصابه قدر المستطاع: قصده إيه بالكلام دا؟

هزت كتفيها بعدم إهتمام وجلست تتلمس سطح الصورة برفق وخفة: راجل جنتل حب يسعدني بكلمتين حلوين.

-يعني حضرتك مبسوطة دلوقتي؟

-لو أديت واحد عطشان كوباية مايه، هينبسط ولا لا؟.. أهو أنا العطشان دا.

-أفهم من كدا إنك ناوية تحتفظي بيها؟

-وليه لا؟.. دا حتى النبي قبل الهدية.

دق هاتفه بإصرار، يتعجل فتح الخط واتجه إلى الداخل وعيونه مصوبة ناحيتها تراقب تعابيرها أثناء مطالعة الصورة وتلمسها. وقفت كادي على بعد مسافة صغيرة منها تحدق في الصورة تارة وتطالع شرفة المنزل المقابل الفارغة تارة أخرى، تقبض على كفيها حتى جرحت أظافرها الطويلة والمطلية بعناية باطن كفها، رمت سلمى بنظرة مقت وكراهية أخيرة قبل أن تصعد إلى غرفتها متعجلة، تنشد الوحدة

لتفكر في حفرة تسقط في قاعها عدوتها، المرأة التي أخذت منها كل ما تملك وتربعت على عرش قلب من هوت.

***

أمسكت كتابًا يختص في أمور التربية وعلاقة الأمهات بأطفالهن، بعد مرور يومين على علمها بنبأ الحمل غير المتوقع وذهاب الفرحة الأولى بدأت تتوجس خيفة وتستشعر ثقل الحِمل المُلقى على عاتقها، منذ بداية تكوينه في رحمها إلى يوم أجله وتمام مهمته على الأرض.

تحست أسفل معدتها، خلية صغيرة تتكاثر وتزداد عددًا، تصير بعد أشهر جنينًا يخرج إلى الحياة صارخًا مطالبًا بحقه فيها ومساحته منها، سيكبر ويتعلم المشي والحديث والتصرفات السليمة و ينهر عن السيئة منها. بعد سنوات يذهب إلى المدرسة ويحضر متضايقًا لمشكلة ما، ستكون صغيرة أو تافهة لكن بالنسبة لمن لم ير سواها من الحياة فهي أكبر معضلة.

طرق ياسين الباب وطلب منها الاستعداد للخروج؛ فموعد الطبيبة للمتابعة اقترب ويجب أن يكونا هناك على الموعد.

لحقت به خلال دقائق، تتشوق معرفة أخبار طفلتها، حلوتها الصغيرة ذات الشهر الثاني جنينيًا، طوال الطريق والصمت يحلق فوق رأسيهما، التوتر ألجم الألسنة وعطل العقل عن تجاذب أطراف حوار ما.

في انتظار الدخول إلى الطبيبة راقب كل منهما النساء الحوامل في أشهر مختلفة، تحدق في بطن واحدة أوشكت على الولادة فتشهق غير متخيلة نفسها بهذا الحجم وهذا الإمتداد إلى الأمام، تنفست الصعداء حينما سمعت نداء الممرضة عليها أخيرًا.

***

وقفت محتدبة الأكتاف وأصابعها تتشابك أمام جسدها، ألم ينهش قلبها ولكن كيف السبيل إلى الخلاص؟، سمعت كل ما قاله نوح للطبيب المختص بمتابعة الشئون النسائية للفتيات التابعات له أمثالها، يخبره عن حمل غير مرغوب وتهديد مبطن لها إن تكرر هذا الوضع.

خرج نوح بعدما حذرها من محاولة التفكير في عرقلة مهام الطبيب، هناك رجل في الخارج ينتظرها حتى تنتهي ثم يصحبها إلى المنزل مجددًا؛ فهو لا يملك وقتًا يضيعه في انتظارها. رفعت رأسها حين سمعت الطبيب المتصابي يسألها شيئًا، رجل أكلت السنون سواد شعرهوأبدلته بياضًا، بياض يجب أن يسم صاحبه بالوقار لكن على العكس تمامًا، نظراته فاحت برائحة خبثه ودناءته، فإن لم يكن فكيف عمل مع نوح وجماعته؟

صحبها إلى سرير الفحص، يتأكد أن الأمور على ما يرام، سمعت دقات قلب جنينها فبكت، سيوقفون نبض قلبه الغير مكتمل، ويحرمونه من حق منحه الله إياه، حقه في الحياة، في تذوق مرارتها ومعاملة أهلها.

مسح السائل اللزج عن معدتها وطمأنها أن مكروهًا لن يصيبها رغم تعدي مدة الحمل للفترة المسموح بها لإجهاضه، أجلسها على مقعد آخر في غرفة لها باب داخلي مع مكتبه الذي كانا جالسين فيه، بعدما حلت ملابسها وبدلتها بأخرى للمرضى رفع ساقيها متفرقتين كل على رافعة، وبدأ يعد العدة والدموع -لا تعلم من أين أتت بهذه الغزارة- تغرق وجهها.

***

تعلقت العيون بالشاشة ذات الصورة السوداء متداخلًا معها الأبيض الباهت الأقرب للرمادي، الطبيبة تتابع حالة الجنين الصحية وكل من الأبوين لا يصدقان أن تلك البقعة هي طفلتهما.

أخبرتهما الطبيبة: حالته كويسه جدًا، طوله حوالي سـ2.5ـم، ووزنه 33 جم.. سامعين صوت القلب؟

شهقت سلمى حينما سمعت دقات قلب غير قلبها في جوفها تتعالى، سأل ياسين مذهولًا: هو القلب بتاعها موجود؟

ابتسمت مجيبة: أيوه في قلب بس مش زي ما حضرتك متخيل، دا مجرد انتفاخ صغير لسه ما اكتملش نموه.. الشهر الجاي يكون اكتمل إن شاء الله.

استرسلت: لحد دلوقتي هو مضغة يعني عضلات من غير أعصاب.. بيتحرك فـ شكل دائري بس طبعًا الأم مش هتحس بالحركة دي؛ لأنه لسه صغير.

استفسر الأب: وإمتى نعرف جنس الجنين؟

-ممكن من نهاية الشهر التالت نجرب، لو وضعيته مظبوطة ممكن نحدد، بس يستحسن لو في الشهر الخامس عشان يكون واضح أكتر.

نهضت الطبيبة بعدما سلمت الأم مناديل ورقية لتمسح معدتها من أثر السائل، وتوجهت إلى مكتبها تخرج ورقة من روشتتها وتلقي التعليمات والأوامر: لازم تهتمي بالمايه وتشربيها كتير بحد أدنى 8 كوبايات فـ اليوم، وعليكِ بالعصير الطازة والبيتي.. بلاش أي حاجه فيها مواد حافظة أو شاكة فـ نضافتها.. بتحبي اللبن؟

جلست أمامها بعدما عدلت ملابسها: عادي.. لا بأحبه ولا بأكرهه.

-كويس، اشربي كوبايه أو إتنين فـ اليوم وهأكتبلك على مكمل غذائي يعوض أي نقص فـ جسمك خصوصًا الحديد.

أضافت: أكيد مش محتاجه أقولك ممنوع أي مجهود زايد أو رفع حاجات تقيله.

انصرفا بعدما ظفرا بصورة لشكل الجنين كما رأياه، تشاركا الحماسة في طريق العودة، ضحكا وعبر كلٌ منهما عن مخاوفه للآخر بأريحية، أبواب قلوبهم فتحت على مصارعها. زفر ياسين مفكرًا في المسئولية الملاقاة على عاتقه: مش متخيل إني هأبقى مسئول عن روح تانية، عن مستقبلها، مهمتي أخليها إنسانة صالحة، وأربيها على الأخلاق الحميدة والصلاح.

نظرت سلمى خارجًا عبر نافذة السيارة تعض جانب شفتيها: مسئولية تقيلة بجد وياريتها سهلة.

ألقى عليها نظرة أخيرة ثم دار في الطريق من جهة معاكسة لاتجاه المنزل، لم تلحظ بسبب شرود ذهنها وانشغال أفكارها بأمور أهم.

انتبهت على توقفه أمام أحد محلات ملابس الأطفال، نظرت إليه مستغربة فأجابها باسمًابانشراح: مش حاسه إننا شلنا الهم بدري؟.. إيه رأيك نرمي الهم لحد ما يجي وقته وخلينا فـ فرحتنا دلوقتي.. الهم جاي جاي، مستعجلين على إيه؟

ظلت صامتة تحدق في وجهه لحظات كأنها تزن ما يقول، شعت ملامحها بالبشر ورفعت كتفيها في حماسة: صح.

زادت حماسته فهبط من السيارة وأسرع يفتح لها الباب المجاور يدعوها للخروج وقد بسط يده لمساعدتها، تقبلتها في حبور وتوجها إلى المحل وعيونهم تنهب المعروض على الواجهة نهبًا، والنفس تشتهي وتنتقي ما يناسب القادم.

***

هللت حياه وتقافزت في أنحاء المنزل فرحة بالخبر الذي زفه حمزه إليها، لقد تمت الشقة على خير ما يرام وأنتهت أصغر تفاصيلها، والأثاث سيتم استلامه في خلال أسبوعين أو ثلاث على الأكثر مما يعني إنتهاء الإعدادات المعيشية لهما.

تعلقت بعنقه كطفلة سعيدة بهدية نجاحها التي حازت عليها من والدها، وقفت سمية تقاوم دموعها وتظهر فرحتها لاستقلال ابنها وزوجته الوشيك، سينفض المنزل عليها وزوجها لكن المهم سعادة الأبناء واستقرارهم.

انسحبت حياه إلى غرفتها لكي تنقل جديد الأخبار إلى والدها وشقيقتها، يجب أن يواكبوا معها الأحداث مهما صغرت، ستعوض عليها فترة إنقطاعها عنهم، ارتفع منحنى السعادة لديها حتى شكت أن هذه هي وهذه الأحداث تخصها.

***

ناداها بصوت خفيض كأنه يخشى على الحالة الوجدانية التي يعيشها أن تتبدد بارتفاع صوته، اقتربت ترى ما يرغبه، بسط أحد ملابس الأطفال قطنية الملمس شديدة النعومة وساحرة الألوان، تلمسه بكفه في رقة ويكأنه يلمس طفلته داخل تلك الملابس.

رغمًا عنها ضحكت مما أغاظه وأفاقه من نشوته، استفسر عن السبب فأجابته بعدما رفعت الورقة الملصقة في أعلى ظهر قطعة الملابس: دي لطفلة عندها سبع سنين، هتجيب لبس مش هيتلبس غير بعد سبع سنين؟

تنحنح متشبثًا بموقفه: وإيه يعني؟.. أجيبلها لحد الجامعة كمان!، دي بنتي ولازم أدلعها وأكفيها من كل شيء.

ابتسمت في حنان تربت على كتفه: تعيش وتجيبلها، بس خلينا فـ الحاجات الصغيرة الأول

وبعدين نشوف اللي بعد كام سنة.. مش أنت قولت خلي الهم لوقته؟.. مستعجل على إيه بقى؟

سحبته من كفه إلى ركن ملابس الأطفال الرضع وأمسكت إحدى القطع التي جذبتها قبل أن يناديها، رفعتها أمام ناظريه: شايف دي حلوة إزاي.

وكانت تلك بداية المشتريات، بعدما أخذا ما أعجبهما رغم إقتصادهما فما زال أمامهم عدة أشهر وعدة جولات في أسواق الأطفال، فلا داعي للتعجل منذ الآن. صعدا إلى الطابق العلوي حيث الألعاب منتشرة في كل الزوايا، رافقتهما إحدى المسئولات عن المحل الشهير وعاونتهما في الإختيار؛ على الرغم من كل شيء فهما لا يزالان حديثا العهد بالأبوة ويفتقدان البصيرة اللازمة والخبرة.

***

أطلت عليهما من أحد أركان المنزل، تتابع فرحتهما بما جلبته أيديهم، توسطت سلمى الأريكة بين شقيقتي زوجها، تسحب قطع ثياب صغيرتها المنتظرة بالتتابع، تبسطه فوق ركبتيها بحنان وتتلمسه كأنه يحوي جسد ابنتها خلفه.

وافترش ياسين الأرض يجرب الألعاب متخيلًا لعبه مع الصغيرة حين تأتي، تلك الدمية سيطعمها معها وهذا القطار سيدور معه فيما تتعلق بثيابه من الخلف.. يتسابقان ضد القطار، ضحكن عليه بشدة وظلت آية تلمزه وتغمزه، وكادي تتابع كل ذلك من بعيد حتى فاضت نفسها فصعدت إلى غرفتها كي تستقر في هدوء وتحبك شناكلها.

سألتهم ناهد والبسمة على شفتيها: وبما إن جنابكوا خلاص متأكدين من جنس البيبي، مش ناويين تختارولها اسم بقى؟

حاول ياسين الرد لكن سلمى قاطعته: لسه بدري على الموضوع دا

هزت كتفيها تفهمًا وقبل أن يعود الحديث إلى مداره أنبأتهم ريتا بقدوم جارهم ضيفًا، تأفف ياسين داخليًا وهب متأهبًا لمعركة لا تتواجد سوى في مخيلته، تابعته سلمى وبسمة ماكرة تتخفى بين جنبات شفتيها.

فغروا شفاههم من الدهشة حينما رأوا ماجد يدخل عليهم بدب عملاق أصفر اللون يرتدي تي- شيرت أحمر، قدمه لهما مباركًا بفرحة لا يشوبها شيء: ألف مبروك.. يتربى فـ عزكوا.

تناولتها سلمى وجلست تضعها على ركبتيها وتداعبها في فرحة لم تكن لتظهر على وجه ابنتها إن استقبلت الهدية بنفسها، عقب ماجد: بما إن لسه نوع البيبي ما اتعرفش فجبت حاجه تنفع للإتنين.

شكره ياسين وما زالت الدهشة تغمره، إن كان يحمل في قلبه مشاعر تجاه زوجته فكيف يفرح بكونها ستصير أمًا لطفل ليس هو والده؟؟

تركه الجميع في دوامته واستفسرت منه ناهد بشك عن مصدر معرفته بالخبر فأجاب بابتسامته الحيوية المعتادة: حضرتك عارفة إن البنت اللي بتجيلكوا كام مرة فـ الأسبوع عشان التنضيف بتجيلي بقية الأيام.. وهي اللي سمعت الخبر وقالتلي.

تأففت ناهد: خدم آخر زمن، أنا هأعلمها إزاي تخرج أسرار البيوت برا وتنقلها.

حاول تخفيف حدة الموقف: دي أول مرة تعملها يا أستاذة ناهد، هي من حبها فـ سلمى وتعلقها بيها فرحت بالخبر وما كانتش حاسه بتقول إيه ولا لمين.

-ولو، المفروض تلم لسانها.

غيرت آية دفة الحديث ونظرت إلى ماجد: حلوة اللوحة اللي بعتها لسلمى أوي..

عقبت سلمى متذكرة: مش عارفه أشكرك عليها إزاي، بس ماكانش في داعي تتعب نفسك.

-ولا تعب ولا حاجه، اعتبريها هدية جوازك من ياسين.. ولو إنها جات متأخرة شوية.

أومأ ياسين ببسمة ميتة مقابل الأخرى الصافية من غريمه أو هكذا يظنه، عقله ذهب وتشتت بعيدًا، من الممكن أن تكون أفعله تلك حيلة حتى يبعد الشكوك عنه، فلا يظنوا فيه سوء، على الأخص زوجها.

انضمت إليهم كادي بعدما أخبرتها ريتا بهوية الزائر شاركتهم الجلسة وحاولت قدر الإمكان تنحية سلمى عن الحديث وغلق أي موضوع يتعلق بالأطفال لكن ماجد أوقفها عدة مرات وزاد غيظها بتقصده الحديث مع سلمى وتوجيه الكلمات لها، يشركها الحديث كلما انزوت.

انتبهت ناهد -كما سلمى- إلى النظرات القليلة المتناثرة التي يرمق فيها ماجد زوجة ياسين الأولى كلما ظن عدم انتباهها أو غيابه عن الأنظار، ضاقت عيون ناهد بحدة وحنق فيما ملأت الدهشة عقل سلمى، فما سر نظراته لزوجة زوجها؟

***

وقفت حياه في منتصف الشقة تتابع العمال أثناء رفعهم الأثاث عبر الشرفة لعلو الطابق وصعوبة حمله عبر الدرج، تتراقب في خوف كل قطعة تخشى عليها أقل ضرر، وتتنفس الصعداء عندما تحط على الأرض بسلام وبلا أذى.

صرفت بقية اليوم في ترتيب المنزل ونقل الأساس بين الأركان، تضعه في زاوية ثم تتأفف فتزيحه إلى أخرى، عاونها على ذلك رجل وامرأتين أرسلهما ياسين تعويضًا عن حضور سلمى؛ فلظروف حملها لن تستطيع تقديم يد المساعدة الفعلية.

في نهاية اليوم جلست على الأريكة ذات اللون الخشبي المشوش تستند على وسائدها الملونة بين درجات الأخضر والقليل من لمسات الأزرق، توسد حمزه فخذيها مستريحًا من تعب اليوم وكثرة حركته، ويده ترقد فوق ركبتها، تنهدت حياه وعيونها تتجول على الناتج النهائي لشقاء النهار.

باب الشقة يقابله حيث يجلسان، جزء من المساحة التي ترتسم على شكل حرف L والمعيشة تتكون من أريكة تشبه حدوة الحصان تقريبًا، وطاولة صغيرة من خشب فاتح اللون، وعدة وسادات ضخمة بألوان مناسبة تتناثر فوق الأرضية بينما تلفاز متوسط الحجم يلتصق بالحائط يمين الأريكة.

يقابلهم طاقم السفرة المكون من طاولة بيضاوية بنية يحيطها ست كراس، ويتوسط الطاولة طبق خشبي فارغ يملأ بالفاكهة في حينه، تحملها سجادة من ألوان مناسبة، وقد اتخذت المكتبة حائطًا بأكمله، رصت بجوارها صناديق كتب محكمة الغلق على وعد باتخاذ مكانها فوق الأرفوف في القريب، رغم أنها لن تملأ الفراغ كله لكن بمرور الأيام سترتكن على كتب أجدد وأحدث.

-مش مصدقة يا حمزه، خلاص دا بيتنا؟، كمل من كله وهنعيش فيه!

نهض معتدلًا في جلسته: مش هيكمل غير لما تدخليه عروسة منورة متشالة على إيديا.

خفضت ناظريها حياء ثم هبت واقفة بعد لحظات تسحبه من يده، عبرت الممر الصغير الذي في نهايته غرفتهما الرئيسية وعلى يساره حمام فسيح وغرفة للضيوف فيما اليمين يحتوي غرفة الأطفال تفاحية الجدران، والمطبخ جهة المعيشة والأقرب لها.

فتحت الباب وتطلعت تشبع نظرها من غرفتهما المشتركة، حوائط مارونية، وسقف أبيض ناصع بإضاءة حديثة ولمبات صغيرة منتشرة في سطحه، أرضيه باركيه بلون العسل، سرير عريض بظهر جلدي بني داكن، يحده من الجانبين كومود وفي زاوية بجوار الشباك -المتخذ للحائط بأكمله- تقريبًا تقف خزانة مكونة من عدة أدراج يعلوها برواز فارغ ينتظر صورة عرسهما كي توضع داخله.

تقدمت تلتقط البراويز الأربعة واحدًا تلو الآخر، غلفوا بأوراق تقيهم الأتربة، أخرجتهم بلهفة وطالعت كل واحد على حِد وحمزه يقف مراقبًا إياها من على باب الغرفة، دون حديث ودون حركة، فقط يتأملها ويتابع حركاتها الخفيفة بإهتمام.

التقطت البرواز الأول المزين بحروف كلمات آية الكرسي وارتفعت فوق كرسي صغير تعلقها على جانب السرير الأيمن فوق الكومود، ثم عادت تأخذ الآخر بسورة الفاتحة وتعلقها أعلى الكومود الآخر.

ثم التفتت إلى محل وقوف حمزه قائلة ببسمة صافية فرحة: وهنتصان بين كلام ربنا.

خطى خطوات واسعة واقترب منها، حملها وأنزلها أرضًا لتقف أمامه، تعلقت عيونه بعيونها، أحمر وجهها خجلًا حين سمعت كلماته المحبة المعبرة عن عشقه لها، تنحنحت ورفعت سبابتها اليمنى في وجهه: لو فاكر بالكلمتين دول هتاكل عقلي يا باشمهندس عشان أتغاضى عن لون أوضة الأطفال اللي جنابك عامله فأنا آسفة.. مافيش سماح فـ الحكاية دي.

قهقه: ليه بس يا جناب الحاكم بأمره.

تغضن جبينها في عدم رضا: بقى دا لون يا مؤمن، دي الأوضة ماعادتش محتاجه لونض من نور اللون فيها.

-أهو أديني وفرت فواتير كهربا زيادة.

-لا لا لا، اللون هيتغير، بس مش دلوقتي، لما يشرف صاحب الأوضة وناخد رأيه.

انسلات من بين ذراعيه وحملت البروازين الناقصين وسلمتهما له مشيرة بطرف سبابتها لكي يتبعها إلى الخارج.

أشارت له في الأماكن المخصصة للتعليق، علقهما ـسورة الناس- وـسورة الفلق- متجاورتين فوق أريكة المعيشة.

أخرج الهاتف من جيب سرواله الجينز مجيبًا: وعليكم السلام، حمدالله على السلامة، لا.. إحنا فـ الطريق، ربع ساعة ونكون عندكوا.

أغلق الخط وتابع قفزها في الهواء مصفقة: ياهووو، بابا وزهراء جم.

أكمل: وعائشة والولاد وأنس.

دنى منها وغمزها قائلًا: فرصة الواحد يحدد معاد الفرح بقى.

ـحمزه!

لامس خدها المحترق بأصبعه ضاحكًا. فرت من أمامه، أحضرت حقيبتها وانصرفت معه بعدما تأكد من إغلاق مفاتيح الكهرباء والشبابيك جيدًا، وقبل أن يركب سيارته أوصى البواب على الشقة وأن ينتبه لها حتى العودة صباحًا لإكمال الناقص.

***

أنار وجهها الفرح برؤية أهلها، تمرغت في أحضان أمها كهرة صغيرة، ضحكت فاطمة وبكت في آن معًا، ابنتها على وشك أن تصبح أمًا ومع ذلك تشعر أنها طفلة، صغيرة، تحتاج إلى وجودها جانبها.

تنحنح عبدالرحيم مطالبًا بحقه في بعض من هذا العناق، يرغب في فرصة تعوض الشوق والغياب خلال الفترة الماضية، رقدت رأس سلمى فوق صدر والدها وذراعيها تحيطان خصره، تقربه منها، تكاد تصهره فيها.

وبعد سلامات واطمئنان على الجميع، جلست بين والديها والبقية يحيطون بهم، أخبرهم عبدالرحيم عدم صبر الأم على بعد ابنتها، وخبر حملها زاد فرحها وقلقها

معًا فطالبت بالمجيء للإطمئنان: دا حتى فاروق وزهرة وعيشة والولاد وأنس جم معانا؛ عشان يروحوا لحياه.

-بجد؟.. وما جوش معاكوا ليه؟

-بكره بأمر الله هيجوا يطمنوا عليكِ، ما قبلوش يجوا لحد ما نبعتلكم خبر.

-ليه كدا بس؟.. دول أصحاب بيت، وزيهم زيكوا بالنسبة لي.

-عارف يا بنتي، بس أنتِ عارفه عمك فاروق ودماغه.

-طب محمود ماجاش معاهم؟

-أنتِ عارفه دماغه، اتحجج بالشغل وفضل لوحده هناك.

-وزين ماجاش معاكوا ليه؟

تدخلت الأم: عنده شغل مهم، مش هيقدر يجي، حتى أسماء مشغولة مع الولاد وماحبتش تعمل دوشة وبهدلة لو جات بيهم.. أنتِ عارفاهم، يا دوب بتقدر تاخد نفسها منهم وأمها بتساعدها فيهم.. ومنها ما تسبش زين لوحده.

التمست لها العذر، ابتسم ياسين: بس مفاجأة حلوة والله يا عمي، نورتونا وفرحتوا سلمى.

-دا من ذوقك يا ابني.

-أخبار الحمل معاكِ إيه يا سلمى؟ تعبانه ولا حاجه؟

أجابت سلمى سؤال والدتها بابتسامة مضيئة وهمت بالصعود إلى غرفتها: لا بالعكس مافيش حاجه، هأطلع أجيبلك صورة السونار اللي أدتهالنا الدكتور إمبارح.

أوقفها ياسين مشنرًا إلى عنبر: ولزومه إيه طلوع ونزول كل شوية؟.. خلي دادة عنبر تطلع تجيبها.

نهضت فاطمة تمنع سلمى عن الرد قائلة: لا خليني أطلع معاها توريني الصورة وترتاح شوية، كدا كدا الوقت اتأخر والحامل لازم تنام بدري وتشبع نوم.

-يا ماما أنا ..

-ولا كلمة، قدامي على فوق، أنا كمان المشوار تعبني وعايزه أرتاح.

أمرت ناهد الخادمة ريتا بتجيهز الغرفة للضيوف، فأومأت صاعدة لتنفيذ الأمر. صعدت الأم وابنتها واعتذرت آية عن ضرورة ذهابها إلى الفراش حيث لديها عملًا بالكلية مبكرًا، انفرد عبدالرحيم بصهره وانتقلا حيث غرفة المكتب بينما جلست كادي في زاوية، وحيدة.

كبحت نفسها بعيدًا عن الإحتكاك بأي منهم حتى تكون مُلِمة بكل التفاصيل والمعلومات، كامنة هي كالثعبان في الجو البارد لكن حين يدفء ينقلب لادغًا بلا رحمة.

***

حضرت الحلو المفضلة لدى أخيها الأصغر، اجمتعت العائلتين منتهزين الفرصة المتاحة في توثيق العلاقة بين الإثنين، قدمت حياه أطباقًا من الأرز باللبن المزين بالقرفة ثم جلست متناولة آخر طبق من أجلها.

تبادلوا السؤال عن الأحوال ثم تحدثوا عن أخبار عامة مجتنبين الحديث عما يغم القلب ويذهب الفرح، تضاحكوا متناوشين، يتابعون الجدال الصغير بين حياه وأنس الذي ينفض في النهاية على زجر الأب لهما وضحك الجميع.

أعلن فاروق رغبته بزيارة سلمى في الغد؛ يبارك حملها ويطمئن على سلامتها، فهي شاركت ابنته أيام عمرها كاملة، وكانت نعم الصديقة والرفيقة لها، عدا صداقته القديمة بوالدها وجسور الود بينهم.

-وأنا هأجي معاك يا بابا أطمن عليها لأحسن عدم مجيها قلقني، عمري طبعًا ما كنت هأخليها تمد إيدها فـ حاجه.. بس وجودها جنبي مهم.

ابتسمت زهرة: أكيد جوزها عارف إنها مش هتقدر تسيطر على نفسها وإيدها هتاكلهاوتساعدك، وقتها مش هتقدري تعملي حاجه.. على العموم أديني جيت، واللي تحتاجيه أنا موجودة جنبك.

ضمتها من كتفيها بقوة: أنتِ حبيبتي يا زوزو.. ربنا يخليكِ ليا.

ضرب أحمد ركبتيه بقوة ناهضًا: سمعت إنك يا أستاذ فاروق شاطر فـ الطاولة.. إيه رأيك نلعب لنا دور ولا إتنين.

تبعه مؤيدًا: ياريت والله، بقالي فترة مش بألعب وحاسس إن إيدي بتاكلني، بس بلاها الألقاب.. إحنا بقينا عيلة واحدة.

نهض أنس يستريح في غرفة حياه متثائبًا، وظلت حياه تنظر إلى حمزه بطرف عينها، ترمقه في صمت متأفف، لم ينتبه لحركاتها منشغلًا في أفكاره الخاصة، لم تجد بدًا من الحديث المباشر فقالت: أنت ماوراكش حاجه يا حمزه؟

نظر إليها باستغراب: لا، هيكون ورايا إيه؟

زمت شفتيها: صاحب كدا، مشوار كدا، مش ملاحظ إنك الراجل الوحيد وسطنا!، عايزين نقعد قاعدة بنات يا أخي.

زجرتها زهرة حتى تنتقي ألفاظها بعناية أكثر، لكنها لم تهتم وتابعت: دا حتى فادي كتر خيره قام من بدري وراح يشتري طلبات مش محتاجينها..

تنقلت نظراته بينهن، فقرر النهوض لكن ليس قبل أن يرد لها الصاع: إذا كان كدا ماشي.. حتى الواحد يخرج يودع العزوبية بمزاج مادام أنتِ مشغولة.

اتسعت حدقتيها على وسعهما وهبت فجأة صارخة: يعني إيه الكلام دا؟.. هتروح فين؟

هز كتفيه: أي مكان يفتحلي دراعاته ويقولي يا مرحبا بيك يا حزوم يا عريس.

نهضت سمية تجهز قهوة للرجال وتدخلها إلى الشرفة التي انعزلوا فيها بعيدًا عن ضجيج النساء، تبادلت نجلاء وزهرة النظرات محاولات موارة ضحكاتهما التي على وشك هز الأركان من شدتها، فقد أدركتا تمثيله الرديء بينما شحب وجه حياه تصديقًا.

-عن إذنكوا بقى يا جماعة.

أسرعت تتعلق به كالطفلة الذاهبة إلى الروضة لأول مرة في حياتها منفصلة عن والدها، ابتأس وجهها ولمعت مآقيها بالدموع: هتروح فين؟.. خدني معاك.

أنضمت إليهم عائشة بعدما اطمأنت إلى نوم طفليها، نظرت إلى زهرة تستفسر منها عما يحدث بأعين صامتة، ربتت زهرة على مكان جوارها فوق الأريكة؛ لتنضم إلى أريكة المتفرجين تتابع معهم في صمت.

ارتفعا حاجبي حمزه تعجبًا من تعلق حياه المبالغ فيه به: أنتِ استعيلتي إمتى يا حياه؟

لفظت ذراعه وتحول توسلها حنقًا: بقى أنا عيله يا حمزه!

ثم أضافت بدلال زائد: خلاص سيبني بقى للمستعيل اللي زيي.. دا حتى مافيش زيه.

كمش أذنها بين أصابعه وعيونه تلتهمها، سأله بغضب كامن: ومين حضرة جنابه بقى؟

طالعته بطرف عينيها مجيبة: الأرجوز.

انفجر الجالسين ضحكًا، لم يعد باستطاعهم كبح جماح أنفسهم فيما تراجعت قبضته رويدًا وتركها، وقف يحدق فيها برهة ويتلقى نظرات العتاب المشعة من عيونها، ارتسمت بسمة خفيفة على شفتيه هدأتها، كلمة لا يعلم سرها غيرهما، أضحكت البقية لكن دغدغت قلوبهم بذكريات حلوة تقاسموها سويًا.

***

جلسا في غرفة المكتب فوق الطاقم الجلدي، تقبل العصير من الخادمة شاكرًا، راقب زوج ابنته لفترة دون حديث كامل، يرد بكلمات مقتطبة أو ابتسامة خفيفة، زفر في النهاية رابتًا على ساق ياسين مباشرًا حديثه الأهم: أخبارك إيه مع سلمى يا ابني؟

ازدرد ريقه بصعوبة: الحمدلله.

-عمها لحد دلوقتي ماعملش حاجه، هو ساكت أه، بس طالعته بمصايب.

-والحل معاه إيه؟ هتفضل حضرتك عايش فـ القلق دا؟

-الله الحلال، متوكل عليه وهو حسبي.. لكن ما يمنعش إني أخد حذري بردو.

-طبعًا طبعًا.

ابتسم له عبدالرحيم بحنان: خلينا نتكلم زي أب وابنه، وأنسى إني حماك أو أبو سلمى.

توجس ياسين من تلك المقدمة لكنه أومأ مطيعًا ينصت إلى استرسال حموه في الحديث: سلمى قدرت تدخل قلبك ولا لسه؟ بعيدًا عن إنها حامل، لكن هي قدرت تاخد حيز ولو ضيق من قلبك وتشغل عقلك بيها ولا لسه زي الأغراب؟

ارتبك ياسين ولم يعرف كيف يجيب، احتار ودار رأسه، تفهم عبدالرحيم موقفه فتركه برهة في صمت الأصوات يرتطم بصاور أفكاره، ذكره قبل أن يترك السكون يطغى على الغرفة بأنه لا يريد سوى الحقيقة والآن هو والده وليس والد سلمى فليجب بصراحة تامة دون خشية الحرج أو الخصام.

أجابه أخيرًا محاولًا تخفيف أثر ما سيقوله بانتقاء كلمات مناسبة، وقف قرب نافذة الغرفة يتطلع إلى الشتلات التي تفتحت منذ وقت قريب: تصدقني لو قولتلك مش عارف، ساعات بأحس إني قريب منها وساعات بعيد عنها بعد السما عن الأرض، لحد دلوقتي مش فاهم دماغها ماشيه إزاي أو لو حصل موقف معين تصرفها هيبقى إيه، غالبًا بتصدمني بردود أفعالها، حاجات بأحس إن المفروض تضايقها تطلع ولا فارقة معاها وحاجات بأقول دي تافهة ألاقيها قومت القيامة عليها.. بأحاول أوصل للعيب فين، فيا ولا فيها، ولا فينا إحنا الإتنين.

تنهد متابعًا: هل الكيميا بينا مش راكبة على بعض، ولا أنا اللي مش عايزها تركب؟.. لما بأحس إني قربت منها بارتاح لكن بعدها بأحس بالذنب، أكني عملت جريمة أو خنت كادي، آه الإتنين متجوزهم بس دايمًا عندي شعور بالذنب لما بأتعامل مع سلمى زي كادي، رغم إني لو عملت كدا مع كادي بيبقى عادي ومافيش الضيق والخنقة دي.

التفت إلى حميه يتلمس وقع كلماتها على وجهه، لم يجد ضيقًا أو حنقًا كما تخيل، بل هدوء وقلب مفتوح لما يرغب في قوله، تفهمًا لمشاعره وأحاسيسه، حيادية بالغة ظهرت في كلماته المرتبة: مش هأقدر أقولك حاسس بيك؛ لإني اتجوزت

فاطمة عشان شوفت فيها الزوجة المناسبة والأم الصالحة قبل الحبيبة، فما وقعتش فـ الحيرة اللي أنت واقع فيها لكن أقدر أقولك إني متفهم اللي بتمر بيه.

صمت لحظة: بس تعالى نحلل حياتك، فضلت سنين متجوز واحدة عن حب؟

سكن ينتظر تأكيد ياسين قبل أن يكمل: حبيتها وعشت سعيد، ظهرت عقبة فـ طريقك ما يهمنيش أعرفها بالظبط، لكن جزء منها كانت الخلفة، فـ جه الحل فـ الجواز مرة تانية، مش برضاك لأنك شايفها خيانة للعِشرة اللي بينك وبين مراتك، بس الظروف والأقدار خلت الجوازة التانية تتم، يمكن قبل ما تتعود عليها أو تعرفها، ولما بقت فـ بيتك بقيت تحاول تبعد عنها وتعوض مراتك الأولى بإهتمام أزيد، كأنك بتكفر عن جريمة عملتها، رغم إنها وافقتك وشجعتك عليها، بقيت قافل قلبك فـ وش مراتك التانية، مهما عملت مش قادرة تدخل؛ لإن الباب اتقفل من جوا واترمى المفتاح، ولما حاولت تدخلك من الشباك بقيت مستسلم بس بردو حاسس بالذنب وإنها خيانة للأولى مع إن الإتنين زوجاتك..

تسمحلي اسألك سؤال.. رغم إني مازلت والدك أنت وماليش دعوة بسلمى حاليًا، أنت مش حاسس نفسك ظالم للتانية؟.. كان ذنبها إيه تدخلها فـ الدوامة دي من الأول مادام مش هتقدر عليها ولا هتديها فرصة، ليه سمحت يكون عندك منها ولد يربطك بيها رغم إنك مش عايز تقرب منها؟.. حسيت بالذنب تجاه الأولى عشان بدأت تسلم للتانية، طب ليه ما حستش بالذنب تجاه التانية لإنك مهملها ودايس على مشاعرها؟

رفع كفه في وجه ياسين يمنعه من الدفاع أو التعقيب، أغلق عينيه لحظة قبل أن يقول: دلوقتي بقى هأتكلم باسم والد سلمى وأب يهمه مصلحة بنته وبس.

تناول رشفة من كأس عصيره ثم استرسل: إن كانت مراتك الأولى مالهاش حد غيرك فـ الدنيا فأنا بنتي سلمى بالنسبة لي الدنيا بحالها، ومش هأقبل إنها تموت بالبطيء ونفسها داخل خارج، تموت ألف مرة فـ اليوم.

راقب امتقاع وجه صهره: خرج حملها برا الموضوع، فكر فيها كإنسانة بتشاركك حياتك، لو حاسس إن مالهاش مكان فيها، فـ بيتي أولى بيها، تعيش فيه أميرة معززة.. لحد ما يجيلها اللي يقدرها ويعرف قيمتها، ولو ماجاش فهي هتفضل أميرة فـ بيت أبوها حتى بعد موته.

أنهى كلامه: فكر فـ كلامي ورد عليا.

نهضت الأب المتعب يتوكز عصاه متجهًا إلى الباب بخطوات متأنية وذهنه ما زال شاردًا. دخل ياسين خلال ذلك في دوامة عاصفة، تتقاذفه بين جناباتها، يفكر في فوزه بها أو فقده لها، بعدها وقربها، هب واقفًا ولحق حميه في الممر، أوقفه لاهثًا من تسارع خواطره أكثر من خطواته.

حدجه عبدالرحيم يقرأ الجواب من قسماته قبل أن يسمعها في كلماته، ظهرت لمحة رجاء في أعين ياسين لم يشعر بها لكنها لم تغب عن أعين خبرت الحياة بما فيها: عايزها معايا.

تبسم الأب بهدوء وحذره: لكن خلي بالك، لو وصلت بنتي لليأس منك، وخلتها تزهد فيك وفـ عشرتك، وقتها مش هأكون غير أبوها لوحدها، ومش هتلاقيني إلا فـ صفها!

قال تلك الكلمات مدركًا طبيعة ابنته، لن تتخلى عن من هواه قلبها، وتزهد في حبه والبقاء قربه إلا حين تفقد الأمل لآخر ذراته، وتنفد جعبتها من الصبر والمحاولات، وقتها يستحق أن تلقيه خلف ظهرها وتدعس على قلبها بلا رجعة، لقد غضت البصر عن كبريائها بما فيه الكفاية وذخيرتها من الأسلحة والجنود المجندة أنتهت.

***

في اليوم التالي، نُصِبت برجولة متوسطة الحجم، يتوسطها طاولة تتسع للجميع، أصر ياسين على حمزه للمجيء مع حياه وأسرتها، واتصل به يدعوه ووالديه وشقيقته عندما وصله رفضه للفكرة؛ فيبدو أن ما حدث آخر مرة ما زال عالقًا في ذهنه، حتى أنه كاد يمنع حياه من الذهاب لكن لعلمه بذهابها مع أهلها إنصاع، يخشى عليها من كلمات كادي النابية أن تصيبها غيظًا من سلمى.

مرح الأولاد مع أنس في الألعاب التي أضافها ياسين إلى الحديقة من أجل طفلته القادمة، أرجوحة وزحلوقة وحوض مليء بالكرات الملونة يمكن تعبأته بالماء في أيام الصيف للسباحة.

استعر الحقد في قلب كادي فتحججت منصرفة من المنزل حتى إنتهاء تلك المهزلة الحادثة بين جدرانه، لكن ذلك لم يعفها من نظرة خاطفة عندما وصل الضيوف، راقبت عددهم والتوافق السريع بينهم رغم تعارف البعض للمرة الأولى، عائلة ضخمة لها جذور راسخة متشبثة بالأرض وتأبى الإقتلاع.

منعت دمعة حاجة وصرخة وحدة، ارتدت نظارتها الشمسية وانصرفت بعد إيماءة سريعة إلى الجميع من بعيد، لم يستطع ياسين إنكار راحته لما أخبرته بنيتها في الخروج؛ فهكذا يتم تجنب الإحراج والمشاكل بسبب لسانها الحاد وكلماتها المتسرعة.

ارتفعت عنبر على أطراف أصابعها تلقي نظرة عبر أقرب نافذة لمكان جمعتهم، متهللة الوجه داعية القلب بإدامة الفرح، عادت إلى زوجها عندما نهرها عن تلصصها: بدل ما عماله تبصي على الناس تعالي ساعديني، هأخلص الشغل دا كله لوحدي إمتى بس.

دنت منه متأففة: أهو جيت، أصل منظرهم يشرح القلب، أنا ماشوفتش كمية السعادة والفرحة دي فـ البيت من ساعة ما البيه والهانم الكبار ما ماتوا.. ربنا يرحمهم.

-آمين ويديم على ولادهم الفرح.

دخلت عليهم ريتا متأففة، تحمل صينية ممتلئة بأكواب فارغة بعضها يحوي بقايا السائل البرتقالي للعصير، ضربت الصينية فوق الطاولة بعنف: إيه كل دا، جيوش جايه.. أنا تعبت والله من كتر ما أنا رايحة جايه.

تبادلت عنبر وزوجها النظرات قبل أن تعلق: ما هي دي آخرة الدلع والدلال، من إمتى جنابك بتشتغلي عدل أصلًا عشان تيجي تنفخي دلوقتي؟!

-قصدك إيه يا عنبر؟

أشارت إلى الثلاجة من خلفها: قصدي روحي حطيلهم فاكهة وخدي شفشق مايه، لأحسن الجو حر وزمانهم عطشوا.

تحركت ريتا بعصبية، تلعن وتسب بصوت ضعيف غير مسموع، كتمت عنبر ضحكتها وشماتتها بموقفها، وأغاظتها قبل أن تغادر: حاسبي يا حلوة على نقش الحنة.

ضربت الأرض بكعبها المرتفع حنقًا ثم استدارت مكملة سيل لعناتها، دار إسماعيل يوليها ظهره ضاحكًا وشاركته عنبر ضحكه منصرفين إلى عملهم.

***

الحديقة الغناء، شديدة البهاء، كان ينقصها الضحكات لتزداد جمالًا ورونقًا، إخضرار زرعها وتفتح أغلب ورودها دغدغ القلوب وأزال الهموم، شعرت سلمى بالطاقة تملأ خلاياها، والبسمة لا تفارق شفتيها، اشتاقت الجمعة والصحبة الطيبة، بلا حقد أو ضغينة أو لكز ولمز من أسفل الطاولة.

انضم إليهم ماجد بعد ساعتين يشاركهم الغداء، فقد جذبه الضجيج الغير معتاد، نظر من الشرفة وقرر المشاركة، فالوحدة صارت رفيقة دربه حتى سأمها، رحب به الجميع بمن فيهم ياسين لكن الأخير استقبله بشك -كعادته مؤخرًا-، وحين وجده بعيدًا عن سلمى هدأ حاله قليلًا.

أثناء انشغال الجميع بالطعام، وقف حمزه يطرق بالملعقة فوق كأس الماء بخفة يلفت الإنتباه ويطالب الجميع بالصمت ولما تأكد من إصغاء الكل بلا استثناء أعلن ببريق عينيه الجذاب: فرحي على حياه خلاص إتحدد كمان تلات أسابيع..

شهقت حياه قائلة بلا وعي: بس ليه كل التأخير دا؟!

اتسعت أحداقهم ونظروا إليها لائمين، وعلى ماذا الاستعجال والتأفف إلى هذا الحد، ثم انفجروا ضاحكين بعدها من منظرها البائس وخجلها الشديد.

هاتف ياسين أحد محال الحلوى ليأتي بقالب مخصوص من أجل المناسبة السعيدة وانصرفت ريتا تحضر المزيد من المشروبات لإحتفالية المساء.

من حظ الجميع أنه يوم عطلة، فقضوه مرتاحين البال هانئين، مرور الوقت أصبح متسارعًا وأنفض الجميع قرابة منتصف الليل بعد مقاومة شديدة لتشبث ياسين بلمتهم؛ فقد استشعر فيهم رائحة أهله وطفولته الماضية.

قضت سلمى الليل بين ذراعي أمها تودعها بعدما تحدد سفرها عائدة إلى سوهاج في صباح الغد، لرغبة والدها في الإشراف على العمل وإفتقاده لمنزله بعدما أطمأن عليها وتأكد من راحتها مع زوجها -وإن لم تكن كما أمل-.

****

وقفت لا تصدق عينيها، تدور كالنحلة وسط الزهور، غرفة طفلة على أعلى مستوى، جدران وردية بزهور بيضاء متناثرة بطريقة منظمة، سرير أمام باب الشرفة كسي بأغطية بيضاء تعلوه نجوم وفراشات تدور كي تسلي الطفل و تلهيه.

ارتكن الدب الذي أحضره ماجد في أحد الزوايا جواره أريكة يمكن فردها لتصبح سرير حين تضطرهم الظروف إلى ذلك. مكتبة امتلأت بقصص الأطفال مقابلها دولاب صغير، فتحته ووجدت كل الملابس التي اشترتها مع ياسين أو هدايا ناهد وآية معلقة ومرتبة.

بحثت عن ياسين الذي التزم الصمت في مكانه يترك لها حرية استكشاف عالم ابنتهما، توجهت إليه تكبح نفسها عن التعلق بعنقه والدموع على وشك الفرار من عينيها: خلاص اتأكدت إنها بنت وحسمت أمرك؟

ضحك غامزًا: طبعًا، حبيبة قلب بابا مش هتخيب ظنه، ولا إيه يا كوكي؟

تلمس بطنها التي بدأت في البروز نسبيًا، وضعت يدها فوق يده المستكينة عليها: الأوضة تجنن، مش عارفة أقولك إيه.

مسّ طرف شفتيها مانعًا إياها من الحديث: ما تقوليش حاجه، دي بنتي.

تعلقت أعينهم ببعض، في الأسابيع الماضية زاد التقارب بينهما، أصبح ينام معها في الغرفة على الأريكة مبتعدًا بجسده لكن قريبًا بروحه ونفسه، يهتم بها ويرعاها، يدللها ويظهر مكانتها لديه، عادت الأمور تترتب من جديد داخل رأسها، ترغب أن تكون روحه كما هو حياتها، عشقته كما لم تظن نفسها عاشقة، وصار زاد فؤادها وأنيس عمرها.

قطع نظراتهما السارحة تنحنح كادي على باب الغرفة المفتوح، حدجتهم بنظرات غير مفسرة لكنها محتها بقدرة مذهلة على التقلب واعتدلت واقفة: محمد تحت ومستنيك يا ياسين، بيقول بينكوا معاد.

ضرب مقدمة جبينه: أوبس، نسيت إني كنت قايله يعدي عليا عشان الشغل، هأنزل أشوفه.

قَبلَّ رأس سلمى معتذرًا وكذلك فعل مع كادي، رمتها الأخيرة بنظرة لا مبالية ثم انصرفت.

أكملت استكشاف الغرفة وجلبت آخر الأغراض التي اشترتها ترصها فوق الأرفف، وقفت منشغلة تعيد الترتيب وتتأكد من عدم نقصان شيء.

دخلت عليها عنبر حاملة كأسًا من الماء وآخر من العصير، وضعتهم على أقرب طاولة صغيرة وقصيرة محاطة بمقعدين للأطفال، ابتسمت تتابعها في عملها وتحثها على شرب العصير؛ فالحر يشتد وهي بحاجه إلى إمداد نفسها بالسوائل.

وافقتها سلمى وبدأت ترتشف منه أثناء إكمالها لما تفعل، تقطع عملها بين حين وآخر لتشرب منه، عقلها يدور بين طفلتها القادمة وعلاقتها بزوجها التي تتطور، شكوكها تندثر بمرور الأيام، تسعد حين يعبر عن مشاعره دون تحفظ، يعاملها بتلقائية، يتحدث عن مستقبل ثلاثتهم، لا فراق سيحدث بينهم.

آنت مغمضة عينيها، الصداع ما زال رفيقها لكن المشكلة أنها لم تعد تستطيع تناول المسكن الخاص به بناء على أوامر الطبيبة، لذلك امتنعت عن الخروج إلا للضرورة، حتى العمل أوقفته وقطعت زياراتها للشركة أيضًا، دلكت جبينها وحاولت متابعة ما تفعله، فقد طرق أبواب رأسها ولن يرحل قبل الغد، فلن تنال إلا العطلة.

***

تمددت على الأريكة في غرفة المطالعة، ترتشف من كوب العصير المشابه لما تشربه سلمى فيهدوء بينما تتصفح كتابًا، أبعدت خصلة تمردت وداعبت عينيها متسللة من أسفل حجابها المرتخي.

رفعت رأسها عندما حط ظل الخادمة فوق صفحات الكتاب، أشارت لها ريتا بتمام المهمة، ابتسمت لها كادي ثم أمرتها بالإنصراف ومتابعة عملها.

ارتشفت بصبر من كوبها تنتظر النتيجة، إنها الحبة الثانية ومن المؤكد أن النتيجة ستبدأ بالظهور عما قريب، فقط بعض الصبر.

***

وقف أمام المرآة في الحمام التابع لحجرة المكتب يتلمس لحيته وشاربه حديثي التشذيب، غسل يده بالصابون السائل متابعًا حديثه مع صديقه الجالس في انتظاره.

-المهم تتأكد إن الخطة اللي كانت سلمى حطاها ماشية بالملي، مش هتقدر تنزل فترة الحمل وتتابع، هي شكلها تعبان أومال لو نزلت.

قهقه صديقه: والله شكل السنارة غمزت يا ياسين باشا.

خرج يجفف يديه في منشفة صغيرة قذفه بها: هو لما أخاف على بنتي ومامتها يبقى غمزت؟

التقط القذيفة باسمًا: بيقولوا الخوف هو الحب، طول ما أنت خايف يبقى بتحب..

جلس أمامه مستهزئًا: لا يا راجل، أصلا دا ما يعتبرش خوف، هو مجرد احتياط.

هز محمد كتفيه مستسلمًا؛ فالجدال مع ياسين في أي أمر يتعلق بسلمى ينتهي بعناده وتشبثه برأيه، لا يقبل أن يلمح أحد إلى وجود مشاعر له تجاهها.

ارتفع صدى صراخ متألم بين أركان المنزل، هبّ ياسين صائحًا باسم سلمى وركض يصعد إليها، تبعه محمد بفم ملتوٍ بسخرية: قال مش خايف قال، دا أنت ميت م الخوف يا ياسو.

فتح باب الغرفة فوجدها تجلس على حافة فراشها، يد تقبض على جبينها والأخرى تحيط بطنها، ركع أمامه مستفسرًا بوجه مخطوف اللون: في إيه؟؟ مالك؟

لعقت شفتيها مجيبة بتوجع: راسي هتنفجر وبطني حاسه إن سكاكين بتقطع فيها.

تنحنح محمد يطلب الإذن في الدخول، سمح له ياسين مرتبكًا بعدما اطمأن على ارتداء سلمى لحجابها فقد كانت تتحضر للخروج إلى الحديقة بعض الوقت، أتت آية وألقت حقيبتها على الفراش بجوارها وسألت عن حالها، أجابها أخوها.

-لا لا، لازم تاخدها على المستشفى.. على الأقل تطمنوا.

أيدها محمد مغادرًا: هأجيب العربية قدام الباب، هاتها بسرعة وأنا هأخدكوا

حملها ياسين متجاهلًا اعتراضها، سحبت آية الحقيبة التي ألقتها وهرولت خلفهم، أخبرت عنبر عن حالة سلمى حتى تطلع ناهد حالما تعود؛ فهي لن تستطيع التحدث إليها عبر الهاتف كي لا تثير الفزع في قلبها.

راقبتهم كادي معقودة الذراعين، تتسمع إلى كلمات آية المستعجلة، بعدما سمعت صوت محرك السيارة يبتعد دارت وعادت أدراجها، تاركة خلفها لسان عنبر يلهث بالدعاء.

***

دارت الطبيبة حول المكتب وجلست فوق مقعدها، أشارت إلى الزوجين حتى يفعلوا المثل، تبادلا النظرات ثم اشتركوا في محاولة قراءة تعبيراتها، ازدردت سلمى لعابها في خشية: بنتي كويسه يا دكتور مش كدا؟

أومأت باسمة تطمأنها تحرك نظراتها بينهما: الحمدلله لحقنا الوضع قبل ما يكبر أو يحصل حاجه.. لكن عندي سؤال.

ترقبا فيما استرسلت: حضرتك أخدتِ أي نوع من أدوية الإجهاض أو دوا له أعراض جانبية مضرة بالجنين؟

استدار ياسين مقطبًا إلى سلمى التي شهقت نافية: لا طبعًا، دا حتى الدوا اللي كنت بأخده عشان الصداع بطلت أخده لما نبهتيني.

-إمممم،هو الإجهاض شكله طبيعي، بس أنتِ كنت عندي من يومين ومتابعة حالتك وعارفاها كويس، مافيكيش حاجه تسببه وزي ما قولتيلي وأنا بأكشف عليكِ إن مافيش أي ضغط أو حاجه تؤدي للتقلصات والإجهاض.

تدخل ياسين: طب الدوا ما يبانش فـ التحاليل اللي حضرتك عملتيها؟

-مع الآسف في بعض الأدوية مش بتبان فـ الدم، عشان كدا سألت.. عمومًا هو نصيب، أهم حاجه إن اليومين الجايين دول ترتاحي وما تتحركيش.

-بس أنا كنت مسافرة سوهاج بكره.

-معلش، لو تقدري تأجليها يومين كمان يبقى أحسن.

قاطع ياسين أي تعليق كانت ستدلي به سواء انصياعًا أو عنادًا، راقبته متحدثًا إلى الطبيبة ومتجاهلًا إياها، هل يتخيل أنها تجرعت أدوية تقتل طفلتها؟ كيف ذلك وشوقها إليها يفوقه مئات المرات؟.. إنها تستشعر نبضها ونموها بين أحشائها فكيف تميت بذرة تنتظر يوم حصادها؟

ركبت السيارة صامتة، آية تجلس جوارها وهو أمامها، حدقت في شعيرات رأسه الخلفية، تعاتبها وتلومها عما يفكر فيه صاحبها، انصرفت عينيها بلا إدراك إلى

المرآة فوجدته يبادلها نظرات حانقة مغتاظة، قابلتها بحيرة واستفسار، فما جنت سوى إشاحة والتفت عنها.

-ناهد كانت مصممة تيجي، لولا قولتلها إن إحنا خلاص راجعين، تلاقيها مستنيانا على نار.

شاركها محمد المنشغل بالقيادة محاولة كسر الصمت الطاغي: هوهووو على كدا هتلاقوا وكيل نيابة مستنيكوا على باب البيت، أحمدك يا رب إنك ما خلتش ناهد وكيل نيابة بحق وحقيقي ماكنتش هأقدر أسلك بـولا قضية.

صمتا مدركين فشلهما، فكلا الإثنين في عوالم أخرى، يبعدان مئات الأميال بخواطرهما.

نظرت آية إلى محمد يائسة، ألن تهدأ حياتهما من الشد والجذب قليلًا، فكلما تمهلت أمواج علاقتهم عادت للإرتفاع والإشتداد أضعافًا عما سبق.

****

تمددت فوق فراشها تترك المجال أمام عنبر في وضع الصينية فوق فخذيها حتى تتناول طعامها المتأخر، جلس ياسين على الأريكة يرمقها بنظرات غريبة بين حين وآخر قبل أن يعيد بصره إلى شاشة هاتفه الحديث.

ازدردت ريقها، لا تعلم ما جنته يداها كي يتصرف معها بتلك الطريقة، دفعت اللقيمات دفعًا إلى جوفها؛ فليس ذنب طفلتها شيء.

لمحته يهب فجأة ويبدأ في العبث بالأدراج يبحث داخلها، تابعته تاركة كأس الحليب بعدما شربت نصفه، فتح الجارور المجاور لها فسألته مقطبة: بتدور على إيه؟

أعاد غلقه وذهب إلى طاولة الزينة يفتشها هي الأخرى بلا إجابة، لكن بعدما إنتهى من كل أجزاء الغرفة والأماكن التي قد يخفى داخلها شيء اقترب من فراشها يقف فوق رأسها، بأعين فارغة وإصرار بارد سألها: فين الحبوب اللي أخدتيها؟

تجمدت ملامحها: حبوب إيه؟

-الحبوب اللي أخدتيها عشان تنزلي البيبي.

ضاقت عيونها نزقًا لكنها أجابته ببرود مماثل: ما أخدتش حاجه، على الأقل مش بمزاجي.

ثم أضافت بحكمة: وأعمل كدا ليه أصلًا وأنا مستنية أشيل بنتي بفارغ الصبر،ما أعتقدش إني بينت فـ لحظة إني مش عايزه البيبي.. ولا إيه؟

صمت برهة ثم عاد يسألها: أومال إيه السبب؟

هزت كتفيها: شوف مين كان زاعجه حملي، وما باركليش لحد دلوقتي ولا قابلني.

اشتد كتفيه: قصدك مين؟

أشاحت بوجهها بعيدًا تكمل شرب ما تبقى من كأس الحليب: شوف أنت بقى..

سمعت ارتطام الباب بالحائط منفتحًا وخروج جسده عبر فجوته، زفرت بحدة، ملأها الندم، لم تفكر في كادي قبلًا ولا حتى إتهامها لكنها لا تدري لما لمحت باسمها أمامه، كراية حمراء في وجه الثور الثائر.

ابتهلت ألا تكون ظالمة لها، فهي رغم معرفتها لكره غريمتها إلا أن الأخيرة لم تتعرض لها منذ خبر حملها سوى بنظرات استهزاء ولا مبالاة، لا تعاتبها ولا تحمل تجاهها أي ضغينة، تلتمس لها العذر فموقفها ليس بالهين، خصوصًا وقد انصرف

عنها ياسين منذ أسابيع وأوقاته أصبحت مقسمة بين العمل والبقاء جوارها، وتجهيز متعلقات طفلتهما.

دخلت عنبر تستدير حول نفسها، فقد شاهدت مرور ياسين الثائر إلى غرفة زوجته الأولى، حملت الصينية الشبه فارغة وسألت سلمى عن أي شيءترغبه.

هزت رأسها شاكرة لكن سرعان ما أوقفتها متسائلة: عنبر.. عايزه اسألك على حاجه.

-أؤمري يا ست سلمى.

-مين عمل العصير اللي جبتهولي قبل ما أتعب؟

استغربت السؤال لكنها أجابت: أنا، لتكوني شاكة إني ضريتك يا بنتي.

أضافت الجملة الأخيرة وقد لمع في ذهنها مبرر للسؤال، طمأنتها سلمى شاكرة وقد عبرت عن ثقتها الكاملة فيها وأنها لن تضرها. هدأت عنبر وانصرفت لكنها استدارت بالصينية بين يديها وقالت متذكرة: بس ريتال قبل ما أجيبلك العصير قالتلي أروح أكلم مدام كادي عشان عايزاني ضروري، ولما قولتلها أوصل العصير الأول بعدين أروحلها، قالتلي أنتِ عارفة مدام كادي بتتعصب بسرعة روحيلها وبعدين ودي العصير لإن مدام سلمى كدا كدا مشغولة.. فروحت شوفت مدام كادي ورجعت أجيبلك العصير.

شكرتها سلمى وغضبها يستعر، لم تحاول أذيتها وحدها ولكن قتل طفلتها كذلك، جلست على أحر من الجمر تنتظر نتيجة زيارة ياسين لغرفة ضرتها الحقود.

***

دخل الغرفة يفتش كل خباياها التي يعلمها، داخله موقن من كذب افتراء الأخرى لكن مازال هناك شك صغير مختبئ في ثنايا عقله. من طول عشرته لكادي ومعرفته بحنقها على سلمى كما أن الأخيرة ستصير ما لم تستطع أن تكونه هي.

وقف منهكًا وقد تجمعت حبات العرق فوق جبينه، يتخلل خصلاته بأصابعه المشدودة، فتح باب الغرفة ودلفت كادي شاهقة، وضعت حقيبتها فوق طاولة الزينة وأسندت إليها نظاراتها الشمسية، رفعت إليه نظراتها المستفسرة: بتدور على إيه يا ياسين يخليكِ تقلب الأوضة كدا؟

احتار في إجابته فهو لم يجد ما يدينها، اخترع أول عذر خطر بباله: الساعة الفضي اللي أدتهالي فـ عيد جوازنا، ومش لاقيها وبأدور عليها.

دنت منه ضاحكة وتناولت رسغه الأيسر ترفعه أمام عينيه: أومال دي إيه يا حبيبي؟

حدق في الساعة اللامعة فوق معصمه واكتفى بشبح ابتسامة، تعلقت ذراعيها بعنقه تلثم جانب ابتسامته: يفرحني إنك بتدور على حاجه مني.

أحس بغصة من كلماتها؛ فقد ذكرته بتقصيره الشديد معها بالأونة الأخيرة، قبل أعلى رأسها المغطى بالحجاب، جذبته ليجلسا سويًا، تحدثت كثيرًا وأصغى إليها يعوض إحراده الماضي.

***

أعادوا تنظيم المنزل من جديد كي يتسع لاستقبال الضيوف يوم العرس، قسمت عائشة يومها بين الأولاد والمساعدة في التجهيزات، سعيدة بزواج حياه التي تعتبرها أخت صغرى.

صعدت إلى غرفتها تضع ملابسها وملابس محمود المغسولة في مكانها داخل خزانة الملابس، وقفت تضع ملابسها أولًا عندما سمعت صوتًا يحادثها: خليكِ مشغولة معاهم كدا وهاملة جوزك.

أغلقت ضلفة وفتحت المجاورة لها ثم أمسكت ملابسه من طرف السرير ورفعتها أمام عينيه قائلة ببرود فيما تضعها مكانها فوق أرفف الخزانة: هدومك نضيفة ومغسولة.

ثم أضافت بعدما أغلقت الضلفة: أكلك بيبقى جاهز وقت ما تحب وقدام عينيك، ولادك بأهتم بيهم وبأربيهم أحسن تربية.. لو ناقصك حاجه قولي.

كز على أسنانه مغتاظًا: والله؟ على كدا ما كانش له لازمه أتجوزك، ما زهرة كانت بتعملي كل دا.

رفعت حاجبيها بسخرية: سبحان الله، نفس اللي بأحسه، عمومًا ممكن تصلح غلطتك.

تشبث بذراعها محولًا وجهها تجاهه: مالك يا عيشه؟ بقالك فترة مش مظبوطة.

-لا أنا تمام أوي، كل اللي عملته إني بقيت زي ما أنت عايز، مجرد خدامة مش أكتر.

-أنتِ أتجننتِ؟.. مين اللي قال إني عايزك خدامة؟

-تصرفاتك ما بتقولش غير كدا!، لما تهمشني من حياتك وتبقى متعذب ومش راضي تقول اللي فيك مهما حاولت معاك تبقى عايزني أبقى كدا، لما تبقى مضايق عشان أختك فرحانه وبتغلي عشان أبوك سامحها تبقى عايزني أتغير لكدا..

سحبت ذراعها منه: ما تدفعش شخص يبقى حاجه وبعدين ترجع تشتكي.

تركته يقلب كلماتها في عقله، فقد سأمت تهميشه لدورها في حياته وأهميتها، دائمًا يدفعها بعيدًا عن أسراره وما يشغل فكره، كأنه تزوجها كما طُلِب منه، تعويضًا عن د ين، أو انتقامًا من خاص، اكتفت صمتًا وطفحت كبتًا.

***

تجنبت كادي بشكل واضح، تدخل من الباب فتخرج هي، انفصلت عنهم في الوجبات تتناولها بحجرتها بعيدًا، تشاركها آية أحيانًا كي لا تتركها وحيدة. ثارت حفيظتها عندما أخبرها ياسين أنه لم يجد شيئًا بغرفة من اتهمت يثبت افتراءها.

لامها وعاتبها، كادت دموعها تفتق أمامه لكنها كبحتها بعِزم ما فيها، لا ينقصها سوى رؤيته لضعفها ومدى تأثير كلماته عليها، نبهها كأنها مجرمة يحذرها من تكرار جريمتها، فالروح التي تنمو داخلها ليست حقًا حصريًا لها لكي تتحكم في حياتها أو موتها.

عاملته بجفاء، تجيب عليه باقتضاب، لكنه لم يبال يكتفي بهز رأسه وإدارة ظهره منصرفًا، تبخرت أوهامها عن مشاعر قد تسربت إلى قلبه تجاهها، تبًا لقلبها الغبي الذي يتعلق بمن لا يلقي له بالًا أو يهتم لأمره، يطعنه ثم يتركه ينزف.

وعدت نفسها أن يأتي يومٌ تلقيه خارج قلبها وتقفل خلفه بعدة ترابيس، فلا يعود مجددًا، حينها فقط ستجد الراحة والسلوان، ويكون فصلًا في حياتها وأنتهى إلى الأبد، لقد أعطته الفرصة تلوى الأخرى، فركلهم تباعًا، وقتما يستنفذ جعبتها من السماح لا يلومن إلا هواه.

***

توجهوا إلى سوهاج في حافلة استأجرها ياسين، تحتوي أسرّة وحمام ملحق، مطبخ صغير ومكان للجلوس وتناول الطعام، لم يجد حلًا سواه خصوصًا أمام رهاب سلمى

للمرتفعات وعدم تحملها الصعود إلى طائرة في الجو، قلبها لن يتحمل ضغط الفوبيا والحمل معًا، كما أن جلسة السيارة العادية ستزيد تعبها أضعافًا.

جلس في ركن متطرف عنهم يتصفح الجريدة وداخله حانق على إصرارها في حضور العرس، لن يدركوا سوى آخره لكنها لم تعبأ بذلك يكفيها رؤية صديقة طفولتها بثوب العرس الأبيض.

ستشهد على دفتر جديد تستفتحه حياه في حياتها، دفتر يملؤه الحب والسعادة والاستقرار، وهبها الله من تغاضى عن تهورها اللا معقول، من نسى ماضيها وتقبلها بعيوبها، يعينها على تقويم ما يستطيع ويتقبل البقية مرغمًا بالحب.

فتحت آية الإذاعة واستمعت بانتباه لفقراتها المسلية، ضحكت ملئ شدقيها حينما ابتدأت حلقات برنامج «ساعة لقلبك»، اقتربت ناهد واعتدلت سلمى في جلستها، ينصتن بيقظة إلى المواقف المسموعة الضاحكة، حتى البسمة تسربت إلى ياسين، تلتقط أذناه بضعة كلمات فيبتسم خلف الجريدة التي ملَّ قراءتها.

صاح فيهم محمد مغادرًا مقعده بجانب السائق: أه يا خونه، سايبني متخشب جنب السواق ومقضينها ضحك هنا.

جذبه صديقه من يده حتى يجلس جواره: تعالى أقعد هنا.

أطاعه غامزًا وصوته ينخفض همسًا: يظهر إن الأمور ما مشيتش بينكوا تمام.

من طرف عينه سأله: قصدك إيه؟

-يعني كل واحد فـ جنب، وحضرتك مديها ضهرك.

زفر: أهو اللي حصل.

-شكلي مش هأتجوز فـ حياتي أبدًا، كتر خيرك عقدتني بما فيه الكفاية.

كاد يحرقه بنظراته لولا تصاعد هاتفه بالرنين، أجاب مهتمًا: وصلتِ؟

-أيوه ما تخافش عليا، وأنت؟

-لسه، فاضل ساعتين تقريبًا.

-أووووف، كان لازم البهدلة دي يعني؟، خليك وراها أنت حر، ماحدش هيتعب غيرك.

-لما أوصل هأكلمك عشان الشبكة دلوقتي ضعيفة، سلام.

أغلق الخط يحاول دفع اللوم عن نفسه، لم يكن عليه موافقة كادي على الذهاب لتبيت لدى صديقتها اليومين اللذين سيقضيهما في سوهاج، لكنها أصرت على عدم السفر معهم، تكره الحر وتمقط نمط العيش هناك، ويعرف ضيقها بسلمى ومن من طرفها، لا ينكر راحته النسبية في بقائها عند صديقة ما عوضًا عن الجلوس لوحدها.

***

تضع ساقًا فوق الأخرى تقبض كفيها سويًا بعدما أغلقت الهاتف وأعادته إلى حقيبتها قبل عودة مضيفها، أدارت عينيها في الغرفة متأملة، إلتوت شفتيها سخرية، فلولا ما حدث قبل عدة سنوات لكانت الآن تحيا في هذا المنزل، مالكته وليست ضيفة ثقيلة الظل على صاحبه.

الطابق الأرضي فسيح، عبارة عن مساحات فتحت على بعضها، تفضي يمينًا إلى ممر يحتوي مطبخ واسع دون حاجة صاحبه لهذه المساحة، وحمام مخصص للضيوف. الأثاث المتناثر حديث، بألوان مبهرجة، أحمر وأصفر وغيرهم يتداخل مع أسود أحيانًا وأبيض في أماكن أخرى، لكن النتيجة مكان مريح، يبث طاقة إيجابية كما هو متوقع في منزل مصور مفعم بالطاقة والحيوية.

لم تشعر بعودة ماجد إلا لما قدم لها كوب النسكافيه الذي طلبته، جلس بعيدًا عن الأريكة التي تحتلها فوق مقعد على شكل كف مفتوح، أحمر اللون، اعتذر منها برسمية: معلش بس مش متعود أقدم حاجه على صينية بما إن مافيش ضيوف بنزوروني.

أحكمت قبضتها على الكوب وعاتبته: أديك قولت ضيوف، وأنا مش معتبرة نفسي ضيفة.

تجاهل قولها: اللي أعرفه إن ياسين سافر مع الجماعة كلهم، ما سافرتيش معاهم ليه؟

لوت شفتيها: ما بقاش إلا إني أسافر هناك كمان.

سخر منها: ليه.. مش قد المقام؟

-يظهر إن أنت ذوقك اتغير.

هز كتفيه بلا مبالاة فيما يرشف من كوبه: كل موسم وله موضته.

وضعت كوبها بعنف فوق الطاولة الزجاجية حتى أوشكت على تهشيمها: كله إلا حبك ليا، دا اللي لا يمكن يتغير ولا أنا هأسمحلك تغيره، دا قدر ومكتوب علينا لأخر العمر.

ترك كوبه هو الآخر، وقف على قدميه برأس مرتفع في عزة زادت حبها له، أحرد عنها بكتفه، يسترجع كل المرارة التي عايشها، تخليها عنه مقابل الأموال والراحة، لم يكن في حسبانها كما لم تعد هي الآن: ما بقاش له لازمه الكلام دا، قدرنا اتغير لما أتجوزتِ واحد تاني، اتفضلي يا مدام أرجعي بيتك.

نهضت واقفة خلفه وأظافرها تتشبث بذراعه العاري، تساقطت دموعها رغمًا عنها: أنا بحبك يا ماجد، وأنت بتحبني.. ما تقدرش تنكر دا، حتى بعد فراقنا سنين.

صمت قليلًا ثم استدار إليها بنظرة مغايرة، نظرة لم ترها في عيونه قط، تجاهها أو تجاه أخرى، تراجعت مزدردة ريقها بصعوبة، تعثرت ساقيها بالأريكة فهبط فوقها، شهقت دون أن تجرأ على إبعاد عينيها عنه، بدأ القلق يملأ جنباتها لكنها تمهلته، ماجد لن يقدر على أذيتها وإيلامها بأي شكل.

انضم إلى جانبها وقد أسرها بين ذراعيه، مسندًا ظهرها، خاطبها مقتربًا برأسه منها على مهل: وإيه يثبتلي إنك بتحبيني؟

تنهدت بقوة لقلة حيلتها مهمهمة: ماجد..

لكنه استمر في الاقتراب، ركزت عيونها داخل عينيه، تستنبط دواخله، بالتأكيد لن يفكر فيما تظنه. انتظرت، تمهلت، تنشده التراجع بعينيها حتى لا يرّخصها ويسقط نفسه من نظرها. رفعت كفها، جعلته حائلًا بين شفتيهما، قابلته بوجه غارق في بركة من الدموع: أطلق ونتجوز وقتها أثبتلك زي ما أنت عايز.

حركت رأسها يمنة ويسارًا: لكن أرجوك ما ترخصنيش فـ عينيك وقدام نفسي.

نهضت ساحبة حقيبتها، تتعثر في خطواتها، لملمت أطراف قميصها الحريري المفتوح، أسرعت في خطواتها واتجهت إلى حيث لا تعلم، سيقانها هي القائدة وقد ألقت إليها الدفة، الدموع تزداد شدة ولا تقل، سارت في شوارع بعيدة عن الزحام تتفادى نظرات الأنام الفضولية.

جلست أخيرًا فوق أحد المقاعد في حديقة عامة منهكة، تحدق في اللا مكان، تعيد شريط حياتها، ما أخطأت فيه وأرتكبته، ليس من طبعها الخيانة وإن صور شيطان ماجد أنها خانته بزواجها من آخر، وخانت زوجها بامتلاك آخر قلبها. تلك الحلقة المفقودة، التي ستعيد السلسلة إلى نصابها، تبحث عنها دون نتيجة.

تخون ياسين بقلبها؛ لأن القلب ليس مملوكًا، هو حر، يعشق ذاك ويكره هذا، يفضل كيفما أراد. لكن تصرفاتها هي التي تملك، فلن تستغلها في تتبع قلبها وحده، القلب يرفض نسيان حبيبه، وكذلك جسدها وعقلها يرفض خيانة زوجها أمام الله.

دعبست عن الهاتف بالحقيبة ناسية موضعه المعتاد، أجابت صديقتها صاحبة الصوت المتهدج من الفزع: أووف، خضتيني عليكِ،مش بتردي على تليفونك ليه؟

ردت ببساطة: ما سمعتوش.

-مش قولتِ إنك هتباتي عندي؟.. فينك لحد دلوقتي؟ الدنيا ضلمت.

-ماحستش بالوقت، ساعة وأكون عندك.

-ما تتأخريش.

أغلقت الخط وبحثت عن أقرب مطعم أو كافيتريا كي تصلح مظهرها وهندامها، وقفت أمام المرآة داخل الكافيه، تطالع سروالها الجينز الفاتح وبلوزتها القطنية بيضاء اللون ثم أعادت قميصها الأصفر الحريري إلى وضعه، مفتوحًا مبرزًا البلوزة القطنية.

أجرت الفرشاة وأدوات المكياج على وجهها، تخفي أثر البكاء حتى لا تسألها صديقتها عن السر، تعرف فضولها فلن تحل عن رأسها حتى تعرف أدق تفاصيل الموضوع، تمرنت عدة مرات على الابتسامة حتى نجحت أخيرًا في تجميدها على شفتيها، تناولت حقيبتها وغادرت مرفوعة الأكتاف، تسير بثقة كأنها ملكة الكون.

اطمأن ماجد على دلوفها إلى منزل صديقتها فاستدار عائدًا أدراجه. سار في الطرقات يركل الحصى، يشرد في الأرض متذكرًا زيف اقترابه وصعوبة اختباره، كان الاختبار من أجله قبلها، أراد معرفة مدى سيطرتها على نفسها أمامها، أما زال يحبها بنفس الشدة أم أخف، ومعرفة مدى تغيرها، إن كانت استسلمت لأكدت ظنونه

فيها وفي خيانتها لكن ما فعلته قلب رأسه، إذًا هي لم تخنه وإلا لكررتها مع غيره، لكن لماذا تزوجت غيره؟؟

***

بالكاد حيت صديقتها وباركت لهما على الزواج حتى ارتفع أذان المغرب، تبعت حياه إلى الداخل تصلي معهم، بكت سعيدة بسعادة صديقتها، حياه تستحق فرصة جديدة، وبداية أكثر بهاء.

جلست على الطاولة المخصصة لعائلتها في المقدمة بالقرب من مجلس العروسين، شردت تتذكر حنق حياه عليها، كيف وقفت أمام قرارها في تقبل رجل تشاركها فيه أخرى، أوشكت يومها أن تحطم رأسها غيظًا علها تفيق، كم من مرة تذكرت كلماتها وتمنت لو اتبعت نصيحتها، لقد نالت قربه لكنها اكتوت منه بقدر ما سعدت، إن لم يزد.

نظرت إليها تتابع اختطافها لهمسات صغيرة بينها وبين عريسها، وابتسامة خجلة لكن فرحة تنير شفاهها، ابتسمت رغمًا عنها تدعو لها بالهناء وتمام زواجها على خير.

وقف ياسين يتحدث إلى مسعد، صديق حمزه، بعدما عرفهما الأخير على بعض، اتفقا بشدة ووجد ياسين في مزاح الآخر منقذًا من التفكير، انضم إليهما محمد واتسعت الدائرة رويدًا.

تجاهلته بنظراتها، تدعي عدم إهتمامها به لكن كلما شرد نظره في جهة أخر تعود لمطالعته، تتابع نظرات النقمة في عينيه والكره ينضح فيهما لاستسلام والده في مسامحتها، والعرس الذي لم يقتنع به حتى هذه اللحظة، تحاول سبر أغواره حتى تدرك سره في هذا الحقد المستعر ضد شقيقته، لحمه ودمه، رغم معرفتها له منذ

صغره -وإن كان عن بعد-، وفترة زواجهم، لم تتخيل أن يكون أسود القلب، متحجر العقل إلى الحد الذي تراه الآن.

استمتع الجميع بليلة مرحة، تمتلئ بالحبور، ليلة صيفية جميلة حيث برقت النجوم في السماء وظهر جزء من القمر منيرًا وضاء، واندماج الضيوف مع الفقرات المقدمة.

بعدما انفض الجمع وتفرق الشمل، توجهت سلمى مع والديها بعدما أصروا على بياتها ومن معها لديهم، فليلتين ويوم ليسا في حاجه إلى فتح منزل بأكمله فيما المقابل له متواجد تحت تصرفهم كيف شاءوا.

***

ذهب يحضرها من منزل صديقتها بعد عودته، ركبت السيارة إلى جواره وذهنها شارد، حتى صديقتها شعرت بتغير حالها لكنها خافت من حالتها العصبية الزائدة فالتزمت الصمت. ما حدث في منزل ماجد يقض مضجعها، يلهب النيران داخلها.. أصار يسترخص نيلها؟

***

ظلت تجيء وتذهب في توتر حول حوض السباحة، تخطت آية عتبة الباب ودلفت إليها وفي يدها صينية تحمل كوبين من الشيكولاته بالحليب كعشاء مُعدِل للمزاج.

جلست ثم دعتها إلى الجلوس متنهدة: كفايه ارحمي نفسك، هتدوخي يا بنتي.

جلست أمامها تتخلل شعرها بأصابعها في حنق، تكاد تجذبه من جذوره: مش قادرة يا آية، هأتجنن، كلام الدكتور على إني كان ممكن أخسر بنتي بسبب حبوب تسقيط واللي قالته عنبر هيجنني، مش قادرة أتخيل إنها ممكن تقتل روح بريئة لمجرد إنها بتكرهني، طب كانت قتلتني أنا من بدري، ليه هو؟!

انحنت إلى الأمام تربت على ركبتها: يمكن ما تكونش عملت كدا، كلها شكوك فـ الأخر ومافيش دليل قاطع.

تشنجت عضلاتها وانشد ظهرها هاتفة بعدم تصديق: حتى أنتِ يا آية هتقوليلي نفس الكلام اللي ياسين خرم بيه وداني؟؟

ارتبكت آية؛ لا ترغب أن تظنها سلمى تقف ضدها أو تؤيد كادي في أفعالها لكنها تريد التخفيف من قلقها الزائد: مش قصدي يا سلمى، بس فكري شوية.. مش يمكن مجرد إلتباس، إن بعض الظن إثم.

مسحت على وجهها تنفخ ما في صدرها عبر الهواء: استغفر الله العظيم.

وقع نظرها على المشروب فمدت يديها تتناوله، ارتشفت منه للحظات شاردة في سكون، تفكر في مدى تورط كادي، أتكون ظالمة لها؟، كإجابة على تساؤل عقلها تواردت الصور المختلفة لنظرات كادي إليها، حاقدة، كارهة، شامتة وغيرهم.

هبت على قدميها كالمجنونة، تصورتها تضع لها الحبوب في ما تشربه؛ لكي تجهض طفلتها، تخنق طفلتها حينما تولد، أو تضع الوسادة فوق أنفاسها تكتمها، صاحت بحدة تمسد جبينها علّ أفكارها المتخوفة تهدأ: لا لا، مش هأسمحلها تأذي بنتي ولو على حياتها، موتها هيكون قبل ما تمس شعرة منها.

-إحنا مش قولنا بلاش إتهاماتك الباطلة دي؟.. نفسي أفهم حاطه كادي فـ دماغك ليه وأنت ليكِ الأفضلية عنها دلوقتي!

استدارت على عقبيها تحدق في الوجه الغاضب لمحدثها، توترت للحظة قبل أن تطرف برموشها وترفع ذقنها متحدية: لإنها عايزه تأذي بنتي، وأنا مش هأسمحلها بدا.

عقد ذراعيه أمام صدره: وتأذيها ليه؟.. دي لسه جايبلها لعب وبتحطهم دلوقتي فـ أوضة الأطفال، تقدري تقوليلي هي هتعمل كدا ليه لو فعلًا عايزه تتخلص من البيبي؟

ارتفع جانب فمها بسخرية: عادي، بجملة المصاريف اللي بتصرفها فـ الهوا.

تقدم إليها وحاول ضبط أعصابه، طالبها محذرًا: إياكِ تجرحيها أو تضايقيها، فاهمة؟

حاولت المحافظة على رباطة جأشها وتحدته: ويا ترى نبهتها زي ما بتنبهني دلوقتي ولا التنبيهات مش من نصيب حد غيري؟

أمسك ذراعها وهزها من غيظه، تتحداه لا مبالية وتظهره دائمًا مخطئ كيفما يكره أن يفعل به أحد، لا ترتدع من نظراته المنبهة، رغم زيادة جمالها في عينيه بهذه اللحظة ورغبته في دفع الخصلة المدفوعة فوق خدها المتمرد من الإثارة. صاح في وجهها: اسمعي الكلمة وبطلي شغل الند بالند دا، أنا جوزك مش الصبي بتاعك، وخرجي كادي من هنا خاااالص.

وأثناء قوله للجملة الأخيرة كان أصبع سبابته يضغط بشدة على جانب رأسها، تدخلت آية

بعدما وجدت الموضوع تخطى الحد وياسين فقد كامل عقله وتهورت يداه، وقفت بينهما تمسك به وتدفعه لتركها: خلاص يا ياسين، مش كدا يا أخي.

ابتعد خطوة بعدما تركها، رفع حاجبيه بوعيد مكملًا تهديداته المثيرة لأعصابها: كلامي هيمشي.

استفزها دفاعه الزائد عن كادي، وهرمونات حملها بدأت تؤتي مفعولها فتضاعف الغيظ غيظين، شمخت برأسها: وإن ما سمعتش هيجرا إيه مثلًا؟

تحركت خطوة غير محسوبة مما جعلها تتعثر بطرف حوض السباحة، صرخت وفقدت توازنها، كادت تنقلب لولا تداركه السريع للموقف وقربه منها، أمسكها وأعاد تثبيتها بعيدًا عن الحافة.

سحبت ذراعها منه حالما تمالكت نفسها، رمته بنظرة كارهة صدمته وجعلته يتراجع، غادرتهم مسرعة تحث خطاها. حاولت آية اللحاق بها لكنها لم تدركها، عادت إليه لائمة، وقفت جواره تستفسر منه: يعني الموضوع كان محتاج كل اللي عملته دا؟

تهدلت أكتافه وبذهن شارد همهم يصدمها: ماجد جابلها هدية.

***

طرقت الباب خلفها بشدة كادت تصم الأسماع، ارتمت بشدة على الفراش وجلست تحدق إلى الأمام وملامح وجهها تحمل شتى أنواع الغضب، قبضتيها مضمومتان إلى جوارها، ونظرها شارد، تعبت من دفاعه الأعمى عنها، دائمًا هي الجانية والأخرى المجني عليها، لم ولن يدافع عنها كما يدافع عن كادي.

مضى أكثر من عام على زواجهما، فات ولم يشعر أحد، تذكرته لكن تناسته بعدها، أهي أفضل من الجميع لتتذكره؟

حشرجت بسخرية، عيد ميلادها كذلك مر ولم يشعر أحد، هاتفها والداها، وتملصت من زيارة شقيقها زين إلى اليوم التالي مدعية قيام ياسين بحفلة خاصة من أجلها، أبت أن تقلص من صورته أمامهم، ينساها ولا تنساه، قضت اليوم برفقة حياه التي حاولت قدر المستطاع التفريج عن ضيقها، أمضت اليوم وعادت كأن شيئًا لم يكن.

عادت بجزعها إلى الخلف وبسطت ظهرها فوق السرير، حدقت في السقف زافرة، إلى متى التحمل ومتى تنفذ طاقتها وينتهي صبرها فتحمل أشلائها وترحل؟

أمالت رأسها يمينًا تريح جانب وجهها فوق الغطاء الناعم، قطبت ثم نهضت بروية مقتربة من العلبة المغلفة، بيضاء تتناثر عليها زهور وردية، نظرت إلى الشريط الوردي المعقود وجذبت البطاقة المخفية أسفل عقدته، فكت ثنيتها قارئة:

«هدية أعجبتني لأم مثالية، أتمنى أن تنال رضاكِ»

ماجد الحريري

تبسمت وانصرفت تفتحها متشوقة لمعرفة فحواها، فضت المحتوى وبسطته أمام ناظريها، ثوب بتنورة بيضاء قصيرة بالكاد تصل ما قبل ركبتيها، والجزء العلوي باللون الأسود وقد فصل بين النصفين شريط زهري معقود عقدة فرنسية كالفراشة ناحية الجانب الأيسر، تطلعت إلى المتبقي في الصندوق فوجدت نسخة مشابهة ولكن مقاس أصغر لطفلة في الرابعة أو الخامسة من العمر، شهقت رغمًا عنها من جمال الثوبين، أحبت لفتته اللطيفة، جلست تضم الثوب الصغير وتتلمسه، تتخيل طفلتها داخله، تدور في أرجاء الغرفة فرحة به.

***

ظلت تطالع وجهه مذهولة، أجن أم فقد عقله؟!، ماذا أصاب شقيقها الرزين المتعقل، الذي يحسب كل خطوة ويعرف هدفه بالضبط، لا يعرقله شيء ولا يحتار في أمر، الحيرة دائمًا من ألد أعدائه، يكرهها بشدة وحين تلمسه ينتفض كالملسوع، في المرات القليلة التي انتابته نوبة الحيرة كان ينفض نفسه منها سريعًا؛ بإتخاذ القرار!.. صائبًا في الغالب لكن، وإن كان خائبًا لا يهم، يكفيه أنه تخلصه من عدوه السمج.. الحيرة.

هزت رأسها؛ ليس وقت التفكير والشرود يجب أن تعاونه في حالته تلك، قبضت على رسغه وجذبته إلى أقرب مقعد، أجلسته وسحبت آخر حتى تقابله، انتظرت قليلًا

حتى أحست عدم شعوره بوجودها، تنهدت: ممكن تفهمني في إيه؟، وهدية إيه اللي تقصدها؟

-ماجد بعتلها هدية، شوفتها لما دادة عنبر كانت موديها على أوضتها.

رفعت كفها أمامه: لحظة لحظة، أنت عايز تفهمني إن الدراما اللي كانت بتحصل من شوية دي بسبب غيرتك عليها.. مش غيرتها عليك؟!

كأن سطلًا من الماء المثلج قد سكب في ظهره، حدق بعدم استيعاب: غيرتها؟

تراجعت في جلستها نافخة حفنة من الهواء: لما تدافع عن مراتك الأولى قدام مراتك التانية

بالشكل الأعمى دا بدون مراعاة لمشاعر اللي قدامك أكيد هتغير، دي مهما كان مراتك حتى لو أنت لسه مش متقبل دا.

-بس..

-فاهمة، فاهمة، أنت ماكنتش شايف غيرتها من كادي، كل اللي كان فـ بالك ماجد وهديته.

توقفت تبتلع ريقها: ممكن اسألك سؤال؟، سلمى مشاعرها محددة من الأول.. هي بتحبك ودا معروف فـ غيرتها عليك من كادي طبيعية ومبررة، إنما أنت إيه مضايقك من اهتمام ماجد وأنت لحد دلوقتي مش راضي تعترف بيها كزوجة ليك؟، رغم إنك متقبلها كأمر واقع مش أكتر.

شرد ولم يرد، هو توقف عن محاولة فهم مشاعره بدقة نحوها، فقد الأمل في الوصول إلى وصف قاطع لما يخالجه ناحيتها. حدق بدهشة في وجه أخته الصغرى

الضاحك، أشارت الكوب الذي أمسكه يرشف محتواه، الشبه بارد: طب حاسب بقى لأحسن الكوبايه دي بتاعت سلمى، وهي اللي كانت شاربه منها.

سقط نظره إلى الكوب الذي تمسك به بكلا يديه، طرق مسامعه تعقيبها الأخيرة قبل أن تتركه متجهة لغرفتها: شكلك هتجري وراها لحد ما تشبع.

أعاد الكوب مكانه فوق الطاولة وتمدد فوق مقعده، يطالع السماء عبر الزجاج الشفاف، يحصي عدد النجمات لعل عقله ينشغل بشيء عدا التفكير في مشاعره المترددة، وبين حين وآخر يهبط بصره إلى الكوب البارد، يطالعه في صمت ثم يصرف نظره للسماء من جديد.

***

جناح فخم بأضخم فنادق المحروسة، كامل من كل شيء، طاقم من الموظفين خصص لتلبية طلبات صاحبه، في الجزء المخصص لاستقبال الضيوف، صالون مذهب على أعلى طراز من الأناقة والغلاء، كأنه مقتص من قصر ملكي، تزيده إضاءة الثريات المعلقة بهاء ولمعانًا، يجلس فوق أريكته رجل في أوآخر الأربعينات، تسلل الشيب إلى مقدمة شعره، أنف معكوف نتيجة كسر سابق، وجرح خيط بخياطة سحرية منذ زمن؛ فلم يترك سوى أثر بسيط لا يلتقطه إلا أعين ثاقبة، يرتدي بذلة سوداء من ماركة عالمية وحذاء لامع كالمرآة.

جاوره على اليمين مساعده الموثوق وجلس أمامه أحمد ورامز، وقد تراجعت حراسة كلا الرجلين إلى الكواليس، تتابع في صمت وحالة تأهب عند الحاجة، بأعين ثاقبة متربصة نظر إلى أحمد: المرة دي هأخد نص الفلوس، وبدل النص التاني هأخد حاجه تانية..

التفت رامز يتربص رد فعل رئيسه الذي ظل محدقًا بوجه شريكه لهذه العملية، تابع الآخر حديثه: سمعت إن عندكوا فيلل، ونادي ليلي.

سأله أحمد دون تعابير واضحة عما يجول في خاطره: وإيه العلاقة بين دا واللي عايزينه؟

-واحد معرفة، عايز بنت عذراء.

أضاف بعدما رأى تبادل النظرات بينهم في ريبة: لا لا، مش اللي فـ بالكوا، دا هيتجوزها على سنة الله ورسوله، الراجل مالوش فـ الحرام.. تقدروا تأمنوا له طلبه؟

طمأنه رامز بعدما تلمس الموافقة من أحمد: طبعًا يا شوقي بيه، مافيش أسهل من دي طلبات.

أومأ شوقي برأسه ثم أكملوا الحديث عن الشحنة القادمة، تناقشوا في تفصيلها وطريقة دخولها للبلاد خلال أيام بطريقة ليس عليها نفحة غبار، ستعبر الحدود بلا مشاكل كالمعتاد. بعد ساعة أو أكثر.. وقف أحمد منتصبًا إلى جواره رامز في المصعد. أُغلق الباب عليهما ودون أن ينظر أحمد إلى مرافقه أمره بصوت قوي: أعرف مين «المعرفة» اللي قال عليه شوقي.

شهق رامز مستنكرًا: وأعرفه إزاي دا؟

-دا شغلك يا رامز، إحنا أولى بالجميل، وأكيد دا الشريك التالت.

رفع أحد حاجبيه: وإيه اللي يأكد إنه الشريك التالت؟

ربت على كتفه: دا اللي أنت المفروض تتأكدلي منه، مجرد حدس.. وإن كان هو ولا غيره؛ فإحنا أولى بالمعروف.

قهقه رامز مدركًا مخططات رئيسه أو بعضًا منها، جعل عقله يعمل وأخرج هاتفه يجري إتصالاته حتى يبدأ في إنهاء المهمة الموكلة إليه في أقرب فرصة، كما أمر بإحضار الفتاة العذراء لتكون على أهبة الاستعداد.

***

رفعت يديها تحجب أشعة الشمس الحارقة عن الوصول إلى عينيها كي لا تعمي بصرها، تمهلت في هبوط الدرجات الأمامية لباب المستشفى بعد إنتهائها من المعاينة الروتينية، اطمئنت على صحة ابنتها وسماع نبضها من جديد، اختلف شكلها ونمت خلال الشهر الماضي؛ فقد اكتمل قلبها ومثانتها وكليتيها كما كبدها.

توقفت بغتة بعدما أوشكت على الهبوط من فوق الرصيف، حدقت في السيارة التي توقفت أمامها وقد فتح بابها وبصوت آمر: أركبي.

صعدت جواره متضايقة، صلّبت جسدها متجاهلة وجوده، تنظر للأمام أو من النافذة، أي مكان، المهم بعيدًا عن وجهه: جيتِ لوحدك ليه؟، مش كنا متفقين نيجي سوا؟

رفعت كتفيها وأجابته ببرود: لما ما اتصلتش ولا جيت قولت يبقى نسيت أو مستغني.

-وهو أنا أقدر اتأخر على بنتي بردو؟

-كل شيء بيتغير.

زفر مدركًا فشل محاولاته، مضى عليها عدة أيام منذ تحدثت إليه آخر مرة، تجيبه باقتضاب، تتجاهله ولا تطيق النظر إلى وجهه، يعلم أنه تجاوز الحد وقد نبهته آية إلى زاوية أخرى من جدالهما، لم يكن ليراها دون لفت نظر.

ألقى عليها نظرة جانبية فرأى بسمة تستحوذ كامل وجهها، سألها عن السبب فرحًا بهذا التغير الذي لم يكن ليحدث في وجوده، أجابته بأعين لامعة من الإثارة: الدكتور قالتلي إن بنتي فـ الفترة دي تقدر تفتح بؤها وتقفله بسهولة، وإن بداية الأسنان بدأت تتكون.. ورتني فيديو لطفل تاني وقالتلي إن بنتي بتعمل زيه دلوقتي.

-كان نفسي أشوفه.

قالها بشرود استشعرت فيه الإحباط والندم على تفويته تلك الفرصة، غابت الفرحة عن وجهها وأولته كامل اهتمامها بملامح معتذرة: آسفة.

أفاق من غيبوبته ولما رأى تعبيرات وجهها رسم ابتسامة على شفتيه محاولًا التخفيف عنها: ولا يهمك، هأعوضها.. المرة الجايه هتلاقيني فوق راسك.. مش بعيد انيمك واتفرج أنا عشان أغيظك.

انفجرت الضحكة من فمها رغمًا عنها.

***

طرقت باب المكتب ثم أطلت برأسها عبر فتحة ضيقة منه بعدما سمعت الأمر بالدخول، تطلعت إليه فوق مقعده الدوار خلف الطاولة ووجهها كأنه غارق في حجابها المربوط على عجل، اعتذرت منه بوجه خجول عن الإزعاج لكنه نهض من مكانه يحثها على التقدم ويسألها إن كان هناك خطب ما.

تقدمت إلى الداخل ونزلت بنظرها إلى ما تحمله في كفها، تتبعها ثم استفسر بنظراته الصامتة، أجابت تساؤله: حسيتك أتضايقت لما حكيتلك عن الفيديو اللي شوفته، الدكتور كانت قالتلي إنه موجود على النت، بحثت لحد ما لاقيته.. لو تحب ممكن أوريهولك.

شلته الصدمة للحظة قبل أن يومئ موافقًا، جلس جوارها على الأريكة الجلدية، عرضت الفيديو على هاتفها المحمول وأصبحت تشير على كل جزء من الجنين مرددة على مسامعه ما قالته الطبيبة، شهق غير مصدقًا لما تراه عيونه: بقى دا الشعر، كل دا.. أومال بيتولد أقرع إزاي؟

قهقهت رغمًا عنها: مش كل الأطفال بيتولدوا قرع يا ياسين.

-أه أنا عايز بنتي تنزل بشعر، مش عايزها قارعة.

عادت تقهقه، تابعا عملية تكون الأنف والأذن وملامح الوجه بانبهار، ظل ياسين بعد إنتهاء العرض غير مصدق لمدى قدرة الخالق -سبحانه وتعالى- في خلق الإنسان، فكيف كان وكيف صار وماذا سيصبح.. عملية في غاية الإبداع والكمال الذي لا يليق بسواه –عز وجل-.

ساد صمت قطعته سلمى مشاركة إياه مشاعرها وما تمر به: ساعات كنت بأحس بنبضة خفيفة جوايا، ماكنتش عارفه سببها، سألت الدكتور وقالتلي إنه طبيعي ابدأ أحس بنبضه ولو خفيف على فترات؛ لإن القلب اكتمل الحمدلله.

أدمعت عيونه وفرت دمعة لا يعلم من أين أتت أثناء تعلقها بعيون زوجته، رفع كفه يمحوها مسرعًا بينما الأخرى اتكأت فوق الأريكة في الجزء الفارغ خلف سلمى معتدلًا في جلسته عندما رأى بريق الدموع في مآقيها شاهقة باسمه.

الإتكاءه جاءت بالخطأ على طرف وشاح سلمى غير المحكم فوق رأسها، مما أدى إلى إنحلاله وسقوطه معريًا شعرها المبعثر في شغب بفعل عقصته المرخية، ارتبك وأسرع يمسكه ويعيد وضعه في مكانه، حاولت إلتقاته من بين أصابعه حتى تربطه لكنه حاول عقده كما أحله.

اصطدمت أصابعه ببشرة وجنتيها المرهفة، مما جعلها تحمر حياء، فاتلت حتى يتحرك لسانها وينطق بلا جدوى، فُتِحَ الباب بغتة وظهر محمد قائلًا: يا ابني مش ناوي تيجي أم الشركة دي وترحمني من المشوار اللي مالوش آخر دا.

رأهما وأدرك انحلال الحجاب ولو بشكل جزئي، أسقط نظره أرضًا وتراجع معتذرًا وهو يقفل الباب خلفه: آسف ما كنتش أعرف إن في حد معاك.

قبض كفيه بحنق وأمرها أن تحكم ربط حجابها في مرآة الحمام الملحق بالمكتب ثم تصعد للأعلى، ونهض هو متجهًا إلى صديقه بينما داخله يغلي من فكرة رؤيته ولو خصلة صغيرة منها.

***

خرجت عبر البوابة الرئيسية لدار العجزه وتوقفت على الرصيف برهة تبحث عن هاتفها الملقى في مكان ما داخل الحقيبة الضخمة، رنينه يرسل صداعًا خفيًا إلى رأسها، تأففت مغتاظة من تلك الخصلات السوداء التي تهدلت ساقطة على عيونها تمنع عنها الرؤية والتفتيش.

قررت عبور الطريق؛ فهذه المنطقة خالية تقريبًا من المارة والسيارات، لكن يبدو أن حظها أسوء مما تخيلت، كادت سيارة ملاكي صاروخية تدهسها لولا يد قبضت على ذراعها وجذبتها بعيدًا عن الطريق في آخر لحظة.

وقعت أرضًا إثر الجذب المفاجئ دون استعداد جسدي لتلك الحركة، جلست مثنية الركبتين وشعرها يتناثر على وجهها مغطيًا ذراعها إلى المنتصف، ناعمًا نتيجة الإهتمام والفرد المستمر بالمكواة، نفضت يديها ببعضهما وبدأت تبعد الخصلات من فوق عيونها.

لفت بصرها الشخص الملقى جوارها. وأعينها ممتلئة بالشرار، صاحت فيه مخرجة جلّ غيظها: أنت متخلف صح؟.. عاجبك اللي عملته فيا دا؟؟

رفع حاجبيه مندهشًا، وأشار إلى صدره: يعني دا جزاتي إني أنقذت حياتك.

-ياريتك كنت سبت العربية تخبطني ولا تهرسني حتى، أهو أحسن من التهزيق اللي أنا فيه دلوقتي.

نهض كما فعلت شاهقًا من الدهشة: لاا، دا أنتِ حالة ميئوس منها.

أدرات رأسها إليه بغتة، متناسية الإتصال وصمت الهاتف بعد إلحاح وقد ضاقت عيونها بحدة: أفندم؟

-لا لا ولا حاجه خالص.

شرعت تنفض ملابسها وتتفحص حالها، البنطال الجينز لم يصبه مكروه، أتربة سهلة الإزالة، لكن أشد الضرر أصاب قميصها الحريري الأبيض، تمزق جزء من طرفه، تأففت وتركته عائدة إلى الداخل تهمس إلى الحارس بعدة كلمات فتح على إثرها الباب، رمته بابتسامة أضاءت وجهها وفتنت الرجل المسكين.

خرجت بعد ربع ساعة بكامل أناقتها، تغلبت على القطع البائس بإدخال القميص في البنطال الضيق مجسدًا تضاريس جسدها، ارتدت نظاراتها الشمسية السوداء تخطو إلى الناحية الأخرى من الطريق حيث توقف سيارتها.

لحق بها يسألها إن كانت بخير، يستفسر عن أي خدمة قد يفعلها من أجلها، استدارت إليه بعدما ضغطت على زر الإنذار وفتحت أقفال السيارة: روح فـ طريقك وحل عني، ما كانتش حادثة يعني اللي هتخليك فوق راسي كل دا.

لمح كزها على أسنانها اللؤلؤية ثم تركته صاعدة إلى سيارتها، وضع كفه على زجاج سيارتها طالبًا توصيلة إلى أقرب محطة، خلعت نظاراتها ونظرت إليه باحتقار فيما يديها تتمسك

بالمقود: حد فهمك إني الشوفير بتاعك؟.. أقرب محطة باص ما تكملش دقيقتين مشي، أو استنى تاكسي جنب عم فتوح.

أشارت خلفه إلى حارس دار العجزه، والذي جلس أمنًا يرتشف الشاي من كوبه الزجاجي الصغير، ابتعد عن السيارة حالما بدأت في قيادتها مبتعدة، توعد لها دخله، ستكون هي الهدية باللين أو القوة.. ستحدد هي الطريقة بتصرفاتها وشدة صلابة عقلها.

***

رفع سترة بدلته فوق كتفه ممسكًا بها بطرف إصبعه، بلا ربطة عنق وأزرار قميصه العليا محلولة، صعد درجات المنزل الداخلية بتؤدة وتعب، يتلمس طريقه إلى أقرب سرير، لينام إلى ما شاء الله.

لقد مرت فترة قبل أن يذهب إلى الشركة ويمضي فيها كل هذا الوقت، عوضوا غيابه الماضي بما فعلوه فيه اليوم، أوراق لا تنتهي وأناس يستمر في مقابلتهم الواحد تلو الآخر، اجتماعات مع كل الأقسام كل منهم يخبره بالجديد وخطة هذه الفترة.

ما زالت الضائقة تحيط بهم، لكن سلمى قد حذرتهم قبلًا أن خطتها لا تأتي بنتيجة سوى عقب فترة طويلة نسبيًا، ثقته بها جعلته مستسلمًا، يفعل ما بوسعه أثناء تنفيذها، خطة طويلة الأمد، يتمنى فقط ألا يحدث خطأ يلقيه وأسرته إلى الشارع.

لمح جسدها ببطنه صغير البروز تحت بلوزتها الضيقة، رأسها على مسند الأريكة فيما رجليها في وضع الجلوس فوقهما كتاب ما والتلفاز يعمل على قناة كرتون، ابتسم رغم تعبه واقترب منها، أوجعه قلبه حين فكر في إفساد نومها.

ترك السترة جانبًا ورفعها بين ذراعيه، ترنح برهة، أزاد وزنها أم تعبه يسلبه قوته؟، أكد لنفسه على ضرورة ممارسة الرياضة وإلا سيحتاج من يحمله مثلها. مددها على السرير ورفع الغطاء فوقها، حاول الإنسحاب متمنيًا لها أحلامًا سعيدة لكنها تشبثت بكفه وضمته إلى صدرها، حاول سحب يده بلا جدوى، تزداد تشبثًا ويرتفع صوتها بغمغمة غير مفهومة.

تنهد بتعب، لم يعد يستطيع مقاومة النعاس أكثر، نظر إلى الطرف القريب فوجده ضيقًا لن يسع جسده، خلع حذائه وعبر من فوقها إلى الجهة الأخرى ويده ما زالت بين كفيها، تمدد متنهدًا في راحة وبدأ يغمض عيونه، انقلبت مرتمية على صدره وقد حررت كفه مستبدلة إياها بقميصه، تمسكت بالقماش الخفيف له ودفنت وجهها في صدره.

تغضن جبينه، أتتشمم رائحته أم يخيل إليه؟؟، وترك تساؤل عقله بلا إجابة مستغرقًا في نوم عميق غير مدرك بأي شيء يحدث حوله.

****

عقدت أصابعها سويًا تتلاعب بها في عصبية، مرهفة السمع لتكات المفتاح في باب الشقة، دفع حمزه الباب أمامها يدعوها كي تسبقه في الدخول، لكن حين تقدمت أوقفها مستدركًا، حدقت به في دهشة زادت حينما أنحنى يحملها متخطيًا بها العتبة إلى الداخل.

أنزلها هامسًا في أذنه: مش دي الأصول ولا إيه يا عروسة؟

أومأت بوجه زادت حمرته من الخجل، خرج يحضر الحقائب بعدما أضاء الأنوار، دارت حول نفسها في أنحاء المنزل مهللة بفرح.

لقد صارت مع حبيبها وزوجها في منزل واحد، ستبدأ حياتهما من هنا، هذه الجدران ستشهد حبهما بين جناباتها كما مشاكلهما التي لن تخرج عنها.

وقف خلفها باسمًا: مبسوطة؟

دارت إليه بأعين تلمع بضراوة كما لم يرها قبلًا، وضعت يدها فوق قلبها: حاسه إن قلبي نسي معنى الدق من كتر الفرحة.

أشار لها على الحقائب: طب تعالي نفضي الشنط سوا وبعدين ناكل، وشوفي هتحطي الحاجات اللي جبتيها فين.

أومأت تلحق به إلى الداخل فيما يفتح الحقائب بعدما وضعها فوق السرير، تناولت مزهرية أنيقة وضعتها على طاولة الزينة، ستضع فيها الأزهار خلال وقت لاحق.

-كملي أنتِ ترتيب الحاجة وأنا هأحط الهدوم في الغسيل.

-أووووه، دا أنت فول أوبشنز بقى.

غمزها: أومـال، دا أنا أعجبك أوي، يا ستو أنا.

ضحكت عليه بشدة وعادت تكمل ما تفعله، تناولت إطارًا للصور ووضعت به ورقة باردي اشترتها وقد خط فوقها سورة الإخلاص، وضعتها بركن في المكتبة الفارغة.

قسمت الهدايا ووضعت ما ستعطيه لوالدي حمزه في حقيبة يدها حين يزوروهم مساء كما أتفقا، تناولت الهاتف لتجد سلمى تطمئن على وصولها، أجابت بسعادة وتبادلتا الحديث دون شعور بمرور الوقت.

دخل حمزه فوجدها منشغلة، تبسم حين علِمَ هوية المتصل، عاد أدراجه يجهز الغداء لكليهما، لحقت به حياه بعدما بدلت ملابسها المجعدة من طول مدة السفر، وقفت خلفه على أصابع قدميها تحاول تجاوز أكتافه لترى ما يصنعه، لكن بلا جدوى.

نظر إليها من فوق أكتافه بطرف عينه: ما تحاوليش يا أوزعة.

ضربته في ظهره مغتاظة: أنت اللي طويل بزيادة أعملك إياه.

-يا سلام ياختي؟.. أيوه اتحججي اتحججي.

تسللت يدها تلتقط قطعة خيار من التي قطعها: وناوي تغدينا إيه يا حضرة الشيف؟

-مكرونة وفراخ وسلطة.. بس شكل الفار هيخلص على السلطة قبل ما تجهز.

تأوهت حين صفع ظهر كفها بخفة: خلاص خلاص، الفار قرر المساعدة.. عايزني أساعدك إزاي؟

-شوفي الصلصة اتسبكت ولا لسه.

-مسم، لا وكمان ضليع فـ لغة المطابخ.

تعاونا في تحضير الغداء، وأثناء انشغالها بتقليب المعكرونة بالصلصة وهي تدندن بلحن ما، راقبها متذكرًا ما حدث معها قبل أن تلتقيه، قست نظراته واشتدت قبضته على السكين، ذلك النذل الذي دخل حياتها قبله، كم يتمنى لو لم يمت ليقتله مرة تلو الأخرى، ولن يشفى ذلك غليله حتى!..

أفاق عندما لمح انكماش حياه ناظرة إلى تعابيره المفزعة، هزت رأسها كأنه تسأله عما تغير، وكأن لسانها فقد النطق من هول ما تراه العين. جرح إصبعه بسبب استمراره في تقطيع الخضار وذهنه شارد، عندما ضاقت عيونه للحظة بألم وسقط

نظرها إلى الدم النازف منه، أسرعت إليه بوجه شاحب والقلق يغطي ملامحها، تناولت يده وسحبته خلفها ناحية الحوض تغسلها من الدماء، استمر الدم ينزف قطرات صغيرة فرفعته إلى فمها تمتصه في حركة تلقائية.

تركته لحظة تبحث في صندوق الإسعافات الأولية الموضوع في زاوية بالمطبخ، أخرجت معقم وقطعة قطن بالإضافة إلى لاصقة طبية، أجلسته وبدأت تداويه.

تابع حركاتها، فزعها عليه من جرح صغير، أفكاره تحنق وتحقد عليها حينًا لكنه يسرع بالاستعاذة والتناسي. لقد أخطأت كأي إنسان من لحم ودم، أليس كل ابن آدم خطاءين؟.. لِمَ يستمر في لومها وتحميلها الذنب، لا يستطيع النسيان، يحاول التناسي لتعلق قلبه وعقله بها، ماذا يفعل لينسى، وهل يمكن أن يرتكب خطأ لا تستطيع هي غفرانه؟

***

رفعت خصلة شعرها المقصرّة بعيدًا عن عينيها بعدما انفلتت من أسفل قبعتها، تسير بجسدها الممشوق وزي وظيفتها الكحلي المكون من تنورة تتجاوز ركبتيها بعدة سنتيمترات وقميص بأنصاف أكمام، كعبي حذائها يترقعان فوق الأرضية السيراميكية.

وقفت أمام مكتب سكرتيرة الرئيس بشركة الطيران التي تعمل بها، تبسمت فأنار وجهها: صباح الخير يا صفاء، بلغوني إن سيادة المدير عايزني.

غمزت مضيفة: ما تعرفيش إيه الموضوع؟

رفعت كتفيها جهلًا وأمسكت السماعة تدق على زر مخصوص للإتصال بالمدير: الآنسة يُسر فـ الإنتظار يافندم.. حاضر.

أعادت السماعة وأشارت إليها حتى تتقدمها، فتحت الباب وانتظرت دخولها قبل أن تغلقه خلفها، ابتسمت يُسر بهدوء بينما يطالبها رئيسها بالجلوس أمامه.

فعلت تنتظر ما بعث خلفها من أجله وهو لم يخيب رجاءها: أنا عارف إنك لسه راجعة من لندن بس ما قدميش غيرك فـ نفس الكفاءة، رحلة فـ طيارة خاصة لتركيا.

اتسعت ابتسامتها مستغربة: أكيد يافندم، حضرتك عارف إني مش بأعترض على المرواح لأي بلد.

تنهد: عارف، بس المشكلة إن معاد الرجوع غير محدد، يعني ممكن تفضلي هناك ساعات يوم إتنين، أو حتى شهور.

رفعت حاجبيها باستغراب: طب ما أرجع أنا ولما يحب يرجع أروحله تاني.

زم شفتيه بقلة حيلة: عرضت عليه بس هو من النوع اللي لما يقرر حاجه تتنفذ فـ ساعتها، يعني لما يقرر يرجع بيرجع قبل ما ينهي الأمر.. وما أقدرش أقوله لا؛ لإنه هيأجر طيارة خاصة من شركتنا ومستعد يدفع أضعاف التمن عشان المدة اللي هياخدها غير معروفة، فـ نفس الوقت مش هأقدر أجبرك على القبول.

شردت قليلًا، تفكر في حاجتها إلى بعض الأموال، كأنه قرأ أفكارها فرد عليها مطمئنًا: هيدفع مبلغ كويس وليك منه نسبة ممتازة.. يعوض تعبك.

تنهدت قبل أن تومئ بالقبول، هلل رئيسها شاكرًا: إن شاء الله هتبقى رحلة ولا فـ الأحلام، وهتغير حياتك للأحسن.

ابتسمت: يا رب.

صافحته قبل أن تصرف، واتجهت إلى صفاء تتناول منها ملفًا وافيًا بكافة تفاصيل الرحلة التي صمم صاحبها على الإقلاع مساء.. متعجلًا الذهاب لشدة مشاغله وامتلأ وقته.

***

خطفت قطعة القماش من بين أصابع عنبر، ضمتها إلى صدرها وأشبعت أنفها من الرائحة العالقة بالملابس، ضحكت عنبر على منظرها المستمتع أيم الاستمتاع.

-مش عارفه ريحته بتريحني كدا ليه.

-شكل السينيورة الصغيرة هتطلع بتعشق أبوها وناسيه مامتها خالص.

علقت آية بالجملة الأخيرة مثيرة غيظ زوجة أخيها، لكزتها سلمى حانقة دون أن تبعد القماش عن أنفها، تكلمت عبره لائمة: لا أنا بنتي حبيبتي مش هتفرق فـ حبنا إحنا الإتنين.

نظرت آية بطرف عينها إلى الهدايا المركونة في أحد زوايا غرفة الطفلة التي يتم تجهيزها: يظهر إنها هتبقى حبيبة الكل، الأوضة غرقت فـ الهدايا وأنتِ لسه فـ بداية الحمل.. أومال لما تيجي بالسلامة هيجرا إيه.

رددت عنبر آيات وسور قصار من القرآن الكريم معقبة: ربنا يحبها ويحبب فيها خلقه، أصلًا ما استبعدش إن الكل يموت فيها دي بنت ست سلمى بردو.

-الله يخليكِ يا دادة.

اعتذرت منهم عنبر منصرفة إلى عملها فيما جلست الآخرتين يتبادلان الأحاديث: وصلتِ لفين فـ الدكتوراه بتاعتك؟

تنهدت: لسه ما رجعتش أشتغل فيها، هابدأ تاني كمان شهرين، حاسه إني مستهلكة ومافيش طاقة أبحث وأدور وأشتغل.. كمان الدكتور بتاعي سافر ولسه ما حددش وقت رجوعه، فكسلي تضاعف.

ربتت على ركبتها: يمكن كدا أحسن، أنتِ عملتِ ماجستير على طول واخترتِ موضوع صعب أخد وقت ومجهود، والحال نفسه مع الدكتوراه، إجهادك العملي دا مع اهمال الجانب العاطفي هيستهلكك ومافيش شحن.

-أوووبا، يبقى دا سر قاعدة الأستاذة ناهد معاكِ إمبارح؛ عايزاكِ تليني دماغي زي ما بتقول.

-أصل حالتك غريبة، مش راضية حتى تعرفي مين اللي متقدم، ترفضي عمياني كدا.. دي مش طريقة ولا أسلوب واحدة بعقليتك.

-مش حاسه إني مستعدة حاليًا، لسه كنت بأقولك مجهدة، مش قادرة أفكر ولا أقاوح فـ حاجه، يعني نظريات وورق مش قادرة أعمل معاهم حاجه، ما بالك بقى خاص هاتعرف عليه وأفهم دماغه وأشوف تمشي مع دماغي ولا لا، اتقبله ولا لا.. م الأخر قفلي على الموضوع دا وأقنعي ناهد تفكها منه.

دلفت ناهد مستمعة للحديث الأخير، فعلقت بضيق: أفكني؟، وهو حالك دا ينفع يتفك منه.. بلاش تأجلي كتير لحد ما يفوت الآوان.

نهضت آية من مجلسها وقبلت رأس أختها الكبرى: حاضر، بس سيبيني شوية لحد ما أفك.

ملست فوق شعرها بحنان أمومي: ماشي، لكن ما تطوليش فـ حالتك دي.

دعتهم ناهد للنزول من أجل العشاء، سبقتهم سلمى شاعرة بالجوع الشديد الذي يرافقها منذ أيام بلا رادع، بدأت بطنها تبرز إلى الأمام، وضاقت بعض ثيابها وتوجه تفكيرها في بدء شراء ملابس الحمل، ضاعت مجهوداتها في فقدان الوزن سابقًا وحالما استقر جسدها على الوزن المناسب له أتت طفلتها لتقلب الأمر رأسًا على عقب، لكن رغم ذلك تشعر بسعادة لا توصف، دائمًا ما قيل لها أنها أمٌ بالفطرة، تحنو على كل محتاج للرعاية من الصغير إلى الكبير.

راقبتها كادي تتناول كميات من الطعام دون حساب، حاولت ناهد كبحها فقد يضرها أكثر مما يفيد لكنها أبت الاستماع، فالجوع يمزق أحشائها، راقبها ياسين وآية كاتمين ضحكاتهم، بالكاد تستطيع النظر إليهم بجانب عينها كأنها تخبرهم بعقابهم المؤجل بعد الطعام.

***

تحركت في غرفتها بحيرة، لقد أتت إلى القاهرة على أساس انتظار رجل الأعمال المسافر من ثم يعودون للإقلاع صوب البلد المختار، كرهته من قبل رؤيته، تمقط إدعاء الانشغال ومن يظن أن المال يُسخِر له كل شيء.. حتى البشر.

جمعت شعرها فوق قمة رأسها متأففة من الحرارة الزائدة، لم ولن تعتاد على مبرد الهواء، أوقفت عمله وخرجت إلى شرفة الغرفة تنظر إلى النيل المنبسط أمامها، لا تستطيع إنكار بذخه ورعايته للعاملين لديه؛ فقد حجز للطاقم بأكمله في فندق باهظ الثمن وعالي الجودة.

تسرب إلى سمعها طرقًا على الباب، توجهت إليه وفتحته متفاجأة بوجود رجل رأته من قبل لا تذكر أين وخلفه رجلين من ضخام الأجسام، توجست خيفة ولكنها حاولت عدم إظهار ذلك متسائلة: أفندم.. أقدر أساعدكم فـ حاجه؟

أومأ: تتفضلي معانا.

-أنتوا مين؟

عرف أن أسئلتها لن تنتهي؛ فأشار بطرف سبابته إلى الرجلين خلفه كي يتقدما منها، وأخرج من جيب سترته الداخلي زجاجة صغيرة بخ محتواها أمام وجهها بينما تتراجع إلى الخلف مرتطمة بالطاولة الصغيرة .

حملها أحد الرجلين فوق أكتافه فيما حمل الآخر حقيبة سفرها ومتعلقاتها كلها ثم تناول مفتاح الغرفة المرمي فوق أحد المقاعد، توجه إثنان منهم إلى سلم النجاة الموصل إلى الخارج من الخلف بعيدًا عن الباب الرئيسي والمراقبة بعدما ساعدهم أحد عمال خدمة الغرف.

الأخير توجه بأغراضها إلى مكتب الاستقبال متأكدًا من تبديل الوردية وأن الجالسين خلف المكتب حاليًا مختلفين، رفع أكتافه ومشى بروية، وقف أمام أحدهم مسلمًا المفتاح ينهي الدفع ليخرج من الفندق، سأله موظف الاستقبال عن اسم حاجز الغرفة.

-نوح البنا.

تمت المعاملات في سرعة، سدد الفاتورة وابتسم إلى الموظف محييًا، أدار ظهره لمكتب الاستقبال واتجه إلى الخارج بابتسامة ظافرة على وجهه وحقيبة ملابسها في قبضته.

صعد إلى السيارة المنتظرة أمام البوابة فيها الرُجال الضخام في المقدمة أما المضيفة النائمة فقد جلس جسدها المخدر إلى جواره مسلمًا أمره، أبعد خصلة هربت من العقدة فوق رأسها عن عينيها ثم أخرج هاتفه مجريًا مكالمة.

***

انحنت بجزعها فوق الطاولة ترص الطعام، وتسكب العصير الذي يعشقه في الأكواب بينما يتابع حركاتها من مجلسه فوق الأريكة مدعيًا تركيزه بالاستماع إلى التلفاز، يرمقها بنظرات باطنية حينما يشعر بعدم ملاحظتها له، رغمًا عنه لا يستطيع نسيان ما فعلته سابقًا. كان ذلك قبل تعرفها به، بل قبل تعقلها نفسه. لكن عقله ليس بيده، وشيطانه توصى به زيادة عن اللازم، لا ينفك يفكر أنها كانت لغيره، وإن دون إرادتها، تسرعت ودفعتها مشاعرها لمواجهة عائلتها وتعلقها بهم من أجل آخر.

يحاول أن يبدو طبيعيًا، يتصرف بعفوية مقصودة، يجبر نفسه على الإندماج معها والإنصات لأحاديثها بينما يدرأ الأفكار السيئة والوساوس بعيدًا.. ولو مؤقتًا، كم من مرة سهد ليله وتأرق كي يراقب وجهها أثناء نومه ويطلق الحرية لنظراته التي يخفيها عن عيونها، نظرات تمقت ما فعلته وتتهمها به في كل لحظة، تأبى الغفران الكامل أو السماح الشامل، تدينها في كل دقيقة وتقيم عليها الحد.

إزدرد ريقه مرغمًا ورسم بسمة على شفتيه مستجيبًا لندائها السعيد كي يشاركها تناول ما أعدته يداها أثناء النهار، نهض من مجلسه بهدوء واحتل مقعده حول المائدة بينما تضع في طبقه ما تعلم حبه له وتحادثه بابتسامة صافية، تسأله عن أحداث يوم عمله.

استجاب في البدء ببعض التحفظ لكن بمرحها استطاعت سحبه لمجاراتها بشكل كامل، توسلته الحديث إلى أهلها سوية حتى يطمئن قلبهم؛ فوالدها ما زال القلق يتآكل قلبه حتى بعدما رأها في ثوبها الأبيض وسعادتها بارتباط حياتها بمن تحب.

***

تأوهت مستيقظة، تدفع الضباب المتجمع فوق عقلها وأمام عينيها، قطبت جبينها في محاولة لاسترجاع آخر الأحداث قبل سباتها، تجمع شتات أفكارها، أبعدت ذراعها في إتجاه معاكس لجسدها فلم تجد سوى الفراغ.

انتفضت جالسة، تدفع بيدها الأخرى شعرها بعيدًا عن وجهها حتى ترى ما حولها بوضوح، أخيرًا استطاعت رؤية الوجوه المحدقة بها، رجل أسود الشعر، نتيجة الصبغات المستمرة وليس لصغر سنه، يتوسط مقعدًا ضخما، حاولت التعرف عليه لكن دون جدوى، نظرت إلى جانبيه حيث على يساره رجلين ضخام، ويمينه وقف من تحدثت إليه على باب غرفتها في الفندق.

آه، الفندق.. لقد غامت الدنيا أمامها فور بخ شيء في وجهها، وهو من فعلها، لكن من هو؟، وأين رأته سابقًا؟ حتى الآن لم تستطع تحديد ملامحه، لكن الأهم أين هي وماذا يريدون منها؟

حركت قدميها لتلمسا الأرض، اعتدلت في جلستها فوق الأريكة، وملامحها تنضح بالقوة فيما تستمع إلى الرجل الأكبر سنًا والجالس في مواجهتها: صحيتِ أخيرًا.

توجه بحديثه إلى الواقف على يمينه دون أن تترك عيناه وجهها، مترصدة تعابيرها: شكلك زودتلها جرعة المخدر شوية.

اكتفى الأخير بالتواءة من فمه ساخرًا، عاد الرجل يوجه حديثه إليها: فوقتِ ولا لسه؟

سألته مباشرة ودون مواربة: أنتوا عايزين مني إيه؟

تنهد باسترخاء: مادام سألتِ يبقى فوقتِ.

عاجلته بسؤال آخر: أنتوا مين؟

نهض من مجلسه واتجه إلى الطاولة الفاصلة بينهما، صب بعض الماء في الكوب الفارغ ثم مده إليها، رأى تصلب وجهها ورفضها الصامت تناول أي شيء، ابتسم بهدوء يحثها على الإرتواء: ما تخافيش، مافيهوش مخدر.. أنا عايزك بكامل وعيك.

ارتجف قلبها وجف ريقها، مدت يدها بلا وعي تتناول الكوب من يده، ارتشفته تبتلع كلماته المثيرة للريبة والبعيدة عن الطمأنة، حامت عيونها فوق وجوههم بالترتيب من فوق حافة كأسها الشفاف، تحاول الوصول إلى غرضهم من خطفها، ليست صبورة ولكنها لن تبدي أي تلهف أو سرعة في معرفة النبأ خصوصًا إن صدق حدسها بسوء القادم.

***

ارتكزت على طاولة المطبخ بكوعيها وعينيها تتابعان حركة حياه المتوترة أثناء إعدادها الشاي بالحليب للجميع بعد عشاء خفيف وإكمالًا لسهرة هادئة، تأملتها مستشعرة وجود أمر غير طبيعي بها، تحاول كبح شيء عن الطفو فوق سطحها الهادئ.

جلست أمامها متنهدة في إنتظار غليان الماء، رسمت ابتسامة طبيعية فاجأت سلمى بمدى براعة شبهها بالحقيقية، أوقفت استرسال الأخرى في الكلام بنظرة حادة، تنهدت حياه منكسة الرأس وبصوت متقطع قالت: مش عايزه أتكلم يا سلمى، لو فتحت وقولت اللي جوايا مش هأقدر أرجع أمثل تاني، والوقت مش مناسب لدا.

ربتت على كفها بتفهم صامت، نهضت حياه تصب الماء فوق خليط الشاي وتكمله بالحليب الدافئ، خرجت حاملة الصينية تتعقبها صديقتها في شفقة، على حال كلتيهما، فإن كانت تتصبر على شقائها بسعادة رفيقتها، فقد تبدد ذلك الليلة بجدارة.

***

وضعت ساقًا فوق الأخرى مسندة ظهرها إلى الخلف والضحكة تجلجل في أرجاء المكان، سعلت برقة بعدما أتعبها الضحك، نظرت في وجه محدثها سائلة بسخرية: بقى أنت خاطفني عشان تجوزني؟.. إيه الطيبة دي كلها!!

تحدث نوح بسخرية مماثلة: الدنيا لسه مليانه خير، مش زي ما بيقولوا.

تجاهلته محدقة في رئيسه، كما بدى، مقطبة الجبين: أعرفه؟

أجابها ببساطة: لا.

ازداد تغضن جبينها عمقًا وقد سألته بتوجس: هو يعرفني؟

-لا.

ارتفع حاجبيها بشدة ثم هبت واقفة في غضب وقد فقدت السيطرة المحكمة على أعصابها ونبرة كلامها، تكاد تنتف شعرها غيظًا وغضبًا: يعني خطفتوني وجبتوني هنا عشان تجوزوني لواحد لا أعرفه ولا يعرفني.. ومش بعيد أصلًا إن حكاية رجل الأعمال اللي المفروض أكون المضيفة على طايرته الخاصة حكاية متفبركة بردو.

علق نوح بهمهمة ساخرة: فهمتيها لوحدك؟

تابعت تجاهله كما كانت تفعل منذ بدء الحوار، حدقت في الرجل المتصابي بشعره المصبوغ تطلب تعليقًا على ما قالته، لبى نداء عيونها فقال بهدوء: دي فرصة ما تتعوضش لأي بنت، غني واسم معروف ومركز.. كمان سنه صغير.

عقدت ذراعيها: نسيت تقول أخلاقه.. بس صحيح أخلاق إيه اللي تبقى عند واحد بيتجوز بالخطف.

-أنتِ عايشه لوحدك، وظروفك المادية وحشة، محتاجه فلوس ومصاريف، مديونة وكمان وحيدة، يعني دي صفقة متكاملة هتلبي احتياجاتك زي احتياجاته، إن ما كانش أكتر.

أصفر وجهها، أربكها معرفته بكل حاجاتها، وأن ما أبداه أمامها الآن ليس سوى لمحة لما يعرفه عنها حقيقة، تدرك من لمعان عيونه معرفته بما بدأ يشاع عنها منذ عملها كمضيفة وسفرها الدائم والغير منتظم. ابتلعت ريقها بصعوبة، مع من أوقعت نفسها بالضبط؟!

تراجعت وجلست بينما ظهر على وجهها الرفض مهما كانت الدوافع، لم تلحظ نظرة الأمر التي صدرت من الرجل إلى نوح، اتجه بعدها إلى التليفون الأرضي ورفع سماعته، طلب رقمًا يبدو أن يحفظه عن ظهر قلب.

حدقت بأعين متسعة حين سمعت اسم: مدام صفية صاحيه؟.. طب ممكن أكلمها؟

شحب وجهها، غادره اللون بالكامل، استلمت الهاتف منه لتستمع إلى صوت صفية عبر الهاتف هامسًا بإجهاد: آلو، مين معايا؟

-أنا.. أنا يُسر يا ماما.

- يُسر؟.. يُسر مين؟

اعتصرت جفنيها تقاوم رغبة ملحة في البكاء، تفريغ إجهادها الذهني والعاطفي لكنها قاومت ذلك بصعوبة فيما تحاول رسم البسمة على شفاهها محاولة شرح مكانتها لدى السيدة على الخط الآخر التي زفرت بإجهاد وأعادت الهاتف للممرضة الواقفة جوارها. نابت عنها في الحديث وأغلقت الخط بعض توضيح سريع؛ إن حالة السيدة ليست على ما يرام حاليًا.

قال أخيرًا مبددًا سحابة الصمت التي حلّت فوقهم منذ دقائق لم تعدها: يظهر إن والدتك مش قادرة تفتكر إنك بنتها.. ولا أقدر أقول مرات أبوكِ؟

رفعت رأسها بحدة وعيونها تتقد شررًا، لكنه لم يبال وتابع: بقالك كذا شهر ما دفعتيش لدار المسنين اللي هي قاعدة فيها، وكمان محتاجه عملية فـ قلبها اللي ضعف زيادة.. دا غير إن صاحب العمارة وسكانها بيضغطوا عليكِ بأجرة زيادة ومصاريف مالهاش آخر لمجرد اعتقادهم إنك بتضري سمعتهم وسمعة العمارة؛ عشان عايشة لوحدك وماشية على حل شعرك.

ابتسم لمرأى أكتافها المتهدلة رغم تماسك ملامحها وراء قناعة من اللا مبالاة: كل دا هيتحل بكلمة منك، هتاخدي الحماية والمركز اللي تسد أجدعها بؤ بيلسن عليكِ ولو نص كلمة، هتلاقي كل النظرات الحاقدة عليكِ ومصمصة الشفايف لم تعدي من جنبهم اتحولت لابتسامات تتمنى رضاكِ.. مدام صفية هتعمل العملية وهتاخد عناية أحسن ومش بعيد تتنقل لأفخم من الدار اللي هي فيها.

أطرقت مفكرة وتركها تأخذ وقتها بينما يرتشف القهوة التي احضرتها الخادمة في سهو من يُسر الشاردة، كلماته أحيت ذكريات ونظرات تقاوم لنسيانها باستمرار، مسئوليات ألقيت على عاتقها منذ سنوات وقد تهدلت أكتافها من شدة الحمل.

قاطع تفكيرها بجملته حتى يعيد تفكيرها إلى الجهة التي يرغب: موافقة أو لا، بكل بساطة.

باغتته بعد ربع ساعة إضافية من الصمت بصوت متزن: موافقة.

اتسعت ابتسامته ونهض من مجلسه مهنئًا، تحرك ناحية الباب يلحقه البقية حين أوقفه سؤالها منخفض النبرات: بس ليه أنا؟

نظرة غامضة ألقاها من فوق كتفه قائلًا بهدوء شديد قبل أن يتابع تحركه مغادرًا: اعتبريها فرصة وطوق نجاة اترموا ليكِ.

***

جلس على القهوة بين أصدقائه القدامى، يلعبون أمامه الشطرنج وغيرها من الألعاب فيما يتجرع قهوته بذهن شارد، صار يمقت البيت وجدرانه، الغفران الكامل لخطأ لا ينبغي له النسيان، يحاول إدعاء العكس حين وجد غضب والده بدأ يتوجه إليه. قطب متذكرًا تباعد عائشة عنه، نظراتها الغامضة، انتظارها الذي يبدو بلا نهاية، تصبر نفسها علّه يأتي إليها ويبثها ما يعتمر بصدره.

لن يستطيع البوح، وهي لن تتفهم، يشعر أن قصته تكررت في حياه، تجسدت فيما مرت به وإن اختلفت بعض التفاصيل لكن النتيجة واحدة. أحقًا يعاقب حياه أم يعاقب نفسه؟!، دارت الأيام وذاق مرارة الكأس نفسها.

***

وقفا جنبًا إلى جنب على الكورنيش يتطلعان إلى مياه النيل المتلألأة بأضواء مساء القاهرة في إبهار متأنق، تمر سفينة تحمل مهللين بعرس أحدهم والأغاني تصدح، تزيد من إهتزاز السفينة، والضجة تصل إلى من يقف أعلى الكوبري المارر أسفله، فيصلهم صخب الفرح. تجاهل رامز صوت بائع حمص الشام، الذي يبعد عنهما خطوات تمنع أصواتهم عن الوصول إلى مسامعه، خاطب سيده مطمئنًا: كله ماشي تمام، البنت مضت إنهارده على موافقة العملية بتاعت مامتها، وديونها اتسددت، بقت فـ إيدينا.

-شوقي عرف آخرالمستجدات؟

ابتسم بخبث: عيب يا أحمد بيه، الخبر مش هيوصله غير بعد ما إمضة العروس تنور دفتر الجواز .

-كويس، لازم نتقي أي حاجه ممكن تعطل الشغل وتضيع مينا بوند عند ابن الإمبراطور.

غمزه رامز بفخر: البت حلوة وتدخل دماغ أي واحد، أكيد هتعجبه وهتكون سبب فـ مكانة خاصة لينا عنده.

فتاة في حاجة هي الحل الأمثل لوضعهم، يتقون بحاجتها شرور التمرد والمشاكل لاحقًا، فما زالت نقطة ضعفها مملوكة بين أصابعهم. يدفعون الآن برغبتهم، إتقاء لدفع لاحق رغم أنوفهم.

صمت كلاهما دقيقة كاملة قبل أن يسأل أحمد بصوت ملأه الغموض والتفكير: ما وصلتش لحاجه عنه؟، كان فين المدة دي كلها وظهر فجأة؟

هز كتفيه وانتظر حتى انصرف الصبي الذي سلمه كوبًا ساخنًا من الشاي قبل أن يصرح: اللي عرفته إنه كان فـ مصحة فـ إيطاليا، خرج منها بعد موت الإمبراطور بحوالي أربع شهور ورجع يمسك مكان أبوه بنفس القوة والسيطرة.

ارتشف بعضًا من شايه ثم أكمل: بيقولوا إنه أصعب من أبوه بكتير، غالبًا الفترة اللي قضاها فـ المصحة يتعالج من الإدمان أثرت فيه.

-ولسه مدمن ولا..

-امتنع تمامًا عن تعاطي أي حاجه، حتى الخمرة مش بتلمس كوباية بيشرب منها، بالنسبة له بقى بزنس وبس.

-إيه اللي خلاه ينزل مصر من تاني؟

-حصلت مشكلة فـ شحنة جات على هنا ونزل يخلص الموضوع بعد ما شك إن في خونة فـ العملية وقدر يوصلهم فعلًا وزمانهم شايفين الويل أو استلمهم عزرائيل.

التوت شفتي أحمد: بس خليك وراه، ما تدهوش الأمان أبدًا، لازم نوصل لنقطة ضعفه ونعرف ناخد مكانتنا عنده بشكل مناسب، مش هنفضل طرف تالت فـ العمليات اللي بينا وبينه، لازم تعاملنا يبقى مباشر معاه بدون وسيط.. وبدون شوقي.

أومأ رامز بطاعة فيما اشترى أحمد كوبًا من حمص الشام ثم عاد يقف بجوار ذراعه الأيمن كل منهما يتناول ما بيده في شرود، والهواء يعصف بسترات بذلاتهما.

***

زفرت للمرة التي لا تدرك ترتيبها، عيونها تحدق في إنعكاس وجهها بالمرأة دون أن ترى حقيقة ما يطالعها، جهود مصففة الشعر ومساعدتها التي زينت وجهها بخفة مظهرة جمال عيونها السوداء النادرة، وفمها المزموم في حنق جذاب، ارتفع

شعرها في كومة رغم أنها تبدو مبعثرة مشتتة الخصلات إلا أنها استغرقت ما يقرب الساعة والنصف، تهدلت منها خصلتان أمام أذنيها تلمس أطرافهما كتفها المغطى بقماش الثوب الأبيض.

أنهضتها العاملة تتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ثوب قصير لا يصل إلى ركبتيها، أطرافه السفلى محاطة بدانتيل أبيض، مبطن بعدة طبقات مما جعله منشيًا في أناقة، نصفه العلوي مطرز باللؤلؤ الأبيض فوفر عليها عناء البحث عن عقد مناسب، أحاط خصرها حزام من الستان الناعم ضمن تصميم الفستان ملتصقًا بقماشه، لا تستطيع إنكار جمال الثوب وأناقته، هدية أخرى من السيد رامز.

عادت تجلس لتهتم المرأة بوضع طوق من اللآلى فوق رأسها تنهي زينتها بشكل كامل، حالما ثبت الطوق مكانه ارتفع صوت طرقات هادئة على باب الغرفة، دخل رامز وعيونه تتأملها برضا، رضا أثار حنقها، لعبة أتمت زينتها وستفي غرضها عما قريب.

أخرج الهاتف من جيب سترته الداخلي وقال بصوت تأكد من وصوله إلى أذنيها:
إيه أخبار مدام صفية يا دكتور؟

انسحبت المرأتين إلى الخارج وفتح هو مكبر الصوت ليصل أذانها تصريح الطبيب عن حال والدتها المستقرة رغم صعوبة العملية وضعف المرأة، لكنه يستبشر خيرًا وعلاماتها الحيوية تنبئ بقوة أكثر مما يبدو.

زفرت بارتياح فيما أغلق المكبر وهمس بكلمات الشكر وغيرها من المجاملات إلى الطبيب فيما عيونه لم تتحرك من فوق إنعكاسها في المرآة، انتبه لها بكامل وعيه فور إخفائه الهاتف في ثنايا سترته: جزئي من الإتفاق إنتهى، مدام صفية عمليتها تمت وديونك اتسددت، مش فاضل غير جزئك أنتِ.. أتمنى تكوني مستعدة لتنفيذه.

زفرت دافعة آخر ذرات اعتراضها ورغبتها في الهرب بعيدًا، وصلها تهديده المبطن بأن كل ما جرى قد ينقلب من جديد وبشكل أسوء أيضًا، إن تخاذلت عن التنفيذ، أومأت بأعين لامعة ورأس شامخ: مستعدة.

***

جلست جانبه في المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس بنز السوداء، يتناقض لون ما ترتديه مع ما يلبسه من سواد في سواد، كزت على أسنانها في غيظ، ملامحه جامدة، لا ابتسامة ولا نظرة فيها إهتمام أو إعجاب و جهها إليها، كل ما حدث نظرة تقيمية شملتها من فوقها إلى أطراف حذائها مرتفع الكعبين مخفيًا أصابعها التي تكاد تلتف فوق بعضها من التوتر.

رأته لأول مرة في حضور المأذون، قبلت به مهما كان شكله، أو سنه، لكن فاجأتها هيئته، تكون كاذبة إن وصفته بالوسامة، هو أنيق، يهتم بمظهره، ملامحه جذابة للقوة الطاغية البارزة منها، واسمرار بشرته أرشدها إلى استمرار تعرضه للشمس. قطبت، يا ترى ما مهنته؟

عيونه حادة لا تعرف الإتساع.. قاموسها لا يدرك إلا الضيق أو التهدل في استرخاء، أنفه به شيء من الإعوجاج، وفمه خط غليظ. استشفت من مظهره أنه لا يعرف الكلمات المنمقة أو العاطفية، يكتفي بالسب واللعن وإلقاء الأوامر كما فعل منذ رأته.

تم كل شيء في تلاحق، وقعت مغيبة في دفتر الزواج، همهمت بكلمة القبول قبلها، وقف بعدها وبلا وعي وقفت مثله، أكد لرامز دون أن ينظر إليه موعدهما في الغد رافضًا الإحتفاء بالمناسبة السعيدة ولو بشربة شربات ملون.

تحرك فسارت خلفه بعدما التقطت معطف فرو بلون ثوبها من نوح، ارتدته دون تدقيق في هوية جالبه أو لماذا أحضره.

ومنذ صعدت إلى السيارة وهي تغرق في صمت الشفاه لكن يتلقفها صخب أفكارها وذكريات اليومين الماضيين في سرعة، عضت شفتيها اللامعة محتارة، ألا يشعر بالفضول نحوها كي

يكتفي بمطالعة الطريق من النافذة؟؟، حتى أن هناك مسافة لا بأس بها تفصل بينهما، كادت تحطم أسنانها من فرط الغيظ، كرامتها كأنثى أصبحت في الحضيض.

كادت تشهق بصوت مسموع لكنها استطاعت لجم نفسها، اقتربوا من بوابة منزل أشبه بالقلاع، سبٌ له أن تسمى بفيلا، وعصريته لا تناسب لقب قلعة، لم تر مثله ولن تفعل أبدًا، أيعقل أن إقامتها ستكون في هذا الصرح الضخم؟

ترجلت على مهل بعدما فتح لها السائق الباب، تتطلع حولها برهبة، الأسوار العالية تعلن صعوبة هروبها من هذا السجن، تتبعت خطوات زوجها في هدوء وتماسك سطحيين بينما دواخلها تعصف رافضة وضعها الجديد.

تسمرت مكانها تحدق في وجوه العاملين بزيهم الرسمي المتشابه، عرفها زوجها بهم واحدًا تلو الآخر على الترتيب، طباخ وثلاث خادمات وإثنين من الرجال، أومأت لهم برأسها دون أن تسطيع رسم البسمة على شفتيها، اقتربت إحدى الخادمات تعاونها في نزع الفراء الذي جعل جسدها يتصبب عرقًا؛ فهذا ليس فصل ارتدائه.

أخبره أكبر العاملين سنًا برزانة شديدة عن إتصال قد أتاه بينما هو في الخارج، أومأ ثم قال للجميع بأنه سينعزل في مكتبه لفترة ولا يرغب بأي إزعاج، فغرت فاهها في دهشة لكنها لم تملك سوى إتباع أوامره للخادمة حتى ترافقها إلى غرفتها.

تركها خلفه ودخل من باب أسفل الدرج يبدو أنه يضفي إلى حجرة المكتب كما أشار إلى مكان ذهابه، صعدت الدرج خلف الخادمة الصامتة دون رغبة في استطلاع ما حولها، تتبعها كأسيرة تساق إلى مكان حبسها.. لا زوجة في ليلة عرسها.

***

تقوقعت على طرف الفراش، تدعي الغرق في النوم، تعتصر عينيها متوسلة عقلها كي يأخذ هدنة ويريحها من مرارة التفكير، كم مر من الوقت دون نوم؟، بالكاد تختطف سويعات قليلة قبل الاستيقاظ صباحًا، مسرعة في رسم ابتسامة بلهاء تؤدي دور الزوجة السعيدة فيما قلبها يطعن بسكين ثلمة، تدمي فؤادها على مدار اليوم.

تتغافل ويتغافل، يرسمون الابتسامة ويتجاهلون الجزء المنغص عليهم معيشتهم، تعلم أنهما لن يستطيعا الصمود على هذا الحال طويلًا، سينفجران ولن يحدث تراجع وقتها، فرت دمعة ضعيفة من بين خفنيها المعتصرين، الفراق آت لا محالة وهذا ما يجعلها تتشبث بفتات ما تأخذه منه ولو من خلف قناع النسيان والتغاضي.

نظرت إليه من فوق كتفيها وظهره يقابلها، لا تقدر على تقبل فكرة بعدها عنه، ألا تحيطها أنفاسه أو تشعر بجسده في حيز المكان حولها، فكرت في المصارحة لكن خافت استعجال شرًلا بدى منه.

لم تشعر بانقلابه على جانبه الآخر حتى لفحت أنفاسه مؤخرة رأسها المغطاة بخصلات شعرها الثائرة، أحاطها بذراعه فوجدت نفسها لا شعوريًا تحدق في قبضة يده قبل أن تقبلها بشفتيها الملوثتان ببقايا الدموع الهاربة رغمًا عنها، شعر بالبلل الذي أصاب يده فخمن مصدره، شدّ احتضانه حتى التصق ظهرها بصدره، قبل أسفل أذنها ثم أغمض كل منهما عينيه واستسلما للنوم بعد طول سهاد.

***

فتح باب الغرفة بعدما تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل، كان دخوله هادئًا فلم يستطع لفت انتباهها أو جعل نظراتها تشرد بعيدًا عن سماء الليل المظلمة البائنة من النافذة المغلقة، وقف يراقب ظهرها، ما تزال بنفس الثوب، تنتصب قامتها فوق كعب

عال زادها طولًا، ثباتها لم يتزحزح منذ رأها، تنثارت عدة خصلات ثائرة على أسرها في كومة واحدة لكن هذا هو كل ما تغير فيها خلال الساعات الماضية.

كأنها شعرت بنظراته المصوبة نحوها فاستدارت تجابه نظراته المتمحصة بأخرى شبيهة، تركته يتفرس في ملامحها دون أن تمنعه، له كل الحق بعدما تجاهلها منذ تقابلا وقت عقد القران.

شعر أسود غزير وطويل، حاجبين مرسومين بدقة لا مثيل لها مع تأكده بأن هذه طبيعتهما دون تدخل منها، عيون احتار في لونها، كيف تكون سوداء في منافسة شعرها؟، وجه طويل بلا نفور ينتهي بمشروع طابع حسن لم يكتمل، أنفها مستقيم شامخ يثبت قوة صاحبته وعنفوانها،

ورغم ذلك ما تزال عيونها ما تأسره، خصوصًا بتلك النظرات المجابهة الند بالند، تدعي عبرها أنها تصلح أن تكون ند له.. بل وأشد ضراوة عليه من أعدائه.

يعترف أنها جميلة كحورية مرسلة إليه، امتلأت نفسه بالسخرية، فيبدو أنهم أجادوا الإختيار فقط لنيل رضاه وهو لا يستطيع إنكار ذلك، السيد أحمد ومعاونه رامز الملتزم بالوعد الذي قطعه على نفسه قبل أيام يستحقون الجائزة التي يخبئها لهما.

حالما أوشكت على كسر الصمت الممتد بينهما انفتح الباب عقب طرقة بسيطة دلفت بعده إحدى الخادمات، والمختلفة عن تلك التي رافقتها لغرفتها. راقبتها بأعين صقرية، تخرج منامة حريرية بلون الدماء وتضعها على طرف الفراش قبل أن تعود إلى ضلفة أخرى فتسحب قميص نوم أبيض شاحب مرفقًا مع مآزره، تتركهما جوار المنامة الدموية.

استفسرت من سيدها عن أي خدمة قبل خلودها إلى النوم، هز رأسه مكتفيًا بذلك كإجابة، فور إغلاق الباب تقدم من الفراش يسحب المنامة، وضع علبة متوسطة

الحجم تبدو كعلب الهدايا برسومات القلوب المنتشرة فوق غلافها، حدقت فيها باهتمام ثم عادت تتابع توجهه إلى باب الحمام مغلقًا إياه خلفه بهدوء حسدته عليه.

لم تتحرك من وقفتها واكتفت بالنظر إلى الفراش المغطى بغطاء داكن يتنافر مع الملاءة البيضاء أسفله، زفرت بحنق متضايقة من كآبة الحجرة بألوانها الباعثة في النفس أعلى درجات النفور والإكتئاب. كأنها تحتاج إلى ما يزيد قرفها ونزقها؟!!

خرج بعدما بدل ملابسه، نظرت إليه بتوجس وهي ترى خطواته المتمهلة تتجه نحوها، تراجعت دون أن تدري إلى الخلف حتى أوقفتها النافذة المغلقة كأنها تخبرها بعدم جدوى الهروب وأنه لا مفر مما هو آت.

لصدمتها تجاوزها إلى الطرُف المجاور لها من الفراش، رفع الغطاء واندس في السرير بكل هدوء، سمعته يتمتم موجهًا حديثه إليها لأول مرة فيما عينيه تم إغلاقهما استعدادًا للنوم: روحي غيري هدومك ونامي، اليوم كان طويل ومتعب بما فيه الكفايه.

ظلت على وقفتها المتسمرة دقائق، تحدق في وجهه بغباء، ثم أخيرًا انتزعت ملابسها من فوق الفراش، أسفل قدميه، واتجهت إلى الحمام.

رنت إلى المرآة ويديها تستندان على حافة الحوض، لا تفهم ما يجرى، من هذا الشخص، لِمَ تزوج بتلك الطريقة؟، لِمَ هي بالذات؟، ما هذه المعاملة التي يوليها إياها؟

نظرات إلى الباب الموصد عليها، لا تنكر أنها كرهته وكرهت طريقة زواجها منه، كانت تستعد لرفضه وإظهار مقتها في وجهه، أن تصفعه وتدمي رجولته برفضها لأي محاولات تقرب أو تلمس لرضاها. لقد أمضت الساعات الماضية تتفنن في رسم الخطط المختلفة لرفضه، تنتقي أشدها إيذاء لعنفوانه وأكثرها دعسًا فوق كرامته، لكن ما فعله قلب الآية لتصبح هي مهدرة الكبرياء وموؤدة الأنوثة.

ضربت بقبضتها فوق الحوض بشدة آلمتها لكنها لم تبال، غيظها اشتد، من هو ليعبث بكرامتها ونظرتها إلى نفسها كأنثى كاملة، التمعت عيونها بنظرة غامضة، ثم انتصبت تفك أسر شعرها الصارخ منذ فترة يطلب الحرية، بعثرته فوق ظهرها بنعومته الإنسيابية وسواده الحالك الذي ناقض بياض قميص نومها الحريري، شديد القصر.

تأكدت أنها أصبحت في كامل أناقتها بعدما رشت بعضًا من العطر المفضل لديها والذي لا تعلم متى وضع جوار عطره فوق الحوض؟، زفرت تستجمع قواها قبل أن تواجهه.

خطت خارج الحمام بتوأدة، حدقت في ظهره الموجه إليها، ترددت في التقدم رغم قصر المسافة بين باب الحمام وطرفها من الفراش، ضوء خافت من أحد زوايا الغرفة هو كل ما يكسر ظلامها.

راقبته برهة دون أن تلتمس أي تغير في جسده دليلًا على نومه، زفرت بحدة ثم نزعت روبها بحنق وألقته أرضًا من فرط غيظها، توسدت ذراعيها ونامت على الطرف النائي من الفراش تبتعد عنه قدر الإمكان ولعجبها غرقت في النوم سريعًا.

التفت ناحيته ببطء واعتدل جالسًا ورأسه يستند إلى خلفية السرير بعدما رفع الوسادة خلفه، تأمل جانب وجهها الساكن وشعرها المبعثر فوق الوسادة مبرزًا بياضها، لمسه بأطراف أصابعه مغرمًا بطوله ودكانة لونه.

زفر بحدة حينما لمح إطلالة ساقيها من أسفل الغطاء، متناسقة وعارية نتيجة قصر القميص، جذب الغطاء فوقها يكبح جماح رجولته أمام إغراء أنوثتها. تمدد من جديد ساحبًا الغطاء فوقه ودفن نفسه بين ثناياه محاولًا دفع طيفها عن أحلامه.

***

تسللت حافية القدمين بعدما وضعت خمار الصلاة فوق رأسها كاسيًا ما بدى من قميص نومها القطني الملامس لكاحليها، تلفتت حولها وتمهلت في سيرها، لا ترغب في إزعاج أحد أو التسبب في قلق.

دلفت إلى المطبخ متنهدة براحة بينما تفتح الثلاجة وتخرج دورق عصير الكرز وصبت منه في كوب طويل ورفيع ثم عادت تقطع من كعكة الجبن التي أعدتها عنبر في وقت سابق، جلست تلتهم الحلو وترتشف العصير في استمتاع وتلذذ، لقد قض مضجعها إشتهاء هذه الحلوى وجفاف ريقها.

أغمضت عينيها تستمتع بالمذاق الحلو واللاذع في نفس وقت فوق حليمات لسانها، اتسع فمها في شهقة لما اخترق ضوء المطبخ المنير خفونها بغتة، تنهدت الصعداء عندما رأت زوجها يقف على عتبة الباب بقميصه القطني وسرواله الرمادي، وللعجب كان حافيًا مثلها.

لم يعقب ولم يسأل، جلس جوارها في صمت يتابعها. تجاهلته بدورها مكملة استمتاعها بما تتناول، رفعت شوكتها المعبأة بالحلوى وقربتها من فمه تسأله بصمت وقد هزت حاجبيها صعودًا وهبوطًا متساءلة إن كان يرغب في مشاركتها تناول حلواها بينما فمها ما زال يلوك كمية ما، فتح فمه يحثها على إطعامه، ففعلت، ظلت تأخذ مرة وتعطيه أخرى لكن لم تتنازل عن أخذ مرتين أو ثلاثة على التوالي قبل أن تتذكره من جديد.

لم يكن يشعر بالجوع لكن عاب على نفسه إخجالها ثم بدأ يستمتع بالأمر، وحواجبه ترتفع في مرح حينما تتابع الأكل دون أن تناوله البعض. كانت حركة بسيطة لكنها أشعرته بالقرب منها ومن ابنتهما، سلمى تجعل أقل الأمور المشتركة بينهما سببًا في ارتفاع نصيبه من السعادة لدرجة لم يتصورها.

****

استيقظت على صوت حركة خفيفة في الغرفة، نظرت حولها تستوعب المكان الذي تراه للمرة الأولى، زفرت ثم سحبت نفسها لتجلس بينما تحدق في جانب زوجها، عاصم -كما سمعت الخادمة تناديه في الأمس-، عقدت ذراعيها كما حاجبيها.

أنهى ضبط رابطة عنقه وأعاد تنظيم سترته بعدما ارتداها ثم توجه إلى العلبة التي أحضرها في الأمس، انتبهت أكثر وقد ضاقت عيونها فيما يخرج علبة تستخدم في حفظ المجوهرات الثمينة كما تبدو العلبة نفسها ثمينة. أعجبتها الرسومات وألوانها المتفاوتة في الدرجات البنية، ترك العلبة جانبًا ثم أخرج زجاجة صغيرة، طولها لا يتجاوز أطول أصابعها.

اقترب منها فبدأت تتوجس مستشعرة الخوف، نزع الغطاء من فوقها ورماه أرضًا، فتراجعت تضم ساقيها إلى صدرها، وعيونها لا تفارقه، حدق في عيونها بشدة بينما يسكب محتوى الزجاجة في منتصف الفراش.

تراجع بعدما أتم مهمته مغلقًا الزجاجة من جديد ويضعها في جيب سترته، ظلت محدقة في البقعة الحمراء بفزع، تشبه الدماء إلى حدٍ كبير.

***

ارتدت مآزرها وجلست فوق أحد المقعدين المقابلين للنافذة بعدما فتحت الستائر سامحة لأشعة الشمس البراقة باختراق الزجاج الشفاف والتسلل إلى بشرتها المشتاقة للدفء. دفء خسرته مع انهيار عائلتها منذ سنوات، بدأت معاناتها في وقت مبكر جدًا عن أغلب أقرانها، قضت الأم نحبها حين كانت ابنة العاشرة، فقدت الحضن الآمن والبسمة الحانية، تربيتة الدعم فوق خصلات شعرها السوداء التي ورثتها عنها.

أبوها دائم السفر، يأتي عدة أيام في الشهر ثم يعاود الرحيل، تزوج لأجلها؛ حتى يضمن بقاء امرأة معها في المنزل، ترعاها في غيابه وتعوضها -ولو النذر اليسير-

مما كانت أمها تقدمه، لم يجد أفضل من جارته، من اهتمت بوالدتها قبل الوفاة والتي رافقتها أيام العزاء تشد أزرها. زواج استغربته في البداية، رغم صغر سنها إلا أن عقلها كان سابقًا له بسنوات، كذلك الأحاديث الدائرة في المنطقة وعلى ألسنة حارس العمارة وزوجته، لِمَ تقبل فتاة لم يسبق لها الزواج بهذه الزيجة لتربي ابنة غيرها؟

يُسر لم تسأل أو تستفسر، لكنها توصلت للإجابة بعد سنوات؛ الحب يجعلك تقبل بأي وضع، لا تهتم لحديث أحد، تبحث عن سعادتك في القرب ممن تحب بأي طريقة وبأية صفة، أحبت ابنته لأنها منه، راعت زوجته كذلك.. لأنها له..

عندما تستغرق في التفكير الآن تستغرب طيبة زوجة أبيها، نقاء قلبها وصفاء روحها، لم تحاول التقرب من والدها اكتفت برؤيته حين يعود كل شهر، ترعاه وتهتم به كأنها خادمة لا أكثر.

تعرف يقينًا أنه لم يعاشرها كالأزواج، لم يختل بها يومًا، فقط يتسامر معها إلى الفجر ثم يتركها للصلاة في المسجد فيعود لينام مستيقظًا وقت ذهابها للمدرسة؛ لكي يودعها ويتمنى لها التوفيق ويؤكد لها وجوده في انتظارها.

صبرت زوجة أبيها، صفية، طويلًا بلا سأم، لم تحاول انتزاع ذكرى أمها من رأسه أو الحلول محلها لكن بمرور السنين تربعت فوق قلبه بجدارة. ابتسمت مرغمة للذكرى بل تكاد تقسم أنه أحبها في خمسينات عمره كما لم يحب بمراهقته. سعدت للاستقرار الذي شاب حياتها والذي لم يدم طويلًا؛ فقد جاءهم خبر أزمة حادة أصابت قلب والدها الواهن بعدما تم إتهامه باختلاس أموال الشركة التي أخلص لها سنوات عمره المهنية كلها.

لم يستطع تحمل فكرة ذبح أمانته، والدعس فوق كرامته، لم يكن فقيرًا محتاجًا كما لم يكن فاحش الثراء. تذكرت بابتسامة ساخرة غمرت وجهها في مرارة حاقدة..

حين جاء رئيس الشركة بنفسه يطلب من صفية المغفرة والسماح، لقد تأكدوا من أمانة والدها بعدما قتلوه ـبثلاثة عشر ليلةـ بإتهامهم الزور.

صرخت فيهم وقتها بعدما سقط رأس صفية بتسامح؛ فلم يكن باليد حيلة، صاحت بهم تطالبهم بإعادته للحياة كما تسببوا في موته، أن يصل إلى أسماعه تبرأته من جريمة لم يفعلها. ظلت تصرخ وتصرخ حتى أفرغت الألم الممزق لصدرها، وقفت بجديلتيها المتوسدتين أكتافها بينما ملابس الحداد تغمرها بأكملها فيما نظرة تعفف عن ندمهم تلمع داخل مقلاتيها: لما تتأكدوا أنه سامحكوا.. وقتها بس أقدر أسامحكوا على إنكم كنتوا سبب يُتمي.

استدارت إلى غرفتها، تمشي ببطء متمهل والدموع تغرق وجهها، تبكي والدها الأمين، وسوء الظن القاتل لأرواح الأوفياء أمثاله، تبكي يتمها المبكر، تبكي قلة حيلتها في معاقبة من أتهم والدها زورًا.

أسرعت تمسح دمعة هطلت فوق وجنتها اليسرى، ابتلعت ريقها متمتمة بإذن خافت للطارق على باب غرفتها، دخلت الخادمة تحمل صينية الإفطار وتقدمت تضعها على الطاولة الصغيرة المنتصبة بين المقعدين، بدأت الخادمة تصب الشاي الساخن في الفنجان بينما عيونها تنظر بتسلل إلى الفراش المبعثر.

استدركت نفسها في الوقت المناسب بحرفية قبل أن يغرق الفنجان في الشاي الزائد، لكنها لم تكن بالسرعة التي تفوت على يُسر، حدجتها بقسوة وعينيها تطلقان شررًا دفع الخادمة لتعتذر مغادرة بعدما أنبأتها بذهاب زوجها عاصم إلى عمله.

كزت يُسر على أسنانها، الآن علمت سر سكب السائل الأحمر فوق السرير، ليس إرعابها كما فكرت، بل يبدو أنه لا يرغب لمن في المنزل أن يعرفوا حقيقة العلاقة بينهما. تناولت إفطارها مفكرة إنها ليست بالغباء لتنتقم من نفسها بالحرمان من

الطعام، بل تأكل وتشد قوتها لتستطيع المجابهة والوقوف في وجه القادم الغير معروف.

***

جلست بأناقتها المعتادة خلف مكتبها الفخم، تطالع وجه ضيفها الزائر بلا نظرات خاصة، تستمع إلى حديثه باهتمام بينما الآخر يرتشف بين عدة جمل القليل من شايه الذي يتمنى عدم انتهائه أبدًا.

تدرك ناهد بفطنتها أن الحديث الذي يزبد فيه ما هو إلا واجهة واهية لما يخفيه داخله، تدرك إعجابه بها لكنها تدعي الغباء، لن تباشر الخطوة الأولى مهما زاد سنها، عليه التحلي بالشجاعة الكافية لبدء الكلام. هذا لا يعني القبول ولكنها لن تفكر إلا بعدما يسعى خلفها علنًا.

قال صلاح بأعين لامعة بالصدق في خوفه على وضعهم: الأزمة لسه ما اتحلتش مش كدا؟

هزت كتفيها مدعية اللا مبالاة: الخطة المالية اللي سلمى حطتها بتتنفذ حاليًا.. فترة وتخلص الأزمة.

نبهها بحذر رجل أعمال محنك: بس ما تثقوش بشكل كامل، خلوا في خطة إحتياطية أو حل بديل لأي غلطة ممكن تحصل.

-ما تقلقش يا صلاح بيه، إحنا من سنين فـ السوق وهنفضل فيه.

التفت صلاح باسمًا بتفهم إلى ياسين الدالف: أكيد، أصلًا السوق ما يتوزنش غير بوجودكم.

أومأ ياسين بابتسامة متكلفة قبل أن يوجه نظراته وكلامه إلى ناهد: رايح مع سلمى عند الدكتور، لو احتجتِ حاجه كلميني، ممكن اتأخر فـ الرجوع شوية.

ابتسمت تطمأنه: خلي بالك من مراتك وبنتك وما تشيلش هم الشغل.

انصرف مودعًا، عاد صلاح إلى ناهد مبتسمًا ببشر: هو جنس الجنين اتحدد؟

اتسعت ابتسامتها الحالمة بفخر: من أول ما عرفنا إن سلمى حامل، هي وياسين مصممين إنها بنت.. بس لسه كمان شهر أو إتنين عقبال ما الدكتور تحدد.

لمعت عيونه: اللي يشوف فرحتك بيهم يفتكر إن ياسين ابنك مش أخوكِ.

استرخت ملامحها في حنان: ياسين فعلًا ابني اللي قضيت عمري اهتم بيه وارعاه.

-ليه ما إتجوزتيش لحد دلوقتي يا ناهد؟.. أنتِ إنسانه ناجحة و.. جميلة.

حدقت في وجهه لحظات تتأمل جدية سؤاله قبل أن تجيب بلا إهتمام: يمكن عشان كدا ما اتجوزتش.

أدركت التساؤل الدائر في عقله فأجابت ببساطة: كنت مخطوبة مرة لكن ما استحملش إني شايله مسئوليات.. أخين صغيرين وشركة بأحاول أحافظ عليها، فيها ريحة أهلي وتعبهم، كان عايزني لوحدي.

أضافت بسخرية: أو بمعنى أصح الفلوس وأنا، أرمي الباقي كله ورايا وأمشي وراه هو، فـ الآخر ريحت دماغي وركزت على اللي فـ إيدي، أحافظ عليه من غير زيادة.

انغمس في تأملها وهي لم تعترض، فكر في شخصيتها كامرأة عجيبة؛ شديدة وقوية من الخارج، تقاتل من أجل أخويها وذكر والديها كلبوة شرسة تحمي العرين في غياب ليثه، يعلم بقرون استشعاره أنها عاطفية وشديدة الحساسية من الداخل لكنها لم تسمح لنفسها بإظهار ذلك، فكيف لعمود الأسرة أن يكون لينًا طائعًا؟

***

فتحت الخزانة المقابلة للفراش، تطالع الأزياء المتنوعة المرصوصة فيها، نصفها من الخزانة يعج بملابس جديدة مازالت الماركة معلقة في أطرافها، تنهدت متذكرة قميص النوم الذي ترتديه، هو نفسه لم يكن ضمن ملابسها يومًا.

لقد أحضر لها جهازًا متكاملًا، يبدو كتعويض عن العجلة الشديدة في إتمام إجراءات الزواج، سحبت بنطالًا من الجينز وقميصًا قطنيًا بأنصاف أكمام، رفعت شعرها كذيل حصان وهبطت للأسفل متجهة إلى الحديقة ترغب في تنشق الهواء العليل الذي تسرب بعضه عبر النافذة.

دارت مدركة الأعين التابعة لحركاتها متوجسة من محاولتها تولية الأدبار، لم تهتم بهم كأنها في هذا العالم الأخضر والملون بمفردها، وحين أدركوا عدم رغبتها في غير التنزه تركوها بمراقبة أقل صرامة، تمخطرت في أركان الحديقة الواسعة، مساحتها أربعة أضعاف مساحة المنزل نفسه، تمددت أسفل شجرة وارفة تتوسد كفيها وتحدق في الطيور المحلقة على مسافة شديدة البعد درجة ظهورهم كخطوط صغيرة كما كانت ترسمهم في صغرها.

فكرت في حالها، زوجة رجل عصابات كما تظن؛ فلا يتزوج بهذه الطريقة رجل عاقل وعادي، بل رجل مهووس بالسلطة والتحكم، والشعور بالتفوق، لكن لِمَ تزوجها من الأساس؟ و لِمَ لمْ يحاول التقرب منها البارحة؟

ضحكت بثقل ساخرة، عندما كانت تحلم في صغرها بزوجها المختبئ عنها في المستقبل كانت تظنه طبيبًا، مهندسًا، أو حتى موظفًا، لكن أن يكون رجل خارج عن القانون، زعيمًا لعصابة ما.. لا تعرف نشاطها فهو ما لم يأت على بالها يومًا.

تنهدت مفكرة في زوجة أبيها، لقد تدهور حالها بعد موت والدها يومًا وراء الآخر، حتى وصلت الذروة بعد موته بشهرين؛ لتستيقظ صباحًا على صراخها المتواصل، حدقت فيها بنعاس ما زال يشوب نظراتها مستفسرة عن سر الأصوات العالية،

نهضت من جوارها بعدما اعتادتا على النوم متجاورتين -كما في الفترة التي تلت موت أمها-.

-أنتِ مين؟؟.. وبتعملي إيه جنبي؟.. أنا فين؟

وظلت هستيريتها فترة، ساعة أو ساعتين، قبل أن تعود للتذكر أنها ابنة زوجها المتوفي، لكنها نسيت وفاته. تنهدت يُسر براحة بعدما مرت الزوبعة الصغيرة، لكنها لم تدرك أن الزوبعة ستتحول بمرور الأيام إلى عاصفة شبيهة بتسونامي تجرف بقايا ما تملكه في الحياة من إحساس بالأمان والاستقرار.

تأخر معاش والدها، أصبحوا يأخذونه شهرًا وآخر لا، مصاريف مدرستها والطعام، العلاج والصيانة الشهرية لملحقات العمارة وأجرة الحارس. صارت تجلس ليلًا بعدما تنام صفية فوق طاولة السفرة، تحضر دفترها وتبدأ في حساب ما معهم من مال وما سيصرف به. لقد مر موظف شركة الكهرباء ليحصل فاتورة الشهر الفائت..

انتفضت على شبح حجب عنها الضوء الخافت المطل فوق ورقة الحساب، رفعت رأسها ورأت صفية تحدق وعدم القدرة في التعرف عليها تلوح بالأفق، حفظت تلك النظرة التي تتكرر بشكل يومي، بل وتصل أحيانًا لعدة مرات باليوم الواحد.

تنهدت ورسمت ابتسامة، تحاول بث الطمأنينة في نفس المرأة الأخرى، طفلة بالكاد تقترب من عمر الرابعة عشر تحاول زرع الإطمئنان في ذات الثلاثين بدل أن تتلقاه، لكن الأخرى زاد توجسها وبدأت تصيح وتسألها عن هويتها وماذا تفعل في منزلها؟!، اشتدت هستيريتها، ويُسر تبكي وتنكمش، تضم ركبتيها على صدرها تخفي وجهها فيهما، لقد تعبت، لم تكن تستطيع التحمل أكثر، مثلت الصمود والقوة حتى تصدعت روحها. من أين تبدأ حل المشاكل؟، من مصدر المال؟.. من حال صفية؟.. من الديون التي ينبغي سرعة سدادها؟.. من دراستها التي أوشكت على

البدء وعليها الإنتظام لتحصل على المجموع المرغوب فتدخل ما رغبته من مجال دراسي.

بعد فترة عادت صفية لوعيها، تذكرت كل شيء، ورأت حال يُسر وما سببته لها من سوء، انكمشت وابتعدت دون أن تتطلع في وجهها، الخجل ملأها بالتراجع وسيطر عليها الإنهزام.

عملت في محل ملابس، تتحمل الساعات الطوال من الوقوف في مقابل مبلغ يدعمها إلى جوار معاش أبيها ويكون معيلها الوحيد في أشهر أخرى، داومت في المدرسة رغمًا عنها بلا إنتظام، رافقت زوجة أبيها في أحد حالات استقرارها إلى طبيب نفسي ليعلم ما بها، نصح بأدوية ما وضرورة إدخالها مصحة للعلاج.

اكتفوا بالدواء لكن بمرور الوقت ازدادت الحالة سوء وتوقفت صفية عن تناول الدواء دون إخبار يُسر؛ مفكرة في توفير سعر دواء لمرض ليس عضويًا، شعورًا بالضآلة أمام الصغيرة التي ترعاها كأن الأحوال انقلبت، ألا يجب عليها هي العمل بينما الصغيرة تتفرغ للدراسة؟

قل ذهاب يُسر إلى المدرسة، عملت في عمل إضافي؛ توفر المزيد من المال لعلاج صفية، قلبها ينزف كلما رأتها كطفلة تائهة مشردة، لا تعرف من أين أتت وإلى أين تذهب، حبها لوالدها وفقدانها له كان سببًا في حالتها تلك. شعرت بالمسؤولية رغمًا عنها؛ فهو بالنهاية والدها من كان سببًا في مرضها النفسي.

رفض الجيران مساعدتها، طلبت من إحدى الجارات المتفرغات رعاية صفية أثناء غيابها، لكن موقفها كان كما الجميع. زوجة الحارس فقط من قبلت مقابل مبلغ زهيد، لم يكن بيدها حيلة وهي ترى حالة زوجة أبيها تتدهور ولا تقدر على تركها وحيدة أثناء غيابها في العمل طوال اليوم، استغنت عن المبلغ الصغير الذي هي في أشد احتياج له.

-مش مضايقك الحر؟

فتحت عينيها على مهل، صعدت نظراتها رويدًا فوق الجسد الرجولي المنتصب بجوارها، بنطال وسترة من نفس اللون بينما القميص أسفلهما حلّت أزراره الثلاثة الأولى مظهرة قطرات العرق العالقة بعنقه، نظاراته الشمسية أخفت عنها قراءة عيونه.

اكتفت بهزة خفيفة من كتفيها بينما تنهض برشاقة: متعودة على الحر، وبعدين كنت قاعدة فـ ضل الشجرة.

ناظر أشعة الشمس المتسللة إلى أكثر من ثلثي المكان الذي كانت تشغله بجسدها الممدد، ثم

استدار متجهًا إلى الداخل تاركًا إياها في أعقابه، تلحقه برغبة ملحة في الحديث. يبدو أنه أدرك ذلك فأمر الخادم بإعداد الغداء بينما ينتهي من بعض الأمور العالقة في مكتبه.

لم يحتج إلى الإلتفات ليدرك لحاقها به، يحاول دفع الحديث إلى أجل غير مسمى، يعرف أنه لا مفر منه لكن الحدس يتمنى التأجيل.

وقفت مقابله وقد حجز المكتب الأبنوسي بينهم، محددًا مسافة لا تقبل التقلص، حدقت فيه لحظات تتأمل بروده ولا مبالته المغيظة.

تتأفف من إنهاك أعصابها فقط، عقدت ذراعيها أمام صدرها بادئة بالهجوم: حضرتك مش ناوي تفهمني أنت عايز مني إيه؟

رفع نظراته بعدما ترك ورقة ما تسقط على سطح مكتبه حال فضها: ممكن توضحي أكتر؟

حلّت ذراعيها وشعورها بالغيظ يزداد: اتجوزتني ليه؟ جايبني هنا ليه؟ وإشمعنه أنا؟

فك زر سترته المعقود وجلس فوق مقعده الجلدي المريح باسترخاء حسدته عليه: نصيب.

تغضن جبينها ورددت ببلاهة: نصيب؟

-أه، تقدري تقولي إن القدر رماكِ فـ طريقي عشان تكوني مراتي.

إنغلاق ملامحه أنبأها أنها لن تخرج منه بأكثر مما قال فعلًا، قررت تغيير خطة هجومها لعل ذلك يكون طريقًا صحيحًا تسلكه. جلست بتمهل فوق المقعد المجاور لساقيها بهدوء: طب على الأقل فهمني حياتنا هتبقى ماشيه إزاي عشان أعرف راسي من رجلي.

رفع أحد حاجبيه ساخرًا من خنوعها المفاجئ وربطها لحياتيهما معًا في كلمة متملكة كـ(حياتنا).

تأملها بشرود للحظة، لا ينكر أنها صدمته بتحولها السريع من مستجوب مغتاظ إلى مستسلم منصاع. اعتدل في جلسته وعقد كفيه فوق سطح مكتبه قائلًا بجدية: مش عايز أكتر من اللي حصل إمبارح وهيحصل إنهارده، ناكل سوا، نمثل إننا أسعد زوجين -حتى قدام الخدامين-، ننام زي الإخوات جنب بعض فـ آخر اليوم.. والنهار ليكِ كل الحرية تعملي اللي يريحك.

زمت شفتيها: مادام ماليش دور فـ حياتك، كنت بتاخدني من حياتي ليه؟؟

ضحك، لأول مرة ترى ضحكة تخرج من فمه رغم الاستهزاء المشبعة به: حياتك؟.. بلاش نضحك على بعض، أنتِ ما كنتيش عايشه أصلًا، أنتِ كنت بتنتحري بالبطيء.

هالها إدراكه ما أخفته عن نفسها لسنوات، لم يكن بقدرتها التخلص من مرارة وحدتها وقسوة حياتها إلا بهذه الطريقة، متحججة بدوافع واهية، انتبهت لبقية الكلام: والدتك صحتها كويسه وتقدري بعد الغدا تكلميها وتطمني عليها.

امتقع وجهها وهمست: أنت عارف حالتها؟

اكتفى برفرفة من رموشه مؤكدًا صحة تكهنها: روحي اتأكدي إن الأكل جهز، المفروض دا من مسئولياتك كزوجة.. ورايا شغل عايز أخلصه.

مشت تجرجر أقدامها لكن قبل إغلاق الباب خلفها التفتت إليه متسائلة بعزم لا تعلم من أين أتت به: متأكد إن ليا الحرية الكاملة أعمل اللي أنا عايزاه؟

أضافت على مهل: أروح المكان اللي أنا عايزاه؟

ضاقت عيونه وعلق ببرود: طبعًا، أكيد عارفه إني أقدر أجيبك وقت ما أحب، زي ما جيبتك وأتجوزتك كدا بالظبط.

قرأت التهديدات المبطنة داخل مآقيه الداكنة، مغتاظة رغمًا عنها وبدا ذلك في عنف صفعها الباب، بخطوات فائقة العصبية صعدت إلى غرفتها بتحدي طفولي، لن تنصاع لأمره بالإشراف على الغداء، ولترى ما سيفعله زوجها الوغد..

***

وقف منصتًا لمعاونه يتلو على أسماعه الجديد في آخر صفقة، صفقة كانت تجمع مثلثًا من ثلاثة رؤوس ضخام، كل واحد منهم كفيل بزرع الرعب في المبتدئين الصغار، لكن أحد الأضلاع إنحل ليكون كلا الضلعين الآخرين خطًا مستقيمًا، متجاوزين ضلعهم المفقود.

قبض شوقي على يديه بشدة، يكاد يفتك بالكرة المطاطية المعصورة بين ثنايا كفه، لقد نصحه الطبيب بها كي تخفف من توتره الدائم بسبب مهنته التي تلزمه النوم مفتوح العينين، مترقبًا ومتوجسًا من كل شيء ومن كل شخص.

لقد استغل أحمد غصن الزيتون الذي قدمه؛ محاولة في إنهاء العداوة والكره بينهما، كره شبّ في قلب الأول منذ سنوات ولم يتجاوزه حتى هذه اللحظة، إلتوت شفتي شوقي سخرية؛ ما زال الآخر جبانًا إلى درجة عدم تحمل مسئولية قرارته، فيلقيها على عاتق غيره.

-الشحنة هتتحرك من المينا خلال كام يوم، لسه المعاد النهائي ما اتحددش.

هذا ما التقطه شوقي من حديث الآخر، تنهد مشيرًا له بالإنصراف، لقد استغل أحمد الفرصة وأخرجه من اللعبة ليلعبها بمفرده، حسنًا، لن يدوم هذا مطولًا؛ فسيجد طريقة للعودة إلى الساحة ولو تطلب ذلك إخراج الأخر منها، لم يكن هو البادئ إذًا ليس هو الظالم.

***

تتلاعب بالطعام المسكوب في صحنها بلا شهية، كل عدة حركات ترفع النذر اليسير وتدفعه بين أسنانها دفعًا، الغرفة المتسعة بشدة، والمائدة الممتدة بين جداري الغرفة بطولها الذي يتجاوز استقبال أربع وعشرون شخصًا لم يحتلها سوى إثنين، والصمت السائد زاد الخناق على أنفاسها.

نظرت إليه من غيظها، يولي الوجبة إهتمامه وكأنما حياته معلقة بها، لم ينقصها سوى الزواج بشخص يجد في الخرص لذة ومتعة، تضاعف حنقها حين تذكرت لا مبالاته بعدم إشرافها على تحضير الغداء، كأن الأمر أتفه من أن يلقى إهتمامه.

دلف الخادم الوقور بملابسه الرسمية الخاصة بالخدم يتنحنح مستأذنًا بخجل، يخبر سيده عن ضيف أتى دون استئذان مسبق، مكملًا وجبته في قمة الهدوء أمر الخادم بالسماح للضيف أن يدخل.

اختنقت بحبات الأرز، تبتلعهم بصعوبة فور إطراق صوت رزين مستفز ببروده لأسماعها، صوت صاحبه هو السبب في تواجدها الحالي مع المقيت الملقب بزوجها، تابعت إدعاء تناول الغداء متجاهلة وجوده، لكن يبدو أن هذا لم يكن شعورًا متبادلًا.

-إزيك يا يُسر؟

زمت شفتيها وبسطت ساعديها إلى جانبي طبقها، عدت إلى عشرة قبل أن تشمخ بأنفها وتنظر إلى محدثها بكِبر: مدام يسر إذا سمحت.

مال برأسه رافعًا أحد حاجبيه، نهضت تضع المحرمة البيضاء جانب الصحن بعدما كانت ترقد فوق فخذيها ثم دون أن تنظر إلى أي منهما استدارت مغادرة مضيفة كأنها تحادث نفسها: أووف، الأكسجين فجأة اتسحب من الأوضة، حاجة تخنق.

ابتسامة ساخرة مستمتعة احتلت وجه عاصم مراقبًا رأس ضيفه الذي تابع خروج زوجته من الغرفة بهدوء، فشل رامز في إخفاء تشنجه كرد فعل على طريقة يُسر في التعامل معه. لفت انتباه ضيفه أخيرًا بدعوة للتحدث في مكتبه بعدما رفض الآخر تناول الغداء.

سار عاصم في المقدمة يتبعه رامز على مهل يرتب أفكاره ويعيد التركيز على أولوياته والتي لم تكن منها تلك المضيفة سوداء الشعر.

***

وقف متسمرًا على باب الحجرة يراقبها ويديه ما تزالان على مقبض الباب، كاملة وجميلة في ردائها الكاسي المنير كما الحليب الطازج، تقف مطأطأة الرأس قليلًا وقد إرتاحت يمناها فوق يسراها، سكون محيط بها، وهالة من الطمأنينة والأريحية تطل من ملامحها.

أكمل بهاء طلتها الستائر المنزاحة سامحة لضوء الشمس الموشك على الغروب في التسلل فوقها مشكلًا لوحة تسر الناظرين، لم يدرك متى ركعت ثم سجدت لتجلس مسلمة من صلاتها تحدق إليه في ترقب وسؤال لم يتجاوز عينيها.

دنى من منتصف الغرفة ورفع كفه ملوحًا بالهاتف، سألها: مش عايزه تكلمي والدتك؟

وقفت على مهل وعيونها مليئة بالترقب، أومأت بصمت، انشغل بالضغط على أزار هاتفه فلم يلحظ حركتها الخفيفة في طي سجادة الصلاة ووضعها فوق ظهر أحد المقاعد المواجهة للنافذة الطويلة.

رفع الهاتف أمام عينيها لتطالعها صورة زوجة والدها، تناولت من يده الهاتف وابتسمت دون أن تشعر، بدأت الحديث وانسجمت مع الحالة النادرة من الوعي لديها، تعرفها وتدرك هويتها كما أصبح نادرًا في الآونة الأخيرة.

جلس على طرف الفراش مستندًا إلى كفيه المتواريين خلف ظهره، يراقب ذهابها وإيابها اللا شعوري فيما عينيها تعلقتا بالشاشة أمامها، جذبته الخصلة الشبيهة بجناح الغراب المنفلتة من حجابها شبه المحلول، ضياء وجهها زادها حسنًا فوق حسنها.

تنهدت براحة فيما تجلس جواره دون شعور، لقد فقدت رشدها تمامًا مذ رأت وجه صفية في المكالمة المرئية. ارتاحت لما ظهر على وجهها من سكينة وراحة، العملية تمت بنجاح وهي حاليًا في فترة نقاهة تحت رعاية متخصصة.

***

وضعت الأطباق الفارغة بهدوء في حوض المطبخ، وجهها جامد والدموع متحجرة داخل مقلاتيها، استندت بكفيها تعتصر حافة الحوض فيما تشهق ببكاء صامت وقد انسدل شعرها على جانبي وجهها مخفيًا حالته المزرية.

تمنت حياه لو لم تستدر في تلك اللحظة، ولم تر في عينيه نظرة الإتهام وعدم الغفران، كان من الأسهل عليها إدعاء الغباء، عدم الإنتباه لحالات شروده المتكررة، تنافره بعيدًا عنها على حين غرة كأنه تذكر بغتة ما حدث، لكن الآن بعدما رأت نظراته الموجعة فقدت سيطرتها، لن تستطيع العودة للتمثيل والإدعاء مرة أخرى.

شدت أصابعها على الحافة حتى أبيضت مفاصلها وهرب الدم منها، لم يعد أمامها سوى ما أجلته مطولًا، المواجهة وتحمل العاقبة.. حتى وإن إنتهى الأمر بما يجعلها تتراجع دائمًا، لكن الفراق قد لا يكون سيئًا كما تتوقع، على الأقل لن يأكل الترقب والإنتظار أعصابها ويقتات على راحة بالها.

رفعت رأسها المطأطئ بقوة تستجمع شجاعتها وتأمر جداول دموعها أن تنضب ولو إلى حين، دفعت شعرها إلى الخلف، تعطي نفسها دعمًا بحاجته، ستواجهه مهما كان المصير، ستتخلص من وجع الظنون وتقتل شكًا لا ينتهي.

***

يقف برأسه الشامخة وجسده المخفي في بذلة سهرة غالية الثمن، يرتدي رابطة عنق سوداء اللون فوق قميصه ناصع البياض فيما ينصفها مشبك ذهبي، تتلاعب أصابعه بالكأس الممسوك بينها فتديره بهدوء وأريحية، عيونه لا تتركز على محدثيه كبيري العمر وإنما تستقر على جسد زوجته الملفوف في ثوب أزرق زهري خلاب، توقفت أخيرًا قرب أحد الجموع تتبادل حديث ودي والبسمة مرسومة بحرفية لا تغادر ثغرها الفتان.

لقد أثبتت له ولائها في الأسابيع الماضية، لا ينكر خشيته تجاه تصرف قد تفتعله إنتقامًا من طريقة زواجه منها والإجبار الذي خضعت له، لكن على العكس تمامًا فقد أرته كيف تأخذ واجباتها على محمل الجد.

استحقت المكافأت السخية التي أغدقها عليها، بداية من الحديث المتكرر مع والدتها نهاية بهدايا مادية كالعقد الماسي المنتهي بثنية تشبه يد المظلة الشمسية، لقد زاد بريقه منذ استكان فوق جيدها البرونزي، لون اكتسبته يُسر من تمضيتها الوقت على حافة حوض السباحة الواقع في الجزء الخلفي من قصره، تستمتع بتعريض جسدها لأشعة الشمس البراقة، زفر من أعماقه ينفضها خارج أفكاره محاولًا التركيز على حديث الرجلين إليه.

لم يستطع، اعترف لنفسه بحنق وعينيه تعود إلى حيث تركتها آخر مرة قبل محاولتها الفاشلة في عدم التطلع، اشتد عوده واستنفرت أجهزة الإنذار في عقله وجسده. نهب أركان الغرفة بحثًا عنها بلا جدوى، تمتم إعتذارًا لا يذكر فحواه ثم ترك ضيوفه يبحث عن مضيفته الحسناء.

عرقله وقوف رامز المبتسم بمجاملة يدرك زيفها، تسمر مكانه ناظرًا إلى وجه الآخر بملامح جامدة، غمزه رامز متسائلًا بفخر: يظهر إن المدام وحشتك أوي يا عاصم بيه.

ارتفع ذقن عاصم بتعالي مراقبًا وجه محدثه بلا تعبير ظاهر، اقترب منهم ثالث فأسرع رامز يقدمه: دا أحمد بيه.

اكتفى كلا الرجلين بهزة خفيفة من الرأس، رفع عاصم كأسه يرشف بعضه، دار رامز برأسه يتتبع الخدم بالزي الرسمي الأنيق فيما يد تحمل صينية محملة بكؤوس العصير وأخرى تستكين بإنصياع خلف الظهر، عاد إليه بسؤاله: أومال فين الويسكي والنبيت يا عاصم بيه؟

-سوري، الحاجات دي ما تدخلش بيتي.. هنا عصير وبس.

استدار الجميع إلى الشخص الذي انضم إليهم أخيرًا، تغضن جبين عاصم لا يعلم أين اختفت ومتى عادت للظهور، أي جنية أو شيطانة صغيرة هي؟، رفع رامز أحد حاجبيه وابتسامته الساخرة تسبح على الواجهة: دا حتى الطيارة كان بيبقى فيها خمره قصر الإمبراطور ما بيقاش فيه؟

هزت كتفيها وأجابته بسخرية تتخفى خلف بسمة رسمية: شوفت الزمن يا رامز.

-رفعنا الكلفة بسرعة يا.. يُسر.

رفعت سبابتها في وجهه متأتأة بخفة: بالنسبة لك أنا مدام يُسر.. يا رامز، ما اسمحلكش ترفع الكلفة مع مدام عاصم صيدن من غير ما تديك إذن.. وأنا ما إدتهولكش.

تابع ارتفاع ذراعها لتتعلق بذراع زوجها الصامت جوارها، كز على أسنانه بغيظ، لقد كان هو السبب فيما آلت إليه أمورها لتصبح زوجة أحد أقطاب رجال الأعمال.. الشرعية منها والغير شرعية، وهكذا تنهي دوره بترفع وغرور؟

لفت أحمد انتباه عاصم إليه غير عابئ بالتحدي السافر الذي تشرعه يُسر في وجوههم أو بالغيظ المستعر داخل ساعده الأيمن، قال بهدوء: في موضوع مهم لازم نتكلم فيه.

حادت نظراته إلى المرأة الواقفة بأناقة وثقة بجوار مضيفه، إلتوت شفتيها بسخرية وانصرفت: أسيبكو تتكلموا فـ.. البزنس، عشان أنا ماليش فـ الكلام الممل دا.

تابع عاصم تبخترها مبتعدة عنهم وشعلة ما تشتعل داخله، أراد جذبها من ذراعها وصفعها علّها تتعظ وتكف عن التصرف بدلال أمام الغير والسير بهذه الأريحية كأنها بين جدران غرفة نومها. وتقدم الرجلين إلى زاوية بعيدة نسبيًا.

***

اقتربت على مهل، تجر قدميها جرًا وتركز على الصينية التي بين يديها كي لا تقع، وضعتها على الطاولة المنخفضة وجلست جوار حمزه، أمسكت أحد الكوبين الفخاريين تضيف إليه ملعقتين من السكر، تأكدت من إذابته بشكل مبالغ فيه قبل أن تقدمه إليه، إنتباهه مركز على نشرة الأخبار يتابع الجديد.

فعلت المثل مع الكوب الآخر ثم تراجعت تراقب وجهه الواقع في المسافة التي بينها وبين التلفاز، ترتشف كلما فعل بلا إنتباه، سعلت بشدة حينما لسعتها سخونة الشاي بالحليب، وضعت الكوب فوق الصينية فيما استدار إليها زوجها يربت على ظهرها.

-مش تخلي بالك وأنتِ بتشربي يا حياه.

تمالكت نفسها وباغتت نفسها قبله حينما رفعت إليه عيونها بإصرار شديد على السبر في أغوار الموضوع: لازم أتكلم معاك ضروري.

ظل محدقًا في عيونها لحظات قبل أن يضع كوبه جوار كوبها ثم يمسك جهاز التحكم ويغلق التلفاز نهائيًا، عاد إليها وبهزة من رأسه أعطاها المساحة للبدء.

-أنت مش ناوي تنسى؟

لم يد ع عدم الفهم، كأنه يتلمس لحظة المصارحة منذ أمد وقد أتته على طبق من فضة، تراخى في جلسته ونظراته لا تحيد عن وجهها: حاولت.. بس مش عارف.

-مش عارف ولا مش عايز؟.. في فرق كبير بين الإتنين.

سألته بسخرية رغمًا عنها، ضاقت عيونه وتجاهل مرارتها: حبيتك بطريقة عمري ما تخيلتها، ومشاعري ناحيتك أقوى من أي حاجه حسيتها فـ حياتي، تقدري تقولي إنك أول واحدة قدرت تلاقي مفتاح قلبي وتحتفظ بيه بين إيديها.. لكن صدمتي لما اكتشفت إني مش الأول بالنسبة لك.

فرت الدموع من عينيها دون إدراك: بس أنت عارف إنه ماكانش بإيدي.

اعتصر جفنيه وشفتيه للحظات قبل أن يعيد النظر إليها والألم يسكنهما: قلبك ظلمك وظلمني بحبه لواحد ما يستاهلش، استغل الحب دا بطريقة بشعة، وانتهك بيه حاجات مش من حقه، ضيع براءتك ودمر ثقتك فـ نفسك قبل ثقتك فـ الغير..

هبت على قدميها تصرخ به: والحل؟؟.. والحل يا حمزه؟.. أنا ما بقتش قادرة استحمل، نظراتك بتموتني، بتقطعني من جوا، كل ما أفكر إنك مش قادر تنسى بأتعذب أكتر وأتمنى الموت من غير ما أطوله.

وقف كذلك ينهرها: أوعي تتمني الموت!، مش عارف حل.. صدقيني لو كنت عارف ماكنتش اترددت لحظة فـ تنفيذه.. بس مش قادر استوعب لحد دلوقتي إنك حبيتيه.

انهارت في نوبة شديدة من البكاء: والله ما حبيته، أنا كنت فاكره إن اللي حسيته ناحيته حب، لكن لما قعدت مع نفسي وفكرت بهدوء اكتشفت إني ما حبتوش، وإن دا مش حب.. ولما عرفتك وحبيتك اتأكدت إن عمره ما كان حب، بس كل دا كان متأخر، متأخر أوي.

صاح في وجهها فاقدًا أعصابه بعدما داهمته الظنون بضراوة إضافة إلى تذكره تفاصيل حكايتها مع الآخر: لكن هربتِ من أهلك بسببه، رميتِ كل حاجه وراكِ عشانه، بإيديكِ روحتِ للنار لأجل خاطر عيونه.

ارتفع صوتها دفاعًا: والله أبدًا، كان كل الموضوع غيظي منهم من معاملتهم ليا، ظني إنهم رفضوه من باب الرفض وبس.. افتكرته مظلوم وهما الظالمين، دماغي الجزمة دي اللي نفسي أكسرها حتت هي اللي عندت معاهم، لكن مشاعري ناحيته مش السبب.. أنا بأكرهه.. بأكرهه.

ظلت تردد آخر كلمة بشكل متكرر هستيري فيما تركض إلى الحمام وتغلق عليها الباب متابعة ترديدها باكية بعزم ما فيها، تمنت أن تجد خلاصها في البكاء، في كرهه، في صياحها رغم تأكدها.. أنه لم يعد هناك من مفر.

لحق بها متناسيًا حالته والدمعات الفارة من مقلاتيه، وقف على باب الحمام يدقه يطالبها بفتحه، يحدثها ويحاول غمر صوته ببعض الطمأنينة لعلها تنصاع، سمع همهماتها من خلف الباب ملتصقة به من الجهة الأخرى: بحبك.. والله بحبك أنت.

تباطئ طرقه على الباب وأوهنت قوته مرددًا بصوت هامس: وأنا والله بحبك.

-بس مش بتغفر، ولا هتسامح.

بعدما قالت آخر جملة عاد نحيبها يعلو وجسدها ينزلق أرضًا لتجلس مستندة بظهرها إلى الباب الموصد، همهم: قوليلي أعمل إيه وأنا مستعد أعمله.

وعلى حين غرة طرقت أذانها ما قالته نيفين ذات مرة، حينها كانت تراه يأس، وتهرب واضح من المواجهة، لكنه الآن يتجسد أمام ناظريها معكرًا صفو حياتها.

«هنا زيه زي السجن بالظبط يا حياه.. اللي يخرج من هنا -دا لو قدر يعني- بتفضل نقطة سوده فـ حياته.. لا هو بيقدر ينساها ولا اللي حواليه بيسمحوا له ينساها.. نقطة سوده معاكِ لحد ما تموتي.. لو اللي قدامك ماذلكيش بيها هتشوفيها فـ عيونه من غير كلام!»

صمت، صمت هو كل ما قابله، حتى البكاء توقف، لا شهقت ولا تعقيبات ما بعد البكاء، اشتد ظهره ووقف شعر جسده رعبًا، ضج المكان بضجيج ضرباته على باب الحمام من جديد، يهتف باسمها ويصرخ بها لتفتح.

لا يعرف كم مر عليه قبل أن ينشق الباب رويدًا وتظهر حياه خلفه تدريجيًا، وجهها مملوء جزعًا وعينيها متسعتين بشدة، هرب الدم من عروقه وهو يحدق فيها.
شهقت أخيرًا قائلة كأنها تخاف النطق فيزداد الأمر سوء: حمزه.. أنا بأنزف.

هبط نظره مع نظرها على مهل حتى وصل إلى البقعة المتسعة فوق جلبابها المنزلي، وأدرك قطرات متباعدة تتقطر فوق الأرض بعدما تعبر الجانب الداخلي لساقيها.

ترنحت وكادت تسقط مغشيًا عليها حين أسرع ينفض الجمود عنه ويلتقط جسدها، سبَّ ولعن فيما يحملها، توجه إلى باب المنزل وقبل فتحه أدرك أنها بثوب منزلي بالكاد تجاوز ركبتيها وشعرها منطلق في حرية.

عاد أدراجه وفمه يوشك على المزيد من السباب، هز رأسه واستغفر بينما يلبسها عباءة الصلاة ويربط رأسها بحجاب كيفما أتفق ثم يلفها في ملاءة السرير زيادة في الحيطة والحذر، حملها مسرعًا بمنامته الكحلية ذات المربعات وحذاء البيت مكشوف الأصابع.

***

وضع عاصم كوبه الفارغ على الطاولة الأنيقة جواره ثم عاد بنظره إلى الرجلين الآخرين، لقد تمت الصفقة بنجاح ووصلت الشحنة قبل ساعتين إلى الميناء بلا مشاكل، زفر، الآن حان الدور على الصفقة القادمة، ستصل خلال أشهر، فترات متباعدة لضمان السرية والحيطة، كذلك التأكد من تصريف الشحنة السابقة بالشكل الأمثل.

أنصت إلى هذر رامز بالفوائد التي ستعود عليهم إن استمروا في العمل سوية على هذا المنوال.

يقلقه الآخر ليس هذا المهذار، أحمد أكثر جدية وأطول صمتًا، لا يتحدث إلا مضطرًا، كأنه يخشى على أحد من حفظ نغمة صوته فيتعرف عليها لاحقًا.

حتى هو بميله للصمت المعروف عنه لا يصل إلى الآخر، على الأقل هو يدرك أن من حوله جميعًا رهن إشارته، ينتظرون أمره ويبحثون عن رضاه لكن مع أحمد تنقلب الآية.

-مبروك، الشحنة وصلت بالسلامة.

دنى شوقي منهم بابتسامة زائفة تحمل الغل في ثنياتها، لن يمرر موضوع هذه الصفقة من

فوقه بلا ربح يجنيه، يعلم أنه يكاد يتميز غيظًا. نظر شوقي إلى عاصم بلوم: بقى كدا يا باشا، تعملها من ورايا.

أدخل عاصم يديه في جيبي سرواله متنهدًا: ما أنا قولتلك يا شوقي.. تعملي اللي قولتلك عليه وتجيبلي العروسة تاخد الصفقة، هي أه وصلتلي..

وشردت نظراته إلى حيث تقف يُسر تأمر أحد الخدم بالذهاب إلى وجهة معينة بشراب محدد، استرسل معيدًا نظراته ناحية شوقي: بس مش عن طريقك.

التفت شوقي إلى أحمد يحدجه بنظرات التوعد: صح، الحق عليا إني ما حبتش أكلها لوحدي، وقولت اللي ياكل لوحده يزور..

قهقه أحمد ساخرًا بإغاظة: أنت لو كنت تقدر تاكلها لوحدك ما كنتش جيتلي من الأول يا شوقي، بس ما تقلقش.. كدا كدا هتزور.

لمست كف صغيرة بأظافر مطلية باللون الأحمر المطابق لطلاء شفتيها: حبيبي.. الناس بيسألوا عليك وبدأوا يحسوا بغيابك.

رغم ارتدائها الكعب العالي المخفي أسفل طول الفستان، وتصنيفها ضمن فئة الطويلات إلا إنها بالكاد وصلت لمستوى عينيه.. لكنها تظل مناسبة له بشدة. قابل ابتسامتها بابتسامة مشابهة وانسحب من الجدل الموشك على الإشتعال بدبلوماسية.

تركهم خلفه ويده تحيط خصر زوجته التي غمزته بدهاء: إنقاذ استراتيجي إيه رأيك فيا؟

ابتسم مرغمًا: فـ وقتك بالظبط.

تعالت ضحكاتها وانخرطا مع مجموعة صغيرة من الضيوف فيما نار صامتة تستعر خلفهم قرب الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية للقصر المهيب، يتناحر طرفاها على صفقة غير شرعية، يتصارعان على أي منهما أكثر دناءة من الآخر، تناطح خنازير مقزز.

رفع شوقي سبابته في وعيد: الصفقة الجايه لو ما كنتش فيها، هيبقى عليا وعلى أعدائي.

تراجع أحمد إلى الخلف مسبلًا أهدابه، راسمًا اللا مبالاة بشكل لا يقبل الشك: أعلى ما فـ خيلك أركبه.

زاد حنق شوقي فارتفعت نبرته مهددًا: ماشي يا أحمد، لكن خليك فاكر.. بمزاجك أو غصب عنك الصفقة الجايه هأكون فيها.

ألقى كلماته المليئة بالمقت ثم استدار على عقيبه مغادرًا الحفلة برمتها، لم يأت سوى لهذا الهدف وغيره لم يكن ليبالي به، سيضع أحمد في محله، سيريه أنه رغم السنوات التي مرت ما زال مبتدئًا أمامه.

***

توجه إلى كافيتريا المشفى كي يجدد طاقته باسترخاء نسبي وفنجان من القهوة ليزداد نزقه وضيقه أضعافًا، ليس وحده المكلوم، واحدة تعوي ابنها المغدور بسيارة لشخص مستهتر، وآخر يشد من آزر شقيقه بعدما اكتشفا مرضًا خبيثًا في جسده.. وهكذا تتوالى الحكايا فتزيد بؤسه من جهة وتغمره سكينة من جهة أخرى.

لهث بالحمد على ستر الله مع زوجته، ابتسم وبرقت عيونه بسعادة عامرة، حياه تحمل طفلهما الآن في رحمها، سيرزقا بطفل يجمعهما إلى آخر العمر، الحمدلله أن النزيف تم تدراكه بسرعة قبل أن تتفاقم المسألة.

دفع كرسيه ونهض يتجه إلى الغرفة التي تشغلها، لقد تركها تستعيد قواها قبل أن يتواجها بعد الحوار البائس الذي دار بينهم قبل ساعتين، استجمع شتات نفسه ثم رفع كفه يطرق الباب بخفة.

فتحت له الممرضة تسمح له بالدخول قبل أن تغادر بعدما أتمت عملها، دخل يقدم قدم ويؤخر الأخرى، فقد حماسه على حين فجأة وقد هاجمته خواطر الرفض من جهة حياه، وجدها تجلس برأس منكس وقدمين متربعتين أسفل الملاءة البيضاء الخفيفة.

جلس على السرير لا يبعد نظراته عنها: أحسن دلوقتي؟

هزت رأسها: الحمدلله.

مد يده بتردد يمسك كفيها المتكورين في حجرها، تنهد الصعداء حينما تركت يدها ولم تسحبها بعيدًا، سألته: عرفت؟

ابتسم عفويًا: أيوه، مبروك لينا.

رفعت نظراتها إليه أخيرًا: وبعدين؟

-أنا آسف.

عضت باطن شفتها السفلى: مش بأدور على الأسف.. عايزه حل.

وضع يده على جانب شعرها الأيمن يربت عليه بحنان: هننسى، هنعيش حياتنا، هو مرحلة فـ حياتك كان لازم تعديها عشان تبقي حياه اللي قدامي دلوقتي.. حياه اللي فتحتلي الباب أول مرة أشوفها وأفتكرتها الخدامة.. اللي قولت إن عصيرها وحش وأنا ما دوقتش أحلى منه..

غمزها فضحكت، ابتسم فتابع: اللي سمتني الأرجوز وأنا ردتهالها بالشعنونة.. بتعمل اللي فـ دماغها مهما كان، وتحسسني إنه مافيش زيي فـ الدنيا لما أبص فـ عينيها وأشوف الحب بيلمع فيهم.

شهقت ودموع الحب تغمر وجهها، جلست على ركبتيها فوق الفراش ودفعت نفسها إلى أحضانه تحيط رقبته بذراعيها بقوة. شدها إليه مغمضًا عينيه خشية هروب الفرحة منهما، همست في أذنه بصوت مبحوح من فرط العاطفة: بحبك.

شدد من قبض ذراعيه على جسدها مهمهمًا: وأنا مش عايز أكتر من كدا.

***

راقبها بالثوب الأزرق تقف أمام المرآة، تمشط شعرها وتحكم جمعه كي تثبته فوق قمة رأسها، انزلقت عينيه على ثوبها الآخاذ، رسم منحنى جسدها ونزل على إتساع، يظهر كتفيها البراقين ويزيد جاذبيتهما، حلت مشبك العقد ووضعته في العلبة القطيفة الحمراء.

التفتت تحدق في عينيه لحظات كأنها تخبره بإدراكها التام لمراقبته لها منذ لحقت به إلى الغرفة، لقد أدت متطلبات مكانتها في هذا البيت على أكمل وجه، أشرفت على

تحضيرات الحفل بخبرة سيدة مجتمع محنكة، تتصرف كما لو ولدت في عائلة ملكية وتتدبر أمورها بسلاسة من تربى على فعل ذلك.

اقتربت منه على مهل وعندما وصلت أمامه استدارت توليه ظهرها، أشارت بسبابتها: السوسته.

زفر يخرج يديه من جيوب بنطاله، فتحها وحالما فعل تركته متجهة إلى الحمام، أخفت عن عينيه ابتسامة الدهاء والمكر الملتمعة في مآقيها، تعرف أنه يزهد في ملامستها، ليست بالنسبة له سوى واجهة أمام الناس، رغم شكها في وجود سبب آخر إلا أنها لم تتوصل إليه حتى الآن، ستريه أنها تنقم عليه وترفض أي تقارب حميمي بينهما أكثر منه، لن يفلت بضربه لأنوثتها في مقتل، ستدفع رجولته الثمن مضاعفًا.

***

تجلس باستسلام فيما يلتقط مشطًا بلاستيكيًا أحضرته الممرضة قبل دقائق وتركته فوق الطاولة المجاورة للسرير، تناول شعرها بين أصابعه يتلمسه بحنان ثم يبدأ بتمشيطه، كان تدليكًا حنونًا فوق رأسها المنهك من كثرة التفكير، تراخى ظهرها يستند إلى صدره.

ابتسم معيدًا المشط إلى مكانه وجمع شعرها يبرمه دون أن يشده بزيادة فيسبب لها الألم، أداره حول نفسه ومرر طرفه من الفراغ المنصف لكعكة شعرها، طريقة دربته عليها وأصبح خبيرًا بها، أتم مهمته، ترك ذراعيه تحيطان خصرها، يتطلع إلى وجهها المسترخي وعيونها المغمضة، همس في أذنها: ما أنتِ لو بتاكلي ماكناش اضطرينا نستنا لحد ما المحلول يخلص.

هزة من كتفيها هذا هو كل ما حصل عليه منها. أبعدها بهدوء وعاد يجلس أمامها وحجابها بين أصابعه، جعلها تستقيم رغم ميلها للنعاس: معلش، أجمدي كدا لحد ما ألفلك الطرحة وبعدين نامي زي ما أنتِ عايزه.

نظراتها لم تترك وجهه، تحصي عليه سكناته وحركاته، ابتسمت تلقائيًا لمرأى التركيز المسيطر على خلجاته، يولي عملية ربط حجابها حالات الاستنفار القصوى، ضحكت فعبس، علامات النصر والفخر التي ظهرت على وجهه حين أنتهى دغدغت رغبتها في الضحك.

تركها تهدأ من نوبة ضحكها ثم حملها رغم اعتراضاتها المستميتة، بعد خطوات وتأكده من عدم جدوى الإعتراض، غطت في السبات وسلمت أسلحتها أمام سلطانه، لم تشعر بتمديده لها على الأريكة الخلفية المكتنزة داخل السيارة ولا عودته لحملها صعودًا إلى شقتهم.

أرقدها بحنان على الفراش وأحكم الغطاء حولها، راقب ملامحها الهانئة المطمئنة، لا يصدق أنه أوشك على التسبب في فقدان طفلهما، يسبقه فقدانها بشكوكه التي لم تحجب جهدًا في رميها خارج حياتهم.

تمدد جوارها ونظراته تحدق في سقف الغرفة المنعكس عليه أضواء الشارع، لقد بذلت مجهودًا جبارًا في تقوية العلاقة بينهما والتخلص من الشوائب المعكرة لها، يدعي أنه بذل قصار جهده في النسيان لكنه لم يصل ربع ما فعلته، أما زال يخشى أن يتعلق بها بشكل زائد فتتدمر حياته إن غابت عنها؟

دار رأسه ينظر إلى ملامحها، ابتسم بسخرية، لقد فات الأوان، حياته ستصبح بلا طعم إن خرجت منها، منذ تم اختطافها مع ميمي وهو أدرك هذه الحقيقة، سينسى ويقضي معها باقي حياتهما المشتركة، غير متأكد من عدم وجود القليل من التذكر لكن لن يتعدى طيف شريد غير دائم.

***

أعادت الهاتف إلى جيب ثوبها الجينز الفضفاض بعدما أنهت حديثها مع حياه، ابتسامتها تأكل وجهها، فرحت لحمل صديقتها مثلما فرحت لنفسها، إن لم يكن أكثر، ظلت تدعو لها بصلاح الأحوال وأن يكون الطفل سببًا في فك الأزمة القائمة بين أبويه.

تحكم يدها حول الخرطوم فتسقي الأعشاب الصغيرة ثم ترتفع لتنال أوراق الشجر المرتفع نصيبها، رؤية البريق الأخضر للأوراق بعد سقيها يشعرها بالبهجة ويعطيها شحنة إيجابية هي في حاجه لها، لقد توقفت عن الإهتمام بالنباتات منذ أتت إلى هنا، بل تركت عادات محببة إليها أخرى.. لا تعرف السبب لكنها غير راضية عن هذا التحول.

-الحته اللي هناك دي لسه ما اتسقتش.

إلتفتت إلى محدثها، ابتسمت بعفوية ترحب بضيفها فيما تطيعه وتتجه بالخرطوم للبقعة التي أشار إليها، سألها: مش مشغلة الرشاشات الأرضية ليه؟

هزت كتفيها: بأحب أسقيه ساعات بإيدي، كمان مش هيطول ورق الشجر.

تبسم: عامله إيه؟.. والأميرة الصغيرة أخبارها إيه؟

تقدمت إلى الصنبور تغلقه ثم تركت الخرطوم أرضًا مجيبة: بخير الحمدلله، ياسين جوا فالمكتب بيخلص شغل لو عايز تكلمه.

-أكيد طبعًا.

تبعها إلى الداخل، طلبت منه الجلوس بينما تخبر ياسين بوجوده، تركت معه ريتا لتعرف ماذا يريد أن يشرب، تحسست بطنها التي برزت بشكل ملحوظ، إن لم يكن

من الحمل فهو بسبب الكميات المضاعفة التي أصبحت تتناولها، لا تستطيع كبح الجوع الملازم لها في الأونة الأخيرة.

***

غداء مبكر أجبرت على تناوله؛ فزوجها على وشك السفر إلى بلد ما عقب تناول الطعام، غاظها أنه قلب الروتين اليومي فجأة من أجل مصلحته، شعور داخلي أنبأها أنه فعل ذلك نكاية بها، فكما تثير حنقه في كثير من الأحيان يتلقفها أحيانًا ليرد لها الصاع.

حاولت لجم غيظها وغضبها عن الظهور لكنه كان يظهر مع كل كلمة تعبر شفتيها، دون أن ترفع نظرها عن يديها المنشغلتين بتقطيع قطعة من اللحم بالشوكة والسكين سألته: مش ناوي بردو تقولي مسافر فين؟

بنفس اللا مبالاة والإنهماك في طعام بلا طعم في فم أي منهما: ماكنتش أعرف إنك مهتمة.

ألقت أداوت المائدة من يدها مثيرة ضجيجًا باهتًا، هزت رأسها تدفع الخصلات التي تداعب وجهها، ترد باستنكار: أهتم بيك أنت؟.. دا اللي ناقص.

أردفت بنبرة مترفعة بعدما ارتفع ذقنها في مواجهة عيونه المحدقة: ما تنساش إني مراتك قدام الناس، يبقى شكلي إيه لما حد يسألني جنابك فين وما أعرفش أرد؟

بهدوء وإهتمام مبالغ فيه ترك شوكته وسكينه وعاد ينظر إليها: قوليله اللي قولتهولك بالظبط، سافر، ولو حب يستفسر أكتر قوليله ما يخصكش.. شوفتِ بسيطة إزاي؟

عاد يكمل تناول طعامه مضيفًا بسخرية: ودا عز الطلب يا يُسر مش كدا؟، إنك تكسفي اللي قدامك أو تضايقيه.

نظر إليها من طرف عينه: ولأحدي معاملة مخصوص ليا أنا بس؟

باغتته من شدة نزقها: هتقولي إمتى إتجوزتني ليه؟ وشغلك دا عبارة عن إيه؟.. أنا هأفضل ماشيه على عمايا فـ دنيا أنا مش عارفاها؟

نفخ حفنة من الهواء ناهضًا، إلتقط هاتفه وسلسلة مفاتيحه، أجابها بنبرة منغلقة لا تقبل النقاش: لما يجي الوقت المناسب هأقولك، كفايه عليكِ فـ الوقت الحالي تعرفي إني رجل أعمال.. لما أشوفك مستعدة إنك تعرفي أكتر هأقولك.

رفع كفه يمنع محاولات لسانها الطويل عن معاودة الهجوم: مش عارف هأرجع إمتى بس هأكلمك قبلها أبلغك.

أضاف فيما يغيب عن أعينها: ما تنسيش معادك مع زوجات رجال الأعمال، اللي مش عارف قدرتِ تثبتِ مكانتك بينهم وتنالي احترامهم بالسرعة دي إزاي.. المهم دا بنزنس وهيصب فـ مصلحتي.

وقف أمام باب السيارة المفتوح يمسك أعلاه مضيفًا: خليكِ زوجة كويسه وما تعمليش حاجه غلط؛ عشان أجيبلك حاجه حلوة وأنا جاي.

صعد إلى السيارة وأشار بكفه إلى السائق حتى ينطلق، ضربت طرف المائدة من شدة غيظها، يعاملها كطفلة صغيرة لم تبلغ سن دخول المدرسة بعد. نهضت رافضة تناول المزيد من الطعام ودلفت إلى الفيلا غير عابئة بالنسيم العليل، والذي كان سبب إصرارها على تناول وجبات الطعام في الحديقة.

***

تقدمت منه بعنف وعيونها تعصف، وقفت أمامه تسأله بعصبية ونزق: تقدر تفهمني إيه حكايتك مع ست سلمى؟.. مالك ومالها؟

وضع كأس العصير فوق الطاولة المنخفضة أمامه قبل أن يرفعِ عينيه الثلجية إليها: عايزه إيه يا كادي؟

جلست جواره تاركة بينهما عدة سنتيمترات: شوفتك من الشباك واقف مع سلمى تجر كلام، نسيت إنها متجوزه بردو.. ولا الحاجات دي مش بتقف فـ طريق حد غيري؟

تقوست شفتيه بسخرية: ما أنا عرضت عليكِ اللي يناسب ظروفك وأنتِ رفضتِ.

تقلصت ملامحها بألم للذكرى، تحاول نسيانها حتى لا يفقد مكانته لديها، نظرت إليه بدموع متحجرة بين جفنيها: ماجد.. أنت عارف إحساسي ناحيتك، أنا أعتذرتلك كتير قبل كدا، ماكانش بإيدي حل تاني أعمله بس..

قاطعها بغضب: شوفي مش عايز كتر كلام، دا موضوع واتنسى، أما عن علاقتي بسلمى مع إنها ما تخصكيش بس هأريحك.. سلمى إنسانه غالية وعزيزة عليا، متمسكة بحبها رغم كل

الظروف، قبلت حتى المشاركة فيه مادام هيكون جنبها.. لا غدرت ولا خانت زي ما ناس عملت.. أظن أنتِ فاهمة قصدي كويس.

أضاف بأعين ضيقة من التفكير: يا ريتك كنت زيها أو حتى فيكِ شيء منها.

ـأهلًا أهلًا، ماجد باشا عندنا.

رحب به ياسين، انتفضت كادي تبتعد قليلًا عن مكان جلوسها ملجمة لسانها عن الرد، نظراتها مرتبكة وتلاعب أصابعها ببعض فضح توترها، راقبتها سلمى التي أتت خلف زوجها، تتصرف كمن إرتكب جرمًا ويخشى إنكشافه.

لاحظت نظرات سلمى إليها فجابهتها بأخرى تحمل مقتًا شديدًا، تركتهم وصعدت إلى غرفتها دون أن تعتذر بحرف. استغرب ياسين تصرفاتها الغير لائقة على غير العادة مع ضيوف لا يمتون لسلمى بصلة قرابة، تجاوز الأمر مضيفًا ذلك إلى شماعة إجهادها النفسي والذهني لسبب لا يعلمه.

***

اقترب منها بشغف، يتلمس شعرها بحنان غير معتاد، نظرت إليه خلود من طرف عينها، لا تعلم السبب ولكن قلبها صار متوجسًا من نبع الحنان الذي فاض منه تجاهها، ابتهلت داخلها ألا يصدق حدسها، أغمضت عينيها مستمتعة بتقربه منها.

ما زالت تحبه، تعترف بذلك مرغمة، رغم كل ما فعله بها قلبها يدق حين ينظر إليها بطريقة خاصة أو يقترب منها كما يفعل الآن.

لقد حرد عنها الفترة الماضية، منذ حملها وحتى بعد إجهاضها، احمرّ وجهها لدى ذكر الإجهاض، آه لو يعلم الحقيقة، ستكون النهاية الحتمية لحياتها، ضغطت على شفتيها تغلقهما إجباريًا، تكتم تأوهًا يفرض عليها إطلاقه.

لم تشعر بيده التي رفعت بلوزتها الفضفاضة ثم تسللت تحل الأربطة الضاغطة فوق بطنها المنتفخ، حالما حلّه همس في أذنها ويديه فوق إنتفاخ بطنها: فاكره إنك هتضحكِ عليا يا بنت الـ......

إزدردت ريقها وفتحت عيونها، لقد انقلب وجهه فأصبح كالمسوخ، بذيء ومخيف، انهالت عليها الصفعات والركلات، صاح في غيظ و مقت: أنتِ فاكره إني مختوم على قفايا؟.. مش هأخد بالي من وزنك اللي زاد، وأكلك اللي قلّ.. فاكرة أما تقللي أكلك مش هأخد بالي من زيادة الوزن وهأفتكره فـ الطبيعي.. ولا التعب والنوم الكتير هيعدوا عليا؟

توقف تاركًا إياها بعدما دخلت لارا تمسكه من ساعده متوسلة بصراخ يفوق صوته علوًا أن يرحمها في حالتها تلك، وقف يلهث أنفاسه المجهدة من الضرب والإنفعال: قولي عملتِ إيه عشان الدكتور البهيم دا ما يعملكيش العملية.. إنطقي!

هبط إلى مستواها يكمش شعرها بين أصابعه عندما اكتفت بالبكاء والنحيب دون أن تشفي غليله بإجابة محددة: سلمتيله نفسك مش كدا؟؟!!

صوته الهادر القريب من طبلة أذنها جعلها تستجمع بعض خجاعتها، نظرت في عينيه بقوة قائلة: إذا كنت كل ليلة بأسلم نفسي لواحد عشان أحافظ على حياتي، مش هأسلمها عشان حياة ابني؟

لفظها بقرف ثم وقف على قدميه: الكلب التاني دا لسه حسابه معايا.. هأخلصه وبعدين راجعلك.. ما تفتكريش إن الموضوع دا هيعدي والسلام، حسابك تقل أوي يا خلود.

أصمهم صوت طرق الباب بقوة خلفه، دنت لارا من صديقتها تعاونها على النهوض والجلوس فوق السرير، اطمأنت على استقرارها قبل أن تجلس عند قدميها وتبدأ في لومها: نبهتك قبل كدا إنه هيعرف، لو مش دلوقتي هيبقى كمان شهر أو إتنين.. الرباط الضاغط مفعوله مش سر.

تنهدت: وأنا بإيدي إيه أكتر من كدا، أصلا ما بقتش فارق...

***

-الغدا جهز يا بنتي، قولت أجي أقولك قبل ما أقول للبهوات.

التفتت إليها سلمى بينما تتناول دوائها: هما لسه فـ أوضة المكتب؟

أومأت عنبر مؤكدة، ابتسمت لها: هألبس الطرحة وأنزل، تكوني قولتلهم.

اتجهت عنبر مغادرة لكن سلمى أوقفتها قبل إغلاق الباب: عنبر.

بملامح طفولية وعيون مملوءة بالرجاء: عملتيلي كوسة بالباشاميل؟

ضحكت: أيوه، والحلو مهلبية بالمكسرات والعصير كوكتيل زي ما نفسك فيه بالظبط.

أطلقت إليها قبلة في الهواء، وقد تهلل وجهها بالفرح والسرور. تركتها عنبر ضاحكة فيما اتجهت سلمى إلى مرآتها تضبط الحجاب وتتأكد من ثباته.

***

خرجت ريتا من المكان المخفي الذي اختبأت فيه منتظرة هبوط عنبر، انتظرت دقيقة أخرى تراقب ظلها المختفي في إتجاه مكتب ياسين، حالما اطمأنت أخرجت من جيبها زجاجة ما ثم جثت على ركبتيها في قمة الدرج، تمسح فوق درجته الثانية والثالثة منه، أوشكت على إغلاق الزجاجة لكنها تراجعت وعادت تسكب محتواها فوق الرابعة أيضًا.

نهضت ودارت برأسها يمينًا ويسارًا قبل أن تخفي الزجاجة في الجيب مرة أخرى، تمسكت بسياج السلم وتمهلت في خطواتها شديدة الملاصقة للجانب بعيدًا عن المنتصف المكسوة بسائل لامع، عادت تهبط السلالم بطبيعية حين تخطت الدرجة الرابعة، أخرجت الزجاجة من جديد وأفرغت باقي محتواها القليل الباقي فوق السياج ثم أسرعت في سيرها فور سماعها غلق باب إحدى الغرف، جازمة أنها غرفة سلمى.

***

أغلقت سلمى الباب وعادت تمسك هاتفها، اقتربت من الدرج بخطوات متمهلة فيما تكتب رسالة ما على الـ(واتس آب) وترسلها إلى حياه، ابتسامتها اتسعت حالما

قرأت الرد بل وصلت إلى ضحكة ما، قرب مقدمة الدرج أعادت الهاتف إلى جيبها وبدأت في النزول.

بغتة فقدت توازنها وحتى يدها لم تستطع التشبث بحافة الدرج أو سوره، إلتوت قدمها وصرخت فيما فقدت ما تبقى من تماسكها ومحاولاتها لحفظ التوازن، انقلبت وتدحرجت حتى نهاية الدرج.

نصف جسدها العلوي يلامس الأرضية بإنهاك فيما علقت قدميها بين أسياخ سور الدرج الحديدية، شعرت بالخدر يسري في جسدها، لا تستطيع حتى خفض ساقيها عوضًا عن مكانهما المرتفع، فتحت فمها تحاول الخروج بنداء عبرهما لكن بلا فائدة، فقدت طاقتها حتى على الهمهمة، غمرت دموع العجز وجهها، أغمضت عينيها مبتهلة أن ينجدها أحدهم.

***

اعتدلت عنبر في وقفتها من جديد بعدما مسحت بقايا العصير المسكوب، اتجهت إلى حمام غرفة المكتب تغسل خرقة القماش المبللة بالسائل اللزج ثم عادت تتأكد من نظافة الأرضية، اعتذر منها ياسين بوجه متكور من الخجل، ألم يكبر على حركاته الطائشة التي تضيف لعنبر أعباء؟

ـحصل خير يا ابن ...

صوت الصرخة ثم الجلبة الصاخبة، جعل وجه الجميع يتغضن، امتقع وجه ماجد في خاطرة لم يدر من أين أتت إلى عقله، همهم بذهن غائب: سلمى؟

أسرعوا جميعًا مهرولين إلى الخارج، الجسد الممدد أسفل الدرج أوقف نظراتهم عن الدوران في المكان، شهقت عنبر صارخة بينما يدها تضرب صدرها في فزع، هرول ياسين إليها لا يستوعب ما تراه عيناه، شلّت يده قبل أن تمسها، وقفت في الهواء

مترددة، تخاف إصابتها بأذى أكبر أو حتى تزيد ألمها، دموعها خرقت قلبه، أعينها المتوسلة للمساعدة قبل أن تغمضها بإجهاد أوجعت فؤاده.

-لازم ننقلها المستشفى بسرعة.

استوعب ياسين كلمات ماجد ورفع رأسه بأعين زائغة: ممكن يكون في كسور، كدا نضرها.

نزل ماجد على ركبتيه أمسك ساقها بروية فيما عينيه تعلقتا بملامح وجهها، لا يبدو عليها الإنزعاج سألها رغم ذلك: حاسه بحاجه؟

هزة واهنة من رأسها يمينًا ويسارًا جعلته ينتقل إلى الساق الآخر ثم ذراعيها، تأكدوا تمامًا من عدم وجود كسور فحث زوجها على أن يحملها بينما يحضر السيارة أمام الباب مباشرة، ذهبت عنبر معه تحضر المفاتيح من السائق وتسلمها لماجد.

وقف لحظات حاملًا جسدها بين ذراعيه، دموعه تغمر وجهه بعدما أدرك فقدانها الوعي من شدة الألم، هل سيخسرها؟ هل سيفقدان طفلتهما؟، دوامة من التساؤلات غمرته حتى نسي ماجد ولم يفق إلا بعد إرتفاع زمور السيارة بشكل صاخب ووجه ماجد الحانق يهتف به.

مدد جسدها في الأريكة الخلفية ثم صعد يضع رأسها فوق فخذه و يملس حجابها الذي حفظ ثباته رغم كل ما جرى.

***

وضع كيسًا ممتلئ بالثلج فوق كدماته، يتركه قليلًا على كل واحدة، لقد اختفت ملامحه من كثرة اللطمات واللكمات، كان يتوقع ثورة نوح حين يدرك فعلته، حاول التحدث عدة مرات وتبرئة ساحته لكن الأخر لم يمهله.

غض الطرف عن نظراته المستعرة، يدرك مراقبة نوح -الغير مباشرة- لحركاته الخفيفة وتأوهاته الخافتة، عقله يعمل بتاني متحججًا بعلاجه لمواطن ألمه، لم يكن ليورط نفسه في هذه القصة إلا لو كان يضع يده على منفذ ما يدفع حنق الآخر عنه.

فتح نوح الثلاجة الصغيرة وتناول زجاجة عصير، فتحها وتجرع نصفها دفعة واحدة وهو ما زال واقفًا جوار بابها، تقدم بتمهل وعاد يسترخي في المقعد المقابل للطبيب، عيونه تخبره أنه لن يتركه يتهرب طويلًا، ازدرد الطبيب ريقه وتراخت يده الممسكة بكيس الثلج.

-بتضربني بدل ما تشكرني، هي دي أخرتها؟

فقد نوح أعصابه من جديد، مال بجذعه للأمام وهيئته تنذر بعاصفة أشد فتكًا من سابقتها، تقلص الطبيب في مقعده وأسرع يوضح: أنت عارف إن استفادتك من وجود الطفل وحياته أفيدلك مية مرة من موته.

استرسل محاولًا استجماع سيطرته على نفسه: نسبة العقم فـ البلد بتزيد يوم ورا يوم، وناس كتير بتحاول وتفشل باستمرار، العيوب الخلقية والضعف فـ جسم ستات دلوقتي خصوصًا فـ الأرحام زود نسبة العقم.. فبقى الأغلب بيلجئ لحل من أربعة..

رفع إبهامه أولًا ليبدأ في العد: يا يتقبلوا الأمر الواقع، ودا قليل ما بيحصل، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا.. ومين يستغنى عن زينته؟

أتبع الإبهام بالسبابة مكملًا: يا ينفصلوا.. وكل واحد يشوف حاله، ودا بيحصل لما يكون في قدرة على إنجاب الطرفين لكن مش من بعض، ودي إرادة ربنا، وبما إن أغلب جوازات الزمن دا بتبقى عن اسمه إيه دا.. أه، الحب، فبيبقى حل مستبعد.

جاور الوسطى إخوته: يا يتبنوا طفل من دار أيتام، ويتعرضوا للروتين والمتابعة الدورية، الإهتمام من المشرفين على الموضوع دا.. ومعرفة المجتمع كله إن ليهم طفل متبني، تبقى وصمة فـ حياتهم وحياته.. بلا بلا بلا...

ابتسامة مقيتة تشع على نحو مقرف: يا يشتروا عيل من أهله اللي مش عايزينه لأي سبب كان، يختفوا فترة وبعدين يظهروا والعيل بين إيديهم واللي يسألهم يقولوا دا ابننا.

ضاقت عيون نوح بتفكير بعدما وصله تلميحات الطبيب: وأنت عندك الزبون للعيل دا؟

ارتفعت أكتاف الطبيب إنتشاء بنجاح خططته: طبعًا، ومستنين العيل دا بفاارغ الصبر.

-هيدفعوا كام؟

قهقه الطبيب مظهرًا نابه المفقود من صف سنانه السفلي، لكنه زرع آخرًا في عقله ينهش بها الضعفاء ويستغل كل فرصة دنيئة: إتنين مليون.

أطلق نوح صفيرًا طويلًا، أذهله الرقم رغمًا عنه، رفع الطبيب إصبعه محذرًا: بس ليا النص، مليون بالتمام والكمال، ما ينقصش مليم، أنا اللي جايب الزبون ومنعت جريمتك فـ تنزيل الكنز الصغير دا.

غمزه مضيفًا بلؤم: ومش مهم أمه تاخد حاجه، يكفيها إن ابنها هيعيش فـ عز ويتربى أحسن تربية.. وأنت وشطارتك بقى.

تجرع ما بقى من عصيره، التمعت عيونه بالموافقة، فالمبلغ ليس بالقليل كما أن أدنى محاولة إعتراض ستدفع الآخر إلى التراجع تمامًا عن الموضوع، بالأخص لجهله بهوية الشاريين.

***

استندت على ناهد التي تلقفتها فور خروجها من الحمام، عاونتها كي تعاود الاستلقاء من جديد، أسرعت آية تغطيها وتربت على كفها بدعم ودفء، منتبهة إلى وجه زوجة أخيها الشاحب كالأموات.

جلس في ركن ما يدعي انشغاله بتصفح ملف يخص العمل بينما عينيه تراقبانها من أعلى النظارات الطبية، لفظته بعيدًا منذ تهور وأفلت لسانه باللوم والعتاب، أخرج توتره وقلقه -الذي دام طويلًا في إنتظار طمأنة الطبيب أنها والطفلة بخير- عليها فور رؤيتها، استعاض عن الابتسامة والمباركة للسلامة بالتقطيب والتأنيب.

سحبته ناهد وألقته خارجًا وأعينها تخبره أن حسابه آتٍ قبل أن تعود إلى الداخل وتغلق الباب في وجهه، لا يلوم أيًا منهم على تلك المعاملة، لكنه فاشل، فاشل عن جدارة في التعبنر عن حقيقة مشاعره، بالأخص حين يتعلق الأمر بسلمى.

دلفت الطبيبة المسئولة عن متابعة حمل سلمى منذ البداية، ابتسمت في وجوههم فيما تلتقط الورقة المعلقة على طرف السرير، قرأت بعينيها ثم أعادتها مكانها.

-أبشرك يا مدام سلمى.. تقدري ترجعي البيت من بكرة.

تهلل وجه آية مستبشرة: يعني خلاص يا دكتور هي بقت كويسه؟

-إيه كان لزمته اليومين اللي فاتوا أصلًا؟

ابتسمت الطبيبة في وجه ناهد برسمية: كان لازم نطمن على مدام سلمى، الواقعة مش هينة، وخطرها مش على البيبي وبس.. قاعدها هنا كان للمتابعة، خوفنا ليكون في أعراض أو إصابات اتأخر ظهورها.. نزيف داخلي مثلًا.

تشبثت آية بيد سلمى باسمة: المهم إنهم قاموا بالسلامة.

عادت الطبيبة تلقي تعليماتها على مسامع مريضتها: بس مع الآسف هتقللي الحركة تمامًا، والأحسن ما تتحركيش أكتر من الحمام أو تروحي من أوضة لأوضة.. ويا ريت الأوضة بتاعتك تبقى فـ الأرضي، ما تحتاجيش سلالم تاني

تدخلت ناهد: طبعًا، مافيش سلالم تاني لحد ما تولد بالسلامة، كفايه اللي حصل، وأنا هأروح حالًا اتأكد إنهم جهزوا أوضة الخزين اللي تحت السلم وخلوها تليق بيكِ.

-والتهوية مهمة.

-الأوضة تهويتها كويسه جدًا وليها باب على الجنينة.

تطوعت آية بالذهاب مع الطبيبة تحضر منها قائمة التعليمات وأسماء الأدوية التي جيب على سلمى الإنتظام عليها. جلست ناهد فوق مقعدها المجاور لسرير سلمى فيما تنازل ياسين عن ركنه الحبيب وجلس مكان آية.

تلاعبت أصابعها ببعض، صامتة ومستكينة، شاردة دائمًا، قليلة الكلام ولا ترد إلا عند الحاجة، همهمت بغتة حتى ظن الآخران أنهما يتوهمان سماعها مما اضطرها لإعادة ما قالت بصوت أوضح: مش عايزه أرجع البيت دا.

ارتبكت ناهد قليلًا لكنها اقتربت تربت على ساقها المغطاة: بس دا بيتك يا حبيبتي.

هزت رأسها المنكس بقوة وتأكيد: لا، دا مش بيتي.

فكرة ابتعادها أو عدم رغبتها في العودة إلى المنزل جعلته ينتفض واقفًا فيما ارتفع صوته بشيء من الحدة: إيه التخريف دا؟.. دا بيتك وهترجعيله.

رفعت رأسها بقوة وعيونها تستعر بغضب لم يره فيهما قبلًا: لا مش بيتي، ولا مش هأرجعله.

وقفت ناهد تضم كتفي سلمى محاولة استدراك الموقف قبل أن يتصاعد: ليه يا حبيبتي طب؟، حد زعلك فـ حاجه؟

أجابتها وعينيها لا تتركان عيني زوجها: عشان ماحدش يتهمني بإلاهمال وعدم الإهتمام بحياة بنتي وفـ الأصل في ناس تانية عايزه تخلص مننا.

اشتددت أصابع ناهد على كتفي الأخرى، تمنع تراجعها أو اهتزاز جسدها لهذا التصريح المرعب. كز ياسين على أسنانه وتعالى صوته أكثر فاقدًا ما تبقى من سيطرته: هي التخاريف دي لسه فـ دماغك؟.. وأنا اللي كنت فاكرك أعقل وأنقى من إنك تظلمي حد وتفتري عليه.

ـأنا ما ظلمتش حد ولا افتريت.. دي الحقيقة، وكونها مش جايه على هواك دا شيء تاني.

كتف ساعديه وبهدوء بارد سألها: طب إيه دليلك على كدا؟

علقت ناهد: دليل واتهامات؟.. أنتوا بتتكلموا عن إيه؟

أجابته سلمى دون أن تلقي بالًا لشقيقته: نظراتها ليا، الشماتة اللي شوفتها فـ عينيها، إحساسي وغريزتي فـ حماية بنتي هما اللي بينبهوني إنها عايزه تخلص منها.

ضحك ضحكة جوفاء ساخرة: وغريزتك فـ حماية بنتك دي ما نبهتكيش ليه قبل ما تقعي من على السلم، ولا خليتك تركزي فـ خطواتك بتحطيها فين.. بدل ما تمشي ترمي بلاكِ على الناس.

ـطلقني.

قالتها بإصرار وتصميم جعله يتراجع كالملدوغ، شحب وجهه وتراخت أكتافه، تلمست أعينه طريقها إلى عينيها يطالب بتكذيب لما سمعه، لكنه لم يجد سوى تأكيد قاتل لما قيل.

-برا يا ياسين.. دلوقتي!

قالتها ناهد بلهجة لا تقبل النقاش، إنصاع مغيب العقل، غادر وأغلق الباب خلفه بهدوء عجيب. أخذت ناهد عدة أنفاس قبل أن تجلس جوار فخذي سلمى التي انخرطت في النحيب فور مغادرته، راقبتها وعقلها نصفه يتابعها والنصف الأخر يفكر فيما قيل قبل قليل.

دلفت آية تطالع الورقة بين يديها ضاحكة: مش عارفه إيه كل التعليمات دي، أنتِ حامل فـ بنت واحدة ولا جيش...

بترت عبارتها لما رأت حال سلمى، توجهت بنظرها إلى شقيقتها تسألها في صمت عما جرى، أومأت لها ناهد كي تذهب وتتركهما قليلًا، وضعت ورقة التعليمات والروشتة فوق الطاولة الصغيرة المجاورة للباب ثم عادت أدراجها تحكم غلق الباب خلفها.

-ممكن تفهميني من الأول كدا إيه اللي حصل؟.. ومن إمتى بدأتِ تشكِ إن في حد عايز يأذيكِ أنتِ وبنتك؟

رفعت وجهًا غارقًا في الدموع، أفرغت كل ما في عقلها وقلبها من أحاسيس الأدلة عليها واهنة وضعيفة، استمعت لها ناهد بوجه محايد وبلا تعليق، انتهت سلمى من رواية كل التفاصيل ووجهها عاد يمتلئ بالدموع، أشفقت ناهد على حالها، ونكزها ضميرها بتأنيب؛ فهي من تسببت في إحضارها إلى هذه المعمعة منذ البداية وألقت عليها ما لا تطيقه نفسها.

***

دلفت من الباب متأففة من الحرارة الشديدة، ترفع خصلات شعرها المسترسلة بنظاراتها الشمسية السوداء، رحب بها الخادم باحترام قبل أن يخبرها بعودة سيده إلى المنزل كما اتصل وأخبرها بالأمس، شكرته ثم أمرته بإعداد الغداء في قاعة الطعام المكيفة؛ فلا قبل لها بالجلوس في الحرارة الحارقة خارجًا لمدة أطول.

همت تصعد الدرج في إتجاه غرفتها تلمسًا لإنتعاش أسفل المياه الباردة لكنها توقفت ثم التفتت جهة غرفة المكتب، اقتربت منها وبابها مواربًا، رأت ظهره شبه المنحني فوق طرف طاولة صغيرة في الزاوية، يقلب أوراقًا فوقها ولسانه يتحدث إلى شخص ما عبر الهاتف، صوته المنخفض بشدة أثار ريبتها، حمدت الله أن فتحة الباب تسمح بدخول جسدها وإن كان بشكل جانبي مسحوبة الأنفاس، حذاءها الرياضي كتم صوت خطواتها، وقفت خلفه تحاول التنصت لكن لم يصلها سوى جملة واحدة .

-ما تقلقش، الخطة ماشيه تمام.

استدار إليها وعيونه تمتلئ بنظرة مستصغرة، حاجبيه مرتفعان: تاخدي تكلمي رامز يا يُسر؟.. لسه كان بيسلم عليكِ.

كزت على أسنانها دون محاولة صغيرة في إخفاء تعابير الإشمئزاز التي طغت على معالم وجهها، استدارت وخرجت متجهة إلى غرفتها كما كانت تخطط. في كل مرة تراه تشعر برغبة في تمزيق وجهه بأظافرها الحادة وهو يتفنن في رفع مستوى هذا الشعور لديها.

تابعتها نظراته حتى توارت أعلى الدرج، دخل إلى مكتبه مجددًا مغلقًا الباب بإحكام هذه المرة، رفع الهاتف إلى أذنه من جديد وبأعين تلمع بنظرة غامضة: لا ما تقلقش، ما شكتش فـ حاجه.. وما أظنش لحقت تسمع أي كلام مهم.

***

تقطع لقمة أقل من حجم عقلة إصبعها، تغمسها في البيض المقلي ثم ترفعها إلى فمها فتدفعها بين أسنانها دفعًا، تلوكها يمينًا ويسارًا بحركة بطيئة شاردة، حالما تبتلعها ترفع كأس الحليب ترشف منه القليل قبل أن تعود لقطع لقمة في حجم عقلتها.

أمسك حمزه يدها بقوة يمنعها من متابعة روتينها في تناول العشاء البسيط، رفعت عينيها إلى وجهه مستفهمة، غمزها باسمًا بهدوء: لو مش عاجبك ما تجبريش نفسك على الأكل.. ممكن اتصل أطلب دليفري لو حابه تاكلي من برا.

تركت اللقمة تسقط فوق بقية الرغيف، حررت يدها من قبضته ثم رفعتها تحيط جانب وجهه وابتسامة مليئة بالمحبة والتقدير تنير وجهها: لا بالعكس، دا طعمه حلو جدًا، تسلم إيدك.

لثم باطن كفها قبل أن يسألها بقلق بدأ يتسرب إليه: أومال مالك؟

أنزلت يدها رويدًا وعادت تشرد بنظراتها: حالة سلمى مش مطمناني.

-مش زورناها إمبارح وسمعتي الدكتورة بنفسها بتقول إنها كويسه؟

-دا جسديًا، لكن نفسيًا..؟

بوجه جامد يخفي خلفه شكوكًا راودته قبلًا عن تذبذب غير طبيعي في علاقة ياسين بزوجته؛ كي لا يزيد قلق حياه: مش يمكن تأثير الحمل؟

ابتسامة موؤدة أجابته: لا دا تأثير حب مامنوش أمل.. حب من طرف واحد.

غمزها محاولًا تخفيف وطأة الحوار: مش يمكن الطرف التاني يفوق ويلحق يمسك الطرف التاني ويقرر أنه عايز يلعب شد الحبل؟

ضحكت من قلبها، وشاركها فرحًا بإنجازه، عادت لجديتها بعدما انتهت وصلة الضحك لكن ببؤس أقل: دا لما تكون إيده فاضية مش مشغولة بحبل حد تاني.

استدار إليها يسألها بجدية: وإيه اللي رماها على دا كله من الأول؟

ارتكزت بكوعها فوق طرف الطاولة ثم اسندت ذقنها فوق كفها وتنهدت بطريقة مسرحية تجيب على سؤاله: اسمه إيه دا اللي بيقولوله .. الحب.

ضحك رغمًا عنه من طريقتها: بس أنتِ قولتِ إنه ما جاش البلد من زمان أوي، من أيام ما كنتوا عيال.. لحقت تحبه إمتى؟

شهقت قبل أن تقول: أنا قولت.. «أنا» ما شوفتهوش من ساعة ما سافر مع إخواته أيام ما كنت عيلة.. ما تتكلمش بلساني تاني لو سمحت.

رفع أحد حاجبيه بإدراك: يعني هي شافته قبل كدا.

تركته دون تعليق وأمسكت باللقمة الصغيرة التي قطعتها تدفعها إلى فمها قبل أن تقطع أخرى ضخمة وتغمسها في صحن البيض تغترف منه وتحشر الطعام في فمها، متجاهلة ضحكاته المرتفعة على مظهرها الطفولي وحركاتها الشقية في التهرب من الإدلاء بمزيد من الإعترافات التي تخص صديقتها.

***

تجلس فوق مقعد وسط الخلاء تمشط شعرها بروية وانسجام، نظرت أسفل قدميها فلمحت بيضة، جذبها بياضها فألتقطتها بين أناملها وتأملتها، لم تكن مختلفة عن سواها ولكن دون سبب أحبتها وتعلقت بها، فجأة شعرت بشيء يحاول اجتذاب البيضة من بين أصابعها، نهضت، دارت حول نفسها، لا أحد.

أمسكت البيضة بكلتا يديها وركضت تحول الحفاظ عليها وتحميها، تعثرت وسقطت، نظرت إلى البيضة بلهفة تتيقن من سلامتها ثم تابعت الركض، وفجأة تحول سواد شعرها بياضًا.

فتحت عينيها على إتساعهما شاهقة، شعور الخوف الذي انتابها في المنام هو نفسه ما تشعره الآن، جسدها يرتجف فزعًا، حلمٌ يتكرر رغم توقفه منذ زواجها، لم ظهر الآن؟، وما كل تلك الرموز التي يحملها، ماذا تعني البيضة؟.. وكيف تحول شعرها أبيضًا رغم صغر سنها؟، والأهم لماذا ينتابها كل هذا الفزع كلما رأت نفس المنام؟

انقلبت على جانبها الأيمن بتمهل تتوسد كفها، لمحت آية في ظلمة الغرفة المكسورة بشعاع من القمر الشاحب تنام على الأريكة الصغيرة؛ حتى تكون في متناول يدها متى احتاجت إلى شيء، ابتسمت بحب وتقدير لشقيقة زوجها ال نون، لمحت بطرُف عينها هاتفها فوق الكومود المجاور، مدت يدها وفعلّت الباقة، دخلت على المتصفح بنهم تحب عن سر ذلك الحلم، ادخلت الرموز واحدًا تلو الآخر لتنتهي بجمع قطع الأحجية ووضعهم جنبًا إلى جنب.

شحب وجهها من النتيجة، أكانت إشارة من ربها منذ البداية ولم تدرك؟ أم أن غباء قلبها جعلها تغض الطرف عن العلامات المرسلة من أجل قرب الحبيب؟.. فرت دموعها وذراعيها تحيطان بطنها المنتفخ، ترغب بحماية صغيرتها، كلمات ناهد المطمئنة لم تنجح في إشعارها بالأمان الكامل وبعد الذي قرأته ذهب حتى البصيص المتبقي، يرن في أذنها تكذيب ياسين لأي كلمة تمس كادي من لسانها، لن يحول شيء بين كادي ورغبتها في إيذاء طفلتها شيء طالما بقيتا تحت نفس السقف.

نهضت متمهلة، تدس قدميها في الخف ثم تتجه إلى الخزانة، حمدت ربها أن هناك كمية لا بأس بها من الملابس أحضرتها ناهد منذ دلفت إلى المشفى، جمعتها بسرعة ودستها في الحقيبة الصغيرة، تركت الملابس التي سترتديها جانبًا.

***

جلست متأففة، تكره الأجواء اللزجة المعبأة بأنفاس تختلف في شهواتها، ساقًا فوق أخرى وجسد مسترخي في ظاهره بينما يتلوى من الداخل يرغب في التقيؤ، أصابعها تنقر بعصبية فوق ركبتيها المُطلتين من ثوبها الأسود القصير.

يجاورها عاصم متحدثًا بسلاسة ولا مبالاة، ذراعه مرتاحة خلفها فوق ظهر الأريكة الدائرية التي يجلس على طرفها الأيسر رامز يجاوره نوح في ابتسامات وتحيات يدرك الجميع زيفها ويخفي الجميع إدراكه.

الموسيقى الصاخبة ذات الإيقاع النشاز تارة والراقي تارة أخرى؛ ليتلائم مع كل الأذواق أصابها بصداع قاس، زادت ضراوته الإضاءة الملونة التي تتجول في أرجاء المكان، بالإضافة إلى المناظر الخالية من الحياء التي يقع بصرها عليها.

نظرت بتضرع إلى وجه زوجها تتمنى أن يحمل داخله نفس الرغبة في مغادرة المكان، خصوصًا وقد توقف حديثه مع الرجلين الآخرين، ضاقت عيونها متبعة نظراته التي انصبت على زاوية بعيدة بتركيز، كأن هناك ما يجذب إنتباهه حقًا فيها، دققت النظر لترى أن ظلمة تلك الزاوية تخفي امرأة تقوم بإشارة ما وحركات معينة تدعو بها عاصم حتى يلحق بها.

اختفت المرأة من الظل الذي وقفت فيه وتراجع عاصم في جلسته، التقط هاتفه من فوق الطاولة معتذرًا من الجميع على ضرورة إجراءه مكالمة ما، قبل جبين زوجته في إعتذار ضمني قابلته بابتسامة دبلوماسية تخفي خلفها فضولها ونيرانها.

أي امرأة تلك التي تلاعب زوجها أمام ناظريها؟، ولِمَ تبعها هي بالذات دونًا عن بقية الموجودات، تحججت برغبتها في الذهاب إلى الحمام، لم تهتم لتعليقات الرجلين وسارت في نفس الإتجاه الذي اتخذه عاصم.

وقفت تدور حول نفسها، ليس له أثر كما لو كان فص ملح وذاب، أوشكت على الاستدارة والعودة إلى حيث كانت عندما استوقفها بعد خطوات صوت نحيب امرأة

وحركة عصبية خلف أحد الأبواب المغلقة، اقتربت في فضول ووقفت تضع أذنها على خشب الباب المجوف.

-أنت ليه مش عايز تفهمني؟؟.. بأقولك لارا قالتلي هياخد ابني ويبيعه لناس ما أعرفهمش.. تصور الوساخه وصلت لإيه؟؟.. بيبيع ابنه وأنا قدامه مافيش فـ إيدي حل.

قطبت والتصقت أكثر بالباب تحاول إلتقاط ما يرد به محدثها لكن دون جدوى، الباب المغلق حال دون ذلك كما يبدو أن الرجل هادئ ومتمالك أعصابه على عكس المرأة، عاد صوت المرأة يعلو بنحيب وعويل، تشكو همها وقلة حيلتها.

-هتتصرف؟.. هتتصرف تعمل إيه؟.. أنا فضلت فـ القرف دا عشان ابني وبس، لكن لو هأخسره يبقى عليا وعلى أعدائي.

صمت خمنت يُسر أنه يخفي حديث الآخر: ماشي، هأصبر.. لما نشوف آخرتها.

استشعرت قرب خروجهما من الغرفة فتراجعت تتوارى في ظلمة خلفها، رأت عاصم يخرج بهدوئه المستفز والمثير للأعصاب ويتجه إلى قاعة النادي الليلي، أخذت عدة نفحات من الهواء وجذبت الثوب قليلًا بعدما لاحظت انكماشه إلى الأعلى واتجهت تتبعه إلى القاعة.

أثناء عبورها لمحت عبر الباب شبه المفتوح المرأة تجلس فوق مقعد وثير، تدفن وجهها بين كفيها، ضاقت عيونها فوق بطنها لحظات، بارزة قليلًا والثوب يخفي الوزن الزائد، لولا سماعها أغلب الحديث لما أدركت أنها تحمل طفلًا في أحشائها.

تابعت سيرها وقلبها يواسي تلك المكلومة، لا تعرفها ولم تتحدث إليها لكن بداخلها شيء تحرك تجاهها، قد تكون ظُلِمت كما الحال معها، دفعتها الأقدار إلى وضعها الحالي، ففقدت الحيلة إلا من الإنصياع والتعايش مع واقع لا تقبله.

***

اجتمع أحمد بعاصم ورامز في غرفة مدير الملهى الليلي بعدما تركها لهما عن طيب خاطر، جلسوا فوق الأثاث الجلدي يتحدثون ويتناوشون، العملية القادمة أشد خطرًا من سابقتها بالأخص لارتفاع قيمتها المادية، فالأولى لم تكون سوى جس نبض للرقابة عليهم كأشخاص وكنوعية تهريب.

سحب عاصم نفسًا طويلًا من سيجارته يحدثهم بهدوء: رامز بلغني إنكوا جمعتوا أقل من نص الكمية اللي متفقين عليها.

رفع أحمد بصره إلى معاونه الذي ارتبك قبل أن يجيب شريكه: التلت بالظبط، والباقي فـ الطريق.. أنت عارف أكيد إن الدهب مش شيء سهل فـ جمعه، خصوصًا لو كان فرعوني.

نفض سيجارته: سمعت إنهم اكتشفوا مقبرة جديدة فـ سوهاج.

ابتسم بثقة: مش قبل ما ناخد منها المفيد.

-قدامكوا كتير عشان تخلصوا الكمية كلها؟

-مش مستعجلين، كدا كدا لازم نهدى لحد ما العين تخف من علينا، صحيح العملية اللي فاتت عدت على خير، بس دا ما يمنعش إن الإحتياط واجب.

هز عاصم رأسه ثم نهض، فعص عقب سيجارته في منفضة السجائر قبل أن يستقيم بظهره منهيًا الإجتماع بينهم: لم يكمل هيبقالنا كلام تاني.

وقف أحمد باسمًا بثقته واعتزازه المعتادين يشير لضيفه جهة الباب يصحبه إلى الخارج، لحق رامز بهم ككلب صامت لا يتفوه بحرف إلا إذا سمح له سيده.

***

جلست على مقعد البار تتلاعب بكأس العصير وتديره يسارًا مرة ويمينًا أخرى، عينيها تتابعان المرأة الحامل منذ عادت للظهور بعد تمالكها لنفسها، يبدو عليها التعب لكنها مُقاومة جيدة، أولت القاعة ظهرها حالما اختفت مع أحد الرجال وركزت بصرها على الكأس الدوار.

شعرت بجسد يجلس في الكرسي المجاور لها، نظرت بطرف عينها جهة اليمين تتعرف على هوية ذلك المتطفل، عادت إلى كوبها بلا مبالاة، سمعته يسألها بعدما وضع النادل أمامه كأسًا من الخمر: مش عجبك الجو ولا إيه يا قمر؟

صمتت ولم ترد، كأن اللغو الذي طرق أذنيها لم يكن، بالكاد ارتشفت من السائل الأصفر الشاحب قبل أن تعيده إلى الطاولة، صمت مستجيبًا لصمتها.

استدارت إليه تدفع شعرها للخلف من الناحية التي تقابله بينما الأخرى زينت بمشط ألماسي يرفع خصلاتها اليمنى إلى ما فوق أذنيها، باغتته بسؤالها المباشر: تعرف إزاي بيفتحوا خزن؟

حدق في التصميم والتحدي في عينيها، رفع أحد حاجبيه وابتسم بتسلية: إيه؟.. مش بيديكِ اللي يكفيكِ ولا إيه؟.. مع إن شكله مش بخيل.

دون أن تهتز منها شعرة: أه أو لا.

رفع الكأس يرتشف محتواه دفعة واحدة، أعاده مكانه وأشار للنادل أن يحضر آخر يشبهه، رجع بنظره إليها وعيونه تلتمع بقوة: طبعًا أه.

أخرج علبة سجائره وسحب إحداها، أشعلها بهدوء وتركيز مبالغ فيهما، فهمت لعبته في

التلاعب بأعصابها وإن نجح فعليًا فلن تشعره بالإنتشاء لرؤية ذلك، سألها مركزًا داخل عيونها الصلبة، تبدو كدوامة لا قاع لها ولا نهاية، سواد براق فحسب: رقمية ولا بمفتاح ولا الإتنين؟

-الإتنين.

-تعرفي ماركتها؟

رفعت حاجبيها مستهجنة سؤاله، أشاح بكفه: مش مشكلة، لو ماركتها *** تدخلي الرقم دا 6877 هتفتح معاكِ على طول.

لمحت خروج عاصم برفقة البقية معلنين إنتهاء إجتماعهم السري الذي استبعدوها مع نوح منه، أمسكت حقيبة سهرتها الصغيرة ونهضت من مقعدها، اتجهت إلى حيث يقف زوجها يتابعها بنظرات حادة جامدة، استدارت لنوح في لمحة شقية وغمزته قائلة: على فكرة، عصير الأناناس بتعكوا وحش أوي أوي.

نفضت شعرها للخلف وأكملت سيرها، تأمل أن موعد الرحيل قد أزف، ابتسم نوح مرغمًا من خلفها، رغم قلة إحتكاكه بها إلا أنها منذ اللحظة الأولى أثارته بقوتها وعنفوانها، تتعامل مع وضعها الحالي بمنتهى الذكاء، لن يصعب عليه تخيلها تحرك زوجها حول أصغر أصابعها إن أرادت.

***

نمت لحيته بشكل عشوائي مشعث، أجفانه ذابلة متهدلة من قلة النوم، ندرة الغذاء وتناول الطعام زاد اصفرار وجهه أضعافًا عدا الخوف والفزع الضامرين في أركان جمجمته وأسفل ضلوعه، تخلل شعره بأصابعه للمرة المليون يزيد بعثرته.

دارت عيونه في أركان الغرفة التي يتشبث بالمكوث فيها منذ اختفاء سلمى، يناشدها بصمت علّها تبوح بمكان صاحبتها. فرت دمعة من عيونه بعدما ظن الجفاف قد أصابها، لقد مر أكثر من شهر على غيابها، بحث عنها في جميع الأنحاء بلا جدوى.

-كلمت عمو فاروق تسأله عنها؟.. يمكن تكون راحتله.

رفع رأسه مندهشًا، منذ متى وشقيقته الصغرى معه في الغرفة، لقد فقد كل إدارك بالمحيط من حوله، كأنها رحلت وقد حزمت وعيه وروحه معها، أنكس رأسه وهمهم بصوت يائس: كلمته كذا مرة، وقبل ما أنطق بكلمة سألني عنها وعن أحوالها، هي بتكلمهم وتطمنهم عليها بس من غير ما تحسسهم إنها سابتني.

تنهدت وجلست جواره فوق الأريكة: هي ما كانتش طبيعية آخر مرة شوفتها فـ المستشفى، حالتها النفسية كانت وحشة.

نظرت إليه بوجه يدرك وجع شقيقها لكن بصراحة المواجهة: بس أنت زودتها معاها، البيبي ابنكوا أنتوا الإتنين إزاي تتهمها بالإهمال فـ حياته؟، أنت ما شوفتش كانت بتجهز لوصوله إزاي؟

هز رأسه بتيه: مش عارف، مش عارف كلمتها كدا ليه.. وقولت الكلام دا كله ليه، حسستها إني مش واثق فيها وإنها مش غالية عندي.

مررت أصابعها الرفيعة فوق شعره بحنان: ما تقلقش، إن شاء الله نلاقيها قريب.. أنا سيبت ناهد تحت فـ أوضة المكتب بتكلم محمد تشوف آخر الأخبار.. هتروح فين يعني مسيرنا نلاقيها.

-حتى حياه مش عارفه لها طريق.

تنهدت: تلاقيها قررت تبعد، تعيد حساباتها وتنظم أفكارها، بعيد عن أي الضغط.

بصوت مليء بالشجن والعذاب: أطمن عليها، اتأكد إنها بخير، مش عايز أكتر من كدا.

شهقت باكية ومدت ذراعيها تحيط كتفيه تسحبه إلى أحضانها، لم يكن ياسين يومًا بهذا الإنكسار، تعلم جيدًا أنه ليس بالقوة الهائلة لكنه يتحامل على نفسه ليكون نعم السند والرجل لعائلته الصغيرة، حالته اليائسة في العثور على سلمى أكدت لها حبه الشديد وولعه بها، ابتهلت أن يتوصل هو كذلك لذات الاستنتاج؛ فلا يرتكب حماقة جديدة وقت عثوره عليها.

***

منشغل بضبط موضع الساعة حول معصمه حينما اصطدم بجسد ضعيف يقربه طولًا، تسرب إلى مسامعه تأوه ضعيف جذب ناظريه إلى ملامح ناطقه.

نضح وجهه بالدهشة نتيجة الغضب الزائد عن الحد لموقف يحدث ويتكرر يوميًا بصورة طبيعية، لكن منذ متى وأي حدث طبيعي مع «يُسره» يظل طبيعيًا؟!

همهم بجانب فمه متأففًا وقد أغلق مشبك ساعته العملية بإحكام: آسف.

تخطاها ليفقد توازنه ساقطًا أسفل قدميها، رفع إليها نظراته المصدومة، جابهته بقوة وجفاء، وقد انتصبت أصابعها الأربعة أمام فمها المفتور عن شهقة.. متقنة التمثيل، وأعين متسعة ببراءة لم تنطل عليه: ثواني كدا، أنا شنكلتك؟.. ووقعت كمان.. خلاص تمام ولا يهمك، أنا كدا قبلت آسفك.

نطقت آخر جملها بوجه بارد ثم أولته ظهرها متابعة سيرها دون أن تبالي بما فعلته أو بنظراته المندهشة التي سرعان ما حررت قهقهة عالية من أعماق صدره.

حثت خطاها متلفتة حولها كما اللصوص، اتجهت صوب غرفة مكتبه، ستستغل خروجه المستعجل وغيابه في تنفيذ ما عقدت عليه نيتها منذ مدة، لقد ظلت تأجل الموضوع حتى أتلف أعصابها، فلتفعلها وتنتهي.

وقفت أمام الخزنة الموضوعة فوق أحد أرفف المكتبة الضخمة التي شغلت حائطًا بأكمله، بحثت عن اسم الماركة الذي ردده نوح على مسامعها وظلت تحفظه وتكرره باستمرار، وجدته فتنهدت براحة نسبية، رفعت إصبعها وقد رجع إليها ترددها في الإقدام على هذه الخطوة أو الإحجام، تذكرت إغاظته لها بإخفاء الكثير عنها، من حقها أن تعرف ما يدور في الحلقة التي صارت في منتصفها.

أسرعت تنقر الأرقام الأربعة قبل أن تتراجع من جديد، أمسكت المقبض وفتحت باب الخزنة ليتحرك معها بسهولة، ملفات يعلوها مسدس، ظلت تحدق فيه بغباء وذهول قبل أن تحمله أسرعت تلتقط منديلًا قماشيًا من جيبها تمسك المسدس من خلاله، قلبته في يدها قليلًا ثم وضعته على المكتب خلفها، عادت تتناول الملفات تقلب فيها دون أن تفهم فحواها، أعادتها مكانها مغتاظة.

وقفت متخصرة، عيونها تستجوب الخزنة المفتوحة على مصرعيها، تعلم أنها لن تستطيع إعادتها كما كانت، هرشت رأسها تبحث عن حل، وقع نظرها على السلاح الراقد فوق سطح المكتب، أمسكته بعد تردد خائف تقلبه، وجدت رقمًا مسلسلًا يحتل جزء من أحد أوجهه، حفظته وأغمضت عينيها تكرره مرات ومرات.

سمعت جلبة في الخارج وصوت الخادم المسن يرتفع في تساؤل عن عودة سيده، أجابه عاصم بصوته الملول القوي: نسيت ورق مهم.. روح على شغلك، هأخد الورق م المكتب وماشي على طول، مش محتاجك فـ حاجه.

ألقت المسدس في الخزنة كمن لدغته حية ثم تراجعت إلى زاوية بعيدة من الغرفة تتخفى وراء الستائر الثقيلة داكنة الألوان، تراقب ما سيحدث.

خطى خطوتين ثم توقف، تعلق بصره بالخزنة المفتوحة، اقترب منها على مهل وعيونه تدور في أرجاء الغرفة، أغلقها وتأكد من إحكام غلقه وأعاد إدخال رقمًا سريًا جديدًا كما ظنت، التقط ملفًا من فوق المكتب بغلاف أخضر ثم أتجه إلى الباب، دار بعيونه للمرة الأخيرة في أركان الغرفة ثم انصرف.

خرجت من مخبئها، سحبت هاتفها المحمول من جيب بنطالها الجينز الضيق وكتبت الرقم المتسلسل في ملاحظة صغيرة عليه خوفًا من نسيانه.

***

مسدت جبينها متجهة إلى غرفة سلمى؛ كي تطمئن على حال شقيقها، لقد بذلت مجهودًا في الشهر المنصرم يفوق أعوام عدة، قلقها يشمل سلمى المتهورة والجنين في أحشائها، تصورت كل الأخطار التي قد تصيبهما حتى كادت تفقد الرشد.

تأففت لائمة سلمى على قلة صبرها وعدم ثقتها فيها، لِمَ تسرعت في الهرب ولم تنتظر حتى تتصرف هي مع تلك الحية، لقد صدقت ظنون سلمى بلا تردد، كادي تستطيع فعل أي شيء وأضعاف ذلك إن تعارض مع مصالحها الخاصة.

وقفت مقطبة حين وصل إلى مسامعها صوت ريتا الهامس: بس يا مدام كادي كدا الأستاذ ياسين هيقلب عليا ومش بعيد يطردني.

تأففت كادي بنزق: اسمعي اللي بأقولك ونفذيه بالحرف، كل حاجات البيبي المقرفة دي ولبس اللي ما تتسمى ترميهم برا فـ صندوق الزبالة.. مش عايزه يكون لها أثر فـ البيت.

-بس..

-ما بسش، ما تنسيش إنك اللي حطيتِ المادة اللزجة وسوائل التنظيف الشفافة على السلم عشان الهانم تتقلب القالبة إياها، تفتكري ياسين لما يعرف هيعديهالك؟

شهقت ريتا وانفجرت باكية: حضرتك اللي قولتيلي أعمل كدا.

أطلقت ضحكة رنانة: ومين هيصدقك بقى يا حلوة؟.. دا كله إهمال منك وقت ما بتنضفي، كانت ممكن تعدي لولا إن بإهمالك دا كنت هتتسببي فـ موت ولي العهد.

فارت الدماء في عقل ناهد لكن طبيعتها المتحكمة جعلتها لا تتسرع في إطلاق العنان لما يعتمر داخلها، لعنت كادي وسبت الخادمة الغبية لمعاونتها سيدتها الوضيعة في فعلتها، صعدت الدرج مسرعة وتوجهت إلى غرفة سلمى، يجب أن يعلم ياسين بما فعلته الحيّتان الساكنتان تحت سقف بيته، يقتاطان من طعامه وماله ليطعنوه في ظهره بلا تردد.

***

انحنت تضع الصينية المحملة بفناجين الشاي، تستمع لمحاولات زوج صديقتها في إيجادها دون جدوى، لا أحد يعرف عنها شيء ومكانها مجهول، جلست تطالعه بشفقة على حاله، لقد تدهورت نفسيته بشدة مدللًا على ذلك مظهره المبعثر، للمرة الأولى تكون على يقين من حبه لصديقتها، فور ظهورها من جديد ستطلعها على كل ما تراه عيناها حاليًا.

أفاقت على صوت حمزه المواسي: هي مش عايزه حد يلاقيها.. أول ما تحب تظهر هتظهر، وأديك بتقول مافيش أي أخبار في المستشفيات وخلافه.. دا فـ حد ذاته مبشر إنها بخير.

تخلل شعره للمرة الخلف مضيفًا عشوائية لتشعثه الأصلي، قال بصوت كمواء القطط المتألم: مش هأقدر أهدى غير لما ألاقيها وتبقى قدام عيني.

صمتوا لحظات في عجز عن إيجاد كلمات قد تفيده وتثبط قلقه ولو النذر اليسير، عاد يسأل حياه من جديد دون ملل من تكرار السؤال، تقابله حياه بنفس الإجابة بصبر وأناة.

-ما تعرفيش حد هنا ممكن تروحله؟ أو فـ أي حتة حتى؟

-صاحبنا أيام الكلية ماكانوش قريبين أوي، حتى كلامنا معاهم شبه انقطع بعد ما اتخرجنا، إلا من تهاني وسلامات فـ المناسبات على الفيس..

توقفت فجأة مقطبة الجبين بشدة كأن هناك خاطرة ما قد مرت على عقلها مما بعث الأمل داخل ياسين فحدق فيها بانتباه، حذا حذوه زوجها.

عادت تنظر إلى ياسين بتساؤل: أنت كلمت عمتها ثناء؟

قطب في جهل: مين دي؟

-دي عمتها اللي عايشه فـ مصر الجديدة، كنا قعدنا عندها أيام الكلية.

تذكر خيالًا بعيدًا لمحاورة دارت بينهما في وقت ما، أخبرته عن تلك العمة، وحزنها عندما لم تستطع حضور العرس بسبب سفرها لإجراء عملية بالبلد التي يعمل بها ابنها الأكبر. استدار إلى حياه والأمل يتعاظم داخله، هب واقفًا يتلهف الذهاب.

قبض حمزه على ذراعه يدفعه للعودة إلى مكانه مبررًا تصرفه وموضحًا وجهة نظره: خلي حياه تكلمها تتأكد الأول؛ بلاش تدي لنفسك أمل مبالغ فيه.

هز رأسه لزوجته يحثها على الإتصال، تحدثت مع العمة بشكل طبيعي، تسألها عن حالها وأحوال ابنها، ذكرت اسم سلمى بطريقة قد تبدو عفوية لكن العمة اكتفت بالتعبير عن شوقها إلى رؤية ابنة أخيها، إلتوت شفاهها ونظرت بيأس إلى كلا الرجلين.

تراجع ياسين منكسرًا حزينًا، أوشكت على إنهاء الحديث وإغلاق الخط حين سمعت صوت يتحدث إلى العمة، أغلقت الخط واستدارت إلى ياسين ومعالمها ممتلئة بالحنق والغيظ.

-سلمى هناك.

ارتفع رأس ياسين مصعوقًا وزوجها يطالعها بعجب، بررت: سمعت صوت بيكلم عمتي ودا خلاها ترتبك شوية وعايزه تقفل بسرعة.. وطبعًا هي بتتكر إنها كلمت سلمى من فترة، هأديك العنوان وروحلها فجأة؛ لإن غير كدا مش هتوصلها.

خربشت العنوان فوق أقصوصة ثم ودعته مع زوجها مشددة عليه الإتصال وموافاتهم بالمستجدات، أغلقت الباب ونظرت لزوجها مظهرة غيظها من صديقتها.

-تستاهل، عشان تبقى تخبي عليا مكانها وما تطمنيش عليها.

حاول حمزه إخفاء إبتسامته لكنها انفجرت في شكل ضحكة مجلجلة؛ طفلة مهما فعلت بها الحياة أو تعرضت لمشاكل وتقدم بها العمر.

****

انغمست في الرواية التي تحملها بين أصابعها، تمد يدها بين حين وآخر إلى كأس العصير على الطاولة المجاورة، تحيا في عالم مصطنع، يخرجها مجبرة من حياتها الغامضة ذات الألغاز التي بلا حلول فتدخل أخرى لها نهاية وتفسير مؤكد.

من شدة انغماسها فيما تقرأه لم تشعر بإنضمام عاصم لها وجلوسه على المقعد المجاور، تفصلهما الطاولة الصغيرة فحسب، حين مدت كفها لمحته أخيرًا، انتفضت بخفة لكنها

استدركت الأمر؛ لن تظهر أمامه أي مؤشر للضعف والإهتزاز، رمقته بعدم إهتمام ثم عادت إلى روايتها متجاهلة حضوره الطاغي على خلايا عقلها.

-حددي مكان نتغدى فيه بكره.

تجمدت نظراتها في رد فعل يتيم صدر عنها: والمناسبة؟

لا يستطيع مقاومة إعجابه بثباتها الإنفعالي، تتحكم في تعبيرات وجهها ونبرة صوتها بمهارة شديدة تتنافى مع خبرته في النساء. أجابها بهدوء ثلجي: المفروض إننا فـ أول كام شهر من جوازنا ومش طبيعي خروجنا القليل اللي أغلبه مقابلات شغل ومجاملات إجتماعية.. بدون ما يكون في وقت نقضيه لوحدنا.

تركت الرواية تستكين فوق فخذيها عاقدة ذراعيها بسخرية: ما تقوليش إن كلام الناس إمبارح أثر فيك.

نهض قائلًا بحزم يرفض الجدال: أنا مش شايف فـ جوازنا لحد دلوقتي إننا بنرضي جهات تانية غيرك وغير الناس والشكل الإجتماعي.. أنا مثلًا إيه اللي يرضيني فـ جوازة زي دي؟

إزدردت ريقها محاولة قمع غيظها: أختار المكان اللي هنتغدى فيه؟

أومأ بحذر، لمعة عيونها المنتصرة والمتحدية أثارت حفيظته لكن الإجابة كانت أسهل من كل التحليلات التي خطرت بباله: تمام، فـ المطعم الدوار.

***

يحوم بسيارته حول المنزل مرارًا وتكرارًا بعدما تأكد من صحة العنوان، يتلمس أقل هفوة قد تدل على تواجدها، يخاف إن تقدم وبادر بالهجوم أن يعود منكسر الرجاء، حك لحيته النامية في حيرة، أيدخل ويواجه العواقب مهما كانت سواء بوجودها أو فراغ المكان من طيفها.. أم ينتظر حتى تمل منه الحيرة فتقطع شكه باليقين؟

انتصب في جلسته بغتة، إنها تغادر البناية ملقية التحية بابتسامة على الحارس الذي سبق وسأله عن العنوان للتأكد، تقدمت عدة خطوات بنفس الجهة، همّ بالترجل من سيارته حين اكتشف أن لا دا ع لذلك؛ حيث دلفت إلى محل بقالة قريب، قطب في عجب، لم يكن الأمر يحتاج إلى نزولها بنفسها؛ فالحارس متواجد غير مشغول.

تابعها تعود إلى البناية ويدها تحمل كيسًا داكنًا يبدو عليه الإمتلاء، تردد من جديد؛ فبعد تأكده من وجودها لدى عمتها وكمال عافيتها، يخشى أن تعود للفرار مجددًا حينما تعلم اكتشافه مخبأها. ضرب المقود بقبضته حانقًا؛ تصرفات طفولية لا تجدر سوى بالمراهقين الصغار صارت من نصيبه مع زوجته الحامل.

تعاقب الزفير والشهيق عبر مجر تنفسه لإكتساب بعض الهدوء والتحكم في الذات، قرر أخيرًا بعدما استعاد تمالكه لنفسه أن يصعد إليها مهما كانت النتائج، هو لن يسمح لها بالإختفاء مجددًا.. سيعيدها برفقته إلى المنزل، أوشك على الهبوط حين لمح إنعكاسه في المرآة الجانبية للسيارة، قطب مصدومًا من مظهره المشعث والمتعب، فكر في العودة إلى المنزل والإستعداد أولًا لكن شوقه لرؤيتها عن كثب والإطمئنان بشكل مفصل على صحتها هو الغالب.

حيا الحارس في طريقه إلى المصعد، بضع ثوان تفصله عن لقائه بزوجته بعد غياب طويل. وقف أمام الباب بعدما دق جرسه في إنتظار الإجابة، تتقاذفه الظنون ويتخيل سيناريوهات مختلفة للقاء. فتح الباب وطالعته سيدة في الخمسينات من عمرها، سمينة لكن ملامحها بشوشة وزاد حجابها الأبيض من بهجة وجهها القمحي.

أومأت له باسمة باستفسار صامت عن سر زيارته، إحساس داخلي أنبأه بمعرفتها لهويته: سلمى موجودة؟ أنا ياسين جوزها.

سألته دون أن يتعكر صفو ملامحها: وهي لو مش هنا كنت هتبقى واقف على بابي دلوقت؟

شعر بالحرج يغمره حتى أذنيه، أنقذته من حالته بفتح الباب على مصرعيه تدعوه إلى الولوج، عبر الممر الضيق ثم استدار يسارًا كما أشارت له العمة، قابله الجانب الأيمن من زوجته المسترخية فوق الأريكة وقدميها مرفوعتان على مكعب مبطن قصير، تتناول التسالي المقرمشة سبق لها ابتياعها من البقالة بالأسفل تحت نظراته المراقبة.

نظرت إليه بجانب عينها وبفم محشو بالتسالي: تعالى اتفضل.. ضيافتك مستنياك.

أشارت مع جملتها الأخيرة إلى عصير معلب بالنكهة التي يفضلها متروكة فوق طرف الطاولة البعيد عنها، حادت العمة عن مكان إجتماعهم يسارًا إلى ممر آخر خمن أنه يدلي إلى غرف النوم. تقدم رويدًا يراقب لا مبالاة سلمى بحضوره والأدهى عدم دهشتها لرؤيته.

-أنتِ كنتِ عارفه إني جاي؟

أجابته دافعة عدة رقاق بين أسنانها: عربيتك ملفتة.

تذكر سيارته الجاكوار ذات الطلاء اللامع، لم يستطع إخفاء ابتسامته مستمتعًا بما يجرى فيما إنمحى أي أثر للتوتر والقلق الذين أوشكا على الفتك بأعصابه، استرخى في جلسته مطلقًا بصره في تأمل ملامحها، شوق ألم به حال رؤيتها. إنتفاخ قدميها صار واضحًا، تعجب من قدرتها على السير مع هذا الثقل في قدميها، ظهر بروز بطنها بشدة؛ يبدو أن ابنته استغلت فرصة غيابها عن عيونه لتنمو بسرعة، وجهها اشتدت استدارته وأصبح محمرًا كأن أحدهم قد شدّ وجنتيها، لا أثار للسهر أو القلق حول عينيها. غمره الغيظ؛ فيبدو أن الذعر والسهاد كان من نصيبه وحده.

-لمي حاجتك عشان ترجعي معايا.

نبرته أتت باردة وبها لمحة من القسوة نتيجة أفكاره الأخيرة، بالكاد نظرت صوبه ثم عادت عيونها تتابع الشاشة التلفزيونية: مش هأتحرك من هنا.

زفر: أديكِ قعدتِ عند عمتك أكتر من شهر.. استجميتِ وشبعتِ منها يلا بينا بقى على البيت.

استدارت ناحيته وعيونها تكمش نظراته بقوة: كادي لسه هناك؟

استعجب من سؤالها لكنه رد: طبعًا.

عقدت ذراعيها فوق بطنها المنتفخ: يبقى مش راجعة.

بدأت أعصابه تتفلت من زمامها: بلاش لعب عيال يا سلمى وقومي معايا.

-أنت عايز تخلص منها؟

قطب؛ لعدم إدراكه مقصدها: هي مين؟

أشارت بسبابتها إلى بطنها غير قادرة على النطق، غمرتها مشاعر الخوف والقلق على فلذة كبدها حين تذكرت الخطر المحدق بها، شحب وجهه وفقد لونه، هز رأسه بقوة لا يعرف إلى أين تريد الوصول.

أنهت حيرته بقولها المؤكد على كل كلمة فيه: يبقى مش هأتنقل من هنا.

فرك وجهه المجهد بكفيه، لقد تعرض إلى ما يكفي من ضغوط نفسية حتى تزيدهم سلمى بظنونها، بصوت مليء بالتعب: لسه بردو الأوهام دي فـ دماغك؟.. كادي هتأذيكِ ليه؟.. وبفرض إنه شغل ضراير.. هتأذي طفل لسه ماخدش أول نفس ليه من الدنيا ليه؟؟!

زمت شفتيها في غيظ: والله الأسباب دي ما تخصنيش، أبقى اسألها عنهم.. كل اللي يهمني حياة بنتي وبس.. وطول ما أنا وهي تحت سقف واحد مش هترتاح غير لما تخلص علينا.

كز على أسنانه، يعلم أنه لا مجال للجدال معها؛ فقد كونت فكرة سيئة عن زوجته الأولى في رأسها ولن تتزحزح من عقلها. ظن يومًا أن عقلها أنضج من خزعبلات الصعيد وجهل بعضهم لكنها تظل جزء من ذاك المجتمع وتحمل في دمها أفكاره ومعتقداته بكل تفاصيلها.

-طب والحل؟، ما أقدرش أسيبك عايشه هنا.

رفعت كتفيها: ليه يعني؟.. ما أنا قاعدة هنا بقالي شهر وزي الفل أهو، تقدر تيجي فـ أي وقت.

سمرها بنظرته الحازمة: بس أنا عايز أشوف بنتي بتكبر قدام عيني.. كل زيادة ولو صغيرة فـ محيط بطنك.. كل رفسة هتعملها وكل تفصيلة صغيرة بينكوا.

بهتت من فرط المشاعر التي رأتها في حدقتيه، الآن تستطيع تفسير الحالة التي تراه بها منذ دلف وجلس بجوارها؛ لقد افتقد تفاصيل طفلتهما كما يسميها، الوجع في عيونه لخسارته شهرًا كاملًا من نموها أصابها بعقدة الذنب، فقدت القدرة على النطق، فأي كلام لا يفي مشاعره حقها.

همهم بذهن شارد: موقفنا المالي دلوقتي ما يسمحش اشتريلك بيت.

لمح علبة العصير التي أشارت إليها مسبقًا فأختطفها متناولًا إياها دفعة واحدة، روى ظمأه وبث كمية كافية من السكر داخل معدته تعينه بإمتصاصها في وقت لاحق على التفكير بشكل أصفى وإيجاد حل مناسب. لم ينتبه ليده التي إلتقطت شطيرة الجبن من يد سلمى حينما قدمتها له، تناولها سارحًا في دنيا الحلول ينتقي أنسبهم.

-شقة ناهد، هتقعدي فيها لحد ما ربنا يسهل ونلاقي حل للمشكلة اللي بينك وبين كادي.

رفعت حاجبيها بسخرية لكنه تجاهلها: ناهد هتقعد معاكِ فـ الشقة، وهأخلي دادة عنبر تكون معاكِ.. علاقتكوا كويسة ببعض، أظن كدا ما عادش فيه مشاكل.

حدجته صامتة قبل أن تهز كتفيها باستسلام، لقد سبق وأشعرها بالذنب ثم حله المؤقت هو المناسب لمطالبها ومحققًا رغبته في نفس الوقت، سيشعر بالحرج من دخوله كل يوم للإطمئنان على صحتها وجنينها.. في الحقيقة ليس وحده بل هي

أيضًا، أحد أسباب استسلامها لرؤيته الليلة هو شعورها بالحمل الذي ألقته على كتف عمتها الحنون، تعلم أنها لن تشتكي وستتحملها إلى النهاية ولكن يجب على الضيف الإحساس بمضيفه.

***

تقدمته ببطء في ظلام المنزل المتروك بلا روح تقطنه، أغلق الباب بكعب قدمه أثناء إمتداد يده لإشعال الإنارة، غمر الشقة الضوء بغتة لتفاجئ ببرودتها، برودة ليست في الهواء بل في الشعور بها، توغلت بها على مهل مقشعرة البدن.

ممر قصير يصب في غرفة معيشة صغيرة، بالكاد تسع أريكتين ومقعد حول التلفاز بينهم طاولة زجاجية بيضاوية، انجذبت إلى النافذة الممتدة من الحائط للآخر، نظرت إلى الأنوار البراقة للمباني المحيطة على مرمى البصر عكس ظلمة السماء حتى مع بريق النجوم.

شعرت بحركته في الخلف، استدارت تراقب تنقله في المطبخ الأمريكي يفرغ الأكياس التي أحضرها كمخزون والهاتف المحمول معلق بين كتفه الأيسر وأذنه.

-أيوه، ما تقلقيش هأقعد معاها إنهارده.. بس يا ريت الصبح تكونوا هنا عشان الشغل..

صمت قليلًا مصغيًا للذي يقال على الجهة الأخرى: مش عارف، هاسألها.

إلتفت حينما اقتربت تقف خلف الحاجز الرخامي للمطبخ: عايزه حاجه من البيت؟

رفعت كتفيها بتشتت لكنها قالت: عايزه شوية هدوم ليا.. و.. حاجات جنة.

رفع حاجبيه بشدة حتى كادا يلمسان منبت شعره، لم يعلق فيما إزدردت ريقها بصعوبة: هاتيلها هدوم.. بس خلي بالك بطنها كبرت، جيبي حاجات تنفعها لمدة أطول من كام يوم

أغلق الخط وأعاد الهاتف إلى جيبه موجهًا نظراته إلى زوجته: يظهر إن الفترة اللي فاتت حصل فيها حاجات كتير.. ولغتيني لدرجة إنك ما أخدتيش رأيي فـ اسم بنتنا.

شدد على الكلمة الأخيرة مما دفع وجنتيها إلى التوهج بشعور غامر من الخزي، دق منتظم على باب الشقة خلصها من نظراته السالخة، انتبهت قليلًا لكنها تراجعت إلى أحد الأبواب الثلاثة حالما تعرفت على زي الأمن الخاص بالبناية، نظرت داخل الغرفة بأسى، ثم انتقلت للأخرى المجاورة للمطبخ وبابها خلف الأريكة الأكبر، لوت شفتيها بسخرية؛ فرغم تخصيص حمام بالغرفة إلا أن ذلك لم يضف إليها درجة واحدة من الحميمية والدفء.

أغلقت الباب عائدة لقاعة المعيشة، ارتمت على الأريكة زافرة بحدة، لاحظها ياسين من المطبخ لكنه لم يعلق، أكمل ما يفعله من إعداد للطعام الجاهز الذي أوصى الأمن باستلامه من عامل التوصيل ثم حمل الأطباق واتجه يجلس جوارها واضعًا ما في يده فوق الطاولة البيضاوية.

سكب لها كمية زائدة لكنها لم تعلق وتسلمت منه الطعام في صمت، امسك الطبق الممتلئ بحصته وتراجع في جلسته يسألها باهتمام عما بها، تهربت مدعية عدم أهمية ما في عقلها، ترك صحنه واستقام معدلًا جسده بزاوية ناحيتها.

ألح: سلمى، بينا مشاكل وعدم تفاهم كافي.. مش ناقص تزودي حاجه.

فغرت فمها مصدومة: تقصد تقول إن عدم التفاهم اللي بينا بسببي؟؟

وضعت صحنها جوار خاصته فوق الطاولة مصدرة قرقعة صاخبة، استدارت إليه حانقة: وأما أنا السبب.. أومال مين اللي كان بيحاول يخلي الحياة بينا تنجح الشهور اللي فاتت دي كلها؟!

تجمدت ملامحه: ومين اللي هرب من 33 يوم؟

غيرت جلستها حتى أوشكت الأريكة على ابتلاع جسدها، عقدت ذراعيها بعناد ورفض للخوض في مستنقع كادي مجددًا، خصوصًا مع يقينها من تكذيبه لما تقول: أنا عارفه وأنت عارف ومش هأتكلم فـ الموضوع دا تاني.

كز على أسنانه وأغمض عيونه ثم بدأ في العدّ حتى العشرة، أعاد فتح عيونه وقال بكل ما يملكه من صبر أوشك على النفاذ: دا ما كانش موضوعنا.. تسمحي تجاوبي على سؤالي من غير لف ودوران...

أوشكت على الهجوم من جديد لكنه رفع كفه يطالبها بالصمت، بوجه مستكين وضح: سلمى.. عارف إننا وصلنا لطريق مسدود وعشان كدا هربتِ، مش عارف هتصدقيني ولا لا بس فعلًا كل هدفي إن علاقتنا تتحسن.. أو تقدري تقولي نوصل لنقطة وسط.. الموضوع ما بقاش أنا وأنتِ بس، فيه طفلة.. بيني وبينك، لازم نتواصل عشان ما نأثرش عليها بشكل سلبي، ودا مش هيحصل طول ما أنتِ بتخبي جواكِ، بتفضلي تقولي مافيش وتتهربي.. لحد ما يفيض.. زي يوم المعرض.

زاغت عيونها متذكرة جدالهما الحاد، وقوفهما فوق السلالم والصراخ.. الإتهامات والكلمات التي آذت كليهما: سلمى.. أوعديني إنك ما تخبيش حاجه، قولي الحلو والوحش، اللي بيدور فـ دماغك.. أنا مش ساحر عشان أعرف اللي فيه.

هسهست: حتى لو قولت. مافيش حاجه هتتغير.

رفع حاجبيه: إيه الثقة دي كلها؟.. جربي، على الأقل ما أحسش بالضياع وأنتِ سايباني واقف فـ الضلمة.

تنهدت، فسألها يريد التأكد من استيعابها لما قال: اتفقنا؟

-اتفقنا.

-حلو أوي، في إيه بقى؟

رغم شعوره بالراحة لتجاوبها معه إلا أن جهله بما أزعجها يقف كحجر عثرة في طريق استرخاءه الكامل، تتبعت عيونه جولة نظراتها في المحيط، بدء من السيراميك الأبيض وهو أفتح ما في الغرفة ثم الأرائك العصرية سوداء اللون، الجدران رمادية اللون بتفاوت مع رتوش من الأسود، أخيرًا توقفت نظراتها على الستائر بالرمادي الفاتح على النافذة بأكملها وقد تجمعت الطبقة الثانية منها بلونها الأكثر قتامة على الجانبين.

رفعت ذراعيها مشيرة للمحيط وهي تزفر: كل دا حاساه كاتم على نفسي، خانقني.

لو شفتيه مؤيدًا وجهة نظرها: هي كل الشقق هنا بالنظام دا، ناهد ما غيرتش فيها حاجه.

ابتسم في وجهها بوعد صادق: هأحاول أحللك المشكلة دي ما تقلقيش.

أشار إلى الطعام يحثها على إكماله لكنها هزت رأسها رافضة: مش قادرة، بصراحة نعسانة جدًا، هأنام فين؟

-الأوضة اللي تريحك، ممكن اللي فيها حمام.. بتحتاجيه كتير الفترة دي.

أحمرّ وجهها: بس مش دي أوضة ناهد؟

-ما اعتقدش هتتضايق، وبعدين هي أوسع وهتناسبك أنتِ وعنبر، الأوضة التانية ما تاخدش أكتر من شخص، وبردو هتبقى صغيرة.

أومأت: طيب، تصبح على خير.

أغلقت باب الغرفة التي نصحها بها، أشعلت الضوء وجلست فوق السرير تستوعب ما مرّ خلال اليوم فوق رأسها، متعبة ومنهكة أكثر من المعتاد، عدم تصديقه لها وإيمانه الشديد بكادي يزيد وجعها، دائمًا ما ستكون في المرتبة الأخيرة معه وله.

***

تمطأت وفتحت عينيها على مهل، تسربت أشعة الشمس عبر الستائر البيضاء الشفافة لتزعج عيونها الناعسة، نظرت حولها فلم تجد أثرًا لزوجها رغم وجود دلائل نومه جوارها على الغطاء المزاح والوسادة المنضغطة بفعل رأسه، سمعت جلبة خفيفة كأن مُحْدِثها يحاول كتمها.

وقفت على باب الغرفة تحدق حولها في ذهول حتى نسيت أصابعها في شعرها الأشعث، في ظل انشغالها بالتغيرات المحيطة لم تنتبه لذهاب وإياب ياسين من المطبخ تحضيرًا للفطور، سألها بعدما أنتهى مما كان يفعله: مش أحسن شوية؟

تبدلت الستائر الرمادية بأخرى صفراء، تناثرت مزهريات مليئة بالورد في أرجاء القاعة، علقت ساعة ملونة بشكل مضحك متنافرة مع الخلفية الحائطية المزركشة، عدد من الوسائد الضخمة بألوان تداخلت مع الأصفر وضعت في الأماكن الفارغة بشكل عشوائي.

لم يسعها سوى التساؤل بعجب: لحقت تعمل كل دا إمتى؟

-كان لازم نحل الأزمة قبل ما تتفاقم المشكلات فتتحول إلى عوائص شديدة النكد على الذات.

قهقهت من لهجته الرسمية المبطنة بالمزاح، انتبهت لأول مرة إلى الطاولة العامرة بفطور شهي، لم تكن قد لاحظت تواجد تلك الطاولة لكن حين اقتربت أدركت السبب؛ يمكن بسطها وقت الحاجة وإعادة ثنيها لتلتصق بالحائط دون ملاحظتها؛ فلونها داكن كالحائط تمامًا. جلست حيث أشار، بسملت وهي تشعر ببوادر انقلاب أمعائها، تناولت قضمة من بيض العيون وبسمة مغتصبة توجهها إلى نظراته المتأملة لردة فعلها على ما صنع بيده.

ترجعت في جلستها قليلًا فيما تمضغ ما قضمته، تحاول مقاومة التغيرات الحادثة في معدتها، يبدو أن ابنتها لم تتخل عن تقززها ناحية البيض منذ بضعة أسابيع، غصة صعدت إلى حلقها تخشى ظهور المنغصات على صفحة وجهها فتعكر سعادته بما صنع، تنهدت تأخذ قضمة أخرى تحت إلحاح نظراته.

الثالثة كانت الأخيرة بالنسبة لقدرتها على التحمل، غطت فمها وأسرعت تستدير صوب الحمام تفرغ اللقيمات التي تناولتها قبل برهة، شعرت به خلفها يسندها إلى الخارج، أجلسها فوق الأريكة ثم ناولها كأسًا من الماء قد تركه على مقربة قبل توجهه إليها، الحياء حال بين رفع نظرها ومواجهته. توجس قلبها رغمًا عنها؛ مما قد يسببه قيئها في زيادة تعكير صفو الجو.. غير الرائق بالأساس.

-تعالي كملي فطارك، بطنك فضيت تاني.

رفعت إليه عيون متوسلة، تترجاه عدم الضغط عليها وزيادة حرجها، لم يعد في مقدورها

تحمل تقلصات معدتها للفظ ما هو غير موجود، لكنها استشعرت بغتة اختفاء رائحة البيض وكأنه لم يكن، استدارت تنظر خلفها لتجد الطاولة خالية من بقايا صحنها كذلك.. صحنه! تم استبدال البيض بحليب وبعض الرقائق المقرمشة من الكورن فليكس منتظرين خلطهم فحسب، عادت بعيونها إليه متسائلة في صمت، ابتسم بنفس متفهمة: لو كنت قولتيلي من الأول إنك مش طايقه ريحة البيض أو طعمه كنا حلينا الموضوع قبل ما يوصل للحمام.. بس ملحوقة، تعالي كملي فطارك..

جرت قدميها وعادت تحتل نفس المقعد تراقبه يقف في خدمتها، يضيف الحليب الساخن فوق الرقائق قبل أن يضيف إليهم فواكه مجففة زيادة في التغذية وتزكية للطعم، قابلها في مقعده وصنع لصحنه ما صنعه لها، انغمسا في تناول الطعام في صمت.

رنين الجرس الذي سبق فتح باب الشقة جذب انتباههما، هرعت آية تضم زوجة شقيقها في فرحة ظاهرة، بادلتها سلمى السعادة بعودة اللقاء، من فوق أكتافها لمحت عنبر تنسحب إلى المطبخ بعدما تمتمت بترحيب بالكاد أدركت فحواه فيما استغرقتها نظرات ناهد إليها والصقيع المبثوث منها، لقد تمكنت من إغضابها حقًا بالفرار!

اقتربت سلمى من ناهد بعد فترة تحاول مد جسور الصلح بينهما، ألتقطت كفها وبأعين تتوسل الرضوخ قليلًا: ممكن تنزلي تمشي معايا شوية؟

انسحب ياسين متجهًا إلى عمله فور إطمئنانه لاستقرار الجميع. آية تعللت بمساعدة عنبر في شيء ما متأمرين جميعهم ضد غضب ناهد من زوجة شقيقها الثانية، استسلمت في نهاية المطاف متقدمة سلمى في السير متجنبة حتى مجاورتها برفض واضح لأي صفو قد يطغى بينهما.

ارخت جسدها فوق مقعد مقابل للنيل، عيونها تشرد ما بين السيارات المسرعة فوق كبري قصر النيل وإنعكاس شمس البكورة فوق السطح المائي المنبسط أمامها، لم تستوعب ناهد تخلف الأخرى عنها إلا بعدما سارت عدة أمتار، عادت بصمت تشاركها الجلسة دون عتاب أو تذمر من تجاهل إخبارها عن رغبتها في التوقف.

-كنت خايفة.. خوفت على بنتي، الحاجه الوحيدة اللي مدياني العذر فـ تمسكي بياسين، إنه حقي أكون معاه، حته منه ومني.. النقطة الوحيدة اللي خطوطنا تقاطعت عندها.

-قولتلك إني معاكِ، هأفضل جنبك.. هنلاقي حل.

-مش يمكن تلاقيه بعد فوات الأوان؟

استدارت بجانبها تحدق في وجهها بتحفز: مش لو كان في حل أصلًا ما كنتيش لجأتي تجوزيه واحدة تانية.

فعلت ناهد مثلها وواجهتها بالوجه المخصص لقاعات الإجتماعات وقت التفاوض على عمل جديد، مليئة بالثقة والتحدي.. كذلك الكثير والكثير من الخبرة في الإقناع: خلينا متفقين على حاجه.. أنتِ كنت هتبقي مراته وأم بنته فـ أي حالة، وإن كادي هتخرج من حياته.. دا قدرك وقدره يا سلمى، مافيش منه مهرب.

سخرت: قدر هو مش عايزه.

ثارت الأخرى: ما قدرك إنك تقعي من على السلم، وقدرك إنها تحطلك دوا عشان تجهضي.. كنت عايزه القدر دا؟.. طب قدرتِ تغيريه أو تهربي منه؟

بأعين متلألئة بالدموع غمغمت: بس ما حبتوش وعمري ما هأحبه.

صاحت بها رغمًا عن محاولاتها في تجنب ذلك: عشان أذاكِ، وجعك.. بس أنتِ ما بتعمليش لياسين حاجه غير الحب والفرحة.. بتوريه جوانب تانية من الحياة ماكانش شايفها، عرفتيه قيمة إنه يكون أب بعد ما كان زاهد فـ الأبوة وحاجات تانية كتير أنا متأكدة.

تهربت مما يعيث في أفكارها الفوضى لتعود إلى سبب حديثها: ناهد.. أنتِ أختي، وصديقتي، رغم إني مش قادرة اقتنع إن ممكن أخت تعمل اللي عملتيه معايا.

فهمت ناهد إشارتها المبطنة لطريقتها الماكرة في الجمع بينها وبين ياسين لكنها استمعت مصغية تتغاضى عن ضميرها المعذب، مسهبة في اسكاته بحلاوة الطفلة القادمة بعد أشهر قلال، التي ما كانت لتصبح واقعًا ملموسًا سوى بفعلتها تلك.

استرسلت بذهن تحاول الحفاظ عليه من التشتت: مش عايزه أخسرك، وحتى لو خرجت من التجربة دي بدون مكسب، بغض النظر عن بنتي طبعًا، فـ على الأقل مش عايزه أخرج منها بأقل من اللي دخلت بيه.. أنتِ وآية بالنسبة لي حاجه مهمة أوي،

عوضتوني عن إخوات بنات ربنا ما رزقنيش بيهم.. واللي هأفضل أحمد ربنا على نعمته الكبيرة عليا بيكوا.

أحكمت قبضتها على كف الأخرى قائلة بصدق: بالله عليكِ كفايه جفا، أنا محتاجه أحس إن علاقتي بيكِ على بر الأمان، كفايه علاقات متوترة.

تنهدت ناهد بدفعة كبيرة من الهواء بعدما حملتها كل النقمة التي اعتمرت داخلها في الشهر الفائت تجاه الأخرى وهروبها، ربتت على وجنتي كنتها بحنان قبل أن تجذبها إلى أحضانها تبثها الثقة والأمان.. أمان من مستقبل مجهول وحياة قد تتضرر.

***

متعلقة بأطراف أكمام بذلته، تنظر حولها بإفتتان تحجبه عن الأعين المتلصصة بحرافية اعتادتها، ابتسمت لمضيفهم برقة بعدما عاونها على الجلوس في الجهة المقابلة لزوجها، حمدت ربها على بلوزتها الموسلينية الخفيفة فقد خففت من حدة حرارة جسدها الناتجة عن فرط الحماس والفرحة.

ترفع عاصم بأناقته الرسمية المعتادة -والتي لم يتخل عنها حتى خلال غداء بسيط برفقة زوجته- عن كل ذرة من عدم اللباقة قد سرت في دمه يومًا منذ عرفها: المطعم هيلف 373 درجة خلال ساعة.. استمتعي.

جلست بعد جملته في هالة الصمت التي فرضها بعدما أنتهى من تلاوة ما قاله بإيجاز، انتابها الحنق مما جعل عبوسًا خفيفًا يعكر صفو ملامحها السعيدة حتى خطرت لها خاطرة تعجبت من وقوفها بصف زوجها الصلف؛ فقد شكت أن سبب صمته هو تركها تستمتع -كما قال- بتجربتها الجديدة.. نظراته الملقاة عليها بين لحظة وأختها دعمت تلك الخاطرة؛ فقررت تشجيعه على تجاوز هذا الصمت المزعج لها: كسرته فـ إيه؟

راقب حركة إصبعها حول أنفها في توتر مرتبك، هز كتفيه بلا مبالاة متيقنًا أن السؤال لا يحتاج إجابة لفظية لكنه نطقها وقت استشعر ترددها وتعنيفها الداخلي لمحاولتها مد جسور الود بينهما مع غشيم مثله: خناقة.

استغلت الفرصة فأسرعت تصدع رأسه بمزيد من الأسئلة: بسبب؟

-شغل عيال ومراهقين.

رفعت حاجبيها بمرح: واو، على كدا المراهقين فـ إيطاليا ما يختلفوش عن اللي هنا!

طالعها بأعين عادت إلى ضيقها لكن سرعان ما انبسطت وأسفرت شفتيه عن مشروع إبتسامة ـوإن فشل- حالما لمح المرح والمزاح في عينيها.

هنأت نفسها داخليًا فقد كانت بداية موفقة على عكس ما توقعت في البداية.. هذا الحوار الصغير السطحي جذب خلفه أحاديث أخرى أكثر عمقًا وأشد مشاغبة.. وأحيانًا وصلت إلى تفاهة لكنها لم تعكر الأجواء بينهما مطلقًا.

***

راقبها تتناول الحلوى وترتشف بين كل قضمتين من قهوتها المُرّة برتابة آلة مبرجة على ما تفعله، صمت عجيب خيم فوقهما منذ استأذنت متجهة إلى حمام السيدات، عادت بعدها كأنما استبدلت هناك، كظم شكه لفترة حتى كاد ينفجر، لم يشعر بفضول لمعرفة ما يدور بعقل أحد كما شعر الآن: في إيه يا يسر؟

توقفت أسنانها عن المضغ ولسانها عن التقليب، ردت دون النظر إلى وجهه مباشرة لكنه أدرك تحفزها لأقل رد فعل قد يبدر عنه: أعذرني.. أصل مش كل يوم الواحد يتغدى مع.. ظابط.

قررت أخيرًا الاستغناء عن محاولاتها البائسة في إكمال تناول صحنها: ولا أنت ليك رأي تاني يا... حضرة الظابط؟

***

سارت متخلفة عنه ثلاث خطوات، لا يتمهل فيتيح لها اللحاق به في كعبها العالي، تكاد أظافرها تخترق لحم كف يدها، وجهها محمر وعضلاتها مشدودة ترفض حتى فكرة إدعاء الاسترخاء، وقع كلماتها المفاجئ والغير متوقع لم يتسبب في خلالة تعبيرات وجه زوجها العتيد، بل تجاهل حديثها وأكمل تناول قهوته مترفعًا عن طلب طبق تحلية مثلما فعلت، لا عجب من مرارة لسانه وسلاطته.

وقفت بجواره في المصعد لا تعلم وجهتهم، أرقام الطوابق في إزدياد، نفضة في وريد عنقه كل عدة دقائق هو كل ما تحصل عليه من ردة فعل طبيعية، كافية لها لكن غير مطمئنة بالمرة، لن يصل به الإجرام حد إلقائها من فوق البرج.. أم سيفعل؟!، ما عادت تتوقع أيًا من أفعاله.. هذا إن فعلت سابقًا.

زفرت براحة مدركة الصحبة حولهما، أب مع ابنته وزوج من حديثي العهد بالزواج، ارتخى جسدها قليلًا خصوصًا مع إنجذاب نظرها إلى مشهد المحروسة من الأعلى لأول مرة، حتى عبر نوافذ الطائرة المشهد لم يكن بهذا الجمال والجاذبية، حاولت التعرف على بعض الأماكن التي لمحتها مما استغرقها بعيدًا عن جسد زوجها المستند إلى الحائط بهدوء ظاهري بائن.

انجذب نظرها لزوجها بغتة، لا تدري لم استدارت من الأصل، خطواته المتمهلة نحوها مع بريق عينيه الخطر جعلها تدرك خلو المكان إلا منهما، بطرف عينها رأت الباب الذي عبراه دخولًا إلى المكان مغلقًا، لِمَ الخوف؟ ألإنها تعرف حقيقته؟.. وماذا سيفعل ليضرها؟، لا تملك أحدًا تخشى عليه سوى أمها لكن إن كان في نيته أذيتها لما أحضرها هنا وأظهر ما يظهر الآن في مقلاتيه، هي من تملك أوراق اللعبة..

تتفوق عليه بخطوة مما يدعم سيطرتها على الوضع، هي العالمة وهو الجاهل، انقلبت الأدوار وصارت الإمبراطورة ليس مجرد تائهة في متاهات اللعب.

شدت عودها مظهرة الثقة التي بدأت تجتاحها، لعجبها تجاوزها كي يقف أمامها بخطوة يطالع ما كانت تطالعه فيما حديثه يتوجه إليها بصوت جاف: التليسكوب على يمينك، روحي بصي منه هتشوفي المعالم أوضح.

أعصابها فقدت تحكمها بفكها السفلي فهبط مرتخيًا في ذهول، أأصابها صممٌ أم ما سمعته صحيح؟، بعد كل هذا تجاهل حديثها كأنه لم يكن؟: ما سمعتش أنا قولتلك إيه؟؟.. أقولهولك بشكل أوضح؟.. أنا عرفت حقيقتك يا حضرة الظابط.

ضحك مستهزئًا كأنه يراها طفلة تلهو معه بالكلمات، زاد غيظها فصاحت به مقهورة: مش بأقول نكت على فكرة..

لم يرد، تجاهلها خاطيًا إلى الجهة الآخرى بعيدًا عنها، أشتدت أوتار أعصابها فصاحت: عاصـ.. بسام!

تجمد كما لو ألقت عليه تعويذة سرية، ارتبكت من نظراته الغريبة التي توجهت إليها أخيرًا، تحركت مآقيها تجاه العائلة الخماسية الدالفة بحماس فيما يسرع أصغرهم سنًا تجاه أقرب تليسكوب، صدمها منشغلًا بلهفته فاعتذر الأب الباسم عن رعونة صغيره، لم تنتبه ولم تهتم فقد أسرتها نظرات الأخر والتي رأت بهم الإرتباك لأول مرة يعكر صفو بروده وإتزانه.

جرّها معه إلى الخارج، يجب عليه الإختلاء بها، يعرف كل ما توصلت إليه. تعامل مع أشد العصابات ذكاء وأمهرهم إنفلاتًا من قانون العقاب رغم ذلك لم يكتشف هويته أحد، لعن بشفاه تحركت بلا صوت، تبًا لفضول النساء.. فإنه أقوى من حِرص العصابات!

سد أذنيه عن صيحات استهجانها؛ لسحبها بتلك الطريقة متعثرة في كعوب حذائها المرتفع، دفعها إلى المقعد المجاور للسائق ثم صرف سائقه مع الفريق الأمني. لا تعرف متى تبعوهم فقد أختفوا منذ دلفا إلى المطعم، أدار المفتاح وضغط على البنزين طائرًا بين السيارات دون مبالغة، تشبثت بكل قوتها في أطراف المقعد، من هول فزعها وصدمتها فقدت القدرة على السب أو الهمهمة.

اتجه إلى أعلى نقاط المقطم في ظهيرة حامية النيران، مرتفعة الحرارة، فغرت فمها على اتساعه بينما تطالع اقترابهم المتهور من حافة الصخور على هذا الإرتفاع الشاهق، ضغط المكابح قبل الهاوية بعدة سنتيمترات تصاحبًا مع تحرر صرختها الفزعة.

منكمشة على نفسها، بدأت تخفض ذراعيها بعيدًا عن وجهها، وتفتح عيونها رويدًا، لهثت براحة تخرج مع زفيرها كل الرعب الذي اعتمر داخلها في الدقائق الماضية، كانت تترقب تعكر مزاجه وإنكسار طبقة الجليد المحيطة به لكن أن ينتقل من شدة اللا مبالاة إلى حافة الجنون والعته لشتان!

راقبته يركل الحجارة بقدمه بغضب بائن، تصل لعناته وتمتماته غير المفهومة طبلة أذنها، نفخت تجمع شتات عقلها الضائع في لجة التهور الفائت، تدرس الخطوة القادمة بتعقل أكبر وتروي.

ترجلت من السيارة فور ملاحظتها بداية لملمته لأعصابه المنفلتة، أعادت ضبط ملابسها وسحبت طرف تنورتها إلى الأسفل قليلًا بعدما إرتفعت نتيجة صراعها في الحفاظ على جسدها ملتصقًا بالمقعد حماية له، ارتكنت على مقدمة السيارة وعقدت ذراعيها في هدوء تحسد على سرعة استعادته.

شعر بحركاتها الرشيقة خلفه فزاد من محاولاته في إعادة الإنضباط إلى ذاته، يجب عليه التركيز على مدى المعلومات التي توصلت إليها قبل أن يتخذ أي خطوة، انتصب في وقفته يوليها ظهره مخفيًا قبضتيه داخل سرواله الداكن: وصلتِ لإيه؟

ضحكت بلا روح تستلذ شعور النصر: أخيرًا اعترفت بكلامي.. عرفت مثلًا إنك ظابط.

صمتت هنية قبل أن تتابع لائمة: توْ توْ توْ، مش عيب على ظابط زيك يسيب مسدس العهدة فـ خزنة البيت اللي يخص المهمة بتاعته؟

كز على أسنانه حتى توهمت سماع صوت تحززها: عرفتِ من المسدس .

كان تقريرًا أكثر منه استفهامًا، أومأت موضحة: الـSerial number يدل أي حد.

استدار إليها نصف استدارة وعيونه تضيق في ترصد: بس دي معلومات ما يجبهاش أي حد.

هزت كتفيها واشرأبت بعنقها في غرور أنثوي، مسترخية في النصف جلسة التي تتخذها: ليا معارفي بقى يا حضرة الظابط.

لم يعر إهتمامًا لغمزتها المغناجة، اقترب يستند إلى السيارة بجوارها وما زال الغموض يكسو ملامحه مما سبب عودة بعض الضيق إلى نفسها، نظرت أمامها تعامله بطريقته المقيتة علّه يتعظ. صمت طالحبيبنهم والشمس مالت إلى الغروب مخلفة نيرانًا برتقالية تطغى على السماء الصافية، سألته بتمالك للنفس أثار إعجابه رغم أنفه: اللي ركب معايا الأسانسير في الفندق قبل الخطف كان تبعك صح؟.. اللي حاول يديني الأمان ويطمني.

شبح ابتسامة ظهر على جانب شفتيه: صح.

-إشمعنه أنا؟

إلتفت إليها يحدق في معالمها، دارت بوجهها تقابل تمحصه بشجاعة تزيد إعجابه دفعات على حين بغتة. تنهد: مش عارف، لما ظهرت كنتِ محطوطة ضمن الخطة بتاعتهم، يا كنت أنا هأخدك أو ..

أكملت عنه بمرارة: أكون فـ الكباريه.

لقد خطرت لها تلك الفكرة حينما علمت بإمتلاكهم للملهى الليلي حيث سهرت بصحبة عاصم. لا تنكر شكرها لقدرها على هذا التحول الحميد، فمن قبحة إلى زوجة مجبرة هو انحراف حاد!

-أنت مين؟

سار: المحقق كونان سابك دلوقتي ولا إيه؟.. قدرته ما وصلتش أبعد من «حضرة الظابط»؟

هزت كتفيها مع ابتسامة باهتة، عادت بنظرها إلى قرص الشمس الغارب، تمهل قليلًا قبل اسماعها الإجابة عن سؤالها: ظابط مهمتي القبض على أحمد ورامز وأعوانهم.

-حاجه صعبة جدًا، مش كدا؟

إلتوت شفتيه: الشر عمره ما ينتهي بسرعة.. غالبًا بنموت وحد غيرنا بيكمل ملاحقته، نفسه طويل.. عندك أنا مثلًا، تالت ظابط يمسك القضية أهو، ويا عالم هأكون الأخير فيها ولا آخرتي فيها.

انسعوجت ناحيته بغتة، سألته بدهشة تحمل في طياتها خوف شديد: ماتوا؟

-الأول انسحب، والتاني أتوفى؛ بس مش بسببهم، موتة طبيعية.

زفرت بإرتياح: عارفه إن شغلهم مش مظبوط بس..

أجابها دون سماع بقية السؤال: حاجات ممنوعة كتير، الأساسي.. دهب أثري قديم.. غسيل أموال في ملاهي ليلية وخلافه، خطف بنات أو اللعب بدماغهم عشان يدخلوا معاهم فـ دايرة الدعارة، وأحيانًا أثار؛ لما تكون عليها القيمة.

أومأت: ما اتعرفوش عليك إزاي وأنت «خليفة الإمبراطور» وابنه زي ما بيقولوا؟

-الابن ماحدش شافه من لما كان عنده 18 سنة، بعد موت أمه حالته النفسية اتدهورت، بقى خارج عن السيطرة، بيتعاطى ويخترق القوانين عن عمد.. مش هنا طبعًا، فـ إيطاليا، الأب خاف من الأنظار اللي بدأت تتسلط عليه راح مدخله مصحة نفسية ورجع مصر، بقى يعيش فـ مصر طول السنة ويرجع إيطاليا شهر أو إتنين، يمشي أموره ويطمن على ابنه، ما كانش على لسانه إلا إن ابنه هيكون خليفته؛ عشان كدا ماحدش اتفاجئ لما ظهر الخليفة بعد موت الإمبراطور.

رفعت حاجبيها: ومأمن نفسك من ظهور الخليفة الحقيقي إزاي؟

ابتسم بخفة: بأكتر طريقة أمان.

بادلته البسمة متأكدة من إجابته: الموت؛ الابن مات قبل موت الأب بسنة، لكن الإمبراطور خبى الموضوع عشان سنه كبر وخاف يتخلصوا منه فـ تتنقل الإمبراطورية لدم جديد، فضل إن ابنه يفضل عايش بالنسبة لهم فـ تكون حياته وقتها متأمنه.

-مافيش أي إثبات على موت الابن؟

-الإمبراطور اتخلص من كل حد يعرف السر دا؛ هو أدرى واحد بالمنظمات بتاعتهم وإيديهم الواصلة فـ كل حته، إن ما كانش المصريين ففي أجانب.

سخرت: International يعني.

أيّدها بهمهمة، فسألته: مش قلقان مني؟

-أنتِ اللي محتاجاني مش أنا، لو سلمتيني ليهم كأنك بتحطي نفسك تحت ضرسهم بالظبط.

أضاف بصوت مدروس ليصل إلى بغيته: ويرجعوا للهدف الأساسي ناحيتك.

مر بذهنها الأضواء المتقلبة والضجة المزعجة، حال الفتيات هناك وغنجهم المقزز على رجال أشد قرفًا، تجاوزت رجفة جسدها من مجرد خاطرة وركزت جهدها على الواقع: ناوي تعمل إيه بعد ما عرفت عنك كل دا؟

انتبه وسألها بتركيز: في حد تاني عارف؟

هزت رأسها نفيًا: لا، حتى اللي جابلي المعلومات ما يعرفش السبب الحقيقي لطلبي.

تخطى دلالة كلامها إلى تبرير آخر قد أدلت به، ركز جهوده على التصرف في الوقت الحالي: هنكمل زي ما إحنا، زوجين طبيعين قدام الكل، لازم أوصل للي يثبت التهم ويديني حق القبض عليهم وإدانتهم.

شدت عودها في شجاعة: وأنا معاك.

نظر إليها مستغربًا برهة، فتاة لم يقابل مثلها قبلًا، تجود بنفسها دفاعًا عن أم بديلة، تتزوج من شخص لم تره وتنصاع لمجهول قادم بناء على ربتة طمأنينة من غريب في مصعد فندق، رجّ رأسه من الداخل ووقف متجهًا إلى مقعده خلف المقود قبل أن يستدير إليها محذرًا: كل اللي شغالين فـ البيت من أيام الإمبراطور، وطبيعي جدًا تلاقيهم جواسيس عليه سابقًا وعلينا حاليًا.. حاسبي فـ كلامك وتصرفاتك، الإتنين يا يُسر.

كزت على أسنانها من تأكيده على كلامه كأنها طفلة متعمدة النسيان، ضربت الأرض الحجرية بكعبيها فيما يصلها تمتمته: يُسر؟.. دي اسمها يُسر؟!، أومال العسر كان هيبقى إيه؟!

أخفت بسمة رغم الحنق، يبدو أن زوجها العتيد يحمل داخله شخصية أخرى تعرف للمزاح طريقًا، تعهدت داخلها أن تكتشف خاصية الضابط الكامنة أسفل غطاء عاصم، استغرقها تحليل شخصيته الحالية وإطلاق التخيلات في دروب خاصيته الحقيقية، تنتقي الصفات التي قد يحملها من بين ما تعرفه.

أفاقت على فرملة السيارة ووقوفه على جانب الطريق، استدار بجسده ناحيتها فيما نظرت إليه متعجبة وعيونها تسألها عن العلة، دنى منها يدس أصابعه في شعرها عنوة، آلمتها الحركة وأزعجها قربه فتلوت بين كفيه مغتاظة تزفر في وجهه لاعنة، لم يبال أو يهتم، تقمص مجددًا شخصية مهمته الأولى والأخيرة.. عاصم.

انخفضت يده بعيدًا عن شعرها واتجهت إلى شفاهها، تفركهما بقوة قاسية، قبضت على رسغه تحاول ردئه بعيدًا عنها، حين فشلت وضعت كفوفها فوق صدره وخرمشته دون تقصد لكنها لم تندم على ما فعلت، تركها أخيرًا عائدًا إلى جلسته الأولى. أطلقت العنان للسانها: إيه اللي عملته دا؟!

بهدوء معتاد من قِبله: بوظت منظرك.

حدجته باستهجان: يا سلام؟!، ببساطة بتقول كدا فـ وشي!

رفع حاجبيه: أومال أقولهم لقفاكِ مثلًا؟

أنزلت المرآة من السقف تطالع البعثرة التي حلت بمنظرها فيما تهتف به: وكمان بتنكت!، لا دي حالتك اتأخرت أوي.. إيه اللي هببته دا؟!!!

كاد يبكيها مظهرها البالي حالما طالعها إنعكاسه في المرآة، برر بعملية تمقطها: أكيد دماغهم بتلف أخدتك وروحنا فين من غير ولا كلمة كدا.. شكلك كفيل إنه ينسيهم أي حاجه.

تفهمت تبريره لكنها سألته بحنق: ماكانش ينفع حضرتك تطلب دا بالذوق؟!

حدجها كما ينظر الناس إلى أبله يكافح للسير على أحد ذراعيه: يعني أقولك.. ممكن بعد إذن حضرتك تسمحيلي ألغبط شكلك وأبوظ منظرك؟!

صرخت بقلة صبر: كنت قولتلي وأنا أعمل لنفسي، كنت عملتها بشياكة عن كدا..

-هو فيه بوظان بشياكة وواحد بقلة قيمة!؟

-مش شايف بقى منظري عامل إزاي؟!، ولا اللي بيتعاطوا.

كتم ضحكته: لا كدا أحسن، على العموم عندك فرصة تعملي لنفسك عشان ما تقوليش إني حارمك من حاجه.

نظرت إليه من زاوية عينيها: خير؟

أشار إلى ظهرها: افتحي كام زرار وأقفليهم غلط.. عشان الحكاية تبقى كاملة.

تلوت في يأس تحاول التنفيذ، لكنها فشلت، صباحًا أغلقتهم لها الخادمة أما الآن فوحدها لا تستطيع حتى فتحهم. انتشل الزر من بين أصابعها بعدما كادت تلتقطه فصاحت بحنق: كنت خلاص هأوصله.

سخر منها: لا بجد؟

نفخت مستسلمة ليده تعيد إغلاق الأزرار بشكل معاكس، فما كانت تبدي شيئًا من جلدها لكنها دلالة على الكثير، فرغم قماش القميص الشفافة إلا أنها يدعى قماشًا بالنهاية. أعاد تشغيل السيارة متابعًا طريقهم إلى قصر الإمبراطور.

تقدمته برأس مرفوع لكن وجه وردي خجول، تكره طأطأة الرأس، لم تلجأ لها يومًا ولن تبدأ الآن. أمامهم جميعًا هو زوجها؛ لذلك ستظل الألسنة مربوطة داخل الأفواه الجامدة، صعدت درجات المنزل الداخلية متجهة صوب غرفتها ويده تتلمس عمودها الفقري باستهانة، فبدت حركته معتادة وروتينة بطريقة استشعرت مبالغتها لكن ذلك لم ينتبه أحد من العاملين.

وقفت أمام المرآة مرتبكة تحاول الوصول إلى سحاب ثوبها الخلفي بحركات أفعونية مرنة ينضح منها التوتر والخجل، نجاحها في حل الأزرار السابقة للسحاب أرهقها. اقترب منها ووقف خلفها تمامًا عارضًا بهدوء: مساعدة؟

أخفضت ذراعيها منتهزة عرضه، اقشعر بدنها حين لمست أطراف أصابعه ظهرها العاري بعد تسلل السحاب تدريجيًا إلى الأسفل، التفتت يمينًا برأسها فاصطدمت أنفاسهما سوية، سألته بهمس استعجبته على نفسها: ما استغلتش الوضع ليه؟

قابل نظراتها بقناعه ا لمخفي لجلّ مشاعره كالمعتاد، توقف السحاب عن الجريان إلى الأسفل مصطدمًا بالنهاية فتركه ببطء ثم أجابها: ممكن يكون قدام الكل أنا عاصم ابن الإمبراطور، بقسوة القلب، الجبروت، السلطة والفلوس.. لكن ما تنسيش إني لسه بسام، اللي أكيد أنتِ ما تعرفهوش بس الكل يشهدله بالشهامة والأخلاق.

غارت عيناها في لون داكن أطلق صفارات الإنذار مما جعل عيونه تلتمع بحدة لم تؤثر بها: والشهامة والأخلاق هما اللي بيخلوك تساعد البنت اللي فـ الكباريه؟

تراجع خطوة بعيدًا وقد بنى عازلًا معدنيًا بينهما، قال بصوت كاد يجمدها من شدة ثلجيته: الجزء اللي يخصك وممكن يهمك عرفتيه.. ما تدعبسيش فـ حاجه تانية.

رفرفت عينيها ببراءة كمن لا حول لها: دا مجرد إثبات لكلامك.. أتضايقت ليه؟.. هو في حاجه غير كدا؟

امتدت يده إلى جانب وجهها تداعب الخصلة المنفلتة من شعرها وقال بصوت غامض: يمكن أكون فهمت قصدك غلط.. بس يا ترى فهمت السؤال الأول غلط بردو؟

انسل ذراعه يحيط بخصرها ويجذبها إليه بقوة فالتصق جسديهما موشكًا على الألتحام: بيقولوا إن الستات ما بتقولش اللي بيدور فـ عقلها، لكن بيقولوا كلام يستفزوا اللي قدامهم عشان يعمل اللي عايزينه.. بالظبط زي (يتمنعن وهن الراغبات).. أنتِ راغبة يا يُسر؟

تجاوزته متجهة ناحية الباب تفتحه على مصرعيه، تستند إليه بكف والأخرى تتهدل على جانبها، أشارت بحاجبيها إلى الخارج في إيحاء صامت له بالذهاب، كتم ابتسامته المنتصرة في تحويل دفة الحديث عما لا يرغب في الإفصاح عنه، استجاب لتشبث أصابعها بذراعه باستدارة نصفية.

أجرت أظافرها المشذبة بعناية اعتادتها في رقبته تاركة خطًا أحمرًا من الدماء نتيجة احتكاك ثلاثة أظافر بجلده ثم قالت بسخرية: عشان تبقى توريهم قد إيه أنا «راغبة».

صفعت الباب في وجهه، حدق فيه لدقيقة دون حراك ثم استدار مصدومًا، دائمًا ما تصدمه بردات فعلها كما لم يفعل أحد من قبل.. بتاتًا.

****

وقفت أمام أرفف الكتب تحدق بأسماء المجلدات الضخمة تتخير ما يساعدها في رسالتها، نفخت متأففة، منذ عادت لإكمال رسالتها للحصول على منصب علمي أقوى ووظيفي أعلى

تنتابها فترات من الملل والضيق، الفترة التي نالتها من الراحة الذهنية دون شغله بتوسع أكبر في مجال دراسته لم تحقق الرجاء المنشود.

رفعت ثقلها كله على أطراف أصابعها في محاولة للوصول إلى الأعلى حيث الكتاب الذي ترغب، عادت تستقر فوق الأرض بقدمها حين فشلت تلتقط أنفاسها ثم تعاود المحاولة، نظرت حولها في يأس وأمناء المكتبة غائبين عن الأنظار رغم كثرة تجوالهم في العادة، كزت على أسنانها في غيظ، لقد سأمت هذه الدراسة ولا ينقصها ما يزيد مقطها.

غادرت محملة بعدة كتب استعاضت بها عن ذاك المرجع المرتفع عن مستوى طولها، تكاد تنقلب على وجهها من فرط خطواتها العصبية، سمعت رنة هاتفها المميزة بإحد سيمفونيات بيتهوفن «ضربة القدر»، الموسيقى الإنفعالية المليئة بالحماس أدت دورها في إشعال فتيل عصبيتها.. انشغال الكتف بتثبيت حركة ذراع الحقيبة الطويل، وذراع بالتشبث بكومة الكتب والأخرى تبحث باستماتة عن الهاتف اللعين.

دعست على حجر لم تنتبه لوجوده فحاولت الحفاظ على إتزانها بلا جدوى، وقعت فوق ركبتيها وقد انتهزت ذراعيها الفرصة متخلية عن أحمالهما، اقترب أحدهم يعاونها في لملمة ما تبعثر، تركت له مهمة الكتب وتفرغت للحقيبة المسكوبة متشتتة من حولها. جمعت الأغراض بعصبية مفرطة ـغير معتادة عليهاـ تحشرهم في الحقيبة وتغلق عليهم بمقط، وقفت تثبت الحقيبة بشكل معاكس كعلامة الممنوع.

سلمها المراجع بيمينه بينما حكت يساره جبينه، رفعت نظرها إليه بعدما تسلمت الكتب، كزت على نواجذها غيظًا من نظراته المتحمصة: في حاجه يا أستاذ؟

مال رأسه يمينًا مركزًا: هو أنا ما قابلتكيش قبل كدا؟

لمحت جزء من تنوراتها تشبثت به ذرات التراب، نفضتهم بعيدًا ثم استدارت تدمدم لنفسها بنزق: تقريبًا آدم الوحيد اللي ما سألش حوا «هو أنا ما قابلتكيش قبل كدا؟!».. يا بختك يا ماما حوا والله.. ربنا رحمك من بلاوي آخر زمن.

خلفته وراءها دون كلمة شكر واحدة على مساعدته، لقد ضرب يومها بعصا هوكي من العيار الثقيل، قررت على إثرها قضاء بقية اليوم مع موسيقاها المفضلة تقرأ رواية ما تفصل عقلها عن الأجواء المحيطة من التوتر والعصبية التي تنتابها لأول مرة.

***

فتحت الخادمة التي تأتي كل أسبوع مرتين للإهتمام بنظافة منزل الفنان الأعزب، سمحت لها بالدخول لمعرفتها بالضيفة وعلى أمل عودة ماجد في أقرب فرصة ثم انصرفت معتذرة لإكمال عملها.

وضعت حقيبتها فوق أحد المقاعد ودارت في المكان تطالع اللوحات متيقنة من عدم تغير ذوقه رغم مرور السنين، عادت الخادمة بعد دقائق تحمل صينية بها كوبًا من القهوة السوداء الأمريكية ثم اختفت من جديد بلا حجة أخرى للعودة، بينما كادي ترشف من كوبها لمحت سلمًا يؤدي إلى الأسفل فقررت النزول واستطلاع الأمر ثم قد تصعد للأعلى أيضًا قتلًا لوقت الإنتظار الذي قد يطول، وهي لن ترحل قبل رؤيته.

هبطت رويدًا وكف يدها الحرة يتحسس الجدار بحثًا عن زر الإنارة حتى وجدته، رأت على الضوء الهادئ بلونه المصفر بابين متجاورين، تقدمت إلى أحدهم وفتحته، شمت رائحة الغبار وتأكدت من ظنها حين أشعلت ضوء الغرفة الداخلي، غرفة التخزين لما لا يحتاجه.

أوصدته كما كان مرتشفة من كوبها ثم تقدمت من الآخر، حركت ذراع الباب فقابلها الظلام إلا مما تسرب من مصباح الدرج المصفر، زفرت براحة عندما غمر الغرفة الضوء فور ضغطها على زره، لكن سرعان ما تكدر وجهها بصدمة فزعة أدت إلى رجفة في جسدها وفقدان السيطرة على الكوب فاصطدم بالأرض متهشمًا تتناثر بقاياه في محيطها.

تجولت عيونـها ببطء على الجدار من بدايته إلى نـهايته، من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى إلى الأسفل، هالها ما رأت، لم تظن أن الأمر سيصل معه إلى هذا الدرك، عضت شفتيها تكتم شهقاتها التي قد تصدر مصاحبة لما سال على وجهها من دموع.

أغمضت عينـها ثم فتحتها لكن ما رأت لم يكن خيالًا ولم يختف، صور لسلمى تتناثر بعشوائية لكن بتناسق فوق كل الجدران، يكاد يختفي لون الجدار من كثرة الصور فوقه، كل حالاتـها تظهر أمامها، من البكاء للشرود، الضحك والإبتسام، الاستهتار واللامبالاة، النوم وفور الإستيقاظ، بملابس قصيرة، ملابس سباحة عارية، وشعر تختلف تسريحته كل عدة صور، لونه الوحيد الثابت أسود، حالك السواد، تبدو أحيانًا كعارضة محترفة تدرك ما تفعله، وصور أخرى تمتلأ بالشقاوة والدلال الطفولي.

لمحت جهاز تسجيل في أحد الأركان فاقتربت تستطلع علّها تجد تفسيرًا لما تراه بعكس ما تظن، وضعت أحد الأشرطة داخله ثم أدارته.. كان الصمت في البداية ثم تصاعد الصوت، تراجعت عدة خطوات مصطدمة بالجدار، تضع يدها فوق فمها فلا تقاطع الصوت الناضح من جهاز التسجيل.

-ماجد ماجد، وحشتني أوي، أووف، عايزه أخرج من السجن دا وأجيلك بس أنت اللي مش راضي، فيها إيه يعني.. مش فاهمة مهتم بيه كدا ليه إذا أنا نفسي مش فارق معايا!.. على العموم كمان شهرين وأزورك.. وقتها هيبقى في كلام تاني، أمـوواه.

اتجهت إلى الجهاز تسرع في إخراج ما به قبل إعادة التشغيل، أمسكته ثم وضعت آخر تستمع بإنصات، تفتش عما يكذب أذنيها وعيونـها بلا أمل.

-بتعملي إيه هنا يا كادي؟!

استدارت ناحيته بروية تجمع خلال ذلك شتات نفسها المبعثر مما أثبتته مشاهدة هذه الغرفة، لا شك الآن من ركله إياها من حياته لتحل أخرى مكانها، متزوجة أيضًا لكنها استطعت -بما لا تدري ماذا- أن تلف شباكها حول ماجد، أما يكفيها إمضاء ياسين الوقت كله معاها، ما يقرب الأربعة أشهر ينام على الأريكة أو أرضية غرفتها فقط ليكون جوارها و يلبي احتياجاتها!

-فتحتِ الأوضة إزاي؟

ابتسمت بمرارة: وكمان قافلها بالمفتاح!؟، على العموم أنا لاقيتها مفتوحة.. دخلتها فضول، الفضول قتل القطة.

تكتف واقفًا أمامها بصلابة وجمود لم ترهم فيه قبلًا: لكن الخوف المرضي هو الذي وضعها في كيس ودفنها في خرسانة مبتلة.

قهقهت بضحكة فارغة موجوعة: هتطلع اللي بتقراه عليا؟

رفض مناوراتها وعاد إلى سؤاله الأول: بتعملي إيه هنا؟

استرخت إلى الخلف تستند على الطاولة التي تحمل جهاز التسجيل والشرائط الكثيرة التي قد تتجاوز الخمسين: عشان أكشف سرك، وأعرف اللي بينك وبين سلمى.

زفر مغمضًا عينيه للحظة ثم أشار إلى الباب: مالكيش حاجه هنا يا كادي، اتفضلي.

تبخترت على مهل في اتجاه الباب، توقفت أمامه مباشرة وعينيها تتأكد من إتصالها بعينيه فيما تقول لترى ردة فعله: هأمشي يا ماجد، بس زي ما كنت بأقرف سلمى ووقعتها من على السلم عشان تموت هي واللي فـ بطنها، ممكن أعمل حاجات أكتر عشان أخلص منها بردو.

وقف أمامها عاجزًا، أأي شيء سيقوله قد يؤثر بها؟ يجعلها تتراجع عن صفات ليست لها وتصرفات لم تبدر منها قبلًا؟.. هزها بقسوة علها تفيق وتتحرر من سيطرة من لا يعرفه عليها، يبثها حيرته وسخطه في نظراته صوبها، انقباض قلبه حين علم ما فعلته مع سلمى دون أذى من الأخرى إليها.

أعلنت بمقط متيقن: لو ما كنتش ليا فـ عمرك ما هتكون ليها!

فارت براكين عقله فعاد يهزها بشدة أكبر بينما صياحه يكاد يصم أذانها: فوقي بقى من دوامة الأنانية والكره اللي دخلتي فيها نفسك من غير داعي، سلمى ما تستاهلش منك كل الحقد دا..

بصوت نائح كحيوان على وشك إزهاق روحه سألته: بتحبها؟

هدأ متوقفًا عن رجها كزجاجة عصير تحوي فاكهة مقطعة، خدره عجزها البائن في نظراتها المتألمة بضعف،ُأغمض عينيه يستجمع بقايا تعقله: مش بأكرهها يا كادي.. بصي.. ما تحوليش تفسري إحساسي ناحيتها؛ عشان أنتِ ما تعرفيش كل حاجه.

***

كعادتها التي لم تغيرها رغم الظرف السعيد الطارئ، أعدت الطعام وانشغلت بالمنزل ومتطلباته، وفي آخر لحظة انتبهت أن هناك عائلة قادمة لخطبتها، صعدت بروح باهتة، فقد أخرجت الموضوع من ذهنها، الزواج لم يكتب لها حتى الآن، وكل خاطب يأتي ثم يغادر وفقط، ليس عيبًا فيها لكن قصة شقيقتها ما زالت تؤثر في بعض الناس.

ارتدت ثوبًا أنيقًا عوضًا عن المعتاد، ضبطت حجابها ثم جلست في انتظار قدوم الضيوف كي تنزل وتقدم واجب ضيافتهم. استقرار زواج شقيقها مطمئن، تدعو الله

دومًا ألا يؤثر على مستقبلها مع حمزه، فالأمر حتى اللحظة مستمر في تأثيره بالناس وحمزه رغم كل شيء احتكاكه بالعالم ما يزال موجودًا.

ما يقلقها هو محمود، حقده المبالغ به على حياه فاق الحد، تفكر أحيانًا بلا أسس أنه ليس شقيقها من نفس اللحم والدم، وحقده لم يتوقف عند حياه وحدها، بل طال علاقته مع زوجته عائشة، منذ خطبها وتعاملت هي معها عن قرب أدركت شدة ملائمتهما لبعض، نقاط التشابه بينهما معدودة مما سيقلل الجدال وهذا عين ما يعشقه أخيها، لكن يبدو أن الأمر تغير في موضوع ما مسببًا الخلاف البادي على وجهيهما.

عائشة لا تأخذ موقف بتلك الشدة إلا حين يكون الوضع تم الحديث فيه بلا أمل، ولم يعد

بيدها شيء سوى الإنتظار، ورغم وشمها بصفة الصبر إلا أن الموضوع شائك وملامس لحياتها بشكل حاد فبدأ التأثير يظهر على ملامحها وتصرفاتها.

نهضت من مكانها وتركت الأفكار تكمل لعبتها المتنقلة داخل رأسها فيما تلبي نداء شقيقها الأكبر في إحضار العصير للضيوف. صبت العصير سابق الإعداد في الكؤوس المرصوصة فوق الصينية من قبل، شعرت بيد تربت على كتفها بحنو، طالعها وجه زوجة أخيها الباسم في مؤازرة: ما تقلقيش، المرة دي هتتم على خير بأمر الله.

ابتسمت لها بعدم إهتمام ثم حملت الصينية وتوجهت إلى الصالة حيث الضيوف، تقدمت على مهل، وقفت بهتة حين لمحت الجالسين، مصدومة، جاحظة الأعين، مفتوحة الثغر.

ابتسم في وجهها مدركًا تعرفها عليه، ملامحها كلها تؤكد ظنه، حثها أخيها على تقديم العصير واستغرب والدها أمرها، لم يعتد منها هذا الجمود بل دائمًا ما تتصرف

بآلية مدركة نهاية الأمر إما الآن أو بعد يومين على الأكثر، تابع تنفيذها وأصغى إلى ابنه يقدم لها خاطبها «جلال بكر».

«جلال بكر»؟، أهذا اسم الشاب الذي قابلته مع والدته في السوق منذ فترة؟، لِمَ جاء؟.. ماذا يفعل في منزلهم؟.. نست تمامًا سبب وقفتها، فجأة انتبهت مصعوقة، أيكون نفسه العريس؟؟!

التقط من الصينية كأسه واقفًا نصف وقفة: إزيك يا آنسة زهرة؟

نظرت إليه صامتة أو هامسة.. غير منتبهة، أردف بغمزة من طرف عينه: أمي بعتت معايا سلام وبتوصيكِ عليّا.

عضت طرف شفتها وحاولت الفرار من الغرفة، استوقفها شقيقها لتسمع والدها يخاطبها: استني يا بنتي رايحة فين؟.. تعالي أقعدي مع جلال شوية قبل ما تدي قرار فـ الموضوع.

أوشكت على قول «موضوع إيه؟!» وحمدًا لله أنها أفاقت قبل نطقها، تراجعت من موقفها قرب الباب وجلست حين نهض والدها من مكانه، غادر الرجلان يصحبهما عم جلال الذي لم تعره أهمية منذ صدمتها برؤية جلال نفسه، الباب المفتوح كسر العزلة النسبية بينهما.

خاطبها: هتفضلي ماسكة الصينية كدا كتير؟.. حاسس إنك فـ لحظة هترميني بيها.

تركتها فوق المقعد المجاور، أقدامها هلامية لن تستطيع حمل ثقلها وصولًا للطاولة المنخفضة، تتلاعب بأصابعها سوية ونظرها يسقط عليهم. صمت دام دقائق قبل أن يقطعه بحديثه: بما إنك مش حابه تتكلمي فـ هأتكلم أنا شوية؛ يمكن رهبة الموقف تروح من علينا إحنا الإتنين.

تنهدت شاكرة تفهمه وشدة ذوقه بعدم إشعارها أنها وحدها في هذا الموقف مضخمة الموضوع أكثر مما يستحق، قرر الحديث عن سبب تواجده وكيف حدث.. قائلًا: بعد الموقف اللي عملتيه مع والدتي، استجدعتك، حسيت فيكِ حاجه مالاقتهاش من زمان، خصوصًا مع غربتي سنين طويلة واعتيادي على النمط الإنجليزي وإن كل واحد فـ حاله..

رجعت أجازة وقت ما قابلتك عشان مشاكل فـ أرض أخويا الكبير -الله يرحمه-، من ساعتها وأمي مش بتبطل كلام عنك، تشكر فيكِ وفـ أخلاقك وجمالك، مع الآسف بعدها بفترة بسيطة سافرت.. مع إني كنت مخطط اتقدم قبل السفر بس أما عرفت ظروفكم ما حبتش أزود الطين بلة.

رفعت بصرها إليه متوجسة فأضاف مدركًا سؤالها الصامت بابتسامة: مش زي ما أنتِ فاكرة خالص، مشكلة أختك دا شيء يخصها، لا هيضر ولا هينفع غيرها، واللي عرفته عنك وسمعته عمره ما يتأثر بغلطة عيلة صغيرة، كل الحكاية إني ما حبتش الموضوع يجي فـ وقت مش مناسب فـ اترفض بدون تفكير..

استرسل: وعمومًا كدا أفضل، دلوقتي صفيت شغلي برا وقررت استقر هنا، وفترة ترتيبي لوضعي الحالي هتكون فرصة كويسه نتعرف فيها على بعض.. دا طبعًا لو وافقتِ عليا مبدئيًا.

تأملته بصمت، تقلب ما قاله في عقلها مفكرة، لا تنكر ارتياحها الأولي لكلامه العاقل والصادق، تنحنحت بخفة قبل أن تسأله: كنت مسافر إنجلترا؟

ابتسم مدركًا الطريق الذي فتحته أمامه والقبول الضمني لطلبه: محامي، بس كنت باشتغل ضمن فريق محاماة فـ شركة أجنبية، زهقت، والمشاكل هنا بقت تكتر من ساعة وفاة أخويا الكبير من سنتين، وتعبت من المرواح والمجي، ووالدتي إصرارها على رجوعي زاد.. فـ لاقيت إن ما بدهاش.

-لاقيت شغل هنا؟

-لسه إمبارح جايلي قبول شركة فـ المنيا، أكيد ماكنتش هأتقدم وأنا ماعنديش مصدر دخل ثابت يطمن أهلك ويطمنك إنك فـ آمان معايا؛ خصوصًا إني لسه غريب بردو.

شعرت بانتشاء داخلي مما فهمته بين ثنايا كلامه، كان ينتظر قرار تعينه وأمر قبوله حتى يأتي لخطبتها، لم يستطع الإنتظار وأتى في اليوم التالي مباشرة، ابتسامة أنثوية مغرورة. ترددت في أنحاء ذاتها و.. قلبها.

***

فتح الباب مدخلًا رأسه عبر الفتحة يتطلع إلى عاصم الجالس خلف مكتبه بهيبة تُرهِب كل من يفكر بالتلاعب معه، انتظر الإشارة من رأس الأخير قبل أن يدلف بكامل جسده، جلس على الجهة المقابلة من المكتب منتظرًا دخول الآخر في الموضوع مباشرة؛ لعلمه بضيق وقته وحبه للإنتهاء مما لديه في أسرع وقت.

-عايز طفل، يكون لسه مولود أكنه أتولد قدام عيني.

رفع نوح حاجبيه متفاجئًا من الطلب العجيب والصادم، سأله مدعيًا الغباء: مش فاهم قصدك يا باشا؟

ارتكن عاصم بكتفه الأيمن على ظهر كرسيه الفخم وأسند كفه الأيسر على ذراع المقعد رافعًا كوعه بزاوية حادة في فرض لسطوته: بيبي يا نوح، ما تعرفش بيبي يعني إيه؟

ضاقت عيونه: عارف البيبي طبعًا، بس مش عارف عايزه ليه؟ أو ليه أنا بالذات؟

بوجه متجمد لا يعبر عن شيء: عايزه ليه، دا ما يخصكش، اعتبر إني عايز أجرب الأبوة شوية.. وليه أنت بالذات؛ فـ زي ما جبتلي يُسر تقدر تجيبلي العيل.

-يُسر أمرها سهل لإن دا شغلنا، إنما العيل.. دا مش شغلنا خالص.

كز عاصم على أضراسه لاعنًا الآخر لذكره يُسر باسمها دون تكلف، أمره بنبرة لا تقبل المزاح: اسمها مدام يُسر، والأحسن ما تنطقش اسمها أصلًا.. أنت ليك شغلانه من الأصل يا نوح؟

عقب نوح بإيحاء لم يفت الآخر: اللي يجيب فلوس يا باشا.

أطلق عاصم صراح عرضه بلا مبالاة، كأن المبلغ أتفه من نطقه بحذر، فمامة سيتخلص منها لا أكثر: أربعة مليون.

استنكر: أربعة مليون فـ عيل مش من صلبك يا باشا؟!، أومال يُـ.. قصدي المدام بتعمل إيه لمؤاخذة..؟

ضرب كفه على المكتب بعنف ناهضًا، وصوته زاد قوة وارتفعت نبرته: مالكش دعوة المدام بتعمل إيه يا نوح!، وأحسنلك ما تتدخلش فـ اللي مالكش فيه.. تقدر تنفذ وتجيبلي العيل هتاخد الفلوس، مش لعبتك.. يبقى تخرج من هنا وكأنك ما سمعتش حاجه وتسيبني ألاقي اللي يقدر ينفذ.

أسرع يقدم فروض الطاعة معترضًا على تسليم المهمة لغيره: لا لا، لعبتي لعبتي.. عايزه فـ وقت معين ولا..؟!

-لا عادي، مش وقت معين.. المهم الطفل يكون سليم.

نهض من مقعده بحماس، يتشوق للإحساس بالمبلغ السابق ذكره بين يديه، لقد جاءت الفرصة على طبق من ذهب، وكالأخرق قبل بنصف مليون فقط تقاسمًا مع الطبيب، الآن سينال أربعة ملايين وحده بلا شريك، استرخى في بشر. سيجعل خلود

تنام على ريش نعام موفرًا لها كامل الراحة؛ لكي تلد طفلًا سليمًا مكتمل الأعضاء والأجهزة، وقتها سينال الأموال ليستمتع بها.

غادر الغرفة هائمًا في أحلامه الخاصة. كانت يسر في طريقها إلى المكتب حيث يعمل زوجها، توقف يسألها بعدما تلفت حوله تأكدًا من عدم تصنت أحدهم: قدرتِ تفتحي الخزنة؟

نظرت إليه ببرود قائلة: أنت هتناسبني؟!

طأطأ بلسانه مستنكرًا قولها: أنتِ بقيتِ منهم ولا إيه.

أمرته بصرامة وحواجب مرفوعة: أمشي يا نوح.

-إخص عليكِ،وأنا اللي كنت حابب أنصحك.

تأففت ووقفت بتململ: تنصحني بإيه إن شاء الله!

دنى منها كأنه على وشك قول سر يخاف سماعه غيرهم، همس بصوت خفيض: حاولي تجيبي عيل لعاصم باشا قبل ما يجيبه من غيرك.

ضاقت عيونها مركزة في مقصد كلماته: هو كان عايزك ليه؟

استقام مبتعدًا عنها رافضًا الإجابة: لا دا سر المهنة بقى، أنتوا الستات ممكن تضيعوا السبوبة من الواحد بسبب حاجه فارغة وغيرة مالهاش لازمة.

غاظها هروبه وجهلها بالموضوع الذي يتحدث عنه، دقت بكعبيها على الأرض ودلفت إلى المكتب بلا استئذان، وقفت متربعة فيما يتخلى عاصم عما في يده منتبهًا لها، حاول كظم ضحكته من مظهرها المتحفز: يظهر إن البيه ما بيتبلش فـ بؤه فولة.

-هو ما قالش حاجه.. بس حابه أعرف منك.

كسى الجد ملامحه أثناء إشارته للباب طالبًا منها إغلاقه بصمت، فعلت ذلك ثم جلست أمامه في اهتمام منصت، متوقعة معرفة كافة التفاصيل دون طلب: تقدري تهتمي بطفل لفترة؟

قطبت جبينها، كانت آخر إجابة توقعت سماعها منه: ممكن، بس مش فاهمة.

شرح بإيجاز: طفل مضطر أهتم بيه لفترة وبعدين هأرجعه لوالدته.

تراخت أكتافها المتشنجة وغرقت في فكرها بعيدًا قبل أن تسأله بجمود: اللي كنت بتكلمها فـ الكباريه؟

رفع حاجبيها مستعجبًا سرعة بديهتها وقدرتها العالية على ربط الأحداث: تعرفي إنك تنفعي شرطية جدًا، أيوه هي.

همت بالمغادرة لكن قبل فتحها الباب تنهد بقوة قائلًا: دا شغلي؛ أحافظ على أرواح الأبرياء.

حدجته للحظة ثم أجابت ببطء: بس ما أظنش إن شغلي أكون مربية.

-تقدري ترفضي.

هزت كتفيها مبدية قلة الإهتمام: بس أنا خلاص قبلت.

تركته يقبض على يديه في شدة، اللعينة ترغب في توسله لها وإصراره على إقناعها كي تنفذ أي شيء، تغيظه بتصرفاتها التي يتمنى يومًا أن يملك القدرة على توقعها.

***

راقبت بابتسامة هانئة الحركة الممتلئة بالحماس والسعادة حولها، إعداد الطعام والزينة، الحلوى للأطفال، العقيقة الخاصة بصغيرتها الساكنة بين ذراعيها رغم الضجة المحيطة، أنزلت بصرها تنظر إلى وجه طفلتها «جنة» التي أنارت حياتها بملائكيتها وكأنها حقًا قطعة من الجنة نالتها هدية من الله.

تذكرت ولادتها الصعبة خصيصًا مع طفلتها البكرية، قضت وقتًا طويلًا في المخاض ظنت خلاله أن لا نهاية لهذا الألم وتلك المعاناة، ياسين لم يتركها لحظة، حتى حين دخلت غرفة الولادة، وقف جوارها يمسك يدها بعدما أصرت على الولادة الطبيعية وأيدتها في ذلك الطبيبة.

لحظات طوال وألم جم، حين تتذكرهما الآن وجنة بين ذراعيها لا تملك سوى الإبتسام والحمد، فشعور طفلتها مطمئنة بين أحضانها تتصورها طفلة تركض في كل مكان حولها، تجدل ضفائرها، تغطيها أثناء النوم، تصفق لها وقت نيلها شهادة تكريم لهواية مارستها باحتراف أو تفوق حققته في دراسة.

أفاقت على مخاطبة ناهد لها وعيونها ما تزال معلقة بالعمال تتابع عملهم بأعين ثاقبة مما جعلها تشفق عليهم: أحسن حاجه عملتيها إنك رجعتِ بيتك.

زفرت مغمضة عينيها للحظة: ماكانش في حل تاني قدامي يا ناهد، وأنتِ عارفه كويس إني مش حابه رجعتِ دي.. بصراحة أكتر.. مش مرتاحة.

-أنتِ عارفه الوضع...

أكملت عنها بتعب: أهلي هيجوا، والناس كمان عشان يباركوا، الاستفسارات هتكتر لو مش

موجودين هنا.. وبنتي مالهاش مكان مريح فـ الشقة الصغيرة دي، والسبوع مش هينفع ولا يقضي حد.. غير إن التهوية بتاعتها مش مناسبة لتربية بيبي.. فهمت يا ناهد كل دا من غير ما تقوليه.

رمقتها شذرًا متجهة إلى أحد العمال تنبهه إلى خطأه، أجابت سلمى على إتصال حياه بقلب راجف متذكرة ما تمر به آخر فترة، هتفت بشوق: حياه، حبيبتي عامله إيه؟

تنهدت بإجهاد عارم على الصعيدين النفسي والبدني: الحمدلله.. مبروك، عقبال فرحها.. أنتِ عارفه إن نفسي أكون معاكِ بس أكيد عارفه الظروف.

-عارفه يا حبيبتي، ومتأكدة إنك فرحانه بجنة زي بالظبط، المهم قوليلي إيه أخبارك؟.. حمزه لسه زي ما هو؟

بكت: زي ما هو يا سلمى، مش راضي يخرج من الحالة اللي هو فيها، بقاله شهرين على الحال دا.. لا نافع معاه كلام ولا غضب ولا أي حاجه.. مامته يادوب بتاخد بالها من نفسها وبتفوق من صدمتها ومش حمل حمزه وحالته مع ذلك بتحاول كل شوية معاه من غير فايدة.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، كان نفسي أكون معاكِ دلوقتي بـ..

شهقت: أكتر من كدا إيه يا سلمى!، خلي بالك بس من جنة وراعيها، ما تهمليش ياسين كمان ما صدقنا علاقتكوا تتحسن وما شاء الله في تطور واضح.

ارتفع بكاء الطفلة، صاحية من غفوتها القصيرة، أضافت حياه مغلقة: شوفي جنة وما تنسيش تبوسيهالي لحد ما أشوفها.

بين الانشغال بتجهيز ذاك وترتيب الآخر حلّ الغروب وأقبل الناس، مهنئين سلامة الأم بعد المخاض ومباركين بقدوم نجلة عائلة الناصري، جنة الناصري، متمنين

سرعة التهنئة بشقيقها الأصغر حاملًا الراية وراء والده ياسين الناصري محافظًا على تواجد الاسم فوق الأرض.

اختلطت مع الحضور بعدما رأت دماء العجل تسيل معلنة إتمام عملية الذبح، لمحت وجه سلمى المشرق رغم التعب فقررت سحبها إلى غرفتها بعيدًا عن الزحام وقد أدت دورها بما يكفي لهذا اليوم، عرقل تقدمها تصريح أحدهم بالقرب منها: طلعت شوفتك قبل كدا بجد.. مش جر كلام.

نظرت يمينها فوجدت من ساعدها أمام المكتبة ينظر لها شماتة في سوء ظنها، سألته بجبين مقطب: وحضرتك تبقى مين؟

وقف بينهما ياسين باسمًا، وضع يده على كتف الضيف المجهول بالنسبة لآية، رحب به بشدة فتقبل الضيف ذلك بابتسامة منشرحة كذلك: حمزه بيعتذر إنه مش هيقدر يجي يبارك بنفسه.

أومأ: ولا يهمه، المهم هو يكون بخير.

هز رأسه بأسى: حاله زي ما هو، مافيش تحسن.

لاحظ ياسين نظرة شقيقته التائهة فقدم لها الضيف بإيجاز: مسعد صاحب حمزه، كنت فاكرك قابلتيه قبل كدا فـ فرح حياه.

-يجوز، بس الحقيقة مش فاكرة.

تدخل مسعد قائلًا: ولا يهمك، أنا كمان مش متذكر حضرتك.

حدقت في ابتسامته المعتذرة وحاجبيها يستنكران قوله بالأخص بعد ما حدث قبل أيام، انسحب ياسين برفقة أحد الضيوف، حاولت آية الذهاب في إثره عندما طرقت أذنيها كلمات مسعد الواثقة: مسيرنا نتقابل تاني يا.. آنسة آية.

***

ترقبت عودة نجلاء من الغرفة التي احتلها حمزه مؤخرًا، تتقلب على الأشواك متأرجحة بين الخوف والقلق كذلك الأمل، الصينية الممتلئة عادت كما ذهبت ووجه نجلاء لا ينبئ بأي جديد، وضعت الأخيرة الصينية فوق الطاولة القصيرة ثم جلست جوار حياه.

نظرت إليها بلا حول، تراقب أصابع الآخرى الملتفة حول بعضها في توتر يكاد يفتك بما تبقى لها من أعصاب، أشفقت على حالها، فحِمل من يجب أن تحمل؟ ألا يكفيها ما في بطنها من روح عالة على روحها المنهكة، أحكمت كفيها فوق تداخل أصابع حياه تبثها ولو اليسير من الدعم.

-المهم أنتِ أكلتِ؟

هزت رأسها بوهن بان في حروفها المتقطعة بشرود: شوية.

-مافيش حاجه اسمها شوية، يا أكلتِ يا ما أكلتيش.. ولو قصدك نقنقة العصافير اللي بتعمليها بقالك فترة فـ دا ما يتسماش أكل.

حررت إحدى يديها تدلك جبهتها وتخلل خصلات شعرها المبعثر بلا إهتمام: ماليش نفس.

رمقت نجلاء شعر زوجة أخيها بحزن، تركتها تبحث عما يساعدها في تمشيط شعرها ثم عادت تجلس كما كانت، أدارت حياه من كتفيها بهدوء والأخرى تطاوعها كدمية بلا إرادة، تخللت أسنان المشط شعرها تحل عقده وتفك تشابكه، انهمر فيضان الدموع من أعين حياه على ذكرى أيادي أخرى كانت تؤدي نفس المهمة قبل أشهر.

غدرت دمعة بنجلاء فتحررت من أسرها، همهمت: أه لو أعرف اللي قالقك للدرجة دي.

-خايفه، مرعوبة.. حمزه لو سابني هيكون له الحق، ما أقدرش أمنعه.

شهقت نجلاء وتركت حياه بعدما عكصت شعرها في جديلة: يسيبك؟.. ويسيبك ليه؟!

نكست رأسها بعار لا تنساه: بسببي خسر أبوه.

-عشان شادي؟.. دا مش ذنبك يا حياه، كلنا عارفين دا.. موت بابا قدر، ساعته جات وكنا هنخسره بأي شكل، مش شرط شادي.. حادثة أو حت بدون أسباب، فجأة يقع ويروح مننا.

أخفت وجهها بين كفيها: من ساعة ما دخلت حياته قلقت راحته وشتت شمله، خليته يعمل حاجات ما كانش يفكر يعملها، اتجوز واحدة.. وأبوه اتقتل على إيد مجرم، ويا عالم إيه هيجرا تاني.

-عارفه إن الكلمتين اللي ماما قالتهم أيام ما كنا فـ المستشفى مستنين خبر عن صحة بابا، هما السبب فـ تفكيرك دا.. بس أعذريها، عشرة سنين وفجأة يحصله كدا قدام عينيها.. ماما حساسة أكتر مما تتخيلي يا حياه.

-عذراها والله، ومعاها حق فـ أي حاجه تعملها فيا.. مش هأفتح بؤي بكلمة ولا أنطق فـ وشها لو ضربتني حتى بس.. بس حمزه يا نجلاء، حمزه اللي خايفه بعد السكوت دا يفوق على بعده عني، يطلقني.

تعالى نحيبها، فلم تملك نجلاء شيئًا سوى ضمها ومحاولة بث السلام داخلها: حمزه عاقل ومش هيعمل كدا طبعًا.. أنتِ مش بس حبيبته ومراته، لا كمان أم ابنه.. استهدي بالله وما تسبقيش الأحداث بتوقع الشر.

***

تجرعت من كوب الشاي المنكه بالنعناع، لا ترد أو تعبر بكلمة عما سمعته من كلام فتون، مما دفع الأخيرة إلى تحفيزها على النطق: حنان.

-نعم؟

-ما ردتيش عليا.

-أرد أقول إيه؟، أنتِ قررتِ والموضوع منتهي.. الكلام مالوش داعي.

-أنتِ عارفه غلاوتك عندي قد إيه..

التفتت إليها بكامل جسدها وقد تجمعت الدموع بمقلاتيها، نشجت بصوت يدمي القلب: عايزه تسيبيني أنتِ كمان يا فتون؟.. هي دي غلاوتي عندك.

شهقت الأخرى من مرأى مدى تأثر حنان، بالكاد تحدثت إليها وتعاملت معها فترة شديدة القصر لهذا التأثر، لا تتهم حنان بالكذب أو الإدعاء، لكن روحها شديدة التعلق والنقاء ما زالت تصدمها حتى الآن، لقد ظنت يومًا أن حياه هي أكثر ستقابله نقاء لكن حنان أكدت تواجد المزيد من الشفافية التي لم ترها قبلًا، وحاليًا توقفت عن وضع سقف لتواقعاتها في الشخوص.

ضمتها بابتسامة مقدرة للحب والتقدير الذين إفتقدتهما فترة طويلة: أوعي تقولي كدا، بأمانة معزتك عندي وحبي ليكِ ما يتوصفوش.

-طب عايزه تسيبيني ليه؟ ضايقتك فـ حاجه؟ طب مي زعجتك؟

أسرعت تطمئنها: مش لأي سبب من دول صدقيني، كل الحكاية إني بأدور على نفسي وبأحاول ألاقيها.. أنا اللي ضاعت عايزه أرجعها.

استنكرت بشدة: بالسفر؟.. تروحي الصومال؟

أكملت عنها: وجونتنامو، والعراق، وجنوب أفريقيا.. أيوه، لما روحت تبع الكنيسة الفترة اللي فاتت نساعد المحتاجين، ونعالج المرضى اللي مش بيقدروا يتكفلوا بتمن العلاج مع دكتور بدر؛ كنت بأحس إن لوجودي معنى وفيه لسه دور لازم أعمله فـ الحياة.. لما عرض عليا القسيس الفرصة فـ إني أنفذ دوري دا، ما قدرتش أرفض..

تعلقت بأيدي صديقتها: تمسكك بيا إداني إحساس بالأمان ما تقدريش تتخيليه، فكرة إنك هتسافري لإن مالكيش مكان مختلف تمامًا عن إنك تسافري وأنتِ عارفه لو ما ارتحتيش أو الدنيا ما ظبطتش معاكِ هترجعي تلاقي اللي يفتحلك أحضانه ويحتويكِ من جديد، تنسي معاه كل حاجه وحشه مريتِ بيها.. ربنا يخليكِ ليا يا حنان بحنيتك وطيبتك دول.

أجهشت كلتاهما في نحيب طويل، متعانقتين، تبكي كل منهما ما يؤرق ليلها ويقض مضجعها، حنان وفقدانها لسندها في الدنيا ومسئولية ميَّ التي صارت تتحملها بالكامل. فتون رغم تجاوزها ما كانته سابقًا -إلى حد ما- إلا أن كثير من الأحايين، وقت إختلاءها بنفسها، تراودها الهواجس وتعود من جديد إلى كراهية الذات، لا سبيل للخروج من معمعة التأنيب وجلد النفس إلا الانشغال التام والإنفراد فقط وقت النوم، الذي من كثرة الإجهاد تغط فيه بمجرد لمس الوسادة لخدها.

***

تمددت فوق السرير بينها وبين ياسين ترقد الطفلة ناعسة بأصابع تحكم قبضتها رغم ضعفها حول سبابة والدها، كل حين تحاول دفعها إلى داخل فمها تتلهى بها، ابتسمت سلمى متنهدة: على فكرة مش دا خالص اللي كنت مخططاله.

فهم قصدها عن المهد الذي لم يستعمل منذ احتل جوار الفراش، لم يحرد بنظره بعيدًا عن صغيرته النائمة: مش قادر أبعد عنها.. بأحس بنقص غريب لما ماتكونش قدام عنيا.

استندت على خدها بكفها كما يفعل، ابتسمت: حاسس بالكمال معاها وإنك خلاص ما بقتش محتاج حاجه من الدنيا.. كل اللي نفسك فيه بقى ملكك وأي زيادة مستغني عنها.

وافقها بهمهمة منخفضة متلمسًا بشرة جنة القطنية: أهم حاجه تفضل بخير.

-مصدق إنها تمت شهرين؟

رفع إليها حدقتيه المليئة بالدهشة: بجد؟.. عدا وقت قد إيه.

نهضت ضاحكة: طب خليك على وضعك كدا، فاقد الزمن معاها شوية كمان عقبال ما استحمى وأجي.

تركتهم مطمئنة على وجود طفلتها بين أيد أمينة، صبَّ ياسين كامل إنتباهه على جنة حتى سمع طرقًا على باب الغرفة أعقبه دلوف الخادمة: ياسين بيه.. الأمن عايز حضرتك تحت.

قطب: حصل حاجه؟

هزت كتفيها: بيقولوا لقوا حاجه قدام بوابة الفيلا، مش مكتوب عليها غير اسم حضرتك.. مستنين حضرتك عشان يفتحوها.

نهض حاملًا الطفلة يضعها في مهدها كي يضمن سلامتها ثم هبط إلى الأسفل يستكشف ما حدث، سلمه رجل الأمن المظروف الأبيض حتى يفتحه أمام ناظريه، وجد شريط تسجيل وعدة صور، لصدمته كانت سلمى من تطالعه بجمالها المعرّى من الحجاب، استدار تجاه مكتبه بذهن شارد وقد صرف رجال الأمن بإشارة صغيرة

من يده، يقلب الصور في صدمة حتى وصل إلى ورقة حشرت بين الصور، فضها يقرأ نصها.

«دي بس عينة من اللي موجود مش أكتر، دليل على.. أنت عارف بقى.. وعلى فكرة الصورة والتسجيل متاخدين من أوضة خاصة بحرمك المصون، عملهالها ماجد.. تعرفه؟»

قلب الورقة عدة مرات بحثًا عن اسم كتب لمرسلها بلا جدوى، وضع الشريط في جهاز التسجيل ثم استقر على أقرب مقعد يستمع لما يحويه.

-ماجد ماجد، وحشتني أوي، أووف، عايزه أخرج من السجن دا وأجيلك بس أنت اللي مش راضي، فيها إيه يعني.. مش فاهمة مهتم بيه كدا ليه إذا أنا نفسي مش فارق معايا!.. على العموم كمان شهرين وأزورك.. وقتها هيبقى في كلام تاني، أمـووواه.

كز على أسنانه من نبرة الحب العاتبة التي تغمر كلمات المتحدثة، عتاب أحباء، ووعد مشتاق، نفس الصوت ونفس النبرة الخاصة بزوجته، لكن أتتحول زوجته صاحبة العفة إلى خائنة مع الجار؟

لا يستطيع إنكار نظرات ماجد التي فسرها بالغموض ناحية زوجته، يتذكرها الآن فيجدها تعبيرًا عن التقدير و.. الإشتياق، لكن بعيدًا عن الرجل، أزوجته حقًا تبادله ما سمع؟.. تسمح لغيره بأن يرى ما لا يحق لسواه!

نـهض بعصبية صاعدًا إلى الأعلى، كل درجتين بخطوة، دلف الغرفة على غفلة بحثًا عن سلمى، وجدها تقف جوار المهد بمآزر حمامها والصغيرة بين يديها تعيد ضبط ملابسها بعدما أبدلتها، استشعرت ولوجه، فعاتبته دون أن تعطيه أكثر من نظرة

جانبية، غير كافية لتلحظ مزاجه: مش سيبتك معاها؟.. تقوم تنزل وتسيبها؟.. خرجتني بعياطها قبل ما أخلص.

طال صمته وانتهت من مهمتها فاستكانت الطفلة صامتة دون نوم، تطلعت ناحية ياسين وسألته بقلق: مالك يا ياسين؟ حصل إيه؟

بسط يده بما تحمله من صور: دا اللي عايز أعرفه منك.

تناولتها منه بتوجس، تشعر أن القادم لا يسر وما ستراه لن يعجبها، قلبت الصور شاهقة في فزع، عيونها تحدق في امرأة تشبهها لكنها متأكدة أنه مجرد.. شبه!، أفاقت على سؤاله: إيه العلاقة اللي بينك وبين ماجد؟

رفعت رأسها بغتة: علاقة؟، بيني وبين ماجد؟؟

لاحظت تمسكه بسؤاله وأنه ليس على سبيل المزاح، اشتعل الغضب داخلها: مافيش حاجه طبعًا، أنت إزاي تسأل سؤال زي دا!

بصلابة وجمود سألها: إيه اللي يخلي واحد غريب ياخدلك صور زي دي غير لو بينكوا حاجه.

صاحت به: لاااا، دا أنت اتجننت رسمي بقى.. علاقة إيه اللي بتتكلم عنها؟!

ألقت في وجهه الصور بحنق وفوران عصبي شديد: روح شوف جبت الصور دي منين ولا مين بيتبلى عليا.. اللي أعرفه إن اللي فـ الصور ممكن تكون شبهي.. لا مش شبهي وبس، نسخة مني باختلافات صغيرة لكن مش أنا.

صمتت فجأة تكبح الدموع داخل أسرها وتشير إلى الخارج: أطلع برا يا ياسين.

خرج بعد دقيقة من تحديق كليهما في بعض، صفق الباب بشدة خلفه منطلقًا إلى المنزل المقابل، دق الباب بكلا قبضتيه حتى كاد يوقعه من شدة الطرق، فتح ماجد

بمنامته وشعره المشعث يحاول إرسال اليقظة إلى ذهنه لاستيعاب ما يجرى، دفعه ياسين بلكمة شديدة متجاوزًا إياه إلى الداخل، يبحث عن تلك الغرفة المخصصة لزوجته كما ذكر بالرسالة.

تسمرت قدميه عند مدخل الغرفة المقصودة، هاله ما تراه عيناه، لقد ظل طوال الوقت يمني نفسه بافتراء ما رأى وقرأ، اخترق صومعته صوت تنهد ماجد محاولًا شرح الوضع: سيبني أشرحلك الوضع.. صدقني أنت فاهم غلط.

لم يعره ياسين الأذان المصغية وانقض عليه يوسعه ضربًا، يفرغ به شحنات الغضب والثورة المتصاعدة داخله، يرغب في إزهاق روح من حاول تدمير العلاقة التي استشعر بداية استقرارها بينه وبين سلمى، هدم بتدخله ما ظنه إشارة لترسخ ما يجمعه بزوجته ويحوي ابنته، يصب عليه غضبًا من فشل حياة تمناها دون أن يدري، أبوة رفض لسنوات الشعور بها عن جهل، وتصحبه الآن إلى جنة ندم على زهده فيها قبلًا.

***

ذراعها المستندة فوق حافة سرير الأطفال يتحرك بآلية فيهز السرير رويدًا، يساعد الطفلة الملائكية على النوم والاستسلام بعد يوم آخر مليء بالبكاء، والشوق إلى أبيها، تنظر سلمى احيتها بذهن شارد، مرت عدة أيام منذ عادت إلى منزل والدها، استرجعت آخر ذكرياتها في ذاك المنزل قبل الرحيل.

حاولت معها ناهد باستماتة بعدما استنجدت بها آية، تطلب عونها بلجم رغبة سلمى في المغادرة، لم تعد تطيق، تحملت تفضيله لكادي، رفضه حبها، مقاومته المستميتة لها، قربه منها بسبب الصغيرة التي بينهما، لكن الإتهام في الدين والأخلاق فقد فاق الحد، كيف تحيا تحت سقف واحد مع رجل تبادر إلى خاطره ولو لبرهة أنها قد تخونه أو تخرج عن ما أوجبه دينها وعكس أخلاق شبت عليها؟!

رغم قضاء سنين عمرها في منزل والديها فما زالت غير قادرة على التأقلم فيه من جديد، تشعر داخله بالغربة، كأنها غابت أعوامًا ثم آبت فوجدت الحال غير الحال. لم تعتبر منزل ياسين يومًا بيت لها، كذلك هذا المنزل.. فقدت حس الإنتماء إلى أي مكان، كغريب تناقلته شطآن الدول، أو صيد لا يعرف شاطئًا بعينه بل البحر داره والسماء سقفه فيما الهواء جدرانه. طرقة قصيرة وبرنة خفيضة على الباب دلف بعدها أوسط أبناء شقيقها الأكبر، ابتسمت بتلقائية كلما رأت أحد أطفال أخيها، تقدم الصغير مركزًا ناظريه على كأس الحليب في يده كي لا يسكبه فوق الأرضية مما يؤدي إلى تلقيه العقاب، وصل إلى جوار عمته فوقف أخيرًا ينظر إليها بجدية وتركيز قائلًا: أنا شربت كوباية اللبن بتاعتي ودي كوباية تانية عشان جنة؛ إشمعنه أنا وطه وهشام نشرب لبن وهي لا؟!

ضحكت من جديته الشديدة المخلوطة مع طفوليته المحببة: بس يا يزيد جنة ما ينفعش تشرب اللبن دا عشان لسه صغيرة، بترضع بس.

لوى جانب فمه وصمت قليلًا ثم ابتسم: خلاص أشربيها أنتِ عشان ما اتعشتيش معانا.

تناولتها منه شاكرة: حاضر يا سيدي.

شربت رشفة فيما تنصت إلى سؤاله: أنتوا خلاص هتفضلوا عايشين معانا على طول؟.. يعني مش هترجعوا مصر تاني؟

أومأت بصمت، اقترب من السرير يركع فوقه كي يستطيع رؤية الصغيرة في فراشها الهزاز. أضاف حينها: أنا مبسوط عشان هتفضلوا معانا على طول، مش عايز جنة تمشي.

ابتسمت: جنة بس؟

نظر لها بجدية: أكيد جنة مش هتفضل من غيرك يا عمتي.

قهقهت متخللة شعره بأصابعها: طب يلا بقى يا زيدو بيه على سريرك، وقت النوم جه.

هبط من أعلى الفراش وغادر مطيعًا بعدما ألقى عليها تحية المساء. اندست تحت الغطاء بعدما تأكدت من استقرار جنة في نومها وتركت أفكارها تدور في دوامات الحياة، سواء المخلفة وراءها أو القادمة.

أصابت حين أبعدت طفلتها عن والدها؟، أنانية منها الرحيل بصحبة جنة فتحرمها من والدها؟، لقد أوقدت فيها شعلة الذنب منذ أتت، تبكي باستمرار، ترفض الطعام واللعب، تنام بعد محاولات قاتلة توشك أثناءها سلمى على الإنهيار، بالكاد بدأت اليوم تهدأ عن الأيام الماضية، يبدو أنها بدأت تعتاد البعاد عن أحضان والدها، لكن ياسين لم يسأل عن ابنته على الأقل، لم يتصل، أو يحضر ليراها، يمكنها تبرير تجاهله معاها لكن ما دخل ابنته؟

فتحت عيونها ببطء على سماع حركة غير طبيعية بالمنزل، نظرت حولها تطمئن على جنة وأن ما أيقظها لا يمت لها، نائمة كما تركتها فاسترخت قليلًا، تلفتت بحثًا عن الساعة فأدركت غرقها في النوم لساعة أو يزيد قليلًا، عادت الضجة في الخارج إلى العلو، نهضت تضع حجابها المثلث وتشبكه أسفل ذقنها بطوله الكاسي لمنتصف ذراعيها، تسألت عن سبب الجلبة في الواحدة والنصف ليلًا.

هبطت درجات السلم مصدومة مما ترى، تتبع نظرات زوجة أخيها الباكية، أسماء، تكتم شهقات بكاءها بكفيها، أمها تستند عليها بتعب ووجهها غارق في فيضان من الأدمع، يوجد العديد من الأغراب في المنزل، بعضهم يدخل ويخرج من الغرف بالطابق السفلي

وإثنين يمسكان شقيقها وآخران بأبيها، فيما فارس يلاحق الشرطة أثناء تفتيشها الأرجاء، يصيح فيهم وينهرهم عن إفساد نظام المنزل وترتيبه.

زين مشعث الشعر بمنامته المخططة بتربيعات صغيرة، عاري القدمين، يقاوم النعاس الذي ما زال يطغى على تفكيره وعينيه، والدها يكاد يسقط من مقاومة إلقاء ثقله على العساكر الممسكين به في حركة آنفة دون عكازه، أكملت هبوطها ووقفت في المنتصف بين تجمع النساء والآخر الرجالي، بوجه تملؤه الدهشة: هو في إيه؟

لم يرد أحد، أسرعت صوب الضابط المشرف على عملية التفتيش وفي إثره فارس تسأله: هو في إيه يا حضرة الظابط؟؟

إلتفت إليها وأجابها بعجلة كي يتم مهمته: اتمسكت شحنة تبع شركة السقا فيها قطع أثرية متهربة لبرا أثناء تصدير بضاعة، ومعايا إذن بتفتيش البيت وأي ممتلكات.

رفعت صوتها لتتأكد من سماعه لها بعدما تركها مبادرًا في الصعود إلى الأعلى: ومال زين وبابا بالموضوع؟

رمقها بنظرة مستهجنة غباءها لكن في نفس الوقت يتوقعه: كل ورقة طلعت أمر خروج الشحنة والبضاعة كانوا هما ماضيين عليها.

تركها تتخبط فيما قاله، تحاول استوضاح الوضع وتقديره، سمعت صوت أمها المتحشرج يحثها: أطلعي جيبي جنة يا سلمى، هيدخلوا يفتشوا الأوضة، بدل ما البنت تتفزع.

لم تفكر في وعي والدتها رغم بشاعة الظرف وأطلقت لقدميها الريح تصعد وتسبق الرجال إلى غرفتها، تناولت صغيرتها ولفتها في بطانيتها الزهرية، اصطدمت بهم على باب الغرفة فاشتدت ذراعيها حول اللفة بينهما، انكمشت بعيدًا تتطلع إلى رأس السلم بشوق للوصول، أسرعت تهبط بعد ربتة تشجيعية من شقيقها الأصغر، توجهت إلى والدتها وجلست جوارها. أدركت للمرة الأولى انكماش أولاد أخيها على

الأريكة الكبرى وصوت بكائهم المذعور، تتوسطهم أسماء حاملة أصغرهم في محاولة بائسة لبث الهدوء فيهم.

ارتمت جالسة مغمضة عينيها، تسند رأسها إلى الخلف، تقبض على طفلتها بقوة، تعافر من أجل إيقاف حاسة سمعها، ترغب في الإنفصال عن العالم، الإنتقال بعيدًا حتى تمر هذه الذوبعة بل الإعصار.. بعيدًا.

***

جاء الكثير، بقى أغلبهم فترة يستفهم عن صحة الأنباء، يقدم مواساته ويعرض خدماته مع وقف التنفيذ، ألسنة تعد وأفعال تتخاذل، تعلم أن منهم الفضوليين، من لم يأت سوى لإيجاد ما يعلمه فينقله بجلسات النميمة والإغتياب، وآخرين يشمتون، يتحينون فرص السقوط، ليست آتية من الجنة لتجهل ذلك، لكل ناجح عدو أو حاسد، ولكل جواد كبوة، سيخرج سنديها من خلف القضبان عاجلًا ليس آجلًا، لا لشيء سواء لإدراكها أن للكبوة يوم للزوال.

استفردت بنفسها تفكر بهدوء، هزت الأرجوحة بدفع ساقيها الملامستين للأرض في حديقة المنزل الخلفية، تناظر الأزهار التي داومت على الإعتناء بها منذ سنوات، انتقلت من ذكريات صباها وعزوبيتها حين لم يكن هناك هم أكبر من زهرة سقطت بسبب ريح قوية وأخرى ذبلت عطشًا للمياه لترتمي بين براثن المشاكل التي لا نهاية لها.

حاولت التركيز على ما يجب فعله، الذهاب إلى الشركة وطمأنة العمال والموظفين، توقف العمل سيسبب بلبلة هائلة ويصيب الناس بالذعر، ستحاول تفادي الوضع بطريقة ما. نظرت في ساعة معصمها تستعجب تأخر فارس في العودة، ذهابه دونها يتنقل بين الإدارات في محاولة لإيجاد ما ينفي تورطهم في هذا العمل اللا أخلاقي.

-عامله إيه؟

نظرت صوب محدثها بإندهاش،استرسل: عرفت اللي حصل.. أزمة وهتعدي.

كلمات جوفاء.. زادت تباعدها عنه، مجاملات باردة سمعتها مئات المرات من أبعد الناس عنها، لم تحل مأزقًا أو تفك مربطًا، لا تتجاوز حركة شفاه بلا دا ع لكن لا مفر منها. دققت النظر في وجهه تتأمل ملامحه، بعيد أشد البعد عنها، لا تستطيع التنبؤ بما يدور داخله أو في ثنايا عقله، جامد، صارم، لا حميمية في نظرته أو تخصيص لمكانة معينة لها لديه، كيف عميت الشهور الماضية عن هول المسافة الفاصلة بينهما؟، أكانت أكملت في طريق تدرك إنغلاقه؟

-فارس يرجع وبعدين نشوف الوضع إيه قبل ما نتصرف.. ما تقلقيش.

شدت كتفيها في عنفوان، ذكرها بموقف مشابه في الفجر القريب حين رفض والدها بأنفة يد غريبة تعاونه، رفضت عرضه بهزة من رأسها: شكرًا، مش محتاجين مساعدة.. هنتصرف لوحدنا.

لوى شفتيه استياء: سلمى، دا مش وقت مكابرة!

أكدت: صدقني إحنا مش محتاجين مساعدة، ولو احتجت حاجه هأقولك.

-الموضوع مش بالبساطة دي، الموضوع شكله كبير ومترتب صح عشان يشيله باباكِ وزين.. مش هتقدري تحليه لوحدك أو حتى مع فارس.

تدخلت أمها مقتربة منهما وفي عينيها نظرة رجاء بعدما ودعت آخر الزوار: بالله عليكِ تسيبيه يساعدك يا سلمى، خلي الفترة دي تمر فـ أسرع وقت.

سخرت: وهو يعني اللي هيسرّعها؟

نهرتها بنظرة صارمة، مؤكدة بثقة: إيد واحدة ما تسقفش.

وقف فارس منضمًا إليهم بجوار أخته وذراعه تحيط كتفها: زي ما قالت سلمى، مش محتاجين مساعدات من حد.

صاحت به أمه: فارس!!

أصابتها نظرة والدتها التائهة في مقتل، وبحثها عن ثقب إبرة للخروج من الوضع الحالي، أشفقت على زوجة.. شريك عمرها خلف القضبان، وابنها من لم يتركها حتى حين تزوج ينام بين المجرمين، بيت تصدعت حوائطه من حولها واهتز أساسه بإخراج مسيطره عنوة، الذل يشم جبينه والعار يحني أكتافه، أطفال راقبتهم يبكون طوال النهار غياب أبيهم. تشتت الابن الأصغر بلا حول في كفة السبل بحثًا عن أسرعهم وأنجحهم، أشفقت عليها فقررت شبه الاستسلام، أمسكت بذراع فارسها الصغير: خليه يا فارس يحاول، وإحنا هنحاول.. المهم نوصل لنتيجة.

نظر إليها بحنق يستنكر قولها لكنها أسكتته بنظرة عينيها، لم يعد هناك وقت للجدل، المتاح فقط العمل ثم العمل، لا ختام لتلك المعمعة سوى بإيجاد الجاني أو على أقل تقدير نفي التهمة عن المظلومين.

حثته على الحديث بعدما جلسوا جميعًا يتناولون قهوة تفتح الأذهان: المحامي قالك إيه بالظبط؟.. راجع الورق كله؟

أومأ: كلمة كلمة، وخليته يقراه أكتر من مرة عشان نتأكد.. التوقيع فعلًا بتاعهم، إمضتهم هما الإتنين على الورق، ودا مش بيحصل إلا أما تكون شحنة ضخمة، المشكلة إن زين قال بلسانه إنه كان على إيد العمال طول الوقت لحد ما الشحنة اتحركت قبلها بليلة، بس ما كانش في أي حاجه من اللي أتهموهم بيها.. فغالبًا الحاجه اتحطت بعد ما خرجت م المخزن.

سأله ياسين مستفسرًا: والسواق اتمسك؟

هز رأسه نافيًا بغيظ: بعد ما اتمسك قدر يهرب منهم، وما قدروش يوصلوله لحد دلوقتي.

-الشحنة اتمسكت فين؟

-قبل ما يعدوا الحدود بحاجه بسيطة.

-يعني قبل ما تخرج من البلد.. كانت رايحه بلد إيه؟

-أه على الحدود بينا وبين ليبيا، المفروض كانت تتسلم لشركة ليبية هناك عشان توزعها بمعرفتها.

-تعرف أي تفاصيل تاني عن الشحنة أو الشركة الليبية دي؟

-لا، لسه المحامي هيدور وأنا هأشوف الموظفين يمكن نوصل لحاجه.

وقفت أسماء على عتبة المنزل تنادي سلمى: جنة بتعيط ومش عارفه أسكتها، شكلها جاعت.

نهضت سلمى ملبية نداء صغيرتها التي أهملتها منذ ما حدث تاركة أمر الإهتمام بها إلى زوجة أخيها تارة وأمها تارة سوى من رضاعتها كل عدة ساعات، لحقها ياسين بنظراته حتى اختفى طرف ثوبها داخل المنزل، عاد لتركيز ذهنه وتفكيره مع فارس، يغرقه بالأسئلة والآخر يجيب بما يعرف.

****

استقبلتها حنان عند بوابة المدرسة من الداخل، ضمتها بشوق كما لو أنها غابت عنها سنين ليس يومين بالكاد، ابتسمت في سعادة لمرأها وقبلتها على خديها، سألتها بإهتمام عن وقتها في منزل والدها ولعبها مع أختها الصغرى، روت بمرح وفرح شرح قلب والدتها.

رفعت نظرها إلى الطفلة الأصغر الواقفة بجانب أختها في صمت وهدوء بانتظار إنتهاءها من تحية والدتها، قبلتها حنان على وجنتيها كما فعلت مع صغيرتها، ربتت على رأسها وسألت بمزاح إن أزعجتها ميّ أو اثقلت عليها، أجابت هدى في حياء باسمة: لا يا طنط خالص، أنا بأحب ميّ وبانبسط فـ اللعب معاها.

اطمأنت لتقبل الأختين بعضهما البعض دون مشاكل تذكر، حثتهما على الدخول ووقفت تتحدث مع خليل، بدأ الأخير الحوار: فرحنا أوي بوجودها معانا اليومين اللي فاتوا، ياريت تخليها تكررها الأسبوع الجاي كمان، جمعة وسبت تقضيهم معانا وأجيبها مع هدى الأحد. للمدرسة

أومأت موافقة فأضاف متساءلًا باهتمام: جدتك صحتها إزيها دلوقت؟

ـتعبانه، العلاج تأثيره ضعيف جدًا، الروماتيزم مش مخليها بتقدر تمشي خالص، ودور برد جالها زود التعب.

ـربنا يشفيها.

استأذنت منه متجهة إلى عملها والتحضير لحصة اليوم، انشغل بالها على جدتها، تدرك من كلمات جدتها المتفرقة أن الأوان قد دنى، ووقت وحدتها أوشك على الأزوف، ستصبح وحيدة إلا من ابنتها لكن حتى هي لن تداوم على البقاء جوارها.

***

ضغطت على الباب المصفح المغلق خلف ولديها بكفيها، استندت إليه بظهرها متنهدة، تعبت من الجدال فيما يتشبث كل منهم بأفكاره الخاصة، محاولات لا تتزحزح عن إخراجها من هذا المنزل، تاركين لها حرية الإختيار إما في العيش مع الابنة الصغرى وزوجها أو بمنزل ولدها الأكبر!..

يال الكرم.. !

عائلات مكتملة تدلفها دخيلة ثقيلة الظل، تقيد حرية زوج ابنتها أو تفرض مهامًا إضافية وضيافة دائمة على كنتها، لا تنكر سعادتها بالإقتراح الأخير؛ حيث تصبح قريبة من حفيدها أحمد طوال الوقت، تخفي همومها في ملائكيته الصافية.

دخلت غرفتها مطفئة جميع الأنوار إلا ضوء أباجورة مصفرة الإضاءة على جانبي الفراش،

تتخفى في ثنايا الظلمة وحدة جبرية تطوعت لتكون أنيسها الوحيد. جلست فوق السرير بضيق في صدرها من كثرة تكراره، صارت تفتقده حين يغيب لساعات قلال عنها.

قبل أشهر كان المنزل يعج بضجيج وطفولة ميمي وإن كانت بلا لسان يتحدث لسنوات، جدالها مع حمزه لإفناءه طاقته وجسده أكثر مما يلزم، محاولات أحمد العاقلة في ضحضحة آثار تزمرها وشكواها السلبية من علاقتها بابنها، نجلاء ومشاكلها مع زوجها التي كانت لا تنتهي وفجأة أختفت وكبرت صغيرتها بغتة لتصبح قادرة على ما يواجهها دون يد مرشدة من أمها.

تغير الكثير في وقت قليل، من الشكوى بكثرة الزحام إلى نجوى دقيقة انشغال، ارتدت إسدالها وتناولت مصحفها جالسة فوق المقعد بالزاوية البعيدة من الغرفة، تكسر صمت الهمسات بكلمات من الله، تناجيها وتخفف عنها بلا إدراك لكيفية ذلك، فقط تشعر بالسكينة التامة، لا تتوقف حتى تستشعرها بكل خلية حسية تملكها، حتى وإن استمرت قراءتها لساعات قبل هذا الشعور؛ تعيّ تمامًا أنها لن تستشعره حتى تغتسل بشكل كامل من كل ما يعكر صفاء روحها، وما يمكن أن يكون حائلًا بينها وبين ربها من موانع مادية أغلب الأمر -وإن لم تكن معروفة بالنسبة لها أحيانًا كثيرة-.

لهثت بصوت خفيض لكن شديد الوضوح، تتلو الآيات بذهن يشرد تارة ويركز أخر، لا تستلم سعيًا خلف السكينة التي تدرك طعم لذتها، والتي تستحق محاولاتها اللهوث

خلفها، قضت ما يقرب الساعتين والنصف قبل أن يتجلى عقلها من كل أفكاره الحياتية وينصب انتباهه على ما يقرأه فحسب، تتذوق السور والآيات كأنها لأول مرة تقرأها، مكتشفة معنًا جديدًا أو تمسه كلمة بالأخص وتوجيه بعينه.

***

دفعت الباب المعدني الممتلئ في فراغاته بالزجاج المعتم بجسد واهن، غير منتظرة انضمام فارس إليها، وهن الروح والنفس ظهر عليها في حالة من الهزال والضعف الشديد، الأيام الماضية في البحث بلا طائل تطلبت مشقة كبرى، والنتيجة السلبية تطلبت أضعاف المشقة.

اقتربت منهما فاطمة بوجهها الباسم رغم شحوبه من هول ما يمر على رأسها من مصائب، تخبرهما عن ضيف ينتظرهما في الصالون، لولا علم سلمى أن الضيف ما هو إلا صديق العمر لوالدها فاروق؛ لأعتذرت منصرفة بحثًا عن ابنتها، متلمسة في جسدها الضئيل بعضًا من الطاقة المريحة.

رسمت ابتسامة باهتة سرعان ما تشبعت بالصدق فور رؤيتها الإهتمام والأبوة في نظرات فاروق إليها ولأخيها، ذكرتها بوالدها وإفتقادها لتواجده جوارها، جلست وجلسوا، تبادلوا تحيات عن الصحة والأحوال، طغت «الحمدلله» على الألسنة. عمّ الصمت أثناء تناول بعض الشاي قبل أن يدخل فاروق فيما يفيد.

-قدرتوا توصلوا للي عمل الحكاية دي؟

طأطأ فارس نافيًا قبل أن يؤكد بيقين بدأ يفقد إيمانه: بس –إن شاء الله- هنوصل.

ربت الرجل الأكبر على فخذ الأصغر داعمًا إياه، ولسان حاله يدعو لهم بالتوفيق: طبعًا يا ابني، الظلم ظلمات والعدل نور، أحيانًا هتضطر تعدي على ظلمات عقبال ما توصل للنور، بس هيفضل بردو الحق واحد مافيش خلاف.

أردف متسائلًا: وناوين تعملوا إيه بعد كدا؟

رد فارس مستدركًا إنهاك شقيقته وعدم قدرتها على الرد: متابعين مع المحامي، وبندور بردو فـ كل ورقة بتقع فـ إيدينا.

-سمعت إن جوزك يا سلمى بيحاول يساعد، بس أما قولت لوالدتك إني عايز أشوفه قالتلي إنه سافر القاهرة عشان كام حاجه تبع شغله مستعجلة.

-بيروح ويجي، بس لا هو وصل لحاجه ولا إحنا وصلنا، مجهود فـ الهوا.

تجاوز فاروق إجابة فارس وُتوجه بنظره إلى سلمى مركزًا عليها: طب ما فكرتوش إنكوا يمكن بتدوروا فـ المكان الغلط؟.. مش ماسكين طرف الخيط بتاع البكرة اللي بتدوروا عليها.

رفعت سلمى رأسها بانتباه فيما تسمع صوت فارس يستفسر وتستشعر تقطيبه دون أن تراه: إزاي يعني؟

عيونه لا تتحرك عن عيون سلمى، كأنه يرسل لها رسالة أكثر توضيحًا لألغاز لسانه: يعني ساعات الخيط بيبقى فـ بيتك وتحت إيدك بس ما أنتش شايفه.. الدم بقى أرخص م التراب مادام مالوش سعر، الدم بيبقى واحد فـ العروق بس ناس من شيمها الغدر، تضيع القرابة عشان المصالح، خصوصًا لو كبران وقلبه مليان حقد وغيرة.

تفطق ذهنها عن معرفة أولية بمن قصد بحديث فاروق، همست بـ«عمي» باهتة ومكسورة، دون صوت حتى لا تصل إلى مسامع شقيقها، هبَّ فاروق واقفًا يجمع عباءته من حوله بعدما أرسل بريقًا يؤكد صحة فهمها لما قصد: استأذن أنا بقى، كنت حابب أطمن عليكوا وأعرف أخباركوا، الحاجه الوحيدة اللي قلقاه بعد وجود زين معاه فـ الحبس هو أنتوا.

ابتسم فارس ببساطة: شكرًا يا عمي على زيارتك له، إنهارده لما روحتله كان أحسن كتير بعد كلامكم سوا.

-والله يا بني لو عليا أفضل معاه مكان ما يروح، عملناها أيام ما كنا شباب، لكن دلوقت الظروف بتجبرنا على حاجات غصب عنا.

وقفت سلمى عاقدة كفيها: الله لا يقدر يا عمي، هنعمل إيه إحنا لو كلكوا سبتونا كدا، ومهما كان.. طعم الظلم وحش.

رفع يده في تحية منصرفًا ولسانه يردد باستمرار: بمرارة العلقم.

سمعوا صد بوابة المنزل تغلق، صعدت سلمى إلى غرفتها، وعقلها يدور في الباب الجديد الذي فتحه فاروق داخل رأسها، أيسجن الأخ أخاه؟، أيلقي العم عائلة أخيه في الجُب بإرادته؟ تدرك تمام الإدراك أن عمها يمتلئ بالغيرة من أخيه، لا لشيء سوى لقدرته على النجاح في معظم ما يفشل هو به، لم يفكر مرة بأنه لم يخلق لمجال التجارة، وأنها مهنة لها أصول ومواصفات بعينها كأي مجال مهني آخر، لكن كيف تجعل من لم يتم تعليمه الثانوي يفهم هذا بعيدًا عن غشاوة الغيرة؟

وصلت إلى جانب فراش ابنتها المبتسمة ببلاهة، غير مدركة ما يدور حولها في عالم الكبار، تتلهى أصابعها في قماشة ما، ألقت سلمى مشاغل فكرها وراء ظهرها، تتلمس لحظات من الصفاء مع ابنتها تخفف عنها وطأة الأيام. قطبت حين استوضحت ماهية القماشة الملونة، نزعتها برفق من براثن صغيرتها وفردتها أمام عيونها، قميص صيفي يخص.. ياسين!

كيف ومتى أتى إلى مهد جنة؟، وعت على انقلاب الطفلة على أحد جانبيها كأنها تتلمس ما أخذته أمها، تعالى البكاء معبرًا عن إنزعاج صاحبته، تطلعت إليها سلمى

في صمت لدقيقة قبل أن تعيد القميص مكانه –في أحضان الرضيعة-، لعجبها توقف العويل وعادت عيون جنة إلى الإنغلاق، أفلتت شهقة من فم سلمى دون إدراك.

دلفت فاطمة وعيونها تتجه إلى المهد قائلة براحة ملتقطة أنفاسها: أنتِ معاها؟ افتكرتك نمتِ وخوفت تقلقك قبل ما اسكتها.

دون أن تكلف نفسها دفع نظراتها بعيدًا عن أيدي جنة المتشبثة بالقميص وقماشه الملون.

سألت بصوت هامس: إيه اللي جاب التي-شيرت دا هنا؟

رفعت الأم حاجبيها بحثًا عن مقصد ابنتها قبل أن تجيب: لما كان ياسين بيغيب عنها يوم من غير ما يطل عليها كانت بتقلب الدنيا عياط وصريخ، مش بتسكت، وقبل ما يسافر آخر مرة خليته يجيب حاجه فيها ريحته عشان تفضل معها لحد ما يرجع.

انقبضت أصابع سلمى على جانب المهد، استرسلت الأم ببسمة حانية لأيام مضت ولن تعود: بتفكرني بيكِ يا سلمى، كنت متعلقة بوالدك كدا، كتير كنت بأغير منه عليكِ، بنتي الوحيدة بقى والمفروض حبيبة أمها.

غمزتها فاطمة بخبث: بيقولوا إن درجة تعلق البنت بأبوها بتزيد بزيادة حب أمها للأب.

تخابثت الأخرى مجيبة: قد كدا بتحبي بابا؟

صفعتها على مؤخرتها: طبعًا بأحبه، بس شكله ما يجيش حاجه جنب حب أم جنة لأبو جنة.

ابتأس وجهها وغمر الحزن عيونها: الحب مابقاش ينفع.

ضاقت عيون فاطمة: وإيه اللي ما يخلوهش نافع؟، إذا كان قدر يقنعك تتجوزي واحد متجوز، فشل دلوقتي ليه بعد ما خدتِ مكانتك فـ حياته؟

سخرت: مكانتي؟.. هو أنا ليا مكانة فـ حياته أصلًا؟ مش لما يشوفني الأول.

أمسكت أمها ذراعها وجبينها يحمل تقطيبة ضخمة: أنتِ رجعتِ وما قولتيش أسباب أو إيه الحاجه الكبيرة اللي حصلت بينكوا عشان تسيبي بيتك، ولإني وأبوكِ واثقين فـ تربيتنا وعقلك ما حبناش نضغط ونسأل، قولنا هما كبار وعاقلين.. بس كلامك دا معناه إن الموضوع أكبر مما تخيلنا.

تهربت من ضغط أمها قائلة: هأروح أزور بابا وزين بكره، حابه أوصلهم حاجه؟

جذبتها من ذراعها وأجلستها على طرف الفراش بعدما ألقت نظرة سريعة على حفيدتها تتأكد من استقرار نومها، قالت بحزم لا يقبل النقاش: دلوقتي حالًا هتحكيلي كل حاجه، وإلا يا سلمى هتشوفي مني وش عمرك ما شوفتيه.

الإصرار الذي رأته في عيون أمها جعلها تستسلم، تخفف من أعباء قلبها، لا ينقصها خسارة دعم آخر في ظل الظروف الراهنة، كما أن مجرد الشك في تواجد عمها خلف كواليس ما حدث لوالدها وشقيقها أرسل رجفة في تأصل العلاقة الأسرية داخل كل فرد، ليست بحاجه إلى لفحة شك جديدة تضاف لخيمة العائلة.

***

تسمرت في منتصف الغرفة تطالع ما أعده حمزه من أجل صغيرهما أحمد، لا تصدق عينيها، بعد حبس في المشفى مع ابنها بسبب ضعف بنيتها، كذلك فترة الضغط النفسي أدت دورها في عدم تحمل حياه لمشقة الولادة.

أسبوع قضته إجباريًا في المشفى تلاه آخر بإرادتها حتى لا تترك صغيرها وحده، بعدما أصر طبيب الأطفال على ضرورة مكوثه أسبوعين كاملين، أقسمت ألا تلمس

قدميها عتبة المنزل دون صغيرها، عهدًا قطعته على نفسها أمام بوابات المشفى وقت المخاض.

عودتها إلى المنزل برفقة ابنها مر عليها عدة أيام، قضاهم حمزه متباعدًا، منشغلًا، ليفاجأها اليوم بغرفة كاملة بالألوان التي صرحت عن مدى جمالها لغرفة طفل شقي مثله، وأعين كبيرة مثلها.

هللت وتحملت وجع أسفل بطنها أثناء إرتفاعها على أطراف أصابعها تعانقه في محبة، تبثه هيامها بما أعده خصيصًا لعائلتهم الصغيرة .

تراجعت عنه معتذرة بنظرة تخبره أن لا حول لها ولا قوة، أسرعت تلبي صراخ رضيعها كي تلبي حاجته، تاركة حمزه يستمتع بشعوره المنتصر لما رأه في عيونها من فرحة بما أعده، لم يظن يومًا أن السعادة قد تغمره بنظرة رضا من امرأة ــ زوجته-، فبسمة منها قادرة على بث الحماس في أكمل جسده، وشهقة وجع ترده أسفل سافلين.

عاهد نفسه قبل أن يلحق بعائلته الصغيرة أن ينسى ما قد مضى، لن يعاتب ولن يفكر فيما سبق لقاءهما، عائلته كبرت بإنضمامها إليهم وكذلك عائلتها، زيادة يجب المحافظة عليها مقاومًا الأفكار الشيطانية المحرضة على إنهيارها بأي شكل.

***

تراجعت خطواتها حين أدركت مقدمة السلم بالأعلى، شاهدت خروج عاصم من الجهة التي تحتلها غرفة المكتب، يصرف الخادم ويتولى عنه استقبال القادم مع دقات الساعة التي تعلن تمام الرابعة فجرًا.

حدقت في نوح الذي بالكاد تبينت ملامحه أسفل الضوء الباهت شديد الضعف، يحمل بين زنديه لفافة، تنبأت بما تحويه، ارتفعت عيون نوح نحوها مما لفت انتباه عاصم

لتواجدها، امتلأت عيونه بالحنق وصرفها بهزة من رأسه مشيرًا لها بالعودة إلى غرفتها، شدت المآزر الحريري بلونه الذهبي من حولها بقوة وتراجعت في صمت.

رافق عاصم ضيفه إلى غرفة المكتب حيث كان مستقرًا يكمل بعض الأعمال قبل مقاطعة الأخر بقدومه، أجلسه ساحبًا دفتر الشيكات من الدرج، كتب المبلغ المتفق عليه ووقعه، سلمه إلى نوح ملتقطًا الطفل.

تساءل فيما عيونه تلتهم الشيك إلتهامًا: طب مش هتتأكد من الولد الأول وإنه سليم؟

إلتوت شفتي عاصم بسخرية: هأطمن ما تخافش، لو فيه حاجه هأعرف أجيبك أنت والشيك حتى لو فـ آخر الدنيا.. أنت نسيت أنا أبقى مين؟!

تراجع نوح من قوة وغرور الكلمات التي رغم خفوتها أصمت عقله قبل أذنيه، أخذ عاصم الطفل وصعد به إلى الغرفة حيث تجلس يُسر مكتفة الأذرع أمام النافذة المغلقة، كان يسير مراقبًا خطواته وفي نفس الوقت ينظر إلى الرضيع خشية استيقاظه، يبعده عن جسده مسافة آمنة، إحدى يديه أسفل رأسه والأخرى عند ثنية ركبتيه.

تسلمته منه يُسر كاتمة ضحكات صاخبة أوشكت الإعلان عن نفسها، جلس جوارها يراقب استقرار الطفل بين ذراعيها وإعتيادها على الوضع كأنها تحياه يوميًا، رفعت رأسها إليه حالما تأكدت من استراحة الطفل بين ذراعيه: فين حاجته؟

ـحاجة إيه؟

زفرت: البامبرز، الببرونه، اللبس، بودرة الأطفال، اللبن.. الحاجات دي يا بسام!

صحح لها بقوة: عاصم!!

ظهرت ابتسامة رغمًا عنها على شفاهها الرقيقة: اللي يشوف نظرتك وأنت شايل البيبي، ومتابعتك ليا وأنا بأخده منك وأنيمه فـ حضني.. ما يقدرش يقول عليك عاصم ابن الإمبراطور خاالص!

نهض مخفيًا بسمته هوالآخر متحججًا: بردو الحذر واجب، مش ناقصين الاسم يطلع منك وحد موجود.. هنقلب الترابيزة علينا، هأشوف حد من الأمن يروح يجيب الحاجات دي.

قرب الباب توقف قليلًا واستدار ناحيتها بتردد واضح، سألها أخيرًا: هو.. ولد.. ولا بنت؟

رفعت حاجبيها مستغربة، لكنها لم تعلق، أزاحت الغطاء الملتف حول الصغير لتتأكد من جنسه قبل أن تطلعه أثناء إعادتها لكل شيء مكانه: ولد.

أومأ برأسه وانصرف، ضحكت يُسر بخفة محدثة الرضيع النائم فيما تهزه رويدًا: شكلك هتعمل قلبان كبير يا نونو أنت..

***

تهز ساقيها في توتر، منتظرة حضور شقيقها، مقابلتها مع والدها لم تجد نفعًا، حمدت ربها أنها طلبت رؤية والدها وحده أولًا ثم شقيقها، لقد أتيحت لها فرصة التحقيق مع أخيها، أكثر صراحة وأسهل إقناعًا، ما سر عمها سعدان؟.. أيمكن أن يتسبب هو بما حدث؟، حاولت الإشارة من بعيد لإحتمالية ذلك لكن والدها –وإن فهم- لم يبد أية إشارة، خشيت عليه إن لم يستوعب قصدها أن يكدره ويعكر صحته الصراحة المباشرة.

الحل الوحيد في شقيقها زين الدالف أمام عيونها إلى حجرة الضابط حيث سمح لها

بمقابلتهما، عيونه بادية التعب وقلة النوم، أهزل خلال الماضية أم حنانها ناحيته كأنه ابنها هو السبب؟!.. ضمته في شوق، تطمئن على حاله، مع علمها كذبه، لكن الكلمة قد تريحها ولو قليلًا، جلست متمسكة بأصابعه تتلمس فيها الدعم ولو خلال دقائق المقابلة المعدودة.

-عمي سعدان ممكن يأذي بابا يا زين؟

قطب إثر حديثها المباشر: إيه اللي خلاكِ تقولي كدا؟ هو في شك إنه يكون ورا الموضوع؟

رفضت إعطاءه جوابًا يرضيه حتى يفعل معها المثل أولًا: جاوب على سؤالي يا زين.. ممكن؟

تنهد مطأطئ الرأس: دا ممكن يقتله شخصيًا، مش مجرد أذى وبس.

شهقت سلمى من قسوة الفكرة المخالفة لكل شرع: أنت بتقول إيه!

شدد من قبضته حول كفيها: هو قدر يهدد بابا قبل كدا بموتك وأذيتك، وورانا الدليل.. فاكرة الحادثة اللي اتعرضتلها قبل جوازك؟.. والعلقة اللي خدتها أنا وفارس؟.. كل دول كانوا تخطيطه، لمحة بيوريها لأبونا عن اللي ممكن يعمله.

متيقن من قسوة كلماته، لكن الواقع أشد مرارة وحدة، يجب أن يضع كل منهم أحلامه الوردية فوق رفها العالي صعب الوصول، فلولاها لما استمر والده حتى الآن يرفض فكرة تسبب الأخ بالأذى لشقيقه، ولما صار مأوهما منذ أيام هو زنزانة في طابق تحت الأرض مع الخارجين عن القانون.

كفى توقعات مبالغ في مثاليتها، وكفى ظنونًا خيرة بالناس أودتهم إلى ظلام كالقبور، وظلم جائر، حان وقت الإفاقة من سبات الأحلام كي يستطيعوا التغلب على المصاعب التي تلاحقهم، أكمل اعترافه حتى يصبح كل شيء واضحًا أمامها؛ فهي

من تسعى خلف تبرأتهم وإظهار الحقيقة، تنحنح مرتبكًا لا يعرف كيف يبدأ، استشعرت تردده فحفزته بإيماءة صامتة ونظرة تشجيعية.

إزدرد ريقه: بصراحة، عشان كدا بابا كلم ياسين وقاله يفكر فـ جوازكم من جديد؛ لإن حياتك فـ خطر ومش هيقدر يأمن عليها طول ما أنتِ قدام سعدان.

تراجعت كالملدوغة، سحبت يديها بعنف، تغرغرت عيونها بالدموع هامسة: يعني ياسين اتجوزني عشان..

أسرع زين يتم حديثه: ما عنديش فكرة عن أسباب ياسين للجواز، أنا بأقولك اللي حصل وبس.. إذا كان دا السبب الوحيد أو حافز.. أو حتى مالوش علاقة فـ ماعنديش علم بدا.

أغمضت عيونها دقيقة كاملة، تمنعهم من ذرف ما بهما من دمع، نهضت واقفة تلتقط حقيبتها، شمخت رأسها عاليًا كأن ما سمعته لم يزلزل شيئًا داخلها: ما تقلقش، وطمن بابا.. هتخرجوا من هنا -إن شاء الله- فـ أقرب فرصة.. واللي كان السبب -مين من كان- مسيره يدفع تمن عملته.

فيما همست داخلها، تقويها، أمقت هذا الحب الذي من أجله قدمت العديد من التنازلات، فقط.. كي أبقيه حيًا واحفظه من الهلاك ثم صحوت بضربة عصا على الرأس أنه لا يستحق أيًا مما فعلت.

تمقطه؟.. بل تكاد تذوب به عشقًا، كلمات حاولت بها دعم أنوثتها المهروسة وقلبها الراقد على جهاز الإنعاش بلا أمل في عودته إلى الحياة.

هرولت من أمامه غير سامحة بفرصة أخرى للحديث، ارتخت أكتافه وتبع العسكر إلى حيث يمكث مع والده، بعد نظرة واحدة إلى وجهه أدرك الأب فعلة الابن رغم تنبوءه بها مسبقًا، هز رأسه بقلة حيلة: ربك العالم باللي حصل لأختك بسبب اللي عرفته.

-يا والدي أنا...

رفع الأب كفه موقفًا الآخر عن الحديث: ما عادش فيه داعي للكلام، التبرير واللوم لا هيقدموا ولا يأخروا.. ودا اللي هيودي أختك لجهنم على الأرض.

غمر زين الغباء مما قاله والده؛ لإنه لم يفهم حقيقة مقصده، لكن الندم اعتصر دواخله بلا قدرة على العودة بالزمن أو استرجاع ما قيل.

***

دخل عليها يلحق به رجلين محملين بكافة مستلزمات الطفل، ما نوهت عنه وما لم تسمع عنه قبلًا حتى، ظنت أنها ستجد كذلك ما قد يلزم الطفل عشر سنوات قادمة، أمرهم بوضع كافة الأغراض في أحد الأركان، كيفما اتفق.

بعد انصرافهما، توجه إليها بالحديث: شوفي كدا إذا كنت محتاجه حاجه تاني للولد ولا لا عشان يلحقوا يجيبوها، وبعدها جهزي حاجتك؛ عشان هتسيبي البيت لفترة أو بشكل نهائي.

قطبت ضامة الصغير إلى صدرها: هنروح فين؟.. وإيه اللي هيحصل؟

زفر متأكدًا من تشبثها بالمعرفة، استسلم معلنًا: في عملية هتحصل خلال فترة قريبة، وأتمنى تكون الأخيرة.. وقتها مش هتضطري ترجعي، لو لا.. أدينا مستمرين للنهاية.

وضعت الصغير فوق الفراش محيطة إياه بالوسائد من كل جانب خشية تدحرجه ثم أولته كامل انتباهها: وليه ما نفضلش هنا؟

-خطر، الفترة الجايه مش عارفه إيه اللي ممكن يحصل.

-وهتبررلهم بإيه عدم وجودي؟

-هأتصرف يا يُسر، ما تشغليش بالك أنتِ، نفذي اللي بأقولك عليها وبس.

أكد على كلامه: اللي بأقوله بالحرف، ما تبدعيش من عندك.. هأخدك لبيت وهيبقى فيه واحدة بتساعدك مع الولد وتخدمك.. هي اللي هتجيب أي طلبات، لا أنتِ ولا الولد تخطوا خطوة برا البيت.. مفهوم؟

كزت على أسنانها بغيظ: تمام يا حضرة الظابط.

نهرها بعنف: يُسر!!

صرخت به غاضبة: عاصم!!

ضرب قبضته في جدار الغرفة قاطعًا إتصال عيونهم الذي لم تتراجع عنه هي، غادر صافقًا الباب وراءه، فيما ضربت الأرض بقدميها مبعثرة ذيل الفرس المعلق فوق ظهرها.

***

الساعة وصلت الثامنة صباحًا بعد التقريب، عاد يرفع نظره من فوق عقارب الساعة الظاهرة على خلفية حاسوبه المحمول ونظر إلى وجه زوجته بملامحه الحازمة، استرجعت لحظة دلوفها إلى مكتبه بعدما افتقدت وجود مساعدته خلف مكتبها؛ فما زال الوقت مبكرًا على قدوم المواظفين، تملكه الرعب من إمكانية تضرر جنة بشيء ما، خصيصًا في عمرها الصغير ذاك، كلمات سلمى الجافة وإنشداد جسدها انبأاه بخطأ توقعه.

عقد أصابعه في حجره متساءلًا عن سبب الزيارة المبجلة بعينيه دون لسانه، أجابته بوضع رزمة من الورق أمامه فوق سطح المكتب: عايزه اتأكد من سجل الشركات دي، وتواريخ نشأتها وإلغاءها لو موجودة.

التقط الورق وطالعه، قابلته أسماء ليس له خبرة بها، تعجب طلبها فاستفسر: ودول تبع إيه؟

زفرت متكئة إلى الأمام: أنت عرضت مساعدتك لينا فـ إثبات براءة بابا وزين، دا بقى طلبي منك.

أصر رافعًا الورق بكفه: وإيه علاقة الورق دا بيهم؟

تنهدت بقوة: ممكن تعمل اللي طلبته وبعدين هأفهمك كل حاجه؟

لاحظ وجهها الباهت والمصفر من قلة النوم، من بكورها في الوصول استنتج بكورها في

الخروج من المنزل، حتى قبل شروق الشمس.. لتصل إلى هنا في هذه الساعة، متأكدًا من عدم تناولها لأي فطور قرر الاستسلام.

-ماشي.

-هأخد الرد إمتى؟

-ممكن على آخر النهار كدا، هتفضلي فـ القاهرة ولا هتسافري؟.. أصلًا إيه اللي جابك المسافة دي عشان حاجه ممكن تبعتيها فاكس أو عن طريق النت.

نهضت من مجلسها تضبط يد الحقيبة فوق كتفها على شكل نصف علامة الخطأ: لا مش هأسافر قبل ما أخد نتيجة الورق، أول ما توصل لحاجه إتصل بيا وأنا هأجي على طول.

كرمش جبينه: رايحة فين؟

-عندي كام مشوار لازم أعملهم.

كز على أسنانه واقفًا يراقب عجلتها في الذهاب: وحشك ماجد؟

رمقته بغضب لكنها اكتفت بهز رأسها يمينًا ويسارًا قبل الإختفاء من أمام ناظريه: عيب عليك، والله عيب عليك.

عاد يجلس فوق مقعده بذهن شارد، لا يعلم سر تفوهه بالجملة الأخيرة رغم تيقنه من عدم صحتها، رفع آلة التسجيل يسجل ما يرغب من سكرتيرته فعله فور حضورها.

***

مستندة إلى قبضة يدها، كوعها مدعوم على ظهر الأريكة، ذهنها شارد في إنتظار عودة صديقتها كي تخرجه من دوامته العاصفة، منذ البداية وجميع الظروف تبعدها عن ياسين، تخبرها بلسان أخرس أنه ليس لها، شعورها بأنه المكمل لنصفها المنقوص مجرد وهم داخل عقلها، قد يكون كذلك بالفعل لكن نصيبها ألا تكون جواره.

الرؤيا التي تجاهلت قبل الزواج، المشاكل بينهما، حبه لزوجته.. جمالها وفتنتها، رفضه لمحاولاتها علنًا دون موارة، نبذه لها يوم عرسهم.. كانت الأصعب والأكثر إشارة لعدم رغبته بتواجدها في حياته.

كزت على أسنانها نتيجة زيارتها له صباحًا، لكن ما باليد حيلة، هو أكثر تعاملًا وعلاقات في القاهرة، سينجز ما تريده أسرع مما كانت لتفعل، والدها وشقيقها أغلى من عدم رغبتها في رؤية وجهه، كسر بقايا الأنوثة بها اعتراف زين، اندثر الأمل الأخير الذي كانت تتشبث به لتعفو عن ياسين، سرقه الزمن وولى متبخترًا؛ يتأكد من تشيعها له.

أفاقت مصعوقة على تصفيقة من كفوف حياه أمام عينيها، جلست أمامها تلملم أطراف ثوبها المنزلي: هوهو.. أنتِ جايه عشان تسرحي ولا إيه؟

أرغمت نفسها على الإبتسام: أحمد نام؟

-وزمانه خلص طبق رز بلبن بحاله مع الملايكه، قوليلي بقى ناويه تعملي إيه؟

فهمت رغبتها في العودة إلى الحديث السابق، قبل مقاطعة أحمد بصياحه كسارينة إسعاف تحمل حالة طارئة: أنا وياسين ماكناش لبعض م الأول، كل الحكاية إن آخر خيط بينا اتقطع.

صاحت حياه بصخب: أنتِ عايزه تجننيني يا بت أنتِ ولا إيه؟؟.. إيه اللي انقطع؟.. والبت اللي سايباها مع أمك دي إيه؟.. كيس جوافة؟

نهرتها سلمى مستعجبة طريقة كلامها: حياه؟!

-بلا حياه بلا بطيخ!، إن كنت فـ الأول بتتمسكِ بيه عشان نفسك، فـ المفروض تتمسكِ بيه دلوقتي أضعاف عشان بنتك.

-بنتي هتضر أكتر لو قعدت بين إتنين مش بيحبوا بعض، مش مرتاحين سوا.

-دا كلام فارغ.. وبعدين مين قال إن ياسين مش بيحبك؟

تأففت: تاني يا حياه؟.. هنعيده تاني؟

-تاني وعاشر.. هو إكمنه ما أتجوزكيش عشان حبك وداب فـ هواكِ معناها إنه مش بيحبك دلوقتي؟!، أنا اللي شوفت خوفه وقلقه عليكِ لما اختفيتِ، اللي كان فيه عمره ما يكون أي حاجه إلا حب.. ومستعدة أجيبلك حمزه نفسه يحلفلك على كلامي دا.

عقدت ذراعيها متراجعة في جلستها، تطلق ضحكة ساخرة: ممكن يكون عشان حامل فـ بنته أو حتى إحساس بالمسئولية.. يعني ما أخدنيش من أهلي حماية وفـ الأخر يضيعني، أي حاجه.. أي حاجه إلا الحب.

سبّت بصوت غير مسموع: يا ريت بقى ما تنفيش حبه، لإن الواضح إن أنتِ اللي مش عايزاه.

استرسلت حانقة من تصميم صديقتها الأعمى: اللي بيحب بيتمسك بحبال الهوا الدايبه، بأقل قشايه.. حتى لو ابتسامة وهو بيقولك صباح الخير، أو شكرًا لما تقدميله كوباية شاي.. اعترفي إن حبه فـ قلبك قلّ لكن ما تقلليش من قيمة حبه ليكِ،مش عشان أنتِ مش شايفاه كويس يبقى مش موجود.

انهارت سلمى باكية في هتاف: تعبت يا حياه، تعبت!!، من ساعة ما قلبي دق له أيام طفولتنا، وبدأت ابني أحلام فـ الهوا، كلها عبارة عن سراب، ولما اتقدملي، ورغم جوازه من واحدة تانية وجهلي بأسباب اختياره ليا.. قبلت بكل حاجه، الفتات اللي بيرميه، خناقه فيا وزعيقه من الباب للطق.. وقبل ما يكون بينا أي رابط شرعي، من غبائي وحبي فسرته حب، أو على الأقل بداية إهتمام.. كل دا بدأ يتدمر لما جيت هنا، عشت معاه وعاشرته.. واحد اتهمني إني بأعمل كهن ستات، وإني محتاجه مُسكِر عشان يقرب مني.. كذبني لما اتهمت حبيبة قلبه إنها السبب فـ محاولات إجهاضي.. وغيرهم كتير، بقى هو دا اللي عايزاني أتمسك بالحبال الدايبه عشانه؟!

تنهدت حياه بقوة تحدق في زوجها المسمر على عتبة الباب وما زال مفتاحه معلق في فتحته، تنحنح بحرج ملقيًا السلام ثم عجل خطواته إلى غرفته، يترك حرية الحديث بين الصديقتين، سحبت حياه سلمى من يدها معيدة إياها إلى الجلوس بعدما وقفت في عدم وعي وغرقان بالذكريات المريرة.

شدتها إلى أحضانها تبكي ما مرت به صديقتها: وشايله كل دا فـ قلبك؟.. يولع، عنك ما رجعتيله، بس ما أشوفكيش بالشكل دا.. مش قادرة تكملي معاه خلاص، كل واحد من طريق، حتى لو بدون أسباب.. ما عندكيش غير حياة واحدة مش هنضيعها فـ ضغط وإجبار.

أغرقت وجهها في كتف صديقتها، تجهض الضغط المعتمر داخلها لعدة أسباب تتراكم فوق بعضها، علها تجد السلوان في دعم شخص قريب لقلبها. انسحبت من أحضانها، تمسح بقايا الدموع بظهر كفها: أكيد خضيت حمزه بصوتي، اعتذريله بالنيابة عني.

ابتسمت مربتة على رأسها المغطى: ما تشغليش بالك، ما يقدرش يقول كلمة.. هو اللي جه بدري.

ضحكت من كلمات حياه: دا بيته يا بنتي.

قلبت شفتيها: ما هو كل يوم بيجي متأخر، جاي يبدرّ إنهارده يعني، دا بيتلكك بقى!

ضاقت عيون سلمى متساءلة: لسه أموركم مش مظبوطة؟

هزت رأسها تدفع وساوس صديقتها بعيدًا: لا، الحمدلله كويسين.. بأهزر معاكِ مش أكتر.

نهضت ترافقها إلى الحمام: اغسلي وشك وفوقي كدا.. عقبال ما أجهز الغدا، وحمزه هيطلع يسلم عليكِ زي الناس.

ابتسمت رغمًا عنها للأريحية التي تتحدث بها عن زوجها، تعرف أنه من كثرة حبها وعشمها به. أيأتي يوم تتحدث فيه عن ياسين بتلك الأريحية في حضوره وغيابه؟.. هزت رأسها تدفع الأفكار الخيالية بعيدًا؛ ستخرجه من حياتها وأنتهى.

***

زمجر معترضًا على غياب ياسين الدائم عن المنزل، كلما جاء لزيارته تخبره عنبر أنه غير موجود، وفي الشركة يرفض مقابلته، لقد انتظر حتى يهدأ ويستجمع شتات تفكيره قبل الذهاب وتوضيح الأمر.. مظهرًا حقيقته التي لا يعلم بها غيره.

حك أضراسه سويًا شاكرًا عنبر، بالكاد استدار مغادرًا بعدما أوصاها أن ترسل له خبرًا وقت عودة ياسين، سمع صوتًا يحاول تجنبه وتلافيه، طالبته في هدوء بالإنتظار، عيونها تتوسل قبل شفتيها، وقف مكانه بعدما أوشك على متابعة توجهه إلى الباب.

نظرت إلى عنبر وبنبرة آمرة لا تقبل النقاش سلمتها ورقة: هاتيلي الحاجه دي دلوقتي.. فاهماني؟؟ دلوقتي يا عنبر.

أخذت عنبر متنهدة بحنق أجادت إخفاءه، ذهبت تنفذ ما طلب منها، سأل بقلة صبر وتململ: خير؟

تقدمت إليه خطوة وعيونها تمتلئ بالرجاء: أنت لسه زعلان مني؟

استقام: هو دا اللي موقفاني عشانه؟!

-آسفة، بس أنت مش عارف حرقة قلبي كانت إزاي لما شوفت صورها عندك.. أوضة بحالها محولها محراب لجمالها.. ماجد، ماجد أنت بتعمل فيا كدا ليه؟!

شهق صائحًا: أنا اللي بأعمل يا كادي؟! أنا بردو؟!.. أنتِ اتهمتِ واحدة فـ شرفها، خربتِ علاقة بين زوجين، وحياة طفلة مالهاش ذنب.. قذفتِ محصنة!، متخيلة فظاعة عملتك دي ولا لا؟؟

نشبت أظافرها في ذراعه: عشان بحبك، عشان أبعدها عنك.. ما كانتش هتبعد غير بكدا، وكمان دلوقتي مش هتفكر تبص فـ وشك؛ لإنها أكيد هتحملك الذنب.. الطريق بقى فاضي.

صرخ: فاضي؟!.. دا بقى مسدود للأبد يا كادي.

بكت تناجيه: ليه؟!.. ليه؟؟.. أنت بتحبني صح؟.. رد عليا.

أبعد يديها عنه فيما يجيبها متحسرًا: كنت بأحب كادي فعلًا، بس كادي تانيه، واحدة رغم إهتمامها بشكلها ومظهرها أكتر من عقلها وأي حاجه تانية، لكن كان عندي يقين إن جواها جوهرة غالية.. محتاجه شوية إهتمام ورعاية عشان تنور وتلمع، لكن يظهر كنت غلطان؛ لإنها فـ لحظة باعتني، وطلع جواها قدرة على الأذى لدرجة مش متخيلها لحد دلوقتي.

حاولت التمسك بطرف قميصه بلا جدوى؛ لا يعطيها فرصة لذلك: عشان بحبك، ما قدرتش اسيبه يأذيك..

قطب: ما تحاوليش تعيشي دور الضحية يا كادي؛ مش لايق عليكِ،أنا لا كنت عاجز ولا ضعيف.. الشغل أنا كنت عايزه عشانك، عشان أحققلك كل اللي نفسك فيه وأقدر على طلباتك، لكن أنتِ عارفه إن فلوسي من أرض أبويا اللي بتجيلي لحد عندي بتكفيني وتفيض كمان.. اللي عملتيه دا لإنك حسيتِ إني خلاص هأقع، وقتها هيبقى شكلك إيه مع واحد مش من مستواكِ وهو حتى مش مكفي طلباتك.

صاحت به كالمجنونة ودموعها تنهمر في اهتياج: والله أبدًا.. عشانك، كله عشانك.

أنهى الحديث واضعًا نقطته بنهاية السطر: خليكِ مع جوزك يا مدام كادي، وربنا يباركلكوا فـ بعض.

أفلت من محاولاتها المستميتة الإمساك به واستبقاءه لوقت أطول، تناشده حبًا مرّ عليه أعوام، يفصل بينهما كل شيء، الدين والقانون والأخلاق، حتى المجتمع حال بينهما. هرولت إلى غرفتها تداري عجزها، تلجأ إلى أربعة جدران مغلقة عليها، تترك ضعفها على سجيته، صاحت وصرخت كما لو أن أعز أحبائها قُتِلَ وأتاها الخبر توًا.

يدها تعيث فسادًا بالحجرة، كل ما كان فوق أصبح أسفل، وما كان مستقيمًا جعلته أعوجًا، الحال إنقلب ونفسها لم تهدأ، صخب روحها في إزدياد، ونفسها تعتمل

بالكثير، سنوات قضتها في الكتمان والكبت، خرجوا من أثرهم الآن.. معلنين عن فشل القدرة على مزيد من الإحتمال، ضربت رأسها ويديها في الحائط تتمنى الموت.

***

دس قطعة من الدجاج المشوي على الفحم بين أسنانه متلذذًا بما يأكل، يدرك عيونها بنظراتهما المستعرة المتركزة عليه وحده في غل، تحججه بالجوع وإصراره على مقابلتها في المطعم حيث يتناولان الغداء سوية ويسلمها مطلبها، كذلك تركيزه على معرفة سبب هذا الطلب واللجوء إليه فجأة بعدما رفضت مساعدته بضراوة قبلًا.

أشار لها بسكينه ناحية طبقها يحثها على مجاراته: يلا كلي، المطعم دا أكله خرافة.

عقدت ذراعيها: مش لايق عليك على فكرة، تمثيل إنك من هواة الاستمتاع بالأكل.

ترك شوكته وسكينه مكتفيًا بلك ما في فمه، صرح بهدوء: أول مرة أعرف إن الواحد عشان يستمتع بالأكل لازم تكون عنده مواصفات معينة.

رفعت بؤبؤيها للسقف متهربة: ممكن تقولي وصلت لإيه؟

أشار إلى طبقها بنظراته مجددًا: كلي الأول.

نفخت: مش عايزه!، وصلت لإيه؟!

حدق بها لحظات قبل أن يمد يده بالملف الذي جلبته إليه صباحًا بالإضافات الجديدة، عينيه امتلأت بالجمود قائلًا بتحذير ضمني: عايزه التعامل بينا يبقى كدا؟.. زي ما تحبي.

استلمت منه الملف تتفحصه بينما عاد يتناول طعامه في صمت، نظراته لا ترتفع ناحيتها، فقط مركزة على الطبق، أجاب استفساراتها على نفس الحال، جمود وجدية، دون النظر إلى وجهها.

همهمت: يعني الشركة دي ملغية من سنتين، رغم كدا لسه عامله إتفاقية.. على أساس إنها مسجلة رسميًا.

لم يعرها إهتمامًا، تنهدت باستسلام: اتغديت عند حياه.

همهم بلا إهتمام: بالهنا والشفا.

ارتفعت حدة كلامها قليلًا: قولتلك مش عايزه أكل ومع ذلك طلبتلي أكل معاك.

حرك رأسه: الحمدلله إن عندي ذوق أطلب لك أكل، بدل ما تقعدي تتفرجي عليا، ما أنا أكيد مش بأشم من على ضهر إيدي إنك أكلتِ عند صاحبتك.

قبضت على شفتها السفلى بين قواضمها ونظرت إلى أسفل كما الأطفال تعترف بذنبها: آسفة.

حرك السكين أمام وجهها: هأسامحك بس بشرطين.

نظرت إليه بأمل بينما تهز رأسها موافقة، ابتسم بمكر: هتاكلي الطبق اللي قدامك.

استرسل ضاحكًا حينما رأى الرعب على معالمها: مش كله، شوية بس.. على قد ما تقدري.

رفعت بعضه إلى فمها تتذوقه، أغمضت عينيها متلذذة بطعم اللحم في فمها، عاتبها بحنان: عشان تعرفي إني ما كنتش بأحورّ.

أحمر خديها: معاك حق، حلو جدًا.

-الشرط التاني...

-أيوه؟

همستها بخشية منتظرة رده: تقوليلي أكلتِ إيه عند صاحبتك.

اتسعت عيونها صدمة، ما فتأت تسترخي ضاحكة، شاركها الضحك، بعدما انتهت تلك الزوبعة أجابته: محشي ورق عنب، وشوربة لسان عصفور.

أغمض عينيه كأنه يستشعر الطعم في فمه: محشي.

تعجبت هيامه من مجرد ذكر الطعام: اللي يشوف حبك للأكل واستمتاعك بيه، ما يشوفش جسمك.

دنى منها كأنه يرغب في إدلاء باعتراف غاية الأهمية: أقولك سر؟

أومأت بتوجس وقد اتسعت عيونها توقعًا: أنا زي القطط، تاكل وتنكر.

ضحكت، حتى استشعرت الوجع في أعلى معدتها، لم تعرف أن له جانبًا آخر يقدر على المزاح، لم تر فيه سوى الجانب العملي، أو الغاضب الصارخ. راقبت متابعته لإتمام وجبته والإبتسامة تختفي رويدًا عن وجهها، أحبته رغم قلة الجوانب التي رأتها منه، وأسوءها، فماذا إن رأت ما يجعلها تهيم خلفه من جديد؟.. لم تعد ترغب برؤية مزاحه وخفة ظله، سيصبح الفراق عليها أصعب وأكثر ألماً، وهي لا ينقصها وجعًا في القلب.

خبطت على فكرها نصيحة حمزه لها رغم زجر زوجته من أسفل الطاولة أثناء الغداء، اعتذر عن إدلاءه بنصيحة شخصية وتدخله في حياتها، لكن سبق وقالها لحياه فرفضت بشدة وأمتنعت عن التدخل، لم يجد طريقة سوى قولها بنفسه.

«فـ رأيي، واللي ممكن ما يكونش له أهمية بالنسبالك، العيب مش فـ مشاعرك لياسين، أو العكس.. المشكلة فـ ثقتك بنفسك، وآسف يعني، فـ أنوثتك، الثقة المفقودة.. مفقودة جواكِ، حاولي تلاقيها وترجعيها زي الأول أو توجديها من العدم، وقتها بس هتقدري تصدقي حب ياسين، وتشوفيه بعينك؛ لإني متأكد مهما اعترافلك بيه وحلفلك، عمرك ما هتصدقيه».

أحقًا تنقصها الثقة التي تحدث عنها حمزه؟، طالما كانت واثقة من قدراتها، مهاراتها، ذكاءها العالي نسبيًا.. لكن الأنوثة؟.. أنها امرأة؟.. لم تفعل، كانت تشعر بغمامة حزن تحط فوق رأسها حين تتذكر شكلها، جسد ممتلئ، تمقط رؤيته عبر المرآة ولو صدفة، ولتكمل اعترافها الذي استحثت عقلها عليه منذ خرجت من منزل صديقتها.. أكدت على إنعدام الثقة نهائيًا وقت رفض ياسين لها بعد الزواج، عقلها ترجم ذلك لا إراديًا أنه بسبب شكل جسمها وتكوينه الزائد في مناطق عدة.

وما دفن إحساسها بالأنوثة، أنثى قادرة على جذب الرجل، ليس أي رجل بل زوجها، هو لفظ ياسين إياها بعدما قضحى معها ليلة واحدة، فقط واحدة جعلته يشمئز القرب منها، رؤية جسدها على حقيقته دون جماليات الملابس، وتناسب الألوان مع بشرتها وضعه أمام الحقيقة كاملة فتهرّب.

سحبها اضطراب ملامح ياسين أثناء حديثه على الهاتف المحمول، لا تدرك متى رنّ ومتى أجاب، ركزت إهتمامها على توتره، سؤاله عن كل فرد من أسرته، شقيقتيه، أتبعهما بالسؤال عن الادم وأفراد الأمن، تسرب إليها قلقه فعاجلته بالسؤال فور إغلاقه الخط: خير؟

طلب من النادل موافاته بالحساب متعجلًا المغادرة، أجابها في سرعة وإيجاز: حريقه فـ البيت وكادي اتنقلت المستشفى.

غادرا مهرولين، والمفاجأة لجمت لسان سلمى، قبل أن تصعد إلى السيارة أوقفها: آسف، بس هأركبك تاكس؛ لإني مش هأقدر أوصلك وأرجع تاني.

صعدت متأففة: ومين قالك إني هأروح غير المستشفى؟

جلس خلف مقوده، لا يملك وقتًا للجدال، كما أنه قد يحتاج أحدهما لتهدئة الوضع، فليس له خبرة محسوبة في هذا المجال.. عدا زيادته سوء.

***

تركت الفتاتين تأخذان قيلولة منتصف النهار كعادة يومية لهم، يتجدد بعدها نشاطهما، اتجهت إلى المطبخ مصطحبة أكواب العصير الفارغة، ابتسمت؛ ذكر رفضها لتواجد ميّ في المحيط، نبذتها قبل أن تعرفها، لم ترد لابنتها أن تقترب من أخت من أم أخرى؛ خشية داخلية ورهبة من تعلق قلب الابنة -كأبيها- بأم غيرها، بالأخص لمعرفتها السابقة بحنية حنان الشديدة.

جلسة أو أقل، هو كل ما استغرقها لتعشق ميّ، غزالة أبيها الصغيرة، اتسعت بسمتها، وهدى «هدهده الأصغر». تعلقت بها كابنة لم تنجبها، وحثت علاقة الأختين على التقدم أكثر وبأسرع ما يمكن؛ كي لا تضيع أيامهما دون أن تكون إحدهما عونًا للأخرى وسندًا لها، وأي صديقة أفضل من الأخت؟

كما -لعجبها- إنفلات أعصاب خليل وضيقه الدائم قلّ منذ عادت ميّ إلى أحضانه، وجودها في محيطه حفز الصفات السلبية كي تندثر بعيدًا، رافضًا لها رؤية ما هو سيء به بعد فراق سنوات طوال.

طويلًا ما جلست في أوقات إنفرادها، تفكر في حقيقة خليل وأفعاله، حتى توصلت إلى فهمه حقيقة، كل السنوات الماضية رفض الاعتراف أو إظهار ثقل ضميره بالذنب، مساهمًا في إختفاء وضياع ميّ، مشاركًا بالمناصفة مع حنان في الخطأ، عوقبا على التقصير، كلاهما بطريقة مختلفة، اتجه بهما الوضع إلى الإنفصال، حنان

بها ما يكفيها من الوجع لتفهم وتتقبل وجع زوجها، والبحث خلف واجهته الصلبة عن بقايا الزجاج المهشم. وهو.. انكسار الأم أمامه وتعبها النفسي الشديد، هدد واجهته نفسها؛ فأثر الابتعاد، محافظة على ما تبقى لديه من قوة.

سوء خلقه، سريع الظهور، كان بسبب الذنب، آه من حمل الخطأ، ووجع الفراق، خصوصًا إن كثر المتضررين ودخل الأطفال على الخط، لأول مرة تتقبل ما كانه بهذا التفهم والوعي،

غيرتها عليه من حنان، كامرأة قد تناله من جديد بإشارة من إصبعها، هو ال ائل الضخم الذي وقف بينها وبين استيعابه.

الاستيعاب الذي حسن علاقتهما كثيرًا، حتى طالبها –بعد سنوات- بإنجاب أخ ذكر للبنات، ضمت شفتيها تكبح الضحكة من الإنفلات بصوت عال، أحقًا بدأت تطغى صفاته الحلوة التي تعشقها على سيئاته أم أن الحب هو ما يجمل كل ما به في العين؟

-مساء الخير.

ضحكت ناظرة إلى شخصه المحتل لفتحة المطبخ المؤدية للرواق: مساء النـور.

-أومال البنات فين؟

-نايمين، خير، بتتك على الكلام كدا ليه.

-أبدًا، لاقيتك بتضحكِ مع نفسك، فـ قولت أكيد عامله دماغ.. مشاركة وجدانية مني.

هزت يدها المغمورة في الماء والصابون أمام وجهه في غيظ: أمشي يا خليل من قدامي.

ضحك غامزًا لها فيما يتراجع متجهًا إلى الصالة: أنتِ الخسرانه، مش هتعرفي جبت إيه.

جففت يديها سريعًا في منشفة المطبخ ثم ركضت خلفه بحماسة طفلة، رأت صندوق للأدوات الكهربائية مركون أرضًا جنب أحد المقاعد، جثت جواره وقلبته تتفحص ما كتب عليه، رفعت نظرها إليه: دي عجانه بالكهربا.

جلس مقابلها مستمتعًا ببحثها الطفولي عن حقيقة المفاجأة، أومأ مؤكدًا: إنهارده واحد من مندوبين المبيعات جه، الستات شكروا فيها، قولت أجيبهالك.

وقفت على مهل ثم اتجهت تجلس جواره على الأريكة، قائلة بهدوء شديد التروي: بس أنا ما طلبتهاش.

ابتسم ملتقطًا أحد كفيها: لكن عينك كانت هتطلع عليها فـ برنامج الطبخ، والبنات بيحبوا يكلوا معجنات كتير.. مش حرام على الإيد الصغننه دي تتبهدل فـ العجن؟

صمت طويل حلق فوق رؤوسهم، شهقت تدفن رأسها في صدره، أحاطها بذراعيه وأغلق عينيه، يعتذر لها سرًا عن كل لحظة عاملها فيها بما لا يليق بها كزوجة أولًا وأمًا لابنته ثانيًا. اعتصر عيونه على خيانة قلبه وتعلقه بحنان وإن كان أقل مما مضى، يسعى جاهدًا إلى إخراجها تمامًا حيث تتواجد في أحد زوايا فؤاده، سيضع منال في كل الأركان والثقوب الممتلئة قبل الفارغة في قلبه، لن يكون هناك غيرها.. عهد قطعه على نفسه.

***

تهادت خطواتها المسرعة حينما لمحت الواقف يستند على أحد الحوائط، ينظر أرضًا ويديه مضمومة خلف ظهره، تسمر ياسين بعدما أدركه متأخرًا عنها، تفصلها عن زوجها سبع خطوات، رمقها بطرف عينه ثم أكمل خطاه ناحية الواقف.

سأله بصوت كالثلج: كادي فين؟

انتبه ماجد لمخاطبة أحدهم إياه، انتصب في وقفته مجيبًا: الدكتور معاها جوا.

من غرفة مغايرة خرجت عنبر تمسح دموعها في أكمام قميصها القطني، تقدمت منها سلمى تضع كفًا على كتفها، استفسرت بنبرة قلقة: أنتِ كويسه يا دادة؟

أجهشت في البكاء مستسلمة لأحضان سلمى: ما كنتش فـ البيت وقت اللي حصل، إسماعيل اللي كان موجود.. أدعيله يا بنتي.

شهقت: ماله عمو إسماعيل؟

ربتت على ظهرها: الحمدلله، قدر ولطف، حروق طفيفة.. بس الواحد مش زي الأول، صحته مش مستحمله.

تدخل ياسين: ما تقلقيش، هيقوم بالسلامة، أنا هاتأكد إنهم بياخدوا بالهم منه كويس.

زاد نحيبها، تجلد نفسها بسياط التأنيب: قالي خلي بالك من اللي على النار عقبال ما أخد الدوا وأجي.. بس انشغلت وروحت أجيب لمدام كادي الحاجه اللي طلبتها ونسيت.. أنا السبب.

قطب ياسين؛ فجهله بما جرى يمنع لسانه عن الرد بالعتاب أو المواساة. دنى ماجد منهم مخففًا عن المرأة الكبيرة : لسه ما عرفوش سبب الحريق، ما تسبقيش الأحداث وتتهمي نفسك بحاجه.

اتجه بكلامه إلى الرجل الأخر موضحًا: لما دادة عنبر صرخت والأمن بدأوا يحسوا بالوضع، روحت جري، بلغت الإسعاف والبوليس..

أضافت عنبر تتشكره: هو وفتحي الله يجازيهم خير، لحقوا إسماعيل وخرجوه، بعدها أستاذ ماجد راح يشوف مدام كادي وخرجها من الحريق.. يا حبة عيني، كانت شبه قاطعة النفس.

سجل ياسين في ذهنه شكر فرد الأمن –فتحي- على ما فعله، كما سيستفسر منه والبقية عما حدث حقيقة، وكيف غفلوا عن حريق شمل المنزل كاملًا كما يتضح من الحديث، انتبهوا للطبيب الخارج من الغرفة التي احتلتها كادي للفحص والإسعاف.

-مع الآسف، نقص الأكسجين بالإضافة لوجود حالة إنهيار عصبي.. دا حفز دخولها فـ غيبوبة، هننقلها دلوقتي على رعاية خاصة، مافيش حاجه أقدر أضيفها أكتر من كدا لحد ما تفوق من الغيبوبة.. ادعولها.

انسحب من بينهم تاركًا رأسهم ممتلئة بالتكهنات، أسرعت إليهم آية حالما لمحت كلًا من سلمى وياسين يقفان أمام الباب حيث تركهما الطبيب، استسفرت: أخبار عم إسماعيل إيه؟.. وكادي؟

أومأ ياسين يطمأنها: عم إسماعيل حروقه طفيفة، ولسه هأتكلم مع الدكتور بتاعه أعرف تفاصيل الحالة.. أما كادي دخلت فـ غيبوبة، كنت فين؟

امتقع وجهها لخبر كادي، ردت بتشتت: فـ الاستقبال، بأملى الورق.. وكانوا عايزين مبلغ تحت الحساب، والبوليس أخد أقوالي.

خلال هذا الحديث كانت سلمى تنظر إلى ماجد بأعين عاتبة منكسرة، تلومه على ثقة وضعتها فيه؛ فغدر بها وأساء إلى عرضها. استشعر مراقبة أحدهم له؛ فرفع رأسه وأخرج عقله من دوامة حزنه على الراقدة في عالم آخر، هم بالاقتراب منها لكنها تراجعت ممسكة ذراع عنبر: تعالي نقعد وممكن نشرب حاجه فـ الكافيتريا.. تريحك شوية.

بالكاد سارت عدة خطوات، حين حزم أمره لاحقًا بها، تسمرت خطواته على كف يقبض ذراعه، عيون ياسين كانت مملوءة بالتحذير أكثر من كلماته: أوعى تفكر تقرب منها!

-عايز اتكلم معاكوا أنتوا الإتنين، الموضوع فيه سوء تفاهم.

-كلامك يبقى معايا أنا، إنما سلمى ما تقربش منها، فاهم؟!!

قاطع رد ماجد الموشك على الخروج اقتراب عسكر يطلب منه الذهاب إلى غرفة الأمن حيث ينتظره الضابط لأخذ أقواله وإتمام التحقيق، رافقه ياسين رغبة في معرفة ما توصلت إليه التحقيقات ومعرفة ما حدث في غيابه. ولحقت آية بعنبر وسلمى.

***

افترشت كلتاهما الأرض، ممدتي الأرجل فوق الجرائد المفروشة، حياه منغمسة في تقطيع اللحم فيما تزنه آية وتوزعه على الأكياس؛ لتكون كل حصة كنظيرتها، تلوت حياه ترفع الخصلة المنفلتة من ربطة شعرها -رغم إحكامها- بباطن مرفقها، تضحك على آية وتصرفاتها التي تحولت، من شدة الإشمئزاز إلى الاعتياد التام.

ابتسمت آية مدركة سر الضحكة: أحسن حاجه إني اتغلبت على قرفي من مسك اللحمة نايه.

لكزتها بطرف قدمها القريب منها: إن شاء الله المرة الجايه تتطبخيها كمان.

وقفت نجلاء على عتبة المطبخ تضع الصندوق الفارغ، قبل أن تميل أرضًا فتمسك الأكياس من أبعد أطرافها عن المحتوى. أردفت حياه ساخرة من شقيقة زوجها: عقبال ما ناس كدا تبطل تقرف.

-مش هأبطل يا حياه، وأنجزوا بقى الواحد ضهره أطقتم.

-تعالي ياختي قطعي أنتِ وأجي أنا أوزع، ولا أنتِ لسان وبس؟!

ارتفع صراخ أحمد موقفًا تبادل الكلمات بين عمته وأمه، اعتدلت نجلاء في وقفتها ثم أسرعت هاربة: ماما بتصلي، هأروح أشوفه.

اشرأبت حياه بجسدها ويديها الملطختين ببقايا دماء اللحم، وصاحت خلف نسيبتها: أهربي ياختي اهربي.

عادت لجلستها الأولى مهمهة: مسيرك تيجي تحت إيدي بدمها يا نجلاء خانم.

قهقهت آية فيما تكمل رص الأكياس داخل الصندوق الكرتوني، اعتذرت منها حياه بخجل: يا عيني، طلع نأبك على شونه، جيتِ على أساس سبوع ودق وفشار.. وآخرتها اتدبستي فـ تكييس اللحمة؛ اللي عمرك ما لمستيها بإيدك.

ابتسمت: بالعكس، مبسوطة بقعدتِ معاكوا أوي، تغيير للجو اللي فـ البيت.

-صحيح، أنتوا قاعدين فين دلوقتي، سلمى قالتلي إنه بقى متفحم.

تنهدت: الحمدلله شقة ناهد رغم إنها صغيرة بس مقضيانا، تعب كادي وأزمة الشركة اللي لسه ما خلصتش.. مخلينا لا عارفين نجيب بيت أكبر، ولا نصلح البيت بعد الحريقه.

مصمصت حياه شفتيها: طب ماعرفتوش السبب؟.. أصل متفحم دي عمرها ما تكون حريقه عادية.

لوت شفتيها: فعلًا، الظابط قالنا إن الحريقه نتيجة ماس كهربي، بس كمان لقوا آثار كيروسين، اللي خلى الحريق ينتشر بسرعة ويعمل تأثير كبير فـ فترة قصيرة.

شهقت حياه وقد تركت ما بيدها بعدما أنهت كمية اللحم كاملة، وقفت بمساعدة آية فقد أدى طول الجلسة إلى تنميل وكسل في عضلاتها، انشغلتا في تنظيف ما نتج عنهما والحديث يستمر بينهما.

-بس أنا فاكره إن فيه مكتب آمن جنب الباب، إزاي ما حسوش إن في حاجه مش طبيعية بتحصل.. وإن حد دخل الفيلا، لإن كلامك بيقول إنها بفعل فاعل.

وقفت آية تغسل يديها في حوض المطبخ بسائل غسل الصحون: كانوا متخدرين، لولا فتحي راح مع عنبر السوق يجيب معاها حاجات للبيت وطلبات لكادي.. لولا قدروا يلحقوا عم إسماعيل وكادي، المشكلة دلوقتي.. مين عمل كدا وليه؟؟

-لسه ما وصلتوش لحاجه؟

رفعت كتفيها بلا حول: التحقيقات شغاله.

ارتفع رنين الباب فيما حياه منشغلة بغسل يديها بعد إنتهاء آية من ذلك، ترجتها: معلش يا آية افتحي أنتِ الباب عقبال ما أكمل لمّ الحاجه اللي هنا وأروق الدنيا.

قبلت وتركت المنشفة بعدما جففت كفيها فيها. بالكاد تراجعت خطوة إلى الخلف فور فتح الباب حتى باغتها إعصار من الحديث: آه يا أنا يا رجلي ياما، أدي آخرت إن الواحد يعرف جوزك حمزه دا.. رجلي اتكسرت من اللفلفة على الناس، وتوزيع اللحمة.

حدق في الظل الواقف متسمرًا جوار الباب كما هو، فيما جسده المرتمي على أريكة المعيشة، بأريحية وإجهاد، انتفض كالملسوع يعدل جلسته: أنتِ جيتِ إمتى؟!

عقدت ذراعيها أمام صدرها وقد تكدرت ملامحها خلف نظاراتها الزجاجية: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أغلق عينيه ثم فتحهما متنحنحًا: السلام عليـ...

حدق حوله لكنه لم يجد لها أثرًا، اختفت بعد تأدية مهمتها في فتح الباب. زفر بحدة لاعنًا تهوره ولسانه المفلوت على الدوام: يـيييه، الواحد مش ممكن يقابلها مرة وتبقى مقابلة طبيعية زي كل البشر.. التاتش بتاعي لازم يظهر!!

***

الخضرة تحيط بالجالسين من كل مكان، والشجرة وارفة الأوراق تحميهم من شمس الظهيرة الحارقة، يستندان إليها فيما يتجرعان الشاي المدموج بما يغيب العقل، قلّب محتواه بأصبعه يتأكد من إذابة البقية منه، الابتسامة والبِشر يغمران وجهه، من يراه لا يتخيل أن شقيقه محتجز وابنه جورًا.

محدقًا في كوبه يتابع ذوبان ما وضع: تصدق يا خلف، أنت ما تستاهلش لبن العصفور زي ما وعدتك وبس.. أنت تستاهل العصفور ذات نفسه.

امتلأت عيونه بالجشع: أنت تؤمر بس يا سعدان بيه وإحنا ننفذ.

-أي نعم خلتني أستنى كتير، بس النتيجة تشفي الغليل بصحيح.

همس لنفسه: مش كان أتقى شرّي أحسن له!؟

عاد إلى خلف مركزًا على وجهه: وأخبار حريقة مصر إيه؟

هز كتفه الأيسر والأقرب للجالس بجانبه فيما يتجرع نصف كوبه الثاني دفعة واحدة: مَرته الأولى فـ المستشفى لحد دلوقتي، مش بتصحى من نومتها.. وأهم قاعدين فـ شقة قد الجحر، لإن فلوسهم داخله فـ شغل، واللي باقي معاهم شايلينه إحتياط لأي أزمة.

تشبعت عيون سعدان بالرضا: يستاهل!، طالع لعمه عبدالرحيم، فاكر إنه لما ينبش ورايا مش هأعرف وأربيه..

علق خلف: بس بصراحة.. شغل المصاروه عال العال، قولتلهم بس على اللي عمله وإنه مضايقنا وبيهدد شغلنا.. راحوا قاموا بالواجب على أصوله، وماحدش يقدر يمسك علينا أو عليهم حاجه.

-أومال يا متخلف!، لازم كدا عشان يستمروا فـ شغلهم، العملية الجايه كبيرة وأقل غلطة بـفوره، ودول ناس بيحاسبوا على كل حاجه.

-صحيح يا ريس، هنعمل إيه فـ العملية الجايه؟.. الواد شادي كان بيساعدنا كتير، وبيوفر علينا أكتر، هو كان طماع بصحيح بس بردو.. دوره مهم.

شطح سعدان بكفه الضخم ببشرته الداكنة والمليئة بالاشونة: غار، الله لا يرجعه المعفن دا، في ألف من يقدر يعمل شغله وأحسن.

دنى منه الأخر محاولًا إلتقاط نظراته المتهربة، همس بخبث: شكلك حطيت إيدك على واحد غيره يا ريس..

ارتفعت ضحكة الرجل الأكبر: مالكش فيه يا خلف، أنت تعمل اللي مطلب منك من تِمْ ساكت.. المهم طمني، كدا مافيش فرصة عبدالرحيم وابنه يخرجوا م اللي هما فيه.. مش كدا؟

-ما أظنش، حتى لو خرجوا، اسمهم بقى فـ الأرض، والشركة واقفة وتحت إيد الحكومة، عقبال ما يرجعوا ثقة الناس فيهم من تاني فيه عمر فوق العمر.

لّك أحد أعواد القش متأملًا منطق الآخر: تصدق معاك حق.

-واللي كان ممكن يساعدهم هو نفسه فـ مصيبة، يا عالم هيخرج منها ولا لا.

قهقه سعدان بشماتة: مش دا اللي فضله على ابني، ابقى خليه ينفعه.. وقال فاكر إنه لما يجوزها له هتنفد مني.. الحماية ما كانتش إنه يهربها بالجواز من قدام عيني، الحماية إنه كان يتقي شرّي من الأول.

تراجع مهران مصدومًا، يحاول تكذيب أذنيه اللتين سمعتا هذا الحديث، أوصل بوالده الحقد حتى أذية الإناث؟.. والتهديد بحياتهن؟.. ومن؟، سلمى ابنة عمه، ومن هواها قلب ابنه؟.. إنها المرة الأولى التي يشعر فيها بفقدان الأمل التام في اعتدال والدها، لن يتغير أبدًا، لقد وضعت نقطة النهاية في حياة والده الأخلاقية.

رجع من حيث أتى وحقيبة طعام الغداء الخاصة بوالده، التي جاء إليه خصيصًا بها. الآن هو لا يستحق -بنظره- إلا جلسته مع من فضلّه رفيقًا وحافظًا للسر، يشاركه في الشرّ وكيد المكائد، هادرًا الدماء لهواء لا يرى.

***

مستكينًا فوق المقعد الوثير، نظراته الحادة المركزة لا تحيد عن نقطة ما أمامه. فور إنغلاق الباب بهدوء استعجبه رامز، اقترب من رئيسه يجلس فوق المقعد المقابل له، يتابع اختلاجات ملامحه.

همس بتوتر: مش قلقان يعمل حاجه؟. أنت عارف شوقي لما بيزرجن.

لا يهمه أي إعصار قد يسببه شوقي، لن يقبل أن توضع أيديهما سويًا وإن بالشر، التعامل بينهما ممنوع، مستحيل، غير مقبول بالمرة ولو على رقبته أو في الأمر حياته. ببال يبدو رائقًا لا يعكر صفوه قلق: سيبك منه، دا أقل من إنه يخليني أقلق منه.. المهم، ظبطت كل حاجه؟.. عايز أشوف أحمد الصغير قبل ما أرجع السويس.

-ما تقلقش، بكره عندهم معاد عند الدكتور، فحص عام، تقدر تشوفه وقتها بسهولة.

-سمية رجعت البيت تاني؟

أومأ مؤكدًا: ما استحملتش فـ بيت نجلاء غير يومين، بعدها راحت أسبوع مع حياه عشان تساعدها مع أحمد الصغير، ورجعت إنهارده الصبح بيتها من تاني.

اكتفى أحمد بهز رأسه، طلب رامز القهوة من أجلهما، في إنتظار قدوم عاصم؛ لبدأ التجهيز

الحقيقي للمهمة القادمة، استأذن رامز دقائق من رئيسه، يطمأن خلالها على الامور في الصالة وزبائن الملهى الليلي.

شرد بذهنه، سبقته يده إلى الهاتف الأرضي الخاص بالمكتب، رفعه ودقّ الأرقام المحفوظة في قلبه قبل عقله، انتظر الإجابة كمراهق يعاكس ابنة الجيران ويخشى إجابة والدها عوضًا عنها، رنة.. ثانية.. ثالثة.. رابعة.. ثم ردت: آلو.

صمت، سكون، راحة ملأت صدره، استرخى بعد تشنج، أغلق عينيه مستمعًا لإعادة ترديدها الكلمة ذات الأحرف الثلاث، كلمة خاوية، تكاد تكون بلا معنى، لكن معها، بصوتها.. حملت كل معاني الدنيا. تلمس فيها الحنين، كسر البعد، ووجع القلوب المشتاقة.

***

قضمت من شطيرة الجبن الرومي خاصتها ثم أتبعتها برشفة من عصير الجرجير، إعداد أمها خصيصًا لها وحدها، لا تتقبل طعمه لكن لا مفر، كثرة الضغط النفسي والسعي في عدة جهات، قلة إرضاع طفلتها طبيعيًا ساهم في قلة إدرار الحليب من صدرها، وكان هذا حلّ أمها العزيزة.

شاركها الشطائر نفسها، ذات العدد الضخم نسبيًا للمعتاد من أجل كليهما، بفارق كوب عصير فاكهة عوضًا عن خضار عصيرها، تجاهلت نظراته المحدقة في

تفاصيل وجهها، فعلة لأول مرة تلحظه يفعلها معها، تناست قلة ثقتها بنفسها، واضطراب نفسها داخليًا من هذه المراقبة الخارجية، تشغل نفسها بتتبع النجمات الصغار في السماء منتهزات غياب القمر.

يفكر في الاعتذار، تقديم القربان للمغفرة، لكن أتقبل؟.. أيجدي أيًا مما ينوي في نيل عفوها؟لقد أصاب موضعًا فائق ال ساسية، اكتشف فداحة فعلتها بعدما علم الحقيقة من لسان ماجد، جلسة قضوها بعد إتمام ماجد أقواله أمام الشرطة ثم استفساراته شخصيًا عما حدث وما توصلوا إليه.

-اللي فـ الصور مش سلمى.

هكذا بدأ حديثه فور جلوسهم، دون مقدمات، وبلا تردد، مباشرة دلف إلى صلب الموضوع، بقوة وثقة، جعلت من الصعب على ياسين أن يشك في صدقه ولو لبرهة من الزمن، ركزّ عليه نظراته منتظرًا منه التكملة.

-الصور والتسجيل، مش فوتوشوب، حقيقية.

انفعل ياسين فصاح به غاضبًا يستهجن ما يقوله: يعني منين الصور حقيقية ومنين مش سلمى؟

ارتشف من كوب الماء الورقي أمامه: لإن اللي فـ الصور دي اسمها «لينا».. أختي.

قطب بحدة: أنت عندك أخت؟

أنكس ماجد رأسه مغمورًا في حزنه رغم الابتسامة الباهتة على شفتيه: كان عندي أخت.. ماتت من 8 سنين.

همهم رغمًا عنه: الله يرحمها، بس دي زي ما تكون سلمى نفسها.

اشتدت بسمته: كنت مصدوم زيك كدا فـ الأول، لدرجة إني افتكرتها ما ماتتش، وإنها عملت نفسها ميتة عشان تنتقم مني.. بس لما عرفت سلمى أكتر واتعاملت معاها شوية اتأكدت إن عمرهم ما هيكونوا واحد.

استرسل عائدًا إلى سنوات ماضية: لينا كانت منطلقة بدون حساب، تعمل اللي عايزاه فـ أي وقت، ماكانش بيهمها حاجه، كانت عايشه برا مع أمنا، هي من أب تاني.. ودا كان من أكبر العوامل فـ بعدنا عن بعض،بدون تفاصيل كتير.. الأوضة اللي شوفتها كانت لأختي مش لسلمـ... مش لمدام سلمى، التسجيل كان من أختي بردو، عتاب عشان بقالي فترة ما سافرتش أزورها ولا رضيت أسمحلها تجيلي بسبب ظروف خاصة.

لكم كان غبيًا!.. ثورًا هائجًا لا يرى موطن قدميه، لقد دعس على زجاج مهشم من الأساس، دمرّ ما كان من الممكن جبره في علاقته مع سلمى، أحبها؟.. وكيف لا؟!، أمن الممكن أن يغمره كل هذا الغضب فقط لعنفوان الرجولة؟.. لكن متى غمر الحب قلبه؟.. لا يعلم، ولكنه طغى عليه منذ فترة حملها، مشاركتهما للحظات بسيطة حمل إليه سعادة لم يشعر بمثلها منذ سنوات.

-محمود رجع من برا.

أخرج نفسه من الأفكار التي تتلقفه في عدة اتجاهات وأجبر نفسه على الإنتباه إلى حديثها: هو كان مسافر؟

-زار عصام أخوه بعد ما قرر يسافر تاني، وخالد أخويا.

-يااااه، دا أنا ما شوفتش خالد من ساعة فرحنا، حتى مالحقتش أقعد معاه، جه متأخر.

-الله يعينه، عايزه يخلص دراسته عشان يرجع السنة دي، وخطيبته بتاخد بقية وقته عشان يخلصوا الفرح والتجهيزات.

-هيعيشوا هناك؟

-غالبًا، بس مش هيحدد إلا أما يرجع ويقضي فترة هنا.

-بالتوفيق، ومحمود عرف باللي جرا؟

-أيوه، الحمدلله إن الورق اللي مخصص للشحنة دي مسئولية بابا وزين بس، وإلا كان اتاخد فـ الرجلين هو كمان.. والحكاية مش ناقصة.

-إمممم، كويس إنك قولتيلي؛ عشان في كلام بينا، لعل وعسى نوصل لحاجه.

استعاد ذاكرته فجأة فاستدار ناحيتها وسألها مدققًا في ملامحها: صحيح.. ما قولتليش إيه اللي كنت عايزه من الاستعلام عن الشركات اللي جيبتهالي دي؟

تنهدت مرتاحة من إنتهاء عصير الجرجير العقابي الذي ابتلت به: دي شركات المفروض إنها تبع عمي.

ضاقت عيونه بحدة: ومال عمك بموضوع والدك وأخوكِ؟

ابتسمت بسخرية وقابلت نظراته بقوة: أنا عرفت كل حاجه يا ياسين، وتهديدات عمي لبابا.

سألها ببطء وأعين مترصدة: وإيه اللي أنتِ فاكره إنك عرفتيه بالظبط؟

رفعت رأسها ثم نهضت تستقبل الدالف إلى الحديقة حيث يجلسان، ابتسمت برقة: إزيك يا مهران؟

أطرق عيونه في حياء من فعلة والده معها وأهلها: الحمدلله يا بت عمي، أخبارك إيه؟.. والصغيرة ومرات أخويا زين وولادهم.. والحاجه فاطمة؟

-الحمدلله، كلهم كويسين

ما تبقى من الطعام على الطاولة أشعره بحرج وقت قدومه فتراجع معتذرًا بعدما أوشك على الحديث إلى سلمى، يعتذر مما فعله والده ويقدم خدماته وإن ضرت أبيه، فالحق لا تعلو عليه قرابة، خصوصًا وفيه نجاة عمه ومن يعتبره أخًا له.

-هأسيبكم أنا وأدخل أسلّم على الحاجه، استأذن.

لحقته سلمى متحججة بطفلتها وموعد إطعامها، فرّت من مواجهة فقدت القدرة فجأة على القيام بها، كز ياسين على أسنانه جالسًا كما كان في إنتظار فرصة أخرى للإنفراد.

***

وضعت السماعة اللاسلكية مكانها وقد أغتاظت لتلك المكالمات الطفولية، رنين مستمر ثم بمجرد رفعها السماعة يخرم أذنيها الصمت، فقط أنفاس تطرقهما بلا كلمات، وهوية صاحبها مجهولة.

عادت تلتقط كتابها المقلوب على وجهه تكمل ما كانت منشغلة بقراءته، ترتشف بين حين وآخر من كوب الحليب، تقضي وقتًا فرض عليها إمضاءه.

الرنين من جديد هو ما قطع انسحابها من واقعها إلى عالم الكتاب في كوكب آخر يبعد عن الأرض مسافات عدة، رفعت السماعة بغيظ فيما تزفر: آلو؟!!

قهقهة متحشرجة على الخط الآخر طرقت أذنيها: طب براحة على نفسك.

قطبت بقوة: مين حضرتك؟

-حد معرفة.. ممكن نتقابل بكره؟

-وأنت مين عشان أقابلك؟

-مش مهم دلوقتي، بكره تعرفي كل حاجه.

-ومين قالك إني هأجي؟

-الفضول، أو الإهتمام بإن -مثلًا- جوزك لسه عايش ومامتش!.. بكره هأتصل أقولك كل التفاصيل عشان نتقابل.. فـ إنتظارك.

زامور إعلان غلق الخط من الطرف الآخر هو كل ما واعت عليه بعد سماعها خبر «حياة زوجها!»، وضعت السماعة بآلية، انغرست بجسدها في الأريكة، تتلاعب بها الظنون، سقط الكتاب أرضًا دون أن تقيم لذلك وزنًا.

***

اقترب رامز من عاصم، مستغربًا وقوفه بالقرب من إحدى فتيات المكان، وجهها المغرق في القلق ولا يبالغ إن وصفه بالفزع استرخى تدريجيًا حتى أنه لمح طيف ابتسامة على جنبات فمها الملون بلون فاقع، انصرفت بنظرة من عيونه الآمرة في صمت قبل استدارته مبتسمًا بكل خفة يستطيعها إلى عاصم: خير يا عاصم بيه.. مدام يسر غيابها لحق يأثر فيك بالسرعة دي؟

حلّ الصقيع في عيون عاصم متجهًا إلى حيث الغرفة المعتادة للإجتماع بينهم في هذا الملهى: أبقى اسأل جواسيسك هما أدرى.

ارتبك رامز مدركًا فداحة ما فعل اللسان المنفلت: أ.. أأ.. أنا..

التفت إليه عاصم بلا إهتمام حقيقي: بس خليك عارف.. إن لو أنا مش عايزك تعرف حاجه، عمرك ما هتعرفها يا رامز.

ارتباك وتوتر عاصم من الداخل لم يظهر إلى العيان، يكفيه شرف ذلك، تبًا!، محاولة إبعاد يُسر والرضيع باءت بالفشل الساحق لذكائه، كيف لم ينتبه لمراقبة رامز وأحمد له؟.. إنهم من أولى حساباته المفترضة، ابتهل أن يستطيع استدراك الوضع قبل أن يصل إلى ضفة لا تسره.

***

لمحه يمدد ساقيه للأمام فيما كعبه ينعقد فوق قدمه الأخرى، ذراعيه يدعمان رأسه بعيدًا عن قسوة المقعد البلاستيكي، عيونه معلقة بالسماء، يبدو شاردًا وبعيدًا، لم يستطع منع نفسه من التقدم حتى وقف خلفه، رفع ياسين عيونه يتعرف على صاحب الظل.

همس: خلصت؟

إنفلتت لسان مهران: لو باقي مع سلمى عشان خاطر تحميها من أبويا، فـ مافيش داعي، أنا موجود.

وقف ياسين ببطء، واجه الأخر مخفيًا أحد كفيه في جيبه؛ كي لا تظهر قبضته المتكورة: شاكرين أفضالك.

هاجمه بحدة، متضايقًا من تمسكه بها: أنت إنسان جبان.

أخرج يده من جيبه مبهوتًا من هجوم الآخر الضاري عليه، حدق به فيما الآخر يتابع بهياج: جبان عشان عارف إنك مش بتحبها ولا هتحبها، ورغم كدا خليتها تحبك.. وأنت عارف إنكوا مش هتكملوا مع بعض.

دار حول نفسه واتجه إلى البوابة الرئيسية يحث خطاه على المغادرة، فيما يكبح دموعه الموشكة على الهطول، لن يصل من الضعف حد جعله يرى مدى الشوق

الذي يعتمر داخله، والحسد ناحيته لنيله حبًا لطالما تمناه، يخصص له وحده، شعر بصدق ذلك المقطع الذي قرأه قبل أيام صدفة، واصفًا حاله.

«ما أصعب أن تحب شخصًا حد الجنون وأنت على يقين أن قلبه لن يكون لك.»

راقبت مغادرة ابن عمها من خلف زجاج نافذة غرفة أولاد أخيها، تراقب خطواته الثائرة كأنه يهرب من شيء، عادت بنظرها إلى ياسين الواقف مكانه يحدق في الفراغ الذي تركه مهران برحيله.

طرق ذهنها عرضه في المساعدة، مصرًا على تقديم أي شيء لخدمتها.. أي شيء حتى أن يعاونها في إثبات دناءة والده وتحويل التهمة من والدها وأخيها إليه؟.. لكن السؤال الأكثر صحة أتتدنى لحقارة عمها في استخدم الابن للإيقاع بالأب؟

***

وقف أمام الباب، يطل من مربع الزجاج بأطوال أضلاعه المحدودة، بالكاد يستطيع عبره رؤية وجهها الساكن وعيونها المغلقة، وجعًا خفيًا يثقب قلبه من أجلها، استعاد لحظات هلعه حين رأى الحريق يزداد تأججًا واحتمالية تضررها بسببه، يومها ألقى نفسه داخل معمعة النيران دون تفكير، يبحث عنها، وجدها في غرفتها، ملقاة أرضًا في فقدان وعي، لم يفكرّ أنه قد يكون نتيجة إنهيار عصبي سبق الحريق ولا يمت له بصلة، الآن انتبه للحطام الذي شمل الغرفة بأكملها.

النقمة التي اعترتها فتسببت بذاك التلف من حولها، لا يستطيع حتى هذه اللحظة مسامحة نفسه، لقد زاد جرعة القسوة التي كان يجرّعها إياها، فتحولت من علاجية إلى سامة وقاتلة، قسوة أجبر نفسه عليها وتدرب على ممارستها معها، غذتها الفواصل بينهما وأقواهم.. زواجها.

أغمض عينيه يرغب في نسيان تلك الرابطة، لطالما قضت مضجعه ووأدت النعاس من بين جفونه، تضحية لن يسامحها عليها، وغلطة لن تغتفر، فعلة بنية صافية أو محض أنانية، لم يعد يهمّ، الأهم هو صحوها، يقظتها وعودتها إلى عالم الأحياء، رؤية تأنقها، بريقها.. ليس ذبولها وتكفن جسدها بملابس المرضى الخاصة بالمشفى.

زمجرات من الأجهزة، ارتبك في قسم العناية الفائقة، هرول الطبيب في أعقابه ثلاث ممرضات تلبية لاعتراض الأجهزة، ابتعد عن الباب لا إراديًا تلبية لسرعة خطوهم، راقبهم عبر ذات النافذة الزجاجية من الباب، شوشت حركتهم وتواجدهم حول كادي، كل فرصة لرؤيتها، اضطربت أنفاسه وزاد توتره.

خرج الطبيب بعد فترة، ابتسم في وجهه مطمئنًا القلق الواضح على معالمه: المدام بدأت تفوق من الغيبوبة.

ابتهج: بجد يا دكتور؟.. يعني هي دلوقتي كويسه؟

-مش هأقدر أقولك أي حاجه إلا أما تصحى بشكل كامل، ونشوف تفاعلها مع الواقع، ربع ساعة بدون أكسجين شيء مش سهل، وهيسيب أثر فـ الجسم والدماغ بشكل ما، أدعيلها يكون التأثير هين.

كلمات الطبيب زرعت داخله الخوف، عاد ينظر عبر الزجاج، وجدها ساكنة كما كانت، الممرضة تتحرك من حولها في هدوء تعيد ضبط الاجهزة وتتأكد من انضباط عملها، ابتهل في صمت، داعيًا لها بالسلامة والعافية.

***

فتحت باب سيارة الأجرة الخلفي وصعدت، تراخت في جلستها بعدما أطلعت السائق على وجهتها، جبينها معكر بتقطيبة صغيرة، الظنون تتلقفها منذ مكالمة الأمس، الليلة مرت دون أن تجد للنوم منفذًا.

هل من المعقول أن يكون حيًا يرزق؟.. وما الداعي لكل تلك التمثيلية الهابطة إذًا؟.. يتركها ويترك أولاده بمحض إرادته؟ بإدعاء كاذب؟

هزت رأسها وقد تزايدت حدة تقطيبتها، لقد بدأت تعتبر ما قيل لها عبر غريب لا تعرف هويته أمرًا مسلمًا به، غير قابل للخطأ أو معرض للتكذيب، أهذا يشير إلى شيء بعينه؟

انتبهت إلى توقف السيارة فأعطت السائق أجرته، ترجلت ثم اتجهت إلى السيارة ذات الصفات التي سبق ذكرها لها، ركبت في الخلف حيث فتح الباب من الداخل وقلبها يقصف بقوة، خوفًا وخشية مما هو قادم.

انطلقت السيارة بسرعة تتبعها أخرى مطابقة لها، وبدأت تلتف من عدة شوارع وحارات، ارتبكت وعقلها فقد قدرته على حفظ الإتجاهات أو التنبؤ بوجهتهم، سلمت أمرها لله ودعت أن يرزقها القوة والصبر، يحميها من كل شر.

لاحظت إختفاء السيارة التوأم للتي تركبها في إتجاه معاكس، حين بدأت السيارة تخفض سرعتها وتمشي على مهل دون سرعة فائقة تقترب من الجنونية، فرمل السائق أمام فندق معروف، لم تجد بدًا من الترجل، استقبلها أمام الباب شخص لا تعرفه، لكن يبدو من ابتسامته التي تألقت حين رأها معرفته هو بها.

مدّ يده في سلام، محافظًا على ثغره الباسم: أحمد طول عمره ذوقه حلو، دلوقتي مابقاش عندي شك فـ دا.

تجاهلت كفه الممدود مزيدة تمسكها بحقيبة يدها: ممكن ندخل فـ الموضوع.

تنحى من أمامها يشير إليها لتتقدمه، سارت وقد قادها إلى مقهى الفندق، طلب لكلاهما حينما رفضت شرب أي شيء، متشبثة بإنهاء الأمر سريعًا، انصرف النادل بعدما أخذ الطلب، لم تتحمل سمية تلاعبًا أكثر، سألته متعجلة: ممكن بقى تفهمني معنى كلامك إيه؟.. ولا اللعبة دي هتفضل مستمرة كتير.

عيونه معلقة بها: أحمد لسه عايش، ما ماتش زي ما فهمكوا.

تشنجت جلستها، محاولة الحفاظ على بقايا هدوءها: إيه اللي يثبت؟

أمسك جانب سترة بذلته الأيسر وسحب من داخلها أوراقًا بيده اليمنى، قائلًا بتمهل مدروس: حاجات كتير تثبت.

أضاف فيما يمد ما أخرجه على الطاولة أمامها: الصور دي مثلًا تثبت.

أمسكت الصور بيد ثابتة لدهشتها، قلبتهم، أحمد.. تراه ولا تستطيع تكذيب عينيها، بمفرده، يحادث أحدهم، يقف جوار رجل آخر، نفسه الذي زاره في المشفى بعد الحادثة مدعيًا صداقة ومعرفة به..

أنسي قلبها نبضة أم صو ر لها؟، من تلك الفتاة الشابة التي تتعلق بأعناق زوجها؟!.. لكن أبعد كل الزيف الذي أنامها بين جنباته تظل تعتبره زوجًا لها؟.. حقًا من تلك الأنثى؟.. أهي زوجته بعد الموت؟.. شريكته في ما بعد الوفاة الصورية؟!

كبح جماح بسمة منتصرة كادت تفلت من براثن تحكمه، دسّ صورة لأحمد مع نيفين؛ كي ينال التأثير المضاعف لجرعة تعريته أمامها، الآن ستنفجر بعد كبح، وتفيض فوق رأسه، هادمة المعبد فوق أساساته، سيكون سببًا وسيطًا في حرمان أحمد من زوجته وحبها.

تأملت التواريخ المذيلة للصور، قبل شهر، وقبل أربع، وأحدثهم قبل أسبوع!، رمت حفنة الصور فوق الطاولة وانتظرت انصراف النادل بعدما أحضر طلبهم، أو بالأصح طلب الجالس أمامها. قالت بلا إهتمام: والمطلوب؟

رفع حاجبيه مبديًا صدمته، رغمًا عنه: المطلوب؟؟

هل ما سمعه حقيقة، أم هيء له؟.. لم تسقط دمعة، أو تفلت شهقة، توحي بصدمتها في شريك عمرها، توسعت أذانه تركيزًا في توضيحها المتململ: يعني فجأة بعد الشهور دي كلها جاي.. كملاك عايز تبينلي قد إيه جوزي أكبر غشاش فـ الدنيا وكذاب.. بدون ما يكون لك غرض من ورا دا؟.. يـا رااجل قول كلام غير دا.

إلتو ثغره بشبه إبتسامة، إعجابًا بها: أكيد أنا مش ملاك، ومعاكِ حق، أنا كسبان، بس ما يهمكيش اللي هأكسبه أو يفرق معاكِ فـ حاجه.

عقدت ذراعيها بتأنٍ: أنا اللي أحدد إيه اللي يهمني واللي ما يهمنيش.. قول، وسيبلي القرار.

هز كتفيه مكتفيًا بتوضيح سطحي: شغل، صفقة أحمد خرجني براها، وبكدا هو اللي هيخرج وأعرف أدخل أنا من تاني.

تحركت في جلستها محركة رأسها أعلى وأسفل ببطء: معاك حق ما يهمنيش السبب، بس الصفقة تهمني.. أحمد متحال على المعاش من سنين، وما كانش بيشتغل.. على حد علمي – أضافتها ساخرة- ممكن تقولي إيه الشغل دا؟

قاطعته قبل أن ينطق حرفًا: وأرجوك ما تحاولش توهمني إنه حاجه قانونية، نظرة الكمال له أنتهت من زمان.

برقت عينيه إعجابًا، محظوظٌ في الحب والمال، على عكس ما يشاع من أمثال، في صفه وقف كلاهما، كم زاد حسده لأحمد أضعافًا وفي نفس الوقت تعالت ضحكة شريرة وراحة داخله؛ فالآن تسبب بفقده للحب.. وفي طريقه لخسران المال.

-أحمد شغال فـ حاجات كتير، بس اللي بيني وبينه، والشغل اللي عايزه منه له علاقة بتهريب دهب.

خلو المكان نسبيًا، وتباعد الجالسين في مختلف الأركان شارك في أريحية الحديث بينهما، وصراحة اعترافه، صرخت داخلها -دون أن يبدو على ظاهرها- إن كان المشترك بهذه الدناءة فما بال البقية؟!، رجل القانون يدعس فوق الدستور؟.. المحامي ذو السمعة الطيبة يستر عفونة خلفها؟.. من يرتدي معطف المحاماة الأسود مدافعًا عن المظلومين، يحوي أسفل ذات المعطف الظلم والجور، والتعدي على الحقوق؟!

-وإيه بقية شغله؟

لم يستطع تفويت فرصة تشويه ما تبقى من صورته أمامها: أهم حاجه دلوقتي الدهب، والدعارة.

أفلتت منها الشهقة هذه المرة، انتصبت في جلستها هامسة: دعارة؟؟

تأكد من عدم تتبع أيٍّ من الجالسين حديثهم، مسترسلًا: بيجيب بنات، ويشغلهم.. فيه فيلل خاصة فـ كذا مكان موجود فيهم البنات.

رفع كفه صوبها: أنتِ عارفه واحدة منهم، حياه.. واحد من رجالته هو اللي ضحك عليها وجابها هنا، ولأجل النصيب ابنه اتجوزها.. الدنيا دوارة.

شحب وجهها بهتة، فقد آخر قطرات دماء كانت تسير تحت جلده: حياه؟

-أيوه، بيوهموا البنات بالحب، أو يوعدوهم بالجواز، يستغلوا علاقة مش كويسه بين البنت وأهلها، أو ظروفها المادية ضعيفة.. أحيانًا الأهل نفسهم بيسلموا بناتهم بإيديهم.

كلماته صارت تطوف في عقلها تباعًا، تحاول ترتيبها واستيعاب فداحة ما يقول. رغم سنها وإحتكاكها بالعالم لم تظن يومًا أنه قد يقترب إلى هذا السوء الذي يتلى على أذانها.

حتى الأهل يبيعون لحمهم للغريب، يسلمون أعراضهم عوضًا عن الدفاع عنها والقتل حفاظًا عليها، والأفظع من كل ذلك هو أحمد.. فعله، مشاركته، عوضًا عن محاربته، كانت تحيا مع رجل يصرخ استهجانًا لتعرض فتيات في عمر ابنته وأصغر للتحرش، فيما يبيعهن حقيقة.. صدمها الواقع بغتة!، هو لم يعبر عن هذا الاستهجان أبدًا، دائمًا ما يتسلح بالصمت، وإن انفعلت وحثت مشاركته يكتفي بكلمة مؤيدة ثم يعود لصومعة السكوت.

***

توجهت إلى عمها بخطى تحاول بث الشجاعة فيها، تعلم موضع مكتبه، غرفة صغيرة على أحد جوانب أرضه، مجهزة بكل الكماليات والراحة، لم تزرها قبلًا، ولم تكن لتفعل لولا إضطرارها، أبعدت فكرة زيارته بالمنزل، لن تتحمل نظرات زوجة عمها المغلوبة على أمرها، شديدة الطيبة وصفية القلب، عكس زوجها تمامًا، لكن لحسن الحظ أورثت ذلك لولدها وبنتها.

طرقت ودلفت بعد سماع الإذن، تقدمت بثقة اكتسبتها من رؤيته مقرونة في ذهنها بأذى أقرب الناس إلى قلبها، لم تو ل أي اهتمام للجالس أمامه خلف.

وقف من خلف مكتبه مرحبًا: أهلًا أهلًا ببت الغالي، إزيك وإزي إخواتك؟

مال رأسها يسارًا: كنت سألت يا.. عمي.

-أديكِ شايفه يا بنتي الشغل، الدنيا مشاغل.

أرادت إنهاء تلك التمثيلية فأسرعت تدخل في صلب الموضوع: عايزه أتكلم مع حضرتك لوحدنا.

أمر خلف بالمغادرة، وأشار لها كي تجلس أمام مكتبه، فعلت ثم بدأت بإخراج الأوراق من حقيبتها فيما تحدثه: عايزاك تطلع بابا وزين من الحبس.

رفع حاجبيه: وأنا بإيدي إيه أعمله؟

سخرت: من ناحية بإيدك إيه فـ بإيدك كتير.

وضعت رزمة من الأوراق أمامه على المكتب وكفها مبسوط فوقها، غير عابئة بهمهمته المتعجبة، تشربت نبرتها القوة الكافية لإيصال جدية كلامها: بابا وزين يطلعوا بكره بالكتير، أو الورق دا هيوصل للبوليس، وحضرتك تروح تونسهم..

أضافت بتمهل تحاول إتقانه: دا غير إن اللي ليهم حق عندك يا عمي هما بنفسهم اللي هيستقابلوك على باب القسم.

قلب الورق بعصبية وغيظ، لا يصدق أن ما تقوله صحيحًا، لكنه تأكد! تحمل ضده أوراقًا موقعة بخطه، صكوك بيع وهمية، أموال قبضت ولم يسلم مقابلها ما أتفق عليه، شحنة

فارغة لإيصال ذهب المقابر وتهريبه من منطقة لأخرى وتسلميه لأصحاب الشأن، وغيرهم أوراق قد تتسبب في سجنه مدى الحياة، أو الإعدام والراحة المطلقة من شر السجون.

حاول اللعب بالبطاقة الأخيرة التي يملكها، فالإنكار لم يعد له مكان بين الأدلة بالإجرام: وإن كان معاكِ اللي يثبت كل اللي عملته، دخلي إيه باللي حصل مع عبدالرحيم وزين؟

رفعت حاجبيها: دخلك كبير، ومتأكدة إنك اللي ورا الحكاية كلها.. أه مش معايا اللي يثبت، بس معايا اللي يخليك تطلع اللي يهمني من جوا السجن، المظاليم.

صاح فاقدًا لأعصابه: وأنا هأعمل كدا إزاي؟!!

نهضت تجمع أغراضها وقد تركت له الأوراق بين يديه وأمام عينيه، تذكره بمصيره المحتوم إن لم ينفذ طلبها: ما يهمنيش، المهم إنهم يخرجوا.. قدامك لبكره، بعد كدا بدل ما تشوفهم وفاصل بينكم القضبان، هتشوفهم وأنت معاهم جوا.

أضافت متوقفة قرب الباب: وعلى فكرة.. الورق اللي معاك مالوش أي لازمه، دا مجرد نسخة، والأصل مع حد أمين، نبهته لو حصلي أنا أو أي حد من عيلتي حاجه يسلمه لأقرب قسم.. يعني ما قدامكش حلول تانية.

خطت إلى الخارج وأوشكت على إغلاق الباب خلفها حين صاح متشفيًا: على كدا بقى.. عرفتِ إن أبوكِ باعك لجوزك من خوفه مني؟!

ختم كلامه مقهقهًا بصاب، نظرت إليه بشفقة، رغم استهجانها للفظ «بيع»: إن كان بابا باعني فـ دا عشان يحميني.. الدور والباقي على اللي باع بنته عشان يقبض التمن!

وأغلقت الباب على غيظ، وثور ثائر حلّ رباطه فطاح.

***

انتهز فرصة انشغال حياه مع الطبيب، يجيب كل تساؤلاتها في رحابة صدر، وحمزه يقف جوارها في إنصات، استطاعت الممرضة تدبر دخوله وشغل الآخرين فترة من الزمن، يقضيها هو مع حفيده.

كرمش مبلغًا سبق الإتفاق عليه داخل يدها، بعد ذلك خرجت تقف على الباب بعدما دست المال في جيب زي عملها. اقترب أحمد بتوجس وخشية، كأن الراقد فوق السرير هو حمزه، عائدًا سنوات للماضي.

هتف بلا صوت والدموع تتجمع في مقلاتيه: يا الله!، كم أشبهه بحمزه في صغره، حفيدي، مهجة قلبي.

حمله على مهل، قبلّ جبينه، عينيه، خديه، ضمه بقوة إلى صدره، ثم عاد يطالع عينيه المفتوحة على وسعهم، لا يصرخ ولا يبكي، يهمهم فحسب.

سمع ضجة في الخارج، ومحاولات الممرضة لخلق الأحاديث مع الأبوين مما يعطلهما ويمهله فرصة، وضع الطفل مكانه بإهتمام شديد، كقطعة بلور يخشى عليها الخدش ثم انسحب مسرعًا خلف إحدى الخزائن يتخفى عن الأنظار.

جلست حياه جوار ابنها فوق الفراش تدغدغ معدته باسمة: يسلملي الهادي، ربنا يديمها عليك نعمة يا حبيبي العاقل.

ضحك حمزه يحفزها للمغادرة: يلا طيب نروح، كفايه علينا مستشفيات لحد كدا.

زفرت تزيح الثقل عن صدرها فيما تعيد ضبط ملابس طفلها قبل الرحيل: يـا رب، أنا بأقول كدا بردو.. إحنا أخدنا جرعة مستشفيات الفترة دي تكفينا عشر سنين قدام.

تقدمته إلى الخارج فيما يضع كفه فوق ظهرها ويغلق الباب بيده الأخرى:
ههههههه، المهم ابنك الشقي يفضل وحش زي أبوه؛ دا لو أكلتيه كويس يعني.

-حمزه!!، ابني زي الحصان، بياكل وزي الفل، أنت بس اللي مستقصد مامته الغلبانه..

اختفى الحديث خلف الباب المغلق، خرج من مخبئه متنهدًا، يشتاق عائلة حرم منها، حفيد من حقه أن ينام بين ذراعيه يروي له الحكايا، قصص ينشغل بحفظها منذ علم بحمل أمه فيه؛ كي يقصها على أذانه ويهبه جدًا بمثابة أخ وصديق.

غمرت الدموع عينيه عذابًا، في البداية اضطر لمفارقة زوجته وحبيبته، كذلك أبناءه، والآن.. حفيده، لكن ليس هناك من جدوى للحسرة؛ فهو اختار قبل سنين ولا يملك سوى المضي قدمًا؛ وهذا ما لن يسامح شوقي عليه، أول من سبه لطريق اللا رجعة.

ردّ على الهاتف بعدما حيّا الممرضة بحفنة إضافية من المال، سار في رواق المشفى: في إيه يا رامز؟

تردد الأخرى متنحنحًا: مدام سمية.

تسمر وسأل في حذر: مالها؟

-ركبت عربية، وضللونا، خلوا المراقبة تمشي ورا عربية غير اللي هي فيها.

-تبع مين؟

صمت مطولًا حتى صاح به مطالبًا بإجابة سريعة، أجاب متنهدًا فلا مفر: شوقي.

-اعرف هو فين واسبقني على هناك.

اكتفى رامز بكلمة طاعة لم يهتم أحمد بسماعها، حثّ خطاه إلى الخارج وداخله غضبعاصف، لقد نفذ تهديده بالتأكيد، يريد لوي ذراعه وضربه في نقطة ضعفه،

يقينه يكاد يكون تامًا أنه أطلعها على شيء يخصه، شيء لن تغفر له سمية عدم معرفتها به، ما يرغبه الآن هو معرفة إلى أي حد وصل.

***

خرج الطبيب بعد مدة من الغرفة، منهيًا فحصه وتقيمه لحالة كادي الصحية، بعدما أتم عدة تحاليل وأشعة، ورسومات للمخ، قابله ماجد وقد انضم إليه قبل ساعة ياسين، طلب منهما مرافقته إلى مكتبه فقد يطول الحديث.

-المخ ما يقدرش يستحمل أكتر من3-2 دقايق بدون أكسجين، وحالات قليلة لما يحصل مقاومة، غالبًا بيكون الشخص دا عنده رغبة فـ إنه يعيش، حافز يحافظ على حياته عشانه.. من الآخر مكتوب له عمر.

قاطعه ماجد متململًا: أيوه، حضرتك عايز توصل لإيه؟.. ممكن تدخل فـ الموضوع على طول.

وجه إليه نظراته وحديثه: مدام كادي زي ما قولتلي اتعرفت عليك، بس ناسيه فترة من حياتها، مش متذكرة آخر الأحداث بينكوا.. مش كدا؟

رمقه ياسين متوعدًا وحديث مطول عن حقيقة العلاقة التي جمعته بكادي، فلوعتها بمجرد رؤيته لا تبشر بالخير، تابع الطبيب ناظرًا للملف المحتوي على كل ما يخص حالة كادي: مدام كادي جالها فقدان ذاكرة جزئي، نسيت آخر سنتين من حياتها، مش بالكامل، ولكن زي ما تقولوا مخها قرر يلغي بعض الذكريات اللي مضايقاها ومش حابب يتذكرها.

همهم ياسين من خلفه: فقدان ذاكرة!؟

-الموضوع بسيط، الحمدلله قدّر ولطف على قد كدا، كان في مشاكل أصعب بكتير ممكن تحصل.

سأل ماجد بقلق متلهف: طب بالنسبة لكلامها، حسيتها مش قادرة تكون جملة مفهومة

-لسه ما كملتش كلامي، زي ما قولت حالة بسيطة لإن في حالات أكثر تعقيد، في الحالات اللي زي مدام كادي بيكون فيه فقدان ذاكرة زي ما قولت، وقلة تركيز، وأحيانًا صعوبة في التوازن، وفيه منطقة فـ المخ (الهيبوثالامس) من أكتر المناطق اللي بتتأثر بنقص الأكسجين، ودي بتسبب نسيان الأحداث القريبة وصعوبة في معرفة معاني بعض الكلمات أو التعبير عن معنى كلمات تانية.. وبسبب فترة الغيبوبة وقلة الحركة اللي استمرت عشرين يوم تقريبًا، حصل ضمور نسبي فـ العضلات.

-والحل؟!

سأل كلاهما في ذات الوقت، ابتسم لهما الطبيب: هتحتاج علاج طبيعي وعلاج وظائفي مع

دكاتره متخصصين.. المشكلة بس إن الحالات بتستجيب وتتطور خلال أول شهرين لكن بعد كدا بيكاد يكون معدوم، وقليل جدًا.

أكد ياسين بعملية شديدة: من بكره هأكون متفق مع الدكاترة، وتبدأ تتابع معاهم.

تساءل ماجد: هتقدر تخرج إمتى؟

-ممكن على آخر الأسبوع، المهم تكونوا متأكدين من قدرتكوا على تحمل مسئوليتها، لإنها لسه فـ البداية وهتحتاج رعاية كبيرة.

خرج كلاهما بعد سماع المزيد من التعليمات، والتأكد مما تحتاجه خلال هذه الفترة من رعاية وعلاجات، أغلق ماجد الباب بعد خروجه أخيرًا، التفت ليجد نظرات ياسين معلقة بوجهه، يطالبه بتفسير غير ناطق.

تنهد ماجد مجيبًا سؤال الآخر الغير منطوق: كانت خطيبتي قبل ما تعرفها.

انصعق مما سمع: خطيبتك؟.. أول مرة أعرف إن كادي كانت مخطوبة قبلي.. وإيه سبب فسخ الخطوبة؟

كاد يضحك ساخرًا ويخبره أنها خطبة لم تفسخ إطلاقًا، صدم نفسه بفسخها حين استخدمت عقد زواجها من آخر كأداة لذلك: النصيب.

لم يقتنع كذلك لم يعلق أو يصر، أخرج هاتفه وتركه يتم مكالمات ترتيب ما تحتاجه والتعاقد مع ممرضة لخدمتها، وأطباء يباشرون علاجها.

***

-رجعت.

كلمة وحيدة، نطقها الرجل الموكل بمراقبة سمية، حين هربت من مراقبته عاد –بالأمر- أسفل بناية شقتها، فلا مفر لها من العودة، أخبر رئيسه الأعلى بعودتها كما أمر.

استدار بسيارته مسرعًا إلى منزل كان يومًا مأواه، نظر في ساعته مقطبًا، لقد مر سبع ساعات ونصف على إنتهاء لقائها بشوقي، وقد قابل الأخير وأدرك أنه لم يخف عنها شيئًا، وسوس في أذنها بكل أفعاله الدنيئة، كل ما نفاه بعيدًا عن معرفتها؛ لكي تظل صورته كاملة في عيونها، أكتفى بترك بعض العيوب معراة أمامها، والآن أصبح بأكمله عاريًا تمامًا لناظريها.

ضغط بقوة على المقود بين قبضتيه، حبها الذي تغذى عليه لسنوات، ما اعتبره حقًا مأخوذًا بالولادة، إرث له من الحياة، تبًا!.. قد يتنازل عن أي شيء إلاه!

ركن سيارته على رأس الشارع، بين آخرتين، رفع القلنسوة الخاصة بالسويت-شيرت، سرواله الجينز منحه المرونة الكافية في الحركة، وقف وترقب إنصراف حارس العقار، ثم صعد الدرجات، إثنتين إثنتين، ينهبهم متجاهلًا مصعد قد يجعله واقفًا وجهًا لوجه أمام أحد الجيران.

أخرج مفتاحًا لم يخطر بذهنه التخلص منه ودلف.

***

كانت تجلس بعدم إرتياح، تقاوم رغبة قاتلة في الصراخ والصياح عل ما في داخلها ينزاح، لكنها أبدًا لم تستطع إتخاذ هذا منفذًا، حمزه يشبهها كثيرًا في هذا، كلما اشتد الخناق إزداد

الصمت، مفعول عكسي، وحريق متزايد، ساقها اليسرى تهتز في توتر، عيونها تنظر إلى كل مكان سواه، لا تطيق رؤية ملامحه، ولا ترغب في سماع تبريرات تزيد إدانته لا محالة.

حتى الآن لا تصدق رؤيتها له على عتبة غرفة النوم يواجهها، كأنه غاب في عمل ثم عاد، كأي زوج لزوجته، لم تستطع أن تتواجد بينهما حميمية المكان مجددًا؛ فانطلقت إلى الخارج، تنهي ما هو من المفترض قد بدأ.

روى دون أن تطلب، قصَّ أسوء الحكاوي، وأبشعها في نظره قبل أن يكون في نظرها، لكنها حدثت ولم يعد هناك منا، وقت تحمل النتائج أتى حتى لو ختم بوضع رقبته أسفل مقصلة: أنتِ فاكره أكتر مني بداية حياتنا، والفلوس اللي على القد، والحالة الضنك.. المكتب اللي دفعت فيه كل اللي ورايا واللي قدامي، بس فضل من غير زباين، إلا الكام غلبان اللي بيجوا ويادوب بناخد منهم تمن أكل اليوم، كنت وصلت فـ فترة لمرحلة يأس تام، غيري بيكون ثروات وأنا مش عارف أكفيكوا حتى، لحد ما نجلاء تعبت.. أظن فاكرة، لإنه كان أصعب تعب مرت بيه، مع مناعتها

الضعيفة، طبعًا بغض النظر عن الكانسر.. كان لازمها عملية اللوز اللي شدت، والمستشفى مش هترحم، واللوز لو اتسابت أكتر بتبقى خطر.. ومش ضامن هأجيب فلوسها إمتى..

وقتها روحت، وقبلت عروضه اللي رفضتها كتير، أمر وأطعت، أخدت الفلوس اللي تخليها تعمل العملية فـ أحسن مستشفى، وتقضي فترة ناقهتها بدون قلق من المصاريف، وأجيبلها كل اللي نفسها فيه، فرحتها لما رجعت من المستشفى لما شافت العروسة نايمة على سريرها، العروسة اللي بقالها سنة بتشوفها من ورا الفاترينه ومش قادرة تطولها، خلتني متأكد إن اللي عملته كان هو الصح.

وفرحة حمزه بالجاكت الجديد، والجزمه اللي بتلمع بدل الكوتشي المقطع، ونظرة الراحة والسعادة فـ عيونك لفرحة ولادنا.. كان كفايه عشان أكمل، وأحس إني اخترت صح أخيرًا.. ما تحاكمنيش يا سمية، أنا مش شيطان!

رفعت عنقها ونظرت إليه، لا تصدق أذنيها، أحقًا يرى نفسه قد أصاب؟، تجاهلت رغبتها في مواجهته بعنف، وضع الحقيقة ـالحقيقيةـ نصب عينيه.

بهدوء سألت: ولما كفتنا.. وجبتلنا البيت والأكل، واللبس، والعلاج، والتعليم، والمدارس، واللعب.. ما بطلتش ليه؟؟ ما حرمتش ليه؟

إلتوت شفتيه بسخرية: ومن إمتى الطلبات بتخلص؟.. اللي بيدخل الطريق دا ما بيرجعش!!

وقفت بغتة، مغمورة في غضب وإعتراض على كلامه وعلى ما آل إليه حاله: وأما هو طريق اللي يودي ما بيرجعش.. رجعت ليه يا أحمد؟

بسمة باهتة، وصمت بالكاد مسموع: عشان أنتِ قبلتِ.

استرسل شاردًا في وجهها الذي اشتاق رؤيته عن قرب: مربوط فيكِ بخيط، مهما أروح بيرجعني ليكِ.

تصلب فكها رافضًا إهتزاز شفاهه: وأنا قطعت الحبل دا بساطور.

توسل: سمية..

رفعت كفها وأغمضت عيونها، لا طاقة لها لتحمل توسلات، وسماع اعتذرات وتبريرات توشم جريمته بعقوبة ضارية: مش دا المهم، المهم هو اللي بتعمله.. آخرة الطريق دا مش بيضرك لوحدك.. دا أذى لينا كلنا، ما فكرتش ليه بنتك مش قادرة تستقر فـ جوازها، وليه مش بتخلف؟.. إنك ممكن تكون السبب فـ مرضها اللي جايز يرجع فـ أي لحظة ويقضي على حياتها؟؟

وحمزه والابتلاء بواحدة دمرت حياته لسنين، ومن سخرية الزمن إن حياه –البنت اللي أنت دخلتها طريق مش بتاعها- هي اللي تخرجه من الدوامة دي.. واللي علاقتهم مهزوزة ومش بتوصل لبر أمان؛ بسبب إحساس حياه بالذنب لوفاتك، وحمزه اللي لسه مش قادر يتقبل زوجة ضحت بشيء عزيز غصب عنها وهو بيحاول يبين إنه مش مهتم؟!

الدوامة دي دخلناها ليه!!، مش بسببك؟!.. ويا عالم الجاي إيه ومستنين إيه أكتر من كدا بسبب مال حرام، خليتنا عايشين عليه.. دا وقفتنا دلوقتي بسبب خناقه بينك وبين واحد على قرشين حرام، مش هيعملوا حاجه غير إنهم يزودوا همكوا وقرفكوا.. ويأذوا بس.

مصدومًا من إنفجارها بوجهه، مواجهة لأغلب ما كان يتهرب منه، لكن كما قال لها.. فات آوان الرجوع وانقضت فرصة التخاذل عما بدأه. لدهشته هدأت فجأة كما ثارت فجأة، جلست وسألت بهدوء فور نفس عميق أطلقته بتأنٍ: الفلوس اللي كانت فـ البنك، اللي المفروض ورثناها وأتوزعت علينا، من اللي أنت شغال فيه؟

زفر وقد فقد أمل الطمع بسماحها: نضيف يا سمية، دا شغلي النضيف من المكتب، الـ300 ألف دول هما تعبي اللي كنت هأخده لو فضلت محامي كحيان وبس.

رفعت إليه نظرات مملوءة باللوم، تأمره بالخرس، أجابته بقوة تأثره: كل قرش أخدته، صرفته أو شايله.. كان مكتوبلك يا أحمد، وكنت هتاخده بأي شكل، بس أنت فضلت تاخده بالحرام ما صبرتش تاخده بالحلال..

شددت من تركيز بصرها عليه قائلة بنفس تشعر كأنه الأخير من فرط الإجهاد النفسي: عارف أنت محتاج إيه؟.. محتاج تمسح الغشاوة من على عينك، تبص كويس لكل واحدة دخلتها طريق الدعارة وخليتها مومس، عشان تشوف كرهها ليك فـ كل لمحة، وتسمع لعنها ودعوتها عليك فـ كل وقت، يمكن.. يمكن وقتها تحس بجرم اللي عملته.

***

تعد هذا وتجهز ذاك، والدها يحب تلك العباءة فأُخرجت منذ الصباح وغُسِلت ثم نُشِرت تأخذ شمس اليوم المشرقة ثم كويت وتعطرت بمسكه الأثير.

راقبت والدتها الممتلئة بالطاقة، عبدالرحيم أراد تغيير موضع الفراش؛ ليصبح في مكان ما قرب النافذة يلتقط أشعة شمس البكورة وضوء القمر المرتفع في سماءه المعتمة، فتنادي «فـاارس» بعلو صوتها لكي يساعدها في النقل والعزال.

أسماء حالها لا يختلف كثيرًا، تساعد معهم وتنفرد أحيانا، تعد ثوبًا جديدًا ترتديه في استقباله، ثم تجهز آخر خاص بغرفة نومهم، زين، زين حياتها وبريقها عائد بعد غياب، وبعد عذاب.

تمنت ألا تخيب ظنونهم، لا مفر أمام الأخ الجاحد والعم اللئيم، إما ذاك وإما السجن، جرّعها من مياه النذالة وحقنها خسة مما تسري في عروقه، هكذا يتم التعامل مع

الأنذال، التهديد بالتهديد، والقذارة بالقذارة، كما العين بالعين والسن بالسن، اختلفت المسميات لكن ظل المغذى واحد.

حملت صغيرتها من العربة المتنقلة معها في أركان المنزل، تقذفها عاليًا ثم تلتقطها من جديد، كما اعتادت من والدها، ياسين الذي سافر يرى زوجته المحتجزة بين حوائط المشفى في عالم منفصل عنهم، رغم ذلك لم يحرمهم من اتصالات تتعاقب وأسئلة لا تمل، عن الصحة والحال ومن فارقوهم من أحباء.

بكت، وتعالى الصراخ، أنزلتها سلمى وضمتها قرب قلبها، تحاول مدارة غيظها، ياسين يفعل ذلك تمامًا، لكن معه تقهقه وتنهنه منشرحة، أما معها فتنوح وتقلب سحنتها، الـ«بابا» له الضحك والفرح، والـ«ماما» لها البكاء والعويل.. البابا له اللعب والتصفيق، أما الماما فلها القذف والصفع!، تبًا لمبدأك يا جنة ياسين!

***

تلكأت خطواتها بالقرب من حائط زجاجي، وقفت تعدل من هندامها وتتأكد من إنضباطه على جسدها، بذلة نسائية عملية، بنطال متسع وسترة من نفس الخامة طويلة بما يكفي، الزر مغلق مبرزًا لمحة صغيرة من قميص أحمر أسفل بذلة رمادية داكنة، النظارات ثابتة فوق أنفها المنمق، وشعرها معقود بإحكام في جديلة مضفرة.

-كله تمام، وبصراحة.. قمر.

استلذ الكلمة الأخيرة؛ فأخرجها متمهلة كأنه يتذوق نكهتها المرفقة بمن اختصها بها، تشوش عقلها برهة وقطبت، رأت إنعكاسه في الزجاج، استدارت إليه مستعيدة استرخاء واه من الخارج فقط، أخبرته بجدية: تصدق إنك زي العسل..

تنحنح مدعيًا الحرج، وضبط ربطة عنقه الشبه محلولة من عقدتها، أجاب بغرور ذكر الطاووس الملون على الإناث البيض: ربنا يخليكِ، كلهم بيقولولي كدا.. بس ما بأحبش أتكلم عن نفسي كتير.

أكملت ما قاطعه من بقية الكلام: ..لزج

تابعت خطواتها في الإتجاه الذي حدد لها من قبل الأمن والاستقبال في الطابق السفلي، لا ينقصها إلا هذا المتحذلق مُسعد ليفسد يومها قبل بدءه، كيف غاب عنها أن محل عمل حمزه حيث حدثها عن وظيفة بها الصفات التي ترغب، شركة محترمة، وموقع يناسب تخصصها، هو نفسه مكان لتواجد الآخر، صديقه، مُسعد، تأففت ثم استدركت نفسها تبتهل أن تتم مقابلة العمل على خير.

وقف مُسعد مذهولًا يحدق في الفراغ الذي خلفته بعد دلوف غرفة الإنتظار، ضرب كفًا بكف ودار على عقبيه إلى حيث مكتبه محدثًا ذاته: لا حول ولا قوة إلا بالله، هو أنا مولود فوق راس البت دي ولا إيه؟!.. ولا يكون في تار بين عيلتي وعيلتها، لا لا، الحاج والدي والحاج والد والدي ناس كُبّاره، مالهومش فـ وجع الدماغ دا..

شوح بكفه في وجه زميل يسخر من جنونه الذي زاد أضعافًا، لمع في ذهنه استيعابًا متأخرًا، لقد دلفت إلى حجرة الإنتظار الخاصة بمقابلات العمل في قسم المالية، إذًا هناك فرصة لتعينها في الشركة، ضحك متخابثًا، سيأخذ حقه كاملًا: تالت ومتلت يا آنسة آية هعهعهع.

***

انزوت بعيدًا تراقب مشهد اللقاء بعد فراق طال، والدتها تتلمس زوجها غير مصدقة أنه أمامها بشحمه ولحمه، غير مجروح أو مصاب، الدموع تفر من عيونها دون

إدراك، والدها يربت على أعلى ذراعيها مهدئًا، بسمته الحنون تحاول إمتصاص بقايا القلق؛ فقد حطّ فوق رؤوسهم أمدًا.

زين محاط بأولاده، الأصغر هشام محمول على أكتافه، يحيط عنقه بذراعيه يشدهما حينًا ويرخيهم أحيانًا، يرغب في جذب انتباه والده كلما طال اهتمامه بأحد شقيقيه الأكبر عمرًا، قرصه زين من خده مداعبًا: خلاص كبرتي يا بيضا وهتروحي المدرسة زي إخواتك؟

قطب هشام حانقًا وهز رأسه بقوة رافضًا الفكرة: لا، أنا قاعد معاك هنا يا بابا، هما يروحوا المدرسة وأنا أقعد معاك.

نكزته أسماء وجحظت عيونها غيظًا: أبوك نفسه وراه شغل، مش فاضي للعبك اللي ما بيخلصش دا.

التوت شفتيه سخرية فيما يكافح لإنزال هشام من فوق أكتافه، والآخر يحارب ليحافظ على مكانته بعيدًا عن إخوته وأقرب ما يكون لأبيه: هو بقى في شغل أصلًا؟

باغته عبدالرحيم بلوم وقد انتبه لحديثه: الشغل ما بيخلصش يا زين.

انكس رأسه: سمعتنا بقت فـ الأرض يا والدي.

خطى إلى الداخل محمود وقال بصوت جهوري: الأرض موجودة والشركة موجودة.. هنرجع نشتغل ونرجع سمعتنا من جديد.. ولا أنت خلاص استسهلت وعايز الحاجه جاهزة ما تتعبش فيها؟؟

ضمّ الصديقان بعضهما البعض بقوة، يتلمسان الدعم وأيام فراقهم، اعتذر محمود: ما عرفتش غير قريب، رجعت على طول.. وما شاء الله طلعتوا بسرعة قبل ما اعمل أي حاجه.

قهقه زين ضاربًا كتف الآخر: أومال هنستنى إياك يا وحش البراري؟!

قبلت عائشة زوجة محمود فاطمة، واستدارت إلى سلمى تضمها بحب، قبل أن تتوجه إلى أسماء وتشد على كفيها، قالت الأخيرة بصوت لا يقبل النقاش: طه، يزيد، هشام.. روحوا ساعدوا سهام فـ رصّ الأكل على السفرة، وقولولها تعمل حسابها فـ عدد زيادة.

كادت حواجب محمود تلامس منابت شعره، سأل بعفوية: الولاد هما اللي بيحطوا الأكل على السفرة؟؟

ضربه زين على فخذه ضاحكًا بعدما جلس الجميع: يا راجل أنت لسه بتفرق بين الولد والبنت، الكلام دا قدم من زمان.

-الولد ولد والبت بت.. الكلام دا ما بيقدمش.

خاطبه بالمنطق: وإيه اللي يميز الولد عن البنت فـ شغل يومي وتقليدي؟.. أديك شايف عاصم وخالد طالع عينهم إزاي فـ الغربة؛ لإنهم لا اتعودوا يخدموا نفسهم ولا لاقين اللي يخدمهم.

خطت عائشة خلف زوجة زين إلى المطبخ تنجزان الأعمال مع البقية، ولسان حالها يأس من محمود وتفكيره، لن يتغير أو يعترف بضرورة التغيير، شريعته تلك تزيد غيظها أضعافًا وهو لا يبالي. هرب إلى أخيه في الخارج، وحياتهما الزوجية معلّقة، تركها تخبط رأسها في الحوائط من حولها، المهم أن تبتعد عن حائط عقله الفولاذي.

همست لها أسماء أثناء سيرهم: لسه حاله ما انعدلش؟

شفتان مزمومتان كانت إجابة وافية، دعت له بإنصلاح الأحوال، فحتى حياه شقيقته من لحمه ودمه، تعاني من صلابة رأسه وعدم قدرته على العفو، مالت على أذن صديقتها: ما أبقاش أسماء إن ماكانش وراه إنَّ، أكيد في حكاية كبيرة ورا اللي هو فيه دا.

همهمت: ربنا يصلح الأحوال.

***

دعاها بانفتاح ذراعيه، هرولت إليه ضاحكة مقابل بسمته، ارتمت بين أحضانه تتنشق عبيره، مسكه المفضل مخلوطًا برائحة الأمان والحنان، مرغت وجهها في ثنايا عباءته التي أعدتها والدتها له منذ البكوره، اشتاقت ولم يشبع شوقها قبلة على الجبين وربتة حنون، احتاجت ضمة قوية، بل غمرة شديدة، تنقلها أسفل أضلاعه قرب قلبه.

شعر بها، وحالما حانت الفرصة استغلها، صغيرته، ذات الركن الأكبر من فؤاده، فرّت قطرات من بين جفنيه، شدد ضمته وسكن جسده كأن احتواءها قمة راحته وأبلغ ما يتمناه من الدنيا، هي قريرة عينه ومهجة قلبه، كلما ضمها تأكد من غباء الرافض لإنجاب الفتيات، الولد يحمل اسم والده أما الفتاة فتحمل والدها فوق رأسها.

-مين اللي مزعل أميرتي؟

تغلب على حشرجة صوته، قلق عليها، على قلبها الصغير الذي أحب، وغار في بحور العشق دون خبرة. يدرك جانبًا طاغيًا من مشاكلها دون أن ترويها، دخلت كثانية على امرأة، جميلة، فاتنة، تعرف زوجها ومداخله، أمامها هي.. التي لم تحظ بفترة خطبة ملائمة، وزوج تعرض لضغط من عدة جوانب، لولا حنكته في إدراك لمعة مخفية قابلة للاشتعال وإنارة حب في قلب ياسين ناحية «سلمته» لم يكن ليسمح لها، لكن تبريراته لن تغادر إلا للعقل الفاهم، أو القلوب المعلّقة ببعضها حق التعلق.

-مش غلطان لوحده يا بابا، أنا غلطت..

رفعت بصرها إليه، تتعلق بعيونه معترفة بذنبها: غلطت لما فكرت فـ سعادتي وبنيتها على سعادة غيري، فكرت إني هأكون مع الشخص اللي قلبي اتعلق بيه من

غير ما أحس، بس ما فكرتش مين ممكن يتضر أو يتجرح السنتين اللي فاتوا كانت كل لحظة سعادة بيقابلها عشرة حزن ووجع، حتى السعادة نفسها كنت دايمًا بأحسها ناقصة.. لما قعدت وفكرت استغربت إزاي قدرت أحس بسعادة ولو صغيرة، السعادة كان بيعكرها ضميري اللي اتجاهلته؛ عشان اغتصبت حق غيري، زوج لواحدة تانية، حبيت أبني فرحتي على تعاستها.. اتغاضيت عن إنها أجمل مني، وحبه ليها اللي باين فـ عيونه، وإنها كل حاجه ممكن راجل يدور عليها فـ الست، استغليت نقطة ضعفه ورغبته فـ طفل عشان أقربه مني وأسرقه منها.

كفكف دموعها بكفه دون أن يفكر في مقاطعتها، لقد طال انتظاره لهذا الإنصات، أن يسمع ما يدور في عقلها ويتوجعه قلبها: حسيت دلوقتي بس قد إيه أنا سيئة، مش بس كدا.. اكتشفت إنعدام ثقتي فـ نفسي كـست ممكن تملى عين جوزها، إن نظرتي لنفسي بتركز على العيوب وتنسى المميزات، كرهت نفسي عشان وزني زايد، ما حاولتش أحبها زي ما هي أو حتى أنقص وزني فأرجع أحبها.. سلبية، كنت سلبية جدًا.

اعتصرها في ضمة طويلة، يبكي وجعها، يبكي عجزًا يلجم ذراعيه: وأنتِ عايزه إيه؟

صمتت، فأصغى لصمتها، رفعت نفسها وانتصبت جالسة، عيونها تحمل عزمًا يحفظه جيدًا، يعني أنه لم يعد هناك مآب وستتحمل الآتي مهما كان: مش هأرجعله، هأطلق.. هو ما كانش ليا من الأساس، وجنة هأحاول على قد ما أقدر ما أخليهاش تحس بالفرق وطبعًا مش هأحرمه منها.

استرسلت ناظرة إلى أبيها منشدة دعمه: هأعيد ثقتي بنفسي وأبنيها، هأبطل سلبية، مش عايزه أكون قدوة سيئة لجنة.

أراد أن يتأكد فسألها: يعني خلاص مش عايزاه؟

أغمضت عيونها مطرقة، تهمس لنفسها، سأكتفي بك حلمًا يؤنس ليالي، أملًا بعيد المنال، حب الطفولة الذي لم يشأ القدر أن يكون له مكانًا في ريعان الشباب، سأكتفي بك فارسًا يظهر في منام فوق سرج جواد، سأكتفي بك وهمًا فالواقع ليس لي وإنما لأخرى يذوب قلبك في هواها.

أومأت بقوة أدرك والدها الضعف خلفها، ابتسم، وأيّدها، أمرها بنداء شقيقها زين، فيجب عليهم وضع خطط الأيام القادمة، والنقاش حول ما يجب أن يتم.

-عرفتوا إنه دخل واحد بريء، ولبسه القضية عشان نخرج إحنا؟

قالها بتعب، وضمير مثقل بالذنب، فحريته رهنت بسجن آخر بريء لكن ما بيده حيلة، تغضن جبين زين واستغفر مغتاظًا من عمه ذاك، ألا يعرف أن الله يراهم ومطلع على كل شيء؟!

-ما تخافش يا بابا، مسألة أيام وهيخرج بإذن الله.

قالتها سلمى بثقة استرعت انتباههم، سألها الأب متأنيًا: فـ إيدك حاجه؟

اقتربت من درج في غرفتها حيث يجتمعون، أخرجت مظروفًا وضعته في يد والدها: دا ما يعرفش عنه أي حاجه.. وهو عبارة عن أهم حاجه.

نظر لها وعيونها المتلألئة بالنصر، ظن العم بأن كل ما يهمها هو خروج من يخصوها إلى عالم الأحرار. لم يدرك أن هدفها أبعد.. ليس انتقامًا من زيجة أدخلها فيها فأوجعت قلبها؛ لإنها أكثر نضوجًا من ذلك.. فالخيار كان ملك يمينها وهي من اختارت. هدفها هو الحفاظ على عائلتها سالمة، فمن طعن مرة وسجن أخرى، قد ينهي مهمته تاليًا بقتلة.

***

وقف يحدق بوقفة المقابل له، عبدالرحيم يبدو متراخيًا لكن بتصميم، عيونهما تلتقي في صراع صامت، كل من بالمنزل متراجعًا عنهم في أحد الأركان، تترصد بهم العيون في متابعة غير قابلة للتطور للاشتراك الشفهي. عبدالرحيم رجل العائلة ورب الأسرة، حين يتخذ قرارًا دون أن يفتح بابًا للنقاش ينتهي الأمر وكأنه كلمة «النهاية» في آخر صفحة من الرواية.

مستندًا إلى عكازه، مرتفع الأكتاف، هيبة ضافتها العباءة على جسده الأشيخ، رفض بثباته المعروف طلب ياسين اصطحاب سلمى وابنته معه، حتى فكرة المقابلة بينهما في الفترة الحالية رفضها رفضًا قاطعًا، متمًا حديثه: حذرتك قبل كدا، إنك لو خليت بنتي تيأس منك وتزهد فـ عشرتك؛ هأبقى أبوها لوحدها.. بس يظهر إنك ما أخدتش تحذيري جد.

ارتبك ياسين وحاول التهرب بعيونه: يا عمي ..

رفع كفه ورفرف أجفانه: الموضوع أنتهى يا ابني، وزي ما بدأنا بالمعروف نخرج بالمعروف.

ارتدى خطوة للخلف لا إراديًا كأنه طعن بنصل حاد، همهم تائهًا: إيه؟!

استدارت بعيدًا تتوارى في الحائط أعلى السلم، تكتم شهقاتها بكفها المعتصر لفمها، الدموع تسيل رغم القوة الظاهرية التي دفعتها لإتخاذ هذا القرار، جبنت فجأة أمام القرار الكبير، واللحظة الحاسمة. رؤيته مبهوتًا بطلب والدها اعتصر قلبها، لكن الأمر أنتهى..

عامان مرا على زواجهم، لم يحدث شيء، قلبه منشغل بغيرها ولا يعيرها حتى لفتة إهتمام، عيونه، صدمته، ارتداد جسده، بثّ داخلها نشوة، لذة غير مسبوقة، رغم

الرأفة التي داعبت قلبها ناحيته إلا أن هناك زهوًا دفعها بعيدًا، أنوثة تشبعت، ورضا غامر.

دلفت غرفتها ثم عرجت ناحية شرفتها تلامس أوراق الزهرة الحمراء، شجرتها المرافقة لها منذ زمن، صديقتها الخرساء لكنها متيقنة من قدرتها على الاستماع، توليها وحدها الإهتمام بعد زهراتها الصغيرات، شجرة الخزامى الأفريقية، استنشقت عدة مرات رائحتها النفاذة والهادئة في آ ن معًا.

أطلت أسماء مبتسمة بخفة، عيونها تلمع بخبث حميد أثار فضول سلمى، انتبهت إليها ملتقطة ما سلمته إليها بلا وعي، غمزتها منسحبة: ياسين ما مشيش إلا أما أكد عليا أديكِ دي، كتبها بسرعة قبل ما بابا يكسر وراه قُلّه.

اختفت أسماء وبقى صدى ضحكاتها الأخيرة، فتحت الورقة المثنية أربعًا، قرأت السطور حتى وجل قلبها، علمت سر ضحك زوجة أخيها؛ فهي لا ترى كل يوم زوج يتغزل بزوجة «هو» زاهدها، تركت الرسالة المفضوضة فوق السرير وذهبت تلبي نداء طفلتها.

أغلقت الباب خلفها تحث الخطى إلى غرفة الأطفال. فيما باب الشرفة المفتوح سمح لنسمة

هواء عابرة بالدخول دون استئذان، انقلبت الورقة أرضًا وظلت سطورها معرّة للأعين؛ يبدو أنها سأمت مدارة صاحبها وأرادت التعويض عن عامين طوال من جفاء العاطفة.

«كيف تركتكِ تذهبين؟ كيف لم تطبق كفاي عليكِ مثلما يطبق شراعٌ في بحر التيه على حفنة ريح؟ كيف لم أُذوبكِ في حبري؟»

روتينية تامة سيطرت عليها فيما تلبي احتياجات جنتها، عقلها يستغرب برودة قلبها، يتخصر أمامه رافعًا أحد حاجبيه ولسان حاله يقول «والله؟.. جاي دلوقتي

تتكبر، ومش حاسس؟»، همست لظهر الورقة التي خطّ فوقها رسالته المقتبسة من غسان كنفاني لغادة السمان.

«ربما تكون غسّانا لكن لا أظنني غادتك!»

***

مرّ ثلاثة أشهر، تحسنت حالتها بشكل ملحوظ لكن ما زال هناك أثرٌ لما جرى لها، أحيانًا تخونها الكلمات، ياللسخرية.. !.. كأنها لم تفقدها مرات ومرات. طبيب العلاج الوظائفي لا تستطيع إنكار فضله، فلولاه لما وصلت للتطور الحالي، التشتت وخيانة العبارات اعتادت عليهما ولله الحمد فقد قلّا كثيرًا.

استرخت في جلستها فوق الفراش تحدق بالسقف، الذاكرة عادت، وليتها لم تعد، حين خرجت من ذاتها وتجردت منها أدركت فداحة أعمالها، غائبة، أصابها السطل، أو جنت.. في نهاية الأمر كرهت ما كانت.. وستصير أخرى، فرصة أتيحت لها لن تعوض.

سمعت صوت ياسين بالخارج، اعتدلت في جلستها وغمرها التوتر بغتة، تسربت كل الخطط من رأسها وتبخرت الجمل التي رتبتها وحفظتها كي لا تتلعثم أمامه، تريد أن تظهر كواثقة، مدركة لموضع أقدامها؛ فلا يخاف عليها السقوط.

دلف إلى الغرفة بسرعة أربكتها، نظرت ناحيته ببلاهة، ابتأست لمرأه، تدرك وجعه، فحين تأكد من مشاعره كان الأخرى يرفضه ويبصق حبه في وجهه، الوقت الغير مناسب، كثرة التعنت وأنفة بلغت عنان السماء، هي سبب إجهاده.. وحسرتها.

جلس على مقعد طاولة الزينة موليًا ظهره للمرآة، وضعه المعكوس فوق المقعد بظهره العالي نسبيًا أشعرها بحميمية لونت خدها بالأحمر، سعلت فابتسم، عزمت أمرها على قول ما في جعبتها: تطلق.

جعد جبينه وكرر مستفسرًا: أطلق؟

أومأت مشيرة إلى كليهما على التوالي: أنا.. أنـ.. أنت.

تنهد، مشكلة النطق عندها ما زالت لم تتحسن بالكامل، لقد خشى أن تطلب منه العكس، طلاقه من سلمى وقد بطل سبب الزواج. اندهش من طلبها: ليه؟

أشارت إليه: تعبان.. زعل، سهر، سلمى سابتك.. بسببي.

حرك رأسه متنهدًا: مش بسببك، غبائي هو السبب.

هزت رأسها بعنف مشيرة إلى نفسها: أنا السبب، هي.. وقعت بسببي، غيظتها كتير، قهرتها أوي، خليتها تعيط قصد، كانت هتخسر جنة أكتر من مرة من تحت راسي.

ضاقت عيونه بحدة مراقبًا دمعاتها المتكومة داخل جفنيها: آسف، مشاكل حصلت بسببي، أنا ندمانه.

أطرق برأسه حتى لا ينفعل، لقد كذب سلمى كل مرة توجه أصبع إتهام إلى كادي، يتهمها بالغيرة والجور، وناهد.. حين أخبرته بما سمعت قبل أشهر تغاضى عنه، ظنًا منه أنه تلفيق لتخرجها من حياته بلا رجعة، ثبت الآن بلسان الجاني حقيقة أفعاله. أتضح كم كان متغابيًا وأعمى البصر والبصيرة. تتلعثم وعادت حالتها تسوء، فقلة التركيز تغمرها نتيجة التوتر، أليس تعبها هذا كافيًا على غرورها وكاسرًا لعزتها؟

تابعت بوجه غارق في الدموع التي أفلتت من شدة الشعور بالذنب ورد فعله: ماكانش قصدي أأذيكوا لما بعتلك الصور عشان أبعدها عن هنا، عن..

هبَّ من فوق المقعد نهائيًا متراجعًا خطوتين، بوجه فقد لونه وأيدي تنقبض موشكة على أن تفقد سيطرتها، غير مصدق كم الأذى الذي تسببت به. صاح: ليه؟!

كادت تفقد السمع، زاد نشيجها وأغمضت عينيها كي لا ترى حالته الآن فيزداد إرتعابها: أبعدها، كنت عايزه أبعدها بس.. مش عايزاها قريبة مني، من ماجد.

همس مكررًا الاسم الأخير، استرسلت: حبيته زمان ودلوقت.

كز على أسنانه، إن أطال بقاؤه أكثر ستفقده السيطرة بالكامل، حينها لا يعلم ما سيحدث، فقط.. هو اعتاد المواجهة للحظة الأخيرة، ثانيًا يجب عليه إنهاء الأمر هذه المرة وإلى الأبد. ألقى إليها علبة المناديل المتواجدة فوق طاولة الزينة، عدلّ الكرسي وجلس عليه واضعًا ساقًا فوق الأخرى: وبعد الطلاق هتعملي إيه؟

راقبته قليلًا بتوجس ثم بدأت تسرد عليه ما خططته بصوت ضعيف: هأخد شقة وبابا يخرج من الدار ونقعد سوا.. هاشتغل.

كتف ذراعيه محدقًا فيها بما يشبه الاستمتاع؛ فالمتحدثة كادي ومن تزوجها كادي أخرى. علق بهدوء: لاقيتِ شقة؟

هزت كتفيها بقلة حيلة: شوفت شقق فـ الجرنال، بس لسه مش حددت.

ـمتأكدة إنك مستعدة تهتمي بوالدك؟

رغم عدم قولها سر تجمد العلاقة بينها وبين والدها، إلا أنه لاحظ عدم إهتمامها به، وزيارات نادرة متباعدة بأسباب محددة، فترة قصيرة تقضيها ثم تعود بوجه جامد ويومين قبل استعادة طبيعتها، تهربت من نظراته متمتمة: أيوه.

هب وأمرها بالاستعداد: ناوليني الجرنال اللي حددتِ فيه الشقق عقبال ما تلبسي ونروح نشوفهم.. نختار الأحسن.

شهقت وفي وجهها بريق فرحة: جد؟

طالعها فترة صامتًا ثم ببسمة باهتة أومأ مغادرًا ليتركها تستعد. كادي فصل في حياته كان واجبًا عليه إنهاؤه، مرضها عرقله وألجمه طويلًا والآن جاء العرض منها، على طبق من ألماس، مجنبة له اعتراضات من باب التحكم وفرض السيطرة، ليس تمسكًا به أو حبًا فيه.

***

«ولما رأنى فى هواه متيمًا ☼ عرف الحبيب مقامه فتدلل»

وضعتها في درج مكتبها، عقلها سيجن ويعلم من الذي يتكبد توصيل الكلمات لها في غيابه، كل عدة أيام وقتما يتفرغ يأتي ليري جنة، تنزلها إليه مع أي من سكان المنزل وتحبس نفسها داخل جدران غرفتها، ترفض حتى فتح باب الشرفة، لا ترغب في لمح طيفه، رغم الجفاء المتحكم بها واعتصارها لقلبها؛ علّها تجد ما يتجاوب مع مداعباته لها، لا شيء يتغير.

ابتسمت بسخرية لنفسها، لقد أتى بعدما أسدل ستار آخر فصول حبها اليائس ووجعها الدائم جواره، آتى بعدما أطلقت ستار اللا مبالاة.

التقطت هاتفها وأرسلت له رسالة نصية ساخرة.

«لا ترسل المزيد، فأنا امرأة لا يستهويها تكرار الكلمات من فوق ألسنة الآخرين، ولا يؤثر فيها كلمة خطت على ورقة في عُجالة!»

سمعت نهنهات طفلتها فنهضت إليها باسمة، تريد استغلال فترة مزاجها السعيد قبل أن ينقلب بسبب التسنين، كم متعِبة هذه الفترة، تراها تتوجع وقلبها يكاد ينفلق قلقًا وشفقة بها، تداويها بما تستطيع لكنه ألمٌ لا مفر منه.

حملتها واتجهت إلى سريرها، توقفها على فخذيها فتتخذ طريقها صعودًا وهبوطًا فوقهما بثني ركبتيها مستمتعة، تهز جسدها بعنف متشبع بالمرح، ضحكت عليها

سلمى وانشغلت في محادثة معها، عن كل شيء ولا شيء، تتحدث وتتحدث والطفلة تحدق في شفتيها المتحركتين تحاول تحريك شفتيها مثلهما، تقلد أمها أو تسعى مشاركتها الكلام.

وأد بكاء الأسنان لحظة الصفاء بينها وبين جنة، حملتها وهبطت بها إلى الأسفل، حيث وضعت قطعة قماشية بُلَّ نصفها في المجمد لمدة نصف ساعة أو أقل، أخرجتها وسلمتها إلى طفلتها بعدما وضعت الجزء المبلل في فمها وتركت لها الجزء الجاف رغم البرودة تتمسك به كي تشعر بالأمان، انشغلت بالعضعضة ونست البكاء، التقطت سلمى أنفاسها.

-لسه مش حابه العضاضه؟

قالتها أسماء باسمة فيما تتجه إلى الحوض تغسل الأكواب التي انتهى الأولاد من شرب لبنها، أجابتها فيما تضع الصغيرة بمقعد مخصص لسنها جانب طاولة المطبخ.

-مش طايقاها، بينهم عداوة باين.. تاخدها تعض مرة وترميها التانية.

-هههههههه شكلها هتطلع دقة قديمة.

-أوعي تكوني بتتريقي على بنتي!

قهقهت: أنا أقدر بردو؟!، دي أميرة البيت خلاص.

-كلمتِ زين؟

أومأت: أيوه، ربنا يعدي الفترة دي بقى، أكننا رجعنا نبدأ من الصفر.

ربتت على كتفها في مؤازرة تقدر وضعها: فترة وتمر بإذن الله.

استندت بجانبها وكفها: المشكلة إن دي فاكهة، ما ينفعش تقعد، لازم تتوزع وإلا هتبوظ أو أهون الشرور قيمتها تقل.. حتى نسبة التصنيع زادت والضغط على العمال بدأ يضايقني وخايفه يخنقهم كمان، مش ناقصين مشاكل تانية.

استفسرت بإهتمام: عملتِ إيه مع مدير الفندق اللي روحتيله إمبارح؟

أجابتها مبتسمة فيما تداعب صغيرتها وتلهيها: الحمدلله، هياخد كمية قليلة فـ الأول، لو لقى الناس مستحسناها عن المنتجات اللي بيتعامل معاها هيزود الكمية.

زفرت بحرقة: يا رب.

-ما تقلقيش، ربنا هيعينا، إحنا اتحسنا كتير، شوفي كنا فين من 3 شهور وبقينا فين.. بأمر الله لو الأمور مشيت زي ما خططنا لها هنبقى أكبر من اللي كناه.

***

تلقي ناحيته نظرة كلما راحت أو جاءت، تضع صحون الإفطار فوق المائدة وعيونها تراقب تشاغله مع ابنه، ليس مستقرًا وهناك ما يقض مضجعه، كثر قلقه وانشغال ذهنه، حنت رأسها في طريقها إلى المطبخ ثم وقفت جانب الصحن الأخير دون أن تحمله.

كتمت رغبة شديدة في البكاء، منذ الولادة والعلاقة بينهما مستقرة بل رائعة، مثالية كما لم تظن أنها ستكون يومًا، لا تخلو من خلافات لكن دون تنغيص أو عذابات مقلقة، فجأة عاد الحال ينقلب مجددًا، أعصابها لا تحتمل هذا التقلق، تنشد استقرارًا أيًا كان، فقد تعبت وتخشى على صغيرها التأثر.

استجمعت زمام أعصابها وخرجت حاملة الصحن، رسمت ابتسامة على وجهها منادية زوجها: يلا يا بابا الأكل جهز؛ عشان ما تتأخرش على الشغل.

التقطت منه أحمد وانصرفت تضعه في سريره الأرضي القائم في أحد زوايا جزء المعيشة

المفتوح على السفرة، عادت تجاوره وسألته ترغب الإطمئنان: مالك يا حمزه؟ بقالك فترة مش مظبوط؟

ازدرد اللقمة وقال متكدرًا: ماما مش مريحاني يا حياه، حاسسها تعبانه بس مش بتشتكي، حاولت أقنعها نروح للدكتور مصممة إنها كويسه ومافيهاش حاجه، لا راضية تيجي تعيش معانا هنا ولا تعيش مع نجلاء.

-ما أنت شوفت، راحت يومين عند نجلاء ما قدرتش، ورجعت بيتها تاني، صعب بعد السنين دي تسيب بيتها.

-فاهم، وصعب تعيش لوحدها بردو، الوضع هيبقى صعب عليها فـ الأول وبعدين هتتعود.. على الأقل تبقى قدام عنينا، إنما كدا لو حصلها حاجه مش هندرى.

ربتت على كتفه مشفقة على حاله، زادت مسئوليته حتى أنها تتعجب من قدرته على التحمل، أحمد وحده قادرًا على إفقادها النطق بقية اليوم من كثرة الصراخ في النهار، فكيف هو؟

لقد اكتفى بسفرة كل فترة ليومين أو ثلاثة في العمل، وبعد وفاة والده تقلص الأمر ليقتصر على العمل هنا فقط، متحملًا العواقب من راتب دون زيادات بدائل السفر والتغرب وخلافه. كل ذلك ليكون قريبًا يلبي احتياجاتها وابنها، أمه وكذلك نجلاء التي رغم تعقلها عما مضى كثيرًا إلا أنها لم تخلو تمامًا من طفولية التصرف في علاقتها مع فادي.

زمت شفتيها مخفية مرحها قائلة بجدية: أنت مش ملاحظ إني بقيت حياه كتير أوي إنهارده؟؟

فعل مثلها بشفتيه متشاغلًا بغمس لقمة خبز في البيض المقلي: أصل المراقبة اللي من تحت لتحت، والزغر، يليق بـحياه الزوجة المصرية الأصلية.. مش.. الشعنونة!

وجهت شفتيها في إتجاه مضاد لناحية جلوسه، مدعية غضبًا لا تستشعر أرفع شعراته. كتفت ذراعيها رافضة وضع اللقمة في فمها: بقى كدا؟

جذب مقعده بعدما رفع جسده من فوقه قليلًا مقتربًا منها مسافة ثم سحب مقعدها كذلك حتى التصقت الكراسي، ضمها غامرًا وجهه في خصلاتها يتشمم رائحة اعتاد عليها فأصبحت ضرورة من مستلزمات يومه، لم يهتم بتبعثره، أو ابتلال أحد أطرافه بلعاب أحمد مسللًا حفنة منه داخل فمه يتلذذ بأي شيء من أطرافه.

-بحبك أوي يا شعنونتي.

ابتسمت في صدره: وأنا بحبك يا أرجوزي.

ضربة خفيفة أقرب للملامسة الحنون طرقت أعلى ذراعها: يبقى منظري إيه دلوقتي لما تقوليلي أرجوز قدام ابننا؟.. بدل ما أفرض شخصيتي.. هتخليني هزؤ.

رفعت نظرها وأمسكت نظراته بينهما، وببسمة شديدة الجدية لكن تنضح بحب مكنون داخل فؤادها ناحيته: خليه الأول بس يلاقي واحدة تحبه زي ما أنا بحبك كدا.. صدقني وقتها هيبقى بجد أرجوز قليل عليه.

غمزها ضاحكًا: وإن ما بقاش أرجوز عهد عليا أركبله كرة حمرا هنا.

ضم أصابعه حول طرف أنفها، قهقهت غارقة في الضحك، تتخيل أحمد الصغير بأنف أحمر كأنف المهرج. همس في أذنها: ضحكتك حلوة أوي.

شمخت رأسها بترفع: أنا كلي على بعضي حلوة، أقولك سر؟.. أنا ملكة جمال بس تنازلت عن المنصب.

رفع حاجبيه ساخرًا يخفي ضحكته: لا يا شيخة!

-أومـال يا أرجوزي، حتى اسأل حمودي كدا.

قطب: الدلع دا ماسخ أوي.

أخرجت لسانها مغيظة: مالكش دعوة، هو عاجبه.

نهض منتبهًا لمداهمة الوقت لجلستهما، تمنى أن ينسى الزمن ويقضيه بلا نهاية معها لكن واقع الحياة مخالف لأمال المرء في معظم الأحوال كما الآن، قبلّ جبينها بقوة: ماشي يا حبيبتي، كلها سنة ويعرفك قد إيه بيحبه.

لحقته على الباب بعدما التقطت طفلها من سريره المسيج، وقفت تودعه وتحرك كف الصغير معها في تتمة لإكتمال الوداع العائلي، تعهدت سرًا ألا تجعله يومًا يندم على زواجهم، ستحارب لحفظ استقرار أسرتهم الصغيرة. ابتسمت لفكرة نسيانه مشاغل عقله وما يثقل كاهله ولو لدقائق قلائل.

***

تجول خلفها في أرجاء الشقة الخامسة لهذا اليوم، يتأمل تفاصيل قد تغفل عنها في فرط شوقها لبدء حياة جديدة مستقلة. يقدر علو الشقة بالنسبة للمباني المحيطة، واحتماليات قفز أحد اللصوص إليها، دلف إلى المطبخ يتأكد من نافذته، فتح بابه الخلفي المؤدي إلى سلم الطوارئ، ثم عاد للداخل حيث توسطت غرفة المعيشة تحدق حولها في سعادة.

سألها مهتمًا، يرصد صدق مشاعرها: عجبتك؟

ـجدًا جدًا.

ـمش صغيرة عليكِ شوية؟

هزت رأسها بعنف: لا حلوة جدًا، هأعمل بأكبر من كدا إيه، دي 3 أوض!

اكتفى بإيماءة من رأسه ثم انضموا إلى السمسار العقاري، استفسر منه: العمارة ليها بواب؟

أجابه الرجل الأربعيني: طبعًا، وإحنا نازلين ممكن أعرفك عليه، هو مقيم هنا، مع مراته، لسه متجوز جديد.

-والسكان مضمونين؟

-أه الحمدلله، معظمهم عايش هنا من زمان، وكلهم أسر.

أكد على كادي رغبتها في شراء الشقة قبل الخوض مع المسئول في تفاصيل التعاقد والدفع. هم بالخروج خلف السمسار حين أمسكته من ذراعه مشددة عليه: أنا اللي هأدفع الفلوس.

حدق فيها دون فهم؛ فأصرت: فلوس الشقة أنا اللي هأدفعها.

احتقن وجهه: إزاي يعني؟

توسلته: ياسين، أرجوك سيبني أعمل اللي يريحني، فلوس عندي، فلوسك أولى بجنة، عايزه أكون مستقلة.. أصلًا لما فكرت فـ الطلاق اعتبرتنا انتهينا وانفصلنا فـ كل شيء.

عادت ترجوه بعيونها وكل خلية بها، كادي التي قبلت شقة في حي لا يقطنه أثرياء، ولا يحتوي -على الأقل- حديقة خاصة، وطلبت منه الطلاق رغم خشيتها من المستقبل، وبحثها عن وظيفة. صارت كادي غريبة عليه، لكنها تستحق التنازلات لتحافظ على تغيرها.

***

انتفض واقفًا يتخلل شعره بأصابعه عنوة، يغدو ويروح، بدى كالملدوغ من كلمات أمه التي طرقات مسامعه، لا يمكن أن ما تقوله صوابًا، يستحيل.. من كان له قدوة!

من ركب ظهره وانتظر الحلوى التي يحضرها لهم آخر اليوم في إيابه!

من علمه كيف يصلي!، وتحمله فوق ظهره في السجود وحمله في الوقوف!

الشخص الذي كاد يجن حين كسر ساقه أول مرة ورغم هلعه رسم ابتسامة مطمئنة حاول هو تقليدها يوم سحبوا من ابنه عينة الدماء..

هذا الشخص هو نفسه الأخر الذي أخبرتهم عنه أمهم الآن؟؟ غير ممكن!، إنه ثامن المستحيلات أو حتى تاسعها.

ارتمت نجلاء إلى الخلف وعيونها متحجرة في الفراغ، تمتلئ بدموع لا تنفذ إلى الخارج، أخفت سمية وجهها بين كفيها تمنع عيونها من رؤية الحالة التي وصل إليها أولادها بعد معرفة الحقيقة. ترددت كثيرًا قبل قولها، ثلاثة أشهر من التردد، لو لم يكن على قيد الحياة لما نطقت عمرها، ليست بدناءة تلويث سمعة متوفي أمام أبنائه، لكنه يتمسك بالطريق الذي اختاره، لا يشعر بالعار لما آل إليه مصيره، عل معرفة الأبناء توقظه من سباته الأعمى والأصم.

-اتصلي بيه، خليه يجي حالًا.

أفاقت على نبرته المصممة، حدقت فيه بصمت تحول استشفاف حقيقة نواياه، عاد يصر ويكرر، إزدردت ريقها ولحمد الله وعت نجلاء من صدمتها وحدقت في أخيها معتدلة بجلستها: عايز منه إيه يا حمزه؟

صاح كأنه بالون ينتظر سن الإبرة لينفجر مطلقًا الضغط بداخله: عايز؟؟.. عايز أفهم ليه وإزاي؟؟.. أنتِ متخيلة إن كان ممكن فـ يوم تكوني مكان البنات اللي بيعمل فيهم كدا؟

التفت إلى أمه التي شهقت بعفوية ويحدق في نظرة الفزع بعيونها، لقد داهمتها الأفكار والظنون لكن أن تسمعه من فم ابنها في لحظة صراحة كان أمرًا يفوق التصور.

سخر: لإنها بنتك اتصدمتِ، وحياه مش بنتك فـ مش فارق معاكِ صح؟؟.. اتصلي بيه.. اتصلي بيه وخلصيني بالله عليكِ، وإلا قسمًا بالله ما هيحصل طيب.

غادرهم فور إتمامها الإتصال، جملة مقتضبة قالتها وأغلقت الخط «تعالى بسرعة، حمزه عايزك».

وقف في المطبخ تائهًا، لا يعرف لما آتى وماذا يفعل هنا.. علم سرّ تغير أمه وأصابته العدوى، حل ربطة عنقه التي تخنقه منذ الصباح لكنها إحدى شروط وظيفته وقواعد الشركة، الرجال يلبسون بذلات كاملة وربطة عنق معقودة بشكل سليم من أصغر عامل إلى أكبر مدير. في ماذا يفكر؟.. الآن تداهمه الشركة بتفصيلاتها المقيدة للحرية؟؟

د ق الهاتف، حدق في شاشته مخطوفًا، شعنونته تتصل، الهاتف يضيء ويطفئ في وجهه ينبهه إلى المتصلة، ازدرد ريقه وملّس شعره بكفه كأنها ستراه عبر الهاتف الصوتي، أجاب راسمًا بسمة على ثغره لا يعرف من أين أتت، سمعها تقول للصغير الباكي فجأة «صه»، كأنه سيطيعها يومًا. يتخيلها الآن تحمله على خصرها الأيسر تهزه بروية وعصبية في آن معًا ويمناها تحمل الهاتف مقطبة تحادثه: حمزه؟.. أنت لسه معايا.

-هأروح فين يا ماما شعنونة؟

تأففت بغيظ: هتيجي إمتى؟

احتله شيطان إثارة غضبها كما يبدو أنه يسري في دم صغيرهم: لحقت أوحشك للدرجة دي؟

صاحت به في قلة صبر اكتسبتها من بروده وصياح الصغير الذي لا يتوقف: مش ناقصة ظرافتك دلوقتي يا حمزه!، أبقى هات بامبرز وأنت جاي.

شهق ممثلًا الصدمة: يعني بتكلميني عشان البامبرز مش عشان تقوليلي I love you.

توعدته بعنف يحب وصولها إليه؛ معبرًا عن إنفلات أعصابها، متلذذًا بكل سعر حراري محترق خلال ذلك، يستحسن مصالحتها حين يعود.. بمفردهما: والله يا حمزه ما أنت داخل البيت إلا لو فـ إيدك البامبرز.. ما تقولش إني ما نبهتكش.

-أومال هاجي لابسه مثلًا؟

أطلقت صرخة كادت تفقده السمع ثم أغلقت الخط، أعاد الهاتف إلى جيبه باسمًا، حياه، حياته، شعنونته المحلاة بشعر مبعثر يثبت تطابق اللقب معها، زوجته التي عانت من تحت رأس والده وسيره خلف شرور الشياطين المحرضة على فساد الأرض ودمار الإنسان.

فقد البسمة حينما سمع رنين الباب، مسح على وجهه يستلهم الصبر ثم خرج لمواجهة لا مفر منها.

***

عرج بعد العشاء إلى مكان مهجور في أطراف البلاد، في الحدود بين سوهاج وأسيوط، في غمرة صحراء فارغة مبنى صغير من دور واحد يبدو كوحدة مراقبة

عسكرية، أوقف خلفه السيارة ذات الدفع الرباعي والتي لا يناسب غيرها الوصول إلى هذا المكان في عمق الصحراء المظلمة، ترجل الرجلين، سعدان ومعاونه خليفة الشيطان، اتجها إلى البناء الحجري.

تلفت سعدان حوله ثم أشار لخلف. قام الأخير بدوره، فرفع حصيرة من فوق الأرض قبل أن يضغط زرًا يلتصق بقاع فراش متهالك في أحد الأركان، انفضت كميات الرمال الكاسية لباب متحرك ارتفع واقفًا بشكل عمودي، نزل سعدان أولًا يلحقه الآخر بمصباح يضيء لكليهما موضع خطاهم.

زفر الصعداء بعدما التقط المصباح من خلف وأداره في المكان يتأكد من تواجد الشحنة الجديدة من الذهب والتي ستُهرّب إلى خارج قريبًا.

-أطمنت؟

أومأ بعيون متسعة في جشع تتأمل الذهب المكسو بالغبار والذي تزداد قيمته أكثر، ذهب الفراعنة القدماء. ما وجده في مقبرة لم يصل إليها بعد علماء الآثار.. ترك لهم المومياء وأخذ هو الذهب، أليس هو أولى من جدران متحف عتيق؟

مرت أشهر على وجوده هنا، مكان آمن وناءٍ، لا يعرفه سوى خلف وهو، حتى أنهما وثالث فقط من تولوا مهمة إخفاءه، يختفي لفترة حتى تغيب الأبصار عنهم ويتأكدوا من أمان خروجه ثم ينتقل إلى أيد مقدرة، مرسلًا إلى بلاد غريبة تدفع مقابله أطنان من العملة الخضراء.

غادرا كما حضرا. سأله خلف مركزًا على الطريق أمامه: خلاص نويت تسيب تارك مع عبدالرحيم؟

رفع حاجبيه مستغربًا: مين قال كدا؟

-أصلك خرجتهم من الحبس بعد ما طلع عيني فـ تدخيلهم، بعدها ما جبتش سيرة.

متمهلًا أجابه: سيبهم يفرحوا شوية، أنا عملت كدا عشان أبعد العين عنا لحد ما نخلص العملية اللي كنا أتفقنا عليها خلاص، ما ينفعش أبوظ شغلانه بملايين عشان تار بصباع رجلي الصغير أقدر أخلصه فـ ساعتها، دي تبقى اسمها غشومية لامؤاخذة.. حركة مبتدئ زيك يعملها، إنما معلم فاهم السوق كويس.. ما ينفعش.

-بس دول رجعوا يقفوا على رجلهم من تاني.

ضحك ضحكة مشبعة ببلغم يمتلئ به صدره من كثرة التدخين: ما هما كانوا واقفين على عشر رجول لما وقعتهم، دول كدا أضعف.. لساتهم على أول الطريق.

أكملا الطريق صامتتن، خلف يفكر في نسبته من هذه العملية التي وعده فيها سعدان بالزيادة، كيف سينفقها وفيما، يتوعد نفسه بزيارة إلى العاصمة حيث النساء الجميلات والمزاج العالي.

عقل رئيسه منشغل بإتمام الصفقة وتدبير خطة للتخلص من أخيه، حتى سلمى المرأة التي ظنها بلا حول.. قلبت الطاولة فوق رأسه، لن تذوق للرحمة طعمًا، مثلها كوالدها.

***

وجهه محمر من الإنفعال يكاد الدم يندفع منه، تتمسك بذراعه نجلاء باكية تمنع ذراعيه من الامتداد إلى والده، سمية تقبض على خصره بذراع وتربت على كتفه بالآخر تتوسله الهدوء، أحمد يقف في الجهة المعاكسة منهم، لا ينطق ولا يتحرك، فقط يحدق في ملامحه ابنه واهتياجه.

سأله بهدوء ثلجي: أنت متضايق عشان شغلي نفسه ولا عشان حياه أضرت منه؟

أوشكت عيون حمزه على الخروج من محاجرها غيظًا. صاح: حياه مجرد عينة من البنات اللي أنت عملت فيهم أسوء من كدا، يومين قضتهم فـ سجنك القذر وحصلها كل دا.. أومال اللي عايشين بقالهم فترة ويمكن سنين؟

ترجته سمية: يا ابني خلاص بالله عليك، دا مهما كان أبوك وما ينفعش تمد إيدك عليه.

تحشرج ساخرًا: أب؟؟.. هو دا أب؟!، أب كان بيعمل كل حاجه يقولنا إنها غلط وحرام، بيشتغل فـ الدِرا رغم أنه نبهنا إن اللي يتعمل فـ الدِرا عمره ما يكون صح.

ثار أحمد: بردو شايفني شيطان؟ أنتوا ليه كلكوا بتحاكموني على رد فعلي؟؟.. ليه ماحدش فيكوا فكر يحاكم الفعل نفسه؟.. يلوم السبب؛ لإنه لولاه ماكانتش النتيجة هتبقى كدا.

-سبب؟ سبب إيه؟.. الراجل الغني اللي أعماله مشبوهة وكان بيزن على راسك تبقى معاه؟.. ولا يكون قصدك زميلك شوقي المحامي المحترم اللي مشي فـ الطريق البطال وعداك بمراحل وأنت لسه فـ أول الطريق الصح؟.. ولا ليكون ألوم نجلاء عشان تعبت وعلاجه هيتكلف أكتر من مقدرتك وقتها؟

ازدرد ريقه مسترسلًا: اللوم عمره ما هيكون غير ليك، فاكر إني منزه؟ ما اتعرضتش لاختبارات؟.. ما اتعرضش عليا رشوة؟.. أحب أقولك إنك فاهم غلط، أتعرض عليا كتير، وفـ فترات كانت هاجر بتضغط عليا عشان مصاريف الجواز والطلبات، ومع ذلك رفضت!؛ لإني فاكر كلامك يا رجل القانون المحترم، وكلام أمي عن المال الحرام.. دا كان لإني ملاك؟، أبدًا.. لإني واحد قررت أخد الطريق الصح مهما كانت النتيجة، وأتحمل عواقبه، إني أنفذ أوامر ربنا وأمشي على نصايح زرعتها فينا أمي.. عمر الفعل ما بيتحاكم؛ لإنه متكرر، اللوم وكل اللوم على رد الفعل؛ لإنه متباين!

سحب نفسه من بين أذرع المرأتين، تراجع يجلس فوق أحد المقاعد، لم يتخيل يومًا أن يقف أمام والده منقلب الأدوار، هو حاكم والأخر ظالم، أب كان يحول عيوبه ميزات بنظرة طفل ولهة مبجلة، أحمد قليلًا ما كان يتواجد حولهم، مدعيًا الانشغال في القضايا وتوفير المصروفات المتزايدة، لكن حين يظهر ويجالسهم كل فترة، يتعلق به، يتشبث أن يكون جواره في كل لحظة، يتنقل كظل خلفه في أرجاء المنزل، يسد أذنه عن سخرية نجلاء من «حبيب بابا» أو «شبح البابا».

الشيء الملموس من أفعال أبيه الشائنة هو حياه، لقد حول حياتهما إلى صفيح ساخن، يرى في عينيها الألم وقلة الحيلة التي لا تختلف عنه كثيرًا، كم مرة أصغى لبكائها ليلًا بجواره حين تظنه يغط في النوم؟، كم مرة لامها وعاتبها في ذهنه، أدانها وحاكمها؟

حياه كانت رد فعل على فعل أبيه، وهو أدان الرد لإنه لم يستطع الوصول إلى الفعل، أما الآن.. فالفعل أمامه ولكنه عاجز عن مقاضاته، أخذ حقها، فمهما فعل لن يستطيع محو ما حصل من ذاكرتها. أتى والده أولًا ليقصمها ثم أجهز هو عليها بعد ذلك بإدانته الدائمة، إما في وجهها أو بذهنه منتبذ عنها.

«آه يا حياه، ماذا ستكون ردة فعلك إذا وصلك ما عرفت، وحقيقة أبي التي كنا عميانًا عنها؟»

سألته نجلاء باكية، مكسورة الفؤاد: والفلوس اللي المفروض إنها ورث.. بردو من مال حرام؟

-لا، دي الفلوس اللي جمعتها من القضايا، مالهاش علاقة بفلوس الشغل التاني.

إلتوت شفتي سمية عاقدة ذراعيها: شلت المال الحلال لينا، والمال الحرام -يا عيني- أنت اللي هتتحمل تصرف منه.. مش كدا؟

صرف أحمد نظره بعيدًا عن زوجته، نفخت الابنة بقوة وقد ارتاح كتفها من ثقل آخر: الحمدلله، يعني فلوس الدار من فلوس حلال.

ضربتها فكرة أخرى فركزت بصرها على والدها من جديد بقوة أشد: بس فلوس مشروع فادي؟

مال فمه بقلة حيلة وسخرية مبطنة: دي بقى...

أكملت صمته بما نضحت به نظرته، انهارت على ذراع المقعد تحدق أرضًا وتهمهم لنفسها أكثر لمن حولها: المشروع اللي عمل مشاكل بينا، واللي عيشني فـ حالة نفسية زي الزفت، وفكرت أكتر من مرة فـ الطلاق، و....

تأفف: الحياه كلها مشاكل، وما تحاوليش ترمي غلطك فـ التعامل كزوجة على أنه مال حرام، عشان تبرري لنفسك.

سحبت حقيبتها من فوق الطاولة واتجهت إلى الباب صائحة: أيوه، مش غلطه لوحده، غلطي أنا كمان.. بس هيفضل بردو مال حرام، مهما حاولت تتهرب من الحقيقة دي وتداري عليها؛ فهو مال حرام، حراام.

صفقت الباب بشدة خلفها، ترجت سمية من ابنها اللحاق بأخته، لا ترغب أن تعود للمنزل وحدها في هذه الحالة، مدّ خطواته لاحقًا بها وهو يتوعد أحمد: أنت ميت.. ودي حقيقة مش هتتغير فـ نظرنا، وياريت ترجع مكان ما جيت، مش عايزين منك حاجه.

أوشك على المغادرة، لكنه عاد وحثه على السير أمامه، رافعًا حاجبيه بأمر: اتفضل مع السلامة، والدتي ست أرملة وما ينفعش تقعد مع غريب لوحدها.

أغلق باب الشقة خلفه ثم أسرع على الدرج بحثًا عن شقيقته، تسمر أحمد مكانه مصدومًا لكن لم يطل الأمر فأخفى وجهه أسفل القلنسوة ودفع قدميه للسير.

***

ارتمى فوق الأريكة ذات المساحة الكافية لشخصين مغمضًا عينيه في إرهاق، يستمتع بظلام الشقة؛ دون تكلف عناء إشعال الإضاءة، جلس بروية على مقعد مجاور لصديقه محمود، يتلاعب بسلسلة مفاتيحه وعيونه مركزة عليها، سمع حديث زين اللاهي بآذان فارغة: يااه، الواحد طلع عينه إنهارده.

رفع كتفه الأيمن بلا مبالاة: وإيه الجديد؟.. ما إحنا جايين هنا عشان نتمرمط .

حرك سبابته محذرًا: مرمطة مرمطة، المهم دا دورك تعملنا حاجه تتاكل.

هب محمود على ساقيه مطوحًا سلسلة مفاتيحه في الهواء ثم التقطها من جديد أثناء اتجاهه إلى الباب، أطلع صديقه ساخرًا: لا يا صاحبي، هتقضيها دليفري؛ عشان خارج.

رفع رأسه من استرخائها وحاجبيه يكادان يلامسان منابت شعره، استفسر متعجبًا: أنت ما بتتهدش يا بني؟.. بعد اللف ونشفان الريق طول النهار لسه فيك حيل تدور على مكان تسهر فيه؟

-احسدني احسدني.

اعتدل بجسده متحدثًا بجدية: أحسدك على إيه؟.. أنت فـ خيبة، اللي بتعمله دا غلط وحرام، يا ابني أومال متجوز ليه؟؟

إلتوت شفتيه فيما عيونه تشرد بعيدًا: عشان تبصلي بقرف وتنكد عليا.

أنبه: ما تظلمهاش!

-ولّا أظلمها، ما بقتش فارقه، الكل شايفني المجرم والجاني، حتى فـ حقوقي لما أطلبها بقت عايزه تدهالي منة وشفقة، أكن اللي خلقها ما خلقش غيرها.

مالت شفتي زين بسخرية: هبلة، فاكره إن بيهمك إذا كان الموضوع فـ الحلال ولا الحرام، ما تعرفش اللي فيها..

أيده: بالظبط، مش أنا اللي واحدة تلوي دراعي.. عن إذنك بقى لأحسن عرفت حتة مكان جديد بس إيـه، فرز أول.

قبل أن يفتح الباب سأله متأكدًا من عدم جدوى محاولاته: مش بتفكر تيجي معايا؟

رفع كفه حائلًا بينه وبين أفكار صديقه الملعونة: لا يا سيدي، حد الله، أنا عندي 3 من الحلال وطالع عيني.. وأسماء بشعرة فـ دماغها، مش ناقصني وش عيل ما أعرفش أمه مين ولا غيرة نسوان.. عايز أرجع أرتاااح مش أفتح موال!

غمزه ضاحكًا باستهزاء فيما يغلق الباب خلفه: يعني أسبابك مالهاش دعوة بالحلال والحرام يا شيخنا.

همس زين بوجه متصلب بعد إختفاء محمود خلف الباب المصفح: ما عشان دي مش طريقة تفكيرك يا صاحبي.. يمكن دا يفوقك من الدوامة اللي رميت نفسك فيها.

أخرج هاتفه من جيبه يعبث به، فاتحًا تطبيقًا للتواصل الإجتماعي يراسل زوجته متسليًا أثناء تغييره لملابسه وإعداد وجبة سريعة تسد جوعه، قبل أن يقضي ساعة إضافية في حديث شفهي ينتهي بنومه ومحادثتها لنفسها، محاورة تتنقل بين ما أحرزوه من تقدم وما فعله الأولاد من شقاوات لا تنتهي.

***

تربعت بجانب مي فوق الأريكة تراقبان حلقة جديدة من مسلسل المساء المفضل، عادة نسائية اتفقت مع ابنتها بلا كلمات على المحافظة عليها، بينهما استكان طبق

صغير من الفشار؛ تتناوله الصغرى وحدها. بعد دقائق من المسلسل حانت منها لفتة بسيطة إلى ابنتها جذبت انتباهها.. شاردة؟ فيما؟

ميّ تغيرت، تصرفاتها تحمل بعض العصبية، السرحان زاد أثره عن المعدل الطبيعي وصمتها عاد مما أقلقها، ميّ كانت تميل للثرثرة أحيانًا؛ كحاجة خفية للتعويض عن صمت امتد لأعوام.. إذًا فقلقها بالتأكيد طبيعي..

-في حاجه يا ميّ؟

تأففت الصغيرة دون حاجة ونهضت ترتدي خفها المنزلي بلونه الأبيض: أنا داخله أنام.

ارتفع حاجبيّ حنان في غفلة منها، بماذا أخطأت؟ أو حتى ماذا فعلت لتتصرف بتلك الغرابة؟، حدقت في الشاشة بغية سحبها من دوامة التفكير الذي سيتلف أعصابها بلا داع، ميّ طفلة وعلى أبواب المراهقة، تصرفاتها طبيعية، هي فقط تبالغ، مبالغة الأمهات الطبيعية.. وحسب.

***

«هبلة» كلمة تكررت في صدى مدوٍ بين أركان عقله، يجلس وسط رجلين يتمتعان بتدخين سيجار وراء آخر مكونًا سحابة دخانية فوق رؤوسهم، الطاولة مكدسة بالزجاجات الفارغة

والعلبة المعدنية ذات المفعول المسكر الأقل شدة، تتناثر فوق الطاولة أطباق المقبلات والمزّه، يلتقطون بعضها كل عدة رشفات ونفث من الدخان.

ذهنه يبتعد عنهم ويفكر في زوجته، عائشة، انقلب حالها، رأى فيها تصميمًا لم يره قبلًا، قد يكون رآه.. لكن في أمور أقل أهمية فيرضخ لإنه لا يهتم، أما الآن فأصبح

إصرارها لا يطاق، عدم مغفرته لحياه وتصرفاته أثارت ريبتها.. وأنتهى الأمر، لن تترك الموضوع يرتكن فوق أحد الأرفف متابعين حياتهم إلا بعد أن تعرف، وهي لا يجب أن تعرف!

ماضيه أحيط بسور عال وغُطي بأسلاك شائكة، ممنوع الاقتراب أو محاولة طرق بابه، ماض لا يرغب أن يراه أحد، هو نفسه يمقت ذاته القديمة، عزة نفسه ترفض أن يطلع غيره على هذا الماضي.

شرد في حياه وتعامله معها، أهي غيرة منها؟ من قوتها؟ من أنها أنثى؟.. بلى، اعترفت أمام نفسها قبل من يهمه الأمر بغلطها، والده لا يعلم أو يدعي ذلك، لكن بالنهاية هناك من يعلم وهي لا ترهبه، اعترفت بخطأها وكرست ذاتها لنسيانه وتكفير ذنبها.. هو لم يعترف، حتى الآن لم يعترف، يخشى المواجهة التي خاضتها أخته الأصغر بشجاعة يفتقدها.

يحسدها على أنها أنثى؛ هي بالنهاية ضحية.. أما هو فسيكون الشيطان، الجاني، نهايته تشبه نهاية شادي، ملقى أرضًا يتدافع الدم من حوله ويلفظ أنفاسه الأخيرة ثمنًا لغلطة لم تغتفر.

أهناك فرصة لحرق الماضي بأكمله؟ التكفير عما به، لم يفكر به يومًا حتى قابله متمثلًا بأخته، عرضه وشرفه، حينها عاد يطرق باب فكره بعنف مستهزئًا، يسخر منه قائلًا بشماته: «أتظنني سأتركك هانئًا مدى الحياة؟ لقد حللت عن رأسك فترة لأعود ولا أخرج سوى بشيء حاسم!».

مسح على رأسه ذات الشعر النابت، يتجرع بيده الأخرى نصف الكأس الذي بيده، مغمضًا عينيه محاولًا التركيز على مزازته الشهية بتوافقها مع أفكاره ذات المرارة.

-صحيح إن العالم قرية صغيرة زي ما بيقولوا.

رفع بصره بلا مبالاة لتصدمه هوية محدثته، حدق في وجهها مطولًا، يكذب ذاكرته بربطها بنفس المرأة التي عرفها سابقًا، ترك بصره عيونها المليئة بالكره المخلوط بسخرية مريرة، شعرها الأسود المبعثر باحتراف فوق كتفيها شديد النعومة، ثوبها القصير لم يصل إلى ركبتيها وأكتافه الشبه ساقطة، أكمام طويلة وصلت لمعصميها، قماش الثوب مغطى بقشور سمكية تلمع بالذهب، بريقه يخطف بصره بل يكاد يعميه، فتحته العلوية الطويلة مع اتساع تبرز استدارة صدرها وإكتمال قدها الفتان.

عوضًا عن التنورة الواسعة حد إضاعة أمتارًا من القماش بلا داع، والقميص ذو الأكمام الطويلة، بالكاد يظهر أنها بجسم مثال ولا تمتلك أي زيادات دهنية، صورة مخالفة لما اعتاد رؤية جسدها ملفوفًا به. مكياج كامل أبرز ملامحها ومنحها سحرًا إضافيًا.

راقب وقفتها فوق الكعب شديد الإرتفاع وأنصت إلى دبدبته فوق الأرضية الرخامية رغم ضجيج المحيط.

قطعت شروده متساءلة بخفة: مش هتعزمني على حاجه؟

لم تنتظر رده وأشارت للنادل فاقترب بمشروبها المفضل. جلست جوار محمود تقاوم ذكريات لا تفعل شيئًا في الحياة سوى الهرب منها، دارت تمور قلبها في رشفة من المشروب، رفعت رأسها بعدها تحدق في ملامحه تقارنها بماض بعيد، ليس كثيرًا.. فقط تسع سنوات وسبعة أشهر وأحد عشر يومًا و.. بوقت قبل الآن بسويعات.

-ما اتغيرتش كتير.

بوجه واجم أجاب مسايرًا: بس أنتِ اتغيرتِ كتير.

ابتسمت بوجع قديم لم يندثر، تردد كلمات أغنية تضج بها خلفية الملهى: الدنيا ماشيه بضهرها وحطت عليا.

باغتته فجأة بوجه فقد كل تعابيره إلا البرودة: اتجوزت أهو.

أدرك تلميحها لحديث دار بينهما في آخر مرة قبل تسع سنوات تقريبًا أو عشر، على عكسها.. هو لا يذكر: أيوه، وعندي محمد ومصطفى.

-ما شاء الله، كتير لواحد كان بيكره الأطفال.

-مافيش حاجه بتفضل على حالها.

أدارت الكأس بين أصابعها بأظافرها المطلية باللون الداكن ملائمًا لثوبها، ردت بشرود متابعة حركة الكأس في يدها: صح، مافيش حاجه بتفضل على حالها.

تأملها مرة أخرى رغمًا عنه وسألها: أنتِ بتعملي إيه هنا؟

أجابته رغم إنغماسها في ذكريات بعيدة: تقدر تقول.. صاحبة هنا.

التفتت إليه فجأة مبتسمة: فعلا أنت ما اتغيرتش، بردو بتروح الأماكن اللي زي دي.. أنت أول مرة تيجي مش كدا؟.. ما شوفتكش قبل كدا.

-فعلًا.. أول مرة.

استرسل مركزًا: إزيّ خالك؟

حدقت في السائل الذهبي المتبقي بقاع كأسها تضحك بشرود مجيبة قبل أن تتجرع البقية: هو لسه عايش أصلًا؟.. لو شوفته ابقى وصله سلامي.

قطب: أنتِ ما بتشوفيهوش؟.. مش كنت عايشه معاه؟

هزت كتفها بلا مبالاة: ما شوفتوش من يجي خمس ست سنين.

وهكذا المرأة.. تتذكر ما تريد، وتنسى –أو تدعي نسيان- ما لا تريد. لاحقتها نظرات رامز من بعيد في غيظ، أمضت أكثر من ساعة تتحدث وتشرب حتى بدأت معالم السُكر بالظهور على تصرفاتها ولو من مسافة، أشار لأحد النادلين وأمره بإحضار نيفين إليه، نفذ النادل الأمر طائعًا.

التفتت إلى محمود بعدما سمعت الأمر: الشغل يناديني.. عن إذنك بقى.

شبه وقفة، ليست بجالسة أو واقفة، أمسك معصمها وأعادها إلى وضعية الجلوس: خليكِ.

مال رأسها جانبًا تحاول استعادة بعض الوعي قائلة بسخرية: هتدفع؟

كز على أسنانه مومئًا: اللي تعوزيه.

رفعت بصرها إلى النادل وهزت كتفيها كأن ما باليد حيلة: سمعت؟.. دا بردو شغل.

فهم النادل فانسحب يخبر مرؤوسه بما حدث، صرفه رامز مغتاظًا وعينيه لا تحيدان عنها وجلستها مع هذا الشاب، أحمد غائب وإن حضر فتركيزه ينصب على العملية الجديدة ذات الأهمية الأعلى من إدارة ملهى ومومسات، ما رابه.. هو معرفة الجالس، شقيق حياه الأكبر، رأه في المشفى صدفة حين حضر، وقت تمثيلية الموت وإنهاء الإجراءات لذلك. تمنى أن تمر الليلة على خير، يكفيه اختفاء أحمد حتى الآن دون خبر. لعن بصوت مرتفع متجهًا إلى مكتبه، تبًا لشوقي، فتح عليهم بابًا لن ينسد، وفي توقيت لعين.. غير مناسب البتة.

راقب توجه نيفين برفقة محمود إلى الباب الخارجي، زفر بيأس، وأغلق باب المكتب مع إنغلاق الباب الأمامي خلفهما.

***

دفع الباب بيده المتمسكة بالمفتاح داخل قفله، رفع عينه وتباعد حاجبيه من منظر حياه المتخصرة وإحدى قدميها تصفع الأرض بوعيد مرفق مع كل رنة لحذائها المنزلي على الأرضية، حاول تدارك الموقف واستغلال الفرصة للهروب من أفكاره.

رفع ذراعيه كمجرم يستسلم لشرطي، وقد تدلت حقيبة حفاضات الأطفال من إحدى يديه، قال بهزر: آسف يا بيه، اتفضل البامبرز يا باشا.

كزت على أسنانها مغتاظة: لسه فاكر إن ليك بيت وله طلبات؟.. الساعة إتنين بعد نص الليل يا حمزه!

نفخ بتعب واتجه إلى مقعد مريح يلقي فوقه ثقله وثقل الساعات الفائتة لاحقة.. نجلاء

وجلوسه معها منفردين لفترة يتحادثان، ينعيان أبًا كان لهم المثل العليا، يدفنانه من حياتهما بلا رجعة. أبٌ ضاع ولن يعود.

تحمل نظرات وتحقيق فادي معه عما حل بزوجته، وتأخرها حدًا لم تصله قبلًا، أفلت من تحقيق أجراه على أمه إلى تحقيق مع والده ثم آخر مع فادي والآن حياه تأتي لتكمل قضية لن تعرض أمام المحكمة ولن يراها قاض في حياته.

شعر بكفوف حياه الرقيقة -رغم مداومة غرقها بالأعمال- تستريح فوق كتفيه ثم تبدأ مهمة إراحته وتخفيف تشنج عضلاته التي لم يشعر بتيبسها إلا الآن.

همست في أذنه بحنان متناسية ضيقها نتيجة تأخره: شكلك تعبان أوي يا حبيبي.

لم يقدر على إصدار أكتر من هزة صغيرة برأسه، قبلت جبينه فاستشعر بسمتها الحانية: أحمد نام، روح بص عليه عقبال ما أحضرلك العشا.

-ماليش نفس.

دارت كي تجلس قرفصاء أمامه بينما تغمزه: خلاص أطمن عليه عقبال ما أحضرلك اللي ينسيك تعبك.

حدق فيها كإلابله، يراها ولا يراها، بسمتها المليئة بالعاطفة وعيونها المشعة بالحب والشفقة على تعبه، شفقة مقدرة ليست تلك التي يمقت لمحها وإن لغيره، ملاكه الجالس أمامه والده كان سبب اغتياله، عصفورة قُصَّ جناحيها بغية حرمانها من حقها في التحليق ورؤية الدنيا من فوق بين السحب، أبوه أذاقها الهوان وهو – الابن- يتشرب من بقايا روحها الحلوة، ونفسها الصافية، يغرف السعادة منها بكل أنانية، أهذا عادل؟ أم هو الظلم بعينه؟ نهض هاربًا منها ومن أفكاره متمتمًا: هأروح أطمن على أحمد

تقدم من سرير الصغير بالغرفة المعدة له خصيصًا، أكتفى بالضوء الذهبي المنخفض المضاء لونس الصغير وقتما يستيقظ؛ فيقل ارتعابه، راقب حركة شفتيه كأنه يستلذ بمذاق طعام أكله، ابتسم، يراقب حركة يديه في الهواء كل برهة، وقدميه تحاول التحرر من أسر الغطاء،

تمنى أن النجاح في فك قيوده كصغيره الذي أزاح الغطاء أخيرًا، على مضض أعاد فوقه أسره ولثم جبينه وانصرف.

تعرقلت خطواته وانفرج فمه دون وعي، حدق حوله يراقب ما فعلته حياه بالجزء الخاص بالسفرة في وقت قياسي، صفت الكراسي بجوار الحائط بعيدًا عن طريقهم، تعرى الخوان من المفرش المزين له وطبق الفاكهة، رائحة عطرة فواحة، جميلة وممتعة لحاسة شمه كذلك تغمره براحة واسترخاء شديدين، إضاءة خافتة وموسيقى ناعمة.

ظهرت جواره فجأة من حيث لا يدري؛ استغرقه التأمل حتى نسي التفكير في مكان تواجدها. ساعدته في نزع قميصه ووضعته فوق السترة التي خلعها قبل دخوله إلى

غرفة ابنهما، انتظرته ينتهي من نزع حذائه وجواربه ثم أشارت له بصمت حتى يصعد فوق الخوان العاري، نفذ بترقب، يحاول استشفاف ما تنتويه.

غابت عنه لحظات، تمدد هو خلالها على بطنه ووجنته تستند لخشب الطاولة البارد، الجو المحيط بثّ داخله استرخاء يتلمسه منذ وقت، ويحتاجه بشدة، اسدل جفنيه واستسلم لمزاجه الرائق، لحسن حظه ودعاء أمه.

رائحة نفاذة، وسائل دافئ شعر بتسربه فوق بشرة ظهره، وأيدي ناعمة ابتلالها زاد ليونتها، حركات منتظمة، بطيئة، مدروسة، نقلته لعالم آخر، تنهد بخفة تاركًا جسده وروحه ينسحبان للعالم الذي خلقته حياه من أجلهما، عالماً قد لا يستحق الاستمتاع به لكن حتمًا سيفعل، بل سحقًا له إن لم يفعل.

رائحة ذكية، بها لذوعة؟، لا بل خلابة، أهي تنتمي لزهور أم أسماء معقدة لا يعلمها، سألها عما تدهن به جسده وبعث الانبساط في عضلاته، أجابته بصوت هامس، كأنها تخاف من كسر الهالة الساحرة المنصوبة من حولهما، حتى صغيرهما رهب كسرها ببكاء أو حاجة ما: خلطة سرية، سر من أسرار المهنة.

التفت واستند على كوعيه يطالعها، يتأمل ملابسها المستبدلة، داعب بأصابعه طرف حزام الزي الياباني المعقود، ابتسم: حلو الكيمونو اللي بيتربط من قدام.

هزت كتفيها بلا مبالاة جالسة جانبه فوق الطاولة الخشبية، مثنية السيقان تتابع تقربه منها في كبرياء متدلل راق مزاجه وهذا مرادها، رفع أصابعه لتلامس خصلاتها المنفلتة من العصيان المتعاكسة داخل شعرها في محاولة بائسة لجمعه دون تمشيط: أما دا بقى..

مال عليها يسحب العصي من رأسها سامحًا له بالتحرر؛ فسقط متمهلًا يحافظ على بقايا تبرمه: فـ حلو جدًا جدًا.

مدت ذراعها إليه: أمسك إيدي، بس امسكها كويس.

فعل يكتم قهقهة وهو يراقب ميلها من على أطراف الطاولة للحظة عادت بعدها تضع جواره كوبًا ثم هبطت تحضر كوبًا مطابقًا، أفلتت يدها من إحكام قبضته تتناول الكوبين، قدمت له أحدهما واحتفظت لنفسها بالآخر فيما تدور حول نفسها لتجلس جواره تمامًا.

حدق بمحتوى الكأس في بلاهة، أجابت استفساره الصامت: لبن حليب متصفي من القشطة ومتحلي بالعسل الأبيض وعليه معلقتين عصير كرز.

دون أن يزيح عينيه عن كأسه ردد: عسل أبيض ومعلقتين كرز.

رفع بصره إليها وحدق كأن الجنون تشكل بها وقرر مجالسته: هي المدرسة الساعة كام يا ماما؟

حاجبيها انعقدا ببلاهة معدية: مدرسة إيه؟

حمل الكوب بسائله الأبيض بإحمرار باهت أمام عيونها: دا مشروب واحدة لجوزها يوم الخميس؟.. دا لو عملتيه لابنك هيسيبك ويطفش!

هتفت: ما هو عشان إنهارده الخميس قولت تشربه.

قطب، هبط نظره إلى الكأس، يميله يمينًا ويسارًا، كأنه ينتظر منه اعترافًا بالنوايا الخفية لزوجته، أتكون حياه تطورت واختل تفكيرها الأخلاقي؟.. مشروب الزوجية، هذا الأبيض المشرب بحمرة خفيفة هو مشروب الزوج ليلة الخميس؟

دفعته للخلف حتى يعود إلى الاستلقاء الكامل على ظهره بعدما تناولت من كفه الكأس الذي لا يجيب، نامت فوق صدره تضمه من خصره: أنا هافهمك، إنهارده الخميس، وبكره الجمعة.

سخر: أكيد طبعًا.

-وأنت ما عندكش شغل، أجازة.

زم شفتيه بملل: وبعدين؟

شددت من ذراعيها حول خصره: أنت بقالك فترة هلكان، ومجهد على طول، قريت إن الكرز بيساعد على الاسترخاء ويبعد القلق، ويخلي الواحد ينام مرتاح بدون أرق ويستفيد من فترة نومه كويس، دا لو اتشرب مرة أو إتنين فـ اليوم، والعسل باللبن بيحارب الأرق.

أشار إلى الكأس المركون بسبابته: يعني عايزه تفهميني إن البتاع دا عشان يخليني أنام؟!

ابتسمت بفرحة طفولية زادت غيظه: أيوه، بكره مافيش شغل، ونام لحد ما أنت تحب.. عهد عليا أبعد أحمد عن الأوضة خالص.

-عايزاني أنام ليه يا حياه؟!

-عشان ترتاح يا قلبي.

نهض جالسًا، نظر إليها بأعين جاحظة، مدّ يده إلى كوبه وارتشفه دفعة واحدة، ضرب الكوب فوق الطاولة بشدة حتى شكت بانكساره، تراقبه ولا تعي ما حدث لهذا الإنفعال الغير مبرر، قال أخيرًا فيما يبتعد إلى الرواق: روحي نامي يا حياه مع ابنك، ما تجيش الأوضة.. أصلي هارتاح وأنام بعرض السرير.

هبطت من فوق الطاولة تلملم ما خلفته من تجهيزات من أجل راحته، اطفأت الأضواء بعدما تأكدت من عودة كل شيء إلى مكانه، اتجهت إلى غرفة صغيرها تطمئن على نومه وفي يدها حصتها من الحليب المحلى بالعسل والمنكه بالكرز، ابتسامة خفيفة شكلّت ثغرها.

دارت في اتجاه السرير المنزوي بالغرفة، رفعت حاجبيها وأكملت توجهها إلى الفراش تضع الكأس فوق الكومود الصغير بجواره: عايز إيه؟.. مش قولت هتنام لوحدك فـ الأوضة بعرض السرير؟

راقب نزعها للغطاء وإندساسها بالفراش الضيق عاقدًا ذراعيه: قولت حرام أحرمك مني إنهارده.

التقطت الكوب بعدما استكانت أسفل الغطاء، ترتشف منه فيما نظرها معلق به، ارتدى منامة عوضًا عن ما تبقى عليه من بذلة العمل: إشمعنه يعني؟

نهب المسافة الفاصلة بينهما في خطوتين أو ثلاث، دفعها وانكمش جوارها فوق الفراش المسنود على الحائط، لولا ذلك هي على يقين تام أنها ستكون افترشت الأرض، ما زال بعضًا من جسده معلق بالهواء: فدار يجلس على جانبه، سحب الكوب من يدها: طب أعزمي!

أعاد لها الكوب بعد رشفة: ما هو ما كانش عاجبك.

غمزها بشقاوة وقبل وجنتها المقابلة له: إزاي بس يا شعنونتي؟.. كفايه إنه من إيدك.

مسحت خدها في غيظ بأكمام الكيمون الذي ترتديه، صاحت به مغتاظة: إيه شغل العيال دا يا حمزه؟؟

رسم البراءة على وجهه، مدعي عدم التقصد في ترك آثار الحليب فوق بشرتها: هو بمزاجي يعني يا شعنونتي؟

أنهوا الكوب، رشفة لكل منهما على التوالي، ألقى بعدها برأسه وثقلها فوق صدرها ينعم بالاستماع إلى دقات القلب النابض أسفل ضلوعها، غرور ذكوري تملكه، هذا

القلب ينبض بحبه وله فقط، لن يستمع غيره إلى خفقاته و يترجم لغته كما يفعل، أبدًا لن تكون سوى له.

ناما سريعًا، رأسه الثقيل بما يدور داخله في صمت وجد راحته ومسكنه، أصابعها مدفونة بين خصلات شعره، بلا راغبة في الإنفلات، لا صوت أو همس، فقط أنفاسهما المنتظمة ونغنغة الصغير بين فنية وأخرى.

***

السيارات تمر رغم دنو الفجر، أقل من الصباح لكنها ما زالت تبعث ونسًا وسط الظلمة والإنعزال. يجلسان على مقعد مقابل النيل، يكاد يجزم أنه يسمع صوت حركة مياهه كلما طالت نغمة الصمت، إضاءة مصفرة باهتة من الأعمدة الموزعة بطول الرصيف تسمح له برؤية القليل من مجالسته، يحدق بها منذ ساعتين أو ثلاث.. أكتفى من الحساب، تغيرت عن «نيفين» التي عرفها يومًا، أو أنه حقًا لم يعرفها؟..

متى كان شعرها أسودًا بلمعان وبريق يخطف العيون، كان دائمًا ـرغم نعومته التي ظل محافظًا عليهاـ باهتًا متقصفًا، لا يستطيع إنكار إنجذاب عيونه إلى مظهره الراقي، يأثر نظراته أغلب الوقت، كلما التفت شده ليعاود التحديق بخصلاته، رموشها الصناعية والطويلة حد إشعار المبصر بالحنق، وحكة في يده تحفزه على نزعهما عن جفنيها.

هبط نظره إلى أظافرها المنبسطة فوق المقعد بينهما، مشذبة بعناية ومطلية بلون ناسب لون بشرتها كما ثوبها.

جميلة.. دائمًا وأبدًا لن ينفي.. ظروف معيشتها كانت سببًا رئيسيًا في حالتها التي يذكرها، خال مهمل، عنيف، لا يهتم إلا بنفسه، أنانيته لم توصله إلا إلى الزواج خمس مرات دون إطالة، زواج يعقبه طلاق ثم أشهر فتأتي الزيجة التالية.. هكذا

دواليك؛ حتى مل من الفكرة وقرر أن يحافظ على حريته بلا تذبذب بين أسرٍ وإفراج، يصرف المال على ملذاته، بالكاد يطعم ابنة أخته، الوحيدة الباقية له من صلات الدم.

تعرّف إليها أثناء سعيها خلف وظيفة ما، يجب عليها إحضار المال لتعيش، وتمنع غضب الخاصل عنها، كانت صدفة لا يذكر تفاصيلها.. فقط أنهاأحدخلت حياته، تسعى خلف وظيفة ساعدها في نيل إحداها بتوصيات شفهية عن ماذا تقول وكيف، وما يناسبها وما لن تقبل به أبدًا. وهو ينهي بعض الأوراق ويتمها، تلكأ أيامًا -أكثر مما ينبغي-، يقابلها كل يوم بعد العمل بساعة وأمام الخال فإن عملها يستمر حتى نهاية اللقاء، ساعة زائدة تهرّبها من تحت خناقه حولها وعزله إياها عن العالم الخارجي.

بعد أشهر تقدّم لها، وحده، بلا أهل، أب، أخت.. فقط وحده، يثبت سلامة نية لم يكن يحملها، منزل عبارة عن جدران من الطوب الأحمر، فارغة، أخذها إليه تلقي نظرة

وتحدد ما ترغبه بها، خال اكتفى بمعرفة مكان الشقة ثم لم يهتم، وهي وحيدة وستظل كذلك إلا منه، دائمًا ما رددتها، لا يعرف أله أم لها.. كان هذا الترديد دائم حد السأم، ما يعرفه أن ذلك لم يجعله يشفق عليها أو يعيد حساباته، مل عمل هو حديث العهد به وقرر التسلي على مشاعر امرأة، مشاعر هي تذوقتها للمرة الأولى و.. أكانت الأخيرة؟؟

نال ما أراده، تدور وتدور بتنورتها الواسعة التي تشبه رجل التنورة في الموالد، شعرها المتقصف والباهت يدور منيرًا على حين غفلة يعكس فرحة داخلية، تنقلت بين الغرف، غرف عبارة عن حوائط من طوب لم يغطها المحارة بعد، ترسم هنا المطبخ، وهنا الثلاجة، بل هنا دولاب الخضراوات، يوضع السرير هناك أما خزانة الملابس ستكون بأقصى اليمين، وهكذا حتى فقد القدرة على تتبع كلماتها، ينظر إليها ويحدق بها، يقترب فجأة و... حدث.

ابتسامة، بسمة صغيرة اتسعت رويدًا، أول فعل تمارسه منذ جلسا في هذا المكان وهذا التوقيت، همست كأنها نسيت مع من تتحدث: كنت على طول بأجي هنا، بأخد ساعة بعد المدرسة أقعدها وأرجع أقول لخالي اتأخرت عشان جيتها مشي، كان بيفرح بتوفير تمن تذكرة الأتوبيس، ينسى إني حتى لو جتها مشي مش هأحتاج الوقت دا كله.

التفتت تنظر إلى معالمه محافظة على بسمتها، واسترسلت: ماكنتش أول حد أزود ساعة على مواعيدي عشان أقابله.

قطب. نهضت تقترب من السياج العالي، استندت على سوره وحدقت في السماء المفتوحة بلا نهايات أو بدايات مكملة: كنت بأقطع ساعة أقابل نفسي، اتعرف عليها، ماكنتش بأشوفها غير هنا.. وأي مكان إلا هنا بيبقى مش أنا.. مجنونة؟ يمكن، بس دايمًا كان إحساسي إن نيفين هنا وغير هنا هي واحدة اسمها نيفين بس مش نيفين أنا.

مفعول الخمر!، متأكد من ذلك، لكنه لم يجرؤ على المقاطعة، تابعت لا تبالي بتفكيره: بعد ما سبتني فضلت أجي هنا بردو.. اترجيتها تساعدني، تنقذني، بس كانت طفلة، هبلة.. ما قدرتش.

نظرت إليه بلمعة للعجب أرجفت مفاصله، وكاد قلبه يقفز من عنفها: بس اللي أنت عملتها هي اللي قدرت تنقذني، اتصرفت.. خلتني زي ما أنت شايفني دلوقت، لولاها كنت هأكون فـ قبر.

سألها متغلبًا على القبضة المستميتة في خنق الكلمات بحنجرته: ما أتجوزتيش ليه؟

رفعت كتفيها على مهل ثم هبطوا كذلك، إجابة مباشرة بلا إدعاءات عن الغباء: مش متجوزة ومش عذراء، الموضوع هينتهي بفضيحة وموت، أو فضيحة وسجن العمر

كله مع إحساس بإني أقل من الكل، حتى لو مش حاساه هيجبروني أحس بكدا وإلا ما أكونش طبيعية.

واجهها: ما عملتِش عملية ليه؟

صادقة، يقين يملؤه بأنه حقًا لم يعرفها يومًا كما ظن: ترقيع.. وبعدين؟.. هأتجوز أي واحد ينول شرف موافقة خالي، يطمن إني ما اتلمستش، فـ يتملي بنفخة مالهاش أي تلاتين لزمه ويرمي عليا شغل البيت، يديني وظيفة خدامة مع مرتبة الشرف، رغم إن شرطه من الأول إن «مافيش شغل»، أطبخ وأكنس وأمسح وأدفيله سريره بالليل وأعدل مزاجه.. أخدم عليه لما يعزم صحابه واقعد آخر اليوم على الأرض تحت رجليه أرّف شرابه أو أخيط زُرار قميصه، اتخانق معاه على سعر كيلو اللحمة اللي زاد والخضار اللي هيطفحه، أخلف عيل يدوق نفس المرار معايا، وفـ الأخر بردو مش هأعرف أربيه.. كنت ربيت نفسي الأول!

لعقت شفتيها تنظر إلى البعيد.. أبعد مما ينتهي نظرها: مسجونة مؤبد، ومافيش إفراج.. فـ قررت أختار سجن أقل شوية، مسجونة بالليل فـ كباريه، أو مع زبون هيدفع كويس، بس النهار بتاعي، بتاعي لوحدي.. اتحرر من كل الكلبشات اللي فـ حياتي.

ـطول عمرك تفكيرك أكبر كلبش فـ حياتك، أنتِ اللي آسرتي نفسك مع خالك، كان ممكن تقاومي، تحاربي، حتى تهربي.. تبني نفسك من تاني، بعيد عنه.. بس اخترتي الأسهل، إنك تتجوزي أول واحد حسيتِ معاه إنه هيقدر يخرجك، لكن لما بعد، رجعتِ تستسلمي، اخترتِ مش أحسن خيار.. اخترتِ أكترهم سُميّة، حاجه تقتلك بالبطيء، بتعاقبي نفسك.

دارت حول نفسها، وقفت أمامه تمامًا، تناثر شعرها بفعل لفتتها أكثر من عبث الهواء به، عيونها البنية اختفت أسفل الإنارة الباهتة للطريق، وقفتها المتحفزة

وإنشداد ذراعيها أوصل إنفعالها قبل حتى أن تتحدث، بريق الثوب الذهبي زاد؛ يدعم موقف مرتديته.

-جانية وأنت الملاك، ما تعفيش نفسك من الذنب، لإنك شريك زيي بالظبط فـ الحال اللي وصلتله.

وقف أمامها حانقًا وقد ارتفعت نواقيس الغضب داخل رأسه: ما تحملينيش غلط إختيارك وأخطاءك.

ارتفع ذقنها وسألت بيقين صعقه: ويا ترى أنت حملت مين تمن أخطاءك؟!

حياه!!، صرخ بها عقله ورج روحه من الداخل، لقد حملها كل الخطأ.. استسلام نيفين، تلاعبه بها، تسليته على حساب مشاعرها، استغلال لهاهها وراء استقرار وبيت آمن مرتكز على قواعد وحب، رأى في حياه وفعلتها نفسه ونفس من جار عليها، جلدها بسياط تمنى أن تسلخ جلده هو، كانت أخته هي الدِيَّة، وقربان خلاصه الذي لم يتحقق.

-هتفضل شايل ذنبي طول عمرك.. عارفه أنه لو ماكانش أنت كان هيبقى غيرك، وإنك لا حبتني ولا أنا حبيتك بجد.. كنت مجرد حبل اتعلقت فيه يمكن أخرج من البلاعة اللي اترميت فيها، بس قدرك إنه يبقى أنت.. ونصيبك تتحمل ذنبي.

هز رأسه بفزع وعيونه تبرز من محاجرها: لا، أنا..

رفعت كفها في وجهه، أعينها تلمع ببريق رصده رغم حالته: ما تحاولش تبرر، قرار محاسبتك بقى قيد التنفيذ خلاص، هتتحمل نصيبك من الغلط اللي غلطناه، واللي بقالي سنين بأدفع تمنه.. بالظبط.. تسع سنين وسبع شهور و.. إتناشر يوم.

ضبطت وضع سلسال الحقيبة فوق كتفها ثم تركته متجهة إلى الطريق توقف إحدى سيارات الأجرة المارة، لم تقرضه فرصة للدفاع، أو ترمي نظرة مشفقة على حاله،

لقد سحبته إلى قلب إعصار انتقامها وستتركه وحده يصارع حتى يُصرع.. وحيدًا، منبوذًا، بائسًا كما حالها.

لن أغفر، لن أرحم؛ فلم أرحم.

الحياة ديون، وميعاد إيفاءه بدينه قد ولى منذ زمن وصمتت عنه بقلة حيلة أما الآن.. فقد أشعله، عدم ندمه، ثقته بذاته، حاله الذي تحسن، كونه صار أوسم بينما صارت أدمم، ملامحه المرتاحة رغم رتوش تعب، وملامحها المنهكة من كثرة التعرض للأيدي تلوثها، نعم.. سيدفع معها الثمن!

***

«ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن الحلال أم من حرام.»

رواه الترمذي عن الرسول ﷺ

أعين فارغة، تحدق في الشاشة المضيئة بإطارها الأزرق الفاتح كناية عن تطبيق «التويتر» الذي تطالعه. لِمَ الآن يظهر هذا الكلام أمامها؟ صورة صغيرة قلبت عليها مواجع الأمس، استرجعت بكاء الليلة الماضية في أحضان أخيها، ثم الكبح الذي مارسته على ذاتها بعنف؛ فحتى الآن لا تدري كيف تخبر زوجها بما عرفته عن أبيها، أو إذا كان من المفترض عدم إخباره، عقلها مشتت لا ترغب في تنظيمه.. فقط الهروب.

جذبتها ذراع إلى أحضان مازالت تحمل دفء النوم وعالمه. انهارت تبكي؛ فكان سبب الضمة المباغتة، تشبثت بأعال ذراعيه، طوق نجاتها وسط مد وجزر الدنيا الشرس، تعبت من محاولات النجاة، التشبث بحياة تقلبها رأسًا على عقب، تحاول تغطيس رأسها في القاع بلا رجعة إلى السطح إلا كجثة لفظت آخر أنفاسها.

أبعدها عنه بكفيه، كاد يخرج استفسارًا عاصفًا، يحمل القليل مما يطوف داخله، لكن مقلتيّ العسل وشهده ترجته بلمعان الماء المملح أن يرحمها، لا يزيد الضغط عليها؛ فهي حقًا ما عادت تحتمل، قلة حيلة ويأس، يده تشتد على مرفقيها يكبت طغيانه، يستوعب كسرتها، أنتهى من صراعه الداخلي برفع ذقنها حتى تأكد من إلتقاء أبصارهم ووعيها بذلك: بحبك، ومهما كان هأفضل جنبك.

لم تدرك أن شيطانًا أحيا برأسه عودة مرضٌ خبيث حاول مرة أن يحرمه منها ويسرق سعادة أيامه عبرها، حبٌ شبّ بينهما مع الأيام، لا ينكر تواجده قبل الزواج لكنه بالتأكيد لا يقارن بما حدث الآن داخل جنبات قلبه، لم يسأل، أو يستفسر، فقط عبر عن حب وشوق بطريقته الأسيرة، داخل غرفتهما في وضح النهار، لم يبال بإسدال الأستار، يرغبها ويعث فيها فوضى نارية، هي أولى بطاقتهما عن البكاء أو السؤال.

***

رمت نظرة عابرة إلى الورود البيضاء والصفراء في المزهرية بزاوية من الغرفة، تستعد للذهاب إلى الشركة وعيونها لا تنصرف عنهم، أخبرها أنه خَبِرَ لغة الزهور من أجلها، وتمنى ألا تشكو قلة الكلمات، كيف تشكو وهو يهديها الجمال عينه، ورود تشعل البرق في مقلاتيها، وورود بيضاء تنقل رسالته أنها هدية من السماء بعثت إليه، والصفراء تكمل ما بدأته البيضاء وتتم جملته الصباحية من أجلها «لن تكوني لغيري»، وردٌ أعجميٌ هد حائطًا مشيدًا من الأوجاع حول قلبها، لم تفعله الكلمات، ولن يطهره سوى الإهتمام، بلى.. اهتم بما تحب، اقتطع من وقته لكي يعرف أي الزهور والورود أنسب فتوصل رسالته بلا حروف أو حركة لسان.

ألقت نظرة أخيرة للزهور المرتبة بعناية بفضل أسماء، التي قررت تركها تحفظ بعضًا من الكبرياء لوقت أطول لكن لن يدوم كثيرًا. هبطت السلالم منصرفة إلى

عملها، بسمة ممتلئة بالطاقة شجعتها على رؤية كل ما هو آتٍ بلون مشرب بالأبيض والوردي.

***

ارتشفت من كأس الشاي قليلًا مع ابتسامة مراضاة لمقدمته وحماتها، استرخت قليلًا رغم وجود جلال قريبًا، ما زالت تخجل من تواجدها معه، خطيبها لكن رهبة حضوره لم تختف، عقد القران الذي كان يتعجله تأجل ليتم يوم العرس نفسه، تعلم أن التعجل كانت خطوته الأولى في نزع الرهبة من قلبها لكن ـللحظـ لم تتم.

راقب يديها تفركان في بعضهما بتوتر بائن لم يفلت من تحت أنظار والدته المتشبثة بعروس ولدها الصبي الوحيد المتبقي، كانت خبرة السنوات ومعاشرة الناس تجعلها سريعة الحكم على الناس بالأقرب لهم، يوم رأت زهرة بالسوق تمنتها زوجة وابنة في بيتها، وجلال بنظراته له ذاك اليوم جعل ابتهالها يشتد، وبالنهاية وقع المراد.

سألتها تحاول فك عقدة لسانها ومنحها أريحية أكبر: ناقصلك كتير في جهازك؟

-لا، حاجات بسيطة يا ماما.

نادتها بما صممت الأخرى على أن يصبح ندائها منذ خطبت لجلال، كلمة نسيت مذاقها على اللسان قبل سنوات، لكنها عادت مع امرأة تستحقها، تستشعر فيها أمًا فقدتها في عز الصبا.

ربتت على فخذها: فاضل أسبوعين وتشرفينا يا بنتي.

ازدردت ريقها تبتلع خوفًا داهمها مع كلمات أم جلال، تمتمت مقدمة المشيئة الإلهية، تتململ في جلستها وتسرع في ابتلاع البقية من كأسها في تعجل غير منطوق للذهاب.

زيارة مفاجئة طلبتها الأم بعد يوم من السعي بين المحلات لشراء النواقص، الوقت يداهمها

وكلما انتهت من شيء ظهرت أشياء، بالكاد تلهث الصعداء بأنها أوشكت على الإنتهاء يظهر أكوام لم تمس بعد، تضرعت أن تأتي حياه، هي في أشد الحاجة لعونها وطمأنتها.

وقف جلال حالما لاحظ الكوب الفارغ يوضع على طرف الطاولة، استأذن والدته في إيصال زهرة إلى منزلها مع الخادمة خاصتها، حاولت زهرة الانسحاب من العرض دون إراقة ماء وجه أحدهم، لكنه سدّ عليها كل الطرقات؛ فلم تملك سوى الإنصياع.

صعدت جواره واحتلت الخادمة الأريكة الخلفية مع كل الأكياس المكدسة جوارها، المسكينة منذ بكورة الصباح تدور معها بلا تأفف، تبدي رأيها كلما سألتها سيدتها، الآن تغط في نعاس رغمًا عنها، عقدت زهرة نيتها على تعويضها بما يناسب مجهودها المشكورة عليه.

-خايف أطلب منك تفتحي الشباك تنطي منه.

نظرت إليه ببلاهة، فأوضح ونظره معلق بالطريق: أصلك كاشه بعيد، ما تخافيش، أنا كنت بأخاف من البعبع بردو؛ فأكيد مش هيبقى أنا.

تنهدت وحاولت الاسترخاء في جلستها أكثر، فتحت النافذة تتعجب عدم إحساسها بالحرارة الخانقة داخل السيارة؛ نتيجة تركز أشعة الشمس عليها منذ أشرقت.

تسلت في عضعضة شفاهها مفكرة، أيبدو عليها الفزع والاوف إلى تلك الدرجة؟ لِمَ ليست ككل الفتيات المخطوبات، يتحدثون بطلاقة ويبتسمون عفويًا، لا ترغب في تجاوزات لكنها لم تصل بعد إلى حدود رسمية حتى!!

يدرك صراعها الداخلي، يراه في عيونها وملامحها المنعكسة بالمرآة، لكن ليس بيده حاليًا ما

يهدئ قلقها، كان عقد القران سبيله لكنه إنغلق.. سيصبر حتى تصير زوجته وقتها هناك كلام آخر سيقال.

***

كلما صادفته في طريقها دارت في إتجاه آخر، لا ترغب حتى سماع صوت أنفاسه، تحذلقه يجعل دمائها تفور داخل أوردتها، لم تتخيل يومًا أن تجتمع كتلة من السماجة وطنًا من الاستفزاز داخل أحدهم بهذا المقدار، مقدار كفيل بأزمة قلبية حادة وموت فجائي.

خرجت من مقر الشركة تهز رأسها، كلامه مع فتاة الاستقبال وضحكاتها المقهقهة أثارت عجبها، كيف تجد فيما يقول ما يضحك؟.. إنها عانس بالتأكيد، وهو بائس ليحاول لفت نظرها، فليحترقا معًا بنيران الحب.. بل الجحيم!

تقابلت مع أستاذها المشرف على رسالة الدكتوراة في المكتبة التي اعتادت ارتيادها، أعادت الكتب التي استعارتها قبلًا وبقيت معها، بينما أجلت الحديث مع أمينة المكتبة عن الآخر الذي أكله الحريق كغداء إضافي.

لقاء صار دوريًا، مرتين أو ثلاث ـحسب الحاجةـ كل شهر في المكتبة، تسأله عما يراه من تقدم وتناقشه فيما توصلت إليه، تطلب عونه في فهم ما وقع منها أو عجزت عن استيعابه، صدره الرحب شجعها على الاستمرار رغم رغبة عارمة في الاستسلام والتوقف، تعبت، الحزن يحاوطها وقلبها موجوع، كلمات أستاذها قبل السفر ما زالت تتردد في رأسها.. "تغيير جذري في حياتها"..

ألم يقل ذلك؟.. وأي تغيير جذري حدث، احترق البيت وتهدمت علاقة أخيها بزوجاته، وابتعدت جنة بعدما ألفتها وأحبت مجالستها.

ودعت أستاذها باسمة على وعد بالذهاب إليه في القريب؛ لأخذ الكتب والمراجع التي أحضرها معه من سفره وكلما حاول تذكير نفسه بإحضارها نسي، فما عاد من بد سوى ذهابها بنفسها لأخذها. عادت إلى أمينة المكتبة التي ولصدمتها كانت تتحدث بصوت هامس مع مُسعد –الذي لا تعلم متى أتى ولم؟!- وتحاول كتم ضحكاتها على نكاته السخيفة الماسخة، لم اليوم تجده جلّ النساء مضحكا فيما لا تراه هي إلا كتلة من الغلاظة؟؟

قررت تجاهل وجوده وإتمام ما وراءها لترحل، انتظرت حتى انجذب اهتمام أمينة المكتبة إليها ونظرت تسألها عما تريد، أطلعتها بإيجاز عن الكتاب المحترق وسألتها عن حل لتلك المشكلة.

هزت المرأة رأسها بعملية موضحة: مع الأسف مافيش حل غير إن حضرتك تدفعي تمنه.

أزمة جديدة تأزمت أكثر: بس دا تمنه 3 آلاف ونص؟!

برود كسى معالم وجهها بغتة، ورسمية مستفزة تلبست لسانها: هو دا الحل المتاح، حضرتك أهملتِ فـ الكتاب ولازم تتحملي النتيجة.

غضبت آية فهتفت: إهمال إيه؟.. بأقولك بيتي اتحرق باللي فيه، إهمال إيه بقى؟.. ناقص تقوليلي أرمي نفسك فـ النار وطلعي الكتاب.

بنفس اللهجة عقبت الأمينة: أتمنى إنك كنت عملتِ كدا.

شهقت آية وأوشكت على معاودة الحديث لكن بكلمات أكثر عنفًا ورغبة عارمة تتملكها في إمساك تلك الأمينة وطرق رأسها بأحد الحوائط الأربع لكن تدخل مُسعد

منعها. همس بصوت منخفض ينبهها إلى مكان تواجدها ثم التفت إلى الأخرى يسألها بعملية: هو الكتاب مش ممكن يتأجل دفع تمنه لأول الشهر؟ أو يتقسط؟

أجابته وعيونها المستعرة بالغضب لا تتحرك من فوق آية: ما أعرفش.

دفعها بمرح للنهوض والتوجه إلى مكتب الرئيس تسأله: طب روحي اسألي وتعالي.

استدارت إليه مضيقة عينيها وسألته مباشرة: تهمك؟

جابه نظراتها مجيبًا بثقة لا تقبل الشك: تهمني.

وقتها انصرفت وعيونها لا تتنحنح عن جسد آية حتى بعد ابتعادها بمسافة كافية، وقفت تتهرب بعيونها وتنظر إلى كل مكان عداه، جلس مُسعد على طرف المكتب يتلاعب بالأغراض الموضوعة فوقه، يبتسم لكل من يسأل عن الأمينة ليوجههم إلى أمينة أخرى أو أمين آخر في الجهة المقابلة، سبّت نفسها، لِمَ لمْ تتوجه لأمين آخر عوض تلك الشمطاء؟.. حقًا تليق بهذا الأرعن، كلاهما كوعاء طهي وجد غطاءه، فليهنأا!

عادت أخيرًا مع تصريح استثنائي، قاومت آية رغبة ملحة في رفض هذا الاستثناء وإلقاءه في وجهها ووجه رئيسها مع إخراج لسانها لمسعد الأرعن لكنها تعقلت؛ وضعها لا يتطلب جنونًا إضافيًا، همهمت بكلمة شكر واهنة واتجهت إلى الباب مخلفة زوجين من العيون تتبع اختفاء ظلها.

سارت تحدث نفسها، تضرب رأسها بكفها، أحسنتِ يا آية الله!، ضاع أكثر من راتب

الشهر على كتاب لم أطالع فيه إلا سطرين، مغتاظة من تدخله، حملّها جميلًا لا تحتاجه منه.

***

-مش عارفه فيه إيه؛ عشان كدا كلمتك.

طالع طفلتيه المنشغلتين باللعب والإنزلاق، تتبادل هدى النكات وصيحات المرح مع منال، تاركين لهم مجالًا للحديث، تابعت حنان بقلق وقلب موجوع على صغيرتها: بقت عصبية أوي، مش طايقه مني كلمة، وصلت إنها شدت واحدة صاحبتها من شعرها لسبب تافه.

أضاف خليل مطالعًا ضحكة ابنته الغائبة، شرودها حتى أثناء اللعب، ترد على أحاديث أختها بهزة لا مبالية، تعاود الإنزلاق كآلة وليست طفلة تجد المرح في ذلك: تعاملها مع هدى كمان اتغير.

-والحل؟

التفت ينظر إليها بشرود، يفكر في أسباب تغيرها الواضح: راحت للدكتور النفسي اللي كانت بتتابع عنده؟

رُفعت حاجبيها مندهشة من فتحه للفصل القديم في حياة مي: لا، بقالها مدة ما راحتش.

-طب هاتي نمرته أكلمه، استفسر منه، أكيد هو أدرى بحالتها.

-مش معايا، هأبقى أخده من مدام سمية أو نجلاء.

رنين جعلها تضيف: يظهر إننا مش هنستنى كتير.

أجابت محدثتها نجلاء وقبل أن تلقي حتى السلام صدمها الانتحاب والصراخ، توترت ورجف قلبها خشية سماع السبب، حاولت تهدئتها قدر المستطاع بلا أمل، اعتذرت من خليل وسألته استبقاء ميّ معه حتى تنهي مشكلة ما، تعجلت الذهاب دون التأكد من موافقته، تحاول تهدئة نجلاء وتسعى إلى إيقاف سيارة أجرة في نفس الوقت، منشغلة بحقيبتها الغير ثابتة والتي تنزلق كلما رفعتها فوق كتفها، يأست منها بالنهاية؛ فأحكمت قبضتها حول يدها تفتح الباب الخلفي لسيارة أجرة بيضاء توقفت أخيرًا بعدما تخطاها الكثير.

توقفت ميّ عن اللعب تحدق في والدتها الراحلة دون وداع أو حتى إخبارها عن سبب الذهاب المفاجئ رغم إتفاقهم المسبق على تناول الغداء سوية، خمستهم. انطلقت سيارة الأجرة فتوجهت بعيونها إلى والدها الذي ذهبت زوجة أبيها لمجالسته حال رحيل أمها، طالعتهم برهة ثم انسحبت تدفع أحد الصبية الأصغر سنًا عن الأرجوحة وتجلس مكانه في لا مبالاة من بكائه ووعيده بإخبار والديها، نظرة جامدة اطفأت بريق الطفولة بعينيها هو كل ردها على حديثه المختلط بهياج الأطفال الغاضبين.

***

وجهها غارق في الدموع، تداهمها ذات الذكرى حين وقعت بالحريق من شدة الاختناق وإنهيارها العصبي الحاد، والدها يتمسك بذراعها وتنزلق يده فتطال بالكاد ساقها، يتوسلها السماح، المغفرة والنفس الصافية التي لم يحملها يومًا، يطالب بشفقتها عليه كرجل بلغ من العمر عتيًا لا أب خان الأمانة ومزق صكوك الأبوة، رفسته ووجهها يتمسك بجموده الحجري، لم يتزحزح قلبها عن موقفه –أو هكذا ظنت-.

تأكدت من فشل إدعاءاتها، هي ليست بهذا الجمود، قلبها ليس حجرًا وإن كان والدها صلبًا، هو والدها، من حملها في الصغر، الوالد والأم في نفس الوقت طوال

سنوات عمرها، لم يبخل عليها يومًا بشيء -عدا من أحبت حقًا-، رفض الزواج مرة أخرى متحججًا بعدم رغبته في تحمل مسئولية زوجة يغيب عنها أغلب الوقت بين أكوام العمل، هي تعرف الحقيقة.. هو ما غض الطرف إلا لتصبح أميرته وسيدة منزله الوحيدة.

أتنسى أكثر من عشرين عامًا لأجل غلطة واحدة وإن دفع ثمنها خمس سنوات؟.. هل يباع حب الأب عند أول زقاق ويقتل أسفل دعسة سيارة وإن كانت شاحنة نقل ضخمة؟

مدت يدها بعزم تجدد من أفكارها اللائمة على طول الجفاء، فتحت الباب، فطالعها جسد مكسو بجلد شاحب ينكمش على نفسه فوق مقعد خشبي، كفيه منعقدان سوية، عينه تحدق في الفراغ، أيمضي أيامه على هذا المنوال؟ بنفس الجلسة؟ ذات النظرة المجوفة؟ فوق مقعد تقسم أنه يكاد يفقد سيقانه!

تعجلت خطواتها، تعدت الهرولة لتقفز أسفل أقدامه، قبلت كفوفه المعقودة بدمعها كما شفاهها، يتنافس الإثنان على نيل الصفح والغفران..

لا تذكر كيف أصبحت مسطحة فوق سرير أبيها، محاطة بذراعيه وأنفاسه تداعب خصلاتها المتحررة منذ تطلقت من ياسين.. فقط ساعات قبل أن تأتي إلى والدها، نزعت حجابًا يوم ارتدته لم تكن ترغبه، إحدى مرات تحكم ياسين النادر بها، والتي تمردت عليها كثيرًا بلبس ما لا يليق بغطاء شعرها ومعناه، أو بنزعه حينًا في الحفلات والمناسبات المهمة.

-هترجع معايا؟

-ليا مكان؟

رفعت رأسها وقد عاد الدمع يتجمع في مآقيها، تلتقط نظراته في رسالة مؤكدة بأن ما تقوله لا خلاف عليه: مكانك دايمًا هيكون قبل مكاني.

فرّت دمعة من عين والدها لأول مرة منذ أتت: ماكنتش أعرف إنك هتتوجعي كدا.

مس صدقه شغاف قلبها؛ فأرادت دفع اللوم والذكر الأليمة بعيدًا، فمهما كان.. هذا ماض وأنتهى أمره بلا رجعة، لن يصله أو يرممه سوى النسيان. اعتدلت في جلستها وابتسمت في وجهه: هأبقى كويسه طول ما أنت معايا.

-عايز الأوضة اللي فيها البلكونه.

عقدت ذراعيها وشمخت بذقنها في تحدٍ: الأوض كلها ببلكونات، الشقة أصلًا عبارة عن بلكونه.

انفجر كلاهما في الضحك، ضحك ليس ككل الضحك، يشبع بما يتبقى في جدران القلب ويلفظ آخر هواجس العقل، يعد بمستقبل أفضل وحياة مختلفة، ليست بقصر كما كانت ماضيًا ولا هي مبنية على تحكمات هتلرية، مشاركة بين أب وابنته، وحيدته في الدنيا ومن إن مات لم ينقطع عمله ما دامت على صلاحها ملتزمة.

***

بكاؤها يزداد مرارة وشدة، لا يهدأ إنما يعلو، كأس الماء فرغت وعلى حالها ما تزال، تربت وتضم، تحادث بروية وتثور، ما زال النحيب مستمر والبلل لا ينضب. شاركتها الأريكة في أحد أركان المكتب بقلة حيلة، نظرت إلى النافذة الممتدة بطول وعرض الجدار خلف الأريكة تستلهم حلًا من الأولاد الراكضين خلف كرة بلاستيكية.

-ما هو مش معقوله كل دا؛ عشان طفل البواب لاقاه، هي أول مرة فـ الميتم هنا، بس ما أظنش إنها هتكون الأخيرة!.. المفروض تتماسكِ مش كدا.

عادت إليها بمحاولات جديدة بائسة؛ طاقتها على التحمل تنضب، يكفيها ميّ وما لا تعرفه كسبب لتصرفاتها المتقلبة بشكل مبالغ فيه تجاه التيار السيء. رفعت نجلاء إليها أعين برزت تغذيتها الدموية من كثرة النواح.

-هو ممكن يكون فيه أكتر؟

أخذت شهيقًا عميقًا أخرجته على مهل: فـ2005 كان عدد الأطفال مجهولين النسب ربع مليون، فـ2016 بقوا 5 مليون..

لم تحتج أن تضيف أو تعقب، المعلومة وحدها أعطت نجلاء فكرة مفصلة، عادت الدموع تتكاثر في مآقيها، تتزايد مع إرتفاع سوداوية أفكارها، هذا العالم صار مستحيلًا، غير محتمل، الحياة به معلّق فوقها لوحة كُتِبَ عليها «لقساة القلوب أو من لا يملكونها في الأصل»؛ أيكون ظهور القلب الصناعي فرض هيمنته إلى هذا الحد حتى ولو بالإيحاء؟

استغربت هدوئها، حنان ليست متحجرة القلب؛ فلما تتحدث عن الأمر بكل تلك الطبيعية والـ«عادي»؟!: أنتِ شايفه الموضوع بسيط؟

-بسيط لدرجة التعقيد.

قطبت مستفهمة عن تفسير اللغز الذي تفوهت به: لو كل إتنين قبل ما يخلفوا حددوا هما عايزين الولد دا ولا لا، مستعدين يتحملوا مسئولية أفعالهم، عارفين هدفهم من الخلفة قبل ما يفكروا يعملوها؛ ما كنتيش هتلاقي البواب داخل عليكِ بطفل ما كملش أسبوع متساب فـ صندوق من غير حتى بطانية فـ عز الليل.. ولا هتلاقي كمية دور الأيتام اللي ما بقاش فيها مكان يساعي أكتر، والعيال بقت تتنطور فـ الشوارع تحت مسمى «أطفال الشوارع».

أضافت متنهدة: أساس العمارة لازم يكون سليم عشان ما ترجعيش تشتكي من أول زلزال.

أحمد أحد أسباب فساد الأسس؟.. ألا يشارك نفسه في زيادة أعداد هؤلاء المشردين مجهولي النسب والهوية؟.. يحرض فتيات على الحرام فينتج حرامًا أشد فتكًا

بالمجتمع، ابن يحقد على مجتمع أجهضه في زقاق مظلم وطالبه منذ أول صرخة بالسعي خلف طعامه في حين لا يعرف ما هو معنى كلمة طعام!، يتعلم النبش بين القمامة ومخلفات غيره سعيًا خلف لقمة جافة أو بقايا غير مستحبة من صاحبها بين الأكياس السوداء كثيرًا والملونة أقل قليلًا.

يتجه بعدها ـحال أن يشب- إلى السرقة، القتل، قطع الطريق، يعمل كمرتزقة وإن كان بها دمارًا لدولته؛ ألم تكن هي أول من جنى عليه ودعس فوقه دون أن تراه؟!.. يبدأ بعدها في حلقة مفرغة من إنجاب طفل دون نسب أو هوية، بلا حقوق، ليس عليه واجبات؛ كيف يكون مسجلًا في مصلحة الأحوال الشخصية إن كان أبوه منفي من أوراقها..

وضعت نجلاء رأسها فوق ركبتيّ حنان باكية متنهدة في تعب وقلة حيلة، رأسها يدور في دوامات مفرغة، ليس لها حل أو نهاية، عقدة محكمة الإنغلاق دون بداية للفك: والعمل يا حنان؟.. أنا تعبت، حالات اكتئابي زادت بشكل بشع؛ لدرجة إني فكرت أسيب الدار خالص وأبعد عن كل حاجه.. مش عايزه العالم دا، ماله عالم الخيال اللي كنت عايشه فيه من صغري، اللي كان عبارة عن ناس حلوة كتير ومؤذينن أقل بكتير، كان دايمًا يطمني إن الأمل بكره جاي، مافيش حلّ غير الصلاح اللي مش هيغيب كتير.

ـلو خيالنا بقى واقع.. هتبقى الحياة دي جنة مش دنيا، اسمها دنيا لإنها أدنى فـ كل حاجه، حتى ثمارها وفاكهتها ولا حاجه جنب اللي فـ الجنة.

أغمضت عينيها بعنف رافضة ما تقوله صديقتها: خلاص، كنا اتخلقنا فـ الجنة وبالاها الدنيا دي..

انحنت زوايا فم حنان رغمًا عنها؛ نجلاء تتصرف كالأطفال الصغار الذين تتولى شئون تعليمهم وتربيتهم الإسلامية بالمدرسة، تتحدث مثلهم وتعاند كما تفعل ميّ

معها كثيرًا؛ حين تصطدم روحها الطاهرة النقية بدناءة الدنيا وصاور الواقع: إحنا بنفضل ننفي جمال الشيء اللي نملكه لحد ما نفقده، ميّ فـ مرة سألتني لازمة عشر صوابع إيه.. ليه مش تسعة أو تمانيه مثلًا، عارفه.. أنا ما ردتش عليها، قولتلها مسير الأيام هتفهمك وتديكِ الجواب بشكل عملي، بعدها بكذا يوم صباعها اتعور، بقت مجنونة، صباع صغير كانت شايفاه بدون قيمة.. عطل حاجات كتير بتعملها وأزعجها؛ وقتها عرفت إن لكل حاجه فـ حياتها قيمة.. فترة وهتنسى دا وترجع الدنيا تفكرها وتفهمها من جديد.

تشبثت أصابع نجلاء بلحم حنان عبر قماش ملابسها: بس اللي بأشوفه مش تعويره صغيرة، دا بتر وجروح ما بتلتئمش.

ضحكت: وأنتِ عايزه اختبارات الدنيا ليكِ زي اختباراتها لبنت لسه ما خلصتش الإبتدائية؟

رفعت إليها نظرت تشربت بالعجز والتيه، توجعت حنان على حالها لكنها لا تملك سوى تصبير نفسها وإياها، كل يوم تزداد أثقال الحياة فوق أكتافهم ولا يملكون أمام ذلك إلا التحمل والصبر، الجلد في مقابل مكان لم يروه، يسمعون عنه دون تفاصيل واضحة. الشك يساورها تارات كثيرة وبلا حصر، تعتبرها منفذًا للشيطان إلى نفسها خصوصًا أوقات الحزن والضعف، تهرب مما لا تعلمه إلى ما تعلمه، أو على الأقل تستشعر وجوده بروحها، تعذر نجلاء.. فعلى نضجها العمري ما زالت قاصرة في تصرفاتها وتفكيرها.

-أبقي إديني نمرة الدكتور النفسي اللي ميّ كانت بتتعالج عنده.

فتحت عيونها بغتة بعدما كانت تغمضهما في محاولة يائسة للاسترخاء، انتفضت جالسة تأكل حنان بعينيها علّها تدرك العلة من تعبيراتها قبل لسانها: مالها ميمي؟

زمت شفتيها مستهجنة تصرفات ابنتها التي عادت تتكالب في رأسها: بقت متمردة وعنيفة، مش عارفه سبب وهي مش بتتكلم، فكرت أسأل الدكتور بتاعها، أكيد هيعرف علتها أكتر مني.

ساءها السخرية المريرة في آخر جملة نطقتها، أسرعت تلتقط هاتفها من فوق المكتب ثم عادت تجلس مكانها منشغلة بالبحث عن رقمه الخاص : إيه اللي بتقوليه دا؟.. تلاقيها مشكلة من مشاكل المراهقة، بس بدأت عندها بدري شوية.

ساكنة في الظاهر وصامتة، يدور في عقلها ألف سؤال وسؤال دون جواب، ابتهلت إلى ربها ألا تفقد ابنتها مرة أخرى، عسى أن تكون وعكة صغيرة تمر دون خسائر.

***

مقابلة رفضها كثيرًا، لا يرغب في رؤية رجل اهتزت صورته بنظره، بل اقتلعت من جذورها، لم يره وليس هناك منجاة له مما ألقى نفسه في قاعه؟، لقد انحدرت قدوته، تهشمت خيالات الصبا.

دائمًا ما نصحه جده –رحمه الله- أيام الصغر والطفولة، مشفقًا على برائته وطهارة روحه، ألا يضع له قدوة من البشر، الغلاف يكون في غاية الروعة، الأغلب هكذا يهتم، فالمحال تعرض أفضل بضائعها في الواجهة الأمامية، وحين تدلف إلى الداخل ترى الأردء، إنه طبع، فطرة فُطِرَ عليها ابن آدم، ليس منها فكك فيجب علينا توخي الحذر، ننظر إلى الباطن ونضع له شتى الاحتمالات، فإن خابت فقد حصن قلبه ونفسه من الصدمات، وإن أصابت فلا يضيره شيء من أذاهم.

لم يعمل بتلك النصيحة إلا فيما ندر، حتى حياه.. حرمها من حسن الظن مرافقًا لتوقع السيء، منحها الأسوء فحسب، استدرك خطأه لاحقًا لكن ما تزال الخطوة الأولى تدق عقله بعنف في عتاب وجلد للنفس. والده كان عكسها، ظن به الأفضل حد

الكمال لكن ماذا وجد بنهاية المطاف؟؟.. يتاجر بالنساء ويعيش من عرقهن كأبسط وصف وأكثرهم أدبًا.

-ليه عايزني أعصاه فـ كل حاجه وما يبقاش بيني وبينه ولو خيط رفيع؟!.. ليه فاكرين إن الإنسان ما دام عصى فـ نقطة يبقى شيطان فـ كل شيء بيعمله ولازم كل أعماله تبقى غلط فـ غلط؟.. لازم يبقى العمى كله؟!.. مش ممكن اسرق بالليل ولما الفجر يأذن أصلي؟، اقرأ قصص الأنبياء وأكون كذاب ومنافق؟

كزّ على أسنانه متفاديًا النظر إلى وجه والده؛ فتنفلت أعصابه، تمالك نفسه قبل أن تتحرك شفاهه بهدوء استعجب قدرته على جلبه: لا شيطان ولا حاجه، أصلًا ما فكرتش أحكم عليك.. تفكيري كله فـ المكانة اللي كنتها والمكانة اللي أنت فـ الحقيقة المفروض تبقى فيها.

ابتلع ريقه: لو ناسي فـ أحب أفكرك.. أنا مهندس مش قاضي، الحكم والنقاش فـ أي حاجه تخصك وتخص حسابك مع ربنا، مش معايا ولا مع ماما ولا نجلاء..

رشف من فنجان قهوته الثالث لهذا اليوم، مقدار البن الكافي لزيادة اضطراب ضغطه ورفعه إلى أعلى المؤشرات، لم يهتم مصوبًا بصره إلى ابنه، يراقب تحركاته، قوة عيونه الراصدة نتيجة مهنته الشرعية والغير شرعية منحتاه الفراسة الكافية لمعرفة بواطن الذي أمامه، تنهد مستاء؛ يعرف.. لم يأت من أجله بل لغيره: عايز تسأل عن إيه بخصوص حياه؟

كأن حمزه في انتظار شارة الإنطلاق فأسرع يسأله: كنت عارف إنك ورا اللي حصلها من وقت ما دخلت البيت؟

-وهأعرف منين؟.. دخلت البيت على أساس مدرسة تبع صديقة موثوقة لسمية، إزاي ممكن يجي فـ بالي حاجه تانية، أو اربط بينها وبين البنت اللي هربت من واحد من اللي شغالين عندي؟

-ما شوفتهاش قبل كدا؟

قهقه أحمد رغمًا عنه: صحيح بيبقى عندي صور الوجوه الجديدة، بس دي مسئولية رامز، أنت متخيل إني هأشوف كل واحدة بتشتغل عندي؟.. فـ الأخر مش مهم إلا أنها ترضي الزبون وبس.

شعر بالاشمئزاز والرغبة في التقيؤ من لهجة أحمد المقززة، يتعامل مع روح وحياة بشر على أنها جماد، أثاث، حتى أنه قد يتحدث عن الأخير بطريقة أكثر لياقة ودماثة. وجه تركيزه إلى الأهم، فمن أمامه لم يعد والده بل خاصًا غريبًا ذميم الأخلاق وغيّ المنطق.

-عرفت قبل ما اتجوزها؟

-أيوه.. بس الكلام دا كله هيفرق معاك فـ إيه؟

تجاهله: وسيبتني أتجوزها عادي؟

-قلبك اتعلق بيها، ماكنتش حابب أكون سبب كسرته من تاني، وبعدين أنت عرفت حقيقتها قبل الجواز ُوصممت تكمل، حتى لو كان لمدة أيام أو شهور لحد ما تزهق منها.. لكن شكلك حبيت تكمل وتأسس معاها عيلة.

-أنت فاهم إني بالدناءة لدرجة أعلّق واحدة بيا وأوهمها باستقرار وعيلة.. بعدين اتخلى عنها؟

زفر بحنق: مش دناءة، ممكن نقول نصيب.

ضحك بسخرية وقرر إنهاء حديث لم يعد هناك طائل منه، نهض ملتقطًا أغراضه منبهًا أحمد للمرة الأخيرة على تعهد بعدم رؤيته مرة أخرى: مش عايز أشوفك

حوالين ماما أو أختي.. انسانا خالص، إلغينا من حسابتك زي ما كنت.. وأتمنى إنك ما تضطرينيش أعيد كلامي.

ابتعد عن المكان بحثًا عن هواء نظيف، صدره مطبق يكاد يختنق، كانت مرة أخيرة، مرة تيقن خلالها أن من رأه وما سمعه حقيقة، الأب الأسطوري والمحامي العادل لم يكن له وجود، مجرد خيالات مراهق استمرت في عقله، لكنه على العكس.. لن يكون سوى قدوة جديرة بالاقتداء، لن يندم صغيره على إتخاذها يومًا.

***

عادت والدتها تتشبث بذراعها، تجلسها وتترجاها إخفاض صوتها فيما هي لا تتمالك ذاتها، تسد الأذن قليلًا وتخفض نبرتهاأحدرجة متابعة انفعالها في وجه أخيها: حياه لو عرفت من غيرك أنت اللي هتخسرها يا حمزه، بلاش تخبي عنها أكتر من كدا

لف رقبته ناظرًا إلى بقايا الطعام والصحون المتناثرة فوق المائدة منتظرة من يعيد ضبّها وغسلها بعدما تركتهم حياه على عجالة تغير حفاض وليدها. يدرك صحة نصيحة شقيقته، حاول تنفيذها عدة مرات بلا قدرة، كيف يخبرها أن من كان سببًا في بث الحياة به هو نفسه من حرمها إياها، الرجل الذي كان يسير في الشارع وطرقات المدرسة مرفوع الرأس فخرًا به، هو ذاته من جعلها تتعثر في خطاها بين البشر حاملة ذل وعار أبد الدهر، الأقوال هينة والفعل صعب، مضنٍ في تنفيذه.

زجرتها أمها: خلاص يا نجلاء سيبيه على راحته، هو أدرى باللي يناسبه.

التفتت إلى والدتها في حنق وغيظ: يا ماما أنا فاهمة اللي بيمر بيه، مريت بيه قبله.. والحمدلله فادي تقبل الوضع عشان بيحبني وقرر يعتبر بابا ميت زيٍ بالظبط وإنه ما عرفش عنه حاجه والموضوع اتقفل.. وقف جنبي ودعمني، خلصني من

إحساس الذنب.. حياه من حقها أكتر من أي حد تعرف الحقيقة دي، ما تنسيش إنه كان السبب فـ دا، لا وكمان شالت ذنب موته اللي ما حصلش أصلاً.

همس منكس الرأس بصوت بالكاد استطاعوا تفسيره: وافرضي سابتني.

رفع رأسه وعيونه تلمع ببريق الخشية: نظرتها ما شافتش غير ابن الراجل اللي كان سبب أسوء شيء حصلها فـ حياتها..

ركعت أسفل قدميه مسرعة ودموعها تسيل فوق خديها: لو قولتلها مش هتعمل كدا، حتى لو حصل فـ دا هيبقى لفترة صغيرة لحد ما تستوعب الصدمة زي ما احتاجنا كلنا وقت عشان نتقبل الواقع والحقيقة المقرفة.. صدقني يا حمزه، حياه لازم تعرف إن بابـ.. أحمد هو اللي ورا الحادثة اللي حصلتلها وشغلها كبنت ليل.

التفت الجميع على صوت إرتطام زجاجة الحليب البلاستيكية بالأرض، ارتفعت الأنظار لمن أفلتتها. وجهها المرتاع وعيونها الجاحظة، شحوب بشرتها المصفرة، بصرها المعلّق به وحده متجاهلة المرأتين الآخرتين. لم تنتبه إلى هبوب نجلاء على قدميها في فزع، تتخيل القادم في أسى لحالهم.

دارت حياه راكضة إلى غرفة طفلها، تغلق الباب خلفها بالمفتاح، تبكي ما تلوثت أذانها بسماعه، حاول حمزه لحاقها لكنه لم يدركها، عاد إلى شقيقته صارخًا فيها: إرتاحتِ دلوقتي.. أديها عرفت.

تغازرت دموعها فوق خديها وحاولت الحديث لكن لسانها خانها وقد فقد قدرته على الحركة، سحبتها والدتها من ذراعها بعدما حملت حقيبة كلتيهما فوق أحد كتفيها: يلا يا نجلاء، وجودنا كفاية لحد كدا.

نظرت إلى والدتها مترجية: يا ماما.. !

أومأت متفهمة: ماكانش قصدك بس حصل، وجودنا مالوش لزمة، دي مشكلة بينهم ولازم يحلوها بهدوء، كان نفسي أخد أحمد بس مش هينفع.. يلا بينا دلوقتي.

رحلتا على نظرة أخيرة إليه مرتميًا فوق مقعده من جديد يحمل بين كفيه رأسه بثقل ما بداخلها من أفكار سوداء وتوقع للنهاية التي أجلها كثيرًا، فرّت دمعات الأم مغلقة الباب، ليس بيدها شيء لتخفيف وجعه، مرارة لابد له من تذوقها وقد ملأت كأسه.

***

اعتدل في جلسته بعد إرتخاء كان قد بدأ في الانتشار بعضلاته النابضة بالتعب والإجهاد، حدق بمحمود كما لو نمى له رأسان، ادخل إصبعه في أذنه يتأكد من سلكان مسار الصوت وعدم وجود شفاه غريبة تنطق ما سمع.

صاح بعدما وعى: أنت اتجننت يا محمود؟؟.. عايز تتجوزها!

لم ينتفض قيد شعرة من صياح صديقه المباغت، كأنه يتوقع هذا بل وينتظره بعدم إهتمام، متمددًا فوق الأريكة الثلاثية محدقًا في الستائر العسلية المقابلة لعيونه، قال بذهن شارد ومنطق مغلوط: عايز أخلص من عقدة الذنب اللي جوايا.

زمجر بغضب: هتصلح ذنب بذنب ولا إيه؟؟.. نسيت إن الجواز من زانية مُحرّم.

-يمكن تابت، وقتها مش هيكون حرام.

استهجن مبرره: ما هي اللي اختارت الطريق دا من الأول، عذرها يدينها مش يبرأها، الإتنين عذاب لو على طريقة تفكيرها، بس العذاب فـ الصح والحلال هيديها الدافع تكمل إنما اللي هي رمت نفسها فيه دا أبشع.

انتفض جالسًا وقد أدلى ساقيه من فوق الأريكة، حدج صديقه منتظرًا حلًا خرافيًا لا يملكه: والحل؟

تنهد ناهضًا: ما أعرفش، فكر مع نفسك تاني وشوف اللي يريحك، إلا الحل دا، لإنه مصيبة.. كفاية مراتك اللي مالهاش ذنب واللي مش دريانا بدماغك المعفنة.

توقف قربه لحظة مضيفًا: من رأيي بدل ما تفكر فـ واحدة هي اللي اختارت طريقها، ومحير نفسك تخلصها وتخلص نفسك من ذنبها إزاي.. فكر هتعوض مراتك عن معاملتك والفترة المنيلة اللي فاتت إزاي، بتغيراتك العجيبة اللي بتشوفها ومش قادرة تعمل قصادها حاجه، واحدة متحملة زوج زيك؛ دي اللي فعلًا محتاج تكفر ذنبك ناحيتها.

تأفف محمود عائدًا إلى استلقائه السابق، تعكر مزاجه أكثر بذكر زوجته، حملًا أخر أضيف على عاتق عقله وضميره.

***

بعد ساعة أو نحوها، ربتت على معدة صغيرها الباكي جوعًا، حاولت خلال النصف ساعة السابقة إرضاعه من صدرها لكن حليبها القليل لم يسد جوعه، استسلمت أخيرًا لضرورة الخروج؛ ليس لأحمد إثم فيما بينها وبين والده، كذلك فعلة جده.

أعادته إلى فراشه وفتحت الباب على مهل، ما كاد حمزه يسمع صوت دوران المفتاح في القفل حتى هبّ منتظرًا طلتها بلهفة وإرتياع.

نظراتها لم تفارق الأرض، التقطت قارورة الحليب سابقة الوقوع واتجهت بها نحو المطبخ غير عابئة بما انسكب منها فوق الأرضية، لاحقها محاولًا الحديث ورأب الصدع المتفاقم: حياه.. أنا آسف.. أنا..

وضعت الزجاجة مقلوبة بعدما أفرغت ما تبقى داخلها في الحوض وشطفتها، اتجهت تفتح الخزائن وعقلها المشوش أنساها موضع بقية أغراض الصغير الأخرى، عاونها حمزه حين أدرك إرتباكها يفتح طريقًا جديدًا داخل الصومعة المبنية حولها.

-كنت هأقولك بس..

تركت ما بيدها وتمسكت بحافة الرخامة حتى أبيضت مفاصلها: إمتى؟؟.. نجلاء كانت هتبوس إيدك تقولي وأنت رافض، مش من حقي أعرف؟

برقت عيونه ألماً لم تنظر إليه لتدركه: حقك لكن..

التفتت إليه ثائرة حاقدة: لكن إيه؟؟.. فاكر المشكلة والهوليلة اللي عملتها عشان موضوع معرفتي بإن حنان مامت ميمي؟؟، واتفاقنا ما نخبيش حاجه عن بعض مادام هتمس حد نعرفه!، ما بالك إنها متعلقة بيا وبيك شخصيًا؟

حملت الحليب وتشاغلت برجه خلال وجهتها إلى غرفة الصغير الناعق من جديد، صاح حمزه بصوت يقطر وجعًا وخجلًا لا أثر فيه للقوة: عايزاني أقولك إزاي إن أبويا بيشغل ناس تجيبله بنات يشتغلوا فـ الدعارة، حتى لو عملوا تمثيليات رخيصة عليهم وأوهموهم بالحب والجواز بلا بلا بلا.. أقولك إن أبويا، اللي خلفني، هو نفسه سبب جوازنا اللي مش راضي يستقر ونظرتي ليكِ على إنك ممكن ما تكونيش محل ثقة وحبك ممكن يكون نزوة زي ما كان لغيري..

تسمرت مكانها لحظات، لم تلتفت أو تهمس معبرة عن إصغائها الذي بلغ أوجه، همست بصوت متحشرج: هأكل أحمد وأجي.

دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفها دون أن يوصد بالمفتاح، تعلم أنه سيحترم طلبها وإن كان داخله يطالب بإنهاء الموضوع وإغلاق ملفه حالًا، نبش في دواليب المطبخ

بحثًا عن خرقة يمسح بها الحليب المنسكب ويكاد يجف، ينشغل بشيء عوضًا عن تملك الجنون لجنبات عقله.

***

صوت صارصور الحقل والكروان هما ونيسان جلستهما في عتمة الليل، يتناولان الشاي الممنوع على كليهما هذه الأيام خلسة عن الأعين المراقبة لأقل تحركاتهما المضرة بالصحة المسنة، رأس كل منهما يستند على ذات جزع الشجرة المبتورة، العيون تتابع لمعان النجوم في السماء بذهن يستعرض أيام الصبا بطريقة مغايرة، دون تأفف من سلطة الآباء أو قلق على المستقبل رغم الشعور بالبشر فيما سيأتي.

العباءة الصيفية الملتفة حول أكتاف كليهما؛ وقاية من هبات الهواء الشديدة رغم الفصل الصيفي شديد الحرارة، تطرف في الأجواء يميل للجنون أحيانًا، لكن أيًا منهما لا ينكر فرحته بهذه الهبّة المرطبة على قلبيهما مخففة تأثير احتقان الجو بحرارة الشمس الغاربة قبل ثلاث ساعات.

-خلصنا من مشاكلنا وغرقنا فـ مشاكل الولاد.

ضحك من تأفف صديقه فاروق كما المعتاد منه: بس ما تنكرش إن الأحفاد بينقلوك لمستوى تاني من السعادة عمرك ما دوقته قبل كدا.

تنهد ثم زجره بجانب عينه: اللي عندي لسه صغيرين، لكن أنت ما شاء الله عليك.. خبرة!

ارتفعت ضحكاته الوقورة بمسحة صبيانية: الله أكبر، صلي على النبي فـ قلبك يا أخي.

-عليه الصلاة والسلام.

قالها عائدًا لشروده في البعيد دافعًا عبدالرحيم للتدخل أخيرًا؛ فحالته لم تعد مطمئنة لقلب صديقه، وما كانوا في قدرة على تحمله بالماضي لم يعد يواتي صحتهما وضعف أبدانهم الآن. استدار إليه برقبته جادًا فيما يقول: إيه اللي شاغلك؟

البحث عن حلول سوية كانت سمة تتوج صداقتهما، تشبههما في ذلك الابنتان، القرب المتواجد في العلاقة بين ابنته حياه وابنة عبدالرحيم دائمًا ما أثلجت قلبه؛ لتأكده أن ابنة عبدالرحيم لن تصبح شيئًا إلا كأبيها، نعم الصديقة والمعينة، تزجر ابنته وقت الخطأ وتدعمها وقت الاحتياج، على الدوام سلمى ظلت محل الثقة، وعى وقت هروب ابنته مع من لا يستحقها أهمية دور سلمى في حياتها؛ فلولا إخفاءها الأمر عن أقرب صديقاتها ما كانت لتحدث كل الجلبة في السنتين الأخيرتين.

باح بمشكلته في حاجه ملحة لإيجاد حل؛ عقله ما عاد يتحمل المشاكل حاليًا، يبحث عن الاستقرار في كومة قلق: محمود وعلاقته بحياه لسه مش مريحاني، دا غير إن أموره مع عيشه حاسها مش تمام، البنت ما بتشتكيش وبتحاول تداري على قد ما تقدر بس باين فـ تصرفاتهم.. فيها تكلف وعدم طبيعية وتمثيل.

عدلّ وضع العباءة من حوله وعقد ذراعيه أمام صدره: دلعك لمحمود فـ الأول كان كافي أنه يخليه مغرور وشايف إنه ما بيغلطش، قولت دا قبل كدا وما أظنكش نسيته عشان أرجع اتكلم فيه بالتفصيل.. فـ نفس الوقت كنت حاد جدًا مع حياه لما واجهتك باللي فـ قلبها، ودا أكبر غلط حصل.. وللحق أي مشكلة أو مصيبة حصلت بعد كدا فـ حق بنتك أنت السبب الأكبر فيها.. حياه عنيدة وبريئة، ما شافتش اللي شوفناه إحنا بشقاوتنا فـ سنها، معذورة، لكن أنت ما عذرتهاش.

اعتمر صدره بالهواء قبل أن يطلقه بحدة مغمضًا عينيه: ندمان، بس ما عادش له تأثير.. المهم حياتها ترجع تستقر تاني، وتعيش مبسوطة.. رغم إنها عندي الفترة الأخيرة بس متأكد إن حمزه هيقدر يرجعها تاني لبيته وبيتها.

اكتفى بإيماءة بسيطة؛ فهذا ليس موضوعهما، كما أن الحال نفسه يمس صغيرته: عدم المساواة فـ المعاملة بين ولادك، خلى محمود يحس إن له سلطة فـ حياة البقية رغم وجودك على راسهم –ربنا يديك الصحة-، وأكد الإحساس دا عندهم بالأخص حياه؛ لإن من طفولتهم ومحمود ناقر نقير معاهم بكل عنجهية وشوفة نفس، وسمحت للموضوع يوصل لأكبر من كدا لما سيبته يتدخل فـ موضوع مش من حق حد يتكلم فيه غيرك.

كح مجليًا صدره وصوته قبل المتابعة: فـ محمود دلوقتي شايف نفسه صح ميه فـ الميه، والغلط فيك عشان سامحت وغفرت، لازم يفهم إن اللي أنتوا الإتنين عملتوه دا أكبر غلط.. وإن حياه هي اللي محقوقه ليكوا مش العكس، رغم غلطها طبعًا إنما إحنا بنتكلم عن جذر المشكلة.

اعترض: أنت بنفسك لسه قايل إنه مغرور وشايف نفسه، كمان معترف بغلطها زي غلطنا.

وكزه: ما تبقاش زي ابنك بقى يا فاروق، وبعدين الغلط بدأ عندكوا ولا نسيت كلامنا قبل ما يحصل اللي حصل؟

التأنيب في لهجته أشعره بالخجل؛ فقد نبهه مسبقًا لكنه لم يرتدع بخيلاء شبيهة بالتي لدى ابنه محمود، تنهد مستسلمًا: خلاص هاتكلم معاه.. دا بالنسبة لمحمود وحياه، عيشه بقى؟

-جينا لموضوع عيشه.. هو نفس مشكلة محمود الأصلية، ومش معنى إن عيشه بنت بلدنا ومتعلمة يبقى سهل عليها تفهم محمود وتقدر تتعامل معاه، خصوصًا إنه فاكر نفسه إله –استغفر الله- ما بيغلطش فـ بالتالي مش من حق حد يحاسبه أو يقوله إنه غلط.. عيشه عايزه بيت مستقر وزوج طبيعي بدون تعقيدات نفسية زي أغلب البنات، وزي ما إحنا بنتمنى لولادنا.. محمود متقوقع على نفسه يعني حتى لو

حاولت تقرب منه هو هيصدها، ودا مش بعيد يخليها تتقوقع لفترة، بس يا عالم بعد الفترة دي هتتصرف إزاي.

جملته الأخيرة أكدت ما يقض مضجع فاروق، يخشى إنهدام بيت ابنه فوق رأسه، متيقنًا من ندمه حين يدرك فداحة فعلته، فسبب قبوله بعائشة كزوجة لابنه كان من خلفيتها التي يعرفها بحكم احتكاكه مع عائلتها في العمل والحياة الإجتماعية؛ ليست أي امرأة قادرة على معاشرة ابنه طول الفترة الماضية دون شكوى سواها.

-والحل؟

رفع كتفيه بقلة حيلة: مالهاش حل غير يفوق لنفسه ويعرف قيمة مراته، يا باللين ورحمة ربنا عليه قبل ما المشكلة بينهم توصل لنقطة اللا رجعة، يا بقى بعد ما الأوان يفوق وقلبها يقسى وترفض أي محاولة للترميم.

تراجع فاروق في جلسته مفكرًا ولسانه يتحرك في تعبير عما يعانيه: وبيقولوا خلفة البنات هي اللي بتشيل الهمّ.

قهقه عبدالرحيم محاولًا التهوين مصاب صديقه: والله كلهم محصلين بعض، الولاد والبنات.. دي سنة الحياة، من مشكلة لمشكلة، مش عايزه تحسسنا بالملل أبدًا.

شاركه فاروق الضحك. وأمضيا بقية الأمسية يتسامران في شتى المواضيع، يستعيدان ذكريات شبابهما، ودراستهما، كذلك بداية عملهما سوية، أخذهم الوقت دون أن يشعرا بمرورها حتى باغتهما ابنيهما بالتواجد فوق رؤوسهم فجأة.

وضع فارس كفيه في خصره ناظرًا لوالده بتأنيب: يعني أسيبك نص ساعة أعمل حاجه أرجع ما الاقيكش، وماما تديني كلام فـ جنابي.. وأنت قاعد تحكي مع عم فاروق!

لوى أنس شفتيه كذلك ناحية أبوه متذمرًا: وأنت تسيبني أكلم نفسي وتمشي.. بقالي ساعة بألف حوالين نفسي مش عارف أوصلك.

حدق كلا الأبوين في بعضهما قبل أن ينفجرا في الضحك؛ من انقلاب الأوضاع، فيما ظل الآخران على موقفهما المتجهم ناحية الآباء التي تسببت لهما في سماع تقريع ليس له آخر.

***

تقلبت فوق الفراش مولية شقيقتها الكبرى ظهرها بعدما تأكدت من أن كثرة تقلبها لم يتسبب في إقلاق نوم ناهد، استرخت قليلًا منسجمة مع أفكارها التي لا تتوقف عن الدوران، عاد المشهد في الشركة مع مسعد يمر أمام عينيها كفيلم لا تتوقف عن إعادته.

دلف عليها المكتب بعدما حلّت ساعة الاستراحة بمنتصف النهار، وحيدة وسط المكاتب الفارغة، تركت ملفات العمل وأغلقت الحاسوب الآلي يرتاح قليلًا، سحبت كتابًا يخص تخصص رسالتها انشغلت في مطالعته لا تشعر بالعالم الدائر من حولها. فرقع أصابعه في المسافة الفاصلة بين عيونها المستترة وراء نظاراتها الطبية وصفحات الكتاب المصفرة.

تراجعت مذعورة وقد تركت يديها جانبي الكتاب، حمله مسعد غير عابئ بانفعالها وغضبها المتصاعد، قرأ عدة أسطر منه وقد أضافت لغته الإنجلنزية إلى مصطلحاته المهنية صعوبة إضافية، لا ينكر أنه قد فهم بعضه لكن بذلك قد تفشل خطته في مناكفتها.

-إيه الكلام المجعلص دا؟؟

عقدت ذراعيها وزمت شفتيها: يا نعم.

-عم عبقرينو مش بيستريح حتى فـ وقت الراحة؟، مخك دا إيه!.. مكنة ما بتعطلش!

-أنت جايب كل التناحه والبرود دول منين؟!

-كان ممكن أكون قليل الذوق وأقولك «مش هأقولك»، بس عشان أنا ابن أصول فـ هأجيبلك بنفسي.. تحبي أجيبلك كام كيلو؟

سألته ببلاهة: هو إيه دا؟

-التناحة والبرود، بصي.. هأجيبلك وش القفص، هتفتكريني على طول وتقولي والله ما في مجايب زي مجايبك يا مسعد يا أبو المساعيد.

أشارت إلى الباب بسبابتها: برا!

كلمة واحدة حازمة، لكن أتكفي مسعد كي يحلّ من فوق رأسها ويرحمها لوجه الله دون مماطلات؟، مال عليها مستندًا إلى سطح المكتب الفاصل بين جسديهما: هأقولك نصيحة بحكم الزمالة، مع إني عارف إن راسك أنشف من حجر الصوان لكن هنعمل إيه فـ شخصي المحب للحكمة.. ريحي دماغك شوية من الكتب والمراجع والدكتوراة اللي ما بتخلصش، ريحيها من الشغل ومشاكله ووجع دماغه.. أقولك حاجه أسهل؟.. ابقي تافهة.. تعرفي تبقي تافهة؟

همهمت خلفه: تافهة؟

ضرب رأسه بكفه: ما تعرفيهاش ولا ضاعت فـ وسط معجم المصطلحات الحسابية اللي فـ دماغك؟!.. صحيح التفاهة دي فن، ما يعملهاش أي أي ولا زي زي.

تركها بجسده لكن حضوره وكلماته لم تفارقها، أحقًا تأخذ الحياة بجدية مبالغة؟.. لم تعتد على أن تكون بلا شغل شاغل ومهمة تقضي وقتها وأيامها في إنجازها. تقلبت تحدق في جسد شقيقتها الساكن جوارها تصغي إلى انتظام أنفاسها، أهذا ما كانت

عليه ناهد في صباها وما ستصبح عليه مستقبلًا، تظل وحيدة بلا أنيس.. تتوسل في المحيطين المشاركة؟

***

وقفت شاحنة ضخمة أمام الكوخ الأسمنتي غير مكتمل التشطيب ينتظر صاحبه منشغلًا بإمرار البودرة البيضاء من إحدى فتحتي أنفه سادًا الأخرى، سمٌ يعينه على طول طريق السفر إلى القاهرة حيث مقر التسليم، ساعات طوال من السفر منفردًا مع شريطه المفضل من أغان السيدة أم كلثوم المتراوحة بين «فكروني» و«بين الأطلال»، ينتقل بعدها إلى أغان شعبان عبدالرحيم المتنوعة، مزيجًا عجيبًا يساعده مزاجه المخدر على الاستمتاع به وهضمه بيسر. انتظر سعدان على عتبة الغرفة الصغيرة يتابع نزول ذراعه الأيمن إلى القبو السفلي، يصعد بعد دقيقة حاملًا شوالًا ممتلئ بخيرات الذهب الأثري القديم يسنده معه عندما يقترب من المخرج؛ خوفًا عليه من أقل خدش قد يلحق به، مهمة سرية وخطيرة حتى أنه لا يستطيع إطلاع السائق على حقيقة ما ينقله أو حتى يحضر من يعين خلف في مشواره بين طبقات الأرض.

انتهوا من عملية النقل والعتمة تحط فوق رؤوسهم، لا يعكر صفو السماء المخملية السوداء إلا نقاط من النجوم المتفرقة تبدو كنثر للماس عبر امتدادها اللانهائي. وقفا يشيعا السيارة الضخمة المندس بين أغراضها الأساسية السبب الحقيقي وراء سفرها كل تلك المسافة.

***

ثنت ساقيها أسفل وركيها فوق الأريكة تحمل كوب المشروب الساخن بين يديها تتدفئ به من

برودة تطغى على دواخلها وتستشعر أثرها على بشرتها، تجلس جانبها صديقة طفولتها واضعة ساقًا فوق الآخر وكوبًا مشابهًا يملأ كفيها.

شاردتان ساهمتان، همست ذات الجلسة المنكمشة بشدة ونبرتها تنضح سخرية من الحال التي وصلتا إليها: عدى سنتين ولا أكتر؟.. وأدينا رجعنا تاني لبيت أهلينا.

رفعت نظرها إلى سلمى ضاحكة مضيفة: ما فرقش جواز الحب فـ حاجه عن القبول برتبة الزوجة التانية.

قابلت نظراتها مناشدة إياها بقول الحقيقة: العيب فينا ولا فـ إختياراتنا ولا الحياة نفسها.. ولا فـ إيه بالظبط؟

-عايزه تفهميني إنك ما اكتشفتيش مربط الفرس فـ تأزم علاقتك بياسين وحياتكم سوا؟

رمقتها بجانب عيونها: فروض، يمكن لمجرد إني قبلت أكون زوجة تانية، ضريت واحدة فـ علاقتها بجوزها وفرقت بينهم، دخيلة المفروض مالهاش مكان.

هزت حياه كتفيها تعبيرًا عن عدم اقتناعها وقد برز ذلك في نبرتها وكلماتها: لا أنتِ أول ولا آخر واحدة تقبل بوضع زي دا، بعيدًا إنه ما زال وضع مستهجن بس ما اعتقدش دا السبب، أنتِ شوفتيها وكلمتيها وبنيتِ قرارك على أساس موافقتها اللي وضحتهالك.. الذنب مش ذنبك لوحدك.

زادت حيرة سلمى، فبعدما ظنت أنها اكتشفت السبب هزت حياه ثقتها بذلك، سألتها عن

توقعها لكن حياه عادت تهز كتفيها جهلًا ثم قالت جازمة دون يقين: تراكمات، اختبارات، إن دي الحياة ولازم نفضل فـ معاناة وعمرنا ما نرتاح؛ لإنها ما اتخلقتش للراحة.

تمهلت قليلًا ثم أضافت على مهل: رغبتك فجأة فـ الإنتقام منه ومنها بعد معاملتهم الوحشة ليكِ وإن كان تصرف طفولي، رغبتك إنك تكوني لوحدك حب حياته وإنها تبقى هامش منسي فيها موافقتك على المشاركة من الأول..

لامست شعر سلمى في حنان وبدأت ترجع خصلة منه خلف أكتافها ثم قالت بأسى: ما تفكريش فـ الأسباب، ثقي فـ الحدث وبس، ربنا عمله لسبب، تقبليه زي ما هو.. فكري هتعملي إيه والمستقبل هيبقى إزاي.

دارت تستند على جانبها الأيمن حتى توجه انتباهها كاملًا تجاه حياه وقد حلت تقاطع ساقيها: وأنتِ ناويه تعملي إيه مع حمزه؟

ارتشفت ما تبقى في كوبها ثم وضعته فوق الطاولة دون أن تغير وضعية جلوسها، حركت رأسها التي استندت فوق كفها: أنا وحمزه مسيرنا نرجع لبعض.

رفعت حاجبيها دهشة: أومال بتعملي إيه عند أهلك؟؟

ضحكت كأنها رائقة البال لا تحمل مثقال ذرة من هم: تقدري تعتبريها هدنة، حمزه محتاج وقت يكون فيه لوحده وأنا كمان، حياتنا بقت معقدة ومضغوطة جدًا بسبب سكوتنا الطويل وإن كل واحد بيداري شكوكه وهواجسه عن التاني.. غير إنه خبى عليا وخان اتفاق عقدناه سوا، بالأصح هو عقده معايا.. قرصة ودن صغيرة، ليا وليه.

قطبت بعد ذهول: وليكِ ليه بقى؟.. أنتِ اتحولتِ لإنسانة بتحب تأذي نفسها ولا إيه؟

رفعت ركبتيها مقابل صدرها وأحاطتهما بذراعيها، أسندت ذقنها فوقهما: متضايقة من نفسي يا سلمى أكتر مما تتخيلي.

أحاطت كتفيّ صديقتها بحنان تقربها من صدرها فيما الآخرى تتابع: وقت اللي حصلي وأما روحت المسجد بعد هروبي منهم عاهدت نفسي وربنا إني مش هاتعلق

بمخلوق للدرجة اللي أحس بيها إنه الهوا اللي باتنفسه أو ما أقدرش أعيش من غيره.. لإن عمري ما تخيلت عدم وجود بابا فـ حياتي، كان ملاكي الحارس اللي عمره ما يتخلى عني.. بس أما احتاجته بجد مالاقتوش جنبي، لكن اللي كنت مقصرة فـ حقه وقت حاجتي ما خذلنيش بالعكس ساعدني بأحسن ما كنت أتخيل ورزقني حمزه.. بكل نواقصه كبشر هيفضل نعمة بأشكر ربنا عليها دايمًا، اتخليت عن عهدي مع حمزه، مع النعمة نفسها اللي ربنا أدهالي، اسأت للنعمة وكنت بأحولها لنقمة.. لازم نفسي تتعلم إن مافيش غير ربنا تتعلق بيه، وإن حبها لحمزه هيكون وسيلة لرضا حبها الأول.. ربنا، وقتها حمزه هيجي وهنرجع أحسن من الأول كمان، أنا واثقة فـ قول ربنا فـ بعض كتبه «كفى لعبدي ملآي إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني وأستجيب له قبل أن يدعوني؛ فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه».

تمتمت سلمى بصوت خافت: يمكن أنا زيك.

وقفت حياه تسحب صديقتها من فوق الأريكة: يلا يلا، زهرة بترتب الحاجه اللي هتوديها عش الزوجية والمفروض نساعدها بدل قاعدة الولايا دي، هي عروسة وصاحبة الأولوية فـ كل حاجه دلوقتي.

لم تلم أيًا منهما أو تعاتب، ابتسمت في وجهيهما وتقبلت مساعدتهما بصدر رحب، أجمل ما فيها تقبل أعذار غيرها وإن لم يملكها.

سُئلت زهرة عن موعد وصول ثوبها الأبيض سالماً فأجابت بحياء: المفروض إنهارده، زمانه فـ الطريق.

ضحكت من هدوئها سلمى: دا أنا كان زماني إتجننت، زهرة!، فرحك بكره يا حبيبتي.. وعدم وجود الفستان قبلها بأسبوع على الأقل كفيل إنه يخلي أي عروسة فـ قمة توترها وإنزعاجها.

-وبإيدي إيه أعمله؟

استأذنت منهما ضاحكة: لازم أمشي عشان سايبه جنة مع ماما، أشوفك بكره يا عروسة.

رمقت زهرة شقيقتها المتشاغلة بضبّ الأغراض داخل حقيبة ضخمة مفتوحة فوق السرير، عقلها لا يقبل فكرة قدوم حياه إليها قبل عشرة أيام من العرس بحجة مساعدتها، والتي –دون تزمر أو عتاب- لم تفعل منها سوى القليل، قاضية أغلب وقتها برفقة أحمد الصغير، تمنت فقط ألا تكون المشكلة بين حياه وزوجها عويصة أو يطول الخصام بينهم.

***

ضرب سطح المكتب بقوة ارتجت لها الأغراض الموضوعة فوقه بشدة، تجاهل الصياح المتصاعد من زملاء العمل وشركاء الغرفة حوله، غرفة واسعة تحوي داخلها خمسة

مهندسين، إضاءتها القوية بجدران زجاجية عوضًا عن الاسمنتية مع تسرب أشعة الشمس إلى الداخل معطية بهجة وطاقة منسجمين مع الألوان الفاتحة للأثاث والسجاد، فمن يرى كل ذلك لا ينكر اهتمام الشركة بمهندسيها وعنايتها بهم.

جلس فوق زاوية المكتب القريبة من حمزه، الذي بالكاد رمش بعيونه نتيجة فعلته، تنهد حزينًا على حال صديقه، حتى بأصعب مراحل علاقته بهاجر لم يصل إلى ربع حاله الحالي، أهذا يثبت قوة الحب بينه وبين زوجته فيما يؤكد وهن الخيط الذي ربطه بالأخرى؟ أم أن المرء كلما تذوق الحب زادت مرارة فراقه؟

همس متحدثًا بصوت لا يصل أذان رفاقهم بالغرفة وقد عاد كل منهم إلى عمله: مبوز وفـ دنيا تانية، حتى رفضت تيجي إمبارح مع إني كنت محتاجك معايا.

رمش بعيونه متهربًا من لوم في غير محله: ما كانش في داعي لوجودي، والدك ووالدتك كانوا معاك ودا كفايه أوي.. المهم أنت عملت إيه؟

لم يستطع إخفاء ضحكته والتي لغت مفعول هزة اللامبالاة من كتفيه، رمقه حمزه بشك وقد انتبه لصديقه وأولاه كامل إهتمامه: مسعد!، عملت إيه مع الناس؟

بريق عيون صديقه المتخابث جعله يعيد جملته الأخيرة لكن بصيغة جديدة: عملت إيه فـ آية يا مسعد؟

ركب أجنحة الملائكة فوق ظهره ووضع تاجًا ملائكيًا فوق رأسه، همس ببراءة: ولا حاجه، حتى روح بص عليها فـ مكتبها، هتلاقيها كاملة مكملة.. إيدين ورجلين، وفتحتين مناخير أو تلاتة.. استنى كدا.

جس أنفه ثم عاد يتابع: أه إتنين، وبؤ واحد دي أكتر حاجه متأكد منها.

دفعه من ساقه المعلقة أمام ناظريه حتى كاد يسقطه أرضًا، طرده قائلًا: روح كمل شغلك يا رايق.. ما تنساش إن عندك سفرية بكره.

نفخ مسعد مغتاظًا: نكد نكد، وحياة دقني اللي لسه حالقها إمبارح دي إن اللي قالوا على الستات خميرة عكننه لو كانوا قابلوك كانوا رجعوا فـ كلامه، عكننة الستات إيه جنب بوز سعادتك الكميل دا.. فيل أبو زلومه يا ربي!

تجاهله حمزه فلا أمل بتغير صديقه إلا بمعجزة، وقد انتهى زمن المعجزات. تجاهلهم جميعًا وخاصة الضحكات الخافتة والموارة ممن سمعوا تعليق مسعد الأخير، خطر بذهنه خاتمة حديثه مع حياه قبل سفرها، جلسة طويلة من اعترافات وإدلاءات أجلَّ قولها، عم بعدها الصمت كأن على رؤوسهم الطير. في الصباح حملت حياه حقيبة تحوي بعض متاعها والأخرى تتشبث بالصغير في مهارة اكتسبتها بالتجربة،

همهمت بكلمات فيما معناها أن زهرة على وشك الزواج وتحتاج معونة كأي عروس، وهي شقيقتها الوحيدة ويجب أن تقف جوارها.

نهاية مفتوحة لم توضح بها إن كانت عائدة، فقط تخبره أنها تريد الذهاب وحدها، دونه، أهي فترة تفكير أم تصريح إنفصال خجول؟؟

تجاهل تساؤلاته اللا منتهية والتي لن يصل إلى إجابة لها قبل زفاف زهرة كأدنى تقدير، صب إهتمامه وتركيزه على العمل الماثل بين يديه؛ فهو ما يتقاضى أجرًا للتفكير به خلال ساعات الصباح تلك.

***

أبيضت مفاصل أصابعها من فرط تشبثها بيدي حقيبة يدها، عيونها تتعلق برجاء أن يكون كلام الطبيب مهدئًا لقلقها الأمومي على ميّ، رغم أن حسها نفسه ينفي ذلك. مقابلها أولى خليل انتباهه للطبيب النفسي دون أن يلقي نظرة إلى حنان أو يعنر مشاعرها انتباهًا.

تحدث الطبيب في مقدمة مهيئة للب الموضوع دون أي انفعالات زائدة، تمهيدًا لعرض المشكلة وتوضيحها، أخيرًا قال: ظروف انفصالكم، ضياعها منكم لسنين، وتغير نمط حياتها أكتر من مرة، إحساسها بالإختلاف.. كل دا ساهم فـ حالتها، ودخلها فـ حالة من الاكتئاب المرضي.

همهم خليل بعدم فهم مطالبًا بتوضيح أكبر، فتابع الآخر: الاكتئاب بيظهر فـ أشكال كتير، يعني مثلًا فـ حالة ميّ، العدوانية، رفض الأكل أغلب الأوقات، رغبة فـ الإنعزال ورفض التواصل مع المحيط، التأخر الدراسي شيء وارد جدًا مع مرور الوقت، رفض رؤية حد ليها كأنها غير طبيعية أو نقدر نقول بتتخذ الموقف دا منفذ لعصبيتها وعدوانيتها.

نظرت حنان إلى خليل بارتباك ثم عادت إلى طبيب: بس إيه اللي يوصلها للاكتئاب؟.. دي طفلة!

لامس أطراف أصابع يمينه بأصابع يساره أثناء إيماءة متفهمة: الاكتئاب قليل ونادر فـ الأطفال، 5% من الأطفال بيصابوا بيه.. بس ما نقدرش ننسى ظروف ميّ الغير طبيعية.

تنحنح قبل الاسترسال في الكلام: أما عن الأسباب، فـ الاكتئاب مش بيكون نتيجة سبب واحد، بيبقى أسباب كتير أدت لظهوره ومن الظلم واللا عقلانية إننا نختزله فـ سبب بعينه، لكن اعتقد القشة التي قصمت ظهر البعير، هي رؤيتها لاستقرار حياة أختها، بين أب وأم بشكل دائم.. فيما هي مضطرة تقضي وقت مع واحد منهم لوحده، وكأن مالهاش الحق تعيش حياة مستقرة وطبيعية زي أختها..

-وبإيدينا إيه نعمله يا دكتور؟.. أنا وحنان قررنا الإنفصال واستحالة نرجع من تاني زوجين زي الأول، وافتكرت إن ميّ متقبلة الوضع دا، خصوصًا إنها كانت صغيرة جدًا وأقل من إنها تنتبه لوجودي مع أمها وانفصالنا دلوقتي.

تراجع الطبيب في جلسته: أنا ما قولتش إن الحل إنك وأستاذة حنان ترجعوا لبعض، بالعكس أتوقع إن دا ممكن يسبب إنتكاسه نفسية أكبر لـميّ، لإنك وقتها مش هتكون أب بشكل كامل ليها –ودا ما حلش المشكلة- وفـ نفس الوقت هتشوف خسارة أختها اللي بتحبها جدًا لأب بدوام كامل.. ومجرد إحساسها بإنها سبب حزن أختها يزود من اكتئابها وتعاستها..

تأفف خليل متلاعبًا بسلسلة مفاتيحه المعلقة بأصابعه: والله أنا احترت معاك يا دكتور.. أومال حضرتك شايف إيه الحل؟

-ميّ لازم تتقبل الواقع، ودا عمره ما هيحصل دفعة واحدة، بالتدريج، وهيتطلب صبر كبير ومساعدة منكم قبل مني.

وافقت حنان بلهفة: طبعًا يا دكتور، المهم ترجع زي الأول.

حاول الطبيب الحفاظ على النبرة المتفائلة بصوته، لا يرغب في شحنها بالتشاؤم، فلا يظن أن ميّ ستعود كالسابق خصوصًا وهي على أعتاب المراهقة، فمن فاته محطة بالقطار لا يعود إليها أبدًا بسلوكه نفس الإتجاه المتقدم، ستتغير ميّ للأبد، هذه سنة الحياة، وإن لم يستوعبها الكثيرون.

أمسك قلمًا من جيب قميصه وبدأ يخط في ورقة شيئًا ما فيما يحدثهم: هنبدأ جلسات علاج جماعية؛ مجموعة من أعمار متقاربة بيقعدوا كل واحد يحكي مشكلته، وأغلبهم لما بيسمع مشاكل غيره بيقدر يعبر بشكل أحسن وأوضح؛ لإنه بيبحث جواهم عن التفهم لحالته زي ما قدر يتفهم حالتهم.. تقدروا تقولوا جلسة دردشة.

مدّ يده بالورقة إلى خليل: ودا دوا هتنتظم عليه فترة.

تساءل الأب مقطبًا: بس أعرف إن أدوية الاكتئاب والطب النفسي دي ممكن تعمل مشاكل وأحيانًا إدمان.

ابتسم الطبيب متفهمًا: ما تقلقش، الجرعات هتاخدها على الأقل ست شهور ولو حالتها ما احتاجتش أكتر من كدا هأقلله بالتدريج بدون آثار سلبية بإذن الله.

رغم الشكوك العامرة بصدر خليل إلا أنه قرر الإنصياع على مضض، فلا مفر. أصغت حنان لدورها كما يملي عليها الطبيب، الصبر والقوة أكثر ما شدد عليهما في مواجهة الأزمة النفسية التي تمر بها الطفلة.

***

وضع الصحن بالفنجان فوقه على سطح مكتبها، فلا تحب الشاي إلا في فنجان مزخرف بالورود.. إنها مزاجيتها المتطرفة أحيانًا نادرة، وتلك إحدى مشكلاتها في

تناوله بمكان غريب عنها أو في ضيافة من لا يحب الشاي إلا بأكواب زجاجية أو فخارية. همهمت بكلمات شكر خافتة ولم تنتبه إلى رحيل العامل المتردد، كأنه في انتظار شيء ما.

تأخذ رشفة كل عدة لحظات بعدما تأكدت من ساونته النسبية، حينما أوشكت على إفراغ نصفه رفعت بصرها الذي اصطدم بورقة تعزل الفنجان عن صحنه الصغير، التقطتها مقطبة الجبين وقرأت سطورها مندهشة.

«تِنكه حتى فـ شرب الشاي!، ربنا يعيني عليكِ.. ما تنسيش طقم الشاي فـ الصيني لأحسن شكلك طلعتِ دماغ..
فـ إنتظار ردك كمان ست أيام و ست ساعات»
خطيبك مسعد

كلامه جاء كالفأس طارقًا رأسها، أحقًا أنه أتى بالأمس مع والديه مطالبًا بها زوجة له؟.. ظنتها تهيؤات أو أحلام يقظة، ليس حلمًا بل كابوسًا!.. أبعد كل هذا تتزوج ذاك المهرج؟، البارحة أعطاهم ياسين مهلة أسبوع، سبعة أيام، قبل أن يطلعوهم على الرد النهائي، فالزواج أمر يحتاج التأني لا العجلة، قرار يقال خلال ثوان يتحمل المرء نتائجه سنوات.

لِمَ وافقت على فترة تفكير ولم ترفض فورًا؟، مسعد ليس بالزوج الذي يحتاج وقتًا قبل إلقاء كلمة لا في وجهه، لا يتحمل المسئولية كما بدى عليه، مرح كطفل بأربع أسنان فقط بلثته السفلى والعلوية على التساوي، لا تشك في رؤيته الإناث من منظور رجولي بحت بحثًا عن إنتفاخات بعينها مكتملة في نظره.

الفكرة الأخيرة شحنتها غيظًا دفعها إلى رفع السماعة وطلب العامل كي يأخذ أسوء فنجان شاي قدمه لها منذ أتت إلى الشركة ونبهته إن كرره بهذا السوء فلن تشربه منه أبدًا.

***

أدار إذاعة نجوم إف إم، يتسلى بثرثرتهم ويغير الكلمات التي حفظها وملّ تكرارها خلف أم كلثوم وشعبولا، وجه محتقن والغضب مشتعل داخله، لكن الرزق والسعي خلفه ما يدفعه للصمت، بعد ساعات طوال في الليل على السرعة المسموحة لشاحنات النقل الضخمة؛ كي لا يسترعي الأنظار إليه من المرور أو اللجان، وصل ظهرًا إلى القاهرة ليعيدوا توجيهه إلى السويس.

التعويض المادي كان كفيلًا بإغلاق فمه وكتم تزمره، لكنه تعب، رفضوا أكثر من ساعتين راحة من القيادة وتناول لوجبة ما تعينه على المسافة الباقية. التقط عدة حبات لب أبيض من فوق التابلوه، دفع نصفهم داخل فمه، عينه تركز على الطريق فيما أذنه تصغي لشكوى طالبة من الضغط الممارس عليها هذا العام لإنها شهادة.

قرب حدود السويس تمهل قرب لجنة أوقفته جانبًا، تتحقق من هويته ورخص قيادته وسيارته، سألوه أكثر من المعتاد، من أين أتى؟ وإلى أين يذهب؟ النقلة لصالح من؟.. إلخ.

الضابط الأكبر يسأل والعساكر والأمناء يفتشون كل ثغرة في الشاحنة تحت قيادة ضابط آخر، لاحظ لأول مرة أن من يحدثه ليس ضابطًا عاديًا بل رتبة كبيرة وقد لا تكون تابعة للإدارة المرورية من الأصل. أفاق من هلوسات ذهنه على همسات تتصاعد من حوله واكتشاف ما يبدو أنهم يبحثون عنه، متصيدون له.

سُحِبَ للخضوع لتحاليل دم؛ فقد شك به الضابط لتعاطيه ما يذهب العقل ويغيب الفكر، قضية إضافية لمصيبة سقطت فوق رأسه. بمن اصطبح قبل هذا المشوار اللعين؟!

***

تتمدد فوق الفراش بساقين منفرجتين، يقبع جسد ميّ الصغير بينهما، تمشط شعرها بروية تحاول من خلالها اكتساب وقت إضافي في مراجعة ما تفكر فيه وترتيب

الكلام قبل إغراق مسامع الصغيرة به. شرود ميّ حتى وهي بين أيدي أمها زاد القلق المنبثق في قلب الأم، اتخذت قرار البدء؛ فلم يعد هناك رجعة.

-أنتِ عارفه أنا بحبك قد إيه مش كدا؟

أمسكت كتفيها بحزم وأدارتها بميل حتى تستطيع مقابلة عيني ابنتها في مواجهة لا هروب منها، عادت تردد بيقين شديد القوة والثقة: بحبك، بحبك.. أنتِ أغلى حاجه عندي.

التفت ذراعي ميّ حول عنق والدتها، تحكم إغلاقهما في تشبث مستميت، حالما تراجعت وحدها مطمئنة قابلت ابتسامة أمها الدافئة بحنو: وبما إنك عارفه كدا، يبقى طبيعي اسأل إيه اللي مضايقك، وألاحظ أقل تغير فـ مزاجك واسأل عن أسبابه بردو.. مش لما بنحب حد بنحب نطمن عليه؟

تنهدت وأدارت ظهرها تسنده على صدر أمها كما كانت، صمتت تقلب الكلمات في عقلها قليلًا وتحزم أمرها، قالت مستسلمة: كنت حابه بابا يكون عايش معايا ومعاكِ، عايزه نبقى عيله.

أحاطت خصر ميّ الذي ما يزال يحمل معالم الطفولة، قربتها أكثر من صدرها تتشمم رائحة شعرها: أول درس بنتعلمه فـ الدنيا دي هو إن مش كل حاجه بنتمناها بناخدها، مش معنى كدا إني بألغي حقك فـ التمني أو الحلم.. بس دا واقع مجبرين نعيشه.

تحشرج صوت ميّ كأنها تكبح البكاء متساءلة بألم: يعني عمرنا ما هنكون إحنا التلاته سوا؟

ألصقت شفتيها بقوة فوق جبهة ابنتها، تركتها كذلك برهة من الزمن ثم انتزعتها بقوة مماثلة: فكرتِ إن هدى أختك هتعيش نفس اللي أنتِ عايشاه دلوقتي لو أخدنا خليل منها؟

استدارت تواجهها بوجه غارق بالدموع، شهقت حنان مصدومة فمتى فرت كل تلك الآلئ لتطمس جمال ملامحها الفتية، ظهر الاستجداء بينًا في عيون ميّ حتى عبر الدموع التي تتكاثر بلا دليل على إنقطاع وشيك: مش عايزاها تعيشه، بس ليه لازم حد فينا يعيشه؟؟.. ليه لازم أنا أعيشه.. بيوجع أوي، أوي يا ماما.

احتوتها حنان أكثر، فما عاد يظهر منها إلا خصلات مشعثة، بكت معها قلة حيلتها، هذه هي الدنيا، دنيا ودنيئة في كل ما تعطيه، تحرمنا الأغلى وتجود علينا بالقليل المزهود فيه، هي كامرأة عركت الحياة يصعب عليها فهم الكثير حتى اللحظة، فكيف ستطلب من بعقدها الأول أن تفهم ما لا تفهمه هي؟.. إرادة الله ولا نملك سوى الإنصياع بنفس متيقنة من فرج قريب بشكل ما، يحمل من الجمال ما يجعل النفس تنسى معاناتها السابقة في الفرحة الحالية.

***

منزل خشبي بناه صاحبه على النظام الياباني، بمنطقة معزولة لا يحيطها شيء سوى الفراغ الموحش والرمال المصفرة، بالإضافة إلى بحر خفف من وحشة المكان وعزلته. البيت مجهز بكل الاحتياجات والرفاهيات التي تقضي على أقل نبذة من السأم؛ تلفاز يحتل حائطًا بأكمله كأنه سينما منزلية، ضلفة كاملة تحوي أشهر وأفضل الأفلام، ما تعلمه منهم وما لا تعلم، جوارها ضلفة أخرى بها ألعاب إلكترونية لتمضية الوقت في لعب صبياني.

مطبخ به جهاز لأقل عمل يدوي، عجانة للخبز، غسالة صحون، آلة صنع الفشار، وحتى آلة لصنع غزل البنات!، لا تستطيع إنكار نفيه إياها «للجنة» ببساطة، غير محرومة من شيء إلا الإحتكاك بالبشر، يومها تمضيه في الإشراف على المرأة المدربة للعناية بالأطفال في مختلف الأعمار وهي مؤنستها الوحيدة البالغة في منفاها.

نظرت خلفها إلى الطاولة حيث يرقد هاتفها بلا حياة، شاشته مطفأة تعلن كذب إحساسها، لم يتصل أو يسمعها صوته منذ أمرها بالرحيل، موكلًا إليها الرعاية الكاملة بالصغير المقصي بعيدًا عن أمه. أمره فتح عيونها على الخطر، تتمنى أن تطمئن عليه وتسمع أنه بخير لا أكثر.

فكت عقدة ذراعيها تجمع شعرها المنحل وتبرمه فوق أحد كتفيها بعدما شتته الهواء المالح برائحة البحر، اسندت كفها فوق شعرها المبروم تحاول تقليل سرعة تفككه. عقلها يحاول وضع خاتمة للوضع الحالي، كيف ستنتهي هذه القصة؟، عاصم أو بسام سيبقى حيًا يرزق أم سيموت كرفيقه السابق دون إتمام مهمته؟

تنهدت دالفة إلى المنزل بحثًا عن انشغال لذهنها في ملاعبة رضيع لا يعي، وقد لا يعلم يومًا أنه عرفها أو تم إبعاده عن حضن والدته وألقي في أحضان غريبة، مشت متلكئة لا يوجد ما يحثها على الإسراع، وحدها النهاية ما تتمنى سرعة وقوعها مهما كانت؛ فالانتظار أشد إجهادًا للنفس والعقل. لمحت عبر زجاج النافذة وعبر الرمال الممتدة، طوفان من الغبار يعبئ الهواء، ضاقت عيونها مع اقترابها من النافذة كفريسة يخشى إدراك الصياد لمخبئها، ثلاث سيارات ذات دفع رباعي تندفع في إتجاه المنزل؛ فلا يوجد لهم مقصد آخر غيرها.

هرولت تصعد كل درجتين في خطوة، اسرعت تلف الطفل في ملبسه وتتأكد من ارتدائه جاكيتًا، أمرت المرأة على عجل أن تتجهز؛ ففي الطريق إليهم ضيوف ليسوا على الرحب أو السعة..

ارتدت حامل الأطفال والمرأة تعينها في سرعة، وضعت بعدها الطفل فيه وقد أصبح رأسه متوسدًا لصدرها وركبتيه تخبطان معدتها. تركتها المربية مقتربة من أحد الأدراج التي تحوي أغراض الرضيع.. في العادة؛ لتسحب من مخبأ سري مسدسًا، رفعت يسر حاجبيها إندهاشًا فيما تتلو لإنهاء ارتداء سترتها ووضع القلنسوة فوق

رأسها، لا وقت لديها للتسمر والتحديق كبلهاء لم تدرك أن المربية نفسها أحد أفراد الشرطة وزميلة في فريق عمل عاصم أو بسام ذاك!

-لازم تمشي بسرعة، قدامهم حوالي 3 دقايق ويكونوا هنا.

انتبهت لوقوفها جنب النافذة تعد سلاحها للإطلاق فور الحاجة، تقدمتها المربية أو الشرطية في طريقها إلى مكان لا تعرفه، لكنها أطاعت، شطح ذهنها بعيدًا عن الموقف الحالي للحظة، أليست كلمة «أو» في تعريفها للشخصيات المتواجدة في حياتها صار أكثر من اللازم؟؟.. أمها أو زوجة أبيها، عاصم أو بسام، رجل عصابات أو شرطي شجاع، دنيء أو شهم، وأخيرًا.. مربية أو شرطية..

-يخرب بيتكوا!

هكذا صاحت فاغرة الفاه حين بدأ جزء من أحد الجدران في الحركة مفسحًا لها المجال للولوج داخل ممر معتم، أهي تحلم بأحد أفلامها البوليسية المفضلة؟؟ أم تتقمص دور البطلة في رواية لدان براون؟.. شعرت بشيء يندس بين أصابعها، نظرت إلى يدها فوجدت سلسلة مفاتيح ومصباح إضاءة، دفعتها المرأة إلى الممر تنبهها أن الوقت ينقضي وذلك ليس في صالحهم، وصل مسامعها تنويهاتها الأخيرة قبل أن يغلق جزء الجدار المفتوح عائدًا إلى وضعه.

-أمشي للآخر، لما توصلي لمكان سد هتلاقي فوقيكِ إيد معدن، اسحبيها هتفتح، لما تخرجي هتلاقي موتوسيكل مخفي مفاتيحه اللي معاكِ، ابعدي على قد ما تقدري، فيه ورقة مكتوب عليها أرقام الظابط بسام.

انغلق الباب بعد سؤالها عن سبب تركها لهما، أجابتها الأخرى بابتسامة ربما تراها للمرة الأولى على وجهها: لازم حد يعطلهم...

أخذت نفسًا عميقًا وفتحت المصباح اليدوي، نظرت حولها، ممر ضيق بالكاد يسع مرور شخص بمفرده، وإن كان بدينًا فقد ينحشر جسده بلا أمل في الخروج، يجب أن تسرع فالممر ضيق ولا توجد فتحات تهوية، إذًا فكل نفس تأخذه والصغير يحسب عليهم..

لثمت جبين الصغير النائم والذي رغم التوتر لم يستيقظ، ابتهلت ألا يصو حتى يخرجا من هذا المكان فلا تنقصها هيستيرية طفل، حثت خطاها وسارت حتى ملّت في إنتظار حائط سد لا يأتي، رغم حسباتهم لكل تفصيل فقد نسوا أن يجعلوا الدراجة النارية وراء الحائط المتحرك، وقتها كانوا وفروا عليها جهدًا إضافيًا بلا طائل.

اصطدم ضوء المصباح بالحائط فتمهلت أخيرًا، رفعت الضوء للسقف المنخفض والذي لا يبعد كثيرًا عن رأسها، يدها تستند عليه مطمئنة إلى نوم الطفل الهانئ، وجدت المقبض وبدأت تسحبه للأسفل مع الابتعاد عن طريقه انهمرت كثبان من الرمال فوقهم اتخذتها سلمًا تصعد منه إلى الفتحة ثم الخارج، حاولت وسعها تحميل الثقل إلى الخلف وظهرها حفاظًا على الطفل من الأذى، بعد عدة محاولات خرجت أخيرًا، بحثت بعينيها عن الدراجة النارية المخفية.

حولها بدأ الزرع والشجر في الانتشار كسرًا لحاجز الصحراء واللون الأصفر الذي سأمت رؤيته، لمحت صخرة مستندة إلى شجرة معمرة بوضع غير اعتيادي لتجاورهما بهذا الشكل، خصوصًا مع ضخامة الصخرة. اقتربت منها فوجدت الدراجة النارية راقدة وقد كسيت بأغصان يابسة وأوراق ذابلة.

بعد ثلث الساعة كانت تعتليها والصغير ما زال مثبتًا فوق صدرها ناظرًا بأعين شبه مغمضة في عدم اهتمام بما حوله بعدما أشبع معدته بزجاجة الحليب التي ألتقطتها على عجل قبل فرارهما، وضعت الخوذة حالما تأكدت من اختفاء الرأس الصغير فوق صدرها داخل قلنسوته ذات أذنيّ الدب.

أدارات المفتاح وزادت دفع البنزين تتأكد من عدم ظمأها واستعدادها للإنطلاق، دعت للمربية أن تكون سليمة وبأمان، همهمت للصغير قبل إندفاعها بسرعة شديدة عبر الطريق الذي بدأ يتخذ مظهرًا حضريًا والمباني المعمارية تلوح في الأفق.

-ما بقالكش كام يوم وعشت مغامرات مش هتشوفها فـ المسلسلات وأفلام الكارتون.. صحيح، بمناسبة الكارتون.. حان وقت الإنطلاق!

***

دبّ الذعر في قلوبهم الفارغة عقب أطلاعهم ممن أرسلوه في أعقاب الشاحنة من القاهرة وإلى السويس على خبر ترصد الشرطة لها، وإيقافها للسائق ثم القبض عليه، لم يعرف التفاصيل لكنه رأى عدة قطع ذهبية قديمة تخرج من مخابئ سرية بمؤخرة الشاحنة، أغلب الظن أن أمرهم قد كشف، فقط عامل الوقت هو ما يحول بينهم وبين السجن؛ فالسائق يملك العنوان ومع أهدأ سؤال وأضعف قلم على قفاه سيتقيئ ما يعرفه.

اضطراب شاع في المكتب القائم على الميناء والمخزن اللاحق به في الأسفل، كل فرد يفكر كيف ستكون نهايته، متأملين حلًا يكون طوق نجاتهم. وجود رامز في القاهرة وأحمد في السويس، جعل الأمر أكثر يسرًا في التحكم.

لم تمر ساعات على اكتشافهم أن عاصم ما هو إلا ضابط ينتحل هوية ابن الإمبراطور.. المتوفي!

أوراق في غاية الأهمية استطاع كبير الخادم في قصر الإمبراطور العثور عليها ساعة سهو من صاحبها، كشفت الحقائق ودفعتهم لإرسال الشحنة إلى الميناء مباشرة مع نفس السائق الذي أحضرها من سوهاج، عوضًا عن إخفاءها في مخزن لهم بإحدى المدن الجديدة قليلة السكان قبل نقلها مرة أخرى في شاحنة تابعة لهم إلى ميناء السويس.

خيانة وغدر ليسوا على البال قلبوا الموازين رأسًا على عقب، هتف أحمد: شوف الشخص اللي بلغ إختلاف الخطة!.. لازم نخلص منه قبل أي حركة جديدة.

وافق بتوتر: حاضر، بس هنعمل إيه دلوقتي؟

-لازم تختفي، السواق شافك أنت واتكلم معاك.. سهل يوصلولك، ظبط النايت كلّاب يشتغل كويس فـ غيابك لفترة وخلي حد تثق فيه يديره عقبال ما نرجع.

-وأنت؟.. أنت هتعمل إيه؟

نفخ أحمد مغلقًا الخط: بلاش تعرف حاجات أكتر من اللازم، أما أعوزك هأوصلك.

ركل بمقدمة قدمه ساق الطاولة الصغير فأوقعها بما عليها من كؤوس وفناجين فرغ معظمها، لقد أصاب شوقي ضربته حقًا، شغل ذهنه بمشكلته مع عائلته مجسدًا أكبر مخاوفه كحقيقة لا مفر منها، انشغل بعائلة خسرها كروح مزهقة لا أمل لها في الحياة، دار في حلقة ابنه وزوجته، ابنته وحفيده، بوقت لم يكن واجبًا عليه سوى التركيز في العمل.. بالأخص وهي مهمة كبرى وحساسة.

يسر هي ورقته الرابحة في حربه مع ابن الإمبراطور المزور، فتعلقه بها لم يخف على أعينه الثاقبة. يجب أن يجدها رجاله ويحضروها أسفل قدميه، من الجيد إرساله من يتعقبها فور إقصاء عاصم لها بعيدًا، في خطوة إن لم تنفع فلن تضر، ولحظه الجيد.. أصابت.

أنتهت علاقته بعائلته للأبد من أجل ما بناه خلال الأعوام الماضية، خسر أهم الأشخاص بحياته لكن لن يسمح بما تسبب في خسارته لهم أن يضيع مع الريح. سيتشبث بما سعى إليه بيديه وأسنانه، وذاك الضابط المغفل ألقى نفسه وسط النيران فاقدًا كل رجاحة قد يحملها عقله الضامر.

***

حدجها بنظرات مترقبة، يحاول سبر أغوارها قبل أن تدلي بها، كانت مقابلة جدية، طلبتها لعجبه قبل مرور الأسبوع المحدد، صراع خوفه ومنعه من التجلي أمام العيون، لا ينفي صخب قلبه المفزوع حين حادثه شقيقها كحلقة وصل بينهما، يصب في أسماعه رغبة آية في اللقاء بأقرب فرصة، تهربه حتى مرور الأسبوع الذي لم يمض منه سوى ثلاثة أيام لم يفلح، اضطر للإنصياع وما أشد كرهه للاضطرار!

-جبتيني عشان تقعدي ساكتة؟

نبرته المشبعة بالجدية زادتها توترًا، عيونها تهرب من لقائه، أوشكت جديته –الغير معتادة- للحظة على فتح أبواب التراجع، لكنها قاومت: ما قدرتش استنى أسبوع قبل ما أقولك الكلام دا.. حبيت أصارحك من دلوقتي، لإن التفكير هيفرتك دماغي.

رفعت رأسها؛ فوجهه معبرًا مهمًا لما تريد الوصول إليه: بصراحة ومن غير لف ودوران، أنا ما شوفتش منك اللي يخليني أفكر فيك كزوج، دايمًا هزار وضحك.. مقالب وشغل عيال، وطبعًا ما أقدرش أنسى معاكسة البنات، تقدر تقولي حاجه واحدة فيك تخليني أقبل الإرتباط بيك؟

حاول إخراج الصعداء على مهل دون أن تلحظها مما جعل الصمت يسود قليلًا، كلماتها طمأنته، مجرد تفكيرها في الموضوع هو إمتياز لم يتوقع حصوله؛ لذلك كان يحاول مناغشتها لحث عقلها على التوجه ناحيته، أما ما يحدث الآن يعتبر من أفضل ما يكون، سألها موليًا إياها جل إنتباهه، مال ناحية الأمام مستندًا بمرفقيه فوق ركبتيه ورأسه مرفوع ناحيتها: المفروض الشيء دا أنتِ اللي تلاقيه وتقوليلي عليه مش العكس، عمومًا الخطوبة اتعملت عشان كدا.

استرسل موقفًا محاولتها التعليق: أكيد نظرتك للشخص اللي هتتجوزيه تختلف عن شخص عادي فـ حياتك، كزميل أو معرفة.. ونفس الكلام بالنسبة لي، مش هأظهر للناس باحتكاكي العادي معاهم نفس اللي بأظهره لشريكة حياتي.

سألته بحذر: يعني أنت شايف إن فيك حاجه تخليني أقبلك كزوج؟

-مادام فيكِ حاجه شدتني اختارك كزوجة، فـ اعتقد إن فيا حاجه مشابهة، حتى لو ما كانتش من نصيبك أنتِ.

باغتته مطالبة بتوضيح: أنت اخترتني ليه؟

ابتسم رغمًا عنه: هو السؤال دا مش قديم شوية؟، اخترتك لإني شوفت فيكِ الشيء اللي يخليكِ الزوجة المناسبة ليا، البساطة، الأصل، الجمال، الروح.. وإن كان اللي شوفته منها مجرد جانب صغير ومش الحقيقي.

استفسرت مرتابة: بس؟

تراجع في جلسته: لو منتظرة اعتراف بالحب، فـ آسف مش هأخدعك بحاجه لسه مش موجودة، بس دوافعها موجودة، الاحترام والود والمحبة.. الأكتر بيحي بالعِشرة والقرب.

عيونهم تكمل حديثًا أوقفته الألسنة، شعور عامر بالراحة ملأها، لا تعرف سره ولكنه يكفي حتى تدلي بقرار أكيد بعد أيام، صدقه الناضح في كلماته كما عيونه كان كتربيتة طمأنينة وبردًا على نيران قلبها، امتناعه عن التعبير عن حب لا يستشعره حقيقة أكد أنه يملك ما قد تقبله لأجله.

***

استرخاء بادٍ للعيان، جعل الضابط في كل مرة يدلف إلى المكتب أو يخرج منه يحدجها بنظرات متأملة يحاول قراءة ما خفي عن الظهور، تجلس تتصفح إحدى

المجلات المكومة فوق طاولة جانبية، أو تنتصب قرب أحد النوافذ تطالع جزء خلفي من مبنى الإدارة العليا لا يحوي شيئًا سوى بضعة خردوات لا تحتاج كل هذا التأمل والذي يطول لساعات متواصلة كما تفعل الآن.

سألته دون أن توجه له إهتمامًا: هأفضل هنا لحد إمتى؟

أجابها بجديته المتماشية مع وظيفته: هنا أمان ليكِ.

نظرت صوبه بسخرية: وأنا مش خايفة، ممكن تسيبني أمشي بقى؟

إن فعلها فقد يفقد عنقه على يدي بسام، هذا الأخير يثير عجبه، يبدي إهتمامًا مبالغًا به تجاهها، يتصل ليطمئن على وجودها، كأنه متيقن من رغبتها في الذهاب ومحاولاتها تنفيذ ما في رأسها.

-وقت ما نطمن إن كل شيء تمام، هنوصلك بنفسنا لحد البيت.

تركها مغادرًا وقد حمل ما أراده من أوراق. زهدت النافذة وذهبت صوب الأريكة التي صارت سريرها كذلك مؤخرًا، غيظها يتفاقم، ليست من هواة الأسر، انصاعت فيما سبق لأسر بسام لها بمنزل على البحر.. فقط من أجل حياة طفل لا ذنب له، أما الآن وقد أُخِذَ منها الرضيع إلى جهة ستوليه العناية المناسبة؛ صبرها يتعجل النفاذ، وقلقها على بسام يزيد عصبيتها، ترغب في السؤال عنه لكن هناك ما يلجمها عن ذلك.

منذ وصلت إلى أقرب نقطة شرطة باعتلاء الدراجة النارية وقد صار كل شيء بسرعة أذهبت أنفاسها وملت ملاحقتها، أملها الوحيد أن بسام ما زال على قيد الحياة بعد ما وصلها من أخبار عن القبض على سائق شاحنة بها مهربات يتعلق بذكر اسمه صدفة على لسان الضابط.. وهذا كل ما نالته، حتى نقلها عودة إلى

القاهرة والاحتفاظ بها داخل مبنى الإدارة العليا حيث يعمل بسام -كما استشفت- يحيط بها رؤساءه وزملائه لم يعد عليها بما يثلج قلقها.

****

عُقِدَ القران قبل ساعة أو يزيد، الحديقة مضاءة ومقتظة بالضيوف، يتنقل بينهم في سعادة وطاقة تظهر للعيان من خلال بسمته المشعة، يشكر الجميع فردًا فردًا مشاركتهم إياه في أسعد لحظاته، تخونه نظراته منصرفة إلى باب المنزل الداخلي يتلمس طرف ثوبها حين يظهر، يجب أن تكون عيونه هي الأولى في رؤيتها؛ زوجته الآن وحقه وحده بعدم غض النظر عنها.

كأنها كانت تتحين فرصة إدارته لظهره جهة باب خروجها، فخطت إلى الخارج ساحبة البساط من أسفل قدميه بشرف أول من يرى طلتها، نسى حنقه الذي لم يدم سوى ثانية، تأملها بثوبها الأبيض دون نفش يتحكم في خطواتها ويقيضها، يتهدل بدلال وأنوثة رقيقة من حولها كصاحبته، حجابها المحافظ على طوله الطبيعي لكن سبقه درجات من التل الفضي كبطانة لقماش الحجاب الستاني، ما حافظت عليه من كلاسيكية العروس هي طرحة العرس المترمية خلفها فوق الأرض والزاحفة على الحشائش الخضراء النابتة متماشية مع خطواتها الضيقة، ترددًا منها أو بما يفرضه عليها علو كعبيها الغير معتادين.

سلمها إليه والدها، يشدد عليه بحسن الرعاية والمعاملة، ويشدد على يديها في ترجي صامت أن توقظه من حلم لها ككابوس عليه.

انسحب الأب، مما سمح لصديقه عبدالرحيم بالإقتراب وإعطائه الدعم الكافي قبل أن يتهور ويتصرف بصبيانية نازعًا زهرته من بين أيدي عريسها، شدة كف عبدالرحيم فوق كتفه جعلته يرسم ابتسامة مرغمة فيما يده تمحو أثر دمعة فرت.

ضمّ كفيها بين أصابعه، نظر للحظة إلى اشتباك أيديهما، ابتسم وعيونه تعاتبها على قفازاتها المنقوشة بقماشها الستاني كحجابها، يلوم استكثارها عليه لمسة بريئة كانت لتكون أشد تأكيدًا على تمام زواجهم.

اكتفى بهروب نظراتها الخجلة، تؤكد عدم تقصدها ما حدث وسلامة نيتها، بارك له ولها ثم رافقها مرورًا بالضيوف، يتقبلون التهاني متمتمين بمثلها للبعض.

سلم على فاروق ثم انزوى في مقعد بطاولة منعزلة، تَرى الجميع ولا تُرى، لم يستطع إلا إدعاء الغباء من أسئلة فاروق الصامتة له، ليست المرة الأولى لزيارة حياه لهم بدونه، لكن تخلو أيضًا من رنين الهاتف مرة أو بضع مرات في اليوم كذلك إعلانًا عن رغبته في الإطمئنان عليها؟.. هنا شرعت الظنون في التوثيق، المكان والمناسبة لا يسمحان بحديث قد ينتهي بمأساة جديدة.

أتت نجلاء معه خصيصًا لتعويض شوقها لأحمد الصغير، جلست على نفس الطاولة مع عائلة سلمى تحمله بين ذراعيها مقابلة ضحكات فاطمة بابتسامة أشد فتنة للطفل الضاحك ردًا على دغدغاتها، جيئة لا سبب منها سوى دفع الانتباه عنهم ظاهريًا وشوق يعمل كوقود صاروخي حقيقة.

شاهدها خلف العروس مع بقية الفتيات وأقرب صديقات طفولتها إليها، رغم المسافة التي تفصله عنها إلا أنه استشعر تخابثًا يلمع في بؤبؤيها، وتهربًا من مواجهة نظراته، قطب في شك، إنها لا تهرب من معارك العيون إلا حينما تتصرف بطفولية وتفعل ما هو أشد صبيانية مما يفعله صغيرهما ضربًا في الهواء أو إلقاء لما يصيبه الحظ العاثر بالوقوع في قبضته ليرديه أرضًا مع ضحكة سعيدة منتصرة.

واردة أنارت في رأسه مصباحًا أظهر زاوية لم يرها في عتمة سوء ظنونه وضعف أمله، لم يكمل تحليل ما فكر فيه لامحًا ظل ياسين، سحب الأخير مقعدًا مجاورًا

واحتله، راقبه مندهشًا فعدا التحية ذات رفع الكف الأيمن لم يوجه له كلمة، ابتسم ساخرًا؛ فيبدو مثله، وقد اتحدت الصديقتان على أزواجهن.

عيونه على سلمى وصغيرتهما بثوبها ذي التنورة التلّية بصبغة ذهبية، أضفى تاجها البسيط الشبيه بتيجان الإغريق القدامى لمحة ملكية وعزة زادت حسنها مع عمرها معدود الأشهر.

تركزت حدقتيه على ضحكة سلمى ومداعبتها لجنة بين ذراعيها، تتاكف أصابع الصغيرة كي تحرر قلادتها الذهبية المتشبثة بها وقد وجدت فيها لعبة تعينها على قضاء الوقت.

سألها داخل عقله، إلى متى؟، العقاب طال والفراق فاق الاحتمال، لا ينكر أن البعد علمه قيمة الوصال وكم صارت روحه متمسكة بروحها، ما كان مميزًا معها عاد عاديًا دونها، لم يعد في التسلل ليلًا إلى المطبخ وتناول الطعام خفية يدفع المرء للابتسام، والسير حافيًا في أرجاء المنزل فقد بريقه الذي اكتسبه من المشاركة معها.

تخطى حدودًا لم يفكر يومًا الدنو منها، تسرع وهدم أساسًا بني من قش. رفض حبها وتكبر عليه في البدء، والآن يتلمس فتاته ولا يطاله، سخرية الحياة أو انتقام الدنيا لها منه، لا يسعه سوى لوم نفسه، تزوج كادي؛ لإن جمالها المتدلل الأنثوي بتفاخر أصاب رجولته التي كانت في حاجة لبعض اللين مما كان وافرًا لديها. أضحى حكمه على كل أنثى بدرجة جمالها، لم يهتم بمعرفة سلمى وشخصيتها؛ لإن جمالها كان مخفيًا عن أعينه في البداية فتيقن من أن الدمامة هي المستترة خلف القماش الأسمر، ثم رؤيتها بدونه جوار والدها الملقى بالأرض وحديقة منزله لم يغيرا في رأيه الكثير. لقد رأى من الحسناوات ما لم يهتم بالعدّ لكثرتهن، رأها بأعين جوفاء عادية الجمال وإن خلت من الدمامة التي ظنها سابقًا، جمالها اتضح حين احتك بها، عاملها وتلقى اهتمامها وحبها المرفوض ظاهرًا، والذي انخرط في تلمسه

واستشعره كل لحظة مدعيًا ال كبر وصغر معروضها. ألا يمكن لقلة الجمال أن تكون هبة؟، هبة يحمي به صاحبته من السطحيين أمثاله، من لا يرون الجمال إلا في حسن الملامح وإن صحب بقبيح الصفات، ومذموم الأخلاق؟.. يبدو أنه كان الأعمى الوحيد.

تمتم بالجملة الأخيرة بصوت عال مما فتح مجالًا أمام حمزه للتعليق: بتقول حاجه يا ياسين؟

نهض على عجالة وعيونه لا تفارق الواقف جوار زوجته يحدثها متلهيًا بملاعبة الصغيرة، استأذن بكلمات متداخلة لم يتبينها الآخر تفصيليًا، حث خطاه في جهة محددة.

-عقبالنا.

همسها بحالمية مبالغ بها أشعرتها بالخجل، حتى الآن لا تصدق إصراره على الذهاب معهم إلى العرس، هي نفسها كانت مترددة لآخر لحظة لولا اتصال حياه المصمم ثم زهرة التي بالكاد قابلتها مرة دون تعارف فعلي. تصميمه على المجيء ما دامت ستحضر أربكها وتسبب في استثارة ذهنها، أهي مجرد مشاركة، فضول، أو تمهيدًا لما قد يتكون بينهما؟ أم مراقبة وتعقب خطواتها وقلة ثقة في إخلاصها؟

استفسر عما يضايقها فصمتها صار مدارًا لقلقه هذه الأيام، سألته مصممة على نيل الإجابة الصحيحة: صممت تيجي معانا ليه؟

قطب: وجودي مضايقك للدرجة دي؟

عقدت ذراعيها محافظة على إكفهرار وجهها: لو كنت بأتضايق من وجودك ما كنتش قبلت بالخطوبة.

سخر: اااااه، الخطوبة اللي مدتها ست أشهر؟

ضاقت عيونها بحدة: أظن دا حقي، ودي مش أطول خطوبة فـ التاريخ، فيه ناس بتتخطب بالسنين.

تفاقم غيظه، وهي أعصابها باردة كالمثلجات فيما يخضع لدرجة حرارة غليان الماء، تركها وانصرف.

لم تعرف كيف تتهرب من وقوفه بجوارها وبدءه حديث لا يتم، ساعدها في إخراج أخيها ووالدها من براثن المكائد المحاكة ضدهم عن طريق والده وعمها، مهران ابن عم مثالي، يعيبه معرفتها بما يحمله قلبه ناحيتها، زواجه لم يلجم تقربه منها أو يقلل محاولاته، تشبثت بصغيرتها بعدما أوشكت على تركها بين أيادي عمتها الصغرى آية.

ابتسمت شاكرة في مواجهة غمزة أخيها من خلف أكتاف ابن عمها، يسحبه بعيدًا في حديث عن الأحوال ثم الأعمال: جدد عهوده ولا لسه؟

التفتت إلى ياسين مقطبة؛ حيرة من مبغى سؤاله: أفندم؟

تجاهلها مبتسمًا لصغيرته يداعبه خديها الممتلئين باحمرارمحبب، ضحكت جنة ورفعت ذراعيها تلقي ثقل جسدها جهة أبيها في دعوة غير منطوقة لحملها، تركتها تذهب إلى أحضانه على مضض، وحالما وجدت وقوفها جوارهم بلا دا ع انصرفت تطرق الأرض بحذائها.

توقفت خطوات الرجلين المبتعدة في اتجاه أحد الأقرباء حينما ضج الهاتف بإصرار شديد، أجابه مهران على مضض معتذرًا من ابن عمه. انقلب وجهه مع تفاصيل ما سمع، انسحب مبررًا ضرورة ذهابه بما قيل له عبر الخط؛ والده اعتقل بتهمة لا يعلمها، لكن المتصل يؤكد خطورة الوضع والتهمة. حاول زين الذهاب معه وعرض خدماته لكن ابن عمه تمسك بالرفض وهرول مغادرًا.

***

وصلت إلى قمة السلم ثم استدارت جهة غرفة والدها، حان موعد دوائه، أوصتها زهرة بإحضاره وإجبار والدهم على تناوله، ابتسمت لجمال روح شقيقتها، من أي عالم هي لتفكر بدواء أبيها بينما يدها تستكين لأول مرة بكف شريك حياتها، تنهدت مفكرة في أي عمل خيرّ قام به جلال كي ينال زوجة كأختها.

يد قوية قبضت على معصمها، أدارتها حول نفسها حتى استكان ظهرها منبسطًا ملامسًا للجدار وكف تكتم صرختها المصدومة لوقت استعادة وعيها وإدراك هوية الواقف أمامها كاتمًا الأنفاس داخل صدرها بإحكام إلتصاقه بها.

انزحت الكف رويدًا، ثارت وعيونها تقدح شررًا: أنت اتجننت؟.. فزعتني!

أجابها مولجًا إصبعه في قمة حجابها منشغلًا بإدخال بضع خصلات هربت من أسره: أحسن، دخلي شعرك دا.

أنهى كلامه متأففًا؛ فعوضًا عن إخفاء شعرها زاد انسيابه ورافق البضع خصلات العديد آخريات، انشغلت فيما طلبه بينما يسألها لامحًا الخصلات المتمردة: أنتِ قصيتِ شعرك؟

ـعملت قصة بس.

ـفردتيه؟

ـأيوه.

ـلمين؟

إدراكها مغزى سؤاله جعل ابتسامة متشفية تدغدغ ثغرها بحثًا عن منفذ للظهور، مارست سيطرة عنيفة على نفسها لكي تخفي زهوها.. إن كان من طبع الرجال عدم

الإنتباه لصغار الأمور بما يحل في زوجاتهم؛ فهي للحق محظوظة بهذا الزوج ومرصد حسد بقية جنس النساء.

أمعنت إغاظته مجيبة: ليا.

أدنى وجهه منها حتى لفحت أنفاسه الحارة وجهها المشتعل، لامس أنفها بأنفه في حركة عاطفية يعلم شدة أثرها في مشاعرها: ودا من إمتى؟

همسه الحنون المنخفض قرب العصب الحسي في أذنها زاد تأثير وقفتهما حميمية، إزدردت ريقها بمشقة لم تخف عليه، انفرجت شفتيها في دعوة خجولة بكماء، ابتسم بحب يلتهم ملامحها من اشتياق كان يتقلب فوقه منذ رحلت عنه دون كلمة أمل أو حتى أمر فاصل.

دفع نفسه بعيدًا بكفه المستند جانب رأسها على الحائط، يكفيه ما حققه ووصل إليه حتى الآن، شعنونته اللئيمة والتي لم تنسلخ بنفسها بعيدًا عما وشم بقية جنسها من كيد ودهاء، تأكدت صحة ظنونه، تتخابث عليه وتدعي الخصام، ستذوق بعضًا مما أذاقته.. في جرعة مخففة.

وقف على رأس السلم ينظر إليها هاتفًا: عمي مستني الدوا ما تتأخريش.

فتحت عينيها على مهل، مصدومة من المسافة الطويلة التي فصلت بينهما فجأة دون أن تشعر، كزت على أسنانها، لقد أراها السحب ثم تركها ترتطم بالأرض الصلبة، فتحت باب الغرفة تدلف إليها بجسد ثائر نتيجة تلاعب شيطاني مورس عليه.

****

أوقف مسعد سيارته أمام المبنى، رفض على غير العادة عرض ياسين بالصعود وتناول كوب شاي أو فنجان قهوة يعوضه عن طول طريق السفر. طالعه للحظة

وألقى نظرة على أخته ثم تركهم في مجال من الحرية متأكدًا من مشكلة بينهما وتعبير آية يدل على أنها المذنبة، قرصها بخفة متخطيًا إياها، وقف أمام باب المصعد يتلاعب بهاتفه في إنتظار إنتهائها من الحديث.

شكرت صنيع أخيها؛ فهي منذ بدء الطريق تحاول عبثًا الحديث لكن وجوده شكل إحراجًا مضاعفًا، وقفت تقلب قدميها في عدم إتزان، يقف أمامها خاطبها في استكانة لم تظن يومًا أنه قادر عليها، صبور حد الغيظ.

-أنت متضايق ليه دلوقت؟

رفع حاجبيه، يومان مروا على خصام غير معلن بينهما تأتي لتسأل بعدهما عما أصابه مدعية الجهل؟

-أنت عايزني أبين لهفة على جوازي من واحد لسه ما حبتوش؟، لو عملت كدا هأبقى منافقة قدام نفسي.. ودي صورة أرفض أشوف نفسي فيها.

صدمه منطقها لكن حبًا بدأ يطرق باب قلبه، زاد نفسه عزة أن لا يكون فعل المثل معها، أشار إلى باب المبنى: اطلعي يا آية، تصبحي على خير.

تقدمت على مهل ناحية الباب فيما استدار حول السيارة، قال بصوت منخفض بالكاد وصل مسامعها: مش زعلان منك، يمكن زعلان على نفسي.

التفتت تنظر إليه تتبين صحة ما سمعت لكنه أسرع بالدخول إلى الجراج، كي يضع سيارة ياسين في مكانها قبل أن يذهب، قرر أن يعود إلى بيته سيرًا على الأقدام أو ركضًا وإن تسبب في وصوله صباحًا.

تحبه بشدة، وتتعلق به حد الجنون، رغم ذلك تأبى الاعتراف بما يعتري قلبها من تغيرات في وصاله، مصممة على تلويعه وإظهار قبولها به على مضض، مع ذلك ستقتله إن غض البصر عنها وقرر البحث عن الحب لدى غيرها!

***

دلف إلى المكتب بعد تردد، يقدم خطوة ويتلكأ أخرى.. وبينهم مسافات طويلة ومحافظات فاصلة كان الشوق يستبد به، رغبة عارمة في الطيران لرؤية وجهها والإطمئنان عليها استبدت بخلجات نفسه. استعجب ذاته واستغربها، لم يعرف يُسر حق المعرفة، تعاملتهم قليلة وسطحية، تتغالظ عليه، شخصيتها صلبة وجادة، هي غير ما اعتاد لقاءه من النساء –إن كن يعتبرن نساء- قد يكون الإختلاف هو سر الإنجذاب، فلولا أن أحد القطبين موجب والآخر سالب لتنافرا مدى الحياة.

فتحه بخفة ووقف يراقبها، كانت كما أبلغه زميله، تقف أغلب الوقت أمام النافذة تنظر إلى ركام الخرداوات، تأكد من ضألة تفكير زميله، عيونها لا ترى الخردة بل تتجاوزها إلى أبعد من ذلك بحارًا. أفي أمها تشرد؟ أم عملها وحياتها التي توقفت لتدخل في لعبة لا تمسها مساسًا شخصيًا؟.. أيًا كان ما ظنه؛ فلم يخطر بباله ما سألته عنه شاغلًا ذهنها.

-فين البيبي؟

رفع حاجبيه مندهشًا، دون تحية أو سلام سألته عما يهمها، ألا يهمها هو وسلامته؟، لحظة.. كيف عرفت أنه هو؟ أم هو سؤال يلقى على أسماع أيًا من يدخل؟

-في مكانه الأصلي.

زاد انعقاد ذراعيها أمام صدرها إنشدادًا، همهمت بصوت مغتاظ: اللي هو مع اللي كانت سبب دخوله فـ الدوامة دي؟، يدفع تمن غلطة مش بتاعته؟.. يتباع وعمره أيام؟

أفحمها برد لم تستطع أمامه احتجاجًا: اللي هو مع اللي أدته الحياة.

رفعت إليه نظرة غاضبة وجسدها نصف مستدير ناحيته: والمطلوب مني دلوقت؟ هأفضل هنا لحد إمتى؟

فتح الباب على إتساعه مشيرًا لها كي تتقدمه: هأوصلك حالًا لحد بيتك.

شمخت بكبرياء: أنا مش صغيرة عشان أحتاج حد يوصلني.

غمره التعب فجأة، تنهد معلنًا استسلامه وعدم تحمله مجادلات جديدة، وإن أحبها فالآن لا يتمنى سوى الراحة، وجعلها تتحلى بالصمت إن لم تقدر على الحديث بشكل أكثر تحضرًا يخلو من الرغبة في النكاف.

-أمشي قدامي يا يُسر، هأوصلك وبعد كدا أعملي اللي أنتِ عايزاه.

سارت أمامه ترمقه بغيظ يكاد لا يفارق عيونها منذ تعرف بها، لحقها زافرًا بحنق، إن كان يفكر في أن القلب قد دق لأجلها فمن المستحسن وأده في قبر بين أضلعه، وقطع لسانه قبل أن يطلعها عن أي مما يشعر. إن كان هذا هو اليسر فلا عجب من أنه لن يهنأ طوال عمره.

***

استندت بذراعها فوق حافة الباب ملقية ثقلها كله على أحد ساقيها مسببة إنثناء ركبتها فيما تستقيم الأخرى، شعرها الملتف حول وجهها يغطي أغلب ذراعيها، زاد طوله منذ آخر لقاء بينهما، مستعد أن يقسم على ذلك. كظم ضحكة قاتلت للإنفلات، سخطها البائن مع وقفتها المسترخية في تحفز كلبوة، إضافة إلى ثوبها البيتي الذي يلمس طرفه ركبتيها على استحياء معلقًا بكتفيها عبر حمالة رفيعة، تتساقط كل حين متململة عن موضعها.

-نعم؟

واقفًا أمامها كحائط صلب، سألها ساخرًا: مافيش اتفضل؟

جابهته بسخرية أشد: ما كنتش أعرف إن من صفاتك الطمع يا حضرة الظابط.

هزت كتفيها مضيفة: مافيش اتفضل، بس ممكن يبقى فيه رزع باب فـ وشك لو ما قولتش جاي ليه.. وبسرعة!

قرر مجارتها وترك ساحة الفوز في الشوط الأول من نصيبها، لكنه لن يتنازل عن الثاني والثالث والأخير: سألت عن حسن فـ جيت أطمنك عليه.

عقدت حاجبيه: حسن؟

فسر بإيجاز: البيبي.

أشاحت بكفها معبرة عن لا مبالاة لا تشعرها حقيقة، حنق يحرقها من الداخل؛ «حسن»!، لقد اسمته سرًا بـ«يزن».. أينتهي أمره لـ«حسن»؟!، سحقًا لها إن كانت تهتم!، علما الإهتمام بطفل ليس لها، ولا يقربها من أبعد البعيد حتى؟!

ذكرته: مش مع اللي أدته الحياة؟.. خلاص.

-ما تحكميش على حد وأنتِ مش عارفه ظروفه.

راقب إلتواء شفتيها في عدم إقتناع، أضاف متنهدًا بيأس منها: غيري هدومك عشان أخدك تشوفيه.

-خمس دقايق وأكون جاهزة.

ضحك معلقًا باستهزاء: أتمنى المعجزة دي تحصل.

رمته بنظرة مستعرة بحمم الغضب قبل أن ينصدم قفل الباب بمكانه، أصدرت تكة غلق مصاحبة لدوي صوت صفع الباب بوجهه كقنبلة موقوتة. حمد الله على غياب الجيران من محيطه، محافظة على بقايا كبريائه.

صاح عبر الباب بينهما: هاستناكِ تحت، ما تتأخريش.

في الدقيقة الخامسة كانت تقف على عتبة العمارة تحدق فيما حولها بحثًا عنه.
وعندما تمت الدقيقة الخامسة عشر وصلت إلى سيارته الصغيرة في حيز ضئيل بين سيارتين ضخمتين، كانتا بمثابة أسوار تحجب السيارة عن مرمى بصرها.

فتحت الباب وركبت جواره وقد تأجج غيظها من جديد، لو كان هناك شهادة خبرة في إثارة غيظها لنالها مع مرتبة الشرف، ما كادت تستقر في جلستها وقد تناثر شعرها المرفوع فوق قمة رأسها حتى التفت إليها ساخرًا محركًا أصابعه على المفتاح لإدارة السيارة.

-واضح إنهم خمس دقايق خمس دقايق، وبعدين فـ مواعيد المصريين..؟

-أنت اللي حاشر عربيتك فـ مكان ما تتشافش فيه، بقالي عشر دقايق بأحاول ألاقيك.

حجب عنها معرفته منذ متى بالضبط وهي تقف أمام بوابة العمارة تتطلع حولها في حيرة، كان درسًا لها ومحاولة لترويض عنفوانها، لا ينكر أنه لم يصدق في البدء السرعة التي لحقته بها، لكن بساطة ملابسها وخلو وجهها من مستحضرات التجميل برر ذلك.

سلاطة لسانها وإنتفاخ أوداجها من الإنفعال مصحوبًا بإحمرار في خديها. رغم تعبه يظل هناك طفل مشاكس داخله يرغب في شد أكباس كبحها لنكزها من أسفل الحزام

بخفة، وطرف عينه معلّق بوجهها المعبر بعفوية: ما أنتِ لو كنت كريمة وعزمتيني على حاجه عقبال ما تجهزي.. كان زمنا اختصرنا الوقت دا كله.

إذا كانت للنظرات القدرة على إزهاق الروح لكانت استمتعت في فعل ذلك رويدًا معذبة روحه في التعلق ما بين الحياة والموت، شغلت يدها بجذب حزام الأمان وتثبيته حولها، ثم كتفت ذراعيها أمام صدرها محدقة في الطريق الأسفلتي المنبسط أسفل السيارة مسهلًا رحلتهما، عدت للمئة ثم مئتين.. يجب أن تقص أظافرها قريبًا؛ فضبط النفس الذي تمارسه الآن لن يتكرر،

هي واثقة من ذلك، المرة المقبلة ستجد عينًا أو جلدًا منسلخ وترقد بقاياه بين أظافرها المشذبة بعناية.

***

استطاع التعرف عليها منذ استدارت مع دوران ناصية الشارع، تمشي بتمهل وكفيها الصغيرين الممتلئين بالانوثة يهبطان من ثقل ما تحمل، لم يعد لديها من ينقل الأغراض إلى السيارة فتجود عليه ببقشيش يساوي راتب شهر مما يتقاضاه العامل، ما عليها بعد ذلك سوى قيادة السيارة وحالما تصل إلى المنزل يوجد آخر ينقل ما اشترت إلى حيثما تشاء، أختفت وسائل المساعدة والأيدي الممدودة لحمل الأغراض، وتحولت بضائعها الوحيدة المشتراة من ملابس المواكبة لآخر صيحات الموضة ومستحضرات التجميل إلى أكياس من الخضرة وأخرى سوداء تحوي لحمًا نيئًا أو دجاجًا منزوع الريش والأحشاء.

نزعت الحجاب، لكن ملابسها محتشمة، بنطال في وسع تنورة، قميص رسمي يعلوه سترة صيفية. هي مختلفة، لا يستطيع النكران، لم تعد كادي التي أحبها ولا حتى التي تزوجت غيره، كانت غير الآخرتين، كادي جديدة.. مما يراه أصبحت أفضل من السابقتين لكن لا يعلم كيف ستكون إن اقترب.

شيعها بنظراته اللامعة بشوق يسكته غضبًا، تأمل ظلها قبل الإختفاء الأخير، لام نفسه؛ لإنه راقب حضورها وذهابها دون محاولة للحديث، تمنى أن يصعد ويحدثها، لكن فيما وما مبرر وقوفه متراجعًا خلف سيارة لوري ضخمة مركونة على الرصيف المقابل لمدخل بنايتها؟

يرحل بعد ثلاث ساعات من الوقوف دون راحة، عينيه مفتوحتين على إتساعهما، تتنقلان في ترقب بين طرفي الشارع الرئيسيين ونهايات الحارات الصغيرة، لا يعلم من أيهم تذهب وعبر أيهم تعود..

نصف ساعة من الأفكار، واحدة تدفعه ليصعد والأخرى تردعه ليرحل، وأثناء ذلك هبطت من جديد.. يالها من معجزة وفرت عليه إحراج الصعود وصعوبة الذهاب، كانت تمد خطواتها متعجلة، محفظة صغيرة ترقد بين أصابع يمناها وقد تخففت من حمولتها الثقيلة. سار خلفها يحث خطاه كما تفعل، فضوله أثير لمعرفة سر العجلة وإعادة الخروج بهذه السرعة مهرولة إلى حيث لا يدري.

توقفت بغتة لاهثة أمام بائع خيار، ابتسم لها وأخرج كيسًا بلاستيكيًا من أسفل عربته الكارو الخالية من الحمار أو الحصان، سلمه لها ممازحًا، ردت له بسمته بأخرى أشد فتنة وأخذت الكيس لكن قبل أن ترحل أخرجت من محتواه إثنتان وقدمتهما إليه مصرة على ذلك، كأن البسمة لا تكفيه فجادت عليه بجزء مما تملكه يحمل لمسة أصابعها الناعمة.

رمي البائع المنشغل بالصياح على خياره البلدي بنظرة حسد وحنق، غير منتبه إليها منشغلًا بإخفاء نصيبه من ثمار الفاكهة في أحد فتحات عربته. أسرع خلفها وقد ذهب عنه التردد في لحظة وقرر المواجهة أيًا تكن النتيجة.

ـكادي.

تلكأت خطواتها وبهتت، مضت لحظات قبل أن تستدير ناحيته كأنها تراجع نفسها، حدقت في وجهه تتأكد من صحة ما تراه. علم أنها استعادت الفتات مما نسيته وسربته ذاكرتها بعيدًا، وكان هو هذا الفتات، بريق عينيها أقسم على ذلك واعتذر بنفس الوقت على لحظات النسيان لكن مبرره قوي، فجراحه زادت قلبها إدماء، ونفسها المجروحة من كل من حولها لم تعد تجد متسعًا لطعنة جديدة.

خرج السؤال عن أحوالها عفويًا دون إدراك، أجابته بتأتأة ووقفات حيرة بحثًا عن كلمة تنهي جملتها بشكل صحيح دون أخطاء قدر المستطاع، اضطرب قلبه لحالها، يعلم أن هذا أقسى تحسن قد تناله في حالتها، التطور في أول شهرين من الأزمة هو كل ما تستطيع الحصول عليه من إنجاز وعودة لطبيعتها، أما بقية جلسات العلاج فستحرز تقدم يسير على فترات طويلة.

دقائق قلال من إختفاء الأكسجين في المحيط حولها، سبب أزمة لمواضع عدة بعقلها، وهذا فضل من الله؛ فحالات كثيرة تظل على الأجهزة بين حياة وموت بلا طائل أو أمل في العودة أو حتى الخلاص الأبدي.

-كنت بأزور واحد صاحبي قريب من هنا ولمحتك.. أنتِ ساكنة هنا؟

أومأت مبتسمة بوداعة، نفسها كلّت الحياة بزيف كل ما فيها، تبحث عن مرور اليوم ثم ما يليه بين العمل والإعتناء بأبيها، تقضيه كيفما أتفق، روحها وهنت من الشر ومخالفة الطبيعة التي جلبت عليها. حدقت فيه بألم تحاول حجبه عن العيون، أكد لها عدة مرات من قبل أن أملها في العودة هو محض وهم لديها، لن يفكر بها ولو بعد مليون سنة -إن عاشهم-، سلمت بما ردده على أذانها وأقرت أنها الحقيقة لا مفر، عودت نفسها على غيابه وتناسيه؛ مفقدة يومها حلاوته وقلبها أثيره.

-قـ.. قدام.. شـ.. وية.

لم ترغب في الحديث، امتلأت عيونها بدموع لا تريد ذرفها أمامه، هو بالأخص لا يستحب إطالة الكلام معه، يجب أن تصمت ولا تفضح ثقل لسانها وتأخر بعض مدارك عقلها، فليرحل عنها وصورتها كاملة بعينه، محافظة على كبريائها وبقايا كرامتها.

خفق قلبه شاعرًا بحرجها من عاهتها، لا تعلم كم يرغب في تقبيل رأسها المعطوب وشفتيها المتلكئة كما لسانها الثقيل، فعلى الأقل ما أصابهم منع أضرار أشد حدة من اللحاق بها. جذب الكيس من يدها على حين سهو منها، رسم ابتسامة جذابة وغمزها كي تتقدمه: عايز أسلم على والدك.. تسمحيلي؟

لم تقدر على إخفاء ابتسامتها المرحبة، سارت أمامه وقلبها يقصف بقوة داخل محبسه، يريد أن يقيم حفلًا لقرب المحبوب منه ورغبته في قضاء وقت معها وأبيها، لكن.. أسيكون وقت لطيف أم يمتلئ بعتاب ولوم وكره؟؟.. رمقته بجانب عيونها تستشف ما في نفسه، لا يبدو أن هذا سبب الزيارة، ابتهلت أن يمر اليوم على خير، أبوها صار أكثر هدوء لكنه لا يزال يحمل داخله شخصه القديم. يا رب.. ازرع الحب في قلبيهما تجاه بعضهما، لم أعد أتحمل كره من أحب لبعض.

***

نهض متباطئًا وتعبير وجهها يردعه، نظراتها متقدة خلف عويناتها الزجاجية تسأله عما يفعله هنا ولم أتى، تدينه على زيارته لها، هي خطيبته التي لم تعبأ بضيقه منها منذ زفاف شقيقة حياه، يكلمها على قدر الحاجة وهي تفعل المثل بأريحية كأنها وجدت راحتها في هذا التصرف، أضاف لسلتها لديه هذا الرفض الضاري لزيارته.

وضع أصابعه على حزامه الجلدي يضبط موضعه رافعًا رأسه بأنفة، يكفيه ما وجده منها حتى الآن، لن يحارب مع جبهة ترفض التعاون، تلفظ يده الممدودة بالسلام،

على البرود وجهه مستعدًا للإنصراف: يظهر إني جيت فـ وقت غير مناسب، عن إذنك.

وضع المفاتيح بجيبه بينما يدير ظهره منصرفًا، سِبابًا شنيعًا وجهه لنفسه بالسر، هو كما تقول أمه تمامًا «حظه قليل ونحسه غزير، وليس له من اسمه سوى أقل القليل».

-ما تمشيش.

تسمر محله، صوت باكٍ أوقفه، شك في قوة سمعه لكن عاد بنظره إلى آية، كانت منهارة فوق الأريكة تبكي بعنف، كأن الدموع المحبوسة تكتم منافذ تنفسها وخلاصها في إطلاق سراحها، أسرع ناحيتها، مرتبكًا مشوشًا، لم يسبق له أن رأها بذلك الحال.

همهم محاولًا إخراج كلمة سليمة تعبر عن شيء ما لا يعرفه، أوقف هتافها المغتاظ محاولاته: لو نطقت جملة فيها «معلش» أو «مالك»؛ هأوريك النجوم فـ عز الضهر!

صارع لمدارة ابتسامته، جلس جوارها وضمها بحنو، يملس فوق شعرها ويهدهدها كطفلة لوث ألوان الحياة بعينيها سواد لأول مرة، قبلة صغيرة طبعها على قمة رأسها، يجزم أنها لم تدرك فعلته، تشبثت بذراعيه أكثر تنتحب بصوت يدمي القلوب.

أشار لعنبر التي قدمت على صوت البكاء العنيف بالذهاب دون أن يتحدث، يدرك قلقها على آية، لكن اقترابها الآن لن يفيد أيًا منهم في شيء. دفعة صغيرة فوق قلبه وانسحاب متخاذل من جانبها، أبعدت نفسها مسافة بسيطة، تنحنحت محرجة: آسفة ما كانش قصدي اللي حصل.

أرجع خصلة فرت من ترتيب شعرها ثم رفع ذقنها بخفة؛ يتأكد من إلتقاء نظراتهما حتى بعد نزعها للنظارات الملطخة بدموع الإنهيار العاصف: دا من حظي أنا.

غمزها مشيرًا إلى احتضانه لها لأول مرة، بقرب غير معتاد بينهما، ليس على الصعيد الجسدي فقط ولكن النفسي كذلك، كلمتها المطالبة بمكوثه معها مدركة إنهيارها كان أكبر دليل على أن وجوده هو رغبة متبادلة بينهما وليس إرسال إشارة من أحدهما فيما الأخرى يغلق طرق استقباله.

سألها إن كانت عطشى، وقبل أن تتم إيماءتها نهض ناحية المطبخ، استقبلته عنبر على بابه حاملة كأسًا كبيرًا من المياه الباردة، بقلق زادها عمرًا استفسرت عن حالها، طمأنها عائدًا إلى تلك التي أربكت أفكاره في لحظة وقلبت موازينه مخلة بكل ما فيه عداها.

راقب إرتواء عطشها بأعين مترقبة، قلبه يتوجع عليها راغبًا ما يقض مضجعها ويسبب لها الإنهيار الذي رأه، كم تمنى ألا يراه أبدًا.. لكنه سيفعل ما بوسعه كي لا يتكرر مجددًا.

-سلمى مصممة تنفصل عن ياسين.

أجابت تساؤله المتردد في التعبير عن ذاته. لم يغفل عن التردد الذي سبق كلمة إنفصال، متأكدًا من أنها لم تكن الكلمة المقصود استخدامها ولكنها الأخف وطأة على اللسان، انتظر أن تكمل وهكذا فعلت: مش عايزاهم يبعدوا عن بعض، مجرد إنهم فـ أماكن مختلفة مأثر فـ نفسية ياسين جدًا، مش دا أخويا..

رفعت نظره إليه كأن عيونها تؤيد لسانها: كان فاكر إن اللي حسه ناحية كادي حب.. يجي يشوف نفسه دلوقتي، لو كان الأول حب فـ حاليًا دا يتوصف بـإيه؟؟

همهمت شاردة مع بسمة بها شيء من الإنكسار الموجوع: تبل.

قطب: إيه؟

أولته إهتمامها مستيقظة من شرودها: تبل.. يعني الحب وصل فـ قلبه لدرجة المرض.

سألها بجدية واقفًا على منبر الحيادية: مش يمكن دا أحسن لها؟

صممت: لا، هي بتحبه زي حبه ليها وقد يكون أكتر، بس هو جرحها كتير، ليها حق تبعد.. عذراها، ومش متحيذة لرجوعهم عشان أخويا لوحده.. فايدة الحب إيه لو ما عاشوهوش مع بعض، هيفضلوا منفصلين وقلبهم بيتقطع، وروحهم بتفقد كل يوم جزء منها، بالنهاية هيرجعوا لبعض.. ليه الفراق بقى؟

-الملل طريقه بيتفتح بالروتين والتكرار، المشاكل بتكسر روتين الحب، مش بتلغيه أو تموته.. بتغير طريقته، تضيف عليه لمسة ونكهة جديدة.. لو مات يبقى ما كانش حب حقيقي من الأول.

-وجنة.. وحشتني، ما تعرفش أنا متعلقة بيها قد إيه!، عايشة مع مامتها وبتشوف باباها كل فترة، بيعيشوها إحساس اليتم بدري.. بدري أوي.

حساسة هي تجاه غياب الوالدين، أحدهما أو كلاهما، يدرك خسارتها لهما في سن مبكر، أشفق على وضعها، لا يملك شيء كما هي، والبكاء وحتى الإعتراض بلا طائل.

تجرعت المزيد من المياه منهية ما تبقى في الكوب، لعقت لسانها عدة مرات متشاغلة بجذب منديل من العلبة فوق الطاولة المنخفضة تمسح بها زجاج نظاراتها.

-أنا آسفة.. ماكانش قصدي إساءة شخصية ليك من تأجيل أي خطوة بعد الخطوبة لكام شهر.

أراد ممازحتها قائلًا: يعني نكتب على الشهر الجاي؟

انخفض رأسها في خجل: أتفق مع ياسين.

الصدمة من موافقتها ببساطة صعقته، شلت لسانه، من تأجيل الأمر لستة أشهر توافق بخنوع على عقد قران عقب شهر واحد؟!، كسى وجهه الجد مخاطبًا إياها: ودا شفقة بقى؟

-لا أنانية، أنانية مني.. وطمع.. عايزه زيادة.

عينيها ممتلئة بمشاعر كثيفة، بريق جديد احتلهما بديلًا عن الدمع البائسة، مزيج أرهف قلبه وزاده شوقًا لإجتماعهما سوية، ربتة على الكتف وتشرب قميصه البنفسجي دموعها كان تجاوزًا منهما لا شعوري، العقد سيعطي الحرية الكافية لكل منهما في التعبير عن مشاعره، المشاركة الحقة، تعارف كامل خال من تنغيص ضمير يقظ مستعد بالمطرقة.

حاول الخروج من الدوامة التي ألقته فيها بكلمات العفوية فقال: يا خبيثة أنتِ.. عايزه يبقالك جنة بتاعتك صح؟

غمزته تصاحبًا مع إيحاءه المازح أطلقا ضحكة من الأعماق، خرجت رنانة صاخبة بفرحة، كلمته كان لها تأثير أشد على نفسه، فكرة أن يكون له طفلة منها، تملك نفس الضحكة أكثر من كاف ليسرع في إتمام الأمور، يجب أن تظل ضاحكة فرحة.

***

تأرجحت بخفة، جاعلة الأرجوحة تهتز دون أن تعكر صفو ما تفعله، بتلقائية وهدوء، ساقها تنبسط ثم تنكمش، وجنة تفتح فمها بابتسامة مستمتعة تظهر فمها الخالي من الأسنان، وطوق شعرها دار عن مكانه في إهمال محيلًا الفراشة فوق أذنها اليمنى.

ذراع سلمى الآخر يحمل كتابًا خفيفًا، تقرأ منه بصوت عال، تعود صغيرتها على القراءة ومتعتها منذ الصغر، ولا تحرم نفسها مما تحب بحجة الإهتمام بصغيرتها الأولى والوحيدة، كل بضعة أسطر تهرب عيونها من الورق إلى وجه جنة، تتأكد من استمتاعها، تجدها تحدق في فمها بانبهار، وأحيانًا يزيد انبهارها حد امتداد يدها في محاولة لإلتقاط فمها أو تقبض على الهواء الخارج مع كلماتها، كأنها بذلك تمسك الكلمات والأحرف المنفلتة عبره، تضحك عليها سلمى في حب عائدة لقراءتها، فتعود جنة للإنبهار ويستأثر فم أمها بكامل وعيها الطفولي حتى تغط في النوم برأس ملقى على كتف الأم، ويد تتشبث بحجابها.

اقترب منهما بخطوات وئيدة بما يسمح له عمره وإلتهاب مفاصله، يستند إلى عكازه وثغره يظهر بسمة مبتهجة لسعادة حفيدته ولهوها بين يدي أمها، أدار مقعد بلاستيكي يبعد عن الأريكة المتأرجحة بضع خطوات، جلس عليه يستند بكلتا يديه على قمة عصاه داخلًا في موضوعه دون مواربة أو تمهيدات.

-هتفضلي على الحال دا لإمتى يا سلمى؟.. لا أنتِ مطلقة ولا أنتِ عايشه مع جوزك، معلقة؛ لا طيلة سما ولا أرض.

تلهت بعيدًا عن عيونه المترصدة في مداعبة طفلتها الضاحكة بلا إهتمام بالجو المتكهرب حولها: لما ربنا يشاء يا بابا.

-مش دا الرد على سؤالي يا سلمى!.. أنتِ جيتِ قعدتِ، وطولتِ.. قولت أهلك وحشوكِ يا مرحب، لكن الزيارة طالت ومش هتفضل طول العمر.

ترقرقت الدمعات بين جفنيها: زهقت مني يا بابا؟، بتطردني؟

انتفض واقفًا وقد غمره الغضب، لكزالأرض بعصاه مما أفزع الصغيرة؛ فدخلت في حالة من البكاء: أنا مش عيل عشان تهاجميني بالكلمتين العيالي دول!، فيه مشكلة

بينك وبين جوزك تتحل!.. يا بالإنفصال النهائي يا الرجوع، لكن أنصاف الحلول دي مش عندي..

استدار منصرفًا وحنقه منها يتزايد، تعليقها للوضع ليس حلًا، يجب أن تكون حازمة في قرارتها، لا تردد في الحياة؛ لإنها لا تمهل في ضرباتها المتتالية، ستسير الدنيا بمن فيها وستظل وحدها بمراكبها الراكدة، تتكالب عليها الأمواج بلا هوادة. فقط إشارة منها، لمحة من إصبعها وينهي ما يقض مضجعها، للأبد، المهم راحتها، لكنها تحبه، تعلم إن تدخل سيحرق من أجلها الأخضر واليابس، ولن يعود هناك مجالًا للعودة؛ لذلك تصمت وتكتم ما يقلقها بعيدًا عنه.

-آخ يا ابنتي، لم يكن لكِ مثل هذا العشق!

***

-كفاية!

صاح بوجهها حين أدرك أنها كحصان غير مروض فُكّ قيده، ترمح فوق الجروح المتقيحة فتزيد وجعها وتمنع عنها رحمة الإلتئام. قلبها قاس ولسانها سليط، لم يتوقف عن جلد أم كادت تضيع رضيعها في لحظة استسلام، لم توقفها فيضانات الدموع المنسكبة على وجه المسكينة، والتي أخفضت رأسها تتلقى الطعنات ولا تردها؛ رؤية لكل ما تقول يسر على أنه جزء هين من العقاب الذي تستحقه.

والأخرى المنفلتة من رباطها دارت صوبها، عيونها متسعة في غضب عارم يطلق شرارات تردي أعتى الرجال بعنفها، أيظن أنها ستصمت وتسكن له؟؟.. هيهات له ولحمقه!

-لا مش كفاية، ولسه كتير ما قولتهوش.. دي واحدة ما تستاهلش أي شفقة، ضعيفة وجبانة.. ودول أكتر صفتين بأكرههم، مش هأسكت لما أشوفهم بيضروا طفل بريء من غير ذنب، قدره خلى واحدة زيها تكون أمه!

قبض على ذراعها، عينه تنذرها الإدلاء بالمزيد، حتى هو أشفق على البائسة المنهارة فوق أحد المقاعد بالزاوية فيما هي تبدو كمن يستلذ بتعذيب الغير ورؤية ألمهم، هو الشرطي المعتاد على القسوة، يتجرعها صباحًا ومساء كجرعات ضرورية.. لم يصل إلى هذا الحد. سحبها خلفه مرددًا لنفسه قبلها: أنا الغلطان إني جبتك هنا.

أكدت له: طبعًا؛ لإنك أثبت لي دلوقتي أكتر من الأول إنها إنسانة غير مسؤولة على الطفل.

وقف فجأة مما جعل رأسها يرتطم ببروز كتفه متراجعة خطوة إلى الخلف، نفض يده من ذراعها وقد أبعدها ما يكفي عن منزل خلود الجديد، حيث بداية أكثر نظافة وراحة أفسدتها المتبلدة التي أمامه بكلماتها المحبطة.

-أنتِ ماعندكيش قلب؟

فقد وجهها كل تعابيره، حتى غضبها إنمحى كأنه لم يكن، ارتدت درع الدفاع الذي عاشت خلفه سنوات صباها، عقدت ذراعيها أمام صدرها مجيبة بذقن مرفوع: ودا إيه؟

أدارت صوبه جانب عنقها المرمري حيث ينتفض النبض بعنف بسبب غضبها السابق والذي بدأت حموته تتصاعد مرة أخرى. تابعت مهاجمة: اللي ما عندوش قلب فعلًا هو اللي يسيب طفل فـ إيدين غير أمينة.

هز كتفيه مدعيًا اللامبالاة وقلبها المتحجر يصرع أحلامه؛ فمهما كان يملك من قوة تحمل وتقبل لعيوبها لن يتنازل أمام قسوة القلب: أمه.

عنفته بحدة: دا ما يخليهاش صاحبة حق.

ختم اللقاء بقناع بروده الذي حان دور وضعه، تقدمها مخفيًا قبضتيه داخل جيبي سرواله الجينز متجهًا إلى سيارته القديمة: يلا عشان أوصلك.

قالها متمنيًا إلقاءها في أول سيارة أجرة متكفلًا بمصاريف عودتها عدا مرافقتها وقتًا زائدًا؛ فنفسه صارت تشمئز منها.

-أنت مش عارف يعني إيه تعيش مع حد ضعيف.

تسمر مكانه، ودار رويدًا رويدًا.. مذعورًا مما قد يراه، نبرة صوتها المتكسرة بوهن هي أول ما صدمه، لحق ذلك مظهرها المنهار فوق رصيف الطريق، وجهها غارق في الدموع حتى كادت تُطمس معالمه، نشيجها المصاحب لاهتزاز أنفها بينما تتابع: ضعيف وأنت أضعف منه، ومش بإيدك حاجه.. الخوف من إنه يتخلى عنك فـ أول فرصة تسمح له، يهرب ويرمي مسئولية نفسه ونفسك عليك.. لوحدك.

هبت فجأة من مجلسها، تنفض بنطالها بيد غير مهتمة حقًا بما تفعله: تعرف.. أنت معاك

حق، سيب اللي قلبهم قاسي زيّ؛ لإنهم يقدروا يشقوا طريقهم لوحدهم.. وأرجع للمساكين اللي زيها، هي فعلًا أولى بيك جنبها.

خلفته وراءها موسعة المسافات بين خطاها، تنشد الابتعاد، تلوم نفسها على لحظات الضعف حتى مع استمرار الدموع في الإنهمار بلا كابح، فاقدة القدرة على السيطرة وإعادتهم إلى الأسر. تحلقت كفه حول مرفقها مديرًا لها ناحيته، ضامًا رأسها بين أحضانه بكفه الآخر: آسف.

همسها بالقرب من أذنها، ولا تعلم سبب إزدياد جريان الدموع وتعالي الشهقات في استسلام مفاجئ لضعفها حديث العهد بالظهور.

***

عائدة ريما لعادتها القديمة، جلست تتحمل تجاهل حماتها، تلاعب الصغير دون أن تبخل عليها بكلمات زاجرة، نيتها حسنة في اجتماع شمل أسرة ابنها لكن بطريقة تزيد حنق حياه أضعافًا. لامت نفسها على الحضور، كان من الكافي إرسال أحمد الصغير مع والده وأنتهى الأمر، أو حتى إحضاره لأسفل المنزل والرحيل، لكن شوقها لحمزه أغرق عقلها في ظلام يحجب التفكير السليم، تتحايل لمجالسته قدر مستطاعها، بحذر من لفت الإنتباه إلى الأشواق المعتمرة داخلها.

هي اخترت فراقهما الحالي، أجل، لكن كرامتها كأنثى تأبى عليها العدوة دون طلبه، ترجيه ونظرة نداء تبرق في عيونه من أجلها، أن يصارع كي تعود له.. كما كانت وستكون دومًا.

لوت شفتيها في حنق وعيونها تطعنه خفية.. الوضع الحالي يبدو أنه نال إعجاب سعادته، يضحك ويمزح ويكلمها بتلقائية، أحيانًا تخشى لما يوجه الحديث لها أن يعلن رغبته في طلاق تحضري؛ يظلا أصدقاء، وقتها لا تعلم بأي طريقة بدائية ستقتله؟!.. يقينًا سيكون بيديها العاريتين؛ ومع ذلك لن يتشفى غليلها منه.

قبلت تركه مع جدته حتى تتم أعمالها التي أتت من أجلها.

ركبت السيارة جواره، تتابع طريقته في القيادة، يد ممسكة بالمقود باستهتار فيما مرفق الذراع يستند إلى الشباك المفتوح، اليد الأخرى تنتقل بين ساقه وعصا السرعة وأطراف المقود، عيونه تركز على الطريق المنبسط أمامه، قد تحيد كل فنية وأخرى على المرايا في تأكد لدقة مساره وحسن سيره، أطراف شعره تلامس السقف فوقه، كتمت بسمتها متتبعة اشتداد عضلات ذراعه أثناء جذب العصا لتغيير

سرعة السيارة، قوية وصلبة، تبثها أمانًا دون وعي منه، وتحمل حنانًا دفاقًا حين يضمها.

عادت تعتدل محدقة في الطريق عبر الزجاج الأمامي، أهي طفولية كما أخبرتها زوجة أخيها؟ أتهو تعذيب نفسها كما اتهمتها سلمى؟ لم لا تغفر ببساطة وتعود إلى منزل الزوجية مع صغيرها وأبيه؟.. اللعبة طالت وقلبها أصبح يعاني أكثر، لقد ابتعدت تروضه، تعلمه ألا يتعلق بشدة حتى بمن هو له كالهواء نفسًا للحياة، وتلقي على رأس زوجها دروسًا عدة، أولها ألا يخفي عنها شيئًا، نسى العهد الذي طالبها بقطعه وهو المصارحة والمشاركة في كل شيء، ثانيها يقرر إما يقدر على العيش دونها أم لا. حياته كاملة في غيابها، أم ينقصها أحلى ما فيها، إن وصل لقرار فاصل في ذلك سيصل للراحة، وقتها سينسى ما حصل لها قبل لقائه، إما لإنه يرغب في تقاسم المستقبل معها والصغير أو لإنه أزال سبب اضطراب حياته إلى الأبد.

لكن الوقت مرّ أكثر مما توقعت، هل وصل لحمزه سر تباعدها عبر صمتها دون تصريح كلامي عما تفكر فيه؟.. الموضوع معقد وصعب، لذلك تحملت فترة صمته الطويلة وإختفاءه، لكن منذ عاد للظهور على خشبة مسرح حياتها خلال زفاف زهرة ماج شيء داخلها في قلق، يتقلب على جانبيه في إنتظار إزداد حدة مهلكة، أفكارها السوداء طفت كلها على السطح بغتة تقض لياليها وتسمم فكرها.

عادت نظراتها تتعلق بذراعه، تراقب عضلاتها المتقلصة في استجابة لينة مع قبضته فوق عصا السرعة، كيف له أن يملك كل تلك الوسامة؟ قلبها يرفرف هربًا منها ملقيًا نفسه في أحضان أسره، تأففت من نفسها وصاحت بغتة: أركن على جنب.. عايزه أسوق أنا.

رفع حاجبيه ورماها بنظرة سريعة، في البدء ظنته تجاهل طلبها لكنه سرعان ما أثبت سوء ظنها، صفّ السيارة جانبًا، حدق بها من جديد قبل أن يترجل وتفعل هي

المثل، تبادلوا الأماكن فصعدت هي خلف المقود، حماس ورهبة امتزجا سوية، الأول يهلل سعادة بتجربة جديدة والثانية تتخبط ساقيها طلبًا للرجعة.

شعر باضطرابها وبداية تراجعها: شكلك مش رايحه كتب الكتاب.

التفتت إليه؛ فرأت حركة حاجبيه المغيظة لها، نجح في خطته دافعًا إياها لإدارة المفتاح والضغط على البنزين عائدة إلى الطريق الرئيسي. مدت يدها إلى الراديو تكسر عبره صمت الهواء الملغم من حولهما، تجمدت واعتقلت قبضتيها المقود بعنف فيما عيونها تجحظ، صاحت به حالما رأت يده تمتد إلى الراديو.

-هأغير، حابه تسمعي إيه؟

-لا!، عايزه اسمع دا.

تراجع نافخًا، وقد احتقن وجهه، بدا أشبه بمراهق تمكن منه الحرج حين قبض عليه يدخن سيجارة بحمام المنزل، فادعى الغضب.. رمقته للحظة وعيونها متسعة مما تسمع، لم تستطع أن تطيل؛ فحياتهما معلقة بانتباهها إلى الطريق الممتد أمامها، ندمت على طلبها القيادة؛ فقد حرمها من تفرسها الدقيق لكل خلجة وانفعال يطفو على ملامحه.

بعد دقائق من الاستماع وتمالك زمام نفسها، سألته بصوت متحشرج: دا كتاب عن الحياة الزوجية؟

أومأ، لكنه أدرك أنها لم تره؛ فرد بصوت مكتوم: أيوه.

أضاف بعدها مجيبًا عن سؤال رمته بعينها مستغنية عن نطقه: وفيه كتب تانية عن الحب والجواز، ومحاضرات..

رمت نظرة على (الفلاشة) المعلقة بجهاز الراديو، تستغرب وتستفسر منها عن حقيقة ما يقول، حمزه يستمع إلى محاضرات عن الزواج، ويقضي وقته في الإصغاء إلى النصائح وينصت إلى كتاب تلو آخر.. من أجلها؟

-ليه؟

فرت الكلمة المستغربة دون أن تشعر. أجاب: عايز أحدد الغلط فين؛ عشان أقدر أصلحه.

يا ليتها لم تسأل، وتبًا لها لإنها قادت، بل لإنها تعلمت القيادة من الأساس!، ترغب أن ترفع يديها لتحط حول عنقه تخبره بكل طريقة فعالة عن مد حبها وتقديرها لما فعل، يجب عليها أن تطلعه عن شدة تقديرها لمحاولاته الدءوب في معرفة الصدع ورأبه بينهما. هي المغفلة من اتهمته سرًا بالتخلي.

بساطة اعترافه جعلت عيونها تغشى بالمياه المالحة، وابتسامة حمقاء تتسع فوق شفتيها، تصاعدت حتى صارت ضحكة أشد حماقة، سمعت شهقته في فزع خوفًا من إنفلات السيطرة على السيارة من بين يديها، أوقفتها جانبًا دفعًا لقلقه ورغبة في التمتع بجمال مشاعرها الحالية بالكامل.

ضغطت على المكابح بعنف مما دفع الضيق ليظهر فوق وجهه في تقطيبة قوية، مزمجرًا كما سيارته على عنف المعاملة ومفاجأتها، هو لم يحضرها من مال حرام! هذه سيارة –رغم تواضعها- أتت من سهر وتصميم، وعرق!!

ارتمت فوق صدره وذراعيها تتعلق بعنقه، تلقنه حبها وتقديرها. تمسك بها وارتسمت ابتسامة راحة فوق ثغره، حطت أكفّه فوق ظهرها مربتة بحنان تجذبها أعمق، تتمنى دسها بين أضلعه حتى لا يعود لها مهرب منه إلى أي مكان، مغلقًا عليها، ناسيًا مكان المفتاح.

-بحبك، بحبك، بحبك.

ظلت تهمسها في عنقه وقرب أذنه، لا تعلم عدد المرات، لكنها تدرك أن العدد لن يكون كافيًا أبدًا في التعبير عن حقيقة ما تشعر به، فقط.. هو ما تملكه حاليًا، وسبيلها الوحيد لتخليص قلبها من الطاقة المتفجرة داخله، لهثت عقليًا بشكر للرب، عوضها بما لم تحلم، ورزقها رجلًا قلما يجود به الزمن، حبًا ظنت لفترة من الزمن أن أدنى درجاته ليس لها وجود.

اعتصر عينيه مدمدمًا: بس بردو ما قدرتش أوصل للمشكلة، ومش عارف الحل.

رفعت عينيها تجابه أعينه، تراجعت قليلًا وقد ارتسم الندم والإعتذار على وجهها: بعدت وافتكرت إنك هتعرف المشكلة لمجرد إني عارفاها.. آسفة.

تلمس حدود وجهها بعيونه المجردة، والتأثير كان أشد وطأة مما تخيلت. بسمته شجعتها: طب نقدر نحل المشكلة دي.. بإنك تقوليلي فين المشكلة بالظبط.

انسحبت قليلًا تعتدل في جلستها، وزاد توترها من استشعار عصا السرعة المنغرزة في فخذها، نظرت بعيدًا عبر الزجاج الأمامي للسيارة: اتفقنا ما نخبيش على بعض حاجه.. ومع ذلك خبيت حاجه كبيرة زي دي، ركنتني بعيد أكني مش شريكتك فـ حياتك بكل الوحش اللي فيها زي الحلو، كنت بتتهرب مني وتمثل عليا إن مافيش حاجه وإنه عادي!

كهربته بنظرتها القاسية المجابهة لنظراته التي تحاول استيعاب دوافعها، أضافت بعنف: اثبتلي شكوكي فـ إن عمرنا ما هنقدر ننجح ولا يكون زواجنا قوي ومتين.

تراجعت بالكامل معتدلة في جلستها، أدارت المفتاح وأعادت تشغيل السيارة بعدما أطفأت الراديو، انطلقت في طريقها من جديد بوجه جامد، رفعت بينهما حاجزًا من جبال ثلجية، كأنها تعاقبه على ما تذكرته من نبذ وتنحية. أراد التحدث، التبرير، إصلاح الوضع؛ لكنه يدرك تمامًا أن الأقوال وحدها لن تكون كافية لردم الحفرة

السحيقة بينهما، يجب عليه إقران الأفعال، الأفعال أولًا ثم الأقوال، هكذا تشعر بصدقه ويشعر بعودتهما لأحسن مما كانوا، فلن يقبل بأقل من ذلك، لأجلها وابنه.. ثم لأجله.

***

بعدما قضت أغلب اليوم في مساعدة آية بالتحضير ليلة عقدها، والمساهمة في التأكد من تمام كل شيء، تعين العروس على اختيار الألوان الهادئة والمناسبة لبشرتها قبل أن تقوم المزينة بعملها، وعيونها تروح بين حين وحين إلى المنزوية فوق مقعد جانبي ترى قطع الشيكولاته في انتظام كأن الحياة ستتهدم إن لم يكن تنظيمهم سليمًا مئة بالمئة. تنهدت بقوة مما استرعى انتباه آية، تبادلتا النظرات ثم توجهت أعين سلمى جهة سبب قلقها تبعتها آية في أسى؛ فما بيد أي منهم حيلة.

عادت آية تستسلم لضربات الفرشاة فوق وجنتيها ورأسها مرفوع بزاوية مائلة، تركتها لترى تلك المنكوبة شريكتها في البؤس كما الصداقة لسنوات، جلست فوق طرف الطاولة الطويلة تحاول سبر أغوارها بقراءة تعبير وجهها السارح.

ـمش هتلبسي؟

أجابت بشرود فيما يديها لا تنفك عن الترتيب وإعادة الرص إن شعرت بقرب اختلال الهرم المتكون: حاضر.

نشبت سلمى أظافرها في ذراع الآخرى علّها تفيق: ما أنتِ لابسه يا حياه!.. في إيه؟

أخذت نفسًا عميقًا ثم طردته بروية محاولة منع تساقط دموعها الموشك، نظرت إلى صديقتها بيأس: كانت الأمور هتتحل بينا، حسيت بكدا، بس رجعت عكيت الدنيا.

قطبت: عكيتيها إزاي يعني؟

رفعت كتفيها مع نظرة موحية بمدى تهورها ولسانها الطويل كالمعتاد؛ فلم يهنأ بمحاولة فالحة بإعادة ترميم علاقتهما. وضحت في إيجاز ما فعله ليصلح وما قالته لتفسد. حزنت لأجلها لكنها دعمتها كما تتوقع كلتاهما من الأخرى دائمًا.

-يمكن أحسنلكم تتصارحوا، تبدأوا على بياض.

-بداية إيه بقى ما هو راح!

طالبتها بتوضيح أكبر، فتجعد وجهها بصبيانية مضحكة لولا جدية الوضع: كان هيجي يحضر كتب الكتاب بس بعد اللي حصل بينا قالي اعتذر من ياسين و مسعد.

أخفت وجهها بين كفيها مدمدمة بصوت غير واضح: أنا أصلًا كنت جايه عشانه.

جذبتها لتقف قائلة بتشجيع: يلا قومي ورانا حاجات كتير، بعدين ممكن يجي فـ الآخر مش لازم يحضر بدري، ما تنسيش إن مسعد صاحبه وما يصش ما يجيش يبارك على الأقل.

تهلل وجهها حتى كاد يضيء العتمة الناتجة عن بداية الغروب: تتوقعي يجي فعلًا؟

رفعت كتفيها دون رغبة في إعطاء أمل كاذب: كل شيء جايز.

راقبت المزينة تتجه لمفتاح الإضاءة تشعله، استدارت من جديد لصديقتها: هأروح ألبس، خليكِ مع آية.. اشغليها عشان ما تتوترش.

لبت حياه طلبها فيما وجدت سلمى في ذلك بعد الانشغال لحزن صديقتها، اتجهت إلى الغرفة الأخرى حيث ترقد جنة مع عمتها الكبرى . ابتسمت من محادثة ناهد للصغيرة المتلهية بلعبة جديدة أحضرتها العمة.

-كويس إنها صحيت عشان ألبسها قبل ما ألبس.

رفعت إليها وجهًا مستبشرًا: لا هاتي لبس الأميرة بتاعتي أنا هأجهزها وروحي أنتِ عشان ما نتأخرش، عندي إحساس إن أقل حاجه هتقلب مود آية.

وافقتها: ما شوفتهاش بالقلق دا قبل كدا، حتى وقت ما بلغتني خبر خطوبتها كانت مش مهتمة.. سبحان مغير الأحوال.

-ربنا يتمملها على خير. ثم أضافت بإيحاء: ويهدي اللي فـ بالي.

سلمتها الثوب ومتعلقاته بابتسامة العارفة بمقصدها: آمين.

انسحبت تحمل الثوب فوق ذراعها إلى الحمام؛ كي تستعد، حدثت نفسها عن رد فعل ناهد إن علمت برغبتها في العودة، فحزم الأمر صار شيئًا لازمًا، قرارها بمتابعة حياتها مع ياسين لم يكن سهلًا وفكرة تنفيذه أشد صعوبة، لن ترمي نفسها عليه؛ كرامتها لا تستبيح هذا الفعل، ستترك الظروف كيفما تلقيها، وقتها تتصرف.

***

فتاة بضفائر ذهبية، لم تصل العمر الكاف بعد لتأخذ خصلاتها الدرجة الحقيقية والأكثر دكانة، كما أن تعرضها الدائم للشمس أغلب النهار عركل سرعة العملية، مؤجلًا بنية شعرها فترة من الزمن، وقفت أسفل الشجرة وعيونها معلقة بشيء يختفي بين غصونها وأوراقها، القلق يستبد بها عن من تتوار في حنايا ظلالها، يديها الصغيرتين المتربتين من اللعب في الحديقة استندتا على الجزع الشاهق نسبة لقامتها القزمة.

-أنزلي بقى، عمو لو شافنا هيقول لبابا!

ظهر وجه طفلة أخرى بشعر داكن من بين الأوراق بعدما دفعت بعضها جانبًا متيحة لنفسها رؤي واضحة لصديقتها، هتفت بلا مبالاة طفولية: خليه يقول، هيحرمني من اللعب أسبوع؟ مش مهم.. على الأقل هأكون أكلت من الجميز.

عاتبتها: اطلبي من عمو وهو يجيب، أو استني أقول لبابا يجبلنا.

قطفت الأخرى -غير مبالية- إحدى الثمرات، مسحتها في ثوبها المتسخ نتيجة اللعب طوال النهار وتسلق الشجرة آخر الأمر، قضمتها في نظرة مغيظة لصديقتها بالأسفل، لكت القضمة مستمتعة وقالت فيما فمها محشو بلحم الثمرة: طعمها لذيذ أووي.

-أنتوا بتعملوا إيه عندكوا؟؟

التفتت مذعورة؛ غير معتادة على خرق القواعد أو الدعس فوق أملاك الآخرين، هدأ روعها قليلًا حين لمحت طفلًا لا يكبرها سوى بخمسة أعوام على الأكثر، بالكاد عرف الشارب طريقًا لوجهه.

-أمشي من هنا، مالكش دعوة.

أقرنت جدية قولها بقذف ثمرة متخذة قمة رأسه هدفًا لها، متحسرة على الثمرة الضائعة في الأرض هبائًا. انفعل الولد الرفيع كعود القصب: أنتِ فـ الجنينة بتاعتنا وكمان بتطرديني منها؟

أخفت التي تقف أرضًا بضفائرها الذهبية شهقتها الفزعة خلف كفها الصغير المتسخ، بينما حافظت حياه على رباطة جأشها غير مبالية: أه، وإن كان عاجبك

حركت يديها في الهواء كي تجذب إنتباه صديقتها ثم حثتها على النزول: إنزلي وخلينا نمشي.. مش دوقتي الجميز؟.. يلا بقى.

انصاعت لها بصمت، تبحث بقدميها عن موطئ لهما يعينها على النزول، كادت تزلق أكثر من مرة فتعيد الكرة حتى صاح بها الفتى اليافع: استني هأساعدك.

صعد نصف المسافة ثم أمسك خلخال قدمها آمرًا إياها بعدم المقاومة، أسندها فوق نتوء يتحمل ثقل جسدها الضئيل، تنقلت بمساعدة منه بين عدة دعسات عمياء،

هبطت في النهاية تحث صديقتها على الذهاب، بل الركض هربًا من ابن صاحب البستان. لكن على العكس تلكأت تحدق في وجهه كل بضع خطوات، بنظرة مليئة بالحياء تتعثر في عيونها فيتحول هدفها ليصبح بساط النجيلة والحشائش.

ابتسم لها، بسمة رأتها أروع ما يكون، لم تنسها يومًا حتى أضحت شابة، لم يكن وسيمًا، على العكس، هزيلًا جدًا، بشارب كخط من طين التربة الندية فوق شفتيه الرفيعتين، لكن سكن ذهن مراهقة، رأت مساعدته لغرباء وتسلق شجرة معاونًا من أخطأت بحقه سمة من سمات الفرسان؛ فأضحى مقياسها الثابت لكل الشباب، نبلًا وفروسية.

كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأته فيها، لم يتقابلا بعدها سوى في منزلها عقب أعوام طويلة، صار خلالها رجلًا مشتد العود، يحمل مسئولية ويتقدم لخطبتها، لم تتعرف عليه في البداية، شعرت بمعرفة سابقة بينهما لكن أن تدور الأيام فيكون هو القالب والمقياس لفتى الأحلام؟؟..

صدفة لم تكتشفها إلا حين طالعت بالصدفة صور الطفولة والشباب لعائلة الناصري.. وسيد الفرسان ليس إلا ياسين الناصري، حام حمى شقيقاته من عائلة الناصري.

***

عقلها يشرد، غير مركزة فيما يدور حولها، ابتسامة مرتسمة على شفتيها بصدق هو كل ما يشعر من حولها بتواجدها معهم، وفرحتها بالحدث، والبسمة ليست نتيجة زيجة عمة ابنتها بل إضافة إلى ذلك فرحة باكتشافها، صدفة رفرف لها القلب.

التصقت بحياه في أحد الأركان، قرب آية عند الحاجة تاركين للعروسين مساحة من الحرية، يتحادثون دون تطفل منهم، وكزت سلمى ذراع حياه تلفت إنتباهها: فاكره شجرة الجميز؟

رفعت حاجبيها حتى كادا يمسان منبت شعرها: جميز إيه؟

اتسعت ابتسامتها: شجرة الجميز اللي فـ البستان المتطرف، اللي كان بعيد عن البلد شوية.

تأففت حانقة، ترفع عيونها إلى السقف مغتاظة: ماله يعني؟ نفسك فجميز؟

تجاهلت سافاتها متشبثة بسعادتها الخاصة: الولد اللي ساعدنا وإحنا صغيرين لما طلعتِ فوق الشجرة.. فاكراه؟

تذكرت هازئة: ااااه، الفارس الهمام والجندي المجهول؟.. اللي فضلتِ تتكلمي عنه بعدها أيام لحد ما نسيتيه.

نظرت لها بجانب عيونها: أنا ما نستهوش، بس زهقت من تريقتك عليا؛ فـ بطلت أجيب سيرته قدامك وريحت نفسي.

كزت على أسنانها غيظًا: مش فاهمة عاجبك في إيه؟.. دا معضم، وشعره يادوب منبت زي زرعة الفول أيام حصة العلوم، حتى مش شيك..

أضافت بتعبير متقزز يرمق سلمى باستنكار: بصراحة!، جاتك القرف فـ ذوقك.

عقدت ذراعيها: عارفه طلع مين؟

ارتشفت من عصيرها بملل من هذا الحديث؛ فغياب حمزه وانتظار لحظة مجيئه كان يفتك بعقلها، ترغب في رؤيته وأن يتشاركا جميع المناسبات سويًا بأي صفة: ياسين.

اختنقت بما شربته وبعدما هدأت أنفاسها المقاتلة للدخول إلى رئتيها، نظرت بصدمة إلى صديقتها التي قابلتها بنظرات ساخرة منتصرة، هتفت بصوت عال نسبيًا: لا ما تقوليش!

التفتت لهما آية مستغربة، طمأنتها حياه مستئذنة، جذبت صديقتها إلى الغرفة التي استخدمتها العروس للاستعداد، دفعتها كي تجلس على طرف الفراش، تخصرت في تحفز مصغي: فهميني بالراحة كدا؛ عشان أنا فهمي على قدي!

أرجحت ساقيها في الهواء مستمتعة باكتشافها اللذيذ؛ زوجها هو نفسه الفارس الذي بحثت عنه في كل من طلبوها، أو استشعرت إعجابًا نحوهم، لينتهي الأمر بمجرد تأكدها أنهم لا يمتون له بصلة، إلا ياسين.. الوحيد من قبلت به، رفرف لرؤيته الفؤاد رغم سوء المقابلة، وجف القلب كأنها تقابل فارسها من جديد، ليتضح أنها الحقيقة الخالصة.

-بعد اللي حصل، سمعت إن البستان اتباع، وشجرة الجميز اتشالت عشان صاحب الأرض الجديد عايز يزرع دره، هو راح وقتها عشان يبيعوا كل حاجه ما عدا البيت، يومين بس.. ومن ساعتها ما رجعوش البلد.

-عرفتيه منين؟

-لما روحت أخد جنة من ناهد لاقيت صورة قديمة واقعة، سألتها عن مين اللي فيها وقالتلي.

جاورتها مصدومة من تقلبات الأيام وجمع القدر لما فرقه في الماضي: يعني أنتِ اتجوزتِ الفارس اللي حلمتِ بيه وكنت بتقارني كل واحد يمر فـ حياتك بيه؟.. وبدون ما تعرفي دا؟!، دي لـف استوري على مستوى عالي بقى.

التوت بسمتها واختفت السعادة مستبدلة بالشجن: بس أنا والفارس هنطلق خلاص، يظهر إنه ما كانش الفارس اللي حلمت بيه بجد.

رفعت عيونها المترقرقة بالدمع إلى صديقتها: ممكن يكون القدر حطه فـ طريقي من جديد عشان يعلمني درس، وإن مش كل اللي بنحلم بيه هيكون سبب سعادتنا فـ الآخر؟

احتضنتها مهدئة: كل شيء جايز، بس ربنا رؤوف، أكيد مش هيديكِ اللي عشتِ عمرك تتمنيه إلا إذا ليكِ فيه نصيب ولو يسير، سواء رجعتوا أو ما رجعتوش.. يكفي إنه إداكِ جنة، أكبر هدية.

مسحت بكفها فوق خد الآخرى مسترسلة: ويمكن رسالة جديدة بتنبهك إنك مش لازم تتخلي عن حلمك وكملي محاربة عشانه.

زفرت بقوة: ما بقاش فيا نفس أحارب يا حياه، ضعف غريب مسك كل أطرافي، وعقلي كأنه فـ تلاجة، جبت آخري.

رفعت نظرها تؤكد للواقف خلف الأبواب يتسمع على حديث النساء، تؤكد له إمساكها إياه بالجرم المشهود لكنها اسمعته أكثر ما يهمه في الحديث: يمكن تعبتِ كونك الفعل ومستنية الرد، حابه يحصل تبادل أدوار، يكون هو الفعل ومنتظر منك رد الفعل؛ عشان تحسي بقيمتك وغلاوتك عنده.. وإن حبه حقيقي مش مجرد ظروف جابراه.

***

قبلت آية مهنئة، معتذرة عن غياب والديها، فرغم تورط عمها في مصائب انهالت فوق رؤوسهم إلا أنه يظل الأخ الأكبر لأبيها، ولا يصح أن يحضر عرس أو قران وأخيه مسجي خلف القضبان في تهم عدة، وزين يشد من آزر ابن عمه، قبلت اعتذارها بصدر رحب، مكتفية بمشاركة سلمى أسعد لحظاتها ولو حاولت تخفيف فرحتها من الظهور أمام الأعين، خصوصًا للجالس جوارها في محادثة لا تنتهي،

يخرج من موضوع فيدخل بآخرى، أشد تفاهة وأكثر سطحية، لكن رغم ذلك تتملكها الغبطة بمحاولاته المستميتة للحفاظ على انتباهها له وحده.

اقتربت منها على استحياء ضاقت عيونها في مقابله، لم تعتد على هذا التردد من كادي، فدائمًا ما كانت لبوة ناحيتها، تهجم بغتة لتقتنص، وقفت في هدوء منتظر، لم تشجعها ولم تردها. رسمت على وجهها ابتسامة متوترة، محاولة التغلب على صعوبة التعبير عما تريده بكلمات مفهومة لمن تحادثه، كذلك التلعثم المتمكن من لسانها والذي أوشك على إزهاق دموعها حرجًا وكبرياء مهدورًا: أنا.. آسفة، أذيتك كتير، جنة كمان.

عيونها اتجهت للصغيرة بين حضن عمتها الصغرى والكبرى استعدادًا للقطة جديدة من الكاميرا، تابعت بعدها مزدردة ريقها: مش عارفه.. أ.. أقول.. إ، إيه.

ربتت أعلى ذراعها في تفهم وقد ظهرت بسمة ضعيفة على سطح شفتيها: ما تقوليش حاجه، كله قدر، كان لازم أنفصل عن ياسين وكنت مجرد سبب، أصلًا ما كانش المفروض اتجوزه من الأول وأقهرك على جوزك بضرة.

هزت رأسها بعنف وسحبت الأخرى في زاوية منعزلة قليلًا عن دوشة القران والإحتفال قرب المطبخ في الشقة الصغيرة : أنتِ مش فاهمة!

أخفضت رأسها بحياء تجمع شتات الحروف من عقلها لتصيغ جملة مفهومة: مش حبيته، حِب ماجد من زمان.

قطبت سلمى في محاولة للتأكد مما سمعته رغم اضطراب التعابير: مش بتحبي ياسين؟

أكدت بقوة: ولا فـ يوم.

حركت كفها في الهواء: طويل القصة، المهم.. أنتِ مش.. ألم هنا.

أشارت إلى موضع قلبها قبل أن تضيف بخجل صار لا يفارقها مؤخرًا: إلا مع ماجد.

هزت سلمى رأسها في عدم فهم، فطمأنتها الأخرى: أخلي ماجد يفهمك، أنا مش زعلان منك، أنت طيبة، وكنت أحب نكون صحاب.. يمكن لو ظروف تانية كنا كدا.

استرسلت محاولة تصويب تركيزها للأهم: أنتِ بتحبي ياسين، وهو كمان.. أرجعوا، أنا خلاص مش موجود.

أكدت صدق كلامها بحركات يدها المعبرة، أوقفت ذراعيها المشيحة بالهواء بقبضة من كفها وابتسامة صافية تعكس بياض قلبها نحو من كانت يومًا شريكتها في الزوج والمنزل: ما كنتيش أنتِ لوحدك السبب فـ إنفصالنا، هو كان أمر محتوم وحصل..

حزنت ملامح كادي، رأت سلمى صدقها في ذلك، لا تحمل نحوها ضغينة أو كرهًا، مرسلة بذلك راحة فائقة من ظلم قد أوقعته على امرأة مثلها دون قصد. رفعت كادي هاتفها مجيبة وبعد كلمة واحدة اطلقتها أغلقت الهاتف، «أطلع» وفقط، انتهت بوقوف ماجد على الباب ثم اقترب منهما مع بسمة على وجهه.

ترجته بعيونها قبل كلماتها المضطربة في تلعثم: اشرح، مش عارف أنا.

اتسعت بسمته ناحيتها في تفهم، استدار جهة سلمى المذهولة مما يحصل أمامها، لكنها استمعت باهتمام لتوضيحاته عما حدث منذ سنوات إلى انفصالها الأخير عن ياسين ولمحات مختطفة عما تلى، عيونها تتسع ورأسها تشوش في غير تصديق، لكنها لم تتردد في نفي أي ضغينة تحملها تجاه كادي، ليس لإن نفسها عادت صافية تجاهها تمامًا، ولكن نظرة الترجي في عيون الأخيرة والتي لم ترها قبلًا جعلتها تشفق على حالها، مدركة أن للأيام دورًا في تطهير قلبها من بعض ما علق به من مشاعر تكره أن يتحملها فؤادها لفترة طويلة.

دنى ياسين منهم مذهولًا، فحضور ماجد فاجأه كذلك كادي التي ترددت كثيرًا ورفضت دعوة آية في البداية ليصطدم بوجودها وحديث ما يدور بين الثلاثة في عزلة نسبية عن من حولهم، توتر تملكه، فرغم مواقف آخر فترة وتأكده من اختلاف كادي عما كانت عليه إلا أن الشك لم يتركه، فالتمثيل على الدوام لعبة كادي المحببة.

ماجد سحب كادي من مرفقها نحو الخارج منسحبًا بعد إيماءة طفيفة من رأسه ناحية الإثنين المتسمرين في مكانهما. توجه بنظره كما جسده جهة سلمى في ترقب، واجهه الصمت ثم أوشكت على تركه عائدة لصخب الإحتفال، عركل خطواتها بوقوفه في طريقها سائلًا بقلق: كانوا بيقولولك إيه؟

رفعت إليه عيون متألمة رغم السخرية: اللي المفروض حضرتك كنت تقولهولي.

قطب لكنها لم تهتم، تركته خلفها أخذة ابنتها إلى أحضانها، تبحث معها عن السلوان والدعم الصامت، استكانت لها الصغيرة وتشبثت بعنقها أكثر كأنما تشعر بحاجة أمها.

***

الساق فوق الساق، والأصابع تتلاعب بالكأس أمامها، عينيها ينعكس فيهما بريق السائل الذهبي داخل الكأس مضيفًا قوة وقسوة إلى عيونها المظلمة، تفكر وتحسب، عقلها لا يتوقف عن الدوران. مسئولية المكان وكلت إليها بأمر من رامز، خوفًا من مطاردات الشرطة اضطر إلى الإختفاء مع رئيسه الأعلى، ترك لها الجمل بما حمل، لم تطمع سوى بهذا الملهى، الدنيا الآخرى التي تهرب إليها، صارت ملكًا لها لا مجرد حجر في أحد أركانها فحسب.

طالعت الفتيات المنشغلات بأداء مهمتهن، خيرن بين البقاء أو الرحيل، واحدة فقط من رحلت.. خلود، البقية وافقن على البقاء، لكن بتوعد قاس منها إن فكرت إحداهن في الرحيل بوقت لاحق.. تعلم أن ليس منهن من تملك شجاعة حياه بالهرب رغم التخويفات، والعلم بما قد يصيبها إن طالوها، ولا عدم إهتمام خلود إلا بالولد الذي فصلت عنه. عدا هاتان كلهن مثلها، يعلمن أن لا مكان سيسعهم ويتقبلهم بعد أن دخلن هذا العالم، سينبذن، لن يجدن من يقدر ظروفهن، بل وبعضهن يجد في هذا العمل متعته، حياته، ومهربه، ابتأست لذكر «جميلة»، انتحارها رغم اختيارها الإرادي لهذه الحياة.

بقاءها في هذا المكان هو إنتقامها منه، أن يحيا وهو يدرك أنه السبب في وجودها بهذا المكان، من سد بطريقها الطرقات الأخرى وأضاء هذا الطريق وحده بوجهها، الإنتقام الأكبر يقتات عليها، وقد يكون الأوحد، لكنها ستعيش بمنية تقلبه على جمرات الذنب، أنه وحده السبب.. وحده.

-أزودلك تلج؟

نظرها إلى وجهه، بزي فتى البار كبقية العاملين في الملهى، يحول بينها وبينه البار، (خالها الوالد) كما يقولون، رمها ثم ارتمى أسفل قدميها حالما وصله خبر إدارتها للمكان، قبل قدميها ولحس التراب الذي تدعس عليه فقط لتقبل توظيفه بأي مكان ترغبه؛ فهو لم يعد يملك بيتًا أو حتى خبزًا جافًا يقيم صلبه، قبلت؛ لكن ليس لطيبة قلبها، بل لترى ذله وإنتقامها فيه، وتمني روحها المعذبة بقرب دنو الآخر من نفس المكان، يلمع الأرضية صباحًا ويسكب لها ولغيرها الكؤوس ليلًا، سيظل هكذا، خادم وعبد لها.

حركت ثلاثة من أصابعها الحرة من إمساك الكأس في حركة صارفة، رفعت الكأس ترشف أقل القليل، فيجب أن تظل متيقظة تتابع بأعين متسعة على آخرها، فمن يغفل يؤكل، دارت بالمقعد تسند ظهرها للبار، تراقب العرض فوق مسرح الملهى، ففقرة ساحر أو نصاب، لا يهم، يكفي أنها تنال الإعجاب وإهتمام من ظل محافظًا على وعيه حتى الآن من الرواد.

تركت كأسها الذي لم ينقص غير بضعة قطرات، اتجهت إلى عزلة مكتبها –أو ما صار كذلك- بجدرانه المبطنة بمادة مانعة للصوت من اختراق صومعته، دلفت واستدارت تشعل الضوء حين وجدت يدًا تمتد لفتحه عوضًا عنها والشبح تتضح ملامحه.

شهقت متراجعة خطوة من المفاجأة: رامز؟

-خضيتك؟

تمالكت نفسها واتجهت إلى الطاولة الصغيرة تسكب لنفسها كوبًا من الماء، قالت لا مبالية: ما توقعتش ترجع دلوقت، ما عداش كتير.

ابتسم ساخرًا وهيئته المهلهلة زادت مرارة ملامحه: ست شهور مش كتير يا نيفين؟

جابهته بنظرات قاسية: بالنسبة للتهم اللي متوجهالك.. مش كتير.

تنهد مغمضًا عينيه برهة: عايز فلوس.

رفعت أحد حاجبيها: منين؟

هتف مندهشًا مطالعًا ما حوله: من هنا، أنا شايف إن الكباريه شغال كويس.

ضحكت ملئ فاهها: بس مالكش فيه حاجه.

قطب: قصدك إيه؟

استدارت حول المكتب متجهة إلى مقعد صاحبه: قصدي أنت عارفه، المكان باسمي، والمال مالي.. مالكش فيه حاجه، وما عنديش استعداد أساعدك أو أداينك بمليم.

ضغطت على الزر المتواري عن السطح فيما تراقب اقترابه منها في غضب أثناء إنهاءها كلامها. صاح غاضبًا كثور هائج تتحرك أمامه قطعة قماش مرفرفة: أنتِ بتقولي إيه؟؟.. أنتِ نسيتِ كتبتلك المكان ليه؟.. وإنك ما دفعتيش فيه قرش.

-ولا أنت دافع فيه حاجه، بس حاليًا الورق يثبت إنه ملكي، بيع وشرا، قول إنك ما خدتش فلوس بس الورق بيأكد إنك أخدت، دا يعني لو تقدر ترفع عليا قضية مثلًا.

أنقض على عنقها يحاول خنقها في غيظ، تتكالب عليه المشاكل والعوائص، أصبح شريدًا في الطرقات، ينتظره حكمًا قاسيًا في السجن إن ظهر، يقتات على بقايا الطعام، نفد ماله وتخلت عنه الأيدي التي ترجت يومًا منة رضاه، أخرج على عنقها العاري جلّ حنقه وغضبه. كادت روحها تزهق حين دخل خالها في صحبة رجلين من الأمن، قبضوا عليه وسحبوه إلى الخارج

استعدادًا للتوجه به إلى قسم الشرطة دون إعتبار لزعقه ومحاولاته للفكاك، صحبهم خالها من الباب الخلفي كي لا يعكر صفو الأجواء بقاعة الملهى.

ارتخت في مقعدها تلتقط أنفاسها التي أوشكت على فقدها للأبد إن تأخروا دقيقة زائدة، ابتسمت رغم شحوبها، فالأمر أنتهى، والمكان صار لها، تخلصت من رامز نهائيًا، ولا شك أحمد سيفر خشية أن يقبض عليه كما حدث لساعده الأيمن.

***

كانت تقف مذهولة، والدها يجلس مترأسًا الجلسة بمكتبه، والدة حمزه تشارك ابنتها وفادي في الأريكة الوحيدة المتاحة بالغرفة. شقيقتها العروس وزوجها، أنس، عائشة ومحمود متجاورين وتكاد أجسادهما تتلاصق ورغم ذلك تنبعث منهما طاقة من النفور، كأنهما على حافة التدافع في جهات متعاكسة.

من وجد له مكان ولو ذراع مقعد استغله، وهي تقف في الحجرة تطالع من بها بعدم فهم، ماذا يحدث؟ لِمَ اجتمع الجميع بهذا الشكل؟ نظرات نجلاء الطفولية الممتلئة بالحماسة لا تغفل عيونها عن رصدها، استشعرت دفئًا يتسلل إلى ساعديها، تطلع ببلاهة لليد الداعمة القابضة على ذراعها، ارتفع بصرها رويدًا حتى التقت بابتسامة سلمى المطمئنة أن كل الأمور بخير، لم يدم استرخاءها طويلًا؛ انسحبت سلمى لركن ما، تاركة المجال لحمزه. يتم التخطيط لشيء لا تعرفه حتى الآن.

حركة خفيفة خلفها جذبت اهتمامها بعيدًا عنه، تابعت يد نجلاء الممتدة داخل حقيبة من الورق المقوى تخرج شيئًا من محتوياتها، تل أبيض!، برقت عيونها في ترقب وقد انطلقت شرارة سعادة خفية تحاول تأكيدها من المحيط، ارتفع ذراعي شقيقة حمزه فوق رأسها تثبت التلّ الأبيض بدبوس صغير لا يكاد يظهر للعيان، فيما انشغل حمزه بإخراج ربطة عنق فراشية على الطريقة الفرنسية «ببيون» وعلّقها حول رقبته.

كتمت ضحكة على مظهره، ربطة عنق مع تي-شيرت بأنصاف أكمام، لكن حالها لا يختلف كثيرًا؛ فطرحة العروس القصيرة كذلك لا تتناسب مع قميص مربعات قزحي الألوان.. ارتجع صغيرها عليه قبل دقائق، ليس لأحد حق التذمر وقد أخذوها بغتة وخيانة!

-بدون دخول فـ تفاصيل.. آخر حديث دار بيني وبينك قلب دماغي، نور حاجه غابت عنها، كان معاكِ حق فـ غضبك، مهما اعتذرت مش هأقدر أوفيكِ حقك عليا.. قعدت أفكار فـ حل عملي، وأفعال مش كلام بس تبينلك قد إيه مدرك لغلطي ومش هأكرره لكن ما لاقتش، على الأقل قريب؛ لإن دي حاجه بتيجي بالوقت والظروف، قررت إني أعاهدك

قدام كل اللي يهموني ويهموكِ، الناس اللي شهدت على ارتباطنا ووقفت جنبنا ودعمتنا وهتفضل تدعمنا..

ازدردت ريقها في محاولة لتذوق معسول ما يخرج من فمه المصمم والعازم على عدم التراجع، الواثق مما يقول، المتعهد على الإلتزام، شخذت كامل تركيزها تحفظ كل حرف آت: أعاهدك لآخر نفس مني إن زواجنا يكون ناجح وقوي، وإني أصبر عليكِ فـ غضبك.. وجنانك –أضافها موسعًا ابتسامته- وأكون سندك فـ شدتك، أسيطر على نفسي وأقلل الكلام وقت عدم الحاجه ليه ووقت الغضب، بس هأتكلم عند الضرورة –بريق عينيه كان محذرًا مشددًا على كلمته- هتكوني بيتي، وهأكون أمانك.. أعاهدك إني أحبك فـ كل الأوقات وأنتِ بكل حالاتك لآخر العمر.. ومهما كانت الصعوبات اللي هنواجهها فـ حياتنا وتقف قدامنا مش هنفترق، وهنلاقي طريقة نرجع نكمل بيها من جديد، مع بعض!.. ومافيش هروب، بعد.. مشاكلنا هتتحل بينا وقبل ما تكبر لازم نشوفلها صرفه.

أخذ نفسًا عميقًا تاركًا لها بعض المجال؛ كي تستوعب كل ما قاله قبل أن يسألها: موافقة تعاهديني نفس العهود؟

لمحت ابتسامة أبيها الراضية، والدموع المترقرقة في أعين شقيقتها، خلف الهاتف الجوال أختفى وجه شقيقها الصغير المنشغل بتصوير ما يحدث دون أن تنتبه له، شجعتها حماتها لإنهاء الوضع بابتسامتها المغيظة مع إرتفاع أحد حاجبيها؛ تتحداها الرفض، فمن له حظ مثلها بزوج كهذا لرده خائبًا مع أذيال خيبة؟.. وقتها لن تكون الخيبة إلا من نصيبها

قبلتها عائشة مسرعة فور رفعها رايتها البيضاء ثم خرجت لتعود مع قالب ضخم من الكيك، وضعته فوق الطاولة بمنتصف الغرفة، في إنتظار إنتهاء الزوجين من المباركات وسماع الدعوات قبل ردها بأعين متلألأة بالكاد تترك عينهما بعضها.

تقاطعت أصابعها أمام جسدها وعينها تخاطب زوجها المواجه لها ببرود، فحتى العتاب الصامت والإدانة بالنظرات لا تلقي في بركة جموده حجر مُذبذِب.

***

تنحنح مقتربًا من مجلس ابنه في عزلة عن صخب الداخل، استند على كف محمود الممدود حتى شاركه الجلسة فوق الدرجات الأمامية للمنزل.

-لسه مصمم ما تمسكش عصايه؟

-عايز تحس إني كبرت وراحت عليا يا ولد؟

التقط كفه مقبلًا ظهره: ربنا يديك الصحة وطولة العمر.

عاتبه متنهدًا: أه لو تعمل نص دا مع مراتك، هتعيش فـ نعيم.

قطب قائلًا بثقة: الحريم مالهومش غير الوش الخشن، لو رخيت الحبل هيفكروا نفسهم ركبوا ودلدلوا رجليهم، كدا أريح.

رفع حاجبيه مستغربًا منطقه؛ فهو لم يفكر هكذا يومًا ولاُ قال يومًا ما يشبهه: مين فهمك كدا؟

سخر: الحياة.

نظر لوجهه بغموض: مش يمكن أنت ما فهمتهاش صح، فـ بالتالي حكمك غلط؟

صرح مباشرة دون مواربة أو تلاعب: حياه ادلعت، شافت وش ناعم بزيادة، آخرتها هربت وكسرت كلامنا.. وسودت وشنا قدام الناس.

-إحنا اللي غلطنا فـ تعاملنا معاها، مش كل الناس زي بعض، ولا كل البنات تقبل نفس المعاملة.

زمجر: هي عارفه إنه غلط تقابل واحد من ورانا، عملتها وفـ أنصاص الليالي، دا مش كفايه؟

-ما أنت فضلت فترة فـ القاهرة، ما حدش عارف بتقعد لأنصاص الليالي فـ الشارع ولا لا.

رد بعنفوان أخرق: بس أنا راجل.

-غلط، مبدأك غلط.. أنت قدوة، أخ أكبر قبل ما تكون راجل حر تعمل ما بدالك، ومش معنى كدا إن اللي عملته صح.

صمت الولد غير راغب في مجادلة مع والده يدرك عقمها، استعاد الأب خيط الحديث الأساسي؛ فعلاقته بحياه تحتاج وقتًا أكبر وجهد يفوق بضع كلمات: نرجع لموضوعنا، عيشه مش عجباني، البنت بتدبل كل يوم يا محمود، ومادام وردة دبلت يبقى الغلط على الجنايني.

أجاب بكبر: هي اللي حابه تعمل من الحبة قبة، خليها تشرب بقى.

نهره بهدوء: دا مش أسلوب معاملة بين زوجين، تحب تقولك ما تتفلق وأخبط راسك فـ الحيط؟

انتفخت أودجه غيظًا من مجرد طرح الفكرة: ما تقدرش، كنت كسرت رقبتها.

-بس هي بتعمل كدا، مش بعصبية وعنف زيك، بس ببعدها، سكوتها ونظراتها، وبكره مش بعيد الموضوع يكبر وياخد أبعاد تانية، تاخد الولاد وترجع بيت أهلها، وقتها آخرك نظرة سريعة على ولادك بدل ما عايشين فـ ضلك، ودي بردو طريقة تانية لـ«أخبط راسك فـ الحيط».

ألجمه منطق والده العقلاني، شرد في البعيد بينما أكمل الأب كلامه متأكدًا من استيعاب ابنه الكلمات السابقة بشكل كاف حتى أصابت لسانه بالشلل عن الردود المتنمرة: مش كل حاجه بالدراع، ولا بكسر الرقبة، فيه حاجات كتير كلمة طيبة تحلها، والبسمة تدفنها.

تنهد مستسلمًا: عايزه تعرف حاجات مش حابب أقولها، نفسي أنساها.

-هي أكيد مش هتفتح نفوخك وتطلع اللي فيه، هتعرف وقت ما أنت تحب تقول، بس لازم تسأل عشان توصلك معرفتها إن فيه حاجه أنت مخبيها وفاكر نفسك شاطر لدرجة إنك مش متخيل إنها لاحظت.. قولها ببساطة إنك مش مستعد دلوقتي للكلام عن الموضوع دا ولما تجهز هتحكيلها، أو حتى قولها انسيه زي ما أنا عايز أنساه.

غمزه مضيفًا: بس توريها إنك فعلًا بتحاول تنسى مش مجرد كلمة تسكتها بيها وخلاص.. ومراتك طلباتها خفيفة، إنما أنت غبي مع الستات، ما اعرفش طالع لمين.. الأكيد مش ليا؛ لإني كنت بأكل أمك –الله يرحمها- بكلمتين.

ضحك رغمًا عنه من كلمات والده الأخيرة، استرسل فاروق: هي إيه غير كلمة حلوة، بوسة على الراس، تسلم إيدك، غمزة فـ وسط اللمة ماحدش داري بيها غيركوا، لقمة تاكلها من إيدك، وكل سنة وأنتِ طيبة ومعايا فـ كل مناسبة، وردة على مخدتها تصبح عليها وتكون مرسال بينكوا فـ يوم نزلت فيه قبل معاد صحيانها.

صفعه على كتفه في غيظ: بس أنت بأف وعبيط.

«بابا» قالها زافرًا في حنق، رأه الأب طفولي بحت، نهض متحاملًا على أوجاعه المتزايدة في الآونة الأخيرة دون أن يخبر أحدًا سوى طبيبه: صلح اللي بينك وبين مراتك، لراحتك قبل راحتها ومصلحة الأولاد.

عاد للداخل ولحقه محمود بعد دقائق، يفكر في كل الأحرف التي ألقاها الأب على مسامعه بنفس الترتيب ونبرة الصوت التي تحمل المصلحة والإهتمام لحاله.

***

تمددت فوق المرتبة المفروشة بالشرفة، بالكاد تسعها، سلمى ترقد جوارها. الإثنتان تستعيدان ذكريات مضت قبل عامين، عامين قلبا حياتهما رأسًا على عقب، ذاقت كل منهما العذاب والويلات في الحب والإختيار الخاطئ لمستقبل إرسالات قلوبهن العاطفية، أنتهى المطاف لدى الشقية منهما بإيجاد حبها الحقيقي، من لم يستطع أن يذق لحياته طعمًا دونها.. والأخرى في إنتظار قدرها ليضع بصمته الأخيرة في قصة حبها وزواجها.

بيجامتان طفوليتان، ألونها باهتة لكن باعثة على الفرحة في قلوبهن، تعود كلتاهما إلى سلمى منذ أيام الثانوية، شديدة التعلق هي بكل ما له قيمة عاطفية، يبدو عليها قليلًا للعامة وكثيرًا جدًا للمقربين. رغم سخرية حياه الدائمة من عاطفية سلمى إلا أنها تشكر لها ذلك الصنيع، بالأخص الآن، ارتفعت ضحكتها على الذكرى.

رفعت سلمى أحد حاجبيها مميلة رأسها تجاه حياه: إيه اللي بيضحك أوي كدا؟

التمعت عينيها في مقابل صديقتها المهتمة بكل ما يخصها، استرسلت: شوفي بقالنا قد إيه سوا، ومع ذلك ساعات كتير مش بأفهمك!

غمزتها بشقاوة: نص جاذبيتي فـ الغموض يا بنتي، أومال إيه؟!

قهقهت سلمى معتدلة في نومتها بحيث تستند على مرافقها، عيونها لا تفارق وجه الآخرى المتقافز بفرحة طفولية ساذجة: والنص التاني فـ الهبل اللي بتعمليه.

قطبت في حنق: أنا بأعمل هبل؟

سخرت: توصفي بإيه واحدة تسيب جوزها يوم صلحهم عشان تنام فـ بلكونة بيت صاحبتها زي أيام المراهقة.. دا حتى أحمد سيبتيه مع سته!

لوت شفاهها، ناهضة من نومتها، جلست تحتضن ركبتيها في مراقبة شاردة لكتلة سحب متحركة أمام القمر: حبيت أقضي معاكِ الليلة اللي قبل السفر؛ لإني عارفه إن الفرصة ممكن ما تتاحش قريب وأقعد معاكِ، الحياة هتاخدني وتاخدك.

ضحكت بوجع: مش بعيد البيجامات دي ما تدخلش فينا كمان سنتين ولا تلاته.

تمددت واضعة رأسها فوق فخذ سلمى بعدما جلست مستقيمة، أحكمت قبضتها حول ركبتها وعيونها تلتقي بأعين بنية مهتمة مدمعة: أنا عارفه إنه طمع.. بس هو ما ينفعش أحتفظ بعلاقتنا زي ما هي، وقربنا من بعض جسديًا زي زمان، وفـ نفس الوقت أفضل مع حمزه وأحمد.

تسللت أصابع يمناهى داخل الشعر المبعثر في فوضى على ساقيها، قائلة بكلمات فلسفية خرجت بعفوية: بتاخدي حاجه وتسيبي حاجه، دي قاعدة الحياة.

تأففت: أنا وهي مش شبه بعض، مع إن اسامينا واحدة، هي عايزة حاجه مقابل التانية، وأنا عايزه كل حاجه حلوة تفضل حواليا.. وبيقولوا إن كل واحد له نصيب من اسمه!

ابتسمت: ما أنتِ فيكِ منها بردو، عنيدة، بتاخدي حقك غصب عن عين أي حد، شقية ولعبية.. مع اختلاف طريقة اللعب ونوعه، لكن المبدأ واحد.

تنهدت مفكرة: بكره هترجع المسئوليات كاملة من تاني، زوجة وأم بدوام كامل، ماما سمية مهما كان هتفضل حماتي مش ماما وفترة انفصالي عن حمزه اثبتتلي دا.. نجلاء مشغولة فـ الدار، ويادوب بنعرف نشوفها، شالت هم كبير.

سألتها بابتسامة متفهمة للمخاوف المتلاعبة بالرأس أسفل أصابعها: حاسه بالوحدة؟

-ضحكتيني، أحمد وحمزه والمسئوليات والواجبات مش هيسبولي وقت للوحدة.. خايفة إني أنسى نفسي وأضيعها فـ وسط الدنيا دي.

-فكرك قعادي هنا مع أهلي مش هينسيني نفسي؟

حدقت بها بقوة: أنتِ ضيعتيها فعلًا لما سيبتِ ياسين.

-يا سلام!،الحقيقة إني ضيعتها لما كملت فـ لعبة مش بتاعتي، أنا إنسانة مسالمة.. عايزة حياة مستقرة، زوج يرجع البيت فـ مواعيد ثابتة بدون مشاكل وكلاكيع، أعمله الأكل اللي بيحبه.. نخرج كل أسبوع مع بنتنا أو ولادنا -باعتبار ما سيكون-، حاجه راكزه كدا، مش مقالب ومكايد، حقد وغيرة.. عمري ما انتميت للعالم اللي حطني فيه.

جادلتها: بس اتأقلمتِ.

رفعت كتفيها مستهزئة: حاولت بس ما نفعش، الجو مش بتاعي، أولها أو آخرها كنت هاتخنق وأبعد عنه.. اتأخرت لإني وقعت بنتي ضحية لتجاربنا ولعبنا، لكن ما باليد حيلة، بقى أمر واقع..

انتفضت جالسة في مواجهتها، ثنت ركبتيها مستقيمة بظهرها في انتباه شديد وحماس بالغ: بس عرفتِ إنه طلقها، وهي شكلها بتبني حياتها خلاص.. يعني ضمنتِ إن مافيش مشاكل من ناحيتها تاني، وربنا عاقبها على اللي عملته فيكِ، والروح اللي كانت هتتسبب فـ موتها.

رفعت حاجبيها بشدة ونظرة تأنيبية عنيفة وجهّت لحياه؛ فيبدو أن الصغيرة الشقية تلصصت على حديث لا يخصها في غفلة عن الجميع، تململت في جلستها بضيق وقد

تجعد وجهها كطفلة تلقت التعنيف من أبويها توًا، أشاحت بذراعيها في الهواء: خلاص خلاص، مش هأعملها تاني.

ثم غمزت متحفزة كقطة جائعة أمام سمكة مشوية: بس بما إني خلاص سمعت.. فـ ليه بقى ما تسامحيهوش وترجعوا؟

هربت من النظرات المتفرسة بألم تكافح لمدارته دائمًا: فكرة إنه اتجوزني بناء على طلب بابا وحماية ليا من عمي، وإنه من الأول جواز مصلحة بالنسبة له ووقت هينتهي فيه أكيد.. كفيلين أنهم يخلوني متمسكة بالإنفصال.

نفخت بعنف وصرخت مغتاظة وقد أخفت الصوت الصادح للصرخة في الوسادة القطنية: هتجنيني.. وهو هيفكر يحميكِ عشان إيه؟.. ما كان سابك لأبوكِ يحميكِ!، هو كان من بقية أهلك!.. ولا حتى خلى مهران يتجوزك، على الأقل عمك سعدان مش هيقتل مرات ابنه، دا ابنه بردو مش أي حد.

قطبت: هو يعرف إن مهران اتقدملي؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة: ما أعرفش، بأفرض بأفرض!..

ارتفعت سبابتها في وجه صديقتها محذرة: الموضوع كبير، وماحدش عاش ولا داق اللي دوقته.. ما تحاوليش تدخلي، وإنسي دور المصلحة الإجتماعية دا معايا!

ضمت كفيها في حركة هائمة: وشجرة الجميز؟

ضربتها فوق رأسها بالوسادة: ولا حتى البلوط، إنسي وسيبيني أنسى.. مش عارفه إيه اللي وقع الصورة دي قدامي وقلّب عليا المواجع.

-مش يمكن رسالة من ربنا إنك تديله فرصة جديدة؟

صرخت باسمها ناهرة في غضب، كادت تقوم لولا تشبثت بها بكلتا ذراعيها: خلاص والله ما أنتِ قايمة، استحمليني الليلة دي بس.. وع العموم هاسكت ومش هاتكلم معاكِ فـ الموضوع دا تاني.

استندت بظهرها إلى سور الشرفة وعيونها تنظر بشك في صحة قولها، ليست معرفة ليلة وضحى يوم، معاشرة سنوات تصل إلى ربع قرن وتتخطاها كافية لتعرف أنها ستعود إلى فتح ذات الموضوع مرات ومرات، لكن الأحقية معها؛ فاليوم يسبق سفرها ولا تعلم الغياب كم سيطول بينهما، ستتحمل كل ما يزل به لسانها؛ في النهاية هي نصيحة من أخت ترغب في رؤية السعادة على وجه أختها.

هبت مندفعة من مكانها عائدة إلى الداخل قائلة: هأجيب اللاب توب ونقعد نتفرج على مسلسل إنمي.. فيه واحد هأموت وأشوفه، قصير خالص، بتاع أربعة وعشرين حلقة بس.

شهقت محدقة في ساعة يدها: الساعة تلاته وربع يا حياه!

تربعت جوارها وانشغلت في البحث عن الحلقات، معلقة بعدم مبالاة: وإيه يعني.. مش هننام إنهارده، بكره ننام زي ما إحنا عايزين.

ضحكت على صغر عقل صديقتها لكنها انصاعت لطلباتها، فغدًا تسافر واليوم هي مارد المصباح، تلبي لها جل أوامرها وإن كانت على غير هواها.

***

صعد الدرج متجهًا إلى غرفته بخطوات واسعة، يوم آخر شاق وجسده ينضح عرقًا من المجهود، يحمد الله على مساعدة سلمى في الشئون الإدارية الهامة بالشركة؛ فهو لم يكن ليقدر على حمل العمل اليدوي في الأرض ومتابعة العمال، بالإضافة إلى تقديم المساعدات في المكتب والشركة.

وقف أمام درفة دولابه المفتوح يبحث بعيونه عن ثياب نظيفة استعدادًا لحمام دافئ مطول، بالكاد مر على تواجده في المنزل ثلاث دقائق حين أسرعت إليه زوجته عائشة متمهلة على باب الغرفة تطالع وقوفه الحيران أمام الخزانة.

-روح استحمى أنت وأنا هأجهزلك الهدوم.

لم يتكلف حتى حركة من رأسه يخبرها بموافقته، فقط تراجع ثم اتجه إلى الحمام، دون نظرة عابرة لمن تراعيه رغم عذرها في عدم التطلع بوجهه حتى!

أخرجت بضع ملابس وضعتها على طرف الفراش، اخترق سمعها صراخه بكوب من الشاي الثقيل، غادرت الغرفة ذاهبة إلى المطبخ وما زالت تمني النفس وتصبرها حتى يفعل الله أمرًا كان مفعولًا.

خرج بعد حمام طويل منعش ومرخي لعضلات جسده المنهكة، استلقى فوق الفراش محدقًا في السقف بعدما ارتدى ملابسه، ولجت إليه مقدمة كوبًا ممتلئًا بمشروب غير الذي طلبه، رفع إليها أعين صاعقة وفتح فمه موشكًا على إطلاق أبشع القذاع لكن لا مبالاة ملامحها وانتظار عيونها لقراءة شفاهه قبل أن تسمعها أذناها أوقفه متجمدًا، لا يعلم من أين أتى كلام والده ونصيحته طارقة أذنيه.

«صلح اللي بينك وبين مراتك، لراحتك قبل راحتها.»

«مش كل حاجه بالدراع، ولا بكسر الرقبة، فيه حاجات كتير كلمة طيبة تحلها، والبسمة تدفنها.»

بدل ما أوشك على إطلاقه بتنهيدة متناولًا الكوب من يدها يرتشف محتواه على جرعات كبيرة حتى أنهاه على ثلاث مرات، بعدما أنتهى أعاد إليها الكوب منزلقًا في مكانه يبحث عن النوم ليطالبه بالراحة من أجل جسده المنهك حد الإنهيار.

انسحبت مغادرة وعينيها لا تبتعد عنه حتى أغلق الباب حاجبًا عنها رؤيته، عقلها لم يفته تراجعه الأخير قبل السباب المعتاد، فهذا ليس من شيمه، رفضت أن تمني نفسها بما يستحيل من العشرة بينهما، قررت صرف ذهنها في أمور المنزل ورعاية أبناءها حتى يبت جديد.

***

قابضة على حقيبتها بإحكام فيما تتدلى جوار ساقها، تتبع خطى شقيقات ياسين، والتعب يهد عظام الجميع من كثرة اللف وصعوبة الاختيار. أتت مساء الأمس بعد إلحاح من آية

على مشاركتها في شراء لوازم العروس من جهاز، تكتب معها قائمة المستلزمات، هي العروس السابقة وذات الخبرة عكس براءتهما في تلك المواضيع، هي وناهد أختها الكبرى .

حذفت أغلب ما كُتِبَ، متخلية عن بزخ لا قيمة له؛ فيكفيها من أطقم العشاء واحد بينما تتخلى عن طاقمي الإحتياط.. وأغطية السرير بأعدادها الفردية إبعادًا للحسد، لكن المناشف لا غنى لها عنها، فلا تظن أنها قد تملك مع أطروحتها الوقت الكافي لإنتظام غسلها.

ملابس العروس الحريرية بمآزرها المطابقة كان أكثر ما هم ناهد هذه المرة، حيث الأولوية لهم. تقدمتها آية المترنحة جوار أختها ولسانها يشكو صعوبة اليوم والذي – بالنسبة لها- فاق دراستها في بث الإجهاد بسيقانها. ابتسمت لا إراديًا على تأففت العروس وناهد تقابلها بشفاه مقلوبة ونظرة جانبية صامتة.

يد قبضت على الأكياس التي تحملها، تخلصها من حملها، التفتت فزعة حتى أدركت هوية المتطوع المفاجئ، تركت له مهمة الحمل طواعية، ووقفت تطالعه بصمت بددته حينما طال: كويس إنك جيت، هأمشي أنا بقى.

نقل الأكياس إلى يد واحدة فيما الأخرى تمتد إلتقاطًا لذراعها، طالبها بأعين تحمل التصميم مهما أتت باعتراضات: عايزك فـ حاجه مهمة.

سلم الأكياس إلى حارس الأمن طالبًا منه إرسالهم إلى الأعلى عائدًا إليها ويده تضغط على زر الإنذار الخاص بسيارته مع اختلاف موديلها عن الجاكوار السوداء المبهرة. فتح لها الباب مطالبًا دون كلمات بصعودها، امتثلت مرددة داخلها بجمل وأمثال تُحيي الصبر في أعماقها.

***

توسطت الساحة الخاوية، تنظر صوب أبواب الشرفة المفتوحة على مصرعيها في الجهة المقابلة بينما على يمينها رواق طويل يدلي إلى عدة حجرات. الشقة بمساحة

ضخمة وخالية من كل شيء في إنتظار ساكنها الجديد. عيونها استدارت إلى موضع وقوف ياسين، خلفها بعدة خطوات كافية لتشمله كله في نظرتها.

ابتسم، دون القدرة على إخفاء قلقه وتوجسه: تعالي أوريكِ بقيتها.

سحبها من كفها، وهي لحقته مستسلمة، عقلها لم يصح بعد من دوامته، لمحت الغرف الأربعة من زاوية عينيها، وتبعته إلى بقية الأرجاء، تحدجه حاليًا بتعجب و.. إنتظار. لمح الأخيرة فاكتفى بمغادرة الشقة هامسًا: هنتكلم فـ مكان تاني.

وكان ذلك..

مرّ الوقت عليهما محتلين لطاولة زوجية صغيرة، قلصت المسافة بينهما بحميمية زادت إرتباك دواخلها، استمرت في فرك كفيها أسفل الطاولة في حركة غير واعية، وعيونها تهرب أحيانًا كثر من تأمل فنجان الكاكاو بالحليب ناظرة إليه، تزجره الكلام؛ فنفسها لم تعد تتحمل السكوت.

-أتمنى نأثث الشقة دي سوا، نسكن فيها إحنا التلاتة.. تكون بداية حياتنا الأسرية مع بعض.

سألته باهتمام هادئ: حجم الشقة وموقعها.. مش أكبر من إمكانياتك الحالية شوية؟

فيما سبق كان ليعتبر كلامها إهانة وتصغيرًا من شأنه، لكن الاهتمام المتغلغل لحروفها أعلمه مبلغ ما يهمها أمره؛ لذلك تبسم مؤمئًا: مالكها معرفة، هأدفع تمنها بشغل بينا.

اكتفت بإيماءة متفهمة، رأها كتصريح لمتابعة ما يبغي قوله: عارف إن رصيدي عندك مابقاش فيه اللي يشفعلي، بس.. ما أقدرش أقف ساكت وأشوفك بتضيعي مني.

رمقت الطاولة الفارغة على مقربة منهم، متهربة من النظر في وجهه ومقاومة للدمع المترقرق في مآقيها: أنا شاكرة شهامتك جدًا، بس ما أظنش إنها هتقدر تمنع عني القدر لو عمي حب يأذيني بأي شكل.

مال على الطاولة المربعة كازًا على نواجذه: مش شهامة، دا اللي نفسي تفهميه..

لفت رقبتها صوبه، وسألته بحاجب مرتفع في هزء: عايز تقولي إن جوازك مني ما كانش بنية شهامة وإنه لشخصي؟

زفر وتراجع في مقعده: سلمى.. جوازنا كان لكل الأسباب الغلط، لكن زي ما بيقولوا.. – تمهل قبل أن يتم-.. الوردة بتطلع من وسط الشوك.

رفعت كفيها لتعقدهما أعلى الطاولة من حول فنجانها الذي برد، دغدغة الأمل في صدرها تسببت في توتر معدتها، أيكون أوان جني ثمار صبرها جاء؟

-ممكن أعرف إيه الأسباب الصح اللي أنت شايفها فـ رجوعنا دلوقتي؟

هز رأسه رافضًا وصفها لمطلبه: مش رجوع، بداية جديدة مافيهاش من الماضي إلا حاجه واحدة.. جنة، بنتنا.

ارتشف من فنجانه المشابه لخاصتها، نادمًا على إنجذابه خلف ما ستشربه، لكنه كان بحاجة إلى بارقة ضوء، شيء مشترك يطمئنه عما سيتلو و يختتم به اللقاء. الآن.. هو في أشد الاحتياج لشيء يمتص توتره كليمون مثلج جدًا، أو آخر يفيقه من أحلام يقظته وشطآن تصورات المستقبل التي تلقفه. في النهاية أكتفى بالمتاح.

-الأسباب الصح هي جنة، إنها تكبر بين أبوها وأمها سوا.

أول أبراج أملها انهدم.

-لكن الأهم.. حبي ليكِ.

وآلاف غيره شُيدت!

-وجودك غير حاجات كتير، خلصني من جوازة كان ممكن أفوق منها بعد عمر طويل، طويل لدرجة إن مافيش تعديل يقدر يصلحه، عشتي مع واحدة بتمثل قبولها بيا وبالحياة معايا.. رغم إن نفسها تخلص مني فـ أقرب فرصة.

زلزلت فكرة الجمال يأتي قبل الحب، فمعك أتى الحب وسحب خلفه الجمال من الأعناق، كنت الأدنى منزلة والأقل في عرش الجمال قبلًا، أما الآن فعرشه لا يليق إلا بك وحدك.. شرد فكره للحظة مطالعًا وجهها الهادئ إلا من بريق عينيها الخاطف لأنفاسه.

لو رأها في أي مكان لم تكن رأسه لتستدير صوبها، لكن حاليًا عينه لا ترى سواها محدقة في محياها، جمالًا اكتسبته بنظارات الحب التي ألبسته إياها، أو الأصح بعملية تصحيح النظر التي أجرتها لعين القلب قبل عين بصره. كيف ومتى إنقلب حاله؟ لا يدري، ولا يهتم للبحث عن الجواب، يكفيه النتيجة التي يحياها.

سحر.. وما ألذ السحر إن كان على هذا المنوال!، حين يحول كل دميم في الأنظار إلى أروع الجنان. نعت نفسه بالغباء، ترك كل أنواع الجمال وتشبث بأردء أنواعه: حسن الوجه والجسد، وهي.. «سلمته» كانت واقفة بكل أنواع الجمال عدا ما كان يبحث عنه؛ فغفل عنها في لحظة عنجهية وأبحاث سرمدية.

جمال القلب، الروح، أم، عائلة، صديقة، وحبيبة.. هي في حد ذاتها عالم مكتمل الأركان، أعماه عنها بضعة كيلوجرامات من الشحوم الزائدة، وزهد في مستحضرات تجميلية مصنعة، ورغبة في الاستتار خلف حشمة في الملبس؛ حشمة أرغم أخرى على اكتسابها غصبًا، وحين أتت من تعشقها بفطرة أشاح عنها.

يظن في نفسه تعدد الأوجه والنفاق، يعلن لسانه عن رغبة وأفعاله تنكرها في أول فرصة، تبريره لنفسه أن رغبته تمثلت في حشمة مع سواه وقلتها معه.. لكن طعنته نفسه اللوامة مقاومة بعضًا من منومه الذي أطالت تعاطيه.. ومتى كان لها خاصة ولم تتخل عن الحشمة له؟!؛ نبذه من أول يوم.. بل أول ليلة، طعنها بخناجر الرفض وأطلق عليها سهام الهزء. حاولت معه فأزاد جفاه.

قرأت صراعاته واعترافاته في نظرات عينيه، لم يكن يحتاج لتشكيلها في أحرف حتى تصلها. لم تعرف لم داهمتها ذكرى أمر ناهد بارتداء النقاب في أول لقاء لهما.. ووصلتها الحكمة الآن؛ هي الأكثر علمًا بأخيها، كانت نفسه لتعيفها أسرع بل وأشد، لقد خلقت لهما فرصة أكبر معًا.. تماكرت على صفته الأكثر تأثيرًا في عمى بصره، عطلتها وحركت أخرى؛ الرغبة في الجذب والشد حينًا، إضافة طعم خاص للحياة، وهذا وجده معها في

مشادات تكررت بينهما، وكبرياء رفضته به، لم يكن بصره وبصيرته ليروها إذا لم ينقشع ضباب هيامه بجمال الوجه البراق.

أدرك أن ما فشل في رسمه عبر لسانه وصلها بعيونه فأكمل كأنه لم يتوقف عن الحديث: قدامي فترة عقبال ما أرجع أقف على رجلي من جديد، أتمنى إن إيدك تكون فـ إيدي خلالها.

أثناء حديثه كانت يده تتسلل إلى يدها وتحيطها في قبضة قوية، متمسكًا بها جواره ومعه، أنزلت بصرها تطالع كفه برهة قبل أن تسحب خاصتها من أسفله.

أخرج تنهيدة يائسة مع انسحاب يدها فقدانًا للأمل، لكنها جعلت كفها يحتضن كفه، رفع عيونه المتسعة على أشدها إليها منتبهًا لبسمتها الحنون التي عشق: دايمًا هتلاقيني معاك وواقفة جنبك وفـ ضهرك.

***

وقف مكتف اليديين تابعها بفم مائل، تتحرك في المطبخ الصغير بخفة يمامة في البراري الواسعة، عينيه تطيل النظر إلى قدميها الحافيتين، تقف على أطرافهم تارة تسحب ما في أعلى رف بالخزانة برشاقة مذهلة.

يحمد الرب؛ لإن عنادها لم يظهر فيم وضوع تركها فكرة العودة للعمل بالطيران، لقد درس وفكر في الموضوع فترة طويلة ينتقي أفضل المداخل، واثق من إنصياعها الذي لن يتكرر؛ فقد أتى الموضوع على هواها.

الطيران لم يكن في حد ذاته طموح، بل كان وسيلة تخرجها من أزمتها المالية مستغلة مهاراتها وما تملكه بجدارة، تفر من وحدتها الطويلة في أركان شقة مكسوة بالذكريات.. آخرها سيء.

انحنى رأسها يسارًا متنهدة بخفة حاولت رسم الملل فيها: مش كفايه بحلقة فيا لحد كدا ولا إيه؟

لمعت عيونه مجيبًا: وأنتِ مش هتلبسي حاجه فـ رجلك لما تقفي فـ المطبخ ولا إيه؟

-كيفي كدا، مزاجي كدا.. كنت قولتلك بطل تغطيني لما أرفس الغطا بالليل؟

وقف خلفها تمامًا، أحاط خصرها بذراعيه يغرق أنفه في الخصلات المتساقطة من ذيل حصانها المتهدل خلفها: لإنه من عاشر المستحيلات.

بغرور ردت: ما أنا عارفة، عشان كدا ماطلبتش.

تركها تنسل من بين يديه تضع الطعام فوق الطاولة الصغيرة بالمطبخ، «شديدة الحميمية، تقلص المسافات بينهما» قالتها بعيونها ذات مرة حين استفسر عن كرهها المراوغ لطاولة السفرة والتي أصرت على عدم شرائها.

أقسم داخله، مرارًا وتكرارًا، سيعوضها عن كل البلاد التي تخلت عن رؤيتها من أجل البقاء في كنفه وأمام ناظريه قدر المستطاع.

رفعت إليه حاجبين مستغربين انتظاره لدعوة لن تخرج من فمها، فالمكان له كما لها، جلس مقابلًا للضلع الأيمن من الطاولة، يكون قريبًا منها رغم الزاوية القائمة للطاولة التي ترسم خطًا واهيًا بينهما.

-وصلت لحاجه؟

فهم قصدها فأجاب بعدما لك اللقمة التي بين أسنانه: لسه، الأرض كأنها انشقت وبلعتهم.

أومأت بيقين: مصيرهم يظهروا، ولو ما ظهروش عشان ياخدوا عقابهم من القانون فـ ربنا قادر ياخده فـ أي مكان، وبعد موتهم.

حدق بها، إيمانها عجيب وطالما استغربه، كلماتها دائمًا يقينية فيما يتعلق بالعدالة والله، تقيم الفروض الأساسية، لا تكمل كل ركن مفروض عليها رغم الإيمان الظاهر في قوة كلماتها والتي أشد الناس إدعاء أو محاولة قرب من الله قد لا يقدر عليه، تعلمه درسًا وراء الآخر دون أن تشعر، أرته صورة غريبة عنه للإيمان، لم يحبها بالكامل لكن علمته تقبلها مهما كان اعتراضه عليها، يُسره والتي في حقيقة هي «عسره» كذلك.

***

بعد سنوات...

جلست على طرف الأريكة مميلة جسدها للأمام تنقر بأصابعها سريعًا فوق لوحة المفاتيح الخاصة بالكمبيوتر المحمول، عيونها معلقة بالشاشة من خلف عويناتها القططية في هيكل بروازها، ترفع عينها بين فنية وأخرى لتلتقط ما توصل إليه صغارها من قرار لإنهاء الجدال، ابتسمت بحنان حين لمحت ابنها الأصغر «ريان» يربت فوق كتف أخته الكبرى .. بالسن لكنها بنصف عمره في التصرفات!

ما كادت تعود إلى متابعة عملها حتى لمحت استدارة جنة في اتجاه تضمن به عدم انتباه أخيها لها لترسم ابتسامة ظافرة وتحدق في قالب الشيكولاتة الذي صار من نصيبها بعد ترجيات الطرف الآخر، شعرت سلمى بالحنق واندفعت الدماء في رأسها، تبًا لكِ حياه!، هذا خطأها لإنها سمحت للصغيرة بالإحتكاك الكبير بمن في مقام خالتها، ألن تكبر حياه في تصرفاتها أبدًا؟! لقد صارت تلقمها للصغار دون حياء.

نادت ريان بابتسامة محبة: حبيبي.. ممكن تشوف أخوك صحي ولا لسه؟

أومأ طفلها المحب كما والده بطاعة في مواجهة أية مسئولية توجه إليه، فيلبي النداء بنفس راضية تتحمل أكبر من طاقتها، تابعت مغادرته لمنطقة المعيشة المفتوحة باتساع منضم إليه ركن خاص باللعب حتى يظلا أمام ناظريها، التفتت إلى الكبرى بغيظ؛ فسنوات عمرها المتعدية للثمانية بأشهر قلائل لا تتناسب مع تصرفاتها، دعت الله أن يعنيها على ما بُليت به من صديقة ثم تمثلت في ابنة.

نادتها لتقترب، جنة أتت بطاعة وبراءة ملائكية تخرج من عيونها الملتمعة بسعادة من انتصار صغير هو أكبر ما تصل إليه في عمرها الذي لم يتم عقده الأول بعد.

-بتضحكِ على أخوكِ يا جنة؟!

كان اتهامًا مباغتًا يحمل عتابًا جابهته الصغيرة في البداية بمنطق شديد القوة من منظورها: دا حقي يا ماما، هو الأسبوع اللي فات أكل نصيبي من الكيك اللي عملته عمتو آية.. ومش معنى إني سكت لما عاتبتيه بس إني هأسيب حقي بسهولة.

رفعت حاجبيها مبهوتة، أما زالت تذكر ما حدث من أسبوع في زيارة العمة لهم؟، من الغبي الذي قال يومًا أن ذاكرة الأطفال للإساءة قصيرة المدى؟.. حسنًا، هذا إن لم يقصد بالمدى أسبوعًا!

توعدت لحياه، فالسكوت عن أفعالها هي شيء وتربية صغيرتها عليها شيء آخر تمامًا، صرفت الأخرى بعد تأنيب هادئ لتصرفات لا تليق، مستغلة حب أخيها وتعلقه بها؛ كي تنفذ ما ترغبه، غادرتها متجهة إلى ألعابها في الركن المخصص، بموافقة لم تنطقها ونظرة تؤكد عدم إقتناعها مما زاد اشتعال سلمى ناحية صديقتها الطفلة.

***

رمقتها بطرف عينيها شذرًا ثم عادت إلى الصغير المتربع فوق المقعد الخاص بطاولة السفرة فاتحًا فمه على استعداد لتناول الملعقة التالية من غدائه المفضل، تابعته بابتسامة دافئة فيما يلك ما بفمه متشاغلًا بلعبته الجديدة التي أحضرتها من أجله.

هبت حياه فجأة من أمام الحاسوب المحمول صائحة بسعادة، لم تنتظر سؤال الآخرى المفزوع عما أصابها مسرعة بالتفسير: تعالي بصي يا نوجه.. المكان دا تحفة.

تركت ابن أخيها يتابع تناول غدائه متجهة إلى والدته المجنونة في حنق تحارب إخفاءه، جلست جوارها وطالعت الصور التي تحدثت عنها، فغرت فاهها رغمًا عنها من جمال ما رأت: يا الله!، إيه الجمال دا؟

أيدتها بوله: تحفة، إيه رأيك نروح؟

عقدت حاجبيها مكررة خلفها، أصرت حياه: المكان جميل زي ما أنتِ شايفه، وفيه شركة سياحية بتشتغل فيها واحدة أعرفها من أيام الجامعة هتقدر تجيبلنا تخفيض محترم.. والواحد حقيقي محتاج يغير جو.

-طب وأحمد؟

أجابتها منشغلة بتقليب الصور بعدما ألقت نظرة إلى ابنها، تراقب تلاعب حاجبيه وملامح

البراءة تنضح من وجهه؛ كي يثير غيظها: حمزه ياخد باله منه يومين، مش هيحصله حاجه لو عملها.

دافعت عن أخيها بحمية: ومن إمتى حمزه بيتأخر يعني؟

كبحت نفخة اعتمرت بصدرها، فمن السيء أن تكون أخت الزوج صديقة، فكلما صدر منها كلمة تجاه الأخ في لحظة –وإن لم تقصدها- كانت الأخرى لها بالمرصد، منسلاة من دور الصديقة لتتقمص دور الحماة.

عادت لمبغاها الأساسي: ناخد سلمى وآية معانا، وتبقى رحلة بنات بس.. واااااو.

هللت بحماس زائد لفكرتها المقترحة، نهضت نجلاء من جوارها عائدة إلى ابن أخيها تلاعبه وتنشغل معه عن والدته التي تكاد تذهب بعقلها، أمسكت بذقن أحمد تدغدغه بحنان: إزاي يجيلك قلب تسيبي السكر دا عشان تسافري يومين؟

-أديكِ قولتِ.. يومين.

رفضت: ما يجليش قلب بردو.

أجابتها شاردة فيما تفعله عبر الإنترنت: عشان مش عندك ولاد، غير كدا كنت هتبقي مبسوطة تسيبيهم فترة، خصوصًا لما يبقوا هما بس شغلك الشاغل طول النهار.

ابتلعت كلماتها بغصة، فحياه قالتها دون قصد لجرح مشاعرها، بالإضافة إلى أنها الحقيقة البحتة، هي مجرد امرأة عاجزة عن الإنجاب ومنح زوجها لقب أب، رغم محاولاتها التي لم تنقطع خلال الأعوام السابقة بحثًا عن حل لمعضلتها لكن جميعها بائت بالفشل حتى استسلمت أخيرًا متقبلة الواقع.. لكن بإيجابية، تواظب على الأدوية دون متابعة حثيثة للنتائج، لعل الله يحدث يومًا بعد ذلك إمرًا.

أفاقت على تصفيق الأخرى بسعادة شيطانية: خلاص حجزت أربع تذاكر وهي أكدتلي الحجز.. أسبوعين فـ جزيرة من جزر «ذِيبة المَهل».

عنفتها بغضب: حجزتِ بناء على إيه يا حياه؟.. أنا ورفضت.. والإتنين التانين أنتِ مش عارفه رأيهم، يبقى تتسرعي ليه؟

اقتربت من مكان جلوسها في حنق ثائر من التعنيف الموجه لها كطفلة أساءت التصرف، لمحأحمد دنوها منهم فتهللت أساريرُه وهبط من مجلسهُعلى أملُمشاركتها له في اللعب؛ يحب نجلاء ولعبها معه لكنها تفعلها كأم، بينما مع أمه لا يشعر بأن هناك فارق عمري مل وظ بينهما، فهي تشأرُكه اللعب كما لو كانت صديقته بالمدرسة.

قبضت على كتفيه وظهره يلتصق بها، وقوة قبضتها تشتد مع كل كلمة تخرج من فمها موجهة لنجلاء: ما تعاملنيش بأسلوب ال موات دا يا نجلاء، عشان أنتِ مش حماتي ولا أنا مرات ابنك.. مش عايزه تروحي ومصممة خلاص براحتك، بس مافيش داعي لكلامك دا

نظرت إليها بغيظ: وأنتِ استأذنتي جوزك عشان تسافري قبل ما تحجزي وتحددي المعاد كمان؟

أجابتها بجمود: والله دا شيء بيني وبين جوزي، ما يخصش غيرنا.

أغلق باب الشقة خلفه بعدما دلف موجهًا ابتسامته للجميع في جهل: هو إيه دا اللي بيني وبينك يا حياه؟

راقبت زوجته إرتفاع حاجبيه استفسارًا، نهضت نجلاء من مقعدها وسحبت حقيبتها متجهة إلى الباب: هأسيبها تحكيلك.. عن إذنكم

اعترض: هو إن جاءت الشياطين ذهبت الملائكة ولا إيه؟

قبلت خده الناعم نتيجة حلاقتها صباحًا قبل الذهاب إلى العمل: وهو في ملائكة أكتر منك يا حمزتي؟

حررت حياه ابنها بعدما ملت تململه رغبة في الهروع ناحية والده استقبالًا له ولمفاجأة متغيرة كل يوم. تبادل الشقيقان السلامات ثم انصرفت متعجلة العودة إلى منزلها مبكرًا، تعويضًا عن انشغالها الأشهر الماضية في تجيهزات توسيع الدار، وقد تحملها فادي بنزقها ومشاكلها التي لا يفهم أغلبها لكن تصبها في أذانه صبًا.

تأبط جسد أحمد صاحب الأعوام الثمانية بسهولة مداعبًا إياه مصغيًا لضحكاته الطفولية الصاخبة في استمتاع بترحيب والده بعد نهار طويل من الفراق، سأل زوجته فيما يتلهى باللعب مع الصغير: ما قولتليش إيه اللي بيني وبينك؟

عقدت ذراعيها كما جبينها: على السفر؛ أصلي حجزت خلاص.

انزل ابنه مذهولًا مما وصل مسامعه، جلس على أقرب أريكة مشيرًا لأحمد بالذهاب إلى ألعابه حتى يتفرغ له، جذبها من ذراعها وأجلسها ملاصقة له حتى لا يضطر إلى رفع صوته أمام الطفل: مش المفروض تبلغيني بالمعاد قبل ما تخليه أمر واقع؟

تأففت: مش إحنا اتكلمنا فـ الموضوع دا وأنت وافقت؟

ضاقت عيونه صوبها بعتاب: وافقت من حيث المبدأ، مش من حيث التوقيت.

أردف بعدما رأى الحيرة في عيونها، بينما يرجع خصلات شعرها المشذبة فقط بسبب زيارة شقيقته لهما وإلا لكانت كل شعرة تأخذ لها اتجاهًا مخالفًا في الهواء المحيط: أنتِ متضايقه وحابه تغيري جو.. وأنا شغلي دلوقتي مش سامح إني أسافر أي حته، يبقى حجزتي على أي أساس؟

كانت كلماته موجهة إلى طفلة صغيرة، يزداد يقينه كل يوم أنها لن تكبر أبدًا، وللصراحة هو يحبها كما هي، فإن كبرت وتصرفت برزانة زائدة قد تصيبه بخيبة أمل.

-بس أنا ما حجزتلكش معايا، هي هتبقى رحلة بنات بس؛ أنا وسلمى ونجلاء وآية.

رفع حاجبيه بدهشة: أنتِ لحقتِ تتفقي معاهم وتجهزي كل دا؟

رفعت ذقنها بترفع: لسه ما قولتلهومش.

كز على أسنانه، فطفوليتها تثير غيظه أحيانًا رغم كل شيء: لما قولتلك إني موافق على تغيير الجو وكسر الروتين كان قصدي أنا وأنتِ نسافر، وممكن نسيب أحمد عند ماما يومين، كدا كدا كل شهر بيروح يبات عندها يوم.. فمش هتبقى مشكلة بالنسبة له ولا

بالنسبة لنا.. لكن إنك تفكري وتحجزي على أساس تسافري من غيري؛ فـ دا شيء تاني خالص.

ترقرق الدمع بعيونـها: يعني إيه؟ هترفض؟

هز رأسه: مش هاينفع اسيبك تسافري لوحدك.

-قولتلك مش لوحدي، معايا سلـ...

رفع حاجبيه عاليًا في استياء: ومين قالك إنـها هتوافق؟

تشبثت بما قاله من جهة أخر عكس التي قصدها: يعني لو وافقوا هتسيبني أروح؟

تنهد متعبًا ولكن حبه لها يجعله رافضًا لكسر فرحتها واللمعة المشتعلة في عيونـها، قرر أن لا يكون هو سبب إنطفاءها، وابتهل أن يفعلها عوضًا عنه أزواج صديقاتها.

****

لم تصبر أكثر من ذلك على كبح حنقها، فهي رغم قدراتها الخارقة في إخفاء ما تشعر به خلف قناع الجليد الكاسي لوجهها واعتراف مسعد لها بذلك في إعجاب الكثير من المرات، إلا أن لكل شيء حدود، وأي حد لابد أن يتعد بعد عشرين ساعة برفقة زوجة شقيق مسعد الأصغر المتحالفة مع خالته، ومع تذكرها للخالة زادت وتيرة عصبيتها؛ فركلت حذائيها بكعبيهما المرتفع في أركان الغرفة كيفما أتفق، تلك الخالة التي سعت لتزويج ابن أختها لابنتها وترى فيها الحية الرقطاء التي التفت حول ابن الأخت «الساذج» واستطاعت بكيد النساء اصطياده وإيقاعه في شباكها متغلبة على ابنتها «المسكينة».

راقب هو الانفعالات المختلفة التي ظهرت على وجهها بحدة، وحركاتها الغاضبة في نزع ثيابها بينما تتجهز لأخذ حمام دافئ يخلصها مما ألم بها الساعات الماضية معه عبر البالوعة بلا رجعة، حاول كتم سعادته بغيرتها التي لا تظهر إلا لمامًا، وهي الشيء الوحيد الذي كان شاكرًا لخالته من أجله.

في نهاية المطاف أشفق على حالتها؛ فهي توشك على الموت غيظًا بسكتة دماغية من كثرة استرجاع الأحداث منفعلة معها عشرات المرات في الثانية.

احتار في حديث يجذب انتباهها بعيدًا عما يعصف بذهنها: حبيبتي.. إيه رأيك نروح إنهارده لياسين؟.. أكيد جنة وريان ونعمان وحشوكي.

تعمد ذكر أسمائهم واحدًا واحدًا كي يزيد تأثير كلماته؛ عشقها لهم لا حد له. هتفت بعنف

بينما تجذب الملابس كيفما اتفق وتلقيها فوق الفراش بلا إهتمام إن كانت استقرت فوقه أم تجاوزته للناحية الآخرى من الأرضية: مش عايزه أتهبب فـ حتة.

كظم ضحكته وعقد ذراعيه: بس أنا ما قولتلكيش نتهبب يا حياتي، بأقولك نروح.

نظرت إليه بأعين جاحظة محمرة، واعترف لنفسه بأنه زاد جرعة خفة ظله في حين عدم تحملها لحديث آدمي تقليدي. ضربت الأرض بقدميها واتجهت لخارج الغرفة جهة المرحاض حينما اعتقلها بين ذراعيه فلامس ظهرها شبه العاري قميصه المقلم المتعرق إلى حد ما بسبب إرتفاع درجة الحرارة الزائد هذا الصيف، قبلّ قمة رأسها ممتصًا بعض غضبها: معلش يا حبيبتي، أنتِ عارفه خالتي و..

حاولت تحرير نفسها هاتفة باشتعال: ما أعرفهاش ومش عايزه أعرفها.. تسمح تسيبني بقى؟

زاد عقدة ذراعيه وأجابها بعناد: لا مش سايبك، هي زيارة كل فين وفين، تعالي على نفسك شوية.

استطاعت الاستدارة في أسر ذراعيه ورفعت سبابتها في وجهه: أجي على نفسي لما أكون غلطانه وعندهم حق، لكن إني اتهزق ويستلموني بسبب حاجه ماليش يد فيها فـ دي حاجه تانية!

لمس وجنتها بطرف إصبعه: هما الستات الكبار كدا، بيبقى تفكيرهم فـ الخلفة وبس.

دفعت يده وتحررت من أسره نهائيًا، وقفت على بعد متر تقريبًا منه: الموضوع مش خلفة وبس.. كل الليلة اللي اتعملت دي عشان توصلك إنك سيبت بنتها اللي مافيهاش عيب، وروحت اتجوزت المعيوبة اللي زيي.

رفع حاجبيه في عتاب بائن: خالتي أكيد ما تقصدش اللي وصلك دا، وعيب لما تفكري فيها كدا.

أثارها دفاعه المستميت عن خالته فغلى الدم الواصل لدماغها: والله إن كان جنابك عايش دور الأعمى وراضي فـ أنت حر، بس أنا مش عامية وقادرة أشوف اللي بيدور حوليا كويس.

انتفخت أودجه من إهانتها المتقصدة: آية.. خلي بالك لسانك بيقول إيه، أنا عاذر حالتك دلوقتي لكن مش معنى كدا إني هأعدي أي إهانة أو تطاول.

أشاحت بكفها في وجهه مستديرة تبغى التخلص من مواجهة تزيدها حنقًا: كنت رديت على الإهانات اللي عايزني أسد وداني وأجي على نفسي عشانها.

توقفت على عتبة الباب ناظرة إليه بأعين مدمعة: لكن يظهر إن الكلام جه على هواك، ومش معتبرني جزء منك وإهانتي من إهانتك.

هرول خلفها ملتقطًا ذراعها، أدارها صوبه بعنف وقد أحمر وجهه من استفزاز كلماتها: مش عشان متضايقه تفكيرك يتقلب للدرجة دي، وتألفي مواويل على مزاجك، أنتِ عارفه إن مافيش حاجه من اللي قولتيها دي صح.

رفضت مجابهة نظراته متمتمة: أنا خلاص، ما بقتش عارفة حاجه، والحقيقة ما بقتش عايزه.

حذرها: ابقي افتكري كويس إن أنتِ اللي مش عايزه!

تركها وغادر المنزل بأكمله ضاربًا الباب بعنف، ولجت إلى الحمام واستندت إلى بابه تلملم شتات نفسها. بعد دقائق مروا عليها مرور الساعات، وقفت أسفل المياه المنبثقة تغسل عنها قرف ما رأته اليوم الفائت، انكبت دموعها وسط شلال المياه العذبة.

ذنب يحملونها إياه قصرًا، تحمل تبعاته دون أن تشتكي، مسعد نفسه يهاجمها، في البداية علنية والآن بصمته وبعده، انفصالهم الروحي، وسلخ يده من شئونها. «حملها عزيز» كما يقولون فلم يأت إلا بعد أكثر من عامين من الزواج، لم يشأ له الله الإكتمال فأُجهض قبل بث الروح فيه ثم حملت منذ ثلاثة أعوام ولم يتم الحمل أيضًا، مات الجنين دون أن تعرف، وتفاجأت بعدها بأربعة أيام في الفحص الدوري بوفاته.

حملها لا يتحمل أقل ضغط أو مجهود، يجبرها على افتراش السرير طوال فترة نموه، وهي ليست من هذا النوع، أجبرت نفسها كثيرًا فلم تستطع، وبالنهاية نزل الحمل الأخير من مشادة بينها وبين مسعد، كانت اعتيادية بالنسبة لهم لكنها ليست كذلك للجنين، فمات في رحمها أيامًا.

اللوم، كل اللوم، من نصيبها، لا تريد أن يحمل مسعد كذلك أي عتاب، لِمَ يجب أن يكون هناك جان وضحية؟.. لا يدعون الأمور تسير ببساطة، هذا نصيبه وقدرهما فقط بلا تبريرات تؤذي الروح وتجرحها، وفي الأخير سُنت أعوادها لتتحول أشواكًا تجرح أقرب الناس إليها، ترد الخدوش بمثلها، تتقصد الجرح ولا تبالي بالنتيجة.

***

انقذها بكاء النعمان الصغير من محاضرة طويلة شارفت على الساعتين، تدور وتدور خلالها سلمى حول قواعد التربية السليمة والأخلاق الواجب زرعها في صغارهم كي يكونوا حجرًا أصيلًا ثابتًا في المجتمع، يساعدون في بنائه لا هدمه.

بالله عليكِ يا سلمى، أي أحجار تلك بأحجامهم الأقرب للحصوات!.. سارت متجهة إلى غرفة جنتها المفضلة في أبناء سلمى، وإن كانت تعشقهم كلهم، لكن تلك الصغيرة هي الفتاة التي تمنت إنجابها ولم تفعل. طرقت الباب ثم دلفت سريعًا تغلقه متأكدة من انشغال صديقتها بالحجرة المجاورة.

استدارت حياه لكنها قفزت مع شهقة مفزوعة حالما رأت الطفلة الملتصقة بظهرها بغتة، رفعت جنة كفيها تشير لها بالصمت: بس بس هتفضحينا!

بسطت كفها فوق صدرها، تلتقط أنفاسها الضائعة: اتفزعت!

سريعًا نست ما جرى وقطبت حاجبيها مشيرة إلى رأس الآخرى: إيه اللي عاملاه فـ شعرك دا؟

لوت الصغيرة شفتيها بحنق: ماما عملتهولي كحكة عشان ما يتنعكش وأنا بألعب.

حركت شفتيها الممطوطتين يمينًا ويسارًا: ما يتنعكش؟.. الله يرحم أيام ما كان شعرها بيبقى شبه أسلاك الكهربا أول ما تصحى من النوم.

استرسلت متجهة إلى الأريكة المجاورة للنافذة وفي إثرها جنة: حتى ولو، حرام عليها اللي عاملاه فيكِ.. دا شعرك مشدود ولا النبلة قبل ما تضرب الزلطة فـ الحيطة.

ازداد تقطيبها: دا أنا شايفه العروق فـ جبينك واحد واحد.. تعالي أما نفك شعرك دا، منها لله.. وتقولي الحجر الأساسي فـ المجتمع، دا لو الحجر اتشد الشدة دي كان زمانه طرشق.

حلت شعر الصغيرة وظلت تمشطه بالفراشة فترة؛ كي تعيد النشاط للدورة الدموية برأسها، أثناء ذلك حدثتها جنة بصوت يحمل الكثير من أسى الأطفال: شم النسيم بعد بكره.

همهمت حياه في انتظار البقية: إحنا أجازة إنهارده، والمدرسة أدتنا بكره أجازة.

شدت خصلتها في حنق: وبعدين إخلصي..

تأوهت الصغيرة دون ألم حقيقي، بدأت تتلاعب بأصابعها: ماما مش فاضية، وأنا عايزه أزين الأوضة بتاعتي.

نظرت حولها، غرفة بألوان مبهجة، صممتها سلمى وأختارت ألوانها بعملية؛ حتى تناسب طفلة في عقدها الأولى وتتلائم مع متطلبات امرأة عمرها يتجاوز السبعين!، ستائر سكرية الألوان، وسرير بظهر خشبي منقوش بجمال، سجادة عنبرية ودببة في كل الأركان، غطاء الفراش هو ما يدل على طفولية صاحبة الغرفة برسمته من عالم ديزني وشخصيات الخيال.

-ولو إني مش شايفه الأوضة محتاجه حاجه.. بس ماشي، نزينها وماله.

هبت من مكانها وظلت تتقافز أمام أعين حياه المتسعة وحاجبيها المرتفعين من وقع الصدمة، وحالما هدأت قفزاتها تيقنت من صدق قلق سلمى، فالمسكينة بين ثلاث أقزام وعملاق، عدا العمل تكاد تفقد وعيها. عاد تركيزها لصاحبة الشعر المبعثر، مذكرًا إياها بشعرها وقت الصحيان لتحضير فطور حمزه شديد التبكير في نشاطه: وناوية تعملي إيه بقى؟

سحبت الجهاز اللوحي من فوق الطاولة، استعارة بريئة من والدتها المنشغلة في تبديل حفاضات رضيعها صاحب الثماني أشهر، جلست بجوار حياه تريها ما ترغب في فعلها مشروحًا بالصور تارة وأُخر مشروحين بفيديوهات قصيرة.

استغرقهما الأمر ساعة في انشغال، انسجمت حياه فيما تفعله كما ظهر على جنة، طالعتها من زاوية عينها العليا، جنة قريبة من روحها، تذكرها بطفولتها وطفولة سلمى، رغم تنكر الأخيرة لتلك الحقيقة.

انتفضت على دلوف أحمد إليهما، متعرق ومغمور بالأتربة، جرح حديث في ركبتيه البارزتين من أسفل سرواله الرياضي القصير، وآخرى فوق جبهته، تأففت من مظهره: أنت إيه اللي جابك هنا؟

رمى حقيبته أرضًا بهمجية وكتف ذراعيه أمام صدره: مافيش حد فـ البيت ومش معايا المفتاح.

اعتدلت في جلستها: وأبوك فين؟

-وصلني تحت البيت وراح لتيته.

كزت على أسنانها، لقد سهت من جديد عن زيارة حمزه لسمية النصف أسبوعية، عدا الآخرى في نهاية الأسبوع والتي ترافقه خلالها، دون ذكر زيارات أخرى تتكرر على مدار الأسبوع، لقد ملت الوضع المحير لها والمعذب لزوجها حتى توسلت حماتها المصون كي تحيا معهما في المنزل لكنها أبت أن تترك منزل شاركت في تأسيسه وعاونها والديها في بناءه متناسية من شاركته في الحياة بين أركانه سنوات طويلة من الاداع.

نهضت واقفة تطالع منظر ابنها الشبيه بالمتشردين: ودا منظر طفل؟.. إيه اللي عامله فـ نفسك دا.. كلك عرق وتراب!

رفع حاجبيه من تعليقها الغريب: معلش، أصل أنا كنت بأعمل ضوافري عند الحلاق مش فـ التدريب!

نفخت بغيظ: دلوقتي بقى لسانك مترين قدام، بس مع عمتك حمل وديع، نعجة صماء، كلب بلدي!.. -آخر كلمتين خرجا في هيئة بصقة عنيفة- وقال الواد مش بيعرف ياكل لوحده، وقاعد مؤدب، اللي يشوفك إمبارح قدام عمتك يفتكرك عيل لسه بيسنن!!

عاد إلى رفع حاجبيه من جديد، وهو المعتاد خلال أغلب أحاديثه مع أمه حتى فكر ذات مرة أن يلصقهما بأعلى جبهته توفيرًا للمجهود: وأزعلها يعني؟.. هي لسه شايفه إن عندي سنتين، خلاص براحتها.. مادام بتطلعني رحلات مع الدار بتاعتها وبتفضل مبسوطة.

همهمت في محاولة في عدم إيصال الكلمات إلى مسامعه: مصلحجي رخيص.

نظرة عينه الجانبية أبلغتها بفشل محاولة إخفاء ما قالته بجدارة، وأنه لم يغب عن أذانه المتوسعة لأي لفظ يتجاوز حدود اللياقة، تنهدت متذكرة تأنيب حمزه لأي كلمة خاطئة تخرج من فم الصغير كأنها المسئولة والمصدر الوحيد لتلك الألفاظ، يصيب كثيرًا في ظنه لكن الظن في حد ذاته إجحاف بحقها.

تجلس جوار ابنها على أريكة غرفة المعيشة مطرقين الرؤوس مدلدلين الرقاب، منصتين سوية لتربيته الصارمة للسان كليهما، ويا ويله يا سواد ليله من يخالف تلك المحاضرة اليومين التاليين لها، يصبح ذلة للآخر وعبرة لمن لا يعتبر.. تظل تنظر شذرًا إلى أحمد وقتما يخطئ فيتربص لها بالمطبخ خلال الساعة السابقة لعودة حمزه؛ حيث تتكاثر عليها الأعمال المؤجلة من بداية اليوم، وتعاكسها الأشياء في مساعيها، رغمًا عنها ينفك لجام لسانها، مطلقًا ما نبهت عليه سابقًا من زوجها الهائم بدور الأبوة معها. يظل يدور أحمد حولها بإزعاج حتى تأتي بكلمات جديدة فيحفظها عن ظهر قلب، بينما الكلمات الحسنة كأنها سراب يمر عبر ثقبي أذنيه.

كثيرًا ما تنظر إليه تتأكد من أنه ابنها أم تم استبداله في لحظة ما من حياته، قبل عامين جاءته الحصبة و حجز في المشفى يومين.. ترى هل تم التبديل وقتها؟.. لكنه بنفس الشكل وقد خرج منها بنفس البقع الحمراء في نفس الأماكن!

قالت في عقلها: شتان بين معاملتك لي ومعاملتك لعمتك.. أخ منك يا ابن حمزه!

وضعت كفها أخيرًا على ظهره تدفعه رويدًا: قدامي خلينا نروح بيتنا تستحمى وأشوفلك جروحك دي.. إيه اللي جرح أورتك؟ أنت بتلعب برجلك ولا براسك؟

-وقعت يا ماما، وقعت!!.. طفل ووقع، بتحصل!

ضربت قمة رأسه بخفة لم تهز ثباتها حتى: قولت لحمزه مية مرة، تدريب كرة قدم إيه اللي يروحه دا!.. واسمه رايح التدريب وجاي م التدريب!.. الله يرحم، كنت بألعب الكورة مع أنس وأغلبه من أول ربع ساعة.

اعترض مغتاظًا من القصة التي لا تنفك عن تكرارها، وسأم عن تصحيحها لكن دون التوقف عن ذلك: خالو أنس كان عنده 3 سنين وأنتِ كان عندك أربعتاشر سنة، طبيعي تغلبيه، لو ما عملتيهاش يبقى وقتها اللي فيه حاجه غلط.

تزمرت من تصغيره للعبها وقوته: أنت إيش فهمك بس؟.. كنت موجود ساعتها؟.. خالك قالك كدا بس عشان هيبته ما تروحش قدامك.

استرسلت مدافعة عن قصتها الملفقة: وبعدين عشان اثبتلك إن كلام خالك مش صح.. أنا ما كانش عمري أربعتاشر سنة، يادوب كنت تامة التلاتاشر قبلها بأسبوعين.

ظلت جنة واقفة على عتبة غرفتها تستمع إلى حديثهما، تكاد تسقط أرضًا من شدة الضحك، وصلتها همهمات حياه قرب الباب ملقية التحية على سلمى قبل الذهاب، بمجرد سماع الأجراس المعلقة أعلى باب الشقة من الداخل مجلجلة في حال انفتح الباب عادت أدراجها تكمل ما كانت تفعله، وأمنية داخلها لا تنفك تطفو في الحياة مع خالتها حياه وابنها أحمد، فمرحهما يبهج قلبها وبشدة.

***

تراجعت في جلستها تستند على الوسائد فيما تطالع كتابًا، تنتظر دخول ياسين إلى الغرفة بعد اطمئنانه اليومي على الأطفال، لم تمض لحظات حتى فتح الباب وولج إليها باسمًا.

-حلوة الأرانب اللي علقتها جنة فـ أوضتها.

ابتسمت لذكر ما فعلته ابنتها مع صديقتها خلال العصر: مبسوطة بيهم أوي، حياه قالبه على صاحبتها أكتر من خالتها.

ارتج الفراش قليلًا من انضمامه لها أسفل الأغطية: المهم تكون مبسوطة.. لمعة الحماس فـ عينيها وهي بتحكي اللي عملته وإزاي.. كفايه عليا.

رفعت حاجبيها: هي لسه ما نامتش؟

دافع عن ابنته مهدئًا زوجتها: كانت بدأت تروح فـ النوم لما دخلت، كلامها كان أقرب لتخاريف أكتر منه كلام واعي.. براحة عليها يا سلمى، بكره أجازة.

تركت الكتاب عاقدة ذراعيها: وبعد بكره لما تيجي تنام؟.. ادور فـ دوامة نامي وكفايه سهر؟؟..

وبعدين أنت عارف إنها للأسف زيي وعندها الشقيقة، يعني لو ما نامتش كويس بيزيد التعب عليها خصوصًا لو يوم دراسي طويل ومليان.

ربت على كفها بحنان: أهدي يا سلومه، لأحسن أنتِ اللي تجيلك النوبة دلوقتي.

تراخت قليلًا بينما يقترب منها ويضمها إلى صدره، حب تفتقده طوال النهار ويحاول تعويضه حال عودته من الشركة، تخلل شعرها بأصابعه في تدليك ناعم يبثها شوقه وحبه.

همست بين أحضانه: فاكر فـ بداية جوازنا لما وعدتني بطلب إنك تنفذهولي؟

قطب محاولًا التذكر وبعد دقيقتين هتف ضاحكًا: وقت ما كنت خارج داخل من الحمام؟.. أه افتكرت.

انسحبت جزئيًا من حضنه؛ كي تطالع ملامحه: فيه رحلة حياه هتطلعها مع آية ونجلاء وأنا حابه أروحها.

رفع حاجبيه راسمًا الجدية على ملامحه: يعني بعد ما تفكريني بوعدي.. بتاخدي رأيي؟

ابتسمت تداعب أرنبة أنفه بأنفها: أنت عارف لو رفضت مش هأروح، وهأحتفظ بوعدي لحاجه تانية.

غمزته ضاحكة، ضحك مقبلًا جانب ثغرها: حبيبتي اللي ما يهونش عليها زعل جوزها.

أضاف جادًا: وريني التفاصيل بتاعت الرحلة عشان اتأكد إنها آمنة وما عنديش مانع.. بس ما تغيبيش عني كتير.

رفرفت رموشها ببراءة: هما أسبوعين بس يا حبيبي.

قبل أن يشهق باعتراض واضح نتيجة ارتفاع حاجبيه هجمت عليه بأنوثتها المشتاقة من ذكر الفراق وحده، تبتلع كل ما ود قوله، ورغب في رفضه، تنهل من حبه الذي منذ اتضح له كبدر في ليلة التمام حتى صمم أن يكون لها كذلك وإن لم يكن أشد وضوحًا، يظهر هذا في أفعاله وأقواله، هاتفها اليوم في منتصف النهار يسأل عنها وحدها دون ذكر ما بينهما من أطفال؛ فإن صار مع أحدهم مكروه لم تكن لتنتظر اتصاله، فقط مكالمة تخبرها أنها تشغل باله رغم الأعمال المتراكمة فوق مكتبه.

أما في ذهنه الحاضر الغائب منجرفًا وراء مشاعرهما العنيفة من طول الإنفصال لنهار كامل؛ فقد ظل يردد سرًا الشكر لناهد كما لم يظن أنه ليفعل قبلًا، بالإضافة لفكرتها حين جعلت سلمى ترتدي النقاب في أول لقاء.. مدركة فراغة عقله بالنظر إلى وجوه النساء دون إتعاب نفسه في رؤية ما وراءها من قلوب.

يعترف بضعفها إلى حد كبير كخطة، لكنها وجهت انتباهه للجدال والتطاحن معها كالديكة حتى في المقابلة التالية، غافلًا عن ظهور وجهها بعد حجبه في المرة السابقة، بالكاد وعى ذلك في النهاية، وكم يندم على أيام تسربت من بين أصابعه كان من الممكن قضاءها مع معرفة طفولته وزوجته، أم أولاده حاليًا.. وهذا الندم هو الدافع الأكبر للاستمتاع بما بين أيديهم الآن بكل ذرة من روحه الولهانة.

***

تأففت بملل، متجهة إلى مكتبها الخاص بالملهى، تنشد العزلة والبعد عن الصاب المقزز بالخارج، لقد تلاعبت كي تحصل على المكان لكن بعد كل تلك السنوات سأمته وكرهت حياتها، لا جديد، شغلها الشاغل هو الملهى وحده.

وفاة خالها منذ شهر بداء مزمن لم تشعرها بالراحة أو الشماتة، فقط خبر عن شخص مرض وعاش، قلبها القاسي لم يتزحزح أو ينتفض.

فتحت باب بعدما دار المفتاح في قفله مؤكدًا انفتاحه المسبق، قطبت متوجسة، فمن فتحه وهل هو بالداخل أم فعل ما شاء وهرب؟.. دلفت على مهل متوجسة، لكنها تسمرت حين رأت ظل لا تعرفه يحتل مقعدها خلف المكتب وعلى جانبيه انتصب رجلين مفتولي العضلات كحماية شخصية له.

تأملها بأعين مفترسة، لم يترك جزء بها دون أن يأكله بنظراته، بعد فترة من الصمت خاطبها ناهضًا فيما يدور حولها: لا فعلًا تستاهلي.. كل دا بأفكر إزاي أحمد ورامز بغباء إنهم يسيبولك الجمل بما حمل، بس اللي شايفه وضحلي الأسباب.

قطبت متخلية عن تلجمها: أنت مين؟

رفع أحد حواجبه الكثيفة والشعثاء بشعرات خشنة وطويلة إلى حد مخيف: فكرك إن أحمد بيمشي كدا من غير كبير؟

-وأما أنت الكبير.. اختفيت فين السنين اللي فاتت؟

قهقه بعلو صوته متسليًا برؤية مخالب القطة الواقفة أمامه، ثم انقلبت ملامحه إلى العكس تمامًا مظهرة عنف وقسوة جعلوا مفاصلها تصطك ببعضها: مش أنتِ اللي هتعرفيني شغلي يا نيفين هانم!

كادت تفقد السمع من صراخه القوي بالقرب من أذنيها، أغمضت عينيها بشدة منكمشة على نفسها مقابل اقترابه الهامس بغتة: الجو هدي واستقر.. دلوقتي نرجع نمسك الخيوط فـ إيدينا من جديد..

رفع خصلة من شعرها المجعد من حولها يتشمم أطرافه: ممكن تفضلي محافظة على مكانك بس تحت أمرنا.. أو نخلص منك ونجيب غيرك وبردو هيبقى تحت أمرنا.

وقف مقابلها بعدما أنهى كلامه يراقب الإنفعالات المتوالية فوق ملامحها بابتسامة ظافرة في كل الأحوال، بالنهاية أحمد لم يوقف اللعبة بغيابه، كذلك هي لن تكون سوى باعوضة سهل قتلها بطرقة بين كفين أو صعقة كهربية خفيفة غير مكلفة.

***

ممددًا فوق المقعد الطويل، ذراعيه خلف رأسه يسندها بهما، عيونه تطالع زوجته التي تبني قلعة رملية برفقة أحد التوأمين، مصطفى، من أسفل الطاقية ذات اللسان الممدود في حماية لعيونه من أشعة الشمس وقت العصاري.

رفع رأسه يطمئن على بقاء محمد ضمن نطاق الأمان، ولم يجرفه التهور إلى الأعماق، عاد بنظره إليها معلقًا بثوبها الملون بألوان القزح، يهفهف حولها مع نسمات الهواء، ملامحها زادت جمالًا مع استرخاءها، لا ينكر أنها حقيقة لا تملك ملامح باهرة؛ لتجذب متطلبات رجل مثله في امرأة وزواجه منها كان هروبًا من ذنب رفض الاعتراف به زمنًا، ورغبة منه في الهروب إلى روح أخرى أكثر نقاوة وجمالًا عنه، إلا أن علاقتهما منذ بدأت في التحسن، واستطاع رؤية الحب والإهتمام الحقيقي خلف عنايتها وتصرفاتها معه تحولت في نظره إلى الجمال بعينه، مهما اعتصر ذاكرته لا يصل إلى صورتها السابقة في عيونه، وحدها حاليًا من تحتل كل ذرة منه.

علاقتهما تحسنت بشكل ملحوظ، لا تخطئه الأعين، لكن تمسكها برفض إنجاب المزيد يجعل قلقه قيد الإشتعال، وغضبه يبرق في عيونه فجأة دون سابق إنذار ثم يعاود الإنطفاء، تلاحظه هي ولكنها تدعي الغباء، فمهما بلغ حبها له لن تغامر بنفسية أطفال آخرين وتلقي نفسها من جديد بزوبعة الخوف على نفسيات زائدة عدا خاصتها.

انتبه لجلوسها في المقعد المجاور دون تمدد، تنفضحكفيها من الرمال فيما مصطفى يركض جهة شقيقه: طلبتلك عصير.

نظرت إلى حيث توجهت يده ترفع الكوب أمام ناظريها، تناولته وانشغلت في شربه. لفتاته البسيطة تثبت أقدامه داخل قلبها، لكنته جافة وملامحه جامدة، قليل الكلمات التي تسقي أنوثتها لكنها تكتفي وتحمد الله على قليله؛ فهو لها كثير، ليست ذات رغبات حالمية وردية، ترغب فقط في زوج مرا ع، يجد فيها سلوانه، وراحته، يبادله الحب الحقيقي، لا حب الكلمات المنمقة أو الاسطوانات المشروخة.

-حلوة القرية.

جال بنظره في المحيط: تغيير الجو مفيد بردو، خصوصًا للأولاد.

أدارت وجهها بعيدًا عنه مؤكدة قوله بصوت خافت بالكاد سمعه، لكن تأففاتها وصلته أكثر. يضايقها محاولته تذكيرها الدائم أن ما يفعله ليس لها بل لهم، مصطفى ومحمد، وكأن لا مكانة حقيقية لها في حياته إلا كـ«أم الأولاد» وفقط. لفتة منه كهذه تبدد ما يفعله في تحسين علاقتهما، وتعيد هدم ما قوته له من حب في قلبها.

نهضت واقفة معلنة بصوت جاف: هأتمشى شوية.

ابتعدت دون انتظار رأيه، أو عرضه بالمشاركة، لوح الصغيران لها بحماسة حينما لمحا اقترابها من أطراف المياه مبللة قدميها، يمنيان نفسيهما بمشاركتهم السباحة، لكنها كالعادة رفضت بهزة بسيطة من رأسها، ابتسمت تحاول تخفيف حزنهما.

أكملت سيرها محازاة لطرف الماء، تتلاعب فيه بأصابعها تارة وتشرد في البعيد تارات، لم تنتبه إلى لعبة أحد الأطفال على الشاطئ ذات بروزات حادة؛ فدعست عليها، تأوهت ممسكة بساقها المرتفعة في الهواء. متى أتى؟ ومتى صارت محمولة بين ذراعيه يعيد إجلاسها فوق مقعدها وجبهته مقطبة يتفحص كفة قدمها بتدقيق مبالغ فيه.

-في جرح بسيط.

تناول كوب الماء من فوق الطاولة وغسل قدميها من الرمال كي تتضح أمامه الرؤية أكثر، عاد الدم يسيل من جرحها فهبط برأسه يمتصه فترة حتى يتأكد من توقفه الكامل. عيونها متسعة بدهشة وقلبها زادت وتيرة دقاته.

-محمود.

رفع رأسه تاركًا قدمها، وعيونه تطالع نظراتها الوالهة رغم أفعاله البائسة كل حين والتي تدمر ما يرممانه في حياتهما، صوتها الهامس بعشق وابتسامتها الناعمة: بحبك أوي.

غامت نظراته خلف ستارة من المشاعر، تتبينها وتتمنى لو أنه يفسرها في كلمة واحدة تنطقها شفتاه، مرة واحدة تروي عطش حبها. يده ملست فوق فخذيها دون شعور، يحاول بثها كلمات لا تغادر شفتيه، لمح ترقرق الدمع في مآقيها، أوجعه وجعها.

تلمس جانب وجهها مراقبًا ميل رأسها مع كفه، كقطة تبحث عن لمسات الحنان من صاحبها: وأنتِ أجمل حاجه فـ حياتي.

وكانت جملته كافية ليهلل قلبها ويعزف معزوفته الخاصة من الفرحة، لولا الحرج ووجودها في مكان عام لتقافزات حتى تفقد القدرة على إلتقاط أنفاسها.

****

جلس بجانب الطريق يأكل ما أحضره متوسطًا في ثمنه، ينظر من حوله إلى حركة الحافلات المتجهة إلى كل مكان والآتية منهم، عائلات تسافر وأخرى تعود، هناك من هو وحيد مثله لدواعي العمل أو إجبار الظروف، وهناك شباب استعدادًا لأول رحلة خاصة بهم كذكور بعد البلوغ والتحرر من قيد العائلات؛ فقد خط الشارب فوق شفافهم أثره المزال بشيفرة حلاقة صباحية.

لفت انتباهه رجل بثياب أعياها كثرة الغسيل، وحذاء قديم تم خياطته من قبل، ملوث بأوساخ يشك في محوها يومًا مهما غُسِل، يحمل بيده كيسًا بعلامة أحد المطاعم الفخمة القريبة الخاصة بالأكل السريع، يبدو عليه الزهو والفرحة كطفل نال حلواه المفضلة، جلس على جزء من الرصيف وجده فارغًا ينأ عن الزحام المشتد في المحطة.

لم يكن به ما يسترعي اهتمام أحمد لكنه ظل مراقبًا له كأن هناك ما يجبره على ذلك، ابتسم الرجل استعدادًا لقضم أول قطعة من شطيرته الساخنة، بطعمها الذي لا يذوقه سوى مرات شديدة الندرة، بينما يلك ما في فمه اقتربت قطة تموء من الجوع، قدم لها

قطعة فتناولت محتواها من اللحم وتركت الخبز فعاد يعطيها من اللحم وحده محتفظًا بالخبز لنفسه، هكذا دواليك حتى انتهى مما يأكل ونهض يلتقط اللقمة الفارغة التي لم تأكلها ووضعها بكيس طعامه الفارغ واتجه إلى حاوية القمامة يلقي بها ما في يده.

لاحظ أحمد للمرة الأولى أن الرجل سيركب معه نفس الحافلة في نية للإتجاه إلى نفس البلدة، ليس لأنها تهمه أو يعرفها بل لإنه اعتاد التجوال والسفر إلى مكان مختلف لفترة؛ كي يتأكد من تضليل كل من يفكر في مراقبته، قاضيًا على محاولات الشرطة بتقفي أثره إن حاولت.

جلس في المنتصف يراقب الرجل يحتل مقعدًا ما في الجهة المقابلة وأمامه بعدة مقاعد، مرتكنًا على النافذة بعدما سحب الستائر فوقها متلمسًا الراحة حتى يستغرق للنوم داخلًا في سبات عميق يضيع ملل الطريق الطويل ناحية الجنوب.

دون شعور وجد نفسه يحزو نفس المنوال، مسبلًا أجفانه عاقدًا ذراعيه وخده يستريح على ظهر مقعده.

رمش بعيونه متأوهًا دون أن يدري السبب، العالم من حوله مقلوب رأسًا على عقب، ذراعيه مضمومتان إلى جسده، واحدة بينه وبين النافذة والأخرى محصورة بينه وبين الرجل المجاور له في المقعد، وللحظ كان رجل بلندحًا مما زاد الطينة بلة، يرقد على جانبه محاولًا القيام دون استطاعة. أصوات عويل وصراخ من حوله تختلط بتأوهات متوجعة، بالكاد أدرك أن الحافلة انقلبت على الطريق قبل أن يفقد وعيه من جديد، وقد تسرب خيط عريض من الدم عبر جرح في أعماق رأسه تاركًا علامة دامغة فوق بشرته بحالته الصحية الحرجة.

***

مشيته المتأثرة بمهنته وشخصيته الغامضة، يسير ويد مختبأة داخل جيب بنطاله الشمباني وتي-شيرت صيفي قصير الأكمام ملون بالأخضر التمويهي، عيونه المخفية خلف عدسات نظارة شمسية راقية تراقب الملكة والأميرة في سيرهن أمامه، الأولى تدفع خصلتها المتمردة إلى الخلف كل حين، والثانية يدها اليمنى تتشبث بيسرى أمها وتسير بثقة لا تمت لسنوات عمرها الأربع. غبي، كيف أوشك على حرمان نفسه من هذا

المشهد من أجل مهمة تتلخص في القبض على أحد رجال المخدرات المعروف كأحد أكبر رؤوسها في البلاد؟، ما يراه الآن لا يقدر بثمن.

-يا ريت نروح نتعشى، دا يعني لو شبعت من نظرات البنات ليك طبعًا؟

رفع حاجبيه من خلف نظارته، لاويًا شفاهه بما يشبه ابتسامة جانبية؛ تخبرها عن إدراكه للغيرة المشتعلة في عيونها المخفية خلف نظاراتها الشمسية المماثلة لخاصته لكن بلمستها الأنثوية قبل اشتعالها في الحروف النافحة من ثغرها المذموم.

ارتفع كتفيه بلا مبالاة مادًا ذراعه في دعوة غير منطوقة ليتقدمنه، ضربت الأرض بكعبي حذاءها المرتفع والذي لم يكف عن التفكير في قدرتها على احتمال ارتداءه فترات طويلة كأنها تسير حافية، خبث غمر ابتسامته الغامضة على ذكر قدميها الحافيتين، بالأخص أثناء الطهو وتواجدها في المطبخ.

-سداء، حبيبة بابي.. عايزه تاكلي إيه؟

سألها بعدما تحلقوا حول طاولة لمطعم مفتوح كجزء من المجمع التجاري الضخم، كتم تأوهه المتعب وقد اشتد الوجع حول كاحليه وهو أمر ليس مستبعدًا بعد الدوران في المجمع لساعات دون شراء قطعة واحدة تؤكد عدم ضيعان تعبه سدى.

رمشت أهدابها الطويلة بجمال وبراءة، وابتسامة تلقائية ترتسم على وجهها حين تتحدث مع والدها: ممكن سندوتش.. ونخلي بعدها الآيس كريم عشان مامي ما تزعلش.

قطبت يُسر حاجبيها فيما يدها منشغلة برفع النظارة فوق رأسها مزيحة الخصلات عن محيط وجهها: بس الآيس كريم تقيل عليكِ دلوقتي يا سودي!

طوى نظاراته مستهزء: لو هنرجع نلف تاني فـ يا دوب يخليها تستحمل لحد ما نروح البيت قبل ما تجوع تاني.

ضاقت عيونها في مواجهته: احرمني من استظرافك حاليًا يا دونجوان.

بريق عينيها مع كلمتها الأخيرة أكدا ظنونه؛ لم تنس غيرتها حتى اللحظة، مد يده فوق الطاولة ملتقطًا كفها يرفعه إلى فمه مقبلًا وعيونه في مواجهة عيونها: آسف.

احتارت في تقويل اعتذاره، علام يعتذر؟؟، لكن كرامتها أبت الاستفسار، سحبت كفها منه بعنف قائلة وعيونها كما يدها منشغلة بضبط ملابس سداء: سندوتش تشيز لسودي، وطبق فروت سلاد كبير ليا.. وشوف أنت عايز تاكل إيه.

كظم حنقه ونهض متوجهًا إلى حيث يقدم طلبه ويدفع ثمنه، يتحملها أجل، لكن حين يزداد الأمر يضيق صدره، حينها تتراخى وترخي الحبال مستطيعة جذبه بكل يُسر كاسمها، هذا إن كانت رائقة المزاج، أما لو قلبها يشتعل فتتركه منه لأعرض حائط وله حرية إختيار بأي طريقة يفتح رأسه!

عيونه استدارت جهتهم بعفوية، وتركزت بشكل خاص على أميرته، شعرها فاحم كما أمها بينما عيونها أخذت بريقًا ملونًا، مبرزة صفة متنحية بوالديها عبر رمادية عيونها الضبابية، سروال شديد القصر وتي-شيرت قطني يحمل رسمة لبطلة كرتونية تتابعها مؤخرًا (ميني) حبيبة (ميكي) لكن في قمة أناقتها، كوضع لن تقبل بأقل منه يُسر لسُداها.

أطلق ابتسامة حقيقة لغمزتها وقبلتها المبعوثة في الهواء في سهو من أمها، ذات الوجه المتغضن بحنق يطالبه بمراضاة عاجلة. لقد رأيا سوية أصعب الظروف، يُسر لم تر معه إلا نذير اليسر، تقبلته بمهنته الخطرة ووضعه المادي المتوسط رغم أن الفرصة لم تكن بخيلة في رجال أفضل منه في كل شيء، تفضيلها إياه جعلها ملكة متوجة في حياته. حبٌ إزداد إشتعالًا بولادة سداء، المتلاعبة بأطراف ضفيرتها المجدولة بإهتمام، من كان ليظن أن ابنته المولودة صلعاء إلا من شعرتين تملك الآن شعرًا بهذه الغزارة، كأنه غابات مجدولة من الظلام.

انضم إليهما مقبلًا جبين زوجته: عشر دقايق ويجيبوا الأوردر.

ابتسامتها ورمشة عيونها انبأه برضاها السريع، وكيف لا تفعل وهي من أضفت اللمسة الأنيقة في النهاية على مظهره المتمثلة في حزام وحذاء جلديين بلون الماهوجن؟؟ فكانت سببًا لوسامته المكتملة.

عام أمضاه في الدوران خلفها، يقنعها بالزواج منه، متأكدًا أن رفضها الأولي لا شيء، خصوصًا خطأ توقيته، بعد تبليغها بحكم إلتغاء زواجها من «عاصم نجيب صيدن» الميت، أي أحمق يقدم على تلك الفعلة؟!

زواجهم أتى بعدها متقبلة جميع ظروفه، لكن لم يمض عليه أشهر قلال حتى توفت من اعتبرتها أمًا وحملت همها منذ داست أعتاب المراهقة، صفا ماتت، وتركتها وحيدة دون عائلة بالمعنى الحرفي، الطيف المتبقي في حياتها كطمأنة أنها ليست بمفردها رحل ولن يعود. اكتئاب غريب رصده في حالتها، حزن بمظهر جديد راقبه يرتسم عليها وفي ملامحها الجميلة بصمت، اكتئاب مبهم لم يستطع معه عرض المساعدة أو فرض زيارة عاجلة لطبيب نفسي، مستمرة في حياتها، دون بكاء، تعبير عن وجع، دمعة يتيمة فرت منها وقت سماعها الخبر، شك كثيرًا أنها وهم رسمه خياله.

لحظة واحدة اثبتت أنها تعاني من مشكلة نفسية، موجوعة، مطعونة في روحها التي تنزف بصمت، كانت اللحظة التي أعلن فيها الطبيب أن زواج ثلاث سنوات لم ينتج طفل لا لعلة جسدية بل لإجهاد نفسي شديد وضغوط تعتمر فوق صدر أحدهما؛ ولإنه لا يشكو شيئًا إلاها، كان الإنتباه مصوبًا نحوها. أنتهى الوضع بإجازة مفتوحة من عمله مع سلفة محترمة أخذها لحسن سيرته وانضباطه في العمل.. ثم رحلة بحرية طويلة بص بتها، ليس رغبة في امتداد نسله أو اشتياقًا لكلمة «بابا» التي لم يسمعها قبلًا، بل لإنه وضع يده فوق شيء ملموس يثبت أن ما يراه فيها من حزن ليس وهم من خياله المريض بسلامتها.

رحلة العلاج البحرية أتت ثمارها، عادت بعدها يُسر لأحسن مما عرفها يومًا، باعت شقتي والدها وصفا، تركت الاسكندرية بعزم على عدم العودة إلا بروح لا ترى فيها ألمها الماضي، وتشققات روحها الوحيدة.

بعدها بأيام أخبرته البشر، حامل وابنتها ستسمى «سداء»، لم يخطر بباله أنها ما تزال في الشهر الأول من الحمل فكيف عرفت جنس المولود واختارت الاسم مصدرة إياه بفرمان لن يقبل الجدال، الفكرة الوحيدة التي صدمت جمجمته أين هي علاقتها بضم الحرف الأول من أسماء أبناءهم؟!.. حتى سمع دلعها للصغيرة وقت ميلادها تناديها «سودي»، عادت عقدة الطفولة للظهور، فتنفس الصعداء.

انتبه على معلقة محملة بفواكه ملونة تتوقف أمام فمه في انتظار فتحه، طاوعها مقلبًا الطعام في فمه وقد عادت تأكل وتؤكل ابنتها من سلطة الفواكه، لاحظ الورقة الخاصة بشطيرة ابنته المنتهية، استغرب شروده الطويل، وحمد الله على انشغال يُسر بسداء وإلا..

-ناويه تجيبي لبس سداء ولا هترحمينا ونروح؟

كأنها لم تنتبه لنبرته، أجابت وكفها يلتقط منديلًا مبللًا من حقيبتها؛ كي تمسح فم ابنتها: مش هنمشي من هنا غير لما نجيب لسودي الطقم بتاعها.

فرمان جديد، كثيرًا ما يسعد بحملها المسئولية في بسائط الأمور، مخففًا عنه العبء، والذي يتثاقل بمهمات عمله الغير منتهية، وكأنما المجرمين بئر بلا نهاية، قاع ممتد.

***

حث الطبيب خطاه متمسكًا بسماعته الطبية الملتفة حول عنقه خوفًا عليها من الوقوع، يركض كغيره من الأطباء القادمين من أرجاء المشفى تلبية لاستدعاء الدعم؛ فالحالات كثيرة العدد وأطباء غرفة الطوارئ لا يكفون لتغطية الوضع. دنى الطبيب الشاب من أول مريض صادفه يميل عليه في مساعدة عاجلة، أجرى ما يلزم لضبط حالته الصحية ثم التفت حوله بحثًا عن أحد الممرضين أو الممرضات، اقترب منه أحدهم مسرعًا بعدما اكتشف نظرات النداء.

-هتاخده على سرير فـ العناية.

طالع الممرض المريض المسحي فوق السرير، التوت شفاهه في اعتراض: بس دا فقير؛ أكيد مش هيقدر يدفع.

حدجه الطبيب بقسوة: هتدخله العناية دلوقتي يا عطية، ويكون فـ علمك.. لو فـ نبطشية بالليل عديت ومالاقتوش فيها يومك هيبقى أسود!

كتم الممرض غيظه واكتفى بإيماءة طاعة مجبر عليها، بالنهاية ليس عمله تحديد من يبقى ومن لا يفعل، طالع الممرض وجه الرجل البسيط بملامح المحتقنة من الغيظ، من

يراه الآن لا يصدق أنه نفسه من حمل وجهه الإبتسامة متقاسمًا طعامه وكوب الماء مع الحيوانات في رضا. اكتفى عطية بإشارة للممرض آخر يتولى مسئولية نقله حيث العناية عائدًا إلى عمله في معاونة الأطباء.

فيما اتجه الطبيب راكضًا ناحية السرير المتنقل الخاص بسيارة الإسعاف، وعيونه تتعلق بالمريض الراقد فوقها في محاولة لبدء التشخيص ولو من على بعد توفيرًا للوقت وتسريعًا للمداوة، لكن قبل أن يلمسه حتى صدر نداء باسمه فالتفت بحثًا عن المنادي في اضطراب واضح، إضافة إلى ربتة على كتفه أتته من طبيب جاوره يحثه على اللحاق بالنداء الخاص به.

-روح أنت، هأشوف أنا المريض دا.

حث خطاه مبتعدًا يلبي النداء، بينما التفت الطبيب الآخر جهة المريض يفحصه سائلًا الممرض: شكله مبهدل، مش وش مشاكل.

طالع الممرض وجه أحمد الساقط على أحد جانبيه قبل أن يهمهم موافقًا رأي الطبيب، تلفت الطبيب حوله يتأكد من انشغال بقية الأطباء في أعمالهم ثم استدار نحو عطية بنظرة متأمرة يفهمها الآخر، قائلًا بغموض: جهز أوضة العمليات وأنقله فيها.

ابتسم عطية وعيونه تبرق بتأكيد: جاهزة يا دكتور، حضرتك تجهز بس وكل حاجه تمام.

ظهرت أسنان الطبيب عبر ابتسامته مطالعًا المريض، حالته حرجة بنزيف شديد، وانشغال كل من بالمشفى في الحالات الناتجة عن اصطدام حافلتين ضخمتين أتاح له الفرصة، كما أن الموقع الإلكتروني يشكو من نقص المعروض من الكُلى؛ فرصة أتته على طبق من ذهب.

***

ممدًا فوق الأرض نائمًا على بطنه، عار الجسد من جزءه العلوي، جبينه يتغضن بشدة وفمه يطلق آهات، ذراعيه مثنيين على جانبي وجهه في شكل قوس حصر كالمستخدم في المسائل الرياضية.

-انشف يا أحمد شوية.

-انشف إيه بس؟!، دا أنا عضمي بيتفشفش.

طرقعة ارتفعت من ظهره المصفوع بقوة يديها وحنقها: ما أنا باعملك مساج أهو، مش دا اللي عايزه.

رفرف بساقيه في الجو: خلاص مش عايز، مش عايز..

تجاهلته منشغلة بتطبيق صورة مجمعة لحركات التدليك الصحيحة، التي تستخدم في مساعدة الجسم على الاسترخاء وتفك تقلصاته. يد تحمل الهاتف، والأخرى تحاول التطبيق، الكوع يصطدم بأعلى المؤخرة، والساعد موازيًا لعضلة على جانب العمود الفقري في خط عمودي، تسير هبوطًا، غارزة كوعها في مؤخرة الصبي.

-بتعملي إيه يا حياه؟

قطب مستغربًا وضعها وقد أيقظته تأوهات أحمد المتقطعة على فترات، انتهز الصبي الفرصة في ارتخاء قبضتها عليه منتفضًا: بتقضي عليا.

دلكت مرفقها وشفاهها تتشكل في تأوه غير منطوق وقد اصطدم بالأرضية الصلبة نتيجة نهوضه المفاجئ، صححت: بأعملك مساااج.

-قصدك نشاااز.. بصي يا حياه هي كانت مرة، وندمان عليها.. ويا ريت تشوفيلك كنبة تجربي فيها طرقك الصعبة دي.

أمسك أسفل ظهره متوجعًا من الذكرى: أصل حرام أبلي حد البلاء دا.

-أحمد!

زجرة من حمزه رسمت إلتواءة في شفتيه متجهًا إلى غرفته: وافق على رحلتها يا بابا، يمكن تشوف المساج بيتعمل إزاي وتتراجع عن الإتهام الشنيع للي بتعمله دا.

أختفى أثره فور انغلاق باب غرفته عليه. التفت حمزه إلى زوجته المستندة على مرفقها أرضًا وكأن الجلسة لاقت استحسانها، تخصر وعيونه تضيق نحوها في إشارة إدعت غباء عدم إلتقاطها: إيه؟

-حلوة القاعدة؟

استرخت في جلستها أكثر: أوي.. تحب تجرب؟

-خلاص هتسافروا؟

تنهدت، استندت على كفيها دافعة جسدها إلى الأعلى، نفضت كفيها وتعلقت بذراعه متجهة إلى الأريكة معه حتى جلسا متجاورين، اسندت رأسها فوق كتفه: أيوه، كله تمام.

رمقها بطرف عينه: مصممة؟

ابتعدت تقابل عينيه قائلة بجدية: مش بأعند ولا بألعب عشان تسألني السؤال دا، أنا حقيقي محتاجه الرحلة دي، عايزه أشم هوااا.

فضل الصمت، ناورته ذراعه لتلتف حول خصرها وتضمها بشوق يستشعره من قبل سفرها: حياه.

تلاعبت أصابعها بقماش قميصه القطني المنزلي، مجيبة بغنج: نعمين.

-أحمد..

انتفضت مبتعدة والحنق يعتري ملامحها: اشتكالك مني فـ إيه تاني أبو شعر سايح ونايح دا؟

مد ذراعه على ظهر الأريكة رافعًا حاجبيه متسليًا: مش ملاحظة إن العلاقة بينك وبين أحمد مالهاش دعوة بالعلاقة الطبيعية بين الأم وابنها.

قطبت ورفعت أصابعها تعدد في وجهه: مين كان بيغيرله؟.. يأكله؟.. يحميه؟.. يقعد جنبه فـ مرضه؟..يــــــــــ...

بسط كفه في وجهها: خلاص خلاص، دا تخليص حق بينكوا يعني؟.. حياه؛ أنتِ أم!، يعني العلاقة ما بتبقاش كدا طول الوقت، مش بأقولك تغيري تعاملك معاه في حاجه.. بس بردو مش طول الوقت كدا.

-أرجوك سيبها علاقة مَعيلة وصداقة بينا، دا كدا ولسه ضهري قافش، أومال لو معاملة أمهات؟؟ هأبات فـ العناية سنة؟!!.. موتشكرين.

نهره حمزه: أنت إيه اللي خرجك من أوضتك؟

أسقط وجهه في خزي من نبرة والده المعنفة دون كلمات جدية، اختفت عينه خلف خصلة ناعمة من شعره الشبيه بأبيه: عطشت.

أشار له جهة المطبخ: خد إزازة وعلى أوضتك.. لحد ما أجيلك.

نفذ في صمت. استدارت إليه حياه في غيظ مشيرة إلى الجهة التي اختفى فيها ابنها: شوفت ابنك بيشكر معروفي معاه إزاي؟!.. أدي آخرة إني عبرته ودلكته بدل ما كان ماشي زي الإنسان الآلي أبو شعر سايح ونايح.

حاول كبح جماح ضحكته معلقًا: هو ليه بأحس في إهانة مستخبية ورا اللقب الملتصق بـأحمد؟.. ولأحدي غيرة إكمن شعره أنعم من شعرك؟

نفخت لهيب كلماتها في وجهه مهتاجة: دا كيرلي رباني!.. إيش فهمك أنت!

احتواها بين ذراعيه مقهقهًا، ربت على كتفها بحنان أبوي، وقد شرد ذهنه في قراره بوقف الإنجاب حتى تنضج قليلًا، شاعرًا بالتسرع في إنجاب أحمد، هي طفلة تحتاج أن تصبح ناضجة قبل أن تكون أمًا، ظن أن ما مرت به في حياتها وهبط فوق رأسها من مصائب كفيل بأن ينضجها دهورًا، لكن للحقيقة كانت فترة ومرت مستعيدة طبيعتها الطفولية.

أحمد يعشقها، رغم نكافهما المستمر طيلة الوقت كأنها أخته لا أمه، لا يستطيع أحمد الاستغناء عنها، روحه معلقة بها. كثيرًا ما يسأل نفسه.. هل هناك ما هو أكثر أهمية في العلاقة بين الابن والأم عن التعلق؟

لكنه يخشى.. يخشى أن يفقد أحمد الواعظ والرادع في حياته، التوجيه القويم. نزل بصره يطالع عيونها المغمضة في استسلام وإحساس تام بالأمان، أيظلمها حين يمنعها من إنجاب طفل آخر؟.. أو يظلم ابنه في أحقية الحصول على أخوة يكونون سندًا له؟

هو طامع، يريدها ناضجة، ويعشقها طفلة. يرغب الإثنين فيها، ويشك أن في استطاعتها أن تكونهما معًا بشكل دائم، بالأصح.. في الوقت المناسب.

***

ابعدت كفيها عن عينيها، وقع نظرها على كوب العصير الضخم المرافق لعدة شطائر صنعها بنفسه من أجلها، ابتسمت له منزلة قدميها أرضًا تلتهم ما قدمه بنفس راضية.

ماجد بدران، ملاكها الحارس، هبة الله لها بعد طول عذاب، ليس ماديًا لكن نفسيًا وعقليًا، وقف جنبها كما لم تظن أنه قد يفعل؛ فوالدها كان سبب فراقهما، والفجوة الحادثة في علاقتهما، والتي ما يزالان يحاولان إتمام ردمها.

تعب والدها الشديد بسبب السن ثم علّاته المرضية جعله يحتاج عناية خاصة، لم تكبدها أموالًا؛ فثروة أبيها تكفيه سنوات، لكن العناية الشخصية هي الأهم، قلبها لم يعد يطاوعها على تركه يتنقل بين أيدي الممرضين والممرضات، سنوات غيابها عنه تقر ضميرها، وحبها لسندها الأوحد ورابط دمها الوحيد في الحياة.

عرض العمل والدراسة الإضافية لاكتساب خبرات الذي عُرِضَ على ماجد كان طوق النجاة، السفر إلى إيطاليا للدراسة والعمل من أجله، وتقديم رعاية طبية على أعلى مستوى لأبيها المعتل.

-ما ينفعش الإهمال دا يا كادي، مش معنى إنك عديتِ السابع يبقى تهلكي نفسك بالشكل دا.

لسانها الثقيل والذي أصبح تعافيه أقل بمرور الوقت، مكتفيًا بكلماتها القليلة؛ خجلًا من علة لسانها، رغم ترديده على أسماعها عدم إهتمامه: بابا.. أخاف.

ربت على كتفها محاولًا التخفيف عنها: مش بأمنعك تزوريه وتقعدي جنبه، بالعكس، لكن كمان بناتك ليهم حق فيكِ، والدك فـ غيبوبة، وأنتِ بتفضلي جنبه طول اليوم وهو مش حاسس بيكِ، الأولى تقعدي مع لينا وتريحي جسمك شوية عشان حلا اللي فـ الطريق.

ابتسمت رغم تعبها المتزايد وعيونها المتثاقلة في نعاس: بردو حلا؟

رفع سبابته في وجهها غامزًا: إحنا اتفاقنا كان واضح من البداية، البنات تسميتهم عليا والولاد عليكِ.. شدي أنتِ حيلك بس وجيبلنا الولد؛ عشان تسميه بمزاااج.

-لي-لي نامت؟

-من بدري، وزمانها هضمت الرز بلبن كمان.

فجأة نهض وحملها بثقلها الزائد متجهًا إلى الغرفة، غير عابئ بتزمرها من الوزن الثقيل الضار بظهره بعد يوم طويل من العمل ثم الدراسة إضافة إلى عناية مضاعفة بالصغيرة . استسلمت في النهاية عاقدة ذراعيها حول عنقه ورأسها يستند فوق قلبه تستمع لدقاته الصاخبة بحبها وحدها، كم تشكر جزيل صنعه وبقاءه معها بكل علاتها وثغرات شخصيتها.

***

غرفة العمليات الخلفية، بمعزل عن باقي المشفى في نية لتجديد قد لا يحدث حفاظًا على سرية ما يحدث داخلها من خرق للقوانين ودعس فوق الإنسانية. غطى الطبيب كل سنتيمتر به بقماش معقم خاص بالعلميات، طلت عينيه فقط منفوق الكمامة، نظراته مركزة فيما يفعله وإثنين من الممرضين يعاونونه في صمت وطاعة.

انتهى مبتسمًا من خلف كمامته لجائزته التي حصل عليه، ولن يأتي من يعاتبه أو يلومه،

فليثبتوا أنه فعل أمر غير شرعي بمريض لا أهل له، حتى وإن كان له.. حالته البدنية وملابسه لا تشي إلا بالفقر وقلة الحيلة، هذا إن ظل على قيد الحياة طويلًا ليعترض.
همس لعطية خارج الغرفة: خرجه من هنا، أنت عارف هتعمل إيه.

أشار إلى عينيه بالتتابع: ما تقلقش يا دكتور.. بس مش كنت خادتلك حاجه كمان، الراجل شكله أصلًا مش هيصحى تاني.

زجره بنظراته النارية: ما تدخلش فـ اللي مالكش فيه يا عطية، وبعدين إحنا مش جزارين، دي ناس محتاجه وبنساعدها.

كظم غيظه ووقف يراقب انصراف الطبيب بحثًا عن كوب قهوة ضخم وهاتف لنقل بشرى ما حصل عليه. أمر عطية زميله: خد أنت الكِلية وفص الكبد على التلاجة، عارف هتشيلهم إزاي مش كدا؟

-ما تقلقش، هو أنا ابن انهارده.

اتجهت عيونه إلى أحمد المسجي بلا حركة فوق سرير العمليات: كويس، وأنا هأخد الراجل دا أبعده عن هنا.

حمله فوق أكتافه كما شوال البطاطا، وخرج من الباب الخلفي متلفتًا حوله يتأكد من عدم رؤية أحد له، رغم لفه لجسد أحمد بملائات المشفى فبدى كأنه شوال بحق، سار به مسافة حتى وصل إلى سيارته النصف نقل يبتعد إلى منطقة هي هدفه الوحيد في مثل هذه الحالات، نائية، لا أحد يطرق خطاه قربها، أمان تام إن قدر الله لهذا الرجل حياة ولكنه يشك؛ فحالته الصحية منذ أتى المشفى مع حادث اصطدام الحافلة تنبئ بسوءها.

رماه بين الشجر المرتفع والكثيف، تلفت حوله بقلق رغم يقينه من عزلة المكان التامة، سحب الملاءات من حوله، كورها في كتلة ضخمة واتجه إلى سيارته يلقيها في الخلف قبل أن يصعد خلف المقود مبتعدًا، لا يجب أن يترك أي دليل خلفه، فالملاءات قد تثير الريبة إن عثر عليها أحد، سيتخلص منها في أقرب مكب نفايات بعيدًا عن المكانين، المشفى والرجل الملقى بين الأشجار.

تبين الخيط الأبيض من الأسود بالكاد، ارتفع تأوهه الغائب عن الوعي، هناك ما هو غريب فيه، لا يستطيع فتح عيونه رغم استماتته على ذلك، يده حلت دون إدراك قرب موضع خياطة الجرح من العملية فزاد تألمه بهمهمات خفيضة، جبينه متعرق من الألم واضطراب حرارته، عملية كالتي صارت تحتاج عناية مركزة وراحة تامة لا إلقاء على قارعة الطريق.

تراخى جسده رويدًا وانخفضت سرعة دقات قلبه بشكل ملحوظ، صار تنفسه سطحيًا لا يشبع جوع رئتيه إلى الهواء، سكن فجأة مسلمًا نفسه لغيبوبة أكثر رحمة من تأوهات لا تخفف وجعه، غيبوبة مهما طالت واستمرت لن تعتقه من الموت، موتًا لنقص التغذية، موتًا لقلة الهواء الداخل مع أنفاسه، موتًا لسوء المكان وإهماله.

ماتت إنسانيته يومًا رغم التوسلات والبكاء الذي أغرق حذاءه، قتل داخله الخير وأمات ضميرًا وهبه الله إياه إشفاقًا عليه وعلى من حوله، والآن حان دور القصاص، فدائن تدان مهما استطالت الأيام ومرت الليالي، نُزعت الإنسانية والرحمة من قلوب من تعاملوا معه وقت ضعفه وقلة حيلته. تكرر الوضع لكن مع انقلاب؛ أصبح هو المستجدي بصمته وضعفه، وصار غيره معدوم الرحمة.

للأسف.. لم يعد هناك فرصة للندم وتوسل السماح، فقد وعيه إلا من ألم ما حل به، سلب فرصة توسل السماح الأخير، فرصة أقل من فرعون وقت أطبق عليه جانبي البحر، فلا صرخة استغاثة أطلقها، ولا إعلان غير مقبول بالرحمة وإدراك الخطأ بعد فوات الأوان استطاع التصريح به. وتظل نهاية كل طا غ في الأرض جبارٌ على العباد تختلف في شناعتها عن سابقه، الثابت الوحيد أن الله لا يضيع حق عباده، مقتصًا منهم لبعض، وإن كاني رجئ البعض

لحساب كامل يوم القيامة دون تخفيف ببعض مما قد يراه في الدنيا، ستظل الحقيقة الثابتة، لا فداء للظالمين من نيران الجحيم.

***

راقب أمومتها الحنون على الطفلة الغريبة، لا تمت لها بأي رابط سوى الإنسانية، وأنها ابنة بلا أم فيما هي أم بلا ابنة. لمستها الساحرة فوق جبين الصغيرة ترفع ما سال من

خصلاتها الناعمة كي لا يقلق نومها، عيونها تتأملها بحب وقلبها يتمنى سرًا لو كانت ابنتها بحق.

نهضت واقفة على ساقيها رويدًا وبدأت تتراجع بظهرها ناحية الباب، غير شاعرة بالأعين المحبة التي تراقبها سابحة في بحار الأمنيات التي هجرتها الشطآن. اصطدمت بجسده، فأسرعت برفع كفها أمام فمها تكتم شهقة الفزع، خرج وهي في إثره بينما عيونها لا تغادر وجه الصغيرة ببراءته الواضحة على الإضاءة الجانبية خشية الفزع في دهاليز الظلام.

تركت الباب شبه مفتوح؛ تربصًا لاستيقاظ البنت أو نداء ما، بالأخص في منزل غريب وجديد عليها. لم يتعجلها، انتظرها في غرفتهما بأناة، يعلم قلبها الفائض بأمومة لا تجد لها متنفسًا إلا في أطفالها الأيتام، الملجأ الذي عج بالأطفال ويتطلب توسيعات جديدة كي يشمل جميع من فيه براحة دون تكدسات أو جور على أحقية كل واحد منهم في مساحة خاصة.

ربت جواره يدعوها لمشاركته الجلسة على الأريكة، فهمت أنه يرغب في الحديث لا النوم، تراجعت عن الفراش واقتربت منه مبتسمة بحنان، ولمعة الفرحة تشع من عيونها، كما المعتاد.. فالأطفال دائمًا أسباب فرحتها الكبر، تسائل شيطانه في أذنه عن كيفية شعورها إن لم تحرم من الأطفال والأمومة؟.. أكانت لتظل صاحبة هذا الحنان الدافق؟

استعاذ سرًا وقابل ابتسامتها بأخرى مستمعًا لإجابتها على سؤاله التقليدي: الحمدلله أحسن كتير.. ماكنتش هأرتاح يا فادي لو ما فضلتش تحت عيني اليومين الجايين دول، قلبي هيفضل قلقان عليها.

التقط كفها مقبلًا راحته: بعد الشر عن قلبك.

تابعت رغم ابتسامتها المحبة، التي تخصه وحده ويستطيع التقاطها من على بعد: بيقولوا الجو فيه ميكروب هو سبب تعب الأطفال اليومين دول، ربنا يستر على بقية الأطفال.

رفع حاجبيه: اتمنى ما يكونش كلامك تمهيد إنك تسحبِ صلاحياتي من الأوضة عشان تحوليها لأوضة استضافة لأطفال الملجأ.

قطبت مدركة مقصده، هي متذكرة جدالهما في تجهيز الغرفة الأخرى لتناسب الأطفال، مع تأكدها من أنهما لن يرزقا بأطفال، على الأقل من رحمها المعطل. فعلتها بعد ليلة مثل هذه أمضتها جوار طفلة ذات عامين تمرضها طوال الليل بعد إصابتها بنزلة مرضية شديدة، وسرير الضيوف كان من الإتساع بحيث أوشكت الطفلة على السقوط من فوقه عدة مرات متقلبة، كلما غفلت عنها، والوسائد بالكاد أدت الغرض حتى مرت الأزمة على خير، لكن لفتت انتباهها لتغير الغرفة بديكور وأثاث يلائم أعمار مختلفة وأجناس تتراوح بين ذكر وأنثى؛ لتصبح ملجأ كل طفل يصاب بمرض يحتاج على إثره عناية وإهتمام مركزين.

-ما تتكلمش عليهم كأنهم أطفال شوارع لو سمحت يا فادي..

ضايقه أنه سبب لها الضيق، فهو يعلم حساسيتها المفرطة تجاه أولئك الأطفال. قبلّ كفها مجددًا: آسف يا قلب الغُرّيبة.

ابتسمت للقبها المحبب والأثير لقلبها، لقب يصف فيه حلاوتها الممزوجة بالهشاشة وسرعة الذوبان كما حلوى الغُرّيبة.

تناولت أصابعه بين كفيها الصغيرين بالنسبة له، تتلاعب فيهم بشرود: كنت عايزه أخد رأيك فـ موضوع كدا.

انتظر بصبر وعيونه تحثها على الطلب وكذلك التيقن من الإجابة ما دامت في استطاعته، تنحنحت: حياه بتفكر تسافر مع آية أخت جوزها وسلمى.. وعرضت عليا أروح معاهم.

رفعت نظراتها المترجية تحدق بوجهه: إيه رأيك؟

وحده، وحده يعلم بالفحوصات الدورية التي يصر عليها الطبيب كل ستة أشهر، استعدادًا لأي انتكاسة أو عودة للمرض بصورة مباغتة، محاولًا تفادي الاكتشاف المتأخر. كلما

اقترب وقتها اضطربت نفسيتها وبان القلق عليها، فيهزل جسدها وتقل ساعات نومها، تدفن نفسها بين أحضان الأولاد وشغبهم المتواصل، وحل مشاكلهم ذات اللا نهاية.

إن كان السفر سيهدئ قلقها ويبث في جسدها وروحها الاسترخاء؛ فقلبه لن يطاوعه الرفض.

***

جلسة رجالية بحتة، خلت من العنصر النسائي بلمساته؛ فلا كوب عصير ولا طبق فاكهة، والحلوى الشرقية موضوعة داخل علبة الحفظ على أحد أرفف الثلاجة في إنتظار الساعات الأخيرة من الليل لكي يتذكرها أحدهم.

ياسين جالس في زاوية الأريكة يتابع سوق الأعمال والتجارة عبر شاشة آي-باده، ونظاراته ثابتة فوق أنفه بجدارة رغم طأطأة عنقه، غير عابئ بالآخر، كثير الحركة في الركن الآخر من الأريكة، بين وضع ساق فوق الآخر تارة، وسحب جسده ليجلس على أطراف الأريكة معلقًا في الهواء أقرب منه للجلوس فوقها، حركة زائدة عن الحد، ترفع مؤشرات التوتر لدى المجاور له لكن في مقعد منفصل جاعلة إياه يصيح.

-كفايه فرك يا مسعد، ركبتلي العصبي يا أخي!

دعك كفيه سوية ناظرًا إلى فادي بحنق وغضب، يدفع نظارته المنزلقة إلى مكانها: ما أنت حاطط إيدك فـ مايه باردة.

رفع ياسين بصره مع حاجبيه مطالعًا المتحدث: وهو فارق عنك فـ إيه؟.. مراته سافرت زي مراتك.

ترك حمزه النافذة التي يقف جوارها، يطالع السماء ويتنشق نسمات الهواء، يجلي الضباب عن فكره ويحركه من جموده، وضع يده فوق كتف صديقه: مسعد.. أما أنت مش قد سفرها كنت وافقت من الأول ليه؟

غيّر فادي من وضعية جلوسه ساخرًا: على أساس حالنا أحسن من حاله أوي.

قبض على رأسه، يجذب شعره من منابته، قائلًا بعصبية: استغلت فرصة إني متضايق من كلام قالتهولي وقالت إنها عايزه تسافر تغير جو؛ فـ حبيت أوريها إن مش فارق معايا اللي بتعمله، فـ قولتلها تروح مطرح ما تروح.

دار ثلاثة أزواج من العيون ناحيته بنفس النظرة وارتفاع الحواجب، هتف منتفضًا حين بادره حمزه: إيه شغل العيال دا؟!

-بالله عليك ما ناقصك يا حمزه، فيا اللي مكفيني.

همّ بترك الجلسة متجهًا صوب إحدى الغرف أو حتى الباب مغادرًا منزل شقيق زوجته، تشبث حمزه بذراعه يجذبه إلى أقرب مقعد يجلسه رغمًا عنه: اتهد هنا بقى، وبدل ما تتشعنن علينا، راجع حياتك مع مراتك وفكر إيه اللي مبوظها ويتصلح إزاي.

وضع ياسين آي-باده فوق الطاولة، استند بمرفقيه على ركبتيه محدقًا بزوج شقيقته بتركيز، في الفترة الأخيرة اكتفى بتجاهله، بعد مطالبة آية المصرة على عدم تدخله، فلم يجد في طفولية زوجها شيئًا يستنفر من أجله، لكن الآن يشعر ناحيته بالشفقة، فكأنه طفل تحمل مسئولية أكبر من سنه واحتماله.

-دايمًا متحفزة لي، مش قادرة تتحمل مني كلمة، ولا حتى من أهلي.. عصبيتها زادت.

فارت دماء ياسين فهاجمه ببرود ظاهر لكن يحمل نيرانًا تكاد تحرقه حيثما يجلس: أنت إنسان أناني، بتفكر فـ نفسك وبس، هي مش متحملاك ولا متحملة أهلك مش كدا؟؟.. أحب أقولك إنك مش قادر تتحمل مشكلة مؤقتة بتواجهكم.

نظر إليه مسعد مبهوتًا، استرسل الآخر مطلقًا العنان لما يضمره منذ طلبت شقيقته إليه الصمت: الضغوط النفسية عليها كتير، منك ومن أهلك أكتر حاجه، بدل ما تخفف عنها اللي بتشوفه منهم بتزوده، مش بأتهمها بالصلاح والتنزه عن الأخطاء.. بس خطأها عرفته وحاولت تصلحه.. لما عرفت خطورة الحركة على حملها وجربت بنفسها خطر الإجهاض، المرة اللي بعدها حرصت وخافت، لكن جنابك عملت إيه؟؟.. خليتها بكل بساطة تنفعل!، وأنت عارف ضرر دا على الجنين، وفـ الآخر.. مش قدام عيلتك وقدامنا بس اللي شالت الغلط، لا دا أنت كمان من بجاحتك صدقت وشيلتها معانا.

ازدرد ريقه بصعوبة، وسؤال يدور في رأسه.. كيف عرف؟، أجابه ياسين ساخرًا: ما قالتش حاجه.. ومش محتاجه تقول، لإن العشرة بتفهم أكتر من أي كلام.

نظراتهما المتجنبة لبعضها في المستشفى عقب الإجهاض، الإنفعال الزائد في التعامل رغم محاولة إخفاء ذلك بكل فشل، سماعه حديثها مع ناهد ترغب في العودة معها وترك منزل الزوجية إلى أجل غير مسمى. لم تفعل لأن ناهد اقنعتها وردعتها بالعقل والحنان، متحاملة فوق عاطفتها المرهفة، وحبها الغبي للأحمق الماثل أمامه.. كل ذلك لم يفته، ولم يكن ليتغاضى عنه دون عقاب إلا بطلب من صاحبة الشأن.

يذكره وضع شقيقته إلى حد ما بسلمى، تحامل عليها وتجاهل حبها، تزايدت بينهما المشاكل دون إتاحته فرصة لبناء حياة زوجية سعيدة مستقرة، خان أمانة والدها الذي سلمه إياها ثقة في حرصه عليها أشد الحرص. تدور الأيام لترد الصاع بصاع مثله، والكف بشبيهه.

تنحنح فادي بحرج لكنه تجرأ على الحديث وعيونه تطالع مسعد: بصراحة.. أنت السبب فـ أي رد فعل ممكن توجهه ناحيتك.

مصدومًا حدق بفادي، حتى الغريب يلومه!. أردف: لو كانت لاقت عندك الإحتواء والأمان ما كانتش اتصرفت بعصبية زي ما بتقول.

ابتسم بتعب متابعًا: اسأل واحد عارف يعني إيه إن ربنا مش رايد يكون له طفل من الانسانة الوحيدة اللي عشقها قلبه.. على الأقل أنتوا قدامكم فرصة، أمل، باب جديد تدقوه.

التفت مسعد إلى صديقه في الجهة الآخرى الواقف جواره ينشده الدعم ضد حلف الأعداء، لكن حمزه لم يستطع أن يغدر بحق صداقتهما المتينة، شد على كتفه: معاهم حق.. الحمل مش مسئوليتها لوحدها، أنت مش أب عشان تبقى مسئول عن مصاريف وزعيق بس!، أب وأم يعني مسئولية متوزعة بينكوا بالكامل، مش هأقول بالنص لإننا مش بنقسم رغيف عيش.. دا بني آدم، روح وعقل، وقت شدتك هي تلين، ووقت لينك هي تشد.. ميزان، ولازم رمانته تكون واقفة فـ النص بالظبط، على قد ما تقدروا.

شرد، وكلمات كل واحد فيهم تتداخل مع كلمات الآخرى، يرى الحديث المتفرق جوار بعضه، مضيفًا له ذكريات مواقفة فائتة، الحياة منذ تزوجا، بل منذ عرفها، قبل الحمل الأول وبعده، ثم الثاني، ومن هنا ابتعدت، المسافات بينهما تزايدت حتى شكّ أنها لن تعاود التقلص من جديد.

صمتوا يحترمون وقفته الفردية مع نفسه، تأخرت لكن أفضل من عدم مجيئها، عليه إعادة حساباته، عذاب له وحرام عليه الإنقلاب الحادث في حياته، بدل الاستقرار يتقلب على جمر من نار، جمر يضمر فيه النار كل يوم بيديه، ثم يعود للشكوى منه في الليل.

اخرج رنين هاتف ياسين الجميع من شرودهم، وقف مجيبًا في عجلة: أيوه يا سلمى..

توقف البقية عن متابعة حديثه بلهفة بعدما تعالى رنين هاتف كل منهم، زوجته تطمأنه سلامة الوصول، ومن لها أولاد تسأل عن تفاصيل يومهم، تتأكد أن الاستقرار ما زال يرفرف فوق أعتاب منزلها كأنها حاضرة، دون فوضى أو إرتباك.

راقبه مسعد منكسرًا شاردًا، فؤاده يعتب عليها عدم اتصالها، وعقله يتزمر منه متأففًا؛ ألم يكن هو من أراد إثبات أن لا قيمة لها في حياته، وجودها كالغياب؟

انتفض متلهفًا، عيونه تبرق مع بريق إضاءة هاتفه باسم دلالها، أجاب ينطقه كأنه يستنجد بما قرأه يحلّ رباط لسانه: يويا.

غرّد قلبها، وارتسمت بسمة صغيرة في زوايا ثغرها، أغمضت عينيها تعيد تكرار اسم تحببه لها مع رنته المشتاقة العاتبة، أدمعت عينيها؛ منذ متى توقف عن نداءها بأي لفظ تحببي؟.. بل كثيرًا ما لاحظت تجنبه نطق اسمها عامدًا، كأنما عقابه لها بنبذها من قائمة المدلالات لديه، غير مبال بحريق قلبها كلما دلل أمه وشقيقته الغالية أمامها، حتى خالته لم يتوارع عن فعل ذلك معها، كلهن إلاها.. لو يعلم ما تفعله تلك الـ(إلا) فيها وبهما.

مرت المكالمة في إطمئنان روتيني، لن تقدم على خطوة إضافية، لقد أتت على نفسها بما يكفي حين خابرته، خصوصًا بعدما أعلنها صراحة أنها لا تهمه. محاولته إطالة الحديث بمواضيع

بلهاء وسعت بسمتها لكنها حافظت على موقفها؛ فليتعب قليلًا علّه يقدر.. فما يسهل نيله ما أيسر رميه!

***

فرحة بإنجاز الطبيب المثمر مع ابنتها، ميّ عادت طبيعية تمامًا، لا تخلو حياتها من فترات اكتئاب متباعدة لا مفر منها، إلا أن التحسن الواضح في نفسيتها جعل تحمل تلك الفترات أيسر، وجهها ينير بضحكات مرحة، جلسات العلاج الجماعية، الأدوية المنتظمة وتوقفها التدريجي قضى على أي نتائج غير مستحبة.

عشرتها لأختها هدى ساهمت كثيرًا في هذا التحسن، فمع الأيام تنامى حب الأختين لبعضهما، فزاد تقبل ميّ لامرأة أخرى بحياة أبيها، حبًا في أختها الصغرى، صاحبة الدلال الأكبر من جميع من حولها، دون غيرة من الكبرى، مما طمأن حنان لإتزان مشاعر ونفسية صغيرتها، بيضاء من داخلها كالثلج، قلبها ناصع دون تلوث بذرة حقد أو حسد.

ملست شعرها الناعم قبل أن تقبل جبينها في حنان كاسمها، تلهث بالدعاء لها بالخير والسعادة، شاكرة عودتها إلى أحضانها بعد طول فراق.

غادروا المصعد متجهين على باب شقتهم، التقوا بجارهم الطبيب بدر ملقين عليه التحية قبل الولوج إلى المنزل، تركتها حنان تتجه إلى غرفتها وذهبت في طريقها إلى المطبخ تحضيرًا للغداء سابق الإعداد.

نزعت حذاءها واتجهت إلى الحاسوب المحمول متربعة فوق فراشها المغطى بمفرش مختلف الألوان يتناسب مع لمسات الألوان المشاعة في أنحاء الغرفة، والكاسرة لرتابة اللون الأبيض

للحائط، نقرت فوق لوحة المفاتيح وشرعت في الحديث مع إحدى رفيقاتها حتى برز من أقصى اليمين السفلي تحية من الأسكايب يجاورها وجه تعبيري يخرج لسانه بسخافة.

اتمت رسالتها لصديقتها على الفيس بوك ثم انطلقت إلى الاسكايب تجيب السمج بسماجة احترفتها على يديه: عايز إيه يا سارينة الإسعاف؟ يا صداع مالهوش علاج؟!

ارسل سطرين كاملين من وجه تعبيري يخرج دموعه من شدة الضحك قبل أن يرد خاتمًا كلمته بالوجه المخرج للسانه كأنه نقطة نهاية السطر بالنسبة إليه: قولت أرمي السلام.. ما ينفعش؟

-لا ما ينفعش.

ختمتها كما يختمها.. وجه مخرجًا للسانه لكن في حالتها تود لو أضافت عليه الغيظ، فقررت الإكتفاء بيد لاكمة إضافية، علّ مقصدها يكون أسرع في الوصول.

أضافت سريعًا: لولا حياه و حبي ليها كنت قطعت علاقتي بيك من زمان.

ابتسم بخبث ويده تنقر على أزرار هاتفه الحديث يبغي استفزازها لأقصى درجة: أحب أقولك إن حياه نفسها قطعت علاقتها بيا من زمان، أهي فرصتك.. أقطعيها أنتِ كمان وصدقيني هي هتفرح بيكِ أوي.

كزت على أسنانها وقبضتها تتلوى في غيظ، بسهولة يطالبها بعدم الكلام معه وهو من يبدأ الأحاديث بينهما دائمًا متغذيًا على استنفار أعصابها. أنقذها من إجابة لم تستطع الوصول إليها دخول الطرف الثالث والأخير في المحادثة الجماعية، يحرر عقلها من محاولة يائسة في البحث عن رد ملائم، تفشل كل مرة في الوصول إليه.

-يا ابني خفّ شوية، هي مش قد ظرافتك دي كلها يا أنس باشا.

أجابه الأخر بحنق، متأففًا من دخوله في لحظة حاسمة، سعى خلفها باستفزازه: اسمي أستاذ أنس.. المحامي، باشا دي راحت عليها من زمان يا قديم.

استغلت الفرصة معلقة بسعادة لإمساك نقطة ضعفه المعتادة: تصدق صح، محامي لايقه عليك جدًا.. يا «متر»!.. مع إنك كلك على بعضك ما تكملش المتر حتى.

نجحت نجاحًا باهرًا، وكلماته المثارة تاليًا تثبت صواب ضربتها: على فكرة بقى، طولي 160سم الدور والباقي على اللي ما عداش الـ154سم.. المتر اللي مش عاجبك دا بيتعمله ألف حساب.. ما هو مش كل حاجه بالسنتي، وإلا النملة ما كانتش خلت جتة زي فارس باشا يتنطت حوالين نفسه زي الأرجوز.

ظهر ردها سريعًا تبعه تعليق فارس المستفز فيما يتمدد بأريحية فوق الأريكة بمنزله المشترك مع أنس في بلاد الغربة إتمامًا لتعليمهما: القصر فـ البنات جمال، إنما فـ الرجاله.. كمل أنت بقى.

فارس: وبعدين بقى؟؟؟.. مش قولت باشا دي قديمة ولا إيه يا متر؟

أجابته ميّ عوضًا عن أنس: هع هع هع.. دا مافيش أقدم من المتر ذات نفسه.

أتخذاه ندرة بينهما يتضاحكان عليها، يتابعهما وهناك ما يلجمه لأول مرة في الرد عليهما، تركهما يتحدثان عنه فاتحًا صفحة جديدة للدردشة تضع صاحبتها صورة لها بينما تتعلق بغصن شجرة مدلى، ابتسم لمزاحها الدائم في التحية: عامله إيه يا بوب؟

-هبة، هبة يا أنس.. إحنا كبرنا على الكلام دا خلاص.

-كبرتي إيه بس بالمراجيح اللي بتروحيها كل أسبوع دي!

-مالكش فيه يا نوسة.

أخرجت لسانها تغيظه، فلم يتمالك ضحكاته بينما يحاول إبداء الغيظ في كتابته، عالماً بأنها لن تصدق غضبه؛ فتواصلهما استمر سنوات طوال، لم يوقفها ازدياد المسافات تباعدًا، وعلى عكس ما نبهته حياه في أن علاقته بهذه الفتاة وأمها ستدفنها الأيام.

-نوسة إيه بس؟!، أنتِ بتكلمي بنت أخوكِ!

انتظر ردها بصبر يطالع تذبذب النقاط جانبًا إشارة إلى كتابتها لشيء ما: حقيقي أنت صديق معوضني عن الأخوة وإحساس الخالة والعمة وكل حاجه.

-عدي الجمايل بس.

وختم رده بوجهه التعبيري الأثير، منهمكًا في محادثة معها حتى ظهر في قمة الشاشة نداء ممطوط الأحرف من ميّ تستدعيه، ترك هبة تكمل كتابة ردها عائدًا إلى المحادثة الجماعية الأخرى رادًا بتأفف عبرّ عنه برموز تعبيرية: يا نعم؟!

سألته: أنت نمت ولا إيه؟

عقد جبينه مركزًا في كتابته لإجابة يظهر فيها إنزعاجه: لا أبدًا، قولت أسيبكوا تتمقلصوا براحتكم.. ما جنابكم عاملين عليا رباطية.

-فارس قفل عشان وراه شغل، ساعة الغدا بتاعته خلصت.. أنت زعلت؟

سريعًا ما تبخرت عقدة جبينه وارتسمت بسمة على وجهه، ترك المحادثة معها واتجه إلى الأخرى يرد على دردشتها قبل أن يعود لميّ بحركة مدروسة، عالماً بقلة صبر الأخيرة حينما يتعلق بضيق أحدهم من فعلة ارتكبتها أو تركه لها دون رد.

-أنس!!!!

هتافها ال انق وغيظها زاد بسمته وسعًا، كتب أخيرًا: أنتِ شايفه حاجه تزعل؟

-مش مهم أنا شايفه إيه.. المهم أنت!

حقيقة، لكنه رأها من زاوية أخرى، برقت عيونه في رد مرسلًا غصن أخضر الشبيه بغصن الزيتون دلالة على السلام والصلح: وهو أنا أقدر أزعل منك يا ميمي بردو؟

استعاض عن الوجه صاحب اللسان الخارج بوجه غامز، توردت وجنتيها بخجل طبيعي في جيناتها، ابتسمت لكن ليس لأي مما يرمي إليه أنس، فهو بالنسبة لها كفارس تمامًا، صديق وأخ تستعيض بدعمهم عن وحدتها إلا من أخت صارت تراها أقل بعدما فصلتهم الدراسة.

-سلام دلوقتي عشان ماما بتناديني..

ختمت الشات بكف تلوح بالوداع ثم انصرفت تاركة له أفكاره الشاردة، لكن سرعان ما تناساها عائدًا لصديقته الآخرى مكملًا الحديث لساعة إضافية.

***

المحيط الهندي بصفاء مياهه المحيطة بجزر «ذِيبة المَهل»، شفافية مذهلة، خاطفة الأنفاس مبعثرة العقول تفكرًا في بهاء الالقة الربانية من حولهم. الحرارة المناسبة رغم ارتفاع الرطوبة قليلًا زاد من حبهم للمكان، من لا يحب تلك اللوحة الربانية والنطفة اليسيرة من الجنان؟

تمددت نجلاء فوق الكرسي المفرود على هيئة سرير، وضعت نظاراتها الشمسية وأعادت ضبط قبعتها الخوصية بشريط ملون، استرخت تراقب تلهي آية وحياه في الماء بطفولية ومرح الصغار، ابتسمت رغمًا عنها بضباب حزن حال تذكرها الميتم والأطفال، تركتهم بعزيمة قوية واتخذت أسبوعين فرارًا من جو مصر الحار، والآن.. بعد أربعة أيام فحسب اشتاقت العودة بل ووصل بها

الأمر أحايين أخرى للحسرة على مغادرتها البلاد ولو لساعة.

ربتت سلمى باسمة على كتف نجلاء الشاردة تعيدها لواقع من الغربة هربت منه إلى الخيال، حثتها على تناول عصيرها الطازج بالفواكه الخاصة بالجزيرة: سرحتِ فـ إيه؟

سألتها بينما تلتقط كأسها وترتخي في مقعدها جالسة تذوقه باستمتاع وعيونها تضحك على أطفال لم يتركوهم بصحبة الآباء في مصر. رفعت كتفيها دلالة على عدم الأهمية لكن الأخرى فهمت مقصدها، تعذرها لإنها مثلها اشتاقت لأطفالها قبل كل شيء.

انتبهتا على خروج آية من المسبح الخاص بالمنزل المستأجر لمدة أسبوعين، أسرعت تلتقط منشفتها تجفف جسدها فيما اقتربت حياه من سور المسبح بالقرب من البقية: تحبوا تنزلوا الشط دلوقتي ولا إيه؟

قهقهت سلمى: يا بنتي أنتِ من ساعة ما صيتِ ما خرجتيش من المايه.. ما شبعتيش؟

أخرجت لسانها مغيظة وأجابت: المايه تحفة، وبعدين على الشط مش هأنزل، ارتاحتي؟

استبقتهم نجلاء في النهوض ولحقها الجميع في موافقة على الخروج إلى الشاطئ.
وخلال نصف ساعة كن يسرن جنبًا إلى جنب على الرمال الذهبية، يطالعهن البحر الرائق شديد النظافة يحثهن على ملامسته بأقدامهن العارية في حياء وبهجة حقيقية. صاحت آية متسائلة: إيه اللي هناك دا؟

أجابتها حياه متقدمة خطواتهن الجماعية: تعالوا نتفرج.. دا شكله فرح!

رددن خلفها متبادلين النظرات في غباء: فرح؟!

بعدما استقرت خطواتهن في مكان يسمح لهن المتابعة دون تطفل أو إزعاج بدأت حياه تشرح لهن الموقف أمامهن: الفرح فـ الجزر هنا مختلف، له تقاليد وأنظمة خاصة.. العرسان بيجوا فـ موكب معاهم أربع مرافقين، يوصلوهم لحد مكان العقد ويستقبلهم الطبالين وفيه باقة مخصوصة للعروسة لازم تبقى مسكاها.

أشارت للمكان من حولهم المحاط بالأشجار: مكان حفلة الجواز بيكون محاط بالنباتات عمومًا وبأشجار جوز الهند خصوصًا؛ لإنه بيرمز عندهم للحب الأبدي.

ارتفعت دقات الطبول على أنغام بودو-بيرو التقليدية كجزء آخر من العادات، استمعن في استمتاع ومطالعة فضولية لشيء جديد عليهن، اقترب منهن أحد المضيفين وقدم لهن ثمرة جوز هند ممتلئة بشراب سائل جوز الهند مع ابتسامة لطيفة.

شربن باستمتاع حتى انسحب العروسان تجاه مرسى القوارب للقيام برحلة منفردين كما تتطلب الطقوس كذلك.

أكملن السير فوق الرمال مع ميول الشمس جهة الغروب، تتابع حياه إخبارهم بقية التفاصيل: وأما يرجعوا هيحددوا الطريقة اللي يحبوها عشان يكملوا الأمسية، وبكره هياخدوا جلسة علاج طبيعي.

تنهدت آية بحالمية: يا سلاااام أما جزر المالديف دي طلعت جنة بصحيح، مش صور بس.

نهرتها حياه حانقة: قولتلك اسمها «ذِيبة المَهل»!، مش المالديف.. المالديف دا اسم محرف من الاسم الأصلي؛ عشان الأجانب ما بيعرفوش ينطقوه!

إلتوت شفتي نجلاء: إذا كنت أنا نفسي مش عارفه أنطقه!

علقت سلمى مغيرة الموضوع: أحلى حاجه إنهم مسلمين، وعندهم الإحتشام أمر لا مساس فيه، خصوصًا فـ العاصمة، ومنع أي لبس غير محتشم، الواحد كدا يحس بالراحة.. مش كائن فضائي نزل فـ أعماق الغابات هههههه.

وافقتها حياه: عندهم مادة في القانون تمنع تطبيق أي قانون بيخالف المبادئ والشريعة الإسلامية، دا غير إنهم مش بيعتبروا غير المسلمين مواطنين..

آية مستغربة: بس دي عنصرية!

رفعت كتفيها مجيبة: يمكن، بس بريطانيا حكمتهم 68 سنة، لازم يحافظوا على هويتهم واستقلاليتهم واعتقد إن دي طريقة من الطرق.

-عايزه أمشي تحت المايه.. بليز.

ربتت حياه على كتفها قائلة بهدوء جدي شديد: حاضر يا حبيبتي، هنمشي كلنا تحت المايه بكره بس لو سمعتِ الكلام وشربتِ اللبن قبل ما تنامي.

ابعدتها آية مغتاظة: أوعي يا رخمة.

ضحكت عليهما سلمى معلقة: دا أنتِ ما بتعمليش كدا مع أحمد يا حياه!

غمزتها: عشان بيشربه بالشيكولاته ولازم يكون دااافي، غير كدا لا، وأنا ما عنديش غير مرارة واحدة فاضطر أعملهوه وأريح دماغي.

ابتسمت نجلاء لذكر ابن أخيها الوحيد: حبيب عمته، تصدقي وحشني.

نظرت لها بلوم مغتاظ: وأنتِ مين مش بيوحشك يا نجلاء ياختي؟

شرعت سلمى بجذبهم متثائبة: يلا بقى أنا هأموت وأنام.. مش عارفه طلعتولنا بالسير تحت الماء دي منين.

سارت حياه مقتربات من منزلهن المستأجر: إني أغرق أغرق أغرق.

-تحت الماااااااء.

شهقت بفزع من الصوت الغريب الذي صاح، نظرت صوب الصوت، صاحت بسعادة ثم قفزت تتعلق بعنق زوجها، تخفي وجهها في ثنايات عنقه كقطة تتعرف على من يخصها بالرائحة: حمزه!

اقترب بقية الرجال من زوجاتهم، وقفت آية متخصرة أمام مسعد بأعينه المتهربة من مقابلة نظراتها المضيئة بشرارة حنق: مش كان اتفاقنا إني أروح لوحدي؟

مسح على شعره حتى وصل إلى عنقه حيث استطالت أطرافه ملامسة ياقة قميصه الصيفي، تلجلج أمام لهجتها المتشددة: أصل..

لفت ذراعيها حول خصره واضعة رأسها فوق صدره، تتنهد كل المشكلات التي عكرت صفو حياتهم مؤخرًا وصنعت بينهما فجوة خشيت كثيرًا أن تتسع ولا ترتدم: مبسوطة أوي إنك جيت.

رفع حاجبيه متجمدًا في مكانه، فآخر ما توقعه كردة فعل على رؤيته لم يقترب قدر أنملة من هذا الإحتضان والشوق المحمل في نبرة صوتها، شدها إليه مبتسمًا فيما يلثم قمة رأسها.

مشبكة أصابعها في أصابع زوجها سألتهم جميعًا مستفسرة: سبتوا الولاد فين؟

أجابها ياسين عوضًا عن البقية: كان صعب نجيبهم معانا، فسيبناهم عند جداتهم.

صاحت حياه بفرح: كويس إنك جيت.. كدا نروح بكره نمشي سوا تحت المايه!

زمجر مسعد بطفولية متأسفة: بس أنا كنت عايز أركب الموزة.

التقطت آية ذقنه النابتة بعشوائية بين إصبعيها، تهزه في تدليل: دلوقتي أحطلك موزة فـ البسين وتركبيها برحتك يا كميلة.

انفجر الجميع ضاحكين، فيما نظر لهم زوجها بحنق وقد ضاقت أعينه في غيظ لكنه صمت؛ كيف يلومهم وهو نفسه فشل في إدعاء الإنزعاج لأكثر من لحظات قليلة قبل أن تنطلق ضحكته مجلجلة أكثر من أي واحد فيهم.

تم بحمدالله

13:30

24 يناير 2018